

الجزء الأول

المدينة على مر العصور

أصلها وتطورها ومستقبلها

تأليف: لويس ممفورد

إشراف ومراجعة وتقديم: إبراهيم نصحى

تصدير: حسين نصّار

ميراث الترجمة

2682

المدينة على مر العصور

أصلها وتطورها ومستقبلها

(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2682
- المدينة على مر العصور: أصلها وتطورها ومستقبلها (الجزء الأول)
- لويس ممفورد
- إبراهيم نصحى
- حسين نصار
- 2016

هذه ترجمة كتاب:

The City in History:
Its Origins, Its Transformations, and its Prospects.
By: Lewis Mumford

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

المدينة على مر العصور

أصلها وتطورها ومستقبلها

(الجزء الأول)

تأليف: لويس ممفورد
إشراف ومراجعة وتقديم: إبراهيم نصحي
تصدير: حسين نصّار



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ممفورد ، لويس ؛ ١٨٩٥
المدينة على مر العصور : أصلها وتطورها ومستقبلها / تأليف
لويس ممفورد ؛ اشراف ومراجعة وتقديم : إبراهيم نصحي ؛
تصدير حسين نصار . (جزء أول)
القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٦ .
٤٧٦ صفحة ؛ ٢٤ سم
١ - حضارة ٢ - الاجتماع الحضرى ، علم
(أ) نصحي ، إبراهيم (مشرف ومراجع ومقدم)
(ب) نصار ، حسين (مصدر)
(ج) العنوان : ٣٠١,٢

رقم الإيداع ٤٧٣٨ / ٢٠١٦
الترقيم الدولى 978-977-92-0584-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقديم

حسين نصار

يكشف هذا الكتاب- كتاب المدينة على مر العصور- من تأليف: لويس ممفورد، وترجمة د. إبراهيم نصحي - يكشف ما كان يضطلع به المشرفون الأوائل على مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر من أعباء من أجل الوصول إلى كتاب يرون أنه جدير بالترجمة إلى اللغة العربية.

فقد كانوا يفتتحون جهودهم:

- بوضع تصوير مبدئي نظرى للكتاب الذى يريدون العثور عليه وفحص صلاحيته للقارئ العربى.

- وتصوير الظروف والعوامل التى تدعو إلى هذه الترجمة .

- فإذا ما اهتدوا إلى كتاب معين، فحصوا مدى وفائه بتصورهم وعواملهم وأهدافهم.

- واستشارة أصحاب الكتاب فى لغته الأصلية، وما أثاره من كتابات حوله مقنطة أو عائبة.

- وعرضه على المراكز العلمية المصرية، التى اشتركت فى الدعوة إلى اختياره وترجمته.

- وبعد أن تتم كل هذه الدراسات، كانوا يعهدون بالترجمة إلى القادرين عليها، ممن يحسنون فهم أسرار اللغة الإنجليزية الأصلية، ويجيدون التعبير بلغة عربية جلية.

ولا تحتاج الترجمة التى بين يدى -منى ولا من غيرى- إلى من يقدم أو يمهد، فقد تكفل بذلك أكثر من واحد ممن اتصلوا بالكتاب فى لغته، ولكن أود أن أعبر عما أحسست به بعد أن أنجزت قراءته.

يدَّعى الكتاب أنه يؤرخ (للمدينة على العصور) ثم يورد تكملة للعنوان، فيبين أنه يؤرخ (لأصلها وتطورها ومستقبلها) وتلك دعوى أو استنباط منى قاصر كل القصور فليس الكتاب دراسة معمارية هندسية، بل هو دراسة للتحضُّر الإنسانى، وأريد بذلك انتقال الإنسان من الوجود الفردى إلى الوجود الجماعى فصارت هذه الجماعة فكانت أسرة، أو كبرت قليلاً فصارت قرية، أو وصلت إلى منتهى الاتساع فصارت شعبًا من مدينة.

إنه دراسة لكل التجمعات أو المستوطنات الطبيعية مثل الكهوف، والصناعية مثل المساكن دراسة لكل ما استقر فيه الإنسان، منذ بدأ عملية الاستقرار: مراحله وأنواعه وأشكاله وما احتوى عليه من وسائل حماية ورعاية وترف دراسة للعوامل التى دفعته إلى أن ينتقل من مقر إلى مقر، أو من مرحلة من الاستقرار إلى مرحلة أخرى، وهل استطاع أن يستجيب كل هذه العوامل أو يلبى كل ما طمع فيه مما كان ينقصه، أو يتخلص من كل ما فرضته عليه المرحلة السابقة دراسة لأشكال هذه المستوطنات وأنواعها ووظائفها، وما فرضته على ساكنيها من أعمال، بل ما أجبرتهم عليه من حكومات ونظم سياسية دراسة للوظائف الراهنة من المجتمعات والوظائف المستقبلية للمدن خاصة، والمخاطر التى تحيط بها والطرق إلى مواجهتها دراسة للتطور التجارى، والزراعى، والصناعى للإنسان فى كل واحد من مواطنه.

ويجمل مترجم الكتاب كل ذلك فى قوله «ليست هذه الدراسة مقصورة على أوضاع المدينة ومشتملاتها ووظائفها فى الحياة ودورها فى بناء الحضارة، بل هى دراسة جامعة تشمل أيضًا نظم المجتمع وأهداف الإنسان ووجوه نشاطه الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية والجنسية. وأثر كل ذلك فى تشكيل أوضاع المدينة، ثم انعكاس هذه الأوضاع على حياة الإنسان».

وجملة القول: إن الكتاب عبارة عن قصة الحضارة الإنسانية، بكل ما لها وما عليها، على نحو ما يصورها - بجرأة نادرة من رجل لامع الذكاء، نافذ البصيرة...».

ويتبع الكيان منهجًا دقيقًا ومعينًا في العرض فيصدر فصوله بعناوين عناصره ويفتتح كل عنصر بعدد من الأسئلة يثير الاهتمام، ويضع القارئ على الطريق الصحيح.

وكشف المؤلف نفسه عن منهجه في الدراسة في قوله: عند البحث عن أصول المدينة قد يكون من اليسير جدًا أن يغرينا ذلك بالاقتصار على التنقيب عن بقاياها المادية، ولكننا إذا فعلنا ذلك يكون شأننا عندئذ كشأننا عندما نبحث في أمر الإنسان الأول ونركز اهتمامنا حول عظامه وقطع فخار آنيته وآلاته وأسلحته. وبذلك نبخس قيمة مبتكرات مثل اللغة والطقوس الدينية وهي التي قلّما إذا خلّفت على الإطلاق أي آثار مادية.

ومن الجائز أنه قبل أن يظهر في الوجود أي مما اصطلحنا اليوم على اعتباره مدينة، كانت بعض وظائف المدينة قد أديت وبعض أغراضها قد تحققت، بل لعل بعض المواقع التي استخدمت فيها بعد لإقامة المدن كان قد سبق استيطانها في زمن، ولذلك فإني أرى أنه لكي ندنو من معرفة أصل المدينة– يجب أن نستكمل عمل عالم الآثار الذي يسعى حثيثًا إلى بلوغ أعمق الطبقات الأرضية التي يستطيع أن يتبين فيها ولو أثرًا طفيفًا للتخطيط يشير إلى وجود نظام حضري. فإذا أردنا التعرف على المدينة فإنه يجب أن نقتفي الأثر، بادئين من أكمل ما عرف من منشآت المدينة ووظائفها، لنعود القهقرى إلى عناصرها الأولى والأصلية مهما بلغ تباعدها في الزمان والمكان والحضارة، عن أقدم التلال التي يسكنها الإنسان، فقبل وجود المدينة وجد الكفر والهيكل والقرية، وقبل القرية وجد المخيم والمخبأ والكهف والمغارة. وقبل كل هذا كله ظهر الميل إلى حياة اجتماعية، وهذا أمر من الجلي أن الإنسان يشترك فيه مع كثير من أنواع الحيوانات الأخرى.

إنه كتاب في العمارة والاجتماع والتاريخ والاقتصاد، ولذلك قلت إنه كتاب يؤرخ لتحضر الإنسان، تأريخًا يشمل أسسه وأنواعه وبواعثه ونتائجه المباشرة وغير المباشرة.



المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : لويس ممفورد

مؤلف أمريكى ولد سنة ١٨٩٥ وتخرج فى جامعة نيويورك وكولومبيا . أستاذ الدراسات الإنسانية فى جامعة ستانفورد منذ سنة ١٩٤٢ — ٤٤ ، وأستاذ فى جامعة بنسلفانيا ١٩٥٢ — ٥٦ . كان عضوا فى مؤسسات وجمعيات متعددة وله نشاط ملحوظ فى الفن المعمارى وتخطيط المدن . من بين مؤلفاته العديدة Story of Utopias ١٩٢٢ ، Technics & Civilisation ١٩٣٤، The Culture of Cities ١٩٣٨ ، City Development ١٩٤٥ ، Art & Technics ١٩٥٢ ، The Transformations of Man ١٩٥٦ .

المشرف على الترجمة : الدكتور إبراهيم نصحى

أستاذ التاريخ القديم بجامعة عين شمس . ولد سنة ١٩٠٧ وتخرج فى جامعة القاهرة وليفربول ولندن وتخصص فى الآثار اليونانية الرومانية والتاريخ اليونانى الرومانى . أستاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٦ وعميد كلية الآداب بجامعة عين شمس ١٩٥٠— ١٩٥٤ ، عضو مراسل بالجمعية الأثرية بأثينا منذ ١٩٣٨ ، عضو مراسل جمعية الوثائق الهندية منذ ١٩٥١ ، وعضو لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . له عدة مؤلفات ، منها « الفنون فى عصر البطلمية » (بالإنجليزية) ، و« تاريخ مصر فى عصر البطالمة» (جزءان) ، و«مجمل تاريخ مصر فى عصر البطالمة والرومان » ، و« النظم الدستورية الإغريقية» ،

و« دراسات فى تاريخ مصر فى عصر البطالمة » ، كما أن له عدة بحوث نشرت فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وحوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .

محتويات الكتاب

صفحة

لماذا هذا الكتاب

بقـــلم

حسن جلال العروسى

اتجهت الدولة إلى تعريب الدراسة فى الكليات غير النظرية التى درجت على تدريس مقرراتها واستخدام المراجع اللازمة لهذه الدراسة باللغـــة الأجنبية ، كما اتجهت إلى الإفادة إلى أقصى حد من الإمكانيات المتاحة لنقل خير المراجع الأجنبية إلى اللغة العربية بوساطة الكفايات العربية المتخصصة فى الترجمة والمراجعة .

ولقد اختارت الجهات العلمية والتعليمية والثقافية الكثير من الكتب لترجمتها فى مختلف فروع العلوم كالكيمياء ، والفيزيقا ، والجيولوجيا ، والرياضيات ، والآلات ، والكهرباء ، والمعادن ، والمحركات ، والنبات ، والزراعة ، والأحياء ، والحشرات ، والطب ، والاجتماع ، والتاريخ ، والتربية ، والتوجيه المهنى ، والفنون ، والمسرحيات ، والاقتصاد المنزلى ، والتصوير . . . الخ .

واختيار الكتاب الذى بين أيدينا « المدينة على مر العصور » جاء وليد دراسات متصلة بين الهيئات العلمية فى الجمهورية العربية المتحدة والهيئات العلمية التى نبت بينها الكتاب ، وهو من الكتب التى طلبها المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية للترجمة بناء على اقتراح الأستاذ الكبير المرحوم محمد شفيق غربال ، باعتباره مرجعاً هاماً يفيد منه الطلبة فى أقسام العمارة بكليات الهندسة والفنون الجميلة ، والطلبة فى أقسام الاجتماع والتاريخ بكليات الآداب .

وليس أدل على مدى أهمية هذا الكتاب مما جاء فى تقرير للأستاذ الدكتور

إبراهيم نصحي حين طلب إليه إبداء رأيه في مدى صلاحية هذا الكتاب للترجمة ، فقد جاء في تقريره أن هذا الكتاب يتناول المدينة وحضارتها ودورها في التاريخ ، فيتتبع أصول المدينة منذ أقدم العصور ، والعوامل التي أدت إلى نشأتها ، والتطورات التي طرأت عليها عبر مختلف عصور التاريخ ، والمشكلات التي نجمت عن اتساعها في العصور الحديثة . والمؤلف لا يقتصر دراسته على تخطيط المدينة ومظهرها ، بل يتعدى ذلك إلى دراسة أحوال مواطنيها في مختلف نواحي حياتهم من دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، ويبين مدى أثر سكان المدن في نشأة مدنهم وتطورها ، وكذلك مدى أثر اتساع المدن في الجماعات الإنسانية ، ويشرح أسباب المشكلات الخطيرة المترتبة على هذا الاتساع ، والنتائج الرهيبة الناجمة عن هذه المشكلات ، ويقترح الحلول المناسبة لها على ضوء خبرته الواسعة وعلمه المستفيض ودراسته الواقعية .

وليس ثمة جدال في أن أبناءنا الطلاب سوف يفيدون من هذا المرجع الوافي بعد أن تم نقله إلى العربية خدمة للدارسين والقراء بوجه عام .

مقدمة

بقلم

الدكتور إبراهيم نصحى

هذا كتاب نفيس عن المدينة على مر العصور ، فهو يفسر أصل المدينة فى ضوء الأدلة التى كشف عنها حديثاً عن الإنسان الباكر ، ثم يشفع ذلك بدراسة المدينة فى ظل الحضارات التى تعاقبت عليها : حضارات مصر وبلاد ما بين النهرين والهند والإغريق والرومان والعصور الوسطى والعصور الحديثة . وليست هذه الدراسة مقصورة على أوضاع المدينة ومشتملاتها ووظائفها فى الحياة ودورها فى بناء الحضارة ، بل هى دراسة جامعة تشمل أيضاً نظم المجتمع وأهداف الإنسان ووجوه نشاطه الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية والجنسية ، وأثر كل ذلك فى تشكيل أوضاع المدينة ، ثم انعكاس هذه الأوضاع على حياة الإنسان .

وجملة القول أن الكتاب عبارة عن قصة الحضارة الإنسانية ، بكل ما لها وما عليها ، على نحو ما يصورها بجرأة نادرة رجل لامع الذكاء ، نافذ البصيرة ، واسع الأفق ، رحيم القلب ، مرهف الحس ، لم تشغله مظاهر المدنية الحديثة البراقة عن حقيقة أمرها ، فقد أدرك بثاقب فكره المصير الرهيب الذى يتهدد البشرية إذا استمر العالم سادراً فى غيه ، تسيطر عليه نزعات فاسدة وتوجهه عوامل هدامة ، فأخذ على عاتقه أن يدرس المدينة دراسة عميقة دقيقة ليكشف عن العوامل التى أدت إلى هذه الانحرافات والتى لا بد من أن تورد العالم موارد الهلاك إذا لم توقف عند حدها ، وليصف الوسائل لعلاج وجوه النقص فى المدنية الحديثة وتحقيق أسلوب

جديد للنمو الحضرى . وقد اعتمد المؤلف فى دراسته على الأسانيد الأثرية والنقوش والوثائق والنصوص القديمة وكتابات الأدباء والمؤرخين والفلاسفة ورجال الاقتصاد والاجتماع والمعماريين ومخططى المدن فى مختلف العصور ، وخرج من كل ذلك ومن عظات التاريخ عن دورة النمو الحضرى بنتائج محددة وآراء قيمة استفاض فى عرضها والتدليل على صحتها .

ويرينا المؤلف أن المدينة نشأت أول ما نشأت فى أودية عدد قليل من الأنهار الكبرى ، وهى النيل والدجلة والفرات والسند وهوانج هو ، وأن البذرة الأولى للمدينة كانت مكان الاجتماع لإقامة الطقوس الدينية « فقطب المغناطيس يسبق الوعاء » إذ أن المدينة ليست وعاء فحسب يقوم بتركيز العوامل الاجتماعية ويهيئ لها مجالا يساعد على بلوغ أقصى ما يمكن من التأثير المتبادل ، بل هى مغناطيس ، لأنها قبل أن يوجد لديها ما تستبقيه يجب أن تجتذب الناس والأنظمة التى تسير حياتها . ويمضى المؤلف فيرينا كيف أن حضارة القرية الباكرة كانت الحضارة التى انبثقت منها حضارات العالم القديم ، وكيف أنه لم يصحب عملية الانتقال من حضارة القرية إلى حضارة المدينة مجرد الزيادة فى الكتلة الموجودة ، بل تغييرات شاملة ، وتشكيل جديد ، وأهداف جديدة . وقد كان من أهم هذه التغييرات أن الزعيم المحلى تحول إلى ملك شامخ أضفيت عليه صفات إلهية ، وأن حصنه أصبح قلعة ضخمة ، وأنه لم يعد يستخدم جرأته ومهارته فى دفع الأذى ، بل فى تنظيم الجهود والفتح والسيطرة .

وهكذا صاحب نشأة المدينة نوعان متناقضان من التكافل ، أحدهما إيجابى ، والآخر سلبى ، يتمثل النوع الأول فى تعاون السكان على « التحكم فى الفيضان وإصلاح أضرار العواصف وتخزين المياه وإعادة تنسيق صفحة الأرض وإنشاء شبكة عظيمة من القنوات المائية وملء المستودعات الحضرية بما توافر من الطاقات البشرية لاستخدامها فى مشروعات أخرى جماعية » .

ويتمثل النوع الآخر فى « الحرب والاستعباد والإفراط فى التخصص المهنى ، وفى أماكن كثيرة ، الدأب على الاتجاه نحو الموت » . ويبين المؤلف كيف أن كلا النوعين من التكافل فى المدينة القديمة قد انتقلا بقدر ما إلى كل تكوين حضرى جاء بعد ذلك ، وكيف أن شكل المدينة الذى انبثق من الوحدة المتكاملة الأصلية ، وحدة المعبد والقلعة والقرية و « الورشة » والسوق ، قد استمدت منه إلى درجة ما أشكال المدينة التى ظهرت فيما بعد من حيث تكوينها المادى وطرق تنظيمها ، وكيف أن التطور التاريخى لنظام الحكم الملكى كان مصحوباً بتحول جماعى عن طقوس الإخصاب إلى عبادة أوسع نطاقاً ، هى عبادة القوة ، المادة العاتية التى وجدت أكمل تعبير عنها فى الحرب النظامية ، وكيف أنه إبان اتساع القوة ازدادت كذلك القدرة على القتل ، وأصبح استعراض القوة المسلحة من أهم صفات نظام الحكم الملكى . وهكذا أصبحت المدينة مركزاً للقوة الغشوم مما أثر فى شكل المدينة المادى وحياة منظماتها . ومن هذا المصدر نشأ نظام دقيق للتحصينات ، وهو ما ظلت تتميز به المدن التاريخية الكبرى حتى القرن الثامن عشر :

وعلى الرغم من أن المدينة كانت وعاء للعنف المنظم وقامت بدور ناقل الحرب ، فإنه ظهر فيها قدر من القانون والنظام يشهد بقدرة المدينة على الترويض الاجتماعى ، فتأثر تشكيلها واتجاهها باطراد بما استحدث فيها من قوانين وقواعد للنظام وآداب السلوك . غير أن ما اعترى القوة فى الأصل من الانحرافات التى اقترنت بما أحرزته المدينة من تقدم عظيم فى الناحيتين التقنية والثقافية قد أفسد وكثيرا ما قضى على الأعمال الجليلة التى قامت بها المدينة إلى وقتنا الحاضر .

ويبرز المؤلف أمارات المدينة ، وبخاصة تجمع القلعة والهيكل فى حرم خاص منعزل عن باقى المدينة ، وكذلك أثر القلعة فى تركيز وتوسيع نطاق

السلطتين الدينية والسياسية ، وفى تنشيط الحياة الاقتصادية : ويدلل المؤلف على بطلان نظرية التقدم المادى المتواصل ، ويشرح نظرية التسرب الحضارى ، ويتناول تطور المهام الحضرية وأثر المدينة فى ذلك وفى ظهور فكرة تقسيم العمل وحقوق الملكية وفى إنشاء أول نظام اقتصادى للوفرة ، ويذهب إلى أن حضارات الشرق الباكرة أصيبت بالداء الذى يتهدد حضارتنا بالاكتساح ، وهو المادية التى لا هدف لها ولا غاية .

وبعد أن يتتبع المؤلف تطور القرية إلى مدينة فى وادى النيل وفى بلاد ما بين النهرين مبيناً وجوه التباين بين الإقليمين فى كل ناحية من نواحى الحياة والفكر ، وأثر ذلك فى التباين بين تراث الفريقين من المخلفات الحضرية ، يدرس تطور المدينة الإغريقية ويبين كيف أن هذا التطور تكشف عن اتجاهات عديدة اختلفت عما تطور إليه النموذج الأصلى للمدينة فى بلاد ما بين النهرين وفى مصر على عهد الإمبراطورية ، وكيف أنه فى مدى قرنين اثنين فتحت الحضارة الإغريقية كثيرا من الآفاق البكر ، العقلية والنفسية ، ولم تقتصر النتيجة على مجرد تدفق سيل من الآراء والصور فى الدراما والشعر والنحت والتصوير والمنطق والرياضيات والفلسفة ، بل تولدت حياة اجتماعية كانت أبعد مدى فى نشاطها وأعلى كعباً فى قدرتها على التعبير الجمالى مما عرفه العالم من قبل ، وكيف أن كل هذه الأعمال الباهرة تركزت فى المدينة الحرة الإغريقية ، وبخاصة فى أعظم تلك المدن وهى أثينا ، وكيف أن أثينا كانت ديمقراطية وتعمل حثيثاً على تشجيع الحكم الديمقراطى إلا أنها اختارت لنفسها أن تقوم بدور الملك بين المدن الأقل منها شأناً . وهكذا « فإن قاذورات الحضارة الباكرة — من حرب واستغلال واسترقاق وإبادة شاملة — ارتدت على أثينا كما لو كانت قد لفظتها بالوعة قديمة » .

ويشيد المؤلف بما كان لثلاثة مراكز كبرى (أوليمبيا ودلفى وكوس)

من فضل فى نشر فيض من الآراء وأساليب الحياة التى تبث الوحدة والسمو بالنفس ، وبنوه بحكمة دلفى فى مواجهة مشكلة ازدياد السكان ، وذلك باتباع خطة موفقة لتوزيعهم توزيعاً منتظماً ، مما ساعد على الإقلال من حدة التنافس الاقتصادى ومن ضروب الفتح ، وكذلك على نشر الحضارة والمدن الإغريقية .

وإذا كان المؤلف يشيد بالخدمات التى أسداها الإغريق للمدينة — خلق المواطن الحر ، والحفاظ على شخصية الإنسان ، وإنجاب هذا الجمع الحاشد من الشخصيات الخلاقة ، وإنشاء الجيمنازيوم والمصحة والمسرح — فإنه يأخذ على المدن الإغريقية عجزها عن الانتقال من نظام الديمقراطية المباشرة إلى نظام الحكومة النيابية ، ويندد بمؤازرة النظريات السياسية الإغريقية للانفصالية ، وبإغفالها شأن التبادل الثقافى الدينامى والاتحاد السياسى الفيدرالى وإهمال الوسائل الصحية .

ويعنى المؤلف بإبراز حقيقتين هامتين عن هيبوداموس ، وإحداهما أنه لم يكن مخترع التخطيط الشبكى للمدن ، والأخرى أن ابتكاره الحقيقى كان إدراكه أن شكل المدينة عبارة عن شكل نظامها الاجتماعى ، وأنه لإعادة تشكيل أحدهما لابد من إدخال التغييرات الملائمة على الآخر . وينبه المؤلف إلى أن مجرد الزيادة فى حجم المدينة ليست أكثر دلالة على التحسين من دلالة التوسع التقنى على الحياة الهانئة ، وإلى أن ما يجعل من المدينة وحدة واحدة هو الصالح المشترك فى قيام العدالة ووحدة الهدف ؛ هدف متابعة الحياة الهانئة .

ويلاحظ المؤلف أنه فى تتبع تطور المدينة الإغريقية من الناحيتين المعمارية والحضارية نجد أنفسنا وجهاً لوجه حيال أحد وجوه التناقض التى تبعث على الحيرة فى تاريخ التطور الإنسانى ، وأعنى عدم التناسق الذى كثيرا ما يتكرر بين النظام الجمالى والنظام الخلقى ، فإنه كلما تفككت

أواصر الحياة الداخلية فى المدينة الإغريقية بدا المظهر الخارجى للمدينة أرفع بكثير من حيث مستوى النظام والتماسك فى الشكل . ويخرج المؤلف من دراسته بأن التلاف المادى الكامل كثيرا ما يكون تعبيرا حاسماً عن نظام مدنى فاشل هزيل الروح ، وهو ما ينطبق على المدن الرومانية أيضاً . ففى هذه المدن ، ولا سيما فى روما ذاتها ، كثيرا ما كانت المحتويات تبعث على الاشمئزاز ، وفى بعض الأحيان كانت مباءة حقيقية للانحطاط والظلم ، بيد أنه من الناحية الجمالية كثيرا ما كان شكل الوعاء آية فى الوقار والجلال .

وفى رأى المؤلف أن ما أسهم به الرومان فى تخطيط المدن كان أساساً ربيب الهندسة الضخمة وحب الاستعراض الذى ينم عن الخيلاء ، وهو ذوق حديثى النعمة ، وأنه للوقوف على أرقى ما وصل إليه الرومان مادياً وأحط ما انحدروا إليه إنسانياً ، يجب تركيز الاهتمام فى مدينة روما التى جمعت بين الوسائل التقنية الراقية والتخطيط الاجتماعى البدائى ، وازدحمت حركة المرور فيها إلى حد أصبح لا يطاق . فروما ، بدلا من العمل على الوصول إلى نسبة معقولة بين كثافة حركة المرور وكثافة سكان المنازل ، عملت على نقيض ذلك تماماً بتشجيع الكتلة الشعبية الهائلة من سكانها على السكن فى عمائر مكتظة بنازليها كانت على هيئة وحدات ضخمة من المبانى تدعى « جزراً » . وقد كان بناء هذه « الجزر » من أعمال المضاربة الشرهة ، ولذلك كان أغلب سكان روما يعيشون فى مساكن غير مريحة وغير صحية ويدفعون إيجارات باهظة ويكابدون كل يوم من صنوف الإساءة والإرهاب ما زادهم خشونة ، وجعلهم قساة القلب ، وحدا بهم إلى المطالبة بألوان من الترفيه تعوضهم عن هذه الحياة .

ولعل أعظم ما أدته روما من الخدمات الممتازة لكل من الصحة العامة فى المدينة وللأوضاع الحضرية كان الحمام العام ، لكن ما كان فى بدايته

ضرورة صحية غدا عادة للمرء فراغ يوم عاطل ، فقد أصبح الحمام العام المعبد الذى يقيمون فيه شعائر عبادة البدن . وقد كان نجاح روما فى فتوحات السلب والنهب هو الذى أوجد فيها حياة التطفل وغذاها ، وانتهى به الأمر إلى أنه أوجد على نحو أعم وأشمل الحياة البليدة التى تعتمد على الغير .

ويخرج المؤلف من دراسة تطور المدينة عند الرومان بأن أهم ما أسهمت به روما فى تطور المدينة هو الدرس السلبي الذى يستمد من نموها نمواً مرضياً تجاوز المدى ، وبأن هذا الدرس يصعب فيما يبدو ، استيعابه إلى حد أن مدينة بعد أخرى اتخذت من مجرد توسعها المادى والاقتصادى دليلا على رخائها وحضارتها . ولهذا السبب فإن المؤلف قد أفاض فى الكلام عما كان فى روما من فوضى فى شئونها الصحية ، وعن نظام حياة التطفل فيها ، وعما أوجدته روما من مهرجانات الإبادة على سبيل التعويض عما كان فيها من وجوه القصور ، لكن تكرار انحطاط المدنيات وانهيارها واحدة إثر أخرى ، من بعد أن تكون قد أصبحت ذات قوة وبأس وسلطة مركزية ، درس يستطيع المرء أن يطالع فيه العجز عن الوصول إلى حل جذرى لمشكلة اتساع النطاق .

ويبين المؤلف كيف أنه وسط ما أصاب روما من التعفن والانحلال أخذت تنبت حياة جديدة ، فقد أنشأت روما المسيحية عاصمة جديدة ، هى المدينة السماوية ؛ ورابطة حضرية جديدة ، هى زمرة القديسين ، فهنا كان يوجد النموذج الأصلى الخفى للمدينة الجديدة ، وينوه المؤلف بأربعة أمور ، أحدها الدور الذى قامت به الرهبنة فى تطور مدينة العصور الوسطى ، الأمر الثانى ما وفرته مدينة العصور الوسطى من الحرية والمساواة فى الحقوق العامة والمشاركة الديمقراطية فى الحكم الذاتى على نحو لم يتوافر فى أى وقت من قبل ، والأمر الثالث إنشاء ٢٥٠٠ مدينة فى خلال أربعة

قرون وزيادة عدد السكان بنسبة تضارع على وجه التقريب نسبة الزيادة في أوروبا في القرن التاسع عشر ، والأمر الرابع أن مدينة العصور الوسطى في أوروبا كانت منشأة جماعية هدفها الأساسي المعيشة طبقا للنهج المسيحي ، ولقد أثر هذا الهدف في الأنظمة والعادات وأوجد من وسائل المعونة — المستشفيات والملاجئ — ما لا يقوم أي دليل على وجودها في المدنيات الحضرية السابقة .

ويبين المؤلف كيف أنه باستثناء الكنيسة كانت النقابة أوسع ممثلي الحياة الاجتماعية انتشاراً ، وهكذا جمعت مدينة العصور الوسطى بين القاعدتين الأساسيتين للزمالة وهما : العمل المشترك والعقيدة المشتركة ، وكيف أن النقابات والكنيسة رفعت من شأن العمل ، وكيف أن النقابات كانت شديدة العناية بشئون أعضائها الاجتماعية والثقافية ، وكيف أنه عندما أصبح الحافز الاقتصادي الشاغل الذي يستنفد كل جهود النقابة تطرق الفساد إلى النظام بأسره ، وكيف أنه بسقوط مدينة العصور الوسطى سقطت معها النقابات التي ظهرت بظهورها ، فيما عدا الجامعة — وكان يطلق عليها التعبير العام الذي عرفت به كل النقابات في القرن الثاني عشر وهو Universitas — فإنها ازدادت قوة ونفوذا على مر الزمن ، ولعلها كانت المؤسسة الجديدة المفردة التي فاقت أهميتها كل ما أنتجته حضارة العصور الوسطى من مؤسسات ، وكيف أن الجامعة كانت تؤدي أهم الوظائف الأساسية للمدينة وهي : استيعاب الثقافة ، ونشرها بتبادل المعرفة ، وتزويدها بالإضافات الخلاقة ، وكيف أنه في التخطيط الأصلي للكليات في أوكسفورد وكمبردج قدم تخطيط العصور الوسطى أجل خدماته المبتكرة لتخطيط المدن ، ويتمثل ذلك في الوحدة السكنية الكبرى والخطة الحضرية المنعزلتين عن شبكة الأزقة والشوارع .

ويتناول المؤلف مزايا وعيوب المنزل الحضري في مدينة العصور الوسطى ،

ويمتدح العناية بالشئون الصحية فى تلك العصور ، ويبرز الصفة الريفية التى لازمت باستمرار مدينة العصور الوسطى ، وينفى عن هذه المدينة افتقارها إلى التخطيط ، ويشيد بسماتها ، ويذهب فى إطنابه فى وصف العصور الوسطى بوجه عام إلى حد يجعل الإنسان يأسف لأنه لم يعش فى تلك العصور. ويبين المؤلف كيف أنه فى صدر العصور الوسطى كان يدبر أمر الزائدين من سكان المدن بإقامة مراكز استقرار جديدة لهم ، فى مواقع قريبة أحياناً ، ومع ذلك كانت وحدات مستقلة مكتفية بذاتها ، وكيف أن النسق العام لنمو مدينة العصور الوسطى كان يختلف أساساً عما أعقبه مباشرة فى فترة التجمع والتماسك حول عواصم سياسية كبرى ، فقد كان نسق العصور الوسطى هو عدداً وفيراً من المدن الصغيرة والقرى التابعة لها على اتصال لا ينقطع بالمدن المجاورة لها والموزعة فى أرجاء الإقليم على نطاق واسع .

وهذا النسق يشبه عن قرب ما يدعو إليه المؤلف لمعالجة نمو المدينة الحديثة نمواً مفرطا يتهدد صحة السكان والروابط الاجتماعية والأهداف الإنسانية .

ويعتبر المؤلف مدينة البندقية أعظم مدينة فى أوروبا فى نهاية العصور الوسطى بسبب ما أوتيته من جمال وثراء ، وما اتسم به تخطيطها من ابتكارات جليلة الشأن ، لكنه ينعى على حكمها ما شابه من ظلم وعنت ومفاسد بغيضة . ويمتدح المؤلف مدينة توماس مور الخيالية ، لكنه يأخذ عليها الاتجاه نحو التماثل المطرد وانعدام التنوع ، ويعتبر ذلك تمهيداً لأحوال العهد المقبل ، عهد الحكام المستبدين . ويرى المؤلف أن المدن السويسرية والهولندية أنجح الأمثلة للانتقال من نظام العصور الوسطى إلى النظام الحديث . وفى رأيه أن نجاح السويسريين فى تحقيق الاتحاد دون استبداد أو خضوع لسلطة مركزية تفرض عليها أوضاعا تعسفية ينهض دليلا على أن هذا العمل كان أمراً ميسوراً ، بل كان يمكن تطبيقه على نطاق أوسع مجالا . ويعزو المؤلف انهيار حضارة العصور الوسطى إلى تحكم المصلحة الذاتية فى جميع أرجاء المجتمع .

ويبين المؤلف كيف أنه قد تكون فى أوروبا فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر تعقد جديد من الخصائص الحضارية أفضى إلى تغيير كل من شكل الحياة الحضرية ومشتملاتها تغيراً أساسيا ، وكيف أن النموذج الجديد للحياة انبثق من نظام اقتصادى جديد ، هو نظام الرأسمالية التجارية ومن نظام سياسى جديد قوامه سلطة مركزية مطلقة أو أقلية حاكمة مستبدة تتولى شئون دولة قومية ، ومن أيديولوجية جديدة تقوم على مسلمات تقررت قبل ذلك بزمن طويل ، وكيف أنه عندما تبلورت هذه التغيرات فى القرن السابع عشر أخذ نظام العصور الوسطى فى الانهيار بتأثير الفساد الداخلى البحت ، وكيف أن الكبرياء أصبحت السمة التى يتسم بها القادة الجدد للمجتمع ، وكيف أن الحصول على الثروة وعرض مظاهرها والاستحواذ على السلطة وبسط نطاقها أصبحت الدوافع التى تسيطر على الناس فى كل مكان ، وكيف أن الانتقال من أوضاع العصور الوسطى إلى أوضاع العصر الباروكى استغرق أربعة أو خمسة قرون ، وكيف أن التخطيط الباروكى استقر قبيل آخر القرن السابع عشر وأنشأ أحياء جديدة ، بل مدنا جديدة لإقامة الأسر المالكة ، وكيف أنه بعد القرن السادس توقف تكاثر المدن ، أو على الأقل انتقل الجانب الأكبر منه إلى العالم الجديد ، على حين أن العواصم واصلت نموها وانفردت بزيادة عدد السكان وأفضت شدة المنافسة على الأرض الفضاء إلى ارتفاع قيمتها فى العواصم السياسية ، وترتب على ذلك ظهور نموذج سيئ للإسكان كان غير صحى ومرتفع الأجر ، وكيف أنه صاحب السعى وراء القوة المالية والسياسية اختفاء كل فكرة عن وجود حدود للثروة أو زيادة السكان أو اتساع المدن أو ما تمتلكه الدولة من أقاليم ، فقد أصبح التوسع صنو النجاح فى الحياة ، وما زالت هذه الخرافة محتفظة بمكانتها متمثلة فى فكرة التوسع الاقتصادى إلى غير حد ، وكيف أن أكثر أنظمة العصر الباروكى دلالة عليه كانت الجيش القائم وسوق الأوراق المالية والبيروقراطية والبلاط .

ويصف المؤلف البلاط الباروكي وصفا رائعاً ، ويبين أثر البلاط فى المدينة بوجه عام . وكذلك فى المنازل ، وينعى على المدينة الباروكية هبوط مستوى الصحة العامة والوسائل الصحية فيها ، ويأخذ على المهندس الباروكى إغفاله تكوين المدينة الاجتماعى وأخطر وظائفها الحضرية وتضحيته بالطابع التاريخى للأحياء القائمة ، وكل ذلك من أجل الخطوط المستقيمة والشوارع العريضة ومرور العربات بلا عائق ، فقدكان وضع المشتملات الحضرية فى المقام الثانى بالنسبة للشكل الخارجى نمطا للعقلية الباروكية . غير أن المؤلف ينوه بناحية واحدة ارتفع فيها التخطيط الباروكى إلى ما فوق مستوى مقدماته السياسية والعسكرية عندما أنشأ وضعاً مستقلا عن أغراض القصر تمثل فى فكرة ميدان المساكن .

ويبين المؤلف كيف أن التخطيط الباروكى ظل متبعاً إلى صميم القرن العشرين ، على الأقل فى الحواضر الكبرى من توكيو ونيودلهى إلى سان فرانسيسكو برغم عدم التلاؤم بين الأوضاع الباروكية وما لمدينة حديثة من أغراض ومهام ، وكيف أن تخطيط واشنطون الذى وضعه لانفان مثال نموذجى لتطبيق القواعد الباروكية على حالة جديدة ، وكيف أن لانفان مع كل ما أوتيه من براعة ومقدرة على التخيل لم يستطع تفادى ما جرت به العادة الباروكية من تضحية كل المهام الأخرى للمدينة فى سبيل الأماكن الفضاء وروعة المواقع وحركة النقل .

ويتناول المؤلف مثالب الرأسمالية التجارية فى القرن الثامن عشر ، فقد أصبح شغلها الشاغل فى المدن التجارية الجديدة الثراء الفاحش دون نظر إلى أى اعتبار آخر ، فترتب على ذلك هدم كيان الحياة الحضرية بأسرها وإقامتها على أساس جديد مجرد من الصلات الشخصية ومن كل معانى المسئولية الاجتماعية . وقد كان ذلك ترخيصاً بالسكنى الوضيعة وبإقامة مساكن فقيرة متلاصقة مرتفعة الإيجار . وبطبيعة الحال كلما ازدادت كثافة شغل المساكن

ازداد الدخل ، وتبعاً لذلك ارتفعت قيمة الأرض ، فظهر عندئذ نوع جديد من التخطيط الشبكي لم تكن الوحدة الأساسية فيه هي منطقة الجوار أو الحي ، بل قطعة الأرض المخصصة للبناء التي يمكن تقدير قيمتها على أساس مساحتها المطلة على الشارع ، وكانت نتيجة ذلك إقامة مساكن لا يتوافر فيها إلا أقل قدر من الضوء والهواء . وقد استجاب التخطيط الشبكي إلى مقتضيات النظام الرأسمالي من حيث سرعة التوسع وتضاعف السكان وارتفاع قيمة الأرض ، ولكن المدينة التي كانت تخطط على أساس من هذه المبادئ المادية كانت تفتقر إلى قدر كاف من الأماكن العامة الفضاء لإقامة حدائق عامة وساحات للألعاب ، وتعجز عن أداء الخدمات الاجتماعية المستديمة .

وإذا كانت المدينة التجارية قد اتسعت أفقياً في القرن التاسع عشر ، فإنها في القرن العشرين أخذت تتسع أيضاً رأسياً بإقامة ناطحات السحاب . والجمع بين هذين الأسلوبين للتوسع والتكدس هيأ أوسع الفرص لجني الأرباح ، وأفضى إلى نمط سيئة للإسكان وإلى حياة اجتماعية منحطة زاخرة بألوان العنف والجرائم ، وإلى ازدحام حركة المرور ازدحاماً شديداً كان من شأنه تخفيض سرعتها وتسميم الهواء وتلويثه ، فلا عجب أن أدى كل ذلك إلى هجرة شاملة من المناطق الواقعة في وسط المدينة .

وقد أنشأ الرأسماليون ورجال الصناعة مدينة من طراز جديد ، وهي التي أطلق عليها تشارلس ديكنز اسم « مدينة الفحم الكوك » . فحركة التصنيع ، تلك القوة الخلاقة الرئيسية في القرن التاسع عشر ، تمخض عنها أسوأ ما شهده العالم إلى ذلك الحين من حالات انحطاط البيئة الحضرية ، فقد ساعد تركيز المصانع على نمو المدن وبلغت الزيادة في عدد السكان حداً طاغياً . ولما كانت تنشأ عن ذلك فرص غير عادية لجني الأرباح ، فإنه لم يوجد في التقاليد السارية في المجتمع ما يحد من هذا النمو ، بل كان هناك ما يدعو إلى تشجيعه . وقد ساعدت السكك الحديدية على تعميم بيئة المنجم ، وحملت إلى قلب المدن

الضجيج والسناج والمنشآت الصناعية ونظم الإسكان الوضيعة . واقترف مهندسو السكك الحديدية كل ما يمكن اقترافه من أخطاء فى مجال التخطيط الحضرى ، إذ أن حركة القطارات وساحات مناوراتها وأحواش البضائع كانت فى نظرهم أخطر شأناً من الغايات البشرية . ولعل أجل ما قدمته المدينة الصناعية من الخدمات كان ما أحدثته من رد الفعل إزاء ما ارتكبته هى من أخطاء ، فأصبح الهدف الأول للتخطيط السليم هو أن تنعم المدينة من جديد بضوء الشمس والهواء العليل والماء النقى والساحة الخضراء الطلقة . بيد أن رد الفعل الذى نشأ عن النموذج المثالى لمدينة الفحم الكوك وكان أبعد مدى فى آثاره ، كان ذلك الذى تمثل فى الفكرة التى أخذت تنبت ، فكرة الدولة التى توفر الخدمات الاجتماعية .

وقد كان من الحركات المضادة للأحوال السيئة فى المدينة الصناعية هجرة الأثرياء إلى الضواحى . وعلى الرغم من أن تفوق الضاحية من الوجهة الصحية كان أحد العوامل الكبرى فى اجتذاب الناس إليها ، فإن هناك شيئاً آخر كان يغرى الناس بترك المدينة ، وهو أن تتوافر لهم الحرية فى أن يفعلوا ما يشاءون . « وهذه هى النغمة الحقيقية لصوت الضاحية ، ويمكن تلخيصها فى أن يعتزل المرء الناس كراهب ويعيش كأمير . ويبين المؤلف كيف أن الفرار إلى الضاحية قد ساعد على استشراء الفساد فى المدن ، وكيف أن شدة الإقبال على الضواحى أدت إلى إنشاء بيئات منحطة لا سبيل إلى الفرار منها . غير أن الضاحية مهدت السبيل إلى نوع أرقى من التخطيط لم يتم بعد الإعراب عنه أو تحقيقه على وجه كامل فى أى مكان بحيث تجد كل من الوظائف الثابتة والدينامية للمدينة تعبيراً جديداً عنها . وفضلا عن ذلك فإنه انبثق من الضاحية نوع جديد من العمارة المنزلية يطابق فى طبيعة تكوينه الحياة القائمة فى داخله والمنظر الطبيعى فى خارجه . ويرينا المؤلف كيف أنه عندما أطلق العنان لنمو الضواحى أصبح من الضرورى توفير وسائل النقل السريع والذهاب إلى

حد الإسراف فى إنشاء الطرق ، ويتطرق من ذلك إلى تناول مشكلة حركة المرور واقتراح العلاج الناجع لفرط الازدحام فى المدن .

ويبين المؤلف كيف أنه عندما بدأت منذ نصف قرن حركة مضادة للهجرة إلى الضواحى ولاكتظاظ الحواضر ، نادى قادة هذه الحركة بأن يكون التطور الحضرى أكثر توزعاً فى وحدات صغيرة تستجيب للاتصال الإنسانى المباشر ، وتتوافر فيها المزايا الحضرية والريفية . ومن ثم نبتت مدينة الحدائق ، بشرط أن تكون محدودة النطاق من حيث المساحة وعدد السكان وكثافتهم ، ومنظمة على أساس يكفل القيام بجميع الوظائف الجوهرية فى مجتمع حضرى من حيث العمل والصناعة والإدارة والتعليم ، ومزودة بعدد كاف من الحدائق العامة والخاصة لوقاية الصحة وللاحتفاظ للبيئة بأثرها بطابعها الجميل ، وبشرط أن تنتظم معاً كل جماعة من هذه المدن الصغرى فى هيئة جديدة ذات صفة سياسية وثقافية ـ أطلق عليها إيبنزر هوارد اسم « المدينة الاجتماعية » وأطلق عليها كلارنس ستين وزملاؤه اسم « المدينة الإقليمية » ـ وذلك لتوحيد مواردها والتزود بالمؤسسات التى لا يتيسر توافرها إلا للأعداد الكبيرة . غير أنه حتى الآن أخفقت مقترحات هوارد فى وقف ، بل فى تأخير العمليات التلقائية التى تسير فى مجراها فى المدنية الغربية ، لأن هذه المدنية ما زالت مندفعة بتأثير عامل القصور الذاتى لثلاثة قرون من التوسع فى الأرض وفى السكان .

وينبه المؤلف إلى خطورة الاتجاه فى بلاد كثيرة إلى ازدياد المدن الكبرى فى العدد وفى المساحة وفى السكان ، وإلى إقامة النظام الاقتصادى على أساس نظام الحواضر الذى لا يتيسر فيه لأى مشروع أن تكون له قيمة إيجابية إلا إذا كان وثيق الارتباط بالمدينة الكبرى ، فعظات التاريخ تدل على أن مثل هذا التركيز للقوة الحضرية كان فى حالات متكررة دليلا على حلول المرحلة الأخيرة فى الدورة الكلاسيكية للمدنية قبل انهيارها وسقوطها نهائيا .

«ومن المحقق أنه لا يوجد دليل على الاستقرار فى مدنية كابدت فى خلال ٤٠ عاما حربين عالميتين ، وبعثت من جديد أشد ضروب الوحشية فى القهر والتعذيب والإبادة الشاملة ، وتنذر الآن بأنها فى خلال الكفاح مستقبلا من أجل نشر الشيوعية أو « الحفاظ على الحرية » ستفنى قارات بأكملها وقد تجعل الكوكب الأرضى بأسره غير صالح للحياة إلى الأبد . فى هذه المدنية ، مدنية الحواضر ، تكمن القوى المتفجرة التى سوف تمحو كل أثر لوجودها . ووضع خطط للمستقبل دون جعل هذه الحقيقة فى الاعتبار يكشف عن أحد الدلائل النموذجية على ذلك الابتعاد المطلق عن الواقع الذى يتسم به ما هو جار الآن من استغلال الوسائل العلمية للإبادة الشاملة والتدمير الشامل» .

وفى رأى المؤلف أنه إذا صح ما رجحه من أن أحد أسباب ما يحدث كثيراً من تكرار الدورة الحضرية للنمو والتوسع والانحلال يكمن فى ذات طبيعة المدينة نفسها ، فإن الحاجة الأساسية التى تواجه المدينة اليوم هى زيادة التوسع فى معرفة المجتمع نفسه وزيادة التعمق فى فهم مجرى التاريخ ، وذلك لإدخال وسائل جديدة للتحكم فى نشاط العوامل التى نشأ عنها النظام الاقتصادى القائم فى الحواضر ، فالمعرفة المنشودة تشبه ما يتحقق لعصابى من معرفة نفسه لكى يواجه جرحا نفسياً ظل دفينا منذ الطفولة فوقف حائلا فى طريق نموه وتكامله على نحو طبيعى .

ويحـذر المؤلف مما يفعله علماء الاجتماع والاقتصاد الذين يقيمون مشروعاتهم للتوسع الاقتصادى والحضرى فى المستقبل على أساس العوامل ذات الأثر الفعال فى الوقت الحاضر ، فهم يتجهون نحو تعميم وجود مدن عظمى مجهزة بالمعدات الميكانيكية وتقوم على نظام واحد وتكون فى واقع أمرها مجردة من الروح الإنسانية ، بوصف أن هذه الأوضاع هى الغاية القصوى للتطور الحضرى ، مع أنه ليس من شأن هذه الأوضاع إلا أن تحقق العوامل الحالية الدائبة على عملها فى المدينة العظمى غايتها النهائية ، وهى القضاء الشامل على النوع الإنسانى .

ومع ذلك فإن المؤلف لم يفقد بعد الأمل فى مصير البشرية ، لأن عملية الدورة التى توجد فى وسطها ليست بالضرورة عملية محتومة لا تقبل التبديل أو التغيير ، إذ لا يزال فى الإمكان اعتراض سير دورة التوسع والانحلال بوضع قواعد جديدة تكون أقرب إلى مطالب الحياة ، فتهيئ لنا السبيل إلى تغيير اتجاهنا وإلى البدء من جديد فى مناطق عديدة لتحقيق أسلوب جديد للنمو الحضرى .

وينعم المؤلف النظر فى بعض النواحى السلبية المريعة فى مدينة العواصم تمهيداً لتحليل الدور الذى تضطلع به المدينة بوصفها « قطب مغناطيس » و « وعاء » و « محولا » فى الحضارة الحديثة ، ويخرج من ذلك بالدعوة إلى أن تستبدل بالتكتلات الحضرية الضخمة « مدن إقليمية » هادئة ، وإلى أن يستبدل بالنظام الاقتصادى للحواضر الذى يمعن فى التوسع والاستغلال واستخدام المكنات نظام يتجه نحو خبرات الحياة وأهدافها ، وكذلك إلى تصحيح وجوه النقص فى مدنيتنا بالنهوض بمستوى الأخلاق والإدراك واحترام النفس . وهو يدعو أيضاً إلى إعادة بناء المدن وتجديدها على نطاق واسع ، ويرى أنه من الممكن القيام بذلك فى غضون جيل واحد بشرط « أن يكون النظام الاقتصادى موجهاً نحو الحاجات الإنسانية رأساً وألا يكون الشطر الأكبر من الدخل القومى محولا إلى وجوه الإمعان فى التبديد الاستهلاكى وخطط التدمير المدبرة ، مما يتطلبه نظام الحواضر الاقتصادى وتتطلبه فوق كل شيء الاستعدادات المتواصلة للإبادة والانتحار الجماعيين » .

ويحذر المؤلف من عواقب التوسع الجسيم فيما لدينا حالياً من الوسائل الميكانيكية الإلكترونية دون إحداث تغيير فى هدفها الاجتماعى أو القيام بأى محاولة نحو تحويل إنتاجها إلى ما هو أسمى إعراباً عن الترابط الإنسانى . وهو يندد بما يسيطر على أفكار الناس اليوم من اعتبار القوة الوسيلة

الرئيسية لتقدم الإنسان ، والتوسع التكنولوجى معيار التمدن ، ولذلك فهو يسخر من العناية بالمشروعات العقيمة لارتياد الفضاء الواقع بين الكواكب أو بما هو أكثر إمعاناً فى التجرد من الروح الإنسانية من الخطط القائمة على سياسة الإبادة الجماعية الشاملة ، بدلا من العناية بغرس النواحى المقبرة فى نفوس البشر .

ويختم المؤلف كتابه الذى سكب فيه خلاصة روحه الإنسانية وعصارة عقله الناضج بالدعوة إلى أن يعاد إلى المدينة وظائفها كأم تغذى حياة أبنائها ، وكذلك روابط تكافلها مع غيرها ، وهى التى طال إهمالها أو كبتها فإن المدينة يجب أن تكون وسيلة لقيام المودة ، فخير نظام للمدن هو ما يقوم على العناية بالناس وتحضيرهم . فى رأيه أن المهمة الرئيسية للمدينة هى — إلى جانب توفير الوسائل لوجوه النشاط اليومية — « تحويل القوة إلى نظام ، والطاقة إلى حضارة ، والمادة الجامدة إلى رموز حية للفن ، والتكاثر البيولوجى إلى قدرة اجتماعية خلاقة » ، أو بعبارة أخرى تنمية تراث الحضارة ونقله من جيل إلى جيل ، وكذلك نقل موارد الحضارة إلى أصغر الوحدات الحضارية مما يؤدى إلى وحدة العالم وقيام التعاون بين أرجائه . ولذلك فهو ينادى بضرورة إدراك الوظيفة الإيجابية للحاضرة التاريخية ، لا بوصفها مركزاً لنظام قومى أو استعمارى ، بل من حيث ما هو أجل شأناً من ذلك بكثير ، وهو الدور الذى يمكن أن تؤديه بوصفها مركزاً عالمياً ، ولا سبيل إلى أدائها هذا الدور إلا بإعادة التنظيم من أساسه ، إعادة تنظيم عملياتها ووظائفها وأهدافها ، وإعادة توزيع سكانها فى وحدات تكفل التعامل مع بعضها بعضاً على أساس أن تعطى بقدر ما تأخذ ، وقيام علاقات ودية وثيقة فيما بينها .

• • •

ولقد خلا النص الإنجليزى من الحواشى ، فيما عدا حاشية واحدة وردت فى آخر الفصل الثانى ، ولكن إزاء كثرة ما أشار إليه المؤلف من المدن والأنظمة والمفكرين والباحثين والمعماريين ورجال الدين وغيرهم ، فضلا عن شخصيات بعض القصص الأمريكية والإنجليزية ، فإنى أضفت عددا من الحواشى الموجزة لتيسر على القارئ تتبع النص .

ولا يفوتنى أن أعرب عن صادق شكرى على المعاونة الكريمة التى قدمها لى الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فى ترجمة بعض المصطلحات الفلسفية ، والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى ترجمة بعض المصطلحات الخاصة بنظم العصور الوسطى .

مقدمة المؤلف

يبدأ هذا الكتاب بالحديث عن المدينة حين كانت بمثابة عالم مستقل ، وينتهي بالحديث عن عالم أصبح مدينة من عدة نواح عملية . وقد حاولت أثناء تتبعي أدوار هذا التطور أن أعالج نظم المدن وأشكالها والمهام التي تؤديها ، وكذلك الأهداف التي تولدت عن قيامها . وأرجو أن أكون قد أوضحت أن أمام المدينة في المستقبل دوراً أعظم أهمية مما كان لها في الماضي على أن تتخلص من أسباب العجز والقصور الأصلية التي لازمتها طوال تاريخها .

وعلى نحو ما فعلت في كل دراساتي الأخرى عن المدينة ، قصرت بحثي هنا بقدر المستطاع على المدن والأقاليم التي عرفتها بنفسي ، وعلى الوقائع التي لامستها أمداً طويلا ، ر ر. هذا التحديد ، لم أتناول سوى عالم الحضارة الغربية . بل إنني اضطررت إلى ترك أقطار هامة فيه ، مثل إسبانيا وأمريكا اللاتينية وفلسطين وأوروبا الشرقية وروسيا السوفيتية ، وإني لآسف لهذا الإغفال ، بيد أن ملافاته تضيني عمرا جديداً ، إذ أن خطتي في البحث تتطلب المعاينة والتقصي بنفسي ، وهو ما لا يمكن أن تغني عنه الكتب .

وجدير بالتنويه أن كتاب « المدينة على مر العصور » يحل مكان الفصول التاريخية الضيقة النطاق في كتاب « حضارة المدن » ، بل إن بعض أجزاء من تلك الفصول الأربعة الأصلية تكمن بين ثنايا الثمانية عشر فصلا التي يتألف منها هذا الكتاب الذي يزيد حجمه على ضعف حجم الكتاب الأول . وأرجو ألا يقسو القارئ في اتهامي بالإغراق في إجلال القديم إذا ما عثر أحياناً في أطواء هذا الكتاب على حطام جزء من ذلك البناء السابق ، فقد

احتفظ به كما يحتفظ بقطعة من سور روما العتيق بإدخالها فى مبنى آخر يختلف كل الاختلاف عن المبنى الأول ، ثم إنى لم أحتفظ إلا بالقدر الذى وقفت حياله عاجزا ، فلم أجد فى نفسى من المقدرة ما يعيننى على الإتيان بما هو أفضل منه ، ولا من سعة الحيلة ما يسعفنى بالإفاضة فيه ، والإضافة إليه . ولعل من شأن المادة التى احتفظت بها أن تضفى على الكتاب من التماسك والتسلسل المترابط ما كان من المحتمل أن يفتقر إليه لو أننى أغفلت شأن البناء الأول ، ودككته دكا على نحو ما يفعل المغامرون حين يشرعون فى البناء مستعينين بالجرارات السيارة .

ومن ثم أضحى الكتاب بوضعه الراهن صورة تطابق قصة النمو التاريخى للمدينة نفسها .

الفصل الأول

الهيكل والقرية والحصن

١ - المدينة على مر العصور :

ما المدينة ؟ كيف ظهرت فى الوجود ؟ ما أوجه النشاط التى تشجعها ؟ وما الوظائف التى تؤديها ؟ وما الأهداف التى تحققها ؟

ما من تعريف واحد يمكن تطبيقه على كل هذه المظاهر ، ومامن وصف واحد يمكن أن يشتمل على كل أدوار التطور التى مرت بها المدينة منذ كانت نواة اجتماعية فى دور التكوين ، إلى أن تعقدت مظاهرها حين اكتمل نضجها ، إلى أن تفككت أوصالها حين أدركها الهرم . ويحيط الغموض بأصل المدينة ، كما أن جزءاً كبيراً من ماضيها قد طمر أو اندثر على نحو لايدع سبيلا إلى التعرف عليه ، هذا إلى أن من العسير تقدير احتمالات تطورها فى المستقبل :

فهل ستختفى المدينة ، أو أن الأرض كلها سوف تتحول إلى خلية حضرية شاسعة ؟ وهو ما يكون صورة أخرى من اختفائها . وهل تستطيع الحاجات والغايات التى دفعت الإنسان إلى الإقامة فى المدن ، أن تحقق على مستوى أرفع ، كل ماكان يلوح للإنسان أن ستوفره الإقامة فى القدس أو أثينا أو فلورنسا ؟ ، وهل مازال هناك مجال للاختيار بين الإقامة فى مدينة يحشر الناس فيها حشر الموتى فى مدينة المقابر ، وبين الإقامة فى مدينة طوباوية ؟ وهل من الميسور إنشاء مدينة من طراز جديد بحيث تكون متحررة من ألوان التضارب والتناقض الداخلى فتصبح عونا حقيقياً على بلوغ مزيد من التقدم الإنسانى ؟

وإذا أردنا أن نضع أساساً جديداً للحياة الحضرية فإنه يتعين علينا أن نفهم .

طبيعة المدينة فى ضوء تطورها التاريخى ، وأن نفرق بين مهامها الأصلية ، أو المهام التى تولدت عن وجودها ، وتلك التى لا يزال من المحتمل أن تنشأ . وبدون التغلغل بعيداً فى أغوار الماضى لن نستشعر أنه قد توافر لدينا مايلزمنا من قدرة دافقة للوثوب بجرأة فى مجاهل المستقبل ، وذلك لأن جانباً كبيراً من تخطيطاتنا الحالية للمدن — ومن بينها الكثير من تلك التى تفاخر بأنها « راقية » أو « تقدمية » — ما هو إلا صورة آلية كئيبة ممسوخة لألوان من تخطيط المدن والأقاليم توجد بين ظهرانينا .

ولما كان الوصول إلى مجرد فهم جزئى لطبيعة المدينة ودورها فى الحياة قد استغرق أكثر من خمسة آلاف عام ، فإن استقصاء البحث وراء مالم يتحقق حتى الآن من إمكانيات المدينة قد يحتاج إلى زمن أطول من ذلك . فعند بزوغ فجر التاريخ كان نمو المدينة قد اكتمل ، ولذلك فإننا عندما نحاول أن نستشف حقيقة الوضع الحالى للمدينة يجب أن نمد أبصارنا إلى ماوراء الأفق التاريخى لنتبين المعالم لمنشآت أقدم عهداً ومهام أكثر بدائية ، وهذا هو ما سوف نضطلع به قبل كل شىء ، إلا أننا سوف لا نترك هذا الدرب ومابه من مسالك متعرجة وشعاب ترتد إلى الوراء إلا بعد متابعة السير فيه تجاه المستقبل الدانى عبر خمسة آلاف عام فى سجل التاريخ .

وعندما نصل أخيراً إلى عصرنا الحاضر سوف نجد أن مجتمع المدينة قد وصل إلى مفترق الطرق . وهنا بعد ما نزداد علماً وإحساساً بماضينا ، ونزداد كذلك إدراكا للقرارات التى اتخذت فى الماضى البعيد — تلك القرارات التى ما زالت تسيطر علينا فى كثير من الأحوال — فإننا سنكون أقدر على مجابهة القرار العاجل الذى يواجه الإنسان اليوم ، والذى سوف يحدد مصيره النهائى تبعاً للطريق الذى يختاره ، أى هل سيكرس الإنسان نفسه لتنمية أنبل صفاته الإنسانية ، أو أنه سيترك نفسه تحت رحمة القوى التى أطلقها بنفسه وأصبحت الآن تكاد تعمل من تلقاء نفسها ، ويخلى مكانه لبديله المجرد من

الصفات الإنسانية « إنسان ما بعد التاريخ » ؟ وسيصحب اختيار الطريق الأخير تزايد فقد الإحساس ، وتناقص العاطفة والجرأة الخلاقة ، وأخيراً فقد الوعي والشعور .

وإننا لنجد أن الكثير من المدن ، والكثير مما هو قائم بيننا من مؤسسات التعليم والمنظمات السياسية ، قد انساقت وارتبطت فعلا «بإنسان مابعد التاريخ» ، على أن هذا المخلوق المطيع سوف لا يحتاج إلى المدينة ، فإن ما كان يوما مدينة سوف ينكمش إلى حيز مركز للرقابة تحت الأرض ، لأن كل الخصائص والمميزات الأخرى للحياة سوف يضحى بها في سبيل النظام الآلي ، وإحكام الرقابة عليه .

وقبل أن تنساق أغلبية بني الإنسان إلى قبول المصير السالف الذكر تحت إغراء آمال واهية في الاستمتاع بسعادة وهمية تخفي ما ينطوي تحتها من الخطر الشامل ، قد يكون من الخير أن نلقي نظرة جديدة على ذلك التطور التاريخي لحياة الإنسان الذي صاغته المدينة وشكلته . ولكي تكون لدينا فكرة شاملة عما يجب علينا القيام به في الوقت الحاضر ، فإني أعتزم الرجوع إلى أوائل نشأة المدينة ، إذ أننا في حاجة إلى صورة جديدة لنظام المجتمع تشتمل الأفراد وعلاقاتهم ، وتبعاً لذلك ، كل وجوه نشاط الإنسان ووظائفه . وما لم نوفق إلى عرض هذه الصورة فإننا لن نتمكن من العثور على شكل جديد للمدينة .

٢ — إيحاءات ونماذج مستمدة من الحيوان :

عند البحث عن أصول المدينة قد يكون من اليسير جداً أن يغرينا ذلك بالاقتصار على التنقيب عن بقاياها المادية ، ولكننا إذا فعلنا ذلك يكون شأننا عندئذ كشأننا عندما نبحث في أمر الإنسان الأول ، ونركز اهتمامنا حول عظامه وقطع فخار آنيته وآلاته وأسلحته ، وبذلك نبخس قيمة مبتكرات مثل اللغة والطقوس الدينية ، وهي التي قلما تخلف — إذا خلفت على

الإطلاق – أى آثار مادية . ومن الجائز أنه قبل أن يظهر فى الوجود أى شيء مما اصطلحنا اليوم على اعتباره مدينة كانت بعض وظائف المدينة قد أديت ، وبعض أغراضها قد تحققت ، بل لعل بعض المواقع التى استخدمت فيما بعد لإقامة المدن كان قد سبق استيطانها زمنا ما .

فإذا مااقتصرنا على التنقيب عن منشآت ثابتة متجمعة داخل سور ، فإننا تكون قد جافينا الحقيقة فى موضوع طبيعة المدينة بأسره ، ولذلك فإنى أرى أنه لكى ندنو من معرفة أصل المدينة ، يجب أن نستكمل عمل عالم الآثار الذى يسعى حثيثا إلى بلوغ أعمق الطبقات الأرضية التى يستطيع أن يتبين فيها ولو أثراً طفيفا لتخطيط يشير إلى وجود نظام حضرى . فإذا أردنا التعرف على المدينة ، فإنه يجب أن نقتفى الأثر بادئين من أكمل ما عرف من منشآت المدينة ووظائفها ، لنعود القهقرى إلى عناصرها الأولى الأصلية مهما بلغ تباعدها فى الزمان والمكان والحضارة عن أقدم التلال التى يسكنها الإنسان . فقبل وجود المدينة وجد الكفر والهيكل والقرية ، وقبل القرية وجد المخيم والمخبأ والكهف والمغارة ، وقبل هذا كله ظهر الميل إلى حياة اجتماعية ، وهذا أمر من الجلى أن الإنسان يشترك فيه مع كثير من أنواع الحيوان الأخرى .

إن الحياة الإنسانية لتتأرجح بين قطبين ، هما الحركة والاستقرار ، ويمكن إرجاع المفارقة بين هذين اللونين فى حياة الإنسان إلى الانفصال الذى حدث فى مبدأ الخليقة بين الكائنات الأولية التى كانت أساساً طليقة الحركة وتتألف منها مملكة الحيوان ، وتلك التى كانت نسبيا عديمة الحركة وتتألف منها مملكة النبات ، فإن بعضا من الكائنات الأولى كالمحار مثلا كانت أحيانا ، لكى تستطيع ملاءمة ظروف حياتها ، تتحول باطراد عن طبيعتها الأولى إلى حد فقدان القدرة على الحركة ، بينما كان الكثير من النبات ، يتحرر إلى حد ما عن طريق تشعب الجذور تحت الأرض ،

ولكن انطلاق النبات كان يتم بوجه خاص عن طريق انفصال البذور وتطايرها . وإننا لنجد الإنسان فى مختلف أطوار الحياة يضحى بحرية التنقل فى سبيل الأمان ، أو على النقيض يترك الاستقرار فى سبيل المغامرة . وإنه لمن الثابت أن لدى أنواع عديدة من الحيوان قدرا من الجنوح نحو الإقامة والاستقرار ، والعودة إلى مكان تؤثره على سواه لما يهيئه لها من المأوى أو طيب الغذاء ، وعلى حد رأى كارل أوساور Clar O. Sauer لعل الميل الغريزى لحفظ أو تخزين القوت والاستقرار كان فى ذاته صفة أصيلة فى الإنسان .

وأبلغ من ذلك فى الدلالة ، تلك الدوافع نحو الاستقرار وحب البقاء التى نستمدها من ماضينا فى عالم الحيوان ، فهناك مخلوقات كثيرة – حتى الأسماك – تتجمع فى قطعان وأسراب للتزاوج وتربية صغارها . والطيور أحيانا تتعلق بعش بعينه وتعود إليه بذاته موسما بعد آخر ، وتلك الأنواع منها التى تعيش فى أسراب عندها عادة الاستقرار فى شكل جماعات عند التفريخ فى مناطق مأمونة مثل الجزر والمستنقعات . وأما المجموعات الأوفر عدداً ، والتى تحتشد للتزاوج ، فإنها بحكم تعددأصولها يتمخض عن تزاوجها تنوع فى السلالات لا يتسنى حدوثه فى مجتمع الإنسان حيث يتم التزاوج فى نطاق محدود . ومن الواضح أن هذه الأماكن التى كان الحيوان يتجمع فيها للحصول على القوت والتوالد ، هى النماذج الأولى لأبسط أنواع محلات استقرار الإنسان ، أى الكفر أو القرية . وهكذا نرى أن هذا الشوط الطويل فى تطور الحيوان قد سبق أحد مظاهر المدينة الباكرة ، وهو إحساسها بضرورة العزلة للدفاع عن نفسها ، إلى جانب ما صحبه من محاكاة الطيور فى ادعاء ملكية موطنها .

وليس هذا فحسب ، بل إن النواحى التقنية المعقدة التركيب فى المدينة التى أنشأها الإنسان لا تعوزها السوابق فى عالم الحيوان ، فإن أنواعا معينة

منه ، وخاصة القندس ، عندما تستقر فى مكان ، تجرى فيه تغيرات شاملة ، وذلك بقطع الأشجار وإقامة السدود وإنشاء المساكن ، ويكون من شأن هذه العمليات الهندسية أن تتحول مجموعة الأسرة المتماسكة إلى جماعة أقل تماسكا تتألف من أسر متعددة تتعاون على أداء الواجبات المشتركة بينها ، وتحسين موطنها المشترك . وإذا كانت مستعمرة القندس ينقصها الكثير من صفات المدينة ، فإنها قريبة الشبه جدا من القرى الباكرة التى استدعى إنشاؤها كذلك أعمالا هندسية فنية تقوم على تسخير القوى المائية .

وبرغم كل ذلك ، فإن التفاوت كبير بين أقرب ما وصلت إليه محاولات الأنواع الأخرى من الحيوان لإقامة موطن مشترك ، وبين أبسط صور المجتمع الحضرى . بيد أن لونا آخر من التطور يغاير التطور السالف الذكر كل المغايرة هو الذى يمدنا بأقرب ما يشبه كلا من « الحياة المتمدينة » والمدينة ، ونجده ممثلا فى حياة الحشرات التى تعيش فى مجتمع خاص بها . فهناك من وجوه الشبه العديدة بين الوظائف الاجتماعية التى تؤديها خلية النحل ووكر الأرضة وبيت النمل — وهى منشآت تصنع بمهارة فائقة وكثيراً ما تبلغ فى حجمها حدا مدهشا — وبين وظائف المدينة إلى حد يحملنى على إرجاء الإفضاء بالمزيد من ملاحظاتى إلى حين تبدو المدينة أمامنا فى وضوح ، وذلك لأنه حتى من حيث تقسيم العمل ، والتفرقة بين الطوائف ، ومزاولة الحروب ، وإقامة الملكية ، واستئناس أنواع أخرى ، واستخدام الرقيق — كان كل هذا موجودا فى « إمبراطوريات نمل » معينة قبل أن يوجد فى المدينة القديمة بملايين السنين ، ولكن فليتنبه القارئ إلى أن الأمر هنا ليس أمر استمرار بيولوجى ، بل الأصح أنه مثال لوجوه من التشابه والتقارب .

٣ — مدن الموتى ومراكز العبادة :

إننا لنجد فى تطور منشآت الإنسان للاستقرار الدائم تعبيرا عن احتياجات حيوانية تشبه ما نلقاه لدى أنواع المخلوقات الأخرى التى تعيش فى جماعات ، ولكن حياة المدينة ، حتى فى أبسط صورها البدائية ، تتكشف عن أكثر من ذلك ، فإننا ما نكاد نعثر على أثر الإنسان سواء فى نار مخيماته الأولى ، أو فى أداة هيأها من الحجر ، حتى نجد دلائل على مصالح ومخاوف لا نظير لها فى عالم الحيوان ، وبخاصة شدة الاهتمام بالموتى ، ويتبين ذلك من العناية بدفنهم عناية تقوم الشواهد على أنها كانت مقرونة بشعور متزايد من الإجلال الناشئ عن الخوف والرهبة .

ولعل إجلال الإنسان القديم للموتى — وهو تعبير عما أخذ بلبه وانطبع فى ذهنه من صور بارزة لأحلامه فى اليقظة وفى النوم — لعل هذا كان أقوى أثراً من الاحتياجات الفعلية فى دفع الإنسان إلى البحث عن مركز ثابت للاجتماع ، ومن ثم إلى إيجاد مقر دائم له . وفى العصر الحجرى القديم حين كان الإنسان يهيم على وجهه مضى مجهدا ، كان الموتى أول من ظفر بمأوى ثابت فى كهف ، أو تحت كوم تميزه مجموعة من الركام ، أو فى قبر مشترك تحت نشز من الأرض . ولعل الأحياء كانوا يعودون إلى هذه المعالم من حين إلى آخر لمناجاة أرواح أسلافهم أو استرضائها . وعلى الرغم من أنه لم يكن من شأن الصيد والبحث عن الطعام تشجيع الإقامة الدائمة فى مكان واحد ، فإن الموتى كانوا أصحاب الفضل فى ذلك . والثابت أن مدينة الأموات سبقت مدينة الأحياء في الوجود . وفى الواقع تعتبر مدينة الأموات ، من ناحية معينة ، الأرومة التى نشأت منها كل مدينة للأحياء حتى لتكاد تكون نواتها ؛ والحياة فى المدينة تمتد على مر العصور من أقدم مدافن الإنسان الأول.

إلى الجبانات الأخيرة ، أو بعبارة أخرى إلى مدن الموتى حيث انتهى مصير الحضارات الواحدة بعد الأخرى .

وينطوى هذا المجال على مبالغات ساخرة ، فقد كان أول ما يطالع المسافر ، حين يشرف على مدينة إغريقية أو رومانية ، صف من القبور وشواهدها على جانبي الطرق المؤدية إلى المدينة . وأما عن مصر فإن معظم ما بقى من حضارتها العظيمة ، لايعدو المعابد والقبور ، برغم تغلغل تلك الحضارة فى كل مظاهر وحياة أصحابها . وحتى فى المدينة الحديثة المكتظة بالسكان نجد أن أول هجرة شاملة إلى موقع فى الريف أكثر ملاءمة للإقامة : كانت هجرة الموتى إلى جنة المقابر فى ضواحى المدينة .

بيد أن هناك مكانا آخر فى بيئة إنسان العصر الحجرى القديم كان لايقتصر على ارتياده فحسب ، بل كان يعود إليه حينا بعد آخر ، ونعنى بذلك الكهف ، فإن الأدلة متوافرة فى جميع أنحاء العالم على إقامة الإنسان الأول فى الكهوف أو زيارته إياها . ففى الكهوف الجيرية بجبال الدوردونى (Dordogne) فى فرنسا مثلا ، يمكن أن نتتبع الآثار المتعاقبة لإقامة الإنسان هناك فى طبقة تلو أخرى ، تبعا لما كان يحدثه تآكل الصخور من انخفاض فى مجرى النهر ، وبذلك يرتفع المأوى القديم وينكشف أسفله سطح جديد . ولكن الدور الذى قامت به هذه الكهوف من ناحية الفن والطقوس ، كان أهم بكثير من استخدامها للسكنى ، فإن كهوفا مثل تلك الكهوف الموجودة فى لاسكو (Lascaux) وألتاميرا (Altamira) ولو أنها لم تكن تستعمل للسكنى ، إلا أنها فيما يبدو كانت نوعا من المراكز لإقامة الطقوس الدينية ، شأنها شأن نيبور (Nippur) وأبيدوس . ويرجع إلى وقت متأخر يصل إلى القرن الرابع قبل الميلاد ذلك النقش الذي يمثل كهفا مخصصا للحوريات وظهر فيه هرمس

(Hermes) وبان (Pan) ، وقد وجد النقش نفسه فى مغارة الحوريات بجبل بنتليكون (Pentelicon) .

ويمكن عادة بلوغ الأغوار الداخلية لمثل هذه المراكز الخاصة للطقوس عن طريق ممرات منخفضة متعرجة يقتضى المرور منها الزحف على نحو كثيراً ما يكون محفوفا بالخطر . وفى هذه الأغوار الداخلية نجد حجرات طبيعية عظيمة غطيت جدرانها بصور ملونة تثير الدهشة بما يبدو فيها من روعة الحيوية فى الشكل والانطلاق فى الرسم ، وأغلبها صور واقعية رائعة للحيوانات ، وبعضها صور لرجال ونساء ، تتسم بالتكلف والتزام نمط بعينه . وفى بعض الجهات تكشّف هذا الفن عن مستوى من الجمال والمقدرة الفنية لم يبلغه الإنسان ثانية إلا فى المعابد والقصور التى شيدت بعد ذلك بفترة تزيد على خمسة عشر ألف عام . وإذا كان البعض يرى أن مافى تلك الصور من الجمال الفنى ليس إلا نتيجة عرضية للسحر ، فلنا أن نتساءل : ألم يكن سحرها الخاص هو الذى كان يجتذب الناس إلى العودة إلى موطن أول نجاح باهر فى التعبير ؟

على أن تلك العادات ، حتى فى أبسط مظاهرها البدائية ، لم تعمر طوال العهد الذى نشأت فيه فحسب ، بل شقت طريقها إلى المدينة حين ظهرت فيما بعد ، ففى مغارة الإخوة الثلاثة فى أرييج (Ariège) نجد رسما من العصر الحجرى القديم يمثل رجلا — يبين أنه ساحر — يلبس جلد وعل ، ويضع فوق رأسه قرونا متشعبة ، على حين نجد فى كهف بإنجلترا قطعة من العظام ترجع إلى العصر نفسه وعليها نقش يمثل رجلا ، يخفى وجهه وراء رأس حصان .

واستناداً إلى ما تقول به كريستينا هول Christina Hole كان الناس فى إنجلترا حتى القرن السابع بعد الميلاد يحتفلون بأول شهر يناير بأن يلبس

الرجال جلود ورؤوس الحيوانات ، ويعمدون إلى الجرى والقفز فى الشوارع .. وقد نهى عن هذه العادة كبير أساقفة كانتربرى لأنها على حد قوله «شيطانية» . وإذا كان هناك ما يبرر الاشتباه فى أن هذه العادة تنطوى على استمرار قدر غامض مما درج عليه الأسلاف ، فإن هناك مبرراً أقوى لأن نجد فى الشعائر التى كانت تقام فى الكهف ، الدوافع الاجتماعية والدينية التى تضافرت لاجتذاب الناس فى النهاية إلى المدن ، حيث وجدت كل مشاعرهم الأولى ، مشاعر الرهبة والإجلال والكبرياء والفرح ، مجالا فسيحاً ، فجدها الفن ، وضاعفها عدد الذين شاركوا فى الاستجابة إليها .

وإننا لنجد فى هذه الهياكل العتيقة التى ترجع إلى العصر الحجرى القديم – مثل ما نجد فى أقدم أكوام الدفن والمقابر – نجد أولى أمارات الحياة المدنية ، ولعلها قد سبقت بزمن طويل ظهور ما يمكن حتى الاشتباه فى أنه كان مركزاً للاستقرار الدائم فى قرية . ولم يكن ذلك مجرد التلاقى فى موسم التزاوج ، ولا العودة بدافع الجوع إلى مكان موفور الماء والغذاء ، ولا هو الاجتماع بين حين وآخر فى بقعة حرام يسهل الوصول إليها لتبادل الكهرمان والملح وأحجار اليشب ، أو حتى لتبادل الآلات التى هيئوها ، فهنا فى مركز إقامة الطقوس كان الاجتماع يستهدف حياة أتم وأفضل ، ليس من حيث زيادة القوت فحسب ، بل من حيث زيادة المتعة الاجتماعية عن طريق الاستعانة إلى حد أوفى بالفن والرموز المعبرة عن أحلام اليقظة ، فضلا عن المشاركة فى التطلع إلى حياة أسمى حافلة بالمعانى والأهداف ، وزاخرة بأسباب الجمال الخلاب . وبالجملة حياة طيبة فى دور التكوين تماثل تلك الحياة التى سوف يصفها أرسطو يوما فى كتاب « السياسة » ، فهى اللمحة الأولى من المدينة الطوباوية . ومن ذا الذى يمكن أن يخامره الشك فى أن الإنسان حين كان يسعى جاهداً ليضمن الحصول على مقدار أوفر من لحم

الحيوان للطعام – إذا كان هذا حقيقة هو التأثير السحرى المقصود من وراء التصوير وإقامة الطقوس – كانت مزاولته الفن تزود حياته البدائية بشىء جوهرى له من الأهمية ما كان للغنيمة المادية التى يعود بها من الصيد؟ ولكل هذا أثره فى طبيعة المدينة التاريخية :

وكهف العصر الحجرى القديم يثير فى الذهن ذكرى هياكل أخرى لها مكانتها فى النفوس ، وكانت أيضاً تتمثل فيها خواص وقوى مقدسة ، وتجتذب الناس إليها من أقصى الأنحاء : وهى أحجار ضخمة ، أو غياض مقدسة ، أو أشجار تذكارية ، أو آبار مقدسة مثل بئر تشاليس (Chalice Well) عند جلاستونبرى (Glastonbury) حيث يزعم الناس أن يوسف الأريماثى (Joseph of Arimathia) ألقى بالكأس المقدسة . فهذه المعالم الثابتة وأماكن الاجتماع المقدسة كانت تدعو إليها فى أوقات معينة أو بصفة مستديمة جميع من يشتركون فى عين الطقوس السحرية أو المعتقدات الدينية . وما زالت مكة وروما والقدس وبنارس وبايبينج (Peiping) وكيوتو (Kyoto) ولورد (Lourdes) تثير فى النفوس ذكريات هذه الأغراض الأصلية ، وتستهوى أفئدة الناس ليحجوا إليها :

وإذا كانت هذه الخواص الأولية التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بظواهر الطبيعة لا تكفى وحدها لإنشاء مدينة أو المساعدة على قيامها ، فإنها تؤلف الجانب الأكبر من النواة الأساسية التى سيطرت فى الأصل على المدينة التاريخية . وقد لا يكون الكهف أضعف من ذلك أثراً فى الإيحاء للإنسان العتيق بأول فكرة عن إحاطة بقعة خالية بالمبانى . وكذلك فى إعطائه أول لمحة عن مدى القوة الكامنة فى مأوى تحوطه الجدران ، وأثرها مضاعفة التقبل الروحى والتحليق فى آفاق النشوة العاطفية . وإن وجود حجرة فى جبل تغطى جدرانها التصاوير لتمثل نموذجاً أولياً لمقبرة الهرم المصرى ، وما هو ذاته إلا جبل صنعه الإنسان متعمداً محاكاته . ولهذا الموضوع وجوه مختلفة

لا حصر لها ، بيد أنه على الرغم مما هنالك من الفوارق بين الهرم المصرى ، والمعبد البابلى المدرج ، والمغارة الفارسية ، والقبو المسيحى ، فإن كهوف الجبال كانت النماذج الأولية لها جميعاً . ولقد كان لكل من الشكل والغرض المنشود دوره فى بلوغ المرحلة التى انتهى إليها تطور المدينة .

على أننا فى رجوعنا إلى هذا المدى البعيد للوقوف على أصل المدينة ، يجب بطبيعة الحال ألا نغفل الاحتياجات العملية التى كانت تجمع فى مواسم معينة بين لفيف من الأسرات والقبائل للسكنى فى موطن مشترك ، وفى عدد من المخيمات المتقاربة ، بل لتنظيم جمع القوت أو الصيد . فإن هذه العوامل جميعاً قد قامت كذلك بدورها ، ولعله قبل أن تغدو القرى والمدن الزراعية من معالم حضارة العصر الحجرى الحديث بزمن طويل ، كانت المواقع الصالحة لها قد تم اختبار صلاحيتها من حيث وجود نبع يستمد منه الماء الصافى على مدار السنة ، ووجود تل صلب الأديم من السهل تسلقه ويحميه نهر أو مستنقع ، وغنى مصب النهر المجاور بالأسماك والمحاريات . ففى أقاليم عديدة كان كل هذا ، فى الفترة التى فصلت بين العصرين الحجرى القديم والحديث ، دعامة الحياة الاقتصادية فى مواقع يشهد بأنها كانت مراكز استقرار دائمة ، ما وجد فيها من محاريات مفتوحة كونت أكداسها أكواما ضخمة .

بيد أنه من الجائز أن تكون حياة الاستقرار أسبق من ظهور هذه القرى الصغيرة ، فإن بقايا مبانى العصر الحجرى القديم فى جنوب روسيا ، وكانت فيما يبدو جزءاً من قرية صغيرة ، تدعونا إلى الحذر من المبالغة فى تحديد تاريخ متأخر لظهور القرية الدائمة . ولسوف يتبين لنا أن مأوى الصياد المؤقت قد تحول إلى مقر دائم ، فأمسى علما بارزاً من مخلفات العصر الحجرى القديم فى معزل عن قرى العصر الحجرى الحديث التى تقوم أسفله .

ولكن يجب ألا يفوتنا أن مظهرين من المظاهر الثلاثة الأصلية لمراكز

الاستقرار المؤقتة يرتبطان بشئون مقدسة وليس بمجرد البقاء المادى ، فهما يرتبطان بنوع من الحياة أعظم قيمة وأوفر معنى ويغشاها إحساس عميق بالماضى والمستقبل ، فهى ترهب اللغز الغامض الأول الذى يكتنف التوالد الجنسى ، وكذلك اللغز الغامض الأخير الذى يحوط الموت وما قد يعقبه . وإذا كانت قد أضيفت إلى ذلك اعتبارات أخرى كثيرة عندما استكملت المدينة تكوينها ، فإن تلك الاعتبارات الأساسية بقيت السبب الأصلى لوجود المدينة ، ووثيقة الاتصال بالاعتبارات الاقتصادية التى جعلت تحقيق ذلك ميسوراً . وإننا لنجد فى أقدم التجمعات حول ضريح ، أو صورة رمزية ، أو حجر عظيم ، أو غيضة مقدسة ، بداية سلسلة من المنظمات المدنية المتعاقبة التى تتدرج من المعبد إلى المرصد الفلكى ، ومن المسرح إلى الجامعة .

وهكذا يتبين لنا أن المدينة قبل أن تصبح مقراً للإقامة الثابتة ، بدأت بأن كانت مكانا للاجتماع يختلف إليه الناس من حين إلى آخر ، فقطب المغناطيس يأتى قبل الوعاء . وقدرة المدينة على اجتذاب غير المقيمين فيها للاختلاط بالناس وإنعاش معنوياتهم ، ما زالت تعتبر معياراً جوهريا لا يقل شأنا عن التجارة فى تقدير قيمة المدينة ، أو شاهداً على مدى ما تنطوى عليه من طاقة حيوية ، وذلك على نقيض القرية . فهى تعادى الغريب عنها ، وذلك بحكم جمود تكوينها ، وانطوائها على نفسها .

وعلى ذلك فإننا نجد البذرة الأولى للمدينة فى مكان الاجتماع لإقامة الطقوس ، فقد كان هذا الاجتماع بمثابة كعبة يحج إليها الناس ، أى المكان الذى كان يجتذب إليه مجموعات من الأسرات أو العشائر فى فترات موسمية ، لأنه إلى جانب ما قد يتوافر فيه من المزايا الطبيعية ، كانت تتركز فيه قوى روحانية معينة ، أو قوى خارقة للعادة ، لها قدرة أكبر ومدى أطول ، ودلالة كونية أوسع وأشمل مما يحدث فى مجرى الحياة العادية . وإذا كان

من شأن أعمال الإنسان أن تكون عرضية ومؤقتة ، فإن مصدر قوته الروحية سيكون أكثر خلودا وأبعد صيتا ، سواء أكان مغارة من مغارات العصر الحجرى القديم أم كان مركزا للطقوس يعلوه هرم سامق مثل مراكز هنود المايا الحمر فى أمريكا .

وما كاد الإنسان يتحرر من قيود احتياجاته الحيوانية المباشرة ، حتى أخذ عقله يحلق فوق رقعة الوجود بأسره تاركا آثاره فوق كل من المنشآت الطبيعية ، كالكهوف والأشجار والينابيع ، وما حذق الإنسان صنعه بيده على نمطها . وعلى ذلك فإن بعض مهام المدينة وأهدافها كانت موجودة فى مثل تلك المنشآت البسيطة قبل أن تظهر المدينة فى الوجود بملابساتها المعقدة فتعيد تشكيل البيئة كلها لتكسب تلك المهام والأهداف عونا وقوة : ولكن ما هذا إلا طرف من القصة ، فلندعه إذن جانبا لنتابع السير قدما .

٤ — اروستُناس والقرية :

وعلى الرغم من أن بعض بذور الحياة الحضرية المتأخرة كانت موجودة فعلا فى حضارة العصر الحجرى القديم ، إلا أنه كانت تعوزها التربة الصالحة لتغذيتها . وذلك أن الصيد وجمع القوت يعولان أقل من عشرة أنفس فى الميل المربع الواحد ، فلكى يكون إنسان العصر الحجرى القديم آمنا على معاشه ، كان لابد له من نطاق واسع وحرية كبرى فى التنقل . وكان الحظ والمصادفة يتنافسان مع الدهاء والمهارة فى الحياة الاقتصادية للإنسان الباكر ، فكان حينا يأكل عن سعة ، وحينا يبيت على الطوى ، وإلى أن تعلم كيف يستخدم الدخان والملح فى حفظ اللحم لم تكن هناك مندوحة عن أن يوفر قوته يوما بيوم ، وأن يلزم جانب الحياة فى جماعات صغيرة متنقلة لا تعوقها أمتعة تثقلها ، ولا يقيدها مسكن ثابت .

وفى الفترة الفاصلة بين العصرين الحجرى القديم والحجرى الحديث :

أى منذ حوالى خمسة عشر ألف عام تقريبا ، ظهرت العلائم الأولى لتوافر الغذاء من موارد يمكن الاعتماد عليها ، فمنذ هذه المرحلة يبدأ الآثارى فى العثور على دلائل قاطعة على قيام مراكز للاستقرار الدائم فى منطقة تمتد من الهند إلى البلطيق ، وهى حضارة قامت على استخدام الأسماك والمحاريات ، ومن المحتمل أعشاب البحر أيضاً والدرنات المزروعة ، ولا شك فى أنه كانت توجد بالإضافة إلى كل ذلك أنواع أخرى من الغذاء لم يكن فى استطاعة الإنسان أن يعتمد عليها اعتماده على الأنواع الأولى . ومع ظهور هذه القرى الصغيرة فى الفترة الفاصلة بين العصرين الحجرى القديم والحجرى الحديث ، ظهر لأول مرة تطهير الأرض من الأدغال لاستخدامها فى الزراعة ، وظهرت كذلك أولى الحيوانات المنزلية ، تلك الحيوانات الحارسة والمدللة لدى أهل البيت ، كالخنزير والدجاج والبط والأوز ، وقبل كل شىء الكلب ، فهو أقدم حيوان اتخذه الإنسان رفيقا له . ولعله كان من ثمار حضارة هذه الفترة ما جرى الإنسان عليه من استنبات أشجار الغذاء عن طريق الفسائل والعقل على نحو ما يحدث فى نخيل البلح وأشجار الزيتون والتين والتفاح والكروم . وإن الوقت الذى تحتاج إليه أشجار الفاكهة ليكتمل نموها وتؤتى ثمارها ليدل على إقامة دائمة وعناية دائبة .

وعلى أثر انحسار العصر الأخير للجليد ، يبدو أنه كان لهذه الثروة الغذائية التى ازدادت زيادة هائلة ، نتائج مثيرة من حيث تأثيرها على العقل والأعضاء التناسلية ، فإن سهولة جمع القوت وازدياد الأمان وفرا وقتاً للراحة والفراغ ، ولعل التحرر من الصيام القهرى — والصيام كما هو ثابت من قديم الأزل يقلل من الشهوة الجنسية — قد جعل الغريزة الجنسية بشتى مظاهرها باكرة فى نضجها عنيدة فى طلب إشباعها ، بل طاغية فى سيطرتها على نحو يبدو أنه كان يعوزها أيام حياة القلق المصحوب فى أكثر الأحيان بجوع شديد

يهدد بالهلاك ، عندما كان الناس يعيشون على الصيد وجمع القوت . وإن ألوان الطعام والعادات الشبقية التي كانت شائعة بين أهل جزر المحيط الهادى عندما كشف عنهم الغربيون ، لتوحى إلينا بصورة ماكانت عليه الحال فى الفترة الفاصلة بين العصرين الحجرى القديم والحجرى الحديث .

ومن المحتمل أن يكون الدور الثانى فى مرحلة الاستقرار والاستئناس والتغذية المنتظمة قد بدأ منذ عشرة آلاف أو اثنى عشر ألف سنة . وقد صحب ذلك الانتظام فى جمع وزراعة البذور المنتقاة من أنواع معينة من الحشائش ، وكذلك تهذيب أنواع أخرى من النباتات ذات البذور ، كالبقول ونباتات فصيلة القرع ، واستخدام الحيوانات التى تنتظم فى قطعان كالثيران والأغنام ، وفى النهاية الحمير والخيل . وبفضل استخدام نوع أو آخر من هذه الحيوانات زاد الطعام ، كما زادت قوة الجر والقدرة على الانتقال الجماعى . ومن المحتمل جداً أنه لم يكن ميسوراً أن تتم أى مرحلة من مرحلتى هذه الثورة الزراعية العظمى بين قوم دأبوا طويلا على حياة التنقل من مكان إلى آخر ، إذ كان لابد من الإقامة الدائمة فى إحدى المناطق لمدة تكفى لمتابعة دورة النمو إلى نهايتها ، ولحث قوم بدائيين على تفهم كنه ما تؤديه الطبيعة ، ومحاكاة ذلك على نسق أكثر انتظاما . ولعل أهم ما حدث فى أثناء كل هذا التقدم ، كان استئناس الإنسان نفسه ، وهذا فى ذاته دليل على اهتمام متزايد بالعلاقات الجنسية والتكاثر .

وهنا لا يستطيع الإنسان أن يستبعد ما يذهب إليه ا . م . هوكارت A. M. Hocart من أنه ربما كان الاستئناس واستخدام السماد قد انبثقا من طقوس الإخصاب وتقديم القرابين السحرية ، كما أنه يكاد يكون أمراً مقطوعاً به أن تزيين الجسم واستعمال ثياب رمزية بحت من أجل إقامة الشعائر ، قد سبقا صنع الملابس لوقاية الجسم من الأحوال الجوية . وعلى كل حال

فإن الاستئناس الشامل كان الثمرة الأخيرة للاهتمام المتزايد بالعلاقات الجنسية والتكاثر ، وكان مصحوبا بازدياد أهمية الدور الذى تقوم به المرأة فى كل النواحى ، فحل التكافل محل السلب والنهب . ومن حسن حظ التقدم الإنسانى أن الغريزة الجنسية لدى المرأة لم تتطور على الإطلاق إلى حد الانفصال ، والتضخم الهائل على نحو ما بلغته مثلا عند الأرضة الملكة التى أخذت على عاتقها مهمة وضع البيض لكل أعضاء مملكتها .

ومن المحتمل جداً أن ما يسمى بالثورة الزراعية كانت قد تقدمته ثورة جنسية ، أى انقلاب كان من شأنه أن الصدارة لم تعد للرجل الفحل الصياد الخفيف فى حركته ، السريع فى عدوه ، المتحفز دائماً للقتل ، والذى سلبته مهنته كل شفقة ورحمة ، وإنما غدت الصدارة للأنثى الوادعة الكلفة بأطفالها ، إلى حد أن خطوها أصبح وئيداً كخطو الطفل ، المعنية بحراسة وتغذية الصغار من كل نوع ، حتى إنها لترضع صغار الحيوان أحياناً عندما تموت أمها . وهى أيضاً تقوم بغرس البذور ورعاية نبتها ، ولعلها كانت تسعى إلى ذلك أول الأمر بإقامة طقوس خاصة بالإخصاب ، إلى أن أوحى نمو البذور وتكاثرها بما يمكن عمله لزيادة المحصول الغذائى .

وليسمح لى بأن أبرز انصراف إنسان العصر الحجرى الحديث إلى العناية بشئون مجتمعه الحيوية باستئناس الحيوان وتهذيب النبات والإكثار منهما ، ولم يكن ذلك مجرد تذوق واختيار لما حبته به الطبيعة ، بل كان اختياراً وإكثاراً عن تمييز بلغ من شأنه أن إنسان العصر التاريخى لم يجد فى وسعه أن يضيف نباتا أو حيوانا ذا أهمية كبرى إلى مازرعته أو استأنسته جماعات العصر الحجرى الحديث . والاستئناس فى جميع صوره ينطوى على تغييرين كبيرين وهما دوام الإقامة واستمرارها مع ممارسة التحكم والتدبر فى أمر عمليات كانت قبلا تحت رحمة أهواء الطبيعة . وتسير مع هذا جنبا إلى جنب عادات الإنجاب والإرضاع والتربية . ولابد من أن الدور الرئيسى فى هذا المجال كان

لاحتياجات المرأة وشواغلها وإحاطتها التامة بعمليات النمو ، وقدرتها على الحنان والحب . ومع الزيادة العظيمة فى موارد الطعام نتيجة للازدياد المطرد فى أنواع النباتات والحيوانات التى استؤنست ، استقر للمرأة مكانها الرئيسى فى الحياة الاقتصادية الجديدة .

ومن المحقق أننا نجد آيات « البيت والأم » واضحة فى كل جانب من جوانب الزراعة فى العصر الحجرى الحديث ، وهى ليست أقل وضوحاً فى المراكز الجديدة بالقرية ، وقد أصبح أخيراً من الميسور الاستدلال عليها بالقبور وأساسات المنازل ، فإن المرأة هى التى كانت تعزق الأرض ، وتحصد الزرع وتعنى بحاصلات البستان ، وهى التى أحرزت تلك النتائج الباهرة من عمليات الاختيار والتهجين التى تم بفضلها تحويل فصائل برية فجة إلى عديد من المحصولات الأليفة التى تمتاز بغزارة إنتاج المواد الغنية بالغذاء ، كما أن المرأة هى التى صنعت أقدم الأوعية بضفر السلال وتشكيل آنية من الطين . وإن القرية من حيث الشكل لهى أيضاً من صنع المرأة . فالقرية مهما كانت أغراضها الأخرى لم تكن سوى مأوى مشترك للعناية بالصغار وتغذيتهم ، وفيها أطالت المرأة مرحلة العناية بالأطفال ، واللهو الخالى من المسئولية ، وهو الأمر الذى يتوقف عليه إلى مدى بعيد تطور الإنسان وتقدمه . ولقد كانت الحياة المستقرة فى القرية تمتاز على مختلف أشكال الحياة فى جماعات صغيرة متنقلة مفككة الروابط ، بأنها كانت تهيئ أقصى الوسائل الملائمة للتكاثر والتغذية والوقاية ، فبالمشاركة الجماعية فى العناية بالصغار ، كان يتسنى لأعداد متزايدة من الناس أن تنعم بالرخاء والرفاهية . وبدون هذه المرحلة الطويلة من التقدم فى ناحيتى الزراعة والمعيشة المنزلية ، لم يكن هناك من سبيل إلى الظفر بذلك الفيض من الطعام واليد العاملة ، وهو الذى جعل الحياة الحضرية أمراً ميسوراً . وكذلك لولا ما استحدثته حضارة العصر الحجرى الحديث فى كل النواحى من تقدير العواقب ونظام أساسه الإحساس بالمسئولية الأدبية ،

فإنه من المشكوك فيه أنه كان يتيسر قيام التعاون الاجتماعى الأكثر تعقيداً وهو الذى أتى فى ركاب المدينة .

ولقد ترك وجود المرأة أثره فى كل جزء من أجزاء القرية ، ولاسيما فى منشآتها المادية بما تحتويه من الأسيجة الواقية ، وهى تنطوى على معان رمزية لم يستطع التحليل النفسى الكشف عنها إلا مؤخرا ، فالطمأنينة والتقبل والإحاطة والرعاية كلها من خصائص المرأة ، وكلها تتخذ شكلا ماديا يعرب عنها فى كل جزء من أجزاء القرية : فى البيت ، والفرن ، وحظيرة الماشية ، وصومعة الحبوب ، وصهريج الماء ، وحفرة التخزين ، ومخزن الغلال ، ومن ثم إلى المدينة فى السور ، والخندق ، وفى كل الساحات الداخلية بالمبانى من الردهة إلى الرواق . فالبيت والقرية ، وفى نهاية المطاف المدينة ذاتها ، صور مكبرة للمرأة . وإذا كان هذا القول يبدو ضربا من الإسراف مستمدا من التحليل النفسى ، فإن قدماء المصريين لايتوانون عن إقامة البينة على صحة ما نقوله ، فالرمزان اللذان يدلان فى اللغة الهيروغليفية على « البيت » و « المدينة » يمكن استخدامهما كذلك للدلالة على « الأم » كما لو كان ذلك لتأكيد التشابه بين مهمة الفرد ومهمة الجماعة فى تنشئة الصغار . ومما يساير هذا الاتجاه ، أن المبانى البدائية القديمة ـ المنازل والحجرات والقبور ـ كانت عادة مستديرة كالإناء الأصلى الذى وصف فى القصص الإغريقية ، وصنع على نمط ثدى افروديت :

وفى وسط البساتين والحقول كونت القرية نوعا جديدا من مراكز الاستقرار بوصفها مجتمعا مستديما يتألف من الأسرات والجيران ، ومن الطيور والحيوانات . ومن البيوت وحفر التخزين ومخازن الغلال . وقد رسخت جذور هذا المجتمع بأجمعه فى أرض الأسلاف ، حيث كان كل جيل بمثابة السماد وعناصر الإخصاب للجيل التالى . وكان مدار الحياة

اليومية الأكل والاتصالات الجنسية ، أى البقاء والتوالد . وحتى بعد بداية العصور التاريخية كان للعضو التناسلى عند الرجل والمرأة دور كبير فى الطقوس الدينية التى تقام فى القرية . وفيما بعد اتخذ عضو التناسل سبيله إلى المدينة على نمط ضخم لم يقف عند حد التنكر فى شكل المسلات والأعمدة والأبراج وقباب المبانى ، بل بلغ حد الظهور سافرا كما هى الحال فى النصب الضخم الذى ما زال يشاهد فى « ديلوس » وهو يمثل عضواً تناسلياً منتصبا ينقصه طرفه .

وكثير من المنشآت والرموز الحضرية كان موجوداً على نحو بدائى فى القرية الزراعية ، بل — إذا استطعنا الحكم استناداً إلى البينات التى وضحت فيما بعد — ربما كان السور معروفا فى شكل سياج من الأخشاب ، أوكوم من الأحجار للوقاية من الوحوش الضارية . فى داخل مثل هذا المأوى كان يتسنى للأطفال أن يلعبوا فى أمان ولبس حولهم من حراسة أخرى ، كما كان يتسنى للماشية أن ترتاح ليلا دون أذى من ذئب أو نمر . ومع ذلك فإنه على حد رأى ف . جوردون تشايلد V. Gordon Childe كان الكثير من القرى الصغيرة القديمة خاليا من مثل هذه الوسائل للوقاية ، ولذلك ربما كان وجودها دليلا فى ذاته على مجىء فترة بعد ذلك اشتد فيها الضغط أو الخطر ، وفى خلالها تبين أن إحاطة القرية بسور تغنى عن يقظة الحراس لدفع أذى المعتدين .

ولقد دخل هذه الحياة الحافلة بالنشاط الجنسى نظام جديد ، بل قل انتظاماً جديداً أو طمأنينة جديدة ، وذلك أن موارد القوت كانت أوفر مما كانت عليه فى أى وقت من قبل ، ويكاد يكون من المحقق أنه فى هذه المجتمعات التى ظهرت فى العصر الحجرى الحديث كان يولد من الأطفال ويبقى منهم على قيد الحياة أكثر مما كانت أى حضارة سابقة تستطيع أن تتعهده بالرعاية والتغذية إلا فى ظروف ميسرة إلى حد غير مألوف ، وأن الآلات المشحوذة والمصقولة التى كانت فى حين ما تعتبر المعيار الأساسى لحضارة العصر

الحجرى الحديث لتنهض دليلا على الصبر والمجهود المنتظم ، وهما أمران يختلفان اختلافاً شاسعاً عما كان يحتاج إليه الصيد وتكسير الصوان . وكل هذه العادات والوظائف الجديدة قامت بدورها فى خدمة المدينة ، عندما ظهرت فى النهاية ، ولولا هذا العنصر القروى الهام لأعوز مجتمع المدينة الكبير أساس جوهرى للبقاء والاستمرار مادياً واجتماعياً .

وحتى دون توجيه مقصود كان هذا التكافل الجديد بين الإنسان والحيوان والنبات مواتياً لتطور المدينة فيما بعد . ولقد كان الكلب فى الأصل يستخدم فى الصيد أقل مما كان ينتفع به فى الحراسة والتخلص من فضلات الطعام . ولولا الكلب والخنزير لكان من المشكوك فيه أن يتيسر للمجتمع البقاء بحشوده المكدسة وعاداته المنافية للقواعد الصحية . والحقيقة أنه حتى القرن التاسع عشر كان الخنزير يقوم بدور شعبة مساعدة لإدارة النظافة فى مدن مفروض أنها تقدمية مثل نيويورك ومانشستر . وكذلك حينما أصبحت الغلال وفيرة فإن القطة — وفى مصر الأفعى الأليفة — استخدمت للإقلال من عدد الحيوانات القاضمة التى كانت تنقل الأمراض وتستنزف القوت المخزون . بيد أنه من الإنصاف أن نضيف كلمـــة عن الجانب السالب ، فإن الفأر والجرذ والصرصور انتهزت كذلك فرصة المنشآت الجديدة وارتبطت بها ارتباطاً دائماً لا يمكن أن تنفصم عراه .

وقد كانت هذه المشاركة الجديدة بين الإنسان والحيـــوان سابقة لعهد استخدامها للأكل ، كما هى الحال فى شأن الملابس وتزيين الجسم ، فقد كان استعمالها للزينة سابقاً لاستخدامها من أجل فائدتها . ولكن لا بد من أن تلاصق مساكن الإنسان والحيوان كان له أثر فعال فى دعم الزراعة ، فقد أدى هذا التلاصق إلى نتيجة لم يكن منها مناص ، وهى تحويل الأماكن المجاورة للقرية إلى أكوام من السماد .

ولكلمة « الإخصاب » اليوم معنيان فى اللغة الإنجليزية ، وربما كانت الصلة بينهما قديمة ، فإن أولئك الزراع الأوائل ما كانوا ليصبحوا زراعاً إلا بفضل ما أوتوه من قوة الملاحظة ، وإذا كانوا قد أدركوا كنه العملية الغامضة التى تتم عن طريق التلقيح كما هى الحال فى نخيل البلح ، فلعلهم قد لاحظوا كذلك أن كلتا وسيلتى « الإخصاب » تساعدان على نمو النبات . ولقد كان شأن الرجل البدائى كشأن الطفل حين يتطلع باهتمام ، بل برهبة ، إلى كل ما يلفظه الجسم من فضلات ، ولم يثر خوفه ويدفعه إلى اتخاذ وسائل الحيطة سوى حدوث الحيض فى دورات منتظمة دون ضابط ولا تحكم ، فقد كان يعتبر هذه المنتجات التلقائية دليلا على قدرة ذاتية خلاقة توجد لدى كل من الإنسان ومشاركيه من الحيوانات ، وكان عدد النازلين فى القرية يكفى وحده لتوفير السماد ، بل إنه فى بلاد ما بين النهرين كان يمزج بالطين وتكسى به حوائط الأكواخ المصنوعة من حصير البوص .

وهكذا فإن مجرد الاستقرار فى القرى كان فى ذاته كافيا لجعل الزراعة تسد حاجاتها بنفسها ، اللهم إلا فى المناطق الحارة بالعالم الجديد ، حيث كانت تتبع فى الزراعة فيما بعد أساليب أبعد فى بدائيتها ، وتستخدم النار لإزالة الأحراش ، فإن القرية كانت تفتقر إلى عناصر الاستقرار ، وكثيراً ما كانت مراكز الطقوس تخلو من السكان المستديمين . ولكن حيثما كان ينتفع إلى الحد الأقصى بالفضلات التى يلفظها الإنسان والحيوان على حد سواء ، كما هى الحال فى الصين ، فإن المدينة الآخذة فى الاتساع كانت تعوض ما تطغى عليه من الأراضى الزراعية الثمينة ، بإخصاب الحقول المحيطة بها . وإذا عرفنا أين ومتى بدأت هذه العادة فإننا نظفر بمعلومات أوفى عن التاريخ الطبيعى للمدن الباكرة ، وإن دورات المياه والمجارى وتلوث مياه الأنهار لتمثل مرحلة ختامية فى تلك العملية ، وما هى إلا خطوة إلى الوراء من الناحية الأكلوجية ، أما من الناحية الفنية فإنها لم تحقق حتى الآن إلا قدراً من التقدم الفنى السطحى .

وحياة القرية تكمن جذورها فى الصلة الوثيقة بين الميلاد والمكان ، وكذلك بين الدم والتربة ، وكل عضو فيها هو إنسان كامل يقوم بأداء كل الوظائف الملائمة لكل مرحلة من مراحل الحياة منذ الميلاد إلى الممات مستعيناً بقوى طبيعية يجلها ويخضع لها ، على الرغم من أنه قد تغريه نفسه بالالتجاء إلى قوة السحر لتسخير تلك القوى لصالح الجماعة التى يعيش فيها . وقبل أن تظهر المدينة فى الوجود كانت القرية قد أوجدت له الجار ، أى ذلك الذى يعيش على مقربة منه ، بحيث يستطيعان التزاور والمشاركة فى مواجهة أزمات الحياة ، بالسهر على من يحضرهم الموت ، والمواساة بالبكاء على الموتى ، ومشاطرة الفرح والابتهاج عند الزواج أو ميلاد طفل . وبالجملة فكما يقول هسيود Hesiod يسارع الجيران إلى نجدتنا على حين يتلكأ الأقارب ذاتهم ويتباطأون فى إعداد أنفسهم .

ولقد انتقل إلى المدينة ما ظفرت به القرية من النظام والاستقرار إلى جانب رعايتها لأبنائها والوشائج الوثيقة بينها وبينهم فضلا عن توحدها مع قوى الطبيعة . وإذا ما افتقدنا تلك الصفات فى المدينة بوجه عام تبعاً لازدياد نموها واتساعها ، فإنها على الرغم من ذلك ما زالت باقية فى الحى أو وحدة الجوار . وبدون هذه الألفة الوثيقة بين المدينة ومواطنيها وقيام المدينة برعايتهم ، فإن أخلاق الشباب تنحل ، بل فى الحقيقة إن قدرتهم ذاتها على استكمال صفاتهم الإنسانية قد تزول وتتلاشى ، كما زال الواجب الأول لإنسان العصر الحجرى الحديث ، وهو تعهد الحياة بالعناية والرعاية . وإن ما يعرف بيننا باسم قواعد الأخلاق قد نشأ فى القرية من العادات الكفيلة بحفظ الحياة . وعندما تنحل هذه الروابط الأولية ، ويتوقف المجتمع الذى نراه ونألفه عن أداء واجبه كجماعة يقظة ذات صفات مميزة تعنى كل العناية بخير المجموع ، فإن كلمة « نحن » تتحول إلى أزيز سرب يردد كلمة « أنا » وتبلغ الصلات الثانوية وروابط الولاء حداً من الضعف لا تستطيع معه وقف تفكك أوصال

المجتمع الحضرى . والآن ، وقد أخذت أساليب القرية تتوارى على عجل فى جميع أنحاء العالم – الآن فقط نستطيع أن نقدر قيمة ما تدين به المدينة لتلك الأساليب من قوة حيوية ورعاية مفعمة بالمحبة ، مما يسر للإنسان أن يمضى قدماً فى طريق التطور .

٥ – صناعة الخزف وتسخير الماء وتقفى الطبيعة :

صاحب ظهور القرية تطور جديد فى أساليب الصناعة . فأسلحة الرجل والآلات التى كانوا يستخدمونها فى الصيد وقطع الأحجار كالرمح والقوس والمطرقة والفأس والسكين ، قد أضيفت إليها أدوات تتسم أشكالها بطراز العصر الحجرى الحديث ، وتدين بأصلها للمرأة ، بل إنه يمكن أن نعزو إلى المرأة نعومة الآلات المشحوذة ، التى تختلف فى ذلك كل الاختلاف عن الأنواع المقتطعة من الأحجار . وقد كانت الحقيقة الكبرى فى صناعة العصر الحجرى الحديث أن مبتكراتها الرئيسية لم تكن فى الأسلحة والآلات ، وإنما فى الأوعية .

وتتسم آلات العصر الحجرى القديم وأسلحته بمواءمتها غالباً للحركة والجهود العضلية ، كآلات الفصل والقطع والحفر والنقب والشق والتقطيع . فهى كلها تتطلب استخدام القوة بسرعة ، وعن بعد ، وبالجملة فهى تمثل كل وجوه النشاط العدوانى . فعظام الرجل وعضلاته تسيطر على كل مايفتن فى صناعته ، بل إن عضوه التناسلى يكون عند ارتخائه عديم الفائدة من الناحية الجنسية إلى أن يصبح فى صلابة العظم – على حد قول العامة . بيد أن أعضاء المرأة الداخلية اللينة هى مركز حياتها ، ومما له دلالته أن ذراعيها وساقيها لاتستخدم للحركة بقدر ما تستخدم لتمسك إليها وتحتوى بين أحضانها لما حبيبها أو طفلها ، على حين أن نشاطها الجنسى المنفرد فى طبيعته يتم عن طريق فتحات وحوصلات فى الفم وعضو التناسل والمهبل والثدى والرحم .

وفى ظل سيادة المرأة كان العصر الحجرى الحديث ، إلى حد يفوق كل ما عداه ، عصر أوعية ، فهو عصر الأوانى المصنوعة من الحجر والفخار ، عصر أوانى الزينة والقدور وأوعية حفظ الماء والسوائل وغيرها من المواد ، وكذلك عصر الصوامع ومخازن الغلال والبيوت ، كما كان أيضاً عصر الأوعية الجماعية الكبرى كأخاديد الرى والقرى . ودور المرأة فى حضارة العصر الحجرى الحديث دور فذ بالغ الأهمية ؛ ومع ذلك فكثيراً جداً ما أغفله أولئك الباحثون المحدثون الذين يعتبرون الآلات معيار كل تقدم تقنى (فنى technical) .

واستناداً إلى ما يقوله روبرت بريدوود Robert Braidwood فإن أقدم مسكن بدائى كشف عنه حتى الآن فى بلاد ما بين النهرين هو جحر حفر فى الأرض وجفف فى الشمس حتى أصبح فى صلابة الطوب ، ويستوقف النظر أكثر من ذلك أن هذا البيت الأول سابق فى التاريخ ، فيما يبدو ، لأى نوع من الآنية الفخارية ، إذ أنه لا تكون للأوعية أهمية إلا حينما يوجد فائض عن الحاجة يجب حفظه وتخزينه . وعلى الرغم من سهولة الحصول على الأصداف والجلود ، فإنه قلما كان لصياد العصر الحجرى القديم حاجة إلى الأوعية ، فقد كان يتخذ من بطنه المنتفخ وعاء ، شأنه شأن رجل الأدغال الذى لايزال باقيا فى أفريقيا ، ولكن حالما جاءت الزراعة بفائض من القوت ومراكز دائمة للاستقرار أصبحت أوعية التخزين بجميع أنواعها ضرورة أساسية .

وبدون الأوعية المحكمة لم يكن فى وسع ساكن القرية فى العصر الحجرى الحديث اختزان الجعة والنبيذ والزيت ؛ وبدون أوعية من الحجر أو الطين يمكن سدها لم يكن ليتسنى له منع القوارض أو الحشرات من دخولها ، وبدون أوعية حفظ المواد وصهاريج الماء والصوامع ماكان ليستطيع الاحتفاظ بقوته

من موسم إلى موسم . وكذلك فإنه بدون المسكن المستديم لم يكن من الميسور للصغار والمرضى والطاعنين فى السن أن يعيشوا سوياً فى أمان وطمأنينة ، ولا أن ينعموا بالرعاية والحنان . وتتمثل فى الأوعية المستديمة قدرة العصر الحجرى الحديث على الابتكار التى جعلته يبز كل ماسبقه من الحضارات ، وقد بلغت هذه الأوعية من الجودة أننا ما زلنا إلى اليوم نستخدم كثيراً من طرقها وموادها وأشكالها ، فالمدينة الحديثة نفسها على الرغم من كل ما بها من صلب وزجاج مازالت فى جوهرها منشأة من العصر الحجرى مرتبطة بالأرض . واستعمال الطين المحروق ، منذ وقت مبكر فى تدوين الوثائق قد هيأ للفكر الإنسانى من الدوام ما لم يترك مجالا للمنافسة من جانب أى واسطة أخرى ، وتشهد بذلك إلى الآن النقوش المسمارية التى خلفتها لنا بابل . وعلى الرغم من أن المدن القديمة كثيراً ما دمرت ، فإن سجلاتها المستديمة كانت فى أمان من أن تتأثر بالماء والنار . ولقد اقترن التخزين بالاستمرار ، وكذلك بالفائض الذى كان يمكن الاعتماد عليه فى المواسم العجاف . وقد كان الاحتفاظ جانبا وفى أمان بالحبوب التى لم تستهلك من أجل زراعتها فى العام التالى ، هو الخطوة الأولى فى الاتجاه نحو جمع رأس المال .

ولنتأمل مدى ما تدين به المدينة للقرية من الناحية التقنية ، فقد أتى منها مباشرة أو بعد التنميق ، مستودع الغلال والمصرف ودار صنع السلاح ودار الكتب والمخزن ، ولنذكر كذلك أن أخدود الرى والترعة والخزان والخندق وقناة المياه المحمولة على أقواس والمجارى والبالوعات ما هى إلا أوعية أيضاً الغرض منها النقل الذاتى أو التخزين . ولقد تم ابتكار أولها قبل ظهور المدينة بزمن طويل ، وبدون هذه السلسلة الكاملة من المبتكرات ما كان ليتيسر للمدينة القديمة أن تتخذ الشكل الذى انتهت إليه ، فهى لم تكن إلا وعاء للأوعية .

وقبل ابتكار عجلة الفخرانى أو المركبة الحربية أو المحراث ، أى قبل عام

٣٥٠٠ ق . م . بزمن طويل ، كانت كل الأشكال الرئيسية للأوعية قد مرت بمراحل طويلة . وأن كارل ا . فيتفوجل Karl A. Wittfogel لعلى صواب فى إبراز أهمية التحكم الجماعى فى الماء باعتباره إحدى الخصائص المميزة للدول التى كانت تحكم حكما مطلقاً وازدهرت فى العصر الحجرى النحاسى . بيد أنه توجد أدلة على أن القرى المبكرة المتناثرة على ضفاف النيل والفرات كانت قد بدأت تحذق ذلك الفن ، فما الطين والماء كما يعرف الأطفال إلا عجين قابل للتشكيل ، ولذلك فإن الدرس الذى تعلمه الإنسان وهو يشكل البيت وصهريج الماء وأخدود الرى والترعة انتقل إلى كل جزء آخر فى بيئته الطبيعية . والواقع أن عمليات استئناس النباتات والحيوانات وتحضير الإنسان وترويض الطبيعة المحيطة به قد تمت كلها معا .

والخلاصة أن تكوين شكل الأرض جزء لا يتجزأ من تكوين شكل المدينة وسابق له ، وأن هذا الارتباط الحيوى الوثيق بين طبيعة تكوينهما ليفصم عراه فصما حافلا بالمخاطر للبشرية ، ما يقوم به رجال العصر الحديث من المشروعات لإحلال أوضاع مصطنعة يمكن إغراء الناس بتقبلها مكان الأوضاع المعقدة التى أوجدها تشكيل الأرض والعلاقات القائمة بين البيئة وأهلها .

وإن المئات بل الألوف من القرى الصغيرة الواقعة فى أماكن أوفر حظاً من سواها فى العالم فيما بين مصر والهند قد قامت بتطبيق تلك الفنون على نحو متواضع ، ولكنه حاسم فى كل مظهر من مظاهر حياتنا . وبذا خضعت أراضى الغابات والمراعى للزراعة باليد ، وعلى مقربة من الصحراء أو ما يشبه الصحراء ، كما حدث فى وادى الأردن ، ظهرت للعيان واحات صغيرة تعتمد فى وجودها على موارد مضمونة للمياه المختزنة فى صهاريج ضخمة .

ومن الجائز أنه لولا ذلك الأساس ، لولا ذلك الوعاء ، لولا ذلك السياج والنظام ، لما طرأت فكرة إنشاء المدينة على الإطلاق . فهذه الوظائف التى نشأت فى العصر الحجرى الحديث كانت أساسية لما ظهر للمدينة من أهداف

ولِيدة ، وهذه الأهداف هى التى وجهت تلك الوظائف نحو غايات مختلفة أشد الاختلاف .

٦ – ما أسهمت به القرية :

وإذا نظرنا عن كثب إلى القرية فى أول نشأتها كما يجب أن نتخيلها فى بلاد ما بين النهرين وفى وادى النيل ، وذلك مثلا فيما بين عام ٩٠٠٠ وعام ٤٠٠٠ ق. م. ، فإننا نرى أنها كانت مجموعة أكواخ من الطين المجفف ، أو من الطين والبوص ، وكان الكوخ صغيراً إلى حد أنه فى مبدأ الأمر لم يكن يتجاوز حجم مسكن القندس . وكانت تحيط بالقرية بساتين وحقول ، كانت جميعاً متواضعة فى مساحتها ، إذ أن الحقول الواسعة ذات الحدود الواضحة والشكل المستطيل لم تظهر إلا مع ظهور المحراث . وعلى مقربة من القرية كان يوجد النهر أو المستنقع حيث تقتنص الطيور بالفخاخ ويصاد السمك بالشباك للحصول على طعام إضافى يعين على قلة المحصول أو يزيد من الطعام اليومى المعتاد . بيد أنه ، كما لاحظ جون ا. ويلسون (John A. Wilson) حتى فى أكثر القرى الصغيرة بداءة ، مثل قرية مرمدة بنى سلامة بدلتا النيل فى مصر « كانت تغرس فى باطن الأرضية جرة ليتجمع فيها ماء المطر الذى يخترق السقف » وفضلا عن ذلك « كان للقرية مخزن جماعى للغلال يتألف من سلال مضفورة كانت تنزل فى باطن الأرض » .

وأغلب ما نعلمه عن بناء الكفور والقرى فى العصر الحجرى الحديث وعن أساليب الحياة فيها ، نستمده من البقايا الطفيفة التى ظلت محفوظة فى المستنقعات البولندية ، وقاع البحيرات السويسرية ، وطمى الوجه البحرى المصرى ، أو من شذرات الأغانى والقصص التى سجلتها بعد ذلك بزمن طويل آداب الحضارة الراقية عند السومريين والمصريين والإغريق . وأما من ناحية ما بقى إلى اليوم من القبائل التى يفترض الناس أنها بدائية ، فإنه لا أمل فى أى معلومات

عن حياة القرية عندهم يمكن أن تساعدنا على تعرف الحقيقة عن تلك الحضارة الباكرة التي كانت لا تزال في دور التكوين . وذلك لأن المجتمع الذي نعتبره اليوم بدائياً ، حتى لم تبد عليه إلا سمات قليلة تدل على الاتصال حديثاً بحضارات أكثر تقدماً ، يكمن وراءه ماض متواصل الحلقات والتغييرات طوال حقبة من التاريخ لا يقل مداها عن ماضي أي جماعة قومية ، أو وحدة حضرية من الجماعات والوحدات التي بلغ تكوينها حداً كبيراً من التعقيد . ولعل أفضل المصادر لحضارة القرية الباكرة هي العادات والمعتقدات الخرافية التي ظلت باقية في المناطق الريفية إلى يومنا هذا تقريبا . ويلوح أن هذه الحضارة العتيقة ، كما يدعوها أندريه فارانياك (Andre Varagnac) ، كانت الطبقة التي لم تندثر وشيدت عليها حضارات العالم القديم ما بلغته من المدنية والتقدم .

والقرية في كل مكان مجموعة من الأسرات ، قد يتراوح عددها بين ست أسر وستين أسرة ، لكل منها دارها الخاصة بها ، وإلهها الخاص ، وهيكلها الخاص ، وبقعة خاصة لدفن موتاها ، إما في داخل المنزل أو في جبانة القرية . وإذ كانوا يتكلمون اللغة نفسها ، ويتقابلون معاً تحت شجرة واحدة ، أو في كنف نفس الحجر الذي يجلونه جميعاً ، ويسيرون على الطريق نفسه الذي تطؤه أقدام مواشيهم ، فإن كل أسرة تتبع أسلوب الحياة نفسه وتبذل الجهود نفسها ، وإذا كان هناك أي نوع من تقسيم العمل فإنه كان في أبسط أشكاله الأولية ، ويقوم على أساس السن والقوة أكثر مما يقوم على المقدرة والكفاية المهنية ، فقد كان كل من يتطلع في وجه جاره لا يرى إلا صورته هو شخصيا . وفي أغلب الحالات أتت الأيام على البناء المادي للقرية ، وامتزج بصفحة الأرض ، ولم يبق منه سوى ما خلفه من الأصداف وقطع الفخار المكسورة ، بيد أن بناء القرية الاجتماعي بقي صلباً راسخاً لقيامه على أساس من المبادىء والحكم والأمثال وماضي الأسرات ، وأمثلة البطولة ، والتعاليم الخلقية ، وقد ادخرت جميعا وتوارثها الأبناء عن الآباء دون أي تحوير فيها أو تبديل ؛

ومن المحتمل أنه عند ما ازداد نجاح النظام المتبع فى الزراعة منذ العصر الحجرى الحديث ، اتجه الناس نحو التشدد فى المحافظة عليه بمنأى عن أى تغيير . وعند نهاية هذه الفترة نجد أن التجارب الجريئة التى أدت إلى التمييز بين النباتات الصالحة للأكل ، والنباتات السامة أو التى لايمكن هضمها ، كما أدت إلى الكشف عن أسرار غرس الجذور والبذور والتلقيح والاختيار ، وكذلك أدت إلى انتقاء الحيوانات الوديعة السهلة القياد وهى التى أصبحت أكبر معين للرجل ، نجد أن هذه التجارب قد تناقصت إلى حد كبير ، إن لم تكن قد انقطعت تماماً . ولقد كانت صفات التطابق والتكرار والصبر ، هى مفاتيح هذه الحضارة عندما رسخت أقدامها . ولاشك فى أنه قد انقضت آلاف السنين قبل أن تتحدد معالم الحياة الاقتصادية فى العصر الحجرى الحديث وعندها لم تعد فى حاجة إلى حافز جديد يدفعها نحو التقدم والتطور ، وكان شعار هذه القناعة « تشبث بكل ما هو صالح ولا تبحث عما عداه » .

وقبل أن تتقدم وسائل النقل المائى كانت كل قرية فى الواقع عالماً قائما بذاته ، ولعل انصرافها الكامل إلى شئونها الخاصة ، كان له من الأثر فى عزلتها ما كان للحواجز الطبيعية . بيد أنه حتى فى تلك الظروف البدائية لم يكن ذلك التطابق مطلقا ، ولا ذلك الاكتفاء الذاتى كاملا ، ولا تلك الحواجز عسيرة الاجتياز ، فقد كان من الجائز أن يجد مواطن إحدى القرى نفسه مضطراً إلى أن يقصد قرية أخرى للبحث عن آلة أو لاقتناص عروس . ومع ذلك فإن الهدف الأسمى لأهل القرى ظل على النحو الذى صوره لاو — تسى (Lao-tse) فيما بعد ذلك بزمن طويل : « الابتهاج بطعامهم والزهو بثيابهم والقناعة ببيوتهم والفرح بعاداتهم » . ولذلك فإنهم « قد يكونون على مرأى من قرية مجاورة ، وعلى مسمع من الديكة والكلاب ، إلا أنهم يتقدمون فى السن ويموتون دون تبادل الزيارة مع أهل تلك القرية » . فقد كان من الممكن أن يتوالد أهل مثل هذه القرى ويتضاعفون دون أن يدفعهم أى حافز

إلى تغيير أسلوب حياتهم ، إذ كانت حضارة القرية فى العصر الحجرى الحديث تفى بكل الاحتياجات ، ما دام أن أهم أغراض الحياة كانت التغذية والتوالد ، أى متعة البطن وأعضاء التناسل .

ولا شك فى أن هذه الصورة العامة تحتاج إلى تحديد ، فقد يغرينا الآن كل ماتقدم على المغالاة فى تصور جمود قرى العصر الحجرى الحديث ، وعلى أن نطالع فيما لها من خصائص وافرة المرونة كل ألوان الثبات والتكرار والرسوخ التى تراكمت خلال ألوف السنين ، إذ لا مناص من أن تكون قد حدثت أثناء تلك الألوف من السنين عمليات جديدة من التراكم والنمو المحفوف بالمغامرة . فمن حيث المظهر الخارجى كان قد توافر لقرية العصر الحجرى الحديث كثير من صفات المدن الصغيرة مثل لاجاش (Lagash) فى بلاد مابين النهرين . وفى الواقع لا يمكن التمييز بين بقايا كل من القرية الكبيرة والمدينة الصغيرة من حيث إنها مجرد بقايا ماصنعته يد الإنسان . ولو أنه كان فى الاستطاعة رؤية قدر أكبر من الآثار المادية ، لتيسر لنا أن نجد من التنوع فى التخطيط ما وجده مايتزن (Meitzen) فى أوروبا الوسطى من عصر متأخر عن ذلك بكثير .

ومع ذلك فإن القرية عرفت المعالم الجوهرية التى تكونت منها المدينة فيما بعد . فالبيت والمعبد وصهريج الماء والطريق العام والسوق – قبل أن تصبح مكاناً خاصاً للبيع والشراء – قد نشأت كلها فى القرية وهى مبتكرات ومظاهر أساسية للتباين ظلت تنتظر قيام المدينة لتتطور قدماً فى كنف تكوينها الأكثر تعقيداً . وما يقال عن التكوين العام للقرية ينطبق كذلك على منظماتها ، فأصول قواعد آداب السلوك والحكومة والقانون والعدل كانت موجودة فى مجلس شيوخ القرية . ولقد أوضح ثوركيلد جاكوبسن Thorkild Jacobsen أن هذه الهيئة النيابية – التى كانت حفيظة على التقاليد ورقيبة على الآداب وأعضاؤها قضاة الحق والباطل – يمكن تبينها فى بلاد ما بين النهرين فى

الألف الرابع قبل الميلاد ، لكن لابد من أن أصولها أقدم من أى مدونة ، ويبدو أن هذه الأداة البدائية من أدوات الحكم كانت من خصائص المجتمعات القروية فى كل العصور . ولقد بلغ من خطورة شأن هذه المنظمة أنها تركت طابعها على كل من القصص الدينية ونشاط الأداة الحكومية فى مدن بلاد ما بين النهرين ، إذ أنه إلى ما بعد ذلك بآلاف السنين كان لا يزال يوجد فى بابل مجلس للآلهة على نمط مجلس القرية العتيق .

وأمثال هذه المجالس ، التى نشأت من تلقاء ذاتها ، وتوحدت بحكم الممارسة والعادة ، كانت تعبر عما أجمع الناس عليه ، فهى لم تكن تتولى الحكم ولا تتخذ القرارات ، بقدر ماكانت تتولى التطبيق العاجل للقواعد المقبولة والقرارات المتخذة فى ماض سحيق لاتعيه الذاكرة . فى الحضارات التى لا عهد لها بالكتابة ، لا يتوافر إلا لكبار السن وحدهم قدر كاف من الزمن لاستيعاب كل ما يجب الإلمام به ، وما زال نفوذهم واضحاً فى مجتمعات القرى بأفريقية وآسيا وأمريكا الجنوبية ، والواقع أنهم فى بعض القرى الأمريكية كثيراً ما يباشرون حتى اليوم نفوذهم الأثرى دون أن يكون لذلك أى مظهر رسمى ، إذ أنه يتمثل فى الشيوخ مااختزنه المجتمع من حكمة ، فكلهم كانوا يشاركون فى العمل ، ويتفقون فى الرأى ، ويتعاونون على إعادة الأمن فى المجتمع إلى نصابه ، كلما عكر صفوه إلى حين سوء تفاهم أو نزاع . ولقد كان قدماء الإغريق يعتقدون أن احترامهم للعادات والقانون العام على نقيض أهواء الطغاة ، كان ثمرة فريدة لحضارتهم . ولكن ذلك فى الحقيقة ليس إلا دليلا على استبقائهم نظام القرية الديمقراطى القديم الذى نلقاه لأول مرة فى بلاد مابين النهرين ، وهو نظام يلوح أنه سابق لكل ممارسة باطلة للحكم على يد أقلية متسلطة تفرض تقاليدها الغريبة أو ماجاءت به طبقتها العليا من المستحدثات الغريبة كذلك ، على شعب مستسلم مغلوب على أمره .

وكذلك كانت الحال فى الدين نفسه ، فقد بقى فى حـــدود المستوى

الإنسانى المألوف ، ومع أنه ربما كان لكل قرية معبدها ومذهبها المحليان ، وكان المعبد ملكا مشتركا لكل الجيران ، فإن العاطفة الدينية ازدادت انتشاراً عن طريق الطواطم وعبادة الأسلاف . وكان لأهل كل بيت آلهتهم الخاصة بهم ، وكانت تعتبر ملكا حقيقياً لهم لا يمكن التفريط فيه ، وكان رب البيت يؤدى مهام الكاهن فى الصلاة وتقديم القرابين كما يفعل إلى الآن فى عيد الفصح رؤساء الأسرات اليهودية المتمسكة بأهداب الدين . وبالجملة فإن القرية عملت على عدم تركيز السلطة والمسئولية ، فقد ظلت إمكانيات التفارق والتخصص معطلة إلى حد كبير ، ولم يسمح بالتباعد والخروج على المألوف والابتكار والابتداع إلا فى أضيق نطاق محتمل ، وإن لم تستأصل شأفة ذلك دون هوادة . وفى مثل هذه الألفة ، وهذا القرب فى التجاور ، واللقاء يومياً وجهاً لوجه ، كان كل فرد يقف مع الآخر على قدم المساواة وكانت السن وحدها هى أساس الأسبقية والسلطة .

وعندما استقرت أهم مبتكرات العصر الحجرى الحديث ومنظماته ، كان من الميسور أن تستمر حياة القرية على هذا المستوى لمدة آلاف السنين وهى سعيدة بالاحتفاظ بكيانها . ولقد حدث آخر تطور كبير عند مجىء حضارة المحراث وإحلال الآلات المعدنية مكان الآلات الحجرية . ولا بد من أنه قد مرت حقبة طويلة إلى حد ما ، لم يظهر فى الوجود فى خلالها شىء يمكن وصفه بأنه مدينة كاملة توافرت فيها كل الصفات المميزة . بيد أن التدرج بين قرى العصر الحجرى الحديث ومدنه بلغ من اليسر ما بلغته أوجه الشبه بينها من الكثرة إلى حد يغرى المرء بأن يعتبرها ببساطة ، أشكالا لنوع واحد يمثل بعضها شبابه ويمثل بعضها اكتمال نضجه ، وهذا ينطبق إلى مدى بعيد على التكوين المادى للمدينة . ولكنه لاينطبق على منظماتها الاجتماعية ، فإن الكثير مما تحتويه المدينة كان كامناً ، بل موجوداً بوضوح فى القرية ، وأما المنظمات الاجتماعية فكانت أشبه بالبويضة التى لم تلقح منها بالجنين الآخذ فى النمو ، وذلك لأنها كانت فى حاجة إلى أن تستمد من « والد » مجموعة بأسرها

من الكروموزومات المكملة لتتمخض عنها عمليات التفارق والتطور الحضارى المعقد .

٧ – الدور الجديد للصياد

عند محاولة تفسير تعاقب الحضارات يتعرض المرء لخطر الانزلاق إلى الإسراف فى التقيد بترتيب طبقاتها المتعاقبة . وعلى الرغم من أن علم الآثار يستلزم النظر بعين الاعتبار إلى ترتيب الطبقات الأرضية بوصف ذلك وسيلة لتحديد سلالة الحضارات وتعاقبها الزمنى ، فإن الحضارة المادية التى ماتت ودفنت؛ هى وحدها التى تبقى محفوظة فى طبقة بعينها من الطبقات الأرضية دون التعرض للانتقال من طبقتها ، على حين أن الحضارة التى لا تقوم على المادة ، تكون أساساً ذات طبيعة ليفية ، وهى على الرغم مما قد يحدث كثيراً من تقطع أليافها الطويلة ، فإنها تخترق كل طبقة ، بل إنها قد تقوم بدور فعال حتى وهى مختفية عن الأنظار .

ومن ثم فإنه على الرغم من أننا ، اعتماداً على ما لدينا من شواهد ، نكون على صواب إذا أرجعنا تاريخ ظهور المدينة بشكلها المادى إلى المراحل الأخيرة من حضارة العصر الحجرى الحديث ، إلا أن ظهور المدينة كان فى الواقع النتيجة النهائية لما حدث قبلا من توحيد العناصر الأساسية فى حضارة كل من العصرين الحجرى القديم والحجرى الحديث . وإذا صدق ظنى ، فقد ساعد على هذا التوحيد – وإن لم يفض إليه – التقدم الأخير العظيم فى الانقلاب الزراعى ، ونعنى به استئناس الحبوب ومجىء حضارة المحراث والرى . وكانت النتيجة النهائية هى التئام شمل مجموعة المنظمات والضوابط وهو ما تتميز به « المدنية » .

وحدث فى ذلك الوقت أن جهود الرجل – وكان جماحها قد كبح وأصبحت أقل عنفاً وإن لم يستغن عنها ، بسبب العمليات الأولى للاستئناس –

عاودت نشاطها فجأة بقوة مضاعفة ، وصحبتها دينامية جديدة تمثلت فى الرغبة فى ترويض الطبيعة والتحكم فيها ، وفى قهر وإخضاع الحيوانات القوية البأس أو الصعبة المراس كالحمار والحصان والجمل والفيل ، وتمثلت فوق كل شىء فى الرغبة فى التمتع بقدرة السطو على مجموعات بشرية أخرى وذلك إلى حد ما بفضل التفوق فى السلاح . وما كان ليتسنى لحضارة العصر الحجرى القديم ولا لحضارة العصر الحجرى الحديث أن تقوم كل منهما وحدها بما نجحتا معاً فى تحقيقه بفضل توحيد ما كان لها من المواهب والوظائف المتكاملة .

ولا شك فى أنه من ضروب الوهم الظن بأن حضارة العصر الحجرى القديم قد خلفتها كلية حضارة العصر الحجرى الحديث . فلا نزال نشاهد حتى الآن فى أيام الأحد فى فصل الربيع ألوف الصيادين على شواطىء الأنهار والبحيرات القريبة من المدن الكبيرة ، يزاولون المهمة العتيقة التى ترجع إلى العصر الحجرى القديم ، مهمة صيد السمك ، بينما يعمد آخرون فى فصل متأخر عن ذلك فى السنة ، وفى مناطق أوسع مدى إلى مزاولة عملية أقدم من ذلك عهداً ، وهى عملية جمع نبات عش الغراب ، أو الثمار البرية ، أو جمع الأصداف والأخشاب التى يقذفها البحر ، أو عملية الحفر على ساحل البحر لاستخراج أنواع من المحار ، أى أن الإنسان ما زال يعمل لمتعته ما كان الإنسان الأول يعمله للإبقاء على حياته .

وحرى بنا أن نتساءل عما حدث لصياد العصر الحجرى القديم حينما أصبح الاستقرار فى القرية أمراً ميسوراً بفضل زراعة الأرض وغرس الأشجار . ولا شك فى أنه اضطر إلى النزوح عن المناطق الزراعية لأنه إذا وجد هناك ما يصلح للصيد من الحيوانات الصغيرة ، فإن أهل القرية كانوا يصيدونها أو ينصبون الفخاخ لها . وأما الحيوانات الكبيرة . فقد اضطرت إلى الالتجاء إلى المستنقعات والأراضى المرتفعة ، وإلا فإنها كانت تعتبر مصدر خطر على المحصولات أكثر مما تعتبر مصدراً يرحب به للحصول على الطعام . وبقدوم

الزراعة تضاءلت الفرص أمام الصياد ، وإذا استعدنا فى ذاكرتنا موقف لذر ستوكنج[1] (Leatherstocking) تجاه أولى عمليات تطهير الأرض من الأدغال لأغراض الزراعة ، فإن ذلك يدنينا من إدراك ما كان يعتمل فى نفس الإنسان البدائى من رد الفعل إزاء الزراعة ، ولكن لعل وسائل الراحة والمتعة الاجتماعية التى كانت القرية الصغيرة توفرها لأهلها قد أثارت مع مر الزمن قدراً من التبرم والحسد فى نفس الصياد ، على الرغم مما كان يبديه من الاحتقار فى عزوفه عن الحياة الرتيبة ، والطمأنينة الخالية من المغامرات ، وهى الحياة التى صحبت نجاح الزراعة .

وفيما عدا القليل من تصاوير مشكوك فيها على جدران الكهوف ، وهى تمثل رجالا يواجه بعضهم البعض الآخر وأقواسهم مشدودة ، فإنه لا يوجد أى دليل قديم يوحى بأن الصيادين كانوا يهاجمون بعضهم بعضاً . ولعهد طويل كانت ضحايا المطاردة هى الحيوانات والطيور وحدها دون الرجال . بيد أننا نجد فى عالم الحيوان والحشرات الكثير مما يؤيد الاعتقاد بأن الكائنات التى تنزع بطبعها إلى الإغارة إذا ما تهيأت لها الفرصة ، تفضل الحياة السهلة اللينة على الحياة الخشنة الشاقة ، حتى ليبلغ من إدمانها العيش السهل أن تضطر إلى أن تعيش ضيوفاً متطفلة على خيرات غيرها التى لا تعاديها ، وإن لم ترض عن تطفلها رضاء تاما . ولكن هذه العلاقة قد تقوم إلى حد ما على تبادل المنفعة أيضا ، فى نظير ما يفوز به الطفيلى المغير من الغذاء الوفير ، قد يحرس العش ويحميه من إغارة أعداء آخرين .

وإنه لتعوزنا الأدلة الواقعية على تبادل المنفعة بين الناس على هذا الوجه الملائم للطرفين ، لأنه كان سابقاً لكل سجل تاريخى ، بل إن البقية المادية التى يمكن أن توحى بما يدل على وجود صلة جديدة بين جماعات العصر الحجرى

(١) لذرستوكنج شخصية خيالية فى بعض القصص الأمريكية تمثل عداء البدائيين ومقاومتهم لانتشار المدنية فى الأقاليم الغربية بالولايات المتحدة .

القديم ، وجماعات العصر الحجرى الحديث ، قليلة نادرة فضلا عن أنها قابلة لتفسيرات شتى إلا أنه توجد فى فلسطين دلائل قاطعة على أنه قبل أن تبرز المدينة إلى عالم الوجود ، كان المقر المؤقت للصياد قد تحول إلى حصن يقيم فيه باستمرار . وكان يسيطر على هـــذا الحصن شخص يدعوه الأثريون « الزعيم المحلى » وهو وصف شديد الإبهام ، ومن الواضح أن هذا الشخص كان لا يقيم بمفرده ، وإنما مع عصبة من الأتباع الذين يشدون أزره . ولعل مثل هؤلاء الصيادين لم يكن وجودهم فى أول الأمر مقبولا فحسب ، بل كان يلقى ترحيباً قوياً ، لأن الصياد كان يقوم بدور مفيد فى الحياة الاقتصادية للعصر الحجرى الحديث ، إذ أنه بتفوقه فى استخدام الأسلحة ومهارته فى الصيد كان فى استطاعته أن يحمى القرية من أخطر أعدائها ، ولعلها كانت الأعداء الوحيدة للقرية ونعنى بها الأسد والنسر والذئب والتمساح ، وذلك أن الصياد كان ما زال يعرف كيف يتوارى وهو يقتفى أثر هذه الوحوش وكيف يقتلها ، على حين أن القروى ربما كان يفتقر إلى الأسلحة أو يفتقر أكثر من هذا إلى الجرأة اللازمة للقيام بمثل ذلك العمل ، ولعل الشعور بالأمان على توالى القرون جعل القروى شخصاً مستسلماً قليل الجرأة .

وعند هذا الحد نجد العون فى السجلات المدونة ، ولو أن أول ما تم من التفاهم المتبادل بين القرية والحصن لا بد من أن يكون قد حدث قبل ذلك بزمن طويل . والنموذج الأول للزعيم فى الأساطير السومرية هو «جيلجاميش» (Gilgamesh) الذى يوصف بأنه الصياد الجسور المنيع الحمى ، ولم يكن أقل من هذا دلالة وصفه بأنه بانى السور حول أوروك (Uruk) . ونقرأ فى السجلات البابلية القديمة عن الأعمال الباهرة التى قام بها صياد آخر اسمه انكيدو (Enkidu) وأنه « تناول سلاحه لمطاردة الأسود ، فالرعاة قد يستطيعون أن يخلدوا إلى الراحة فى الليل ، أما هو فكان يوقع بالذئاب ويمسك بالأسود . وكان فى وسع رؤساء رعاة الماشية أن يناموا ملء جفونهم لأن انكيدو حارسهم ، فهو الرجل الشجاع والبطل الأوحد » .

ولم يكن ذلك مديحاً ذليلا موجها إلى فاتح ، بل كان إعراباً مهذبا عن عرفان قوم بالجميل نحو صديق تولى حمايتهم ، ولبثوا زمنا طويلا فى حاجة إلى خدماته . وإلى عهد متأخر يصل إلى القرن السابع قبل الميلاد نجد على نصب أقامه أشور بانيبال (Assurbanipal) وصفا لضراوة الأسود والنسور بعدما أحالت سيول الأمطار البلاد إلى غابة من البوص وأعواد الأشجار ، كما نجده يفخر ببراعته فى القضاء على هذه الوحوش فى مخابئها . ولسوء الحظ أنه عند حلول هذا الوقت كان الدور الكريم الذى يقوم به الصياد قد أصبحت تلوثه شهوة الحكم والسلطان ، وإذ أضحى الملك الصياد لا يستطيع الفوز بمديح المجتمع عن طواعية واختيار ، فقد تولى بنفسه ملء هذا الفراغ بمديح ذاته :

وفى وسعنا أن نتصور أن القرى التى كان الصياد يتولى حمايتها ، كانت أكثر ازدهاراً من تلك التى كانت القطعان الضارية تخرب مزروعاتها ، أو كان أطفالها عرضة لأن تمزقهم وتفترسهم الوحوش المغيرة . ولكن لعل ما كان يسود قرية العصر الحجرى الحديث من الرخاء والسكينة هو بعينه ما حفز حماتها إلى أن يستبدلوا بدور الذئب دور كلب الحراسة ، وإلى أن يفرضوا ما يمكن أن نسميه « أتاوة الحماية » . وربما لم يتسن لأسلافنا على عهد الملكة فيكتوريا أن يفهموا ذلك جيداً ، بيد أننا فى الولايات المتحدة اليوم فى وضع يمكننا من فهم سر نجاح أولئك الزعماء الأولين ، وذلك بما نشاهده من تحكم زعيم عصابة أو أخرى فى مؤسسات الأعمال الناجحة واتحادات العمال القوية ، وفرض أتاوات ثقيلة ، وإن كانت مستترة ، على الملاهى ووسائل النقل ، والإقدام بصفاقة على شراء ذمم القضاة ، وتجنيد رجال الشرطة لخدمة مآربهم . فلا غرابة أن استسلم أهل القرية خشية أن يكشر لهم حاميهم عن أنياب أشد هولا من أنياب الحيوانات التى كان يعرض عليهم حمايتهم منها . ولعل هذا التطور الطبيعى بتحول الصياد إلى زعيم سياسى

قد هيأ له سبيل التقدم والفوز بالسلطة . وقد أوضح هنرى فرانكفورت Henri Frankfort أنه فعلا فى الآثار التى سبقت عهد الكتابة « يظهر الصياد وقد ارتدى من الملابس وغطاء الرأس ما يتميز به القادة ، وربما الملوك » .

على أنه يجب ألا نغالى فى عنصر الإكراه ، ولا سيما فى البداية ، فإن من المحتمل أن ذلك لم يطرأ إلا مع ازدياد تركيز السلطة التقنية والسياسية والدينية التى حولت الزعيم البدائى البسيط إلى ملك يبعث الرهبة فى النفوس . ومنذ البداية كان لهذه العلاقة جانب رحيم ، ولعله قد حدث تحول حقيقى فانتقل الاهتمام من الحيوان المفترس الذى يجب مطاردته وقتله ، إلى الحيوان الأليف الذى يستلزم الرعاية والحراسة ، ومن الاستيلاء فوراً على الطعام تلبية لداعى الجوع والحاجة ، إلى القيام بتغذية الضحية المنتظرة وتسمينها وترقب الوقت الملائم لذبحها .

وفى قصيدة قديمة من بلاد ما بين النهرين ينم بيت من الشعر عن الترحيب بالراعى عندما يترك قطعانه ترعى فى مروج الفلاح ، ولعل مرد ذلك إلى أن المزارع كان قد عرف قيمة السماد الطبيعى ، وكان تجوال الراعى مع قطعانه دون حد ولا قيد ، يجعله أقرب روحا إلى الصياد ، منه إلى المزارعين الذين شد وثاقهم إلى الأرض التى يقومون على زراعتها . وكلا الراعى والصياد يبدوان فى القصص الخرافية فى ثوب أبطال جديرين بالإعجاب ، على حين أن الفلاح المنتج يقوم بدور وضيع وإن لم يكن بدور الشرير الذى يؤديه قابيل فى « سفر التكوين » ، وترى الفلاح حين يلتقى بالراعى دوموزى (Dumuzi) مسالما قانعا بالمكان الثانى ، ويمكن فى الواقع أن نعتبر الراعى الأخ الروحى للصياد ، أو جانبه الأسمى الذى ينزع إلى الدفاع أكثر منه إلى العدوان . ولقد كان أتانا (Etana) وهو أحد الملوك الأوائل راعيا ، وكذلك كان شأن الإلهين لوجوبندا (Lugubanda) ودوموزى فى القصص الدينية لبلاد ما بين

النهرين . وكان ذلك أيضا شأن داود فى إسرائيل بعد ذلك بأزمان طويلة ، وبالرغم من أن حامورابى (Hammurabi) كان منظماً وفاتحا عظيما إلا أنه حرص على الظهور فى ثوب راعى شعوبه .

وكلتا مهنتى الصياد والراعى تتطلبان صفات القيادة وتحمل المسئولية ممن يمارسهما ، كما تقتضيان الطاعة والانقياد ممن يفيد من ثمارهما . بيد أن مهنة الصياد رفعت من شأن الرغبة فى السيطرة وحولت فى النهاية مهارته فى قتل ما يصيده إلى تلك المهنة المنظمة تنظيما كبيراً ، مهنة تكوين الجيوش وسفك الدماء ، على حين أن مهنة الراعى اتجهت نحو كبح جماح القوة والعنف وإقامة قدر من العدالة يتسنى للكل عن طريقه ، ولو كان أضعف أفراد الجماعة ، أن يتمتع بالحماية والرعاية . ولا شك فى أنه عندما تكونت فى النهاية أقدم المجتمعات الحضرية كان الإكراه والإقناع ، والاعتداء والدفاع ، والحرب والقانون ، والقوة والحب ، قد رسخت جميعاً فى الأسس التى قامت عليها هذه المجتمعات . وعندما ظهرت الملكية ، أصبح سيد الحرب وسيد القانون سيداً للأرض كذلك .

وإذا كان هذا بحكم الضرورة إسرافا فى التخريج من الحقائق المعروفة ، فإنه مع ذلك قد يوحى إلينا كيف أن العطايا الاختيارية أصبحت إلزامية ، وغدت بعد ذلك تدفع بانتظام فى شكل عشور وضرائب وسخرة وقرابين ، بل ضحايا بشرية . وإنى لأقر بأنه إلى هذه المرحلة لم تكن الحروب قد ظهرت بعد ، فإن ما أمكن الكشف عنه من قرى العصر الحجرى الحديث ، تثبت على نحو يلفت النظر خلوها بتاتاً من أى شىء يمكن أن يسمى سلاحاً ، وعلى الرغم من أن هذا ليس إلا دليلا سلبياً ، فإنه يتفق تماماً مع صورة مجتمعات مكتفية بذاتها ، وأشد ضآلة ، وأكثر افتقاراً إلى المزيد من اليد العاملة ، وأبعد مسافة فيما بينها وأشد فقرا فى وسائل التنقل إلى أن ابتكرت القوارب ، من أن تستشعر الحاجة إلى مزاحمة بعضها بعضاً ، أو إلى اعتداء

بعضها على مناطق البعض الآخر . أما الحرب البدائية ، « حرب الفرد ضد الكل » فما هى إلا من نسج الخيال ، إذ أن الرجل البدائى المولع بالقتال كما تخيله هوبز (Hobbes) أقل نصيباً من الحقيقة التاريخية من المتوحش النبيل الذى تخيله روسو (Rousseau) . ولعله على نحو ما يحدث بين الطيور ، كانت السيطرة الفعلية على إقليم بعينه تحسم وديا المطالبات بتعديل الحدود ، فلم تؤد تلك المطالبات إلى صراع وحشى إلا فيما بعد فى ظل حرص أكثر « تمدنا » على الممتلكات والامتيازات .

ولا تنم القلاع والحصون الباكرة عن الحروب والمنازعات بين مجتمعات متعادية ، وإنما عن التسلط المغرض من جانب أقلية صغيرة على جماعة كبيرة نسبياً ، فإن ما كان السلاح يفرضه من سيطرة وتحكم ، كان يحدث فى داخل المجتمع ، ولم يكن يحدث فى مبدأ الأمر فى منازعات مع مجتمعات أخرى ، فباستخدام السلاح أحرز النبلاء منذ البداية سيادتهم العريقة على فلاحيهم . ولا يبعد أن التنافس والنزاع والعنف والقتل العمد ، كانت جميعاً موجودة فى كل مجتمع بدرجات متفاوتة ، ولو أنه من المحتمل أن يكون قد بالغ فيها كثيراً الباحثون المحدثون الذين يتبرعون بأن يستشفوا فى العصور البدائية ألوان الانحراف والجرائم التى تخص — على مقياس أكبر وأضخم — مستوى « أرقى » من الحضارة . ولكن يبدو لى أن رأى برونيسلاو مالينوسكى (Bronislaw Malinowski) فى هذا الموضوع رأى سديد ، فهو يقول « إذا أصررنا على القول بأن الحرب صراع بين جماعتين مستقلتين ومنظمتين تنظيما سياسياً ، فإن الحرب لا تقع بين البدائيين » .

وإنى لأرى أن الاعتداء الحربى الجماعى ابتكار خاص من مبتكرات الحضارة ، شأنه شأن الإعراب الجماعى عن حب الاستطلاع عن طريق البحث العلمى المنظم . وإذا كان بنو الإنسان بطبعهم محبين للاستطلاع ، فإن هذه الحقيقة لم تؤد حتما إلى العلم المنظم ، وكذلك فإن نزوعهم إلى الغضب والتشاجر

لم يكن فى ذاته كافياً لإنشاء نظام الحرب . فالحرب كالعلم ، حدث تاريخى مرتبط بالحضارة ، والحرب دليل على وجود علاقة ملتوية أشد الالتواء بين العقد أو الأزمات النفسية ، أو بمعنى آخر بين خيبة الأمل من ناحية ، والعدوان من ناحية أخرى . وفى هذا الصدد نتعلم من النمل أكثر مما نتعلم من القرود — أو « إنسان الكهوف » بما هو مفروض فيه من الميل إلى القتال ، ويقوم شبه غريب بين صفاته الخيالية المحضة وصفات الرأسمالى المغامر فى القرن التاسع عشر .

٨ — الوحدة بين حضارتى العصرين الحجرى القديم والحجرى الحديث :

إن ما حدث فعلا قبل ظهور المدينة فى الوجود لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق الحدس وحده ، فمن المحتمل أن البقية الباقية من جماعات العصر الحجرى القديم المشتغلة بالصيد ، وكذلك الجماعات الجديدة التى اتخذت لها مقراً ثابتاً فى العصر الحجرى الحديث — وقد كان كل من الطرفين عندئذ من القلة والتناثر بحيث إنه لم يتهيأ لأحدهما الغلبة على الآخر — شرعت تشغل المنطقة ذاتها ، وظلت تقيم جنباً إلى جنب زمناً بلغ مداه حداً كان كافياً لكى يقتبس كل فريق بعض أساليب المعيشة لدى الفريق الآخر ، ويتبادل معه بعض ما فى جعبته من الآلات . وإذا اجترأنا على تسمية ذلك تزاوجا بين الحضارتين ، فلعل الطرفين كانا متساويين فى البداية ، إلا أن الصلة بينهما أخذت كفتها تزداد رجحانا فى جانب الأقلية المعتدية تبعاً لازدياد قوة أسلحتها ، وأساليب الإكراه التى درجت على اتباعها ، وبفضل ما أبداه أبناء العصر الحجرى الحديث فى شحذ الحجارة من قدرة فى الجلد على العمل . وكما يحدث كثيراً أصبح عنصر الحضارة السابقة الذى نُبذ جانباً — أى الصياد — هو العنصر الجديد المسيطر فى المجتمع الزراعى ، إلا أنه أضحى عليه الآن أن يضطلع بمهمة الحكم فى نوع من الاستقرار أرقى من النوع السابق ،

ولم يعد استخدام الأسلحة الآن مقصوراً على قتل الحيوانات ، بل كذلك لتهديد الناس والسيطرة عليهم .

ولقد استمر تبادل التأثير بين الحضارتين أمداً طويلا ، إلا أنه فى النهاية تغلبت جهود الرجال بمحض ديناميتها على الجهود التى تحمل طابع المرأة ، وتتسم بقدر أكبر من السلبية والجنوح نحو تعهد الحياة بالرعاية . بل إن عناصر إنجاب الأطفال انتزعت من المرأة — فى الخيال على الأقل — فإن أحد النصوص المصرية المبكرة يصور أتوم (Atum) وهو يخلق العالم من جسده عن طريق الاستمناء ، وماكان الرجل ليستطيع فى نشوة كبريائه أن يستخدم كلمات أكثر صراحة من ذلك فى الدلالة على أن المرأة لم تعد لها أية أهمية فى النظام الجديد للحياة . وفى العهد الأول لمجتمع العصر الحجرى الحديث ، قبل استئناس الحبوب ، كانت السيادة للمرأة ، إذ كان الجنس فى ذاته قوة . ولم يكن ذلك مجرد إعراب عن خيال جامح زادته الشهوة قوة . فإن اهتمام المرأة بتربية الطفل وتعهد النبات ، قد حول حياة القلق والانزواء والخوف التى كان الرجل يحياها فى أول أمره ، إلى حياة مطمئنة قادرة على العناية بشئون المستقبل بعد ما توافر من الضمانات المعقولة ما يكفل لها البقاء والاستمرار — إذ لم تعد بأكملها تحت رحمة قوى خارجة عن السيطرة البشرية . حتى من حيث قوى الطبيعة ، كان الانقلاب الزراعى عن طريق الاستئناس أعظم خطوة جوهرية إلى الأمام نحو تسخير قوة الشمس . وقد بقيت هذه الخطوة بلا منافس حتى ظهرت سلسلة المبتكرات التى بدأت بطاحون تديرها الماء ، وبلغت ذروتها فى الطاقة الذرية . وكان ما تم شبيها بتفجر الأزهار — على حد التعبير البارع الذى صاغه لورن ايزلى Loren Eiseley — الذى غير وجه عالم النبات منذ ملايين السنين . ولقد كان لامرأة العصر الحجرى الحديث من الحق فى الزهو بما قدمته من خدمات مثل ما لامرأة العصر الذرى من الحق فى الخوف والإشفاق على مصير أبنائها ومصير العالم الذى تعيش فيه .

وإذا ساور الشك أحداً فيما كان للمرأة أصلا من السيطرة ، فنى وسعه أن يجد التأييد لذلك فى أقدم الأساطير الدينية ، ففيها أيضا تتكشف أنوثتها الطاغية عن خصائص بالغة الوحشية توحى بأنها ذهبت إلى أبعد الحدود فى القيام بدور الرجل . وما زالت هذه الخصائص باقية حتى اليوم فى التمثال البشع للآلهة الهندية «كالى» (Kali) . ومن المحقق أن أقدم الآلهة فى بلاد ما بين النهرين كانت «تيامات» (Tiamat) أول أم للمياه ، وكانت تحمل لأولادها الثائرين من العداء قدر ما يحمله رب الأسرة الصارم الذى يتخذه فرويد مثلا للقسوة . بينما نجد أن مذهب «كيبلى» (Kybele) الأم العظمى بوصفها عاشقة ومعشوقة وحشية تسيطر على الأسود ، قد بقى فى آسيا الصغرى أمداً طويلا فى العصور التاريخية ، وإن كانت قد قامت إلى جانبها آلهات تنطوى على قدر أكبر من الرقة والأمومة مثل «ديمتر» (Demeter) أم الحاصلات .

ومن المحتمل أن المرأة بنزولها عن عامل القوة لآلهة أوفر نصيباً من الرجولة ، تيسر لها أن تتوفر على نواح أقل بداوة من ذلك ، فيما لها من غريزة جنسية وحنان وجمال واستمتاع بالحب على نحو ما يتمثل فى إيشتار وعشتروت وأفروديت . وفى الوقت بعينه تجاوز الرجل الحد فى ثورته على الجانب النسوى فى طبيعته هو نفسه ، فأصبح الصياد البطل يفاخر بشجاعته ورجولته وما يؤديه من أعمال القوة الخارقة ، وما يبديه من ضروب الشجاعة البهيمية فى قتل الوحوش المفترسة وقهر منافسيه — ولكنه كثيراً ما كان يدير ظهره للمرأة لكى ينصرف إلى مهمته دون أن يشغل باله شاغل آخر عنها وعن التجربة التى يجتازها ، خشية أن يفقد قوته بين ذراعى امرأة ، مثلما حدث من شمشون ، أو ملاكم محترف من أبناء العصر الحديث . وهكذا رفض جيلجاميش باحتقار محاولات «إينانا» (Inanna) لاستمالته إليها .

ويؤيد ذلك أنه أمكن إخضاع « انكيدو » باستدراجه إلى مخالطة عاهرة من أوروك ، وعلى أثر ظهور هذا الدليل على ضعفه ، انفضت عنه الغزلان والوحوش الكاسرة ! ووفقاً لروايات الأقدمين كانت الفضيلة الخاصة التي تميز بها الصياد البطل ، تتمثل في القيام بأعمال تستلزم الجرأة والقوة البدنية ، كنقل صخور ضخمة أو تحويل مجاري الأنهار ، أو الاستهانة بالأخطار وبالموت : وإننا لنجد في شخصه الكبير الضخم المثل الأول لتكبير الأبعاد بوجه عام ، وهو ما صحب ظهور المدينة ، كما نجد المثال الأول لتركيز الاهتمام في الشجاعة البدنية والقوة الآلية بوصفهما هدفين في ذاتهما .

فالمدينة — إذا كنت قد أصبت الحقيقة في تفسير نشأتها — كانت الثمرة الرئيسية للوحدة بين حضارة العصر الحجري الحديث وحضارة أقدم منها عهداً ترجع إلى العصر الحجري القديم . وفي البيئة الجديدة السابقة على بيئة المدينة ، أصبحت المكانة الأولى للرجل وآلت المكانة الثانية للمرأة ، كما أن ما كانت تستعمله من آلات كالفأس وعصا الحفر ، قد حلت مكانها آلة أكثر كفاية وهي المحراث ، وكان ، بفضل قوة الثيران التي تجره ، يستطيع شق التربة الثقيلة في باطن الأرض . بل إن الإلهات نزلن إلى حد ما عن مكانهن السامق « لأوزيريس » و« باكوس » ، وبالذات في مجالي الزراعة والابتكار حيث كانت المرأة تمارس أعظم قدر من النشاط . ولقد كانت قوة المرأة تكمن فيما اختصت به من ضروب الحيلة والجاذبية وأسرار الحيض والجماع والحمل ، أو بعبارة أخرى فنون الحياة ، وأما قوة الرجل فقد أصبحت الآن تقوم على أعمال القوة والعدوان ، وإظهار قدرته على القتل واستهانته شخصيا بالموت ، أي تقوم على قهر العقبات وفرض إرادته على غيره من الرجال والتنكيل بهم إذا قاوموه .

ولقد كان من نتيجة هذه الوحدة بين الحضارتين أن حدث فيما يبدو في كل الأنواع أكبر قدر من التهجين واختلاط العناصر : وقد ترتب على ذلك أن توفر

للمدينة من الإمكانيات وعوامل القدرة ما لم يكن ليتسنى إطلاقاً للصياد ، أو قاطع الأحجار ، أو المشتغل بتربية الحيوان ، أو الفلاح أن يستغله ، لو أنه ترك وشأنه منهمكاً فى البيئة التى كان يعيش فيها . فحين كانت الزراعة بالفأس تقوم بأود أهل قرية صغيرة ، كانت الزراعة بالمحراث تسد حاجة مدن ومناطق بأكلها ، وحين كان الجهد المحلى لا يقوى إلا على بناء جسور وخنادق صغرى ، كان ما تكفله المدينة من التعاون على نطاق واسع قادرا على تحويل نهر بأكله إلى نظام موحد من الترع ووسائل الرى لخدمة إنتاج القوت والنقل — نقل الرجال والمؤن والمواد الخام من مكان إلى مكان تبعاً لما تدعو إليه الحاجة .

وسرعان ما ترك هذا التغير طابعه على المنطقة بأكلها ، بل تعداه إلى أبعد من ذلك بما تركه من الأثر فى العلاقات بين أفراد المجتمع . وأصبحت الآن الرموز والأشكال المجردة الدالة على المذكر واضحة للعيان ، فهى تبدو فى الخط الممعن فى استقامته ، وفى الشكل المربع ، وفى الشكل الهندسى المحكم الحدود ، وفى انتصاب البرج والمسلة ، وأخيراً فى مبادىء الرياضيات والفلك التى فصلت تدريجاً نظرياتها الصميمة عن الأوهام الخرافية . ولعل مما له دلالته أنه على حين كانت المدن الأولى — فيما يبدو — مستديرة الشكل إلى حد كبير ، كانت قلعة الحاكم والحرم المقدس يحاطان فى أغلب الأحوال بسياج مستطيل الشكل .

وفى مكان العادات القديمة وأساليب الحياة المريحة التى كانت تسير وئيدة على وتيرة واحدة ، حلت فى المدينة أساليب جديدة قاسية فعالة ، كثيراً ما كانت عنيفة ، بل سادية . وقد فصل العمل ذاته عن وجوه النشاط الأخرى ، ونظم على أساس أن يؤدى يومياً قدر معين من العمل الشاق المتواصل تحت إشراف رئيس يحدد لكل عامل نصيبه من العمل ، فكان ذلك الخطوة الأولى فى « الانقلاب الإدارى » الذى بلغ ذروته فى وقتنا الحاضر . وأصبحت الاتجاهات الجديدة التى تسيطر على عقول الناس هى الكفاح والسيطرة والسيادة والفتح ، وليس ما كان يشغل بال أهل القرية من دفع

الأذى والتذرع بالحكمة أو التشبث بالأوضاع والصبر على المكاره . ولم يكن فى مقدور القرية المنعزلة ــ ولا فى مقدور ألف قرية منعزلة ــ أن تكون ندا لاتساع القوة على هذا النحو الجارف إلى أبعد الحدود ، فقد كانت القرية وعاء لوظائف أضيق نطاقاً ، ومهام أشد التصاقا بشئون الأمومة والأغراض الأولية فى الحياة . بيد أن ذلك الجانب من حضارة القرية الذى كان فى وسعه القيام بنصيب فى هذا التطور قد نقلته المدينة إليها ، وسخرته بطريقة منتظمة لخدمة أسلوب حياتها الجديد .

ومع ذلك فإن العناصر الأصلية التى تكونت منها المدينة لم تختف كلية على الإطلاق ، بل إن كلا منها فى الواقع ظل ينمو ويزدهر بذاته ، حتى وإن استوعبت المدينة جزءاً من كيانه . وهكذا تكاثرت القرى وانتشرت فى جميع أرجاء الأرض على نحو أسرع وأفعل من المدن ، وعلى الرغم من أنها اليوم توشك أن يغمرها فيغرقها تيار التحضر ، فإنها قد احتفظت بالأساليب الشعبية القديمة على مر آلاف السنين ، وظلت باقية ، على حين أن منافساتها الأكبر حجما ، والأوفر ثروة ، والأشد إغراء قد اندثرت بعد كل ما أصابته من تقدم وارتقاء . وقد بين باتريك جيديس Patrick Geddes أن هناك مبررات تاريخية صحيحة لما تفخر به قرية موسلبره Musselburgh فى المقطوعة الشعرية التى جاء فيها أنها كانت قرية فى الوقت الذى لم تكن فيه مدينة أدنبره شيئاً مذكوراً وأنها سوف تبقى قرية كذلك حينما تمسى أدنبره أثراً بعد عين .

وقد ظلت القلعة أيضاً باقية ، فعلى الرغم مما طرأ من التغيير على أشكال الحكومة ومهامها فى خلال الأربعة الآلاف السنة الماضية ، فإن القلعة ظلت باقية ومازالت تشاهد إلى اليوم . وحينما أجلنا البصر من قلعة سان أنجيلو (Castel San Angelo) إلى الكتلة الصماء القائمة إلى جوار قوس الأمبرالية فى

لندن ، ومن الكرملين إلى مبنى البنتاجون[1] ، ومن ثم إلى المراكز الجديدة للمراقبة تحت سطح الأرض ، نرى أن القلعة مابرحت قائمة ترمز إلى السلطان المطلق والتفكير المضطرب ، شأنها فى ذلك شأن أقدم نماذجها : وقد احتفظ المعبد أيضاً بكيانه المستقل ، وإذا كان البعض من مراكز أعظم المعابد شهرة لم تصبح إطلاقا مدنا كبيرة فى ذاتها ، فإن مدنا أكبر منها كثيراً ماكانت أقل منها شأناً . فمن الناحية الدينية تجئ لندن وبغداد فى المرتبة الثانية بعد كانتربرى ومكة ، على حين أن بعض المدن التى غدت كعبة يحرص الناس على الحج إليها ، مثل سانتياجو دى كومبوستيلا (Santiago de Compostela) ولورد (Lourdes) لم تشجع عادةمن وظائف المدينةعلى الازدهار ، إلاماكان منها يخدم أغراض المعبد : وكل عنصر جديد من العناصر التى تكونت المدينة منها قد ظهر عادة ، على نفس الغرار ، خارج نطاقها أولا ، قبل أن تمتد إليه يد المدينة وتستولى عليه .

---

(١) مقر القيادة العليا للقوات المسلحة الأمريكية فى واشنطن . (المشرف)

الفصل الثانى

تبلور المدينة

١ — التحول الحضرى الأول :

لما كانت إمكانيات القرية محدودة ، وإن كانت أساليب حياتها تفى بمطالب أهلها ، فأغلب الظن أن مجرد الزيادة فى عدد السكان كان لا يكفى لتحويل القرية إلى مدينة . فقد كان هذا التغيير فى حاجة إلى عامل خارجى ينتزع المجتمع انتزاعاً عنيفاً يبعده عما ركز فيه اهتمامه من شئون التغذية ، والتناسل ، أى أنه كان فى حاجة إلى هدف أبعد من مجرد الرغبة فى البقاء . بيد أن الشطر الأعظم من سكان العالم لم يستجيبوا فى الواقع لهذا العامل على الإطلاق ، فإلى الدور الحاضر من أدوار التحضر لا تحوى المدن إلا جزءاً يسيراً من بنى الإنسان .

ولقد ظهرت المدينة بوصفها ثمرة انبثقت بوضوح فى المجتمع الذى تكون من أهل العصرين الحجرى القديم والحجرى الحديث ، وهى ثمرة منبثقة بالمعنى المحدد الذى استعمله لويد مورجان Lloyd Morgan ووليام مورتون هويلر William Morton Wheeler فى هذا الصدد . وإدخال عامل جديد فى أثناء عملية الانبثاق لا يقف عند حد الزيادة فى الكتلة الموجودة ، بل ينتج عنه تغيير شامل وتشكيل جديد يعدل من خواصها ، فإذ ذاك تبدو للمرة الأولى بوضوح ، إمكانيات لم يكن ميسوراً تمييزها فى المرحلة السابقة على الانبثاق ، مثل إمكان نشوء حياة عضوية من مادة تعتبر نسبياً ثابتة وغير منظمة ، أو بعبارة أخرى « هامدة ميتة » . وكذلك الشأن عند الانتقال من حضارة القرية ، فإن العناصر القديمة التى تكونت منها القرية نقلت فى أثناء

عملية الانبثاق وأدمجت فى الوحدة الحضرية الجديدة ، إلا أنها تحت تأثير عوامل جديدة أعيد تكوينها على نسق أكثر تعقيداً وأقل ثباتاً مما كانت عليه فى القرية ، ولكن على نحو حث على مزيد من التحولات والتطورات . وكذلك فإن التكوين البشرى للوحدة الجديدة أصبح أيضا أكثر تعقيداً ، فإنه إلى جانب الصياد والفلاح والراعى دخلت المدينة نماذج أخرى بدائية وأسهمت فى حياتها ، كقاطع الأحجار وقاطع الأشجار وصياد الأسماك ، وقد أحضر كل منهم بعض آلاته ومهارته الفنية وعادات الحياة التى تكونت لديه عندما كان يعيش تحت ضغط ظروف أخرى . وفى مكان أو آخر فى أرجاء الوادى نشأ من هذا الماضى البدائى الذى لم يوجد فيه تخصص مهنى — نشأ المهندس وملاح القارب وملاح السفينة . ولم تلبث كل هذه الأنواع الأصلية من أرباب المهن أن تمخضت عنها أنواع أخرى كالجندى والمصرفى والتاجر والقسيس . ومن كل هذه العناصر المتعددة خلقت المدينة وحدة أرقى وأرفع من وحدة القرية .

ولقد حقق هذا الخليط الحضرى الجديد زيادة هائلة فى قدرات الإنسان فى مختلف النواحى ، وذلك أن المدينة نجحت فى تجنيد اليد العاملة ، والسيطرة على وسائل النقل إلى مسافات بعيدة ، والنهوض بوسائل المواصلات إلى الجهات النائية التى يستغرق بلوغها وقتاً طويلا ، وإنتاج فيض من المخترعات إلى جانب تطور الهندسة المدنية على نطاق واسع ، ولم يكن أقل شأنا من ذلك أنها شجعت زيادة الإنتاج الزراعى زيادة جديدة هائلة .

ولقد صحب ، وربما سبق ، هذا التحول الحضرى تدفق تغيرات مماثلة من الوعى الباطن للمجتمع . فى وقت ما ، يبدو أن الآلهة المحلية المألوفة ، التى كانت تماثيلها تقام قرب مدافىء البيوت ، قد تغلبت عليها وحلت مكانها إلى حد ما ، وسمت عليها فى المكانة على وجه التحقيق ، تلك الآلهة البعيدة ، آلهة السماء أو آلهة الأرض ، التى تمثلوها فى الشمس والقمر وماء الحياة

والرعد والصحراء . وتحول الزعيم المحلى إلى ملك شامخ ، فأصبح كذلك الحارس الدينى الأول للمعبد ، وأضفيت عليه فى وضعه الجديد صفات إلهية أو تكاد تكون إلهية . أما أهل القرى المجاورة فكانوا عندئذ يعاملون معاملة الأتباع ، لأنهم وقد زالت الألفة والمساواة معهم أنزلوا إلى مصاف الرعايا وأصبحت حياتهم تحت إشراف وإدارة موظفين عسكريين ومدنيين ، وحكام ووزراء ، وجباة ضرائب ، وجنود ، مسئولين جميعاً أمام الملك مباشرة .

حتى العادات والتقاليد القروية القديمة نفسها كان من الممكن أن يتناولها التعديل خضوعاً لأمر إلهى ، فلم يعد كافياً أن ينتج فلاح القرية ما يسد حاجة أسرته وقريته من الطعام ، بل كان عليه الآن أن يضاعف من جهده ، ويبدى من إنكار الذات ما يقتضيه إنتاج فائض كبير لتموين هيئة الموظفين الملكيين والدينيين . فقد كان الحكام الجدد يأكلون بشراهة ، ويقيسون مدى قوتهم علانية ، ليس بمقدار ما تحت إمرتهم من أسلحة فحسب ، وإنما بمقدار ما لديهم من أرغفة الخبز وقوارير الجعة . وفى المجتمع الحضرى الجديد لم يعد لحكمة الشيوخ وزن ولا نفوذ ، فشباب « أورك » هم الذين ضربوا عرض الحائط بنصيحة الشيوخ ، وأيدوا « جيلجاميش » عندما اقترح الهجوم على « كيش » (Kish) بدلا من التسليم بمطالب حاكمها . وعلى الرغم من أن روابط الأسرة بقى لها وزنها فى المجتمع الحضرى ، فإن الكفاية المهنية وجرأة الشباب كان لها قسط أوفر فى الاعتبار ، إذا ظفرتا بتأييد الملك .

وعندما حدث كل هذا ، خضعت الحضارة القروية العتيقة « لمدنية المدينة » ، لذلك المزيج الغريب من الابتكار والتحكم ، ومن المصارحة والكبت ، ومن الشد والإرخاء ، وهى التى كانت المدينة التاريخية تمثل مظهرها الخارجى . وفى الحقيقة أنه يمكن وصف المدينة منذ نشأتها الأولى وفى مراحلها التالية بأنها بناء أعد إعداداً خاصاً لحفظ ونقل أدوات المدنية على نحو مركز إلى حد يهيئ أقصى قدر من وجوه التيسير فى أقل حيز مستطاع ، ومع ذلك فإن

تكوينها قابل للاتساع بحيث تستطيع احتواء الحاجات المتغيرة ، والأوضاع المتزايدة التعقيد لمجتمع فى دور النمو ، وذلك جنباً إلى جنب مع ما يتراكم لدى هذا المجتمع من تراث اجتماعى ، وإنه لمن أقدم الأعمال التى قامت بها المدينة وأكثرها دلالة عليها ، مبتكرات : مثل السجل المدون ، ودار الكتب ، ودار حفظ الوثائق العامة ، والمدرسة والجامعة .

والتحول الذى أحاول الآن وصفه ، قد أسماه تشايلد أولا « الانقلاب الحضرى » وهذا التعبير ينصف كل الإنصاف الدور الحافل بالنشاط والبالغ الأهمية ، الذى قامت به المدينة ، بيد أنه لايدل تماماً على حقيقة العملية ، فإن الانقلاب يفيد قلب الأشياء رأساً على عقب ، والتباعد باطراد عما تخلف من الأنظمة البالية ، وإذا تأملنا فى ذلك التحول بعين عصرنا الحاضر الذى يمتاز بسعة العلم والمعرفة ، بدا أنه يشير إلى ما يشبه نفس التغيير الشامل الذى صحب انقلابنا الصناعى مع نفس الاهتمام بنواحى النشاط الاقتصادى . وهذا من شأنه أن يزيد ما حدث غموضاً بدلا من أن يوضحه ، وذلك أن ظهور المدينة لم يمح العناصر القديمة فى الحضارة ، بل إنه فى الواقع جمع بينها وزاد من قوة فاعليتها ووسع من مداها ، بل إن تشجيع الاشتغال بحرف غير زراعية زاد من حدة الطلب على الطعام ، ولعله كان سبباً فى تضاعف عدد القرى وزيادة مساحة الأرض التى يجب زرعها . وأما فى داخل المدينة فإنه لم يستغن فى أول الأمر إلا عن القليل جداً من النظام القديم ، فالزراعة نفسها ، فى « سومر » مثــلا استمر يزاولها على نطاق واسع ، أولئك الذين كانوا يقيمون إقامة دائمة فى داخل المدن الجديدة المحاطة بالأسوار .

وأما ما حدث مع ظهور المدن ، فهو أن كثيراً من الوظائف التى كانت مبعثرة وغير منظمة إلى ذلك الحين ، جمعت معاً فى داخل نطاق محدود ، وأبقيت عناصر المجتمع فى حالة يسودها نشاط دافق وتفاعل شديد فيما بينها . وفى هذه الوحدة ، التى جعلها إجبارية تقريباً التطويق الكامل بسور

المدينة ، نجد أن المعبد وعين القرية والسوق والحصن – وكانت كلها موجودة وراسخة القدم فى مؤسسات الاستمرار التى سبقت قيام المدينة – أسهمت فى الزيادة العامة لعدد السكان وفى تركيز تجمعهم ، كما أنها أدخلت على مبانيها من ضروب التمييز والتفرقة ما أكسبها أشكالا كان يسهل التعرف عليها فى كل مرحلة تالية من مراحل حضارة المدينة. ولقد أثبتت المدينة أنها لم تكن مجرد وسيلة للإعراب بطريقة ملموسة عن تضخم السلطتين الدينية والزمنية ، بل إنها كذلك وسعت كل آفاق الحياة على نحو تجاوز كل هدف وقصد . ولما كانت المدينة قد بدأت حياتها بأنها صورة من العالم بأسره ، ووسيلة لإقامة الجنة على وجه الأرض ، فإنها غدت علماً على ما يمكن تحقيقه . فدنيا المثال كانت جزءاً لا يتجزأ من تكوينها الأصلى ولما كانت قد تكونت بوصفها مشروعاً مثالياً ، فإنها أفضت إلى ظهور حقائق كان من المحتمل أن تبقى خافية إلى أمد غير محدود ، وفى مجتمعات صغيرة تدار شئونها برزانة ، وتكون متعلقة بأهداف متواضعة ، وعازفة عن بذل جهود فوق عاداتها المألوفة وآمالها العادية .

وفى انبثاق المدينة على هذا النحو جاء العنصر الدينامى كما رأينا من خارج القرية . ويجب فى هذا المقام أن نفى الحكام الجدد حقهم ، فإن مزاولتهم الصيد أكسبتهم عادة النظر إلى أفق أوسع مما اعتادت حضارة القرية النظر إليه ، بل إن الآثاريين يرون أن هناك احتمالا بأن أقدم جامعى الحبوب فى مرتفعات الشرق الأدنى ، ربما كانوا الصيادين الذين يجمعون الحبوب فى جرابهم للوجبات اليومية ، وذلك قبل أن يعرفوا كيف يزرعونها بزمن طويل . وأن كثرة تنقلات الصياد الاستطلاعية وميله للمغامرة ومواجهة الأخطار ، وحاجته إلى اتخاذ قرارات عاجلة ، واستعداده لتحمل ألوان الحرمان القاسى والتعب الشديد فى مطاردة ما يصيده ، ورضاه بملاقاة الموت عند الاشتباك مع الحيوانات المتوحشة ، فإما أن يخرج قاتلا أو قتيلا – كل

ذلك هيأ للصياد صفات خاصة أهلته لتولى الزعامة فى ثقة واطمئنان . ولقد كانت هذه الصفات الأساس الذى قامت عليه سيادة الأرستقراطية . وإزاء مشاكل الحياة المعقدة فى مجتمع واسع النطاق ، كانت الجرأة الفردية أجدى من التجاوب الجماعى البطىء الذى كانت حياة القرية الزراعية تحث على الجنوح إليه .

وفى مجتمع يواجه تغيرات اجتماعية عديدة أفضى إليها ما استحدثه من التحسينات الآلية والزراعية التى أثارت أزمات خطيرة كانت تتطلب اتخاذ إجراء سريع تحت قيادة موحدة ، ظهر قصور وعجز الحكمة الشعبية المدخرة وهى التى استمدت من التجارب الماضية وحدها فى مواقف مألوفة منذ أمد بعيد ، فلم يكن يتسنى لغير الرجل الجرىء الواثق بنفسه أن يسيطر إلى حد ما على هذه القوى الجديدة ، وأن يكون لديه من قوة التصور مايكفى لاستخدامه فى أغراض لم يكن تصورها أمراً ميسوراً إلى ذلك الحين ، فما شهده العصر الحجرى الحديث من مَعيّة (togetherness) لم يكن كافياً ، ولذلك لا بد من أن قوى كثيرة ، وقد أذهلتها وحيرتها الحقول الغارقة والمحصولات التالفة تحولت عن مجلس شيوخها البطىء فى تصرفه والمفرط فى حيطته ، إلى فرد واحد كان يتكلم بثقة واقتدار ، ويصدر الأوامر بسرعة كما لو كان يتوقع أن يطاع فوراً .

ولا شك فى أن قوة تصور الصياد كانت متوافرة لديه منذ البداية ، شأنها فى ذلك شأن شجاعته ، فقد توافرت لديه هاتان الصفتان قبل أن يستخدمهما فى المجال السياسى بزمن طويل ، فمن المؤكد أنه يوجد فى كهف صياد العصر الحجرى القديم من الصفات الجمالية التى تستوقف النظر أكثر مما يوجد فى أى نحت أو آنية من الفخار من أوائل العصر الحجرى الحديث . وحتى عصر الحجر والنحاس لم يظهر ثانية شىء له عين الجمال الفنى الرائع الذى نجده فى كهوف أورنياك (Aurignac) التى تنتمى إلى العصر الحجرى

القديم . أما الآن فإن أعمال البطولة التي كانت في الماضي مقصورة أساساً على الصيد ، أصبحت تمارس في البيئة الطبيعية بأكملها . وما من مشروع يدور في الخلد كان يبدو مستحيلا ، فإن ما كان فرد شديد الثقة بنفسه يجرؤ على أن يحلم بالقيام به ، بفضل رضا الآلهة ، كانت تستطيع القيام به مدينة بأكملها خاضعة لإرادته ، ولم تعد الحيوانات البرية وحدها هي التي يجب إخضاعها ، فإن الأنهار والجبال والمستنقعات وحشود الناس كان يجب ترويضها جميعاً بأمر الملك حتى تذعن وتلزم حدها . وأصبح الآن يبذل من الجهود الشاقة المضنية ما كان أي مجتمع صغير لا يفرضه على نفسه ما دامت الطبيعة تقوم بسد حاجاته المألوفة . ولقد كان الصياد البطل ، من جيلجاميش إلى هرقل هو الذي ضرب المثل بما أتى به من أعمال القوة التي تفوق قدرة البشر . وبالتغلب على الأعمال البدنية الشاقة أصبح كل رجل على قدر يسير من البطولة يعمل فوق طاقته الطبيعية — ولو لمجرد النجاة من سوط المشرف .

وقد كان ازدياد نواحي نشاط الإنسان ، واتساع نطاق ذاته عندما تجاوز — ولعل ذلك للمرة الأولى — حدود مجتمعه الملاصق له ، وتنظيم الجهود الإنسانية المشتركة بتخصيص كل منها لأداء عمل معين ، والإعراب عن ذلك الازدياد وذلك التنظيم في مواضع عديدة من بناء المدينة . . كان كل ذلك من مظاهر تحول واحد وهو قيام المدينة . وليس في وسعنا أن نتابع هذا التغيير في وقت حدوثه ، لأنه كما لاحظ تيلهارد دي شاردن Teilhard de Chardin عن تغييرات أخرى تمت عن طريق التطور : إن الأشكال المنبثقة إذا كانت مائعة غير ثابتة فإنها لا تخلف وراءها أثرا . بيد أن التبلورات التي تحدث فيما بعد تشير بوضوح إلى طبيعة ما سبقها من تطور .

ولتفسير ما حدث في المدينة يجب أن نعالج على السواء النواحي التقنية والسياسية والدينية ، وفوق كل شيء الناحية الدينية في التحول . وإذا كانت جميع هـــذه المظاهر للحياة ممتزجة في البداية بحيث لا يمكن

فصل بعضها عن البعض الآخر ، فإن الأسبقية كانت للدين . ولعل حقه فى التقدم يرجع إلى أن التخيلات اللاشعورية والإسقاطات الذاتية كانت تحجب حقيقة الواقع ، ولا تترك مجالا لسفور الطبيعة إلا بالقدر الذى يمكن اندماجه فى سدى الرغبات ولحمة الأحلام . وتدل الآثار والسجلات الباقية على أن هذا التضخم العام فى السلطة كان مصحوبا بصور لا تقل عن ذلك إمعاناً فى الضخامة ، صور صدرت عن العقل الباطن ثم نقلت إلى الأشكال الفنية « الخالدة » .

وكما رأينا ، لعل المراحل التكوينية فى هذه العملية قد استغرقت آلافا من السنين ، بل لعل الخطوات النهائية فى الانتقال من البلدة الريفية فى العصر الحجرى الحديث – وكانت لا تزيد إلا قليلا على قرية تجاوزت فى نموها الحد المألوف إلى المدينة المكتملة التى أصبحت موطن أنواع جديدة من الأنظمة . . لعل هذه الخطوات النهائية قد استغرقت قروناً ، بل ألوفا من السنين بلغ من امتدادها أن كثيراً من الأنظمة التى يوجد لدينا الدليل التاريخى القاطع على وجودها فى جهات أخرى من العالم – مثل الطقوس الخاصة بتقديم القرابين البشرية – وجدت من فسحة الزمن ما لعله سمح لها بأن تزدهر ، ثم تقتضب إلى حد كبير فى مصر وبلاد ما بين النهرين .

ويفصل بين أقدم المنشآت فى وادى الأردن – إذا صح آخر ما حدد لها من تواريخ – وبين منشآت المدن السومرية ، فترة زمنية هائلة تسمح بحدوث تغييرات جوهرية كثيرة لا يوجد دليل عليها ، ولكن لعل ما صحب مولد المدينة من الظهور النهائى للمبتكرات قد تم فى غضون بضعة قرون ، بل بضعة أجيال كما يقول فرانكفورت عن ظهور النظام الملكى ، إلا أنه قد تم على وجه التحقيق فى خلال حقبة من الزمن لا تتجاوز فى مداها القرون السبعة التى انقضت بين ابتكار الساعة الآلية ، وإطلاق الطاقة الذرية من عقالها .

وعلى حد ما ثبت إلى الآن ، فإن زراعة الحبوب ، والمحراث ، وعجلة

صانع الفخار ، والسفينة الشراعية ، والمنساج اليدوى ، وتعدين النحاس ، والرياضيات البحتة ، والمشاهدات الفلكية الدقيقة ، وتقويم السنة ، والكتابة ، وغيرها من وسائل التعبير التى يمكن فهمها وتدوينها للأبد . فإن كل ذلك ظهر فى الوجود فى نفس الوقت تقريباً ، حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، مع احتمال تقديم تاريخها على ذلك أو تأخيره عنه ببضعة قرون . فإن أقدم المخلفات الحضرية المعروفة الآن ترجع إلى هذا العصر فيما عدا أريحا . ولقد تهيأ بذلك للقوى البشرية تضخم فذ فى الناحية التكنولوجية مما لا نظير له إلا فى التغير الذى حدث فى وقتنا الحاضر . وفى كلتا الحالتين سما قدر الرجال فجأة ، فأخذوا يسلكون مسلك الآلهة ، ولكن دون أن يفطنوا إلى ما يكمن فيهم من ضروب قصور البشر وعجزهم ، أو ما تتكشف عنه نفوسهم من الطبائع العصبية والميول الإجرامية التى كثيراً ما تنعكس فى سلوك معبوداتهم .

على أن هنالك فارقاً بارزاً بين العصر الحضرى الأول وعصرنا الحاضر ، فعصرنا هو عصر عديد من ألوان التقدم التقنى التى تمضى فى سبيلها دون توجيهها لخدمة المجتمع ، ودون تقيدها بأى هدف آخر سوى تقدم العلم والتكنولوجيا . فنحن فى الواقع نعيش فى عالم يتفجر بالابتكار الميكانيكى والإلكترونى ، وأجزاء هذا العالم تتحرك بسرعة كبيرة مبتعدة باطراد عن النطاق الإنسانى ، وعن أى أهداف معقولة متحررة ترنو إليها الإنسانية . وهذا الانفجار التكنولوجى أحدث انفجاراً مماثلا فى المدينة نفسها ، فقد انفجرت المدينة ونثرت أعضاءها ومنظماتها المعقدة فى جميع الأرجاء المحيطة بها . والواقع أن الوعاء الحضرى المحاط بالأسوار لم تتمزق جوانبه فحسب ، بل إنه فقد قدرته المغناطيسية مما كانت نتيجته أننا نشاهد اليوم نوعاً من انحدار القوة الحضرية إلى حالة من التخبط لا يمكن التنبؤ بمصيرها . وبالجملة فإن مدنيتنا تجنح إلى الإفلات من الزمام ، وقد

نموها حتى غلبها على أمرها مالديها من الموارد والفرص والإنتاج الفائق عن الحد فى وفرته . وإذا كانت الدول المستبدة التى تحاول أن تفرض بكل شدة التحكم فى نظامها الاقتصادى ، تقع ضحية لما تفرضه من الضوابط الحمقاء ، فإن النظم الاقتصادية التى يبدو أنها تتمتع بقدر أكبر من الحرية ، تنزلق إلى الهاوية تحت رحمة وسائلها التى أفلت زمامها .

ولقد حدث نقيض ذلك تماماً إبان التوسع العظيم الأول للمدينة ، فإنه بدلا من وقوع انفجار شتت عناصر القوة خارج المدينة ، حدث تجمّع لمّ شمل هذه العناصر . وذلك أن العناصر العديدة المتباينة فى المجتمع — وكانت إلى ذلك الحين تنتشر فى أرجاء الأودية ، وكان انتشارها يمتد أحياناً إلى أقاليم تبعد كثيراً عن ذلك — أرغمت على أن تحتشد وتتجمع داخل الأسوار الضخمة للمدينة . بل إن قوى الطبيعة الهائلة أخضعت للتوجيه الواعى للإنسان ، فقد أصبح عشرات الألوف من الرجال يتحركون للعمل كآلة واحدة تحت قيادة مركزية لإنشاء أخاديد الرى والترع والتلال الحضرية الصناعية والهياكل المدرجة والمعابد والقصور والأهرام على نطاق كان من العسير تصوره إلى ذلك الحين . ولقد أفضى ظهور الأسطورة الجديدة للقوة إلى نتيجة مباشرة ، وهى ابتكار الآلة نفسها ، وقد تعذرت رؤيتها على الآثاريين زمناً طويلا ، لأن المادة التى كانت تتألف منها ، وهى الأجساد البشرية ، كانت قد تفككت وأصابها البلى . ولقد كانت المدينة هى الوعاء الذى أحدث ذلك التجمع ، وبفضل شكلها ذاته أمكن إيجاد التماسك بين القوى الجديدة ، ومضاعفة قوة التفاعل فيما بينها ، ورفع المستوى العام لما تؤديه من الأعمال .

ولقد حدث هذا التجمع فى عين الوقت الذى اتسع فيه نطاق الاتصال بين الناس اتساعا كبيراً عن طريق المتاجرة ، والإغارة ، وعن طريق الاستيلاء والمصادرة ، وعن طريق المهاجرة والاسترقاق ، وعن طريق

جمع الضرائب ، وتجنيد حشود من الناس للعمل . وتحت ضغط نظام رئيسى هو نظام الحكم الملكى ، جمع فى نطاق حضرى مركز ، بين طائفة كبيرة من الجزيئات الاجتماعية المتنوعة التى عاشت طويلا فى عزلة عن بعضها بعضا ، منصرفة إلى العناية بشئونها الذاتية دون أن يوجد بينها عداء متبادل . وكما يحدث فى حالة أحد الغازات ، فإن مجرد الضغط على الجزيئات فى داخل ذلك النطاق المحدود ولد من التشابك وتبادل التفاعل اجتماعياً فى خلال جيل واحد أكثر مما كان يتسنى حدوثه فى عدة قرون لو أن كلا من تلك الجزيئات ظل باقياً على عزلته فى موطنه الأصلى بلا حدود بينها . أو بتعبير أدنى إلى وظائف الأعضاء ، إن الخلايا الصغيرة فى المجتمع القروى ، التى تتسم بأنها غير متباينة ولا معقدة ، وتتساوى أجزاؤها من حيث إن كلا منها يؤدى كل الوظائف ، قد تحولت إلى تكوينات معقدة يقوم نظامها على أساس محورى ، ولها أنسجة متباينة وأعضاء لكل منها اختصاص معين ، وفيها جزء واحد – الجهاز العصبى المركزى – هو الذى يقوم بمهمة التفكير والتوجيه لها جميعها .

وما الذى جعل تركيز القوى وحشدها أمراً ميسوراً ؟ ما الذى خلع عليها ذلك الشكل الخاص الذى اتخذته فى المدينة فكانت لها نواة مركزية دينية وسياسية هى القلعة التى هيمنت على النظام الاجتماعى بأكمله ، وتولت التوجيه المركزى لنواحى النشاط التى كانت فى وقت ما متفرقة وغير خاضعة للتوجيه ، أو كانت على الأقل تدير شئونها بذاتها محلياً ؟ إن ما أود اعتباره التطور الرئيسى هنا قد لاحت فى مرحلة أقدم من ذلك بكثير نذر بوقوعه ، وذلك عندما تحول الصياد من شخص يدفع الأذى عن الناس إلى زعيم يجمع منهم الجزية . وهذه الشخصية قد تكرر قيام الدليل على وجودها فى تطورات مماثلة وقعت فى دورات عديدة متأخرة من دورات المدنية . ونرى أن هذه الشخصية اتخذت فجأة مظهراً يتجاوز حدود البشر . فكل

سلطاتها وامتيازاتها ازدادت زيادة هائلة بقدر ما تضاءل نصيب الرعايا من السلطات والامتيازات ، إذ لم تعد لهم إرادة مستقلة ولا قدرة على الحياة بمعزل عن حاكمهم .

ولعلى كنت لا أجد الجرأة الكافية للتقدم بهذا التفسير او لم يكن عالم من ألمع الآثاريين فى العهد الحديث ، وهو المرحوم هنرى فرانكفورت ، قد زودنا بأغلب الحقائق العلمية اللازمة ، ولمح عن غير قصد إلى هذه النتيجة وإن لم يتنبأ بها : وأما الرأى الذى أود عرضه فهو أن أهم عامل فى إحداث التغيير من أسلوب حياة القرية المفكك الأوصال إلى أسلوب حياة المدينة المنظم تنظيما دقيقا ، كان الملك أو بالأحرى نظام الحكم الملكى : أما التصنيع والمتاجرة ، اللذان يقترنان فى نظرنا الآن بنمو المدينة ، فإنهما كانا لمدة قرون من العوامل الثانوية ، بل لعل ظهورهما جاء متأخراً عن ذلك . فإن كلمة تاجر ذاتها لا تظهر فى الكتابة فى بلاد ما بين النهرين إلا فى غضون الألف عام الثانية قبل الميلاد « عندما تصف موظفاً فى معبد منح حق التجارة مع الخارج » . وإنى لأذهب إلى أبعد مما ذهب إليه فرانكفورت وأبدى أن إحدى صفات الإله المصرى القديم « بتاح » التى تكشف عنها وثيقة ترجع إلى الألف عام الثالثة قبل الميلاد وهى « أنه أنشأ مدنا » ، كانت هذه الصفة هى المهمة الخاصة بالملوك قاطبة فى كل مكان . وأحياناً كان الملك ينشئ مدنا عديدة ، وأحيانا كان يحول إلى مدن بلادا ريفية قديمة طال زمن تعميرها ويضعها تحت سلطة حكامه ، وفى كلتا الحالتين ، كان حكمه يحدث تغييراً حاسما فى شكلها ومحتوياتها . ويحتل الملك فى التجمع الحضرى واسطة العقد ، فهو قطب المغناطيس الذى يجتذب إلى قلب المدينة كل القوى الجديدة التى توافرت للمدينة ، ويضعها تحت سيطرة القصر والمعبد .

٢ — أول تجمع حضرى :

لقد وقع هذا التحول الحضرى العظيم حين كان التاريخ المدون على الأبواب ، وعندما تم تكوين المدينة فى النهاية تبوأت المدينة الصغيرة ، أى القلعة ، مكانة أسمى من القرية ، وقضت على الأساليب القروية المتواضعة . فما كان مجرد اتساع أجزاء القرية بكاف لتحويلها إلى الصورة الحضرية الجديدة ، وذلك لأن المدينة كانت عالما رمزياً جديداً لا يمثل شعباً وحده فحسب ، بل يمثل عالماً بأسره هو وآلهته .

وما حدث هنا يسبق فى الزمن كذلك السجلات المدونة ، بيد أنه إذا صح التفسير السابق بيانه للعلاقة بين الصياد الزعيم والمجتمعات المجاورة له ، فإن القلعة لم يكن الغرض الرئيسى منها أصلا أن تكون ملاذا دفاعياً يعتصم به ابن القرية عندما يتهدده « المغيرون المتنقلون من مكان إلى مكان » . ولا ريب فى أنه عندما أصبحت الحرب نظاما مألوفا ، ازداد استخدام الحصن فى هذا الغرض ، بيد إن إحاطة القلاع بأسوار ، حتى حين تكون المدن غير محوطة ، لا يستتبع حتما أن المهمة الحربية للقلاع كانت أسبق فى الزمن من أى مهمة أخرى لها ، فلعل استخدام السور فى مبدأ الأمر كان لأغراض دينية ، كبقية الحدود المقدسة لحرم شريف ، ولصد الأرواح الشريرة ، أكثر منه لصد المعادين من البشر .

أما من حيث الاستخدام لأغراض شبه حربية ، فإن القلعة البدائية كانت بالأحرى مركزاً للصون ، حيث تكون أسلاب الزعيم — غالباً من الحبوب وجائزاً من النساء — فى مأمن من إغارات النهب المحلية ، أى فى مأمن من هجوم القرويين الساخطين ، وذلك أن من كان يتحكم فى فائض المحصول الزراعى السنوى كان يملك سلطة الحياة والموت على جيرانه . ولقد كان خلق عجز مصطنع وسط الوفرة الطبيعية المتزايدة أحد الانتصارات

الأولى التى اتسم بها النظام الاقتصادى الجديد للاستغلال المتمدن ، وكان نظاما اقتصاديا يتعارض تعارضا جوهريا مع تقاليد القرية .

بيد أنه كان يعتور مثل هذا النوع الفج من التحكم نقائص طبيعية ، فالقوة المادية وحدها : حتى ولو كان يؤيدها إرهاب منظم ، لا تفضى إلى انسياب البضائع فى يسر وسهولة إلى مركز التجمع ، ولا يمكن أن تجعل المجتمع يسخر أقصى جهوده فى الإنتاج ، وعاجلا أو آجلا تتكشف هذه الحقيقة للدول الدكتاتورية ، من روما الإمبراطورية إلى روسيا السوفيتية . فمن أجل الفوز بإذعان الناس طواعية دون إسراف لا موجب له فى استخدام الشرطة لمراقبتهم باستمرار يجب على الهيئة الحاكمة أن تهيئ لهم من مظاهر الجود والمعونة ما يكفى لأن يثير فيهم قدراً من المودة والثقة والولاء .

ولعل الديانة قد لعبت دوراً أساسيا فى إحداث هذا التغيير ، إذ أنه بدون مساعدة طبقة رجال الدين الصاعدة ما كان ليتسنى إطلاقاً للزعيم الصياد أن يحصل على النفوذ الكبير والسلطات الواسعة التى صحبت ارتقاءه إلى مرتبة الملك وبسطت نطاق سيطرته . وهنا نجد أن السير الطبيعى للتطور على نمط يمكن تفسيره تفسيراً اقتصاديا بسيطا ، قد ساعده تطور خارق أحدث تعديلا فى مشتملات العملية بأسرها وفى معناها بذاته ، فكلتا السلطتين الدينية والزمنية ازدادتا ضخامة باستيعاب المبتكرات الحديثة المدنية ، وذات الحاجة إلى سيطرة واعية على كل جزء من أجزاء البيئة أضفت نفوذا جديدا على أولئك الذين انقطعوا للتأمل أو التحكم ، أى الكاهن أو الملك ، وكثيراً ما كانا يجتمعان فى شخص واحد يضطلع بمهامهما .

وهكذا فإن ما لم يتسن تحقيقه عن طريق الإرغام بالقوة الوحشية وحدها ، أو عن طريق السحر والطقوس وحدها ، استطاعت هذه العوامل معا الوصول إليه فى داخل المدينة الناشئة ، وذلك عن طريق التفاهم المتبادل ،

والعمل المشترك على نطاق لم يكن مجرد تصوره أمرا مستطاعاً على الإطلاق من قبل . وقد قامت القرية على أسس متواضعة أرسَتْها فى الأرض ، أما المدينة فإنها قلبت قيم القرية ومعاييرها مثل ما قلبت دنيا الفلاح رأسا على عقب بوضع أساساتها فى السماء ، فأصبحت كل العيون ترنو ببصرها إلى أعلى . وقد أفلح الاعتقاد فى الإله الصمد ، الذى لا أول له ولا آخر ، العارف بكل شىء ، القادر على كل شىء — أفلح هذا الاعتقاد فى السمو بإمكانيات الحياة الإنسانية طوال آلاف من السنين . وأولئك الذين جنوا أكبر الفائدة من المدينة لم يحزنهم ما يعتور الحياة الإنسانية من وجوه القصور الحيوانية ، بل حاولوا عامدين أن يتخطوها بمحض قوة الإرادة .

ولا يستطيع أحد تحديد الوقت الذى حدث فيه ذلك كله ، ولا شك فى أنه قد تمت عدة ألوان من الاتحاد الجزئى أو الوقتى بين الحصن والمعبد قبل أن يتوحدا . بيد أنه مما يلفت النظر أنه وفقا لما يقوله « تشايلد » "كانت المعابد تتوسط القرى التى قامت قبل معرفة الكتابة فى بلاد ما بين النهرين" . فلابد إذن من أن يكون المعبد قد انتقل إلى داخل القلعة فى وقت ما ، وإلا فلا بد من أن تكون الحدود المقدسة للمعبد قد مدت حول الحصن وجعلته كذلك حرما مقدسا لا يمس .

ومن المحقق أنه عندما يكشف مجراف الآثارى عن آثار يمكن التعرف على أنها مدينة ، يجد منطقة محوطة بسور ، أى قلعة مبنية من مواد صلبة حتى ولو كان باقى المدينة بلا سور ولا منشآت ثابتة . وهذا ينطبق على المدن من أوروك إلى هارابا (Harappa) . ويجد الآثارى عادة فى داخل المنطقة ثلاثة مبان ضخمة من الحجر أو الآجر ، وهى مبان تميزها ضخامتها بذاتها عن باقى منشآت المدينة ، وهذه المبانى الثلاثة هى القصر ومخزن الغلال والمعبد . أما القلعة نفسها فإن لها أمارات كثيرة تدل على أنها كانت حظيرة مقدسة ، إذ أن ما كان لهذه الأسوار فى المدن الأولى من ارتفاع شاهق ،

وسمك ضخم – بلغ خمساً وسبعين قدما فى خورساباد (Khorsabad) – يلفت النظر بعدم تناسبه مع ما كان معروفاً إذ ذاك من الوسائل الحربية لمهاجمتها . وقد درج الناس على ألا يبذلوا جهودهم المضنية بمثل هذا السخاء إلا من أجل آلهتهم وحدها . ولكن لعل ما قصد به أولا ضمان الفوز برضاء الإله ، قد أظهرت التجارب فيما بعد قيمته العملية كوسيلة حربية أفعل أثراً فى الحماية من الأعداء . ومن المحتمل أن الغرض الرمزى كان أسبق فى الزمن من المهمة الحربية ، وإنى لأتفق فى هذا الشأن مع ميرسيا الياد (Mircea Eliade) .

وفى الوقت الذى كان يتكون فيه هذا التحالف بين العوامل السياسية والاقتصادية والدينية ، لم تكن قد اتضحت كثير من الفوارق التى ظهرت فيما بعد . ونستطيع أن نفترض مرور زمن طويل قبل أن يبلغ نظام الحكم الملكى مداه النهائى المتضخم . ففى البداية لم تكن هناك طبقات أو وظائف خاصة لمن يزاول عمل الزعيم أو الطبيب أو الساحر أو المتنبئ أو الفلكى أو الفقيه أو رجل الدين ، وذلك لأن هذه الأعمال كانت متداخلة بعضها فى البعض الآخر ، وكان الشخص بعينه يتقن أداء أكثر من عمل واحد من هذه الأعمال . وحتى فى عصور تاريخية متأخرة نسبياً تولى بعض الملوك عن طيب خاطر رياسة الكنائس القومية ، على حين أن بعض الأساقفة والبابوات المسيحيين كانوا يتولون حكم المدن وقيادة الجيوش . بيد أنه قد حدث فى وقت ما أن سما مركز الحاكم ورجل الدين سموا عظيما ، والظاهر أن ذلك كان بعد عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، عندما اتسعت القوى البشرية اتساعاً هائلا فى نواح أخرى عديدة . ولقد صحب ذلك تمييز بين المهن وتخصص فى كل ميدان . وقد كانت المدينة الباكرة مجتمعاً مختلفاً عن مجتمع القرية ، فقد كانت مجتمعاً طبقيا تحكمه إحدى طبقاته ، ويستهدف نظامه خدمة صوالح أقلية متسلطة ، أى أنها لم تعد مجتمعاً يتكون من أسرات متواضعة تعيش بتبادل المعونة فيما بينها .

وعندئذ ادعى الملوك أنهم يستمدون سلطانهم من مصدر إلهى ، وصدق الناس ادعاءهم ، وأصبح الملك حلقة الاتصال بين آلهة السماء وعباد الأرض ، وتتجسد فى شخصه كل حياة وكيان البلاد وأهلها . وأحياناً كان رجال الدين ينصبون الملك على العرش ، وكان يحتاج إلى ما ينم عن الرضا الإلهى – حتى ولو كان مغتصبا – لكى ينجح فى تولى الحكم باسم الحق الإلهى . وقد أثبت السجلات ملك سومر القديم ، الملك « ليست » (List) ، أن نظام الحكم الملكى « هبط من السماء » وأن الملوك الخمسة الذين نصبتهم الآلهة منحوا خمس مدن « فى . . أماكن طاهرة » وهى : أريون (Erion) وبادتبير (Badtbira) ولاراك Lara) وسيبار (Sippar) وشوروپاك (Shuruppak) وكلها اختيرت لتكون مراكز للعبادة .

ألا يدل كل هذا على امتزاج السلطتين الزمنية والدينية ؟ أو لم تكن عملية الامتزاج على هذا النحو هى التى أحدثت فى النشاط البشرى – كما يحدث فى التفاعل النووى – من الانفجار مالا سبيل إلى تعليله بغير هذا ؟ يلوح أن الأدلة تشير إلى ذلك ، فالملك « ليست » سالف الذكر يروى لنا أنه عندما هزم « كيش » (Kish) فى ميدان القتال ، انتقلت الملكية إلى الحرم المقدس فى مدينة أوروك حيث أصبح الملك الجديد ، ابن أوتو (Utu) إله الشمس ، الكاهن الأعظم والملك معا . وإنى لأرى أنه قد انبثقت من هذا الاتحاد ، القوى التى جمعت بين كل الأجزاء الأولية فى المدينة وصاغتها فى قالب جديد ظهر للناس أنه أعظم وأبعث رهبة فى النفوس من أى عمل آخر قام به الإنسان . وعندما تم هذا التطور العظيم ، لم يعد سادة القلعة يتحكمون فحسب فى مصائر المدينة ، بل أنشأوا فعلا القالب الجديد للمدينة وهو الذى اشتمل على أكبر قدر ممكن من التمييز بين الناس من الناحيتين الاجتماعية والمهنية بما يتلاءم مع الاتساع المتزايد

فى عمليات التوحيد والاندماج . فنظام الحكم الملكى زاد مهام رجال الدين ومنح طبقتهم مكان الصدارة فى المجتمع وهو ما يتجلى فى المعابد العظيمة التى لم يكن يتوافر من الموارد ما يكفى لبنائها إلا عند الملوك وحدهم . وطبقة رجال الدين هى التى كان أفرادها يقيسون الزمن ، ويحددون المكان ، ويتنبأون بالحوادث فى مواسمها ، وأولئك الذين سيطروا على الزمان والمكان ، كان فى مقدورهم أن يسيطروا على جموع كبيرة من الناس .

ولم يقف الأمر عند حد رجال الدين بل ظهرت كذلك طبقة جديدة من المتعلمين كانت تتألف من الكتبة والأطباء ، والسحرة ، والمنجمين ، إلى جانب « موظفى القصر الذين كانوا يقيمون فى المدينة وأقسموا يمين الولاء للآلهة » على نحو ما اقتطف چورچ كونتناو (Georges Contenau) من إحدى الرسائل . ولقد منح الملوك الأوائل هؤلاء الذين كانوا يمثلون « القوة الروحية » ، فى مقابل تأييدهم لهم ، منحوهم الطمأنينة والفراغ والمكانة ومساكن جماعية عظيمة البهاء . وعند مد يد المعونة لتحويل مركز بسيط للعبادة إلى معبد فسيح ، كانوا كذلك يمنحون المعبد مورداً عظيم القيمة من الناحية الاقتصادية ، وكان يتمثل فى تسخير جهود مجتمع بأسره لخدمة المعبد خدمة إجبارية . ولعله لم يكن من قبيل المصادفة وحدها أن أقدم اللوحات التى عثر عليها فى إيريك (Erech) هى مذكرات للاستعانة بها فى تنظيم المعبد حتى يكون مركزا للصناعة ومخزنا للبضائع .

وهل كان تشييد المعبد بكل ما توافر لدى المجتمع إذ ذاك من الموارد الطبيعية الهائلة هو الحادث الحاسم الذى وحد بين القادة الروحيين والزمنيين؟ لا جدال فى أن مباشرة الملك سلطانه كانت تحتاج إلى رضا الآلهة ورجال الدين بقدر ما كان دعم نفوذهم فى حاجة إلى مايتحكم فيه الملك من الأسلحة وما يتمتع به من السيطرة المطلقة على قوات بشرية كبيرة .

ولقد أحكم من روابط هذا الاتحاد إقامة معبد عظيم ، كان فى ذاته عملا رائعا من الناحيتين المعمارية والرمزية على السواء . ولقد بلغ من اعتبار هذه الصلة أمراً حيويا بالنسبة للملكية ، أن حكام بلاد ما بين النهرين فى عصر تال كانوا ، كما بين سبايزر E.A. Speiser ، يفاخرون بإعادة تشييد معبد فى آشور بعد مرور عدة قرون على إقامته ، بل إن آشور بانيبال ذهب إلى حد أنه استعاد ثانية تمثال الإلهة نان Nan ، وكان قد نقل من أوروك إلى سوسا قبل ذلك بمدة لاتقل عن ١٦٣٥ سنة .

أفلا يوحى ذلك بأن إعادة بناء المعبد القديم وتجديده لم يكن مجرد مظهر صورى للورع ؟ بل كان دعما ضروريا لما له من حق شرعى فى البقاء والاستمرار ، وهو فى الواقع بمثابة تأييد جديد « للميثاق » الأصلى بين المعبد والقصر ، لأن هذا الميثاق الفرضى قد حول الزعيم المحلى ، كما رأينا ، إلى رمز هائل لكلتا السلطتين الدينية والزمنية عن طريق عملية أطلقت قوات اجتماعية كامنة فى المجتمع بأسره . وإن الضخامة ذاتها التى بلغها المعبد الجديد مع الإسراف فى زخرفته وتزيينه لتشهد بما بلغه كلا الإله والملك من القوة .

٣ — الغلو والتضحية والاعتداء :

يبدو أن التطور التاريخى لنظام الحكم الملكى كان مصحوبا بتحول جماعى عن طقوس الخصوبة إلى عبادة أوسع نطاقا هى عبادة القوة المادية . بيد أن هذا التحول لم يكتمل إطلاقاً ، لأن « أوزيريس » و « باكوس » و « كيبيلى » بقوا بل استعادوا مكانتهم القديمة ، ولكن دور المدنية عند إشراقها أحدث تغيرا فى وجهة النظر إلى الأمور كان مصحوبا بتناقص مطرد فى إدراك حاجات الحياة ؛ وبتطرف بالغ فى تقدير دور الشجاعة المادية والتحكم المنظم فى توجيه حياة المجتمع ، لا فى أوقات الأزمات فحسب

بل فى الحياة اليومية المعتادة كذلك . ولما كانت القوة العسكرية تشد أزر الملك ، فإن كلمته كانت قانونا ، إذ أن سلطة إصدار الأوامر والاستيلاء على الممتلكات والقتل والتدمير ، قد كانت جميعا وبقيت دائما « سلطات ملكية » وهكذا ، فإن المدينة ذات الأسوار قد صانت ونقلت إلى الأجيال التالية نظاما مصدره جنون الهذاء ، فما المدينة إلا المظهر الجماعى لشخصية فاقت الحد فى تدججها بالسلاح .

وتبعا لازدياد الوسائل المادية ، فإن هذه الأسطورة المغرضة عن القوة ، على ما بها من عقم ، بل عداء للحياة ، شقت طريقها إلى كل ركن من أركان المدينة ، ووجدت أكمل تعبير عنها فى النظام الجديد ، نظام الحرب النظامية .

ولكى نفهم طبيعة هذا النكوص الذى ترك فى تكوين المدينة أثرا لا يمكن أن نخطئه ، يجب أن نتغلغل إلى أبعد من ذلك فى أصول نظام الحكم الملكى ذاته . ولقد جمع كل من هوكارت وفرانكفورت عن هذا الموضوع كثيرا من الأدلة المتناثرة التى أعتقد أنها تتصل بطبيعة المدينة . ونرى أن هوكارت يقتفى أثر سير جيمس فريزر فى القول بأننا ما زلنا نجد فى جميع أنحاء العالم أدلة على إقامة طقوس طوطمية ، بصيغ تكاد تكون جميعا متشابهة تمام الشبه ، من أجل الحصول على قوت وفير . وتدل هذه الطقوس على وجود عبادة للخصوبة قد تكون أقدم عهدا من ممارسة الزراعة . وفى كل مكان فى العالمين القديم والجديد كان مولد النبات وموته يقرنان بمولد إله الغلال وموته ، وكان حامى حمى فنون البشر الخاصة بالبذور والغرس . وبقيام الحكم الملكى أصبح من الميسور الاستعاضة بكل من شخصيتى الإله والملك عن الأخرى ، إذ أن الحاكم بتوليه سلطات إلهية ، أصبحت تتمثل فى شخصه القوى السائدة فى الطبيعة ، وذلك فى عين الوقت الذى كان يقوم فيه بتمثيل مجتمعه الخاص ، وتحمل مسئولية المحافظة على كيانه المادى والثقافى .

وبعد ازدياد عدد السكان فى عهد الزراعة فى العصر الحجرى الحديث ، أصبح المجتمع السابق لظهور مجتمع المدينة يقع باطراد تحت رحمة قوى طبيعية لاسلطان له عليها ، فحلول فيضان : أو انقضاض أرجال من الجراد ، قد يكون سببا فى انتشار الخسائر والآلام أو الموت فى تلك المراكز الحضرية الناشئة التى كانت أكبر من أن يتيسر إخلاؤها من أهلها ، أو إمدادها بالطعام من أماكن بعيدة . وكلما ازداد التشابك والاعتماد على تبادل المعونة فى عملية الترابط الحضرى ، عظم الرخاء المادى ، بيد أنه كلما ازداد توقع الرخاء المادى ، قل تقبل الناس لتعطله وازداد انتشار القلق حول احتمال زواله .

فلكى يحشد الملك هذه القوى الجديدة ويضعها تحت سيطرته ، اتخذ لنفسه سلطات مقدسة غير مألوفة ، فلم يعد صورة مجسدة للمجتمع فحسب ، بل إنه بحكم ادعاءاته ذاتها ، أصبح مصير المجتمع فى قبضة يديه . وقد أفضى ذلك إلى حالة من القلق الجماعى ، فبعد انقضاء آلاف السنين على حدوث أول تجمع حضرى ، لم يكن يتسنى لأحد أن ينطق باسم فرعون مصر دون أن يقرنه بهذا الدعاء « الحياة ! الرفاهية ! الصحة ! » ويبدو أنه قد صحب كل هذا التطور شعور متزايد بالرغبة فى دوام الحياة ؛ أو على الأقل بالرغبة فى إطالتها وتجنب الموت . فالإنسان الحضرى حاول التحكم فى أحداث طبيعية كان أسلافه الأكثر بداوة يتقبلونها فى صمت وعن طيب خاطر .

وهل كانت الملكية تدفع ثمن هذا الازدياد الجارف فى سلطان السحر ؟ إن هنالك من الشواهد المتفرقة التى تبلغ من قدم العهد واتساع الانتشار مالا يدع سبيلا إلى إغفالها كلية ، وهى تدل على أن الطقوس الخاصة بالخصوبة من أجل ضمان نمو المحصولات كانت تستكمل بتقديم قرابين

بشرية . وفى أوقات الأزمات الناجمة عن ندرة القوت والقحط كانت توجد حاجة ماسة إلى اكتساب عطف الآلهة . ومن المحتمل جداً أن القربان كان فى الأصل أثمن عضو فى المجتمع ، أى الملك الإله نفسه ، فقد كان السحر البدائى يحاول بإنزال الموت طواعية واختيارا ، أن يصرف غضب الآلهة ويستأنف السيطرة على قوى الحياة .

ولسوء الحظ أنه عندما تم ابتكار الكتابة ، كانت حضارات المدن قد بلغت فى تطورها مدى بعيدا من التقدم لم يسمح بتسجيل شيء من المراحل الأولى للقرابين البشرية الملكية ، وإن كانت الطقوس الدينية الخاصة بذبح الأطفال والأسرى والحيوانات قد استمرت على نحو ملحوظ خلال الشطر الأكبر من التاريخ القديم . وبيروسس (Berossus) البابلى (من القرن الثالث قبل الميلاد) هو وحده الذى ترك وصفا لأعياد السنة الجديدة . ويدل هذا الوصف على الاستمساك زمنا طويلا بعادة اختيار شخص لتقديمه قربانا بدلا من الملك ، ولولا ذلك لكان يضحى بالملك عند انتهاء العام لضمان مولد النباتات الجديدة فى السنة القادمة .

ويقول فريزر فى سخرية : إن عادة التضحية بالملك لضمان الرخاء للمجتمع أنقصت إلى حد جاذبية ذلك المنصب السامى . وحالما أصبح لذكاء الزعيم وبراعته فى التنظيم من الأهمية ما للمهام السحرية المعزوة إليه ، برزت فكرة أقرب إلى العقل والصواب ، وهى اختيار بديل كان يبرهن أولا على أنه الملك بمعاملته مؤقتاً بكل ما لمركز الملك من تبجيل وامتيازات ، لكى يحتفل فى النهاية بتقديمه قربانا بدلا من الملك .

وإذا كانت مثل هذه العادات قد سادت وقتا ما فى مصر ، أو فى بلاد ما بين النهرين ، فإن ذلك كان فى عهد أقدم من أن يخلف أثرا مباشراً . ويجب أن نعترف بأن هذه ثغرة لها خطرها ، إذ أننا لانستطيع الربط مباشرة بين الحرب وتقديم قرابين من الضحايا البشرية إلا فى حالات

قليلة . ومع ذلك فإن هذه الحالات بالغة فى دلالتها ، ففيما يمدنا به الأزاتكة فى هذا الصدد من البينات التى لاتترك مجالا للشك أو الخطأ ، نجد أيضاً شاهدا على وجود مجتمع بلغ فى تطوره ما يقرب من نفس المستوى العام الذى بلغته أقدم المراكز الحضرية الأولى . وكانت حاجة الأزاتكة إلى القرابين البشرية ـ وكانت تبلغ العشرين ألفا فى سنة واحدة ـ السبب الرئيسى فى الحروب الوحشية التى كان أولئك القوم يشنونها .

وكما هى الحال فى كثير من الأنظمة الأخرى ، ربما كان لكل من الحرب والقرابين البشرية أكثر من سبب واحد لنشوئها ، وربما لم تكن الصلة بينهما صلة سببية إلا فى عدد محدود من الأماكن . فمن الجائز أن الغزوات لسوق الأسرى بقصد استرقاقهم وليس بقصد تقديمهم قرابين ، كانت سببا مستقلا فى قيام الحرب . ومن المحتمل أن غارات السومريين على الجبال الواقعة شماليهم للحصول على الخشب وخامات المعادن كانت تعود كذلك بأسرى لهم نفعهم ، ومما له دلالته أن الرمز الذى يدل على أسير فى لغة السومريين هو « امرأة جبلية » . وفى البداية كان قوام هذه الغارات والجماعات التى تبحث عن الكلأ جانبا واحداً فقط مما لايمكن معه تسميتها حربا أو تجارة ، إذ لابد من طرفين ليكون هناك قتال . وإلى أن توافر لأهل الجبال زيادة عددهم وتحسين أسلحتهم ، لم يكونوا أنداداً للوقوف أمام « جيوش » المصريين أو أهل ما بين النهرين . بيد أنه فى آخر الأمر لم يعد هناك مفر من الرد على العدوان بالعدوان فضلا عن وقوع اشتباكات مريرة طاحنة ، وتبعا لذلك اتسع نطاق الحرب تدريجيا . وفى خلال القرن التاسع عشر حدثت فى أواسط أفريقيا دورة مماثلة من دورات العنف والقوة نتيجة لغارات تجار الرقيق من الأعراب .

ولولا أن المدينة قامت بدور المركز البؤرى للاعتداءات المنظمة ، لما تجاوز البحث عن ضحايا بشرية نطاق الأعمال البريئة نسبيا التى كانت

لاتزال سارية إلى القرن التاسع عشر فى كثير من مجتمعات القبائل البدائية ، وكانت أعمالا شاذة ، ولكنها انتقائية للحصول من مجتمع آخر على عدد قليل رمزى من الأسرى . ولقد أساء المبشرون ، بل علماء الإنسان ، تفسير هذه العادة ، كما أن مؤرخى الحضارة – مثل هنرى بيرن Henri Pirenne الذى اعتبر من القضايا المسلم بها « أن الحرب قديمة قدم المجتمع الإنسانى » – لم يكلفوا أنفسهم مطلقا عناء التدقيق فى تأمل الأدلة ذاتها ، ولا فحص أساس المعتقدات التى أقبلوا طواعية على اعتناقها . بيد أن هدف الاشتباكات البدائية بين فئتين مسلحتين لم يكن قتل جموع من الناس فى معركة ، ولا نهب قريتهم وتدميرها ، بل كان على الأصح انتقاء عدد قليل من الأسرى الأحياء لذبحهم فى طقوس خاصة ، ثم التهامهم فى وليمة كانت فى ذاتها من طقوس السحر الدينية .

ولقد تغير هذا الوضع بأسره عندما ظهرت المدينة فى عالم الوجود وازدادت قوتها الجماعية فى كل ناحية ، فبدلا من الغارات والحملات الخاطفة للظفر بضحايا عديدين ، أخذ يسود الاتجاه نحو الإبادة الشاملة والتدمير الكامل . وما كان فى وقت ما تقديم قرابين يقتضيها السحر من أجل ضمان الخصوبة ووفرة المحصول ، أى ما كان عملا لا يقره العقل لتحقيق غرض معقول ، قد تحول إلى إظهار ما لأحد المجتمعات بزعامة ربه ومليكه الكاهن عندما يستشيط سخطا وغضبا – من القدرة على السيطرة على مجتمع آخر وإخضاعه ، أو إبادته إبادة تامة . وكان الكثير من هذه الاعتداءات يقع دون إثارة ، ودون أن يكون لدى المعتدى ما يبرر به اعتداءه من الناحية الأدبية ، ولو أنه حينما حل العصر الذى أخذت فيه السجلات المدونة تكشف عن أحداث التاريخ ، كان يضفى على الحرب طابع اقتصادى ، فتعزى إلى التوتر السياسى الناشئ عن نزاع حول الحدود أو حول الحقوق فى الماء . إلا أن ما ينجم عن ذلك من خسائر بشرية واقتصادية كان لا يتناسب بحال فى أقدم العصور ، أكثر مما يتناسب اليوم مع الأهداف المحدودة التى تثار

من أجلها الحروب . وهكذا نرى أن النظام الحضرى للحرب يستمد نشأته من السحر فى مجتمع أكثر بداوة من مجتمع المدينة ، ومعنى ذلك أن حلم الأطفال قد غدا جثاما « كابوسا » يقض مضاجع الرجال نتيجة لازدياد نمو القوة الميكانيكية ، فهذا الأذى الذى حدث فى عهد الطفولة قد ظل باقياً وتسبب فى انحراف كل المجتمعات التالية ، ومن بينها المجتمع الأمريكى .

وإذا كانت ثمة حاجة إلى ما يجعل القول بنشأة الحرب من السحر جديراً بالتصديق ، فإن أمامنا هذه الحقيقة ، وهى أن الحرب – حتى حين تستخفى وراء ما يبدو كأنه مطالب اقتصادية عنيدة – تتحول بانتظام إلى عمل دينى ؛ فما هى إلا تقديم قرابين طقسية على نطاق واسع . ولما كان الملك هو العامل الرئيسى فى تقديم هذه القرابين ، فإنه كان يضطلع بدور فيها منذ أوائل البداية . ومن ثم فقد أصبح الشغل الشاغل للملكية على الدوام جمع القوة ، والقبض على زمامها ، والإعراب عنها بالقيام عمدا بأعمال القتل والدمار ، فما كان الملك يقترف إثما ، أو يرتكب خطأ باستعراض قوته على هذا النحو . وبشن الحرب كان الملك المنتصر يقيم الدليل على أقصى ما يمكن أن تحققه السيطرة الملكية ، وبالموت الشامل الذى ينزله ، كان يلتمس المزيد من التأييد الإلهى . ويذكرنا سفر أشعياء بأن ذلك كان العبء الذى أبهظ كاهل مصر وبابل وصور .

وهكذا ، فإنه عن طريق ضرب عجيب من ضروب التطور ، نرى أن الطقوس التى كانت تقام فى الأصل التماساً للمزيد من الحياة الموفورة الخير ، قد تحول هدفها إلى النقيض تماما ، فقد أصبحت تنشد السيطرة العسكرية المركزة والسرقة على نسق منتظم ، والتطفل الاقتصادى – وقد ناهض كل ذلك ما انطوت عليه حضارة المدن من وجوه الخير مما أورد فى النهاية مدينة بعد أخرى موارد الدمار . وقد انطوى ذلك على أكبر قدر من التناقض وتكافؤ الضدين ، فإن المكاسب العديدة التى نجمت عن اتساع

نطاق الترابط ؛ وتعدد ألوان التعاون المضنى فى المدينة ، بددتها النتائج السلبية التى تمخضت عنها الحرب . وقد تغلغلت جذور هذا الخلل الدورى فى تكوين المدينة القديمة بذاته .

بيد أنه يجب التسليم بأنه حالما أصبحت الحرب سبباً من أسباب وجود المدينة ، فإن ثروة المدينة وقوتها جعلتاها هدفا طبيعيا ، وذلك أن وجود مدن منتعشة جعل للاعتداء الجماعى هدفا مرئيا لم يسترع النظر من قبل ، ألا وهو المدينة ذاتها بما يتجمع فيها باطراد من الأدوات والمعدات الآلية ، وما بها من أكوام الذهب والفضة والجواهر المكدسة فى القصر والمعبد ، ومن مخازن عامرة بالغلال والسلع ، هذا فضلا عن النساء الفائضات عن الحاجة ، ولعلهن لم يكن أقل محتويات المدينة شأنا — وإذا كانت الحرب قد نشأت على هيئة إغارات فى اتجاه واحد تقوم بها جماعات أنفذتها المدينة — فلعل وجود طبقة جديدة محترفة من المحاربين المسلحين قد ابتعد بهذه الإغارات تدريجيا عن مصادر المواد الخام إلى الأماكن التى كانت تزخر بمنتجات تم صنعها . فالمدن التى كانت فى أول الأمر تفرض الجزية على أقوام بدائية ، أخذت الآن تغير على بعضها بعضاً .

وفى الوقت نفسه عندما أصبحت الحرب نظاماً راسخاً معروفا ، كان من الطبيعى أن تنتشر إلى ما وراء مراكزها الحضرية الأصلية ، وذلك أن الشعوب البدائية التى كانت لها فيما مضى ميول سلمية أوعلى أسوأ الفروض ، كانت تقنع فى الإعراب عن قلقها وعدوانها بتقديم قرابين بشرية رمزية ، أخذت تقلد الوسائل الفنيه الجديدة ، وتزداد جرأة فى استخدام الأسلحة الجديدة ولا سيما حين كانت الحملات الحضرية ترتكب من أعمال العدوان والسرقة والاسترقاق ما يدفع الجماعة البدائية إلى الانتقام . وكما حدث فى حالة نظام الحكم الملكى كغزاة أكاد (Akkad) مثلا بعد عهد سرجون (Sargon) ، بقرن من الزمان . وهكذا نرى أنه فى كنف المدينة أصبحت وسائل العنف مألوفة ، وانتشرت فى آفاق تتجاوز كثيراً المواطن الأصلية

التى نشأت فيها الإغارات الجماعية الكبرى لاقتناص الرجال ، فضلا عن الطقوس الصاخبة لتقديم القرابين البشرية . وفى خلال الشطر الأكبر من التاريخ ، كانت أعمال الاسترقاق والسخرة والتدمير تصاحب نمو المدنية فى الحضر وتقتص منه .

وعلى الرغم من أنه سيعوزنا دائماً دليل أو شبه دليل مقبول على وجود علاقة قديمة بين نظام الحكم الملكى وتقديم القرابين ، والحرب والتطور الحضرى ، فإنى قد جمعت من الحطام الباقية ما يكفى لإلقاء شكوك جدية حول الافتراض بأن السبب الكافى الفعال فى حدوث الحرب ، ذلك النظام التاريخى المعقد ، كان إما « الخطيئة الأصلية » ، وإما ميلا غريزيا للقتال ، مبعثه خصائص الوراثة وأثرها فى تكوين طبيعة الإنسان . بيد أننا نجد أن نظرية الانتقاء الطبيعى إذا كانت قد انطبقت فى ناحية ما ، فقد انطبقت هنا بدقة مثالية ، وذلك أنه فى خلال خمسة أو ستة آلاف سنة قد أبيدت ، أو جعلت عاجزة عن التكاثر ، عدة أجناس تفوق غيرها وداعة وتعاوناً ولين جانب ، على حين أنه قد بقيت فى مراكز المدنية وازدهرت أنواع أكثر ميلا إلى العدوان والتقاتل . ولقد كان من شأن الانتصارات التى أحرزتها حضارة المدن خارج نطاقها ، أنها دعمت موطن العجز الرئيسى فيها — وهو ارتباطها بالحرب بوصفها إكسير السلطة الملكية ، وأعظم وسيلة فعالة لإزالة تذمر الشعب من تلك السلطة .

ويسرف المؤرخون فى التبسط إذ يعزون الحرب أساساً إلى وحشية الإنسان فى الأزمان السحيقة ، ويعتبرون الحرب إغارة من يوصفون بأنهم رحل بدائيون وقوم « معدمون » ، على مراكز للصناعة والتجارة « مسالمة » فى العادة . وليس فى التاريخ ما هو أبعد من ذلك عن الحقيقة . فالحرب والسيطرة كانا أكثر تغلغلا من السلم والتعاون فى صميم التكوين الأصلى للمدينة القديمة . نعم إنه لا شك فى أن ما كان يفيض به الحضر من الخير

كان مصدر إغراء لمن كانوا أكثر فقرا ، إذ لا بد من أن كل مدينة كانت تبدو لقمة سائغة فى نظر المغيرين السريعى التنقل من أهل المرتفعات أو السهول ، ولكن ذات الوسائل السهلة التى كانت تمكنهم من الانتقال سريعا بالخيل أو القوارب لم تعرف إلا بعد إنشاء المدينة ذاتها . وقد كانت أقدم مواطن الاستقرار فى سومر قريبة من بعضها بعضا إلى حد يرجح معه أنها ربما كانت كذلك أقدم من الحروب المنظمة . حقا إنه فى عصور متأخرة عن ذلك ، كان فى وسع قوم رحل ، مثل ملوك الهكسوس الرعاة ، أن يضعوا يدهم على مملكة بأسرها ، إلا أنه عندما استقر نظام الحرب ، كان العدو الأكبر للمدينة هو مدينة أخرى تستظل برعاية إله آخر يدعى لنفسه من القوة ما يضارع قوة إله المدينة الأخرى .

ويجب ألا ننسى أنه إبان اتساع القوة اتساعاً عاما ازدادت كذلك المقدرة على القتل ، وأصبح استعراض القوة المسلحة من أهم صفات نظام الحكم الملكى . وقد كانت المدينة بأسوارها ذات الدعائم الضخمة ومتاريسها وخنادقها ، تمثل مظهراً بارزاً للتهديد الدائم بالعدوان ، وكان من جراء ذلك أن ازدحمت مدونات الملوك ازدحاما مريعا بما يخالجهم تجاه الملوك الآخرين من الريبة فيهم ، والكراهية لهم ، والرغبة فى الانتقام منهم ، وعدم التعاون معهم . وكان شأن ملوك مصر شأن أندادهم فى بلاد ما بين النهرين فى تسجيل تفاخرهم ، على ما خلفوه من معالم ولوحات ، بما حققوه شخصياً ، وبأيديهم ، من أعمال بارزة فى التمثيل بكبار أسراهم وتعذيبهم وقتلهم . وهكذا كانوا يحققون بأيديهم ما كان حكام أشد منهم مرضاً بجنون الهذاء ، مثل هتلر ، يحققونه بأيدى عملائهم ، وتحت هذه الزعامة ، كان إله المدينة المحلى يحشد قواه السحرية فى وجه تهديد أى إله أجنبى ، ولذلك أصبح المعبد نقطة البداية للأعمال العدوانية ، وهدفها المنشود سواء بسواء . وهكذا فإن تخيلات دينية بالغة التطرف كانت تثير جموعا يزداد باطراد عددها وفاعلية

أساحتها فى الحصار وفى الهجوم ، وتدفعها إلى الاشتراك فى طقوس الحرب الطائشة .

ولقد كانت المدينة تضطلع بدور جديد فى هذا التطور ، فإنه بحكم تولى الملك قيادة كل من فيها من الرجال ، أصبحت المدينة بمثابة جيش قائم وضع على قدم الاستعداد الدائم ليلبى النداء كلما اقتضت الحاجة ؛ وكان لهذه الأعداد المحتشدة من القوة فى ذاتها ما أكسب المدينة تفوقاً على القرى القليلة السكان ، المتناثرة بعيداً عن بعضها بعضا ، وما حفزها إلى مزيد من النمو من حيث المساحة الداخلية وعدد السكان . ولمواجهة هذا التحدى ، ربما تكون القرى « الأصلية » نفسها قد اندمجت ، فى أحيان كثيرة ، فى وحدات حضرية أكبر منها على نحو ما فعلت فوكيس[1] فى عصر متأخر عندما جمعت أهليها فى مدينة واحدة هى ميجالوبوليس لمقاومة ما كان يتهددهم من غزو الإسبرطيين .

وبتركيز الاهتمام على الحرب بوصفها أسمى « رياضة للملوك » كان يزداد باطراد مقدار ما يؤخذ من الموارد الجديدة التى تجنيها المدينة من إنتاجها الصناعى ويوجه إلى صنع أسلحة جديدة كعربة العصر البرونزى وآلة دك الأسوار . وبمجرد وجود قوة عسكرية احتياطية تتألف من رجال لم تعد للزراعة حاجة إليهم ، ولد عند الطبقات الحاكمة أحلام القيام بأعمال تفوق فى عنفها كل حد ، وهو ما رأينا مثيلا لانطلاقه من جديد فى عصرنا الحاضر ، حتى بين أصحاب عقول مفروض فيها أنها حكيمة بارعة فى العلوم الدقيقة . ولقد أصبحت كل مدينة مركزاً للقوة الغشوم فلا تبالى بتلك

---

(١) لم تكن لفوكيس أى صلة بتأسيس ميجالوبوليس ، إذ أنه بعد انتصار طيبة على إسبرطة فى موقعة لبوكترا (٣٧١ ق . م) قررت أكثر مدن اركاديا تكوين دولة اتحادية وإنشاء مدينة جديدة فى وسط اركاديا لتكون عاصمة هذه الدولة وحصناً يقيها من إغارات إسبرطة . وكانت ميجالوبوليس هى المدينة الجديدة ، وقد تألف سكانها من الجماعات القروية التى كانت تعيش فى المنطقة المجاورة وقبلت أن تستبدل بحياتها المنعزلة فى قرى ، حياة مشتركة فى مدينة . (المشرف)

الوسائل الإنسانية ، وسائل التوفيق وتبادل التفاهم التى عملت المدينة على تشجيعها حين كانت فى ظروف أخرى .

وهكذا نرى أن شكل المدينة المادى وحياة منظماتها ، قد تأثر تكوينهما إلى حد لا يستهان به ، منذ بداية التجمع الحضرى ، بأغراض الحرب السحرية التى لم تقم على أساس من العقل . ومن هذا المصدر نشأ نظام دقيق للتحصينات بالأسوار والمتاريس والأبراج والقنوات والخنادق ، وهو ما ظلت تتميز به المدن التاريخية الكبرى إلى القرن الثامن عشر ، فيما خلا حالات خاصة معينة ، كما حدث إبان عهد « السلام الرومانى » . ولقد كان التكوين الطبيعى للمدينة بدوره سببا فى استمرار مشاعر العداء والعزلة وحب التسلط الذاتى ، الملاءمة كل ذلك لصوالح المنظمة الجديدة .

بل أكثر من هذا ، فإن الحرب شجعت نشر التنظيم على نمط واحد ، وبث الروح العسكرية ، وفرض المطابقة قسراً . وكذلك فإن الحرب أفضت إلى تركيز الزعامة الاجتماعية والقوة السياسية فى أيدى أقلية مدججة بالسلاح ، يحرضها كهنة يمارسون سلطات مقدسة ولديهم معلومات نفيسة علمية وسحرية . وإذا كان المجتمع المتمدن لم يشب بعد عن طوق الحرب كما شب عن طوق مظاهر أخرى دنيئة من مظاهر السحر البدائى ، كوأد الأطفال وأكل لحوم البشر ، فإن ذلك يرجع إلى حد ما إلى أن المدينة نفسها بحكم تكوينها ومنظماتها استمرت توفر للحرب كيانا ماديا قويا ، وكذلك مبررا سحريا للبقاء . وإنه ليكمن وراء كل التحسينات الفنية فى وسائل الحرب اعتقاد لايبرره العقل ، ولكنه لايزال راسخا فى الوعى الباطن الجماعى ، ومؤداه أن إنقاذ المجتمع لايتسنى إلا بوسيلة واحدة دون سواها ، وهى تقديم ضحايا بشرية على نطاق واسع .

وإذا كنا لم نجد للحرب أساسا كافيا فى أى نزعة وحشية لأسلافنا نحو التقاتل ، فإنه يجب أن نبحث عن أصولها فى ناحية أخرى ، ولكى

نجد مثيلا للحرب يجب أن نلقى نظرة فاحصة على عالم الحيوان — أى على الانحرافات والأوضاع الثابتة فى مجتمع قديم العهد جداً كمجتمع الأرضة أو النمل . ومن الواضح أنه يوجد فى عالم الحيوان ميل إلى التطاحن ، وميل إلى الهجوم بقصد القتل ، والميل الأول يكاد ينصرف كلية إلى تحقيق أغراض جنسية بحت ، وينشب التطاحن بين كبار الذكور وصغارها ، أما الميل الأخير فما هو بأسره إلا نوع يفترس نوعا آخر ، أو يقتل أفراده طلبا للقوت . وفيما عدا المجتمعات البشرية ، لا توجد الحرب إلا عند الحشرات التى تعيش فى جماعات ، وهى التى سبقت الإنسان الحضرى فى إقامة مجتمع معقد التركيب يتكون من أجزاء بلغت مستوى رفيعا من التخصص .

وبقدر ما نستطيع أن نتبينه على هدى ملاحظة الظواهر ، من المؤكد أنه لايوجد فى هذه المجتمعات الحشرية دين ولا طقوس لتقديم القرابين ، بيد أنه توجد كل الأنظمة الأخرى التى صاحبت ظهور المدينة : مثل تقسيم العمل تقسيما دقيقا ، وتكوين طبقة متخصصة فى شئون الحرب ، وأساليب التدمير الجماعى المصحوب بالتشويه والقتل ، وكذلك نظام الرق ، بل يوجد عند بعض الأنواع استئناس النباتات والحيوانات . وأعظم من هذا دلالة هو أن المجتمعات الحشرية التى تتبين فيها هذه الخصائص ، يوجد عندها النظام الذى اعتبرته محورا لكل هذا التطور ، وهو نظام حكم الملوك . وهذا النظام ، أو بالأحرى ما يقابله من الناحية النسوية — حكم الملكات — قد اتبع فى هذه المجتمعات الحشرية ، بوصفه حقيقة بيولوجية عليا ، ومن ثم فإن ما لم يكن سوى اعتقاد سحرى فى المدن الباكرة مؤداه أن حياة المجتمع بأسره تتوقف على حياة الملك ، هو حقيقة واقعة فى عالم الحشرات ، فإن استمرار بقاء الخلية فى عالم الوجود يتوقف فعلا على صحة الملكة وسلامتها وقدرتها على التناسل . ولا نجد إلا هنا مثل هذا الهجوم

الجماعي المنظم ، بقوة حربية متخصصة ، وعلى النحو الذى نجده لأول مرة فى المدن القديمة .

وإننا فى اقتفاء أثر هذه الأدلة عن ظهور المدينة أعتقد أننا قد كشفنا عن أشد ما فى تاريخ المدينة من أحداث موجبة للأسف ما زال عارها مقيما بيننا . فمهما بلغ من شأن الخدمات الجليلة التى نهضت بها المدينة فإنها قامت كذلك خلال الجانب الأكبر من تاريخها بأداء دور وعاء للعنف المنظم ودور ناقل للحرب . وأما الحضارات القليلة التى تجنبت ذلك إلى حين ، فإنها تلك التى احتفظت بأساسها القروى ، واستسلمت دون استخدام القوة إلى قيادة مركزية رحيمة فى مظهرها . وقد نستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك ، فإن المدينة ذات الأسوار لم تقف عند حد أنها وفرت لمطالب الملوك الجنونية ، وأوهامهم الكاذبة ، كيانا جماعيا دائما ، وبذلك زادت الريبة والعداء وعدم التعاون ، بل إن إيغالها فى تقسيم العمل والتفرقة بين الطبقات جعل الفصام (Schizophrenia) أمراً عاديا ، على حين أن إمعانها فى فرض أعمال إجبارية على جانب كبير من سكانها المستعبدين ، وفر عوامل تكوين العصاب القهرى . وهكذا فإن المدينة القديمة بحكم تكوينها ذاته ، عملت على أن تنقل للأجيال التالية كيان شخصية جماعية تعتبر الآن مظاهرها المتطرفة أعراضا مرضية إذا ظهرت فى الأفراد ، وما زلنا نرى هذا الكيان فى عصرنا ، وإن كان السور الخارجى قد حل مكانه ستار حديدى .

٤ — القانون والنظام فى المدينة :

فالمدينة إذن قد اتسمت منذ البداية بصفات متناقضة لم تفقدها بأكملها على الإطلاق ، فقد جمعت بين أكبر قدر من الحماية وأكبر باعث على العدوان ، وهيأت أوسع نطاق من الحرية والتنوع ، إلا أنها فرضت نظاما قاسيا سداه الإرغام ولحمته التنظيم على نسق واحد ، وهذا النظام

وما يقترن به من العدوان الحربى والتدمير ، قد أصبح « طبيعة ثانية » للرجل المتمدن ، وكثيرا ما نرى فيه خطأ ميوله البيولوچية الأصلية : وهكذا نرى أنه كان للمدينة مظهران فى نفس الوقت ، أحدهما استبدادى والآخر بديع رائع ، فقد كانت من ناحية حصنا منيعا ، مركز سيطرة الملك وسلطانه ، وكانت من الناحية الأخرى صورة من الجنة تتحول فيها قوى الكون البعيدة إلى أنظمة فعالة . وقد انتقل مركز الجاذبية فيها من الحصن إلى المعبد ، ومن القلعة إلى السوق وما يجاوره ، ثم كر عائدا حيث كان أولا . وقبل مجيء نوح المذكور فى التوراة « كانت الأرض مليئة بأعمال العنف والعدوان » فإذا كان على الرغم من ذلك قد ظهر قدر من القانون والنظام ، فإن هذا ليشهد بقدرة المدينة على الترويض الاجتماعى .

ولكى نفهم على نحو محسوس عمليات المدينة ووظائفها ، وقبل كل شيء أهدافها ، يجب أن نخترق حجب الضباب التى تغلف الفترة السابقة على عهد الكتابة والقراءة ، حين كان نظام الملكية الجديد فى سبيل التكوين . ولعل خير وسيلة لإقامة الدليل على دور الملك باعتباره منشئ المدينة ، إنما تكون بأن نبدأ عند الأدلة التاريخية المتأخرة ، ثم نعود القهقرى إلى عصر لانخرج منه إلا بما نجده فى قبور الملوك من حفنة من العظام ومما صنعته يد الإنسان ، ونتخذها مادة للاستنتاج والافتراض .

ورواية هيرودوت عن فوز ديوكيس Deioces بالسلطة المطلقة فى ميديا ، تتناول عصرا متأخرا جداً كان خاليا إلى حد كبير من طوفان السحر والآراء الدينية التى طغت على أواخر العصر الحجرى وأوائل العصر البرنزى ، ولذلك فإن هيرودوت يصف الانتقال من حضارة القرية إلى حضارة المدينة على نحو معقول إلى حد كبير . فذلك المؤرخ الإغريقى القديم يحدثنا بأن أهل ميديا كانوا يعيشون إذ ذاك متفرقين فى قرى ، ووسط هذه الظروف كان الاضطراب والعنف سائدين إلى حد أن ديوكيس اكتسب

شهرة رفيعة بينهم بوصفه عضوا بمجلس القرية يوزع العدالة بالقسطاس ودون خوف . وكانت هذه الشهرة سببا فى توافد الناس من قرى أخرى ليحتكموا إليه إذا ما شجر بينهم خلاف ، ولقد بلغ من استمرار الحاجة إلى خدماته أنهم قرروا اتخاذه حاكمهم الأعلى .

ولقد كان أول ما فعله ديوكيس أنه شيد قصرا يليق بملك ، وطلب « حرسا لتأمين سلامة شخصه » . ولعلنا لانعدو الحقيقة إذا افترضنا أنه فى العصور السابقة كان وجود الحرس يسبق أو يصحب تشييد القلعة والقصر ، وأن القصر نفسه قد أنشئ ليكون مستودعا للجزية ومقرا للحاكم يراه الناس بأعينهم ، قبل أن يباشر الملك مهمة القضاء بين الناس . « وعندما آلت السلطة على هذا النحو إلى ديوكيس أجبر أهل ميديا على تشييد مدينة واحدة وتزيينها بعناية ليكونوا أقل اهتماما بسواها » . وإنى لأود أن أبرز ما للعبارة الأخيرة من أهمية ، فإن تعمد إقامة احتكار اقتصادى وسياسى كان من ألزم الضرورات لنمو المدينة نموا سريعا ، وعندما أطاع الميديون ديوكيس فى ذلك أيضا ، أقام « أسواراً قوية عالية اتخذت شكل دائرتين إحداهما فى داخل الأخرى . . . » ثم شيد ديوكيس تحصينات لنفسه حول قصره ، وأمر بقية أفراد الشعب أن يقيموا مساكنهم حول الحصن . ولعل خير تعريف لسكان مدينة باكرة هو أنهم كانوا سكان مزرعة فى أسر مستبديم .

ويجب أن يلاحظ أن ديوكيس عندما قلل المسافة المادية بينه وبين رعاياه بجمعهم فى المدينة ، عنى بأن يزيد اتساع المسافة المعنوية بينه وبينهم بأن عزل نفسه عنهم وجعل وصولهم إلى شخصه صعب المنال . وقد كان هذا الجمع بين الاحتشاد والاختلاط من ناحية ، والعزلة والتفرقة من ناحية أخرى ، إحدى الإمارات المميزة للمدنية الحضرية الجديدة . فمن الناحية الإيجابية ، كانت هناك الإقامة فى صعيد واحد فى صداقة ومودة ،

وكذلك التجاوب الروحي والاتصال بالناس على نطاق واسع ، ونظام متشابك للتعاون بين مختلف أرباب الحرف ، بيد أنه من الناحية السلبية ، أوجدت القلعة التفرقة بين الطبقات ، وتبلد الإحساس ، وعدم التجاوب ، والكتمان ، والتحكم الاستبدادى ، وأشد ضروب العنف :

ورواية هيرودوت تركز فى مدى عمر واحد تغيرات يحتمل أنها حدثت فى خلال آلاف من السنين فى أماكن عديدة مختلفة ، وتحت ظروف متباينة ، إذ يحتمل أن مجرد ارتقاء الزعيم إلى مرتبة زعامة محلية بحت تقوم على قوة السلاح ، كان عملية بطيئة . وقد لاحظ فرانكفورت أن قبور عصر ما قبل الأسرات فى مصر لا تدل ، مثل قبور العصور التالية ، على تمتع أى شخصية أو أسرة واحدة بمكانة بارزة . ولكن لعل التغيير الخطير الذى تمخض عنه أمران وهما قيام الملكية ونشأة المدينة ، الأول بوصفه رمزا للمدنية ، والثانى بوصفه صورة مجسدة لها — لعل هذا التغيير قد تم فى خلال فترة وجيزة كجزء من الانطلاق العام للطاقة البشرية وتجمع القوى الحضرية اللذين حدثا بعد منتصف الألف الرابعة من السنين (قبل الميلاد) بفترة معينة .

ولقد كان موقع القلعة المتوسط لايقل أهمية بالنسبة لها عن أسوارها ، وذلك لأن الموقع المتوسط والأسوار كانت من صفات المعبد قبل أن تخلع على المجتمع الحضرى الأكبر . وعندما تم التحول الحضرى أصبحت المدينة بأسرها حرما مقدسا تحت حماية ربها ، وكما أوضح مرسيا إيلياد ، كان محور العالم يخترق المعبد ، على حين أنه بحكم نظام الحرب الجديد ، كان السور متراسا ماديا للدفاع ، وكذلك حاجزا روحيا له دلالة أقوى وأعظم بكثير ، لأنه كان يحفظ المقيمين فى داخله مما كان يحيط بهم من الفوضى والشر الذى لايوصف . والاستقرار الداخلى اللازم لتحقيق مزيد من التقدم

الإنسانى قد وجد فى المدينة — وفوق كل شىء فى الحرم المقدس — المظهر الجماعى الذى كان كفيلا بدفع خطى ذلك التقدم .

وكانت الحياة وراء أسوار المدينة تقوم على أساس مشترك راسخ رسوخ العالم ذاته ، إذ أن المدينة لم تكن إلا موطن إله قوى قادر ، وأن ما أقيم من المبانى وأعمال النحت الرمزية التى جعلت هذه الحقيقة واضحة ملموسة ، رفعت المدينة عاليا فوق مستوى القرية أو البلدة الريفية ، ولولا القوى المقدسة التى كان يحتويها القصر وحرم المعبد لكانت المدينة القديمة بلا هدف ولا معنى . وذلك أنه ما إن أقام الملك دعائم هذه القوى ، واتسع نطاق الاتصالات وتوحدت آداب السلوك بحكم القانون ، حتى ازدهرت الحياة فى المدينة على نحو لم يكن هناك أمل فى إدراكه فى أى مكان آخر . وما بدأ فى شكل سيطرة ، انتهى إلى إخاء وتفاهم على أساس من التعقل والروية .

ومما له دلالته الكافية أن النص المصرى ، الذى يدنينا من العهد المبكر لإنشاء المدينة ، عندما يصف سلطات الإله الأكبر « بتاح » لا يذكر فحسب أنه أنشأ مديريات ، بل يذكر أيضاً أنه « وضع الآلهة فى هياكلها » إذ أن الكتبة الذين كانوا لا يزالون قريبى العهد نسبيا بتلك الأعمال ، كانوا يعتبرون — وبحق على ما أعتقد — كلتا المهمتين لازمتين لممارسة تلك السلطات الواسعة التى جاءت مع المدنية .

وبدون ما كان للمدينة من قوى دينية ، فإن السور وحده ما كان ليتسنى له النجاح فى تكوين خلق أهل المدينة وكذلك فى السيطرة على وجوه نشاطهم . ولولا الدين وما صاحبه من الطقوس الاجتماعية والمزايا الاقتصادية ، لكان السور قد حول المدينة إلى سجن لا مطمع لنزلائه إلا القضاء على حراسهم والنجاة بأنفسهم . وهذا يكشف لنا عن جانب حضرى آخر ذى صفة مزدوجة ، فنى ظل حضارة بلا مدن كحضارة الإسبرطيين ، كان الإسبرطيون يقيمون فى قرى مفتوحة ويعزفون عن الاختباء وراء أسوار ، مما اضطر

الطبقات الحاكمة إلى البقاء على حذر وحشى ، والالتجاء إلى التهديد ، وحمل السلاح على الدوام خشية أن يطيح بهم الموالى المستعبدون . ونجد أنه على حين كان يتعين على أمثال هؤلاء الحكام أن يساندوا القوة المجردة بإرهاب سافر ، كان السور نفسه ، فى المدن ذات الأسوار ، يقوم مقام جيش بأكمله فى كبح جماح المشاغبين ، وإحكام الرقابة على المنافسين ، وسد طريق الهرب على اليائسين . وبهذا نجد أن المدن المبكرة أوجدت شيئاً من نفس التركيز فى القيادة الذى نجده فى سفينة ما : فإن الركاب إذ يدركون أن مصيرهم جميعاً واحد ، يدأبون على الثقة بالربان ، ويسارعون إلى تنفيذ أوامره ؟

ومع ذلك فإنه منذ البداية كان القانون والنظام مكملين للقوة الغشوم ، فالمدينة عندما نشأت حول القلعة الملكية كانت تبدو صورة للكون صنعتها يد الإنسان ، وبهذا تكشفت عن منظر خلاب ، بل عن لمحة من الجنة نفسها ، فالإقامة فى المدينة كانت بمثابة الحصول على مكان فى الموطن الحقيقى للإنسان ، فى العالم العظيم نفسه ، وهذا الاختيار بذاته دليل على ما حدث فى كل ناحية من التوسع العام فى القوى والإمكانيات . وفى الوقت بعينه كانت الإقامة فى المدينة على مرأى من الآلهة ومن الملك تحقق أقصى ما فى الحياة من إمكانيات ، ولقد كان التوحد الروحى والمشاركة بالوكالة يجعلان من اليسير الخضوع للأوامر الإلهية المقدسة التى كانت تسيطر على شئون المجتمع مهما تعذر فهم تلك الأوامر ، ومهما كان من العسير تفسيرها أو الخضوع لها فى قرارة النفس .

وعلى الرغم من أن القوة فى جميع مظاهرها : الكونية منها والبشرية . كانت الدعامة الأساسية للمدينة الجديدة ، فإنها تأثرت باطراد فى تشكيلها وتوجيهها بما استحدث من قوانين وقواعد للنظام والسلوك الاجتماعى ، وهو ما يتضح كلياً كذلك فى قصة ديوكيس التى تغفل الأصول الدينية الأولى

لظهور الملك والمدينة . وفى وقت ما سمت القوة والسيطرة إلى مرتبة العدالة ، فإنه عندما تجمع أشخاص ذوو لغات وعادات كثيرة مختلفة فى المقر الجديد ، عجل التدخل الملكى من السير البطىء لعملية التوفيق والتفاهم بينهم ، إذ لا شك فى أن إطاعة أمر خارجى صارم كانت مفضلة على العصيان والتنازع والبقاء على خلاف لا ينتهى . وحتى العادات المفيدة قد تحمل فى ثناياها بقايا عرضية لا يبررها العقل ، ولكنها تصبح فى قدسية الأغراض البشرية الهامة التى تتمثل فى العادات وقد كان ذلك موطن الضعف فى القرية . وقد عمل القانون المكتوب ، شأنه شأن اللغة المكتوبة على إزالة هذه البقايا ، وأنتج قواعد محددة للمساواة والعدالة تستند إلى مبدأ أسمى ، وهو إرادة الملك التى كانت تعبيراً آخر للأمر الإلهى . وجوهر القانون : كما عبر عنه العالم والحلم أوستوالد Wilhelm Ostwald منذ نصف قرن مضى ، هو « السلوك الذى يمكن التنبؤ به » ، وهو ما أصبح ميسورا فى المجتمع بفضل القواعد المتوافقة ، والمقاييس المتوافقة للحكم ، والعقوبات المتوافقة للعصيان . وهذه المظاهر المتوافقة الواسعة النطاق قد صحبت مجىء المدينة متخطية عددا لا يحصى من الخلافات المحلية التى لا معنى لها .

ونمو الوعى فى المدينة ، نتيجة لتلاحم العادات القروية والاختلافات الإقليمية ، قد أفضى إلى ظهور بداية السلوك الأدبى الناجم عن التدبر والروية ، فإن الحاكم المصرى نفسه كان عليه فى وقت مبكر جداً أن يبرر مسلكه الشخصى أمام الآلهة ، وأن يقيم الدليل على أنه كان يتجنب الشر ويعاون على الخير . ومع ازدياد انشغال المجتمع بأمور الدنيا بسبب اتساع آفاق التجارة والصناعة باطراد ، أصبح الدور الذى كانت المدينة تقوم به بوصفها موئل القانون والعدل والحق والمساواة ، مكملا للدور الذى كانت تؤديه بوصفها مظهراً دينيا يمثل الكون . ومن ثم أصبح يتحتم على

من يريد التظلم من عادة لا يبررها العقل ، أو من عدوان لا يقره القانون ، أن يلجأ إلى ساحة القضاء فى المدينة .

والمدينة بوضعها قدرا من السلطة فى خدمة العدالة ، خارجة بذلك على الطريقة البطيئة العتيقة التى كانت القرية تحكم بها ، زادت السرعة التى تم بها إدخال النظام على شئونها الداخلية ، إلا أنها تركت فى المنطقة الواقعة بين المدن مساحة من الأرض الخراب بلا حراسة ولا قانون ، حيث كان لا يتسنى لأى إله محلى أن يمارس سلطته أو يبسط سلطان شريعته الأدبية دون الاصطدام مع إله آخر . ومع ازدياد الشعور بخيبة الأمل فى الداخل ازداد الاتجاه نحو مضاعفة أعمال العدوان فى الخارج ، فإن شعور الاستياء من الحاكم الجائر المحلى ، كان يمكن الإفادة منه بتوجيه ضد العدو الخارجى .

٤ — من الحماية إلى التدمير :

لما كانت المدينة المحوطة بالأسوار إلى حد ما مظهراً للقلق والعدوان المتزايدين ، فإنها قد حلت مكان صورة قديمة للهدوء والسلام فى الريف . ولقد كان شعراء سومر الأقدمون يتطلعون وراءهم إلى عصر ذهبى سبق ظهور المدن عندما « لم تكن هناك أفعى ولا عقرب ولا ضبع ولا كلب وحشى ولا ذئب » ، وعندما « لم يكن هناك خوف ولا إرهاب ولم يكن للإنسان منافس » . وبطبيعة الحال لم يكن لهذا العصر الخرافى وجود على الإطلاق ، ولا شك فى أن السومريين أنفسهم كانوا على شىء من العلم بهذه الحقيقة . بيد أن الحيوانات السامة الخطرة التى كان وجودها يثير مخاوفهم ، قد اتخذت مظهراً جديدا مع تفاقم أمر القرابين البشرية والحرب المنطلقة من كل قيد ، ذلك أنها كانت ترمز إلى حقائق الخصومة والعداء بين البشر . وعندما عمد الإنسان المتمدن إلى توسيع كل سلطاته ، فإنه منح هذه المخلوقات المتوحشة مكانا فسيحا فى الشكل الذى اتخذه لنفسه .

وقد كان لدى الإنسان البدائى العارى ، الأعزل من السلاح ، المعرض

لكل المخاطر ــ قد كان لديه من الدهاء ما يكفى للسيطرة على كل منافسيه الطبيعيين . بيد أنه قد أوجد أخيراً مخلوقا سوف يثير وجوده الرعب فى نفسه تكرارا . ذلك هو العدو الإنسانى ، ذاته الأخرى وصنوه ، الواقع فى حوزة إله آخر ، المندمج فى مدينة أخرى ، القادر على مهاجمته بدون إثارة كما هوجمت أور (Ur) .

والتجمع ذاته ــ الذى ضاعف من سلطات الإله والملك والمدينة ، وجعل ما للمجتمع من قوى معقدة تبقى فى حالة توتر ــ قد ضاعف كذلك من أسباب القلق الجماعى ، ووسع نطاق قوى التدمير . ألم يكن فيما أصبح للرجل المتمدن من قوات جماعية متزايدة شىء من الإهانة للآلهة ، فلم يكن هناك سبيل إلى تهدئة خواطرهم إلا بالقضاء التام على مزاعم وادعاءات الآلهة المنافسين لهم ؟ ومن كان العدو ؟ إنه كل من كان يعبد إلها آخر ، أى كل من كان ينافس الملك فى سلطانه ، أو يقاوم إرادة الملك ، وهكذا فإن التكافل على نحو يزداد تعقدا فى داخل المدينة والمنطقة الزراعية المجاورة لها ، كان يقابله اتخاذ النهب والتدمير أساساً للعلاقة مع كل من يحتمل أن يكون من المنافسين . والواقع أنه كلما أصبحت وجوه نشاط المدينة أكثر اتجاها نحو التعقل والبر فى الداخل ، ازداد اتجاهها بالقدر نفسه تقريباً نحو عدم التعقل والضغن فى علاقاتها الخارجية ، وهذا ينطبق حتى اليوم على التجمعات الأوسع نطاقاً التى خلفت المدينة .

وكانت السلطة الملكية نفسها تقيس مدى قوتها وتمتعها بالرضى الإلهى ليس بمجرد قدرتها على الإنشاء ، بل أهم من ذلك ، بقدرتها على السلب والتدمير والإبادة . وفى الواقع ــ كما صرح أفلاطون فى « القوانين » « أن كل مدينة فى حالة حرب طبيعية مع كل مدينة أخرى » ، وإنها لحقيقة بسيطة كشفتها الملاحظة . وهكذا فإن ما اعترى القوة فى الأصل من الانحرافات التى اقترنت بما أحرزته المدنية من تقدم عظيم فى الناحيتين التقنية

والثقافية قد أفسد ، وكثيرا ما قضى على الأعمال الجليلة التى قامت بها المدينة ، إلى وقتنا الحاضر . وهل هى من محض المصادفة أن أقدم مخلفات المدينة تصور تدميرها كما تظهر على اللوحات المصرية التى ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات ؟

وفى أثناء تحويل مجموعات مفككة من القرى إلى مجتمعات حضرية ، قادرة على القيام بتبادل المعاملات فى نطاق أوسع مدى ، وإقامة منشآت أعظم شأنا ، أصبحت كل ناحية من نواحي الحياة كفاحا وعذابا ، وصراعا مريرا ينتهى بالموت البدنى أو المعنوى . وعلى حين أن الصفة القدسية للاتصال الجنسى بين ملك بابل والكاهنة ، فى حجرة النوم المقدسة بأعلى المعبد ، كانت تعيد إلى الأذهان عبادة الخصوبة التى كانت أقدم عهدا ومخصصة لرعاية الحياة ، كانت الأساطير الجديدة تعبر أساسا عن المعارضة التى لا تلين ، والصراع والعدوان ، والقوة التى لا تحد ولا توصف : قوات الظلام ضد قوات النور ، ست ضد عدوه أوزيريس ، وماردوك ضد تيامات ، حتى النجوم كون منها الأزاتكة جيوشا متعادية للشرق والغرب .

وعلى الرغم من أن عادات القرية التى كانت أكثر ميلا إلى التعاون ، احتفظت بمكانها فى « الورشة » وفى الحقل ، فإنه بالذات فى أداء المهام الجديدة للمدينة ، أحس الناس بوطأة العصا والسوط – وهو ما يسمى بالصولجان تأدبا – وإذا ما أعطى مزارع القرية فسحة من الوقت ، فإنه يستطيع أن يتعلم كثيرا من الحيل وضروب المراوغة لمقاومة ألوان القهر والإرغام ، ومطالب عمال الحكومة ، بل إن ما يلوح من غباوته ، كثيرا ما يكون وسيلة « لعدم سماع » الأوامر التى لايعتزم إطاعتها . وأما أولئك الذين وقعوا فى قبضة المدينة ، فإنه لم يكن أمامهم من خيار إلا الطاعة ، سواء أكانوا قد استرقوا صراحة أم استعبدوا بوسيلة أكثر خفاء . وكان الفرد من رعايا المدينة – قبل أن يصبح مواطنا كامل الإهاب – لكى

يحافظ على كرامته حيال كل ما تفرضه عليه الطبقات الحاكمة ، يوحد بين صوالحه الشخصية وصوالح سادته ، فإن خير ما يمكن عمله إذا تعذرت مقاومة الفاتح مقاومة ناجحة ، هو الانضمام إلى جانبه ، وانتهاز فرصة للفوز بشيء من الغنيمة المرتقبة .

وعلى الرغم مما كان يوحي به مظهر المدينة من الحماية والأمان ، فإنها منذ نشأتها الأولى تقريبا ، لم تأت فحسب بتوقع الاعتداء من الخارج ، بل أيضا بتوقع اشتداد الصراع فى الداخل ، فإن عددا كبيرا من الحروب الصغيرة كان ينشب فى ساحة السوق ، أو فى دور القضاء ، أو فى مباريات الكرة ، أو فى ساحات المصارعة . ولقد كان هيرودوت شاهد عيان لمعركة دموية جرت بالصوالج وفقا للطقوس الدينية بين قوات النور وقوات الظلام فى داخل الحرم المقدس لمعبد مصرى . ولقد كان من صميم المدنية استخدام القوة فى أى شكل من أشكالها ، فقد أوجدت المدينة عشرات من الطرق للإعراب عن الصراع والعدوان والسيطرة والغزو والاستعباد . فهل نعجب من أن إنسان العصور المبكرة كان يرنو ببصره إلى الوراء ، ويعتبر العهد الذى سبق ظهور المدينة عهدا ذهبيا ؟ أو من أنه كان مثل هسيود (Hesiod) يرى أن كل تحسن فى صناعة استخراج المعادن والأسلحة كان يهبط بمستوى حياة الإنسان ، ولذلك انحدرت البشرية فى عصر الحديد إلى أسفل درك عرفته ، (ولم يكن فى وسعه أن يتنبأ بمدى الانحطاط الذى سوف يتدهور إليه الإنسان أكثر من ذلك ، باستخدام أساليب علمية دقيقة للإبادة الشاملة بمواد ذرية أو بكتيرية) .

ومن المعروف أنه لكل الكائنات العضوية حدود فى نموها وانتشارها تفرضها حاجتها إلى البقاء مكتفية بذاتها مسترشدة بنفسها ، وذلك لأنها لا تستطيع النمو على حساب جيرانها إلا بفقدان المساعدات التى تستمدها

حياتها من نشاط جيرانها . ولقد تقبلت المجتمعات البدائية الصغيرة هذه القيود وهذا التوازن القهرى ، شأنها شأن مجتمعات البيئة الطبيعية .

أما المجتمعات الحضرية ، فإنها عندما انشغلت بالاتساع الجديد فى بسط سلطانها ، أضاعت هذا الإحساس بمدى حدودها ، إذ أن مذهب القوة كان يعتز باستعراض مظاهرها التى لا حد لها ، فقد كان ذلك يهئ من أسباب السرور والابتهاج ما توفره ممارسة الرياضة لذاتها ، فضلا عن الفوز بثمار العمل دون حاجة إلى تكبد عناء مشقته اليومية ، وذلك عن طريق الاغتصاب الجماعى عنوة ، والاستعباد على نطاق واسع ، فكانت السماء هى الحد . وازدياد أحجام الأهرام الكبرى تنهض دليلا على هذا الإحساس الفجائى بالنشوة والزهو ، وهو الذى تصوره الأساطير أيضا فى قصة برج بابل الضخم ، وإن كان قصور وسائل المواصلات قد حد من انتشار هذه القصة على النحو الذى كان من الممكن أن يؤدى إليه اتساع نطاق السيادة البابلية لغويا وثقافيا .

وأما دورة الاتساع غير المحدود من مدينة إلى إمبراطورية ، فإن من اليسير اقتفاء أثرها . وبيان ذلك أن المدينة عندما ازداد عدد سكانها ، كان يتعين الالتجاء إما إلى توسيع نطاق المساحة اللازمة لإنتاج القوت الضرورى ، وإما إلى توسيع مدى وسائل التموين ، والاعتماد على مجتمع آخر عن طريق التعاون والمقايضة والتجارة ، أو عن طريق فرض الجزية قسرا ونزع الملكية والإبادة . فكان على المدينة أن تقرر أتلجأ إلى السلب أم إلى التكافل ، إلى الغزو أم التعاون ؟ إن أسطورة القوة لاتعرف إلا جوابا واحدا . وهكذا فإن نفس النجاح الذى أحرزته المدنية الحضرية بارك المطالب والعادات ذات النزعة الخربية التى نخرت باستمرار عظامها وجعلت فوائدها عديمة القيمة . ومن ثم فإن المجتمع الحضرى الذى كان ينشأ صغيرا ، مكتفيا بذاته ، كان يتسع عنوة حتى يصبح إمبراطورية ، كقطرة صغيرة من ماء

الصابون ينفخ فيها حتى تصبح فقاعة كبيرة ، وكلتا الإمبراطورية والفقاعة تبعثان على الروعة بحجمهما ، ولكنهما هشتان بالقياس إلى ذلك الحجم . ونتيجة للافتقار إلى التماسك الداخلى ، فإن العواصم الأكثر نزوعا إلى الحرب ، كانت تضطر إلى الاستمرار فى سياسة التوسع لئلا ترتد القوة من جديد إلى حيث ازدهرت لأول مرة فى القرى والمراكز الحضرية المتمتعة بالحكم الذاتى . ولقد حدث مثل هذا الارتداد فعلا فى العهد الإقطاعى الذى تخلل حكم الأسرات فى مصر .

وإذا كنت على صواب فى تفسير الأدلة ، فإن الأوضاع التعاونية لنظام الحكم الحضرى قد أفسدتها ونخرت فى عظامها منذ البداية ، تلك الأساطير المدمرة والمؤدية للفناء ، التى صاحبت — بل لعلها شجعت — على التوسع البالغ التطرف فى مجال القوة المادية والمهارة التقنية . ولذلك فإن التكافل الحضرى الإيجابى كثيرا ما حل مكانه تكافل سلبى لايقل عنه تعقيداً .

ولقد بلغ من إحساس حكام العصر البرونزى بمدى فداحة هذه النتائج السلبية ، أنهم كانوا فى بعض الأحيان يعمدون إلى موازنة مفاخراتهم العديدة بالغزو والإبادة ، بالإشارة إلى جهودهم فى سبيل السلم والعدالة ، فنرى حامورابى مثلا ، يعلن فى فخر « لقد قضيت على الحرب ، وزدت من الرخاء فى البلاد ، وجعلت الشعوب تنعم بالراحة فى مواطن صديقة ، وحرصت على ألا أترك لأحد سبيلا إلى إرهابها » . ولكن ما كادت هذه الكلمات تخرج من فمه حتى بدأت من جديد دورة التوسع والاستغلال والتدمير . وطبقا للقواعد المفضلة التى كان الآلهة والملوك يبتغونها ، لم يكن فى وسع أى مدينة أن تحقق اتساعها إلا بتدمير مدن أخرى والقضاء عليها .

وهكذا فإن المدينة — وهى أنفس المبتكرات الجماعية للمدنية ، ولا يوجد ما يفوقها فى نقل الحضارة سوى اللغة نفسها — أصبحت من بداية أمرها وعاء لقوة داخلية مدمرة موجهة نحو التخريب والإبادة بلا انقطاع . وكان

من نتائج هذا التراث المتغلغل حتى الأعماق ، أنه أصبح من المشكوك فيه الآن أن يكتب البقاء للمدنية نفسها ، بل لأى شطر كبير غير مشوه من الجنس البشرى ، وقد يبقى هذا الشك أمدا طويلا مهما بذل من محاولات التوفيق المؤقتة .

وكما بين باتريك جيدبس P. Geddes منذ زمن طويل ، أن كل مدنية تاريخية تبدأ بمركز حضرى ينبض بالحياة هو المدينة ، وتنتهى إلى مقبرة عامة تمتلئ بالتراب والعظام ، هى الجبانة أو مدينة الأموات ، وهى أطلال لفحتها نيران الحريق ، وتتألف من مبان متصدعة ، وورش خاوية ، وأكداس من القمامة لامعنى لها ، وأما سكان تلك الديار فإنهم قتلوا أو أخذوا عبيدا .

وإننا لنقرأ فى جزء من أجزاء التوراة ، ويدعى « القضاة » : « واستولى على المدينة وذبح من فيها من الناس ودمر المدينة وجعل سافلها عاليها . . » ، وإن ما تبعثه هذه القصة من الرعب ، بما تنم عنه من تعاسة بالغة ويأس شامل ، ليمثل الغاية الإنسانية التى تهدف إليها « الإلياذة » ، بيد أنه ، كما أثبت هاينريخ شليمان Heinrich Schliemann ، قد حدث قبل ذلك بزمن طويل أن دمرت ست مدن أخرى ، وكذلك نجد من عصر سابق للإلياذة بزمن طويل صيحة تماثلها فى المرارة والشعور العميق بعثها الحزن على مدينة أور التى كانت أعجوبة بين المدن القديمة ، وهى صرخة اللاعة والأسى التى أطلقتها آلهة المدينة فقالت : « حقا لقد طارت عنى كل طيورى ، وكل المخلوقات ذات الأجنحة ، ولسوف أردد حسرتى على مدينتى ، فقد خطف كل بناتى وكل أبنائى ، ولسوف أردد حسرتى على رجالى ، وأندب حظ مدينتى التى لم يبق لها من وجود ، مدينتى التى هوجمت بغير سبب . يا لوعتى على مدينتى التى هوجمت ودمرت »[1] .

---

(١) إن كل ما ورد فى هذا الموضع وغيره من مقتطفات النصوص سواء أكانت من مصر أم من بلاد ما بين النهرين منقولة عن كتاب (نصوص قديمة من الشرق الأدنى) الذى تولى نشره چيمس بريتشارد (مطبعة جامعة برنستون) إلا حيث يرد تنبيه آخر إلى المصدر .

ولنتأمل أخيرا نقش سنخريب (Sennacherib) الذى يصف التدمير الشامل الذى أنزله بمدينة بابل : « إن المدينة ودورها من أساسها إلى قمتها قد دمرتها أنا وخربتها وأحرقتها بالنار . والسور . . والسور الخارجي والمعابد وتماثيل الآلهة ، وأبراج المعابد المبنية من الطوب والطين ، على كثرة عددها ، قد دككتها دكا وألقيت بها فى قناة أراختو (Arakhtu) . وفى وسط تلك المدينة شققت قنوات ، وأغرقت موقعها بالماء ، وحتى أساسات المدينة دمرتها . لقد خربت المدينة على نحو أتم مما لو كان قد أحدثه فيضان » . ولقد سبق سنخريب بهذه الأعمال وبالخلق الذى سمح بارتكابها ، الأعمال الوحشية التى يسرف فى ارتكابها عصرنا الذرى ، وإنما كانت تعوز سنخريب مهارتنا العلمية الخاطفة ، ونفاقنا البالغ فى إخفاء مقاصدنا حتى على أنفسنا .

بيد أن القوات الإيجابية للتعاون والتجاوب العاطفى كانت تدفع الناس المرة بعد المرة إلى العودة إلى المواقع الحضرية التى نزل بها التخريب « لتعمير المدن المخربة التى أثارت الأسى فى أجيال عديدة من البشر » . ومن دواعي السخرية — وإن كان ذلك من دواعي التعزية أيضا — أن المدن كثيرا ما بقيت بعد زوال الإمبراطوريات العسكرية التى بدا أنها قد دمرتها إلى الأبد — فدمشق وبغداد والقدس وأثينا ما زالت قائمة فى الأماكن التى كانت تشغلها فى الأصل ، وتنعم هذه المدن بالحياة ، وإن لم يظل ماثلا أمام العين إلا بقايا قليلة من منشآتها القديمة .

ولقد كان ما باءت به الحياة فى المدينة من فشل مزمن خليقا بأن يفضى إلى هجرها ، بل خليقا بأن يؤدى إلى التخلى جملة عن حياة المدن وكل ما لها من الصفات المتناقضة لولا حقيقة واحدة ، وهى تجديد حيويتها باستمرار ، بعناصر جديدة من المناطق الريفية كانت غضة غير مصقولة ، زاخرة بالقوة البدنية الخام ، والحيوية الجنسية ، والتلهف على الإنجاب

والإيمان العميق . فكان أولئك الريفيون يعيدون تغذية المدينة بدمائهم وأكثر من ذلك بآمالهم . وطبقا لما يقوله الجغرافى الفرنسى ماكس سور Max Sorre فإنه حتى اليوم يعيش أربعة أخماس سكان العالم فى قرى هى من حيث ما تؤديه من مهام ، أقرب إلى نماذجها فى العصر الحجرى الحديث منها إلى الحواضر المنظمة تنظيما راقيا التى أخذت تجتذب القرية إلى داخل مدارها ، وتعمل بسرعة متزايدة على تقويض أركان نظام حياتها القديم . بيد أننا إذا سمحنا باختفاء القرية ، فسيزول هذا العامل القديم من عوامل الأمان ، وما زال على الجنس البشرى أن يقدر مدى هذا الخطر ويعمل على تفاديه .

الفصل الثالث

أشكال ونماذج متوارثة عن الأسلاف

١ — مدن السهول

لولا ما يبدو من أن أغلب التغيرات الخطيرة في تكوين المدينة وقعت قبل بداية عهد المدونات التاريخية لتمخض هذا البحث فى أصل المدينة عن نتائج أكثر جلاء ووضوحا. وذلك أنه عندما برزت ملامح المدينة للعيان بجلاء، كان العهد قد طال على وجود المدينة، وكانت المنظمات الجديدة التى استحدثتها المدينة قد صاغتها فى قالب ثابت. ولكن هناك صعوبات أخرى لاتقل جسامة عن ذلك فإنه لم يتيسر إلى الآن الكشف عن أى مدينة قديمة بأكملها، كما أن بعضاً من أقدم المدن التى قد تستطيع أن تكشف لنا عن الكثير من الحقائق ما زالت عامرة بالمساكن هانئة بمناعتها حيال فؤوس المنقبين.

ولذلك فإن ما يوجد فى الأدلة من الثغرات يسبب الحيرة، فهناك خمسة آلاف عام من التاريخ الحضرى، وحقبة قد تماثلها من تاريخ العهد السابق لظهور المدن، وكل ذلك موزع على بضع عشرات من المواقع التى لم تستكشف إلا جزئياً. فتاريخ المدن العظيمة أور ونيبور وأوروك وطيبة وهليوبوليس وآشور ونينوى وبابل يمتد طوال فترة تبلغ ثلاثة آلاف سنة لا يمكن أن نطمع فى ملء فراغها الشاسع بحفنة من الآثار وبضع مئات من صفحات النصوص المدونة. وعند السير فوق مثل هذه الأرض الرخوة فإن الحقائق التى تبدو كأشد مرتفعات الأرض صلابة قد يثبت خداعها عند الاختبار ويرى المرء نفسه مضطراً فى أغلب الأحيان إلى أن يختار بين عدم التقدم على الإطلاق أو الانزلاق إلى هاوية من الافتراض بلا قرار. فليحذر القارئ وليتحمل مسئولية المخاطرة إذا ما أقدم!

وفضلا عما فى البقايا الظاهرة للعيان من نقص ، فإن المدينتين العظيمتين اللتين يحتمل أن تكون المدينة قد اتخذت شكلها فيهما لأول مرة ، وهما مصر وبلاد ما بين النهرين ، تتجلى فيهما متناقضات تبعث على القلق ولا تزداد إلا حدة إذا ما شملنا بنظرنا كذلك فلسطين وإيران ووادى السند . وإذا كان من شأن كل هذه الاختلافات أن تميط اللثام عن أنواع من التطور الحضرى لها قيمتها ، فإنها تجعل من العسير إعطاء ما يقرب من صورة عامة لأصل المدينة . ويجب التنبه أولا إلى ضيق النطاق الجغرافى لموطن المدن الأصلية ، فإن المدينة بوصفها عاملا جوهريا فى إقامة دعائم المدنية يبدو أنها نشأت فى أودية عدد قليل من الأنهار الكبرى ، وهى النيل ، والدجلة ، والفرات ، والسند ، وهوانج هو . وأما القرى فقد كان قيامها ميسوراً حيثما وجدت الظروف الملائمة لممارسة الزراعة البدائية وتربية الماشية ، بل كان من الميسور إقامة مواطن للاستقرار أكبر من القرية فى أقاليم مثل « النقب » بفلسطين حالما توافر العدد الكافى من الأيدى العاملة لتشييد الصهاريج والخزانات للمعاونة على اجتياز فصل الجفاف ، ولا يبعد أن تكون لا تزال مطمورة إلى غير رجعة فى طمى دلتا النيل والفرات قرى وبلاد ريفية أكبر منها بكثير ومعاصرة لما كشف عنه فى أريحا . وأغلب الظن أن تكون معظم الأعضاء الطبيعية لمجتمع حضرى وثيق الترابط قد تكونت قبل أن يكتمل نضج التركيب الحضارى الجديد الذى تمثل فى المدينة ونقله إلى العصور التالية . ولكن أمارة المدينة هى خلوها مما اتسمت به المجتمعات الريفية من قصور وأفق محدود ، فهى ثمرة حشد طاقات هائلة من الحيوية والقوة والثروة كانت فى البداية متصورة بحكم الضرورة على بعض وديان أنهار عظيمة فى أقاليم وهبت من المزايا ما لم يوهبه سواها . وعندما تم تصريف مياه المستنقعات وأمكن التحكم فى مستوى الماء ، تبين أن أرض هذه الأودية بالغة الخصوبة ، فإنه حتى بدون الاستعانة بالسماد الحيوانى ،

كان ترسب الطمى الغنى فى وقت الفيضان كفيلا بإنتاج محصول يكاد يزيد مائة ضعف على البذور الأصلية ، وأحياناً بإنتاج محصولين أو ثلاثة محصولات فى السنة »

وفى فلسطين ، وهى واسطة عقد الهلال الخصيب الذى يمتد طرفاه إلى النيل الأعلى والفرات الأدنى ، وجد الإنسان الأصل البرى لسلالة القمح ، وكان يلتقطه قبل أن يتعلم فى العصر الحجرى الحديث كيف يزرع المحصولات بانتظام . وطبقاً لما ورد فى لوحة توجد الآن فى جينا (Jena) أحضر إلهان أخوان الشعير من الجبال إلى مدينة « سومر » التى لم تكن تعرف الشعير ، ومن المحتمل أن يكونا قد أحضرا كذلك مع هذه الهدية المحسوسة صورة الجبل المقدس والقلعة المحوطة بالأسوار . وعندما تحسن صنف هذه الحبوب الأولى من القمح والشعير والسمسم لم يبق إلا ابتكار المحراث واستئناس دواب الجر لكى تصبح التربة الثقيلة وفيرة الإنتاج . وعندما أصبحت تحت إمرة المجتمع كميات مختزنة من الحبوب الصلبة الغنية بالبروتينات التى لا تتلف إذا احتفظ بها جافة تيسر لأول مرة إطعام عدد كبير من السكان الحضريين .

وبفضل زراعة أشجار النخيل حصلت الحضارة فى بلاد ما بين النهرين على مورد زراعى متعدد الجوانب ، إذ كانت تستمد من هذه الأشجار طعاماً ونبيذاً ، ومادة للتسقيف وصنع الحصير والسلال ، وسيقاناً للأعمدة وليفاً لعمل الحبال .

وعندما ابتكرت السفن ، أصبحت الأنهار أولى الطرق العامة ، فهى أحزمة متحركة من الماء يبلغ طولها ستمائة ميل فى مصر ، وبلاد ما بين النهرين ، وألف ميل فى وادى السند . وقد كون كل من هذه الأنهار نظاماً للنقل على هيئة العمود الفقرى ، أو إن شئت فقل نظاما فقارياً للنقل اتخذ منه نموذجاً لأخدود الرى والترعة ، على حين أن فيضانها الفجائى الموسمى فرض على

مزارعى القرية أن يتكاتفوا لإصلاح ما يتلفه الفيضان ، ولتجميع المياه حول حقولهم اتقاء لفترة الجفاف وأخيراً لإنشاء شبكة كاملة من الجسور والترع وأعمال الرى. ولقد كانت إقامة هذه المرافق تتطلب قدراً من الاختلاط الاجتماعى والتعاون والتخطيط لأجل طويل ، مما لم تكن حضارة القرية تحتاج إليه ، ولا تشجع عليه بسبب ما درجت عليه منذ عهد بعيد من الاكتفاء الذاتى وقبول قصورها عن رضا وطيب خاطر . ولذلك فإن الظروف ذاتها التى جعلت قيام مراكز حضرية كبيرة أمراً ميسوراً من الناحية المادية ، جعلته كذلك أمراً ضروريا من الناحية الاجتماعية .

وعلى الرغم من أن الحضارة القروية حققت من الألفة والاستقرار فى مجتمعها مالم تعرفه حضارة المدينة إلا نادراً ، فإن مركز الاستقرار الصغير كان تحت رحمة عوامل الطبيعة ، فقد كان من الممكن أن تطيح به عاصفة ، أو يهلك جوعا فى فترة جفاف دون أن يستطيع الحصول على عون من أقرب جيرانه على بعد أميال قليلة منه . ولقد تبدلت هذه الحالة عندما أصبح فى وسع المدينة أن تحشد الأيدى العاملة وتباشر سلطة مركزة . ولا جدال فى أن انتقال السلطة إلى المدينة حرم ابن القرية قدراً غير قليل من حقه فى حكم نفسه ، وما كان يشعر به من الألفة المطلقة فى بيئته ، حيث كان كل مخلوق بشرى وكل حيوان تقريباً وكل رقعة أرض أو مجرى ماء فيها معروفاً لديه معرفة وثيقة . بيد أنه إذا كان ابن القرية قد خضع للقوات الجديدة الفعالة فى المدينة ، بل ربط بين حياته ذاتها وبين تلك القوات ، فإنه قد ظفر بنصيب من الرخاء والطمأنينة لم يتمتع بهما مطلقاً من قبل .

وإذن فإن تحول القرية إلى مدينة لم يكن مجرد تغيير فى الحجم والقياس — وإن كان قد انطوى على هذين العاملين — بل إنه كان على الأصح تغيراً فى الاتجاه والهدف تبين فى نوع جديد من التنظيم .

ولعل أكبر رابطة بين مصر وبلاد ما بين النهرين ، هي ما توافر في بيئتهما من الأحوال الجغرافية المشتركة التي سبقت قيامهما ، وذلك أن اشتداد جفاف الطقس منذ سنة ٧٠٠٠ قبل الميلاد ، وهو ما حول الأرض التي تكسوها الحشائش إلى سهوب وصحارى ، جعل أودية تلك الأنهار العظيمة قابلة للزراعة على ما فيها من مستنقعات . فهنا وهناك فى جنبات السهل الفسيح ، حيث كانت تتوافر بكثرة الطيور البرية وحيوانات الصيد الصغيرة ، وكذلك الأسماك وهى أيسر مصادر البروتين الحيوانى ، كانت تنشأ مراكز صغيرة للاستقرار . وقد كان السكان يستخدمون حزماً من السمار لصنع أبسط نوع من القوارب للتنقل فى أرجاء هذه المفازة المائية ، وقد اغتبط جيمس هنرى بريستد Breasted حين وجد منذ نصف قرن مضى أن تلك القوارب كانت لا تزال مستعملة عندئذ . وقد كانت تلك الحياة بدائية ، لكنها لم تختلف كثيراً عن الحياة التى كان يعيشها حتى الأمس القريب القناصة والصيادون فى مستنقعات وادى الرون الأدنى .

وكان جفاف السهول على هذا النحو البطىء مصحوباً بتجمع السكان تدريجيا فيما كان يبرز من بقع الأرض الصلبة ، ومع استمرار الجفاف ازدادت مساحة هذه البقاع ، وكان من أثر الأساليب الجديدة فى الزراعة أن اتسعت وتحددت المراعى والحقول . وعلى مر الزمن أصبح خطر ذبول المحصول فى فترات التحاريق تحت وطأة الحرارة الاستوائية يتقى بشق القنوات ، وفى النهاية بابتكار الساقية لرفع الماء من النهر المنخفض إلى الشاطىء المرتفع .

والمواد الأجنبية التى وجدت فى قبور من العصر السابق على عهد الأسرات تنهض دليلا على أنه حتى عند ما كان أهالى أودية هذه الأنهار – التى تحاكى العمود الفقرى – يعيشون وسط ظروف بدائية فى قرى صغيرة على الفطرة ، كان يوجد نوع من التجارة التى بلغ من رواجها فى الخارج أنها كانت تصل إلى إيران . ولعل ذلك كان يتم على مراحل بطيئة فى سلسلة من عمليات الشراء

والمقايضة على نطاق ضيق . وبحكم الضرورة كان السكان يتكاثفون على ضفاف الأنهار . ولقد لاحظ فليندرز بيترى أنه فى مصر كان الفلاحون يقومون بزراعة الأراضى الخصبة المجاورة للنهر والترع ، وأن عبيد المعابد كانوا يزرعون ما وراء تلك الأراضى من المناطق الأقل خصوبة ، على حين كان الجنود يستغلون الأراضى التى كانت أكثر من ذلك فقراً وتقرب من الصحراء وتغمرها المياه مما جعلها خليطاً من المستنقعات والأراضى الجرداء .

ولم تكن تلاصق هذه السهول الخصبة جبال ولا غابات يتعذر اختراقها ، وعلى الرغم من أنه لم يكن ليتسنى للزراعة أن تتقدم على نطاق واسع إلى أن يتم تصريف مياه المستنقعات ، والتحكم فى المياه التى كانت تتدفق جامحة فى بلاد ما بين النهرين ، فإنه كان من المستطاع ، بالتذرع بالصبر ، والتعاون فى بذل الجهود ، شق المصارف والقنوات بذات السهولة التى يبديها الطفل عندما يصنع من الرمال على شاطئ البحر فتحات لتدفق المياه ، وسدوداً لحجزها . والواقع أنه إذا كان السكان لم يخططوا الأرض بطريقة منظمة ، فإن الطبيعة تولت ذلك بطريقتها الغشوم الخاصة ، وذلك بغمر الأرض سنويا بالطمى فى وادى النيل ، أو بإحداث تقبب فى الطبقة الأرضية ، وفيضان عرم مما أدى إلى سد بعض المسالك وتغيير مجرى النهر فى وادى الفرات البطىء ، ووادى دجلة العنيف الثائر .

ولتفادى النقيضين ، الصحراء والمستنقع ، فإن بلاد ما بين النهرين — وربما بدأت بذلك قرى منعزلة — أخذت فى إنشاء شباك محلية من أخاديد الرى والترع ، وإقامة مساكن تحوطها جسور ، واستخدام القار والأخشاب التى كانوا يجلبونها من الوادى الأعلى فى الشمال لتقوية الشواطئ ومنع الماء من التسرب . فقد كان ضبط المياه ثمن بقاء المجتمع ، وذلك لأنه كان يتهدده خطر طبيعى من نقص المياه عند بداية موسم نمو المزروعات ، وكذلك من احتمال حدوث العواصف والفيضانات فى وقت الحصاد ، فكان الإنتاج الزراعى هناك يعتمد على يقظة دائمة وجهود جماعية .

وعند ما قبلت القرى هذا التحدى الصارم تعلمت فى مرحلة مبكرة مزايا: تبادل المعونة والتخطيط لأجل طويل ، والاضطلاع فى صبر بعبء الواجب المشترك ، وكان كل ذلك يتكرر حدوثه موسما بعد موسم . وإن سلطة مجلس شيوخ القرية التى عمرت أمداً طويلا لتشير إلى ما كان يحدث منذ عهد مبكر من تجنيد جماعى للأيدى العاملة تحت زعامة محلية قادرة . ولعل هذا القدر من التعاون الجماعى قد أسهم بدوره فى تزويد النظام الملكى فى بلاد ما بين النهرين بطاقة بشرية مقيدة بهذه الالتزامات على نقيض النظام الملكى فى مصر ، إلا أن ذلك مهد الطريق لإقامة سلطة أكثر تركيزاً بحيث تستطيع معالجة الأمور فى مساحة أوسع نطاقاً .

بيد أنه فى بلاد ما بين النهرين حالما يسترضى إله العاصفة — ويحتال عليه لاتقاء شره — كان يتوافر فيض هائل من القوت والحيوية البشرية ، حتى صوف الأغنام فى هذه الأودية كان أكثر غزارة ونعومة من صوف أغنام المراعى الأشد جفافاً ، فأصبح لمنسوجات بابل الصوفية من الشهرة ما لأقطان مصر[1] . وقد كانت المخاطر جسيمة كما كانت الجهود اللازمة للتغلب عليها تبعث على اليأس ، ولكن ثمار الكفاح كانت طائلة .

ومن الطبيعى إذن ، بل يكاد يكون من المحقق أنه بفضل هذا الفيض العظيم الأول تبوأت سومر مكان الصدارة ، وهو ما يذهب إليه بقوة أغلب علماء آثار بلاد ما بين النهرين . ولقد نشأت سومر وسط وكر المدن التى قامت فى أراضى الدلتا على مقربة من الخليج الفارسى حيث كانت تلفحها حرارة بالغة فى الشدة . ولم يقتصر دور هذه المدن على مجرد الإيحاء بإقامة أولى العمائر الضخمة التى شيدت فى مصر بالطوب ، بل إنها أخذت تتقدم حثيثاً فى مجالات الفلك والكتابة والتنظيم الحربى وشق الترع والرى ، ولم تكن

(١) لا يستقيم المعنى هنا تاريخياً إلا إذا كان المؤلف يقصد شهرة أقطان مصر الحديثة ، وذلك لأن مصر لم تزرع القطن قديما . والمقارنة الجائزة هنا تكون بمنسوجات مصر الكتانية التى تمتعت فى العصور القديمة بشهرة فائقة . (المشرف)

أقل تقدماً كذلك فى مجال التجارة والصناعة . ولقد خلفت هذه المدن طابعها فى مدن وادى السند القاصية عن طريق التجارة ، بل كذلك فيما يحتمل عن طريق علاقات أوثق من ذلك .

أما مصر فتتكشف عن مجموعة كاملة من وجوه التباين مع بلاد ما بين النهرين فى كل ناحية من نواحى الحياة والفكر ، بل إن النيل ليختلف عن الدجلة والفرات فى طبيعته ، ويجرى فى اتجاه مضاد لاتجاههما . وإن مصر بما لها من سماء صافية ، وفيضان سنوى تنطلق مياهه فى هوادة ويمكن التنبؤ بموعد حلوله ، لتعيش فى ظروف أكثر رفقاً من ظروف بلاد ما بين النهرين ، وتستمتع بأحوال معتدلة فى انتظامها ، ومختلفة عما فى تلك البلاد من العواصف والصراع ووميض البرق ونكبات السيول والفيضانات ، حيث ينعكس عنف الطبيعة فى عنف الناس . وعندما عرفت فى مصر الحبوب الجديدة وزراعة المحراث ، نشأ فيض مماثل من القرت ونجم عن هذا دون شك فيض من الأطفال . إلا أن كل ما قامت به مصر من أعمال الاستئناس كان يتم فى جو هادئ لا تعكر صفوه العواصف ، ولا يغشى أفقه ظلام الشك ، ولا يشوه جماله تكرار الفشل . فكانت الحياة هانئة ، وكانت حياة الخلد أسمى ما يصل إليه الخيال من صور الهناءة ، ولذلك فإنه حتى فى وسط الشدائد التى اتسم بها انهيار الدولة القديمة ، يقول إيبو – وير Ipu - wer « إن الدنيا لا تزال بخير عندما تشيد الأيدى الأهرام ، وعندما تحفر الترع ، وعندما تغرس الخمائل للآلهة » .

وعلى النقيض من ذلك تروى أسطورة من أقدم أساطير بلاد ما بين النهرين كيف أن العشب الذى كان من شأنه منح جيلجاميش الخلود ، التهمه ثعبان عندما نام . فإن القوم « ذوى الرءوس السوداء » لم يؤمنوا بالخلود بوصفه عوضاً كافياً عما كان يصادفهم دائماً من خيبة أمل . ولو أنهم اعتقدوا فى وجود حياة أخرى لما رأوا فيها موئلا للسعادة ، بل مصدراً آخر للمخاوف :

وأما المصريون فقد بلغ بهم حب الحياة إلى حد أنهم كانوا يرحبون بالموت، وكانوا يستخدمون كل الوسائل المادية والسحرية ليحتفظوا بالموتى أحياء فى مظهرهم الجسمانى، وليضمنوا لهم كل أسباب الراحة والمتعة التى ألفوها فى حياتهم على الأرض. وإذا كان مصير فرعون الخلود فكذلك كان مصير المجتمع بأسره عن طريق التوحد مع فرعون. وهذه الاختلافات بين المصريين وأهل بلاد ما بين النهرين تفسر إلى حد ما وجوه التباين بين تراث الفريقين من المخلفات الحضرية. ففى مصر كان الموتى يشرفون من عليائهم على الأحياء فى رفق وحنان، ولذا فحتّى قطط البيت كانت تحنط لضمان حياتها مستقبلا.

وعلى الرغم من ذلك فإن وادى النيل قام بنفس الوثبة، وانتقل من حضارة قبلية مكتفية بذاتها فى حدود القرية، إلى حضارة مركزة فى المدينة تحت سيطرة المعبد والقصر — إلا أن المدينة اتخذت فى مصر شكلا مختلفا عن الشكل الذى اتخذته فى بلاد ما بين النهرين. ولكن فى كلا الإقليمين حدث نفس التجمع فى القوى، كما حدث فى كليهما نفس التضخم فى السلطة المركزية ونفس الانطلاق فى مظاهر النشاط الجماعى. وكذلك تجلت فى كليهما رغبة جديدة لإحراز القوة، لم تتكشف إلى ذلك الحين إلا فى الطقوس السحرية، وقد أخذت هذه الرغبة تعرب عن نفسها بتخيلات بالغة التطرف وبالقيام بأعمال جريئة. فالأعمال التى كانت الأساطير تعزو القيام بها إلى أحد الكهنة فى جيل من الأجيال كان يضطلع بها بطل أو ملك فى الجيل التالى.

وفى كنف هذه الظروف كانت تنطلق عندئذ عن غير عمد قوى متفجرة. وإذا كانت الإلهات المخادعات والآلهة المتوحشة كثيراً ما تبدو على نحو الرجل المتمدن فى مجافاته للشفقة والرحمة، فإنه من الحق كذلك أنه كان فى وسع أبناء المدن أن يسموا إلى مرتبة الآلهة، ويصبحوا متحررين من قيود مجاراة غيرهم، ومن ذلك الإحساس بضآلة شأنهم الذى كان يتسبب فى شل حركتهم.

وكان وجود أعداد ضخمة من نفس الجنس ماثلة أمام العين – وهى أعداد لم تشاهد إطلاقا فى أى اجتماعات بدائية سابقة – يزيد من قوة الملوك والحكام ورعاياهم : فكانوا يشتركون جميعاً فى القيام بهجوم جماعى بلا هوادة على كل جزء من البيئة التى تحوطهم : حيناً بقصد إعادة تشكيلها ، وحيناً لأغراض تعبيرية واستعراضية ، وحينا لمحض التخريب .

وهذا التوسع فى القوى البشرية قد مهد الطريق للمدينة ، ولكن هذا التوسع كان موجوداً بالفعل فى مصر إبان عهد الأهرام قبل أن تبنى أى مدينة من المدن التى يمكن التعرف عليها الآن . ومازال هناك شك فيما إذا كان الملك ، الذى تدعوه الأساطير مينا ، قد شيد مدينة « طيبة »[1] عندما قام لأول مرة بتوحيد « الأرضين » : مصر العليا والسفلى . وأما أنه قام بتحويل مجرى النيل عند هذه النقطة فيبدو أنه أقل مدعاة للشك . وفى مجال التحسينات الفنية ، نجد أن العصر الحجرى الحديث بأوعيته قد وضع ما توافر لديه من تسهيلات تحت إمرة العصر البرونزى بآلاته . ولقد لبثت الآلات الجديدة نفسها تنتظر زمنا طويلا للاعتراف بها ، أو على الأصح للتعرف على حقيقة أمرها ، وذلك أن أقدم الآلات المعقدة لتوليد القوى لم تكن مكونة من الخشب ولا المعادن ، بل من عناصر بشرية قابلة للفناء ، لكل منها وظيفة خاصة فى جهاز آلى أكبر ، تحت إشراف بشرى مركز ، إذ أن الجيش العرمرم الذى قام ببناء الهرم الأكبر – وكان يبلغ عدده حوالى مائة ألف من الكهنة ورجال العلم والمهندسين والمعماريين ورؤساء العمال والعمال – أن هذا الجيش تكونت منه الآلة المعقدة الأولى . وقد تم ابتكارها فى الوقت الذى لم تكن الفنون الصناعية قد أنتجت فيه أكثر من « آلات » قليلة بسيطة مثل السطح المائل والزحافة ، ولم تكن قد أنتجت بعد مركبات ذات عجل .

وليس فى مقدور الإنسان الحديث مع كل ما لديه من آلات للجر والرفع

---

(١) من الجلى أن المؤلف يقصد منف .   (المشرف)

أن يأتى الآن فى مجال الهندسة المدنية بما كان يخرج عن طاقة تلك الآلات البشرية الأولى . بل إن السرعة لم تكون تعوز ذلك النظام الاقتصادى القائم على الآلات البشرية ، فعلى حين أن كاتدرائيات العصور الوسطى كانت كثيراً ما تحتاج إلى قرون لإتمامها ، كان الكثير من المقابر المصرية يتم فى مدة حياة فرعون الذى كان مقدراً لمومياه أن تدفن فيها ، وأحيانا فى مدة جيل واحد ، فلا عجب أن كانت السلطة المركزية التى تقوم على إدارة تلك الآلات تبدو حقيقة فى مظهر الآلهة .

وسط تلك البيئات الطبيعية والاجتماعية المتناقضة ، أقيمت عندئذ أساسات المدينة طبقا للمقاييس المتواضعة للقرية والمدينة الريفية . ولقد أصبح إنشاء المدينة فى ذاته أمراً ميسوراً بفضل خصوبة الأودية العظيمة وإنتاجها ؛ وقدرة القرية الصغيرة على التوالد والتكاثر – وكانت موفورة الغذاء ، وتنصرف انصرافاً كاملا إلى شئون الحياة – وكذلك بفضل التنقل بالطرق المائية ، وتوافر قدر عظيم من الوسائل المادية والطاقة الحيوية اسد حاجات طبقات بأكملها أصبحت معفاة من الوصاية القروية القديمة ، ومن متاعب العمل اليدوى . وكان الفائض الحضرى متعدد الجوانب ، ولكن يلاحظ أن بداية اتساع نطاق وسائل النقل ، وامتداد طول الطرق التجارية ، يرجع إلى زمن يسبق المدونات التاريخيـــة بما لا يسمح بمتابعتها . فنحن نجد دليلا على استخدام « السنج » obsidian فى أقدم عهود « يارمو » Jarmo مع أن هذا الحجر الزجاجى الأسود استورد من جهة نائية . وإلى جانب هذه الاتصالات البعيدة المدى ، كان يحدث باطراد امتزاج بين الشعوب والحضارات على نحو ما حدث فى مدينة أور من الامتزاج بين حضارات عبيد 'Ubaid وأوروك وجمدات نصر Jamdat Nasr .

٢ – لغز أطلال المدن

على الرغم من أن ما يوجد من أطلال المدن يزودنا أحيانا بما يشير إلى

ما كان يقترن بقيامها من أنظمة وحياة فى ظل تلك الأنظمة ، فإنها لا تؤلف بحال سجلا متصلا لتاريخ المدينة فى خلال الأربعة الآلاف السنة الأولى من حياتها ، بل إنه حتى فى حالة مدينة حافلة بالمعالم والوثائق مثل مدينة روما ، ما زالت توجد فى تاريخها ثغرات كبيرة لا نعرف شيئاً عنها ، إلا أن قطع الأدلة المبتورة المتناثرة ، جديرة بأن نتأمل كلا منها على حدة ، قبل أن نحاول ضم بعضها إلى البعض الآخر وسبر غور قيمتها ودلالتها .

وأول ما نلاحظه هو أن الزيادة فى عدد السكان وفى مساحة الأرض المشغولة بالمبانى ، كانت أمارة على التدرج من قرية إلى مدينة ، ولكن هذا الفرق أبعد من أن يكون حاسما ، حيث إنه فى أواخر العصر الحجرى الحديث ، يحتمل أن تكون القرى الأوفر تقدما والواقعة عند الملتقى الطبيعى بين بعض المناطق ، قد اتسعت من حيث عدد السكان ومساحة الأرض الصالحة للزراعة دون أن يصحب ذلك أى تطور آخر ذى أهمية ، فإن ما له أهمية حضرية حاسمة ليس عدد السكان وحده فى مساحة محدودة من الأرض ، بل العدد الذى يتسنى وضعه تحت سيطرة موحدة ، بحيث يتكون مجتمع له طابعه الخاص ويستهدف أغراضا تتجاوز حاجات الغذاء والبقاء .

ومن بين أكبر أطلال المدن المبكرة ، أطلال مجدو فى فلسطين ، وكانت تشغل ثلاثة أفدنة ونصف فدان ، وأطلال جورنيا Gurnia فى كريت ، وتضم ستين منزلا تبلغ مساحة مسطحها ستة أفدنة ونصف فدان لا غير . ومن الواضح أن كلا من مجدو وجورنيا لم تكن إلا قرية ، ولو أنه من المحتمل أن القرى المبكرة كانت لا تشغل سوى فدان واحد أو فدانين ، وتأوى أقل من اثنتى عشرة أسرة . وفيما بعد ذلك العهد بأمد طويل ، كانت المساحة التى تحوطها الأسوار فى ميكينى Mycenae ، أغنى مدن اليونان فى عصرها ، لا تزيد على اثنى عشر فدانا فكانت بذلك أقرب إلى قلعة منها إلى مدينة ، ففى حوالى ذلك الوقت كانت قرقميش على شاطىء الفرات فى سوريا تشغل

مائتين وأربعين فدانا ، على حين أنه حتى فى عصر أسبق من ذلك : فى الألف عام الثالثة قبل الميلاد ، كانت موهنجودارو (Mohenjo-Daro) ، إحدى العواصم الكبرى لمدينة السند ، تشغل ستمائة فدان .

ومع ذلك فإن المدينة كانت تمثل مستوى جديداً فى التركيز البشرى ، أى تضخما جديداً فى الاستقرار . فمدينة أور القديمة ، الموطن الأول لإبراهيم ، كانت تشغل بترعها وموانيها ومعابدها مائتين وعشرين فدانا ، على حين أن أسوار أوروك كانت تطوق ما لا يزيد إلا قليلا على ميلين مربعين . وهذا يدل من ناحية على توسع فى الأرض المزرعة التى تنتج القوت ، ومن ناحية أخرى على ازدياد الوسائل التى تسهل الانتقال وغير ذلك من مبتكرات الصناعة ، ففى العصر البرونزى ازداد اتساع المساحة التى تشغلها المدينة بفضل ما توافر لها من معدات وآلات قاطعة أوفى بالغرض من سابقتها ، وبفضل استخدام المعادن فى صنع أدوات الزراعة ، وكذلك بفضل نظام للترع أكثر اتساعا مما سبق . وحوالى سنة ٧٠٠ ق . م . كانت خورزاباد (Khorsabad) فى آشور تضم نحو ٧٤٠ فدانا ، وربما كانت نينوى تضم بعد ذلك بقرن ١٨٠٠ فدان ، على حين أن بابل فيما بعد ذلك أيضا ، كانت تحوطها أسوار لا يقل طولها عن أحد عشر ميلا قبل أن يقوم الفرس بتدميرها . وإذا كنا نقفز من مكان إلى آخر للإدلاء بهذه الإحصائيات ، فما ذلك إلا لأن الأدلة ذاتها بالغة الضعف والتناثر .

وأما ما يفوق ذلك صعوبة فى التقدير ، فهو عدد السكان فى تلك المدن القديمة . ولقد كان يحد من عددهم فى البداية ، ذات الصعوبات فى التنقل التى كانت تواجه المدن الغربية فى أوائل العصور الوسطى ، ويبدو أن عدد سكانها كان كذلك بنفس القدر ، أى ما يتراوح بين حوالى ألفين وعشرين ألفاً . ومن المحتمل أن الحجم العادى للمدينة فى العهد المبكر ، كان قريباً مما نسميه اليوم وحدة جوار ، أى خمسة آلاف نسمة أو أقل ، وعلى ذلك فإن المدينة

فى بداية عهد الترابط الحضرى كانت ما زالت تحتفظ بما كان فى المجتمع البدائى من أسباب الألفة والتضامن .

ولقد وجد فرانكفورت عند الحفر فى أور وأشنونا (Eshnunna) وخفاجة (Khafaje) التى ازدهرت حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م ، أن عدد المنازل كان بمعدل يقرب من العشرين منزلا فى الفدان الواحد ، وهذا ، وفقاً لتقديره ، يعنى كثافة تتراوح بين ١٢٠ و ٢٠٠ نسمة فى الفدان ، وهى قطعاً كثافة أعلى مما تقتضيه الشروط الصحية ولكنها ليست بأسوأ من كثافة أحياء العمال التى كانت أكثر ازدحاماً بالسكان فى أمستردام فى القرن السابع عشر ، ولعل وجود الترع فى كلتا الحالتين كان يخفف من شدة وطأة الازدحام . وحتى عند ما كانت أور عاصمة إمبراطورية ، لا يقدر فرانكفورت عدد سكانها بما يجاوز ٢٤٠٠٠ نسمة ، على حين أن خفاجة لم تكن تحوى أكثر من نصف ذلك العدد . وإن ما يذهب إليه ليونارد وولى Leonard Woolley من أن عدد الذين كانت تضمهم أسوار « المدينة القديمة » فى أور كان يبلغ ٣٤٠٠٠ نسمة لا يختلف اختلافاً خطيراً عما سلف بيانه ، إلا أن هذا الباحث يشير إلى أن ذلك العدد لم يكن إلا سدس عدد سكان أور العظمى عند ما أصبحت تلك المدينة فيما بعد مركزاً صناعيا له تجارة مترامية الأطراف ، ففى تقديره أن تلك العاصمة ربما كانت تضم ربع مليون نسمة .

على أن الأدلة فيما يتعلق بحجم المساكن وكثافتها تماثل الأدلة الخاصة بمساحة المدن من حيث عدم التوافر والانتظام ، وحتى إذا توسعنا فى أعمال الحفر قد لا يتسنى الوصول إلى أرقام يمكن الاطمئنان إليها كثيراً ، نظرا إلى أن الكثير يتوقف على مدى الكثافة فى الغرفة الواحدة ، إذا أردنا التفرقة بين مسكن أسرة محترمة ومسكن وضيع . ولا يبدو أن هناك أى احتمال للحصول على معلومات فى هذا الصدد ، ولكن من الطريف أن نلاحظ أن البيوت الصغيرة التى وجدت فى موهنجودارو ، وهى ترجع إلى أواسط عهد الألف

العام الثالثة قبل الميلاد ، كانت تتألف من طابقين ، ويشغل كل منها مساحة تبلغ نحو ثلاثين قدماً فى الطول وسبعا وعشرين قدما فى العرض ، أى ما يقرب من حجم منزل متواضع فى مدينة برايينى (Priene) الإغريقيـــة حوالى سنة ٢٠٠ ق . م . حيث كانت تبلغ مساحة البيت المتواضع ٢٦,قدما فى الطول وعشرين قدما فى العرض . ولم تكن منازل هاتين المدينتين لتبدو خارجة عن المألوف فى الجزء الشرقى بلنـــدن فى القرن الثامن عشر ، بل إن منازل موهنجودارو كانت فى الواقع أكبر قليلامن منزل يشتمل على خمس حجرات كنت أقيم به فى وقت ما فى سنى سايد جاردنز (Sunnysi.Je gardens) بلونج أيلاند ، وهو حى وضع تصميمه قصدا لإقامة مساكن نموذجية فيه .

وأكثر ما يلفت النظر فى هذه الأرقام ، هو ثباتها المدهش لمدة حوالى خمسة آلاف سنة . وأما فيما يتعلق بالمساكن التى كانت أكثر اتساعا وتعيش فيها الطبقات الأوفر ثروة ، فإنها كانت أصلا تنطوى على الاختلافات نفسها التى نشاهدها اليوم ، إذ أن المساكن المتسعة كانت تتراوح بين دور تحتوى على عشر حجرات — وتقوم على مساحات من ٨٥ إلى ٩٧ قدما فى الطول و٥٦ إلى ٧٢ قدما فى العرض ، وذلك فى أشنونا وبابل وآشور وأولينثوس (Olynthos) — وبين قصور عديدة الحجرات ، وقد دامت هذه الأرقام فترة تناهز ألفى سنة ، وتتضمن أربع حضارات متباينة تماما . بيد أنه فيما عدا حالات استثنائية قليلة كحالة موهنجودارو ، يبدو أن المنزل المنفصل لم يكن له وجود فى المدن المبكرة أكثر مما كان له فى قرية بيسكوبين (Biskupin) البولندية التى ترجع إلى العهد البرونزى ، وكشف فى عصرنا الحاضر عن متاريسها الخشبية ومنازلها المقامة صفوفا ، فالانعزال وعدم الإحاطة بالمبانى كانا أصلا من مميزات القصور ، ومقصورين مع كثير من الخصائص والعادات الأخرى على طائفة صغيرة من النبلاء والموظفين الذين كانوا يقومون على خدمة حكام المدن المبكرة . والفيلا التى تقف حرة طليقة وسط

حديقة بإحدى الضواحى ، تظهر منذ عصر مبكر فى التصاوير ونماذج القبور المصرية .

أما الأمارة التالية للمدينة فهى القلعة ذات الأسوار التى يحوطها مركز واحد أو أكثر من مراكز الاستقرار . وربما كان الكشف عما للسور من فائدة فى حماية الفئة الحاكمة ، قد أدى إلى استخدامه فى تطويق القرى التابعة للمدينة والمحافظة على النظام فيها . وأما أن السور عنصر جوهرى لا تكتمل المدينة بدونه ، كما كان يرى ماكس ويبر Max Weber ، ففكرة خاطئة ومبعثها التزمت وضيق الأفق ، ولكنه صحيح أن السور بقى إلى القرن الثامن عشر مظهراً من أبرز مظاهر المدينة فى معظم البلاد — وأهم ما يستثنى من ذلك هو مصر فى عهدها المبكر واليابان وإنجلترا ، حيث كانت الحواجز الطبيعية تكفل للمدن والقرى مناعة جماعية فى عصور معينة ، أو حيث كان يغنى عن إقامة أسوار محلية وجود جيش عظيم ، أو إحاطة الدولة بسور هائل ، كما كانت الحال فى روما الإمبراطورية أو الصين الإمبراطورية .

على أن هنالك عاملا له أثره الفعال فى تحديد حجم المدن ، ومع ذلك فإنه كثيراً ما يكون نصيبه الإغفال ، وهو ليس مجرد توافر الماء أو الطعام ، بل مدى وسائل الاتصال بمجموع السكان ، فقد حدد أفلاطون حجم مدينته المثالية بعدد المواطنين الذين يتيسر لصوت واحد أن يخاطبهم ، ومع ذلك فإن التحديد الأكثر اتباعا كان بعدد من يستطيعون الاجتماع فى داخل الحرم المقدس للاشتراك فى المهرجانات الموسمية الكبرى . وإذا كانت المدن سرعان ما تجاوزت فى نموها الحد الذى كان يتسنى عنده لكل مواطنيها أن يسمع الواحد منهم نداء الآخر ، فلعل عددهم كان قد حدد منذ زمن طويل بمن يستطيعون الإسراع بتنبية نداء لقائمين على أمرهم . ولقد كان لدى مدن بلاد ما بين النهرين طبل تدعو به المواطنين إلى الاجتماع ، على نحو ما كانت مدن العصور الوسطى تستخدم ناقوساً فى برج الكنيسة لدعوة المواطنين إلى

الاجتماع . ومنذ فترة وجيزة فقط ، عندما كانت إنجلترا تواجه خطر الغزو ، واحتمال التدمير الشامل لوسائل الاتصال عن طريق البرق أو الإذاعة ، لم يسعها إلا أن تعود إلى اتخاذ قرع أجراس الكنائس عامة إشارة للدلالة على شروع الألمان فى النزول إلى البر .

أما المدن الباكرة ، فإنها لم تتجاوز فى نموها مدى السير على القدمين ولا مدى السمع . وفى العصور الوسطى كان يعين حدود مدينة لندن ، مدى ما يصل إليه صوت أجراس كنيسة « بو » (Bow) ، وقد بقيت هذه الوسيلة بين الوسائل الفعالة لتحديد مدى نمو المدن إلى أن ابتكرت فى القرن التاسع عشر وسائل أخرى للاتصال بجموع السكان فى المدينة . وذلك لأن المدينة فى أثناء تطورها كانت تصبح مركز شبكة لوسائل الاتصال ، فالثرثرة حول البئر أو مضخة المدينة ، والأحاديث فى المشرب أو مكان غسيل الملابس ، وإعلامات الرسل والمنادين ، ومناجاة الأصدقاء ، وإشاعات سوق الأوراق المالية والسوق العامة ، وتبادل الآراء فى تحفظ فيما بين رجال العلم ، وتبادل المكاتبات والتقارير وبيانات الديون وكشوف الحساب ، وتكاثر عدد الكتب — كل هذا من مظاهر النشاط الرئيسية فى المدينة . وعلى هذا الاعتبار فإن حجم المدينة المجز كان يختلف إلى حد ما تبعاً لسرعة وسائل المواصلات ومدى قدرتها الفعالة .

وإن الحجم المحدود للمدينة الباكرة ليدلنا على طرف مما كان يوجد عندئذ من تقييد للحياة الحضرية ، أو على الأقل للتعاون الواعى بمحض الاختيار ، فإن وسائل الاتصال لم تتعدد إلا فى القصر والمعبد وحدهما — ومما ساعد على ذلك أنهما كانا مفصولين تماما عن السكان جملة . ولقد كان السر الأكبر فى السلطة المركزية هى السرية نفسها ، وهو ما ينطبق على جميع الحكومات الديكتاتورية إلى يومنا الحاضر .

٣ — التحضر والتضخم

حظيت القلعة أكثر من أى حى آخر فى المدينة القديمة بأوفر نصيب من البحث والارتياد ، ولعل ذلك بسبب أنها كتلة متجمعة نسبيا ، وبسبب أنها على وجه اليقين تقريبا مستودع لأنفس مخلفات الفن والصناعة . وكما ذكرت آنفا ، شهدت مراكز الاستقرار السابقة على ظهور المدينة بداية عهدها بحياة المنظمات فى المعسكر المحصن والهيكل ، وإن لم يشتركا حتما فى الموقع . وليسمح لى بأن أعيد القول بأن أمارة المدينة كانت تبدو فى تجمع هاتين المنظمتين فى حرم خاص منعزل عن العالم المدنس ؛ ولذلك فإن أنكيدو ذهب يلتمس جيلجاميش الجبار فى « المعبد المقدس » مقر آنو (Anu) وإيشتار بمدينة أوروك . وعلى الرغم من أنه كانت توجد معابد ثانوية فى أنحاء أخرى من المدينة ، بل إنه فى خورزاباد كان يوجد أيضاً قصر ثانوى ، فإن سراى الملك الكبرى والمعبد الأكبر كانا يقفان جنباً إلى جنب فى داخل القلعة ، بوصفهما جزءاً من نظام الحكم الثنائى الذى ساد أمداً طويلا .

وفى أكثر من مدينة واحدة ، يمكن الاستدلال على الجزء الحجرى الذى كان نواة القلعة ، بل لعل المعبد المدرج الشاهق ما زال قائماً يطل من عليائه على التل الرملى وما فيه من الأنقاض المدفونة ، وكان يدعى « تيللو » Tillu باللغة البابلية القديمة ، وما زال يدعى التل ؛ وكان ارتفاعه يبلغ أحيانا مائة قدم . بيد أننا لانعرف شكل المدينة التى كانت تحيط بالقلعة إلا من أمثلة متأخرة ، فإن ما تبقى من التصاوير المنحوتة — وهى الحرية بأن تكشف عن شكل أقدم عهدا — تبلغ من الغموض حداً يبعث على الحيرة . ومن الغريب أن الشارات الدالة على « المعبد » و « البرج » و « الماء » و « الحديقة » و « الغابة » و « الطريق العام » و « السوق » نجدها واضحة الرسم فى كل من أور وكيش ، سواء أكانت هذه الشارات صوراً أم رموزاً ، على حين أن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بشكل المدينة . وتمثل الأرض المنزرعة على

هيئة مستطيل يحتوى على خمسة عشر مربعاً ، أو على هيئة ما يبجه المحراث من خطوط قائمة الزوايا فى حقل مستطيل مفتوح من أحد جوانبه ، بيد أن المدينة تكون إما على هيئة مستطيل فى داخله خطان عموديان ، أو على هيئة خطين أحدهما طويل والآخر قصير يلتقيان عمودياً عند أحد طرفيهما ، وينتهى الخط القصير عند الطرف الآخر بذؤابة قصيرة (L) . وإنه لمن العسير فهم ما يدل عليه كل من هذين الشكلين ، اللهم إلا إذا كان الشكل الأخير لمعالم بيت حقيقى ينقصه الباب ، وكان البناء الأصغر رمزاً للبناء الأكبر (المدينة) .

وبعد تأسيس المدينة يجب أن نتوقع ظهور تعاريف وحدود وقيود للسلطة المقدسة ، وسلطة الملك ، وحق الامتلاك . وإننا لا ندرى إذا كانت توجد مثلا حدود تعين مناطق الجوار التى كانت تقوم على خدمة المعابد الثانوية ، أم أن المناطق كانت تتداخل بعضها فى البعض الآخر بصورة غير منظورة دون أن تفصلها ترعة أو رقعة من الأرض الفضاء . والواقع أنه فى مقدور أى باحث مهما بلغت به سطحية التفكير أن يوجه من الأسئلة التى تتصل بهذا الوضع ، ما لا يستطيع أوسع الآثاريين علما الإجابة عنه بعد .

وأما فى القلعة فإن الأمارة الجديدة للمدينة واضحة ، وذلك بما طرأ من تغيير متعمد فى المقاييس قصد به إرهاب من ينظر إليها والسيطرة عليه ، وحتى لو كان السكان يعانون سوء التغذية ، ويفرض عليهم من العمل ما يفوق طاقتهم ، فإنه كان لا يضن بأى نفقات فى سبيل إقامة معابد وقصور تسيطر على باقى المدينة بمجرد حجمها الضخم وارتفاعها الشاهق . وذلك أنه كان من شأن الأسوار السميكة المبنية بالآجر أو بالحجر الصلد ، أن تضفى على مناصب الدولة الثابتة ما يؤكد ثباتها واستقرارها وتمتعها بقوة لا تلين وسلطة لا تتزعزع . والعمائر التى ندعوها اليوم « العمائر الضخمة » هى قبل كل شىء مظهر يعبر عن القوة ، وتتكشف هذه القوة فى حشد

موارد نفيسة للبناء ، وكل موارد الفن ، وكذلك فى تزيين هذه المبانى بمختلف الأشكال التى لها صفة القداسة ، كأسود وثيران ونسور ضخمة ، كأن رئيس الدولة يوحد بين سمات جبروتها وبين قواه الضعيفة . وكان هدف هذا الفن إثارة الرعب الذى يبعث على الاحترام ، وهو ما ينطوى عليه الاعتراف المعاصر الذى اقتطف نصه كونتناو (Contenau) وهو : « أحس كأنى مت ، أشعر بأن قواى قد خارت ، بعد ما أهلت على طلعة مولاى الملك » .

ولعل كلا من القلعة وأسوارها الحصينة كانت متواضعة فى بدايتها دون إهمال ، شأن الاعتبارات العملية التى كان يقتضيها الحذر والاحتياط . ويلاحظ و . ف . ألبرايت W. F. Albright أنه إلى سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد كان زعماء القبائل فى فلسطين يقيمون فى حصون ، على حين أن معظم رعاياهم كانوا يعيشون فى قرى صغيرة تحيط بها ، ولا ينتقلون إلى داخل المأوى المحصن إلا فى أوقات الخطر ، أو عندما كانت حالة الجو فى الشتاء تضطرهم إلى ترك المساكن التى كانوا يقيمونها ارتجالا من الأحجار وفروع الأشجار ، وكانوا يعيشون فيها صيفاً وبخاصة أثناء موسم جمع محصول العنب . ولعل هذا كان استمراراً للنهج القديم ، ولقد أصاب فوستيل دوكولانج Fustel de Coulanges ، إذ اعتبر ذلك منذ زمن طويل الشكل الأصلى للمدينة .

وقد جرت العادة فى كل مكان على أن تكون القلعة فى حمى أكوام طبيعية من الصخور تنحدر انحداراً شديداً ، أو فى حمى سور أقامته يد الإنسان ، على أنه ليس ضرورياً أن يصدق هذا القول على القرية المبكرة ولا حتى على البلدة . وتلاحظ جرترود ليفى أن أرباخية (Arpachiyeh) — وكانت مركزا قديماً لصناعة الفخار الملون — لم تكن محصنة ، وأنه لايوجد أى أثر للأسلحة بين مخلفاتها ، وعلى ذلك فلعل مدينة صغيرة متخصصة

فى الصناعة ، ولا تزيد إلا قليلا على قرية تجاوزت الحد فى نموها ، كان فى وسعها وهى تتمتع برعاية عاصمة قوية مثل نينوى ، أن تستغنى عن إقامة سور حتى فى عصر كانت فيه الحروب مستمرة ونذرها دائمة . بيد أنه عندما ابتكرت فنون الإبادة والتدمير على نطاق جماعى منظم ، أصبح جلياً أن السور ضرورة عملية وليس مجرد رمز ، كما أنه فرض على المدينة شكلا معيناً ، ويبدو أن ذلك قد حدث فى المجتمعات المبكرة بالقرب من الفرات ، وكان له أثره فى الحد من التوسع الحضرى فى يسر وسهولة ، وفى الوقت عينه ضاعف من أنانية ملك المدينة أو حاكمها ، وانصرافه إلى ما يهمه شخصياً ، وما يقلق باله من المشاغل ، وكان حريصاً على أن يجلب إلى داخل أسوار المدينة كل ما يوجد خارجها .

فالسور إذن كان يؤدى وظيفتين ، إحداهما بوصفه تدبيراً حربياً ، والأخرى بوصفه وسيلة للسيطرة الفعلية على سكان المدينة . وأما من الناحية الجمالية فإن السور قد أقام فاصلا واضحاً بين المدينة والريف المجاور لها . على حين أنه من الناحية الاجتماعية أبرز الفارق بين المقيم فى الداخل ، والمقيم فى الخارج ، بين الحقل المكشوف المعرض لإغارة الحيوانات المتوحشة واللصوص الرحل والجيوش الغازية ، وبين المدينة التى يحيط بها السور إحاطة تامة ، وحيث كان الإنسان يستطيع أن يعمل وينام وهو مطمئن البال كل الاطمئنان حتى فى أوقات الأخطار الحربية . وكان ذلك الاطمئنان يكتمل تماماً إذا ما توافرت فى الداخل كميات كافية من الماء وكميات كافية من الحبوب المختزنة فى الصوامع والمخازن .

وكانت الفتحات الموجودة فى سور المدينة تلقى من الدقة والعناية فى المراقبة ما تلقاه فتحات البوابات فى نظام الرى ، ويجب ألا يغيب عن البال أنه فيما عدا الذهاب يومياً إلى الحقول المجاورة والإياب منها ، فإنه لم يكن ليجيء إلى المدينة سوى نفر قليل من الناس عن طريق السفن أو القوافل .

والواقع أنه إلى أن بلغت المدينة فى النهاية مبلغ العاصمة فى الاتساع : لم تنشأ حول أبواب المدينة أى مشكلة ازدحام تجتذب السكان المشتغلين بالتجارة وتدفعهم إلى أن ينشئوا هناك الخانات والحظائر والمخازن التجارية . أى إلى أن يكونوا حياً للتجار ومستودعات أو « ميناء » . ولسوف نلقى مثل هذه التشكيلات ثانية فى العصور الوسطى .

ولقد جرت العادة بدعم قوة الأبواب ، التى كانت تحرس مدن الأسلاف ، بقوة رمزية كالقصر نفسه ، وذلك بتزويدها بثيران أو أسود تثير الرعب فى النفوس بوصفها صورا سحرية ضخمة للقوة المؤلهة . وكان من شأن أمثال هذه الأبواب البرونزية تثبيط عزيمة الجيش المهاجم وبث الاحترام فى نفوس أشد الزوار الأغراب مسالمة . ومنذ البداية المبكرة اتخذت الأسوار الشكل العام الذى احتفظت به إلى القرن السادس عشر بعد الميلاد ، وكانت تتكون من أبراج ونتوءات تبرز من إطار متين من البناء كثيراً ما كان يبلغ عرضه عند أعلاه ما يكفى لسير ثلاث عربات حربية جنباً إلى جنب لكى يسمح بسهولة استعمال الأسلحة المضادة .

وعندما ازدادت المهارة العسكرية والشكوك السياسية ، كان السور يتحول أحياناً إلى نظام معقد يتألف من سياج داخل سياج ، وبذلك أصبحت الحيلة والخيانة أجدى نفعا فى اقتحام المدينة ، على نحو ما حدث فى طروادة ، من استخدام معدات الهجوم مثل ما حدث فى بابل ، ولا جدال فى أن إحاطة المدينة بالخنادق والترع ، فضلا عن الأسوار ، لم يكن من شأنها تسهيل مهمة المهاجم . وبدون هذه المزية الكبرى فى الدفاع ما كانت المدن الصغيرة لتستطيع مقاومة الفتح والتدمير على النحو الذى نجح فيه بعضها . على حين أنه لولا نواحى الضعف البشرى — الحسد والنزاع الداخلى والخيانة — لبقيت المدن العظمى عزيزة المنال .

وإذا كان ساكن المدينة يعتز بآلهته الأقوياء ، فإنه لم يكن أقل شعورا

بالاعتزاز والفخر بالسور الذى كان يطوق ويضم كل شىء . وكان يبدو للمعاصرين أن الآلهة العظيمة صاغت شكل المدينة ومعبدها ــ « الدار الهابطة من السماء » ــ وقبل كل شىء « سورها العظيم الذى يمس السحاب » . ولحسن الحظ أنه لدينا عن المعبد والسور دليل أكيد معاصر يتردد فى روايات مختلفة عن ملحمة جيلجاميش ، وهى تعبر عما اتصف به هذا الملك والبطل القديم من أنه منشئ سور أوروك ومعبدها العظيم ، وهما العملان الكبيران اللذان أعطيا « التجمع الحضرى » شكله . وإن بضع كلمات فى هذه الحالة لتساوى أكداسا مكدسة من أنقاض المبانى :

« لقد بنى السور فى أوروك المحصنة

وفى معبد اينا المبارك (معبد آنو وايشتار)

بنى الهيكل الطاهر

ألا فلتنظر إلى سورها الخارجى بإفريزه الذى يشبه النحاس

وتطلع إلى السور الداخلى الذى لا تجد له مثيلا

ولتتأمل المدخل ذلك الأثر العتيق

واصعد ثم سر على أسوار أوروك

وتمعن فى شرفة القاعدة ، وتفرس فى البناء

أليس مشيداً من الآجر ؟

ألم يتول الحكماء السبعة وضع أساسه ؟ »

بيد أنه كان للسور دور آخر إلى جانب ما كان يؤديه من مهام حربية فى الدفاع والسيطرة ، ومن مهام دينية فى التوحيد والحماية ، ذلك أنه فرق تفرقة حاسمة واضحة بين المدينة والريف ، فالأشجار والحدائق والحقول وحظائر المواشى كان من الممكن أن توجد فى داخل المدينة ،

ولكن السور بتطويقه المساحة التى تشغلها المبانى ، ضمن وجود إطار دائم من الأراضى الزراعية حولها . ولابد من أنه كان لهذه التفرقة الحاسمة أثر أخاذ من الناحية الجمالية .

وفى هذه الأودية الواسعة فى كل من مصر وبلاد ما بين النهرين ، كثيرا ما كانت المدن تشيد فوق مصاطب لغرض الأمن والدفاع على حد سواء ، ولذلك نجد أن هيرودوت حين يتكلم عن مناظر الطبيعة فى مصر فى وقت الفيضان ، يصف مدنها بأنها تبدو « قريبة الشبه جداً من جزر بحر إيجه » . وكانت المصطبة تبنى من الطين ، وقد يصل ارتفاعها وحدها إلى أربعين قدماً ، وإذا كان لا يبلغ هذا الارتفاع أحيانا إلا قاعدة القلعة فقط ، فإنه فى أحيان أخرى كان ارتفاع قاعدة المدينة بأسرها ، وطبقا لما يقوله فرانكفورت ، كانت مثل هذه القاعدة فى معبد آنو تشغل مساحة تبلغ ٤٢٠٫٠٠٠ قدم . وفوق هذا المرتفع كانت الأسوار تصل إلى ارتفاع قد يبلغ مقداره مائة قدم أخرى ، ومن المحتمل أنها بذلك كانت تحجب عن بعد رؤية كل المبانى الأخرى فيما عدا المعبد الرئيسى . فلم تكن المدينة فى ذات شكلها إلا تأكيداً للمشيئة الجماعية فى السيطرة على البلاد ، وكانت تبدو لعين الناظر من الخارج كأنها هضبة داكنة اللون تطل على بساط أخضر بمبانيها المتلاصقة المبنية باللبن ، وسورها وأبراجها ومعبدها السامق ، ومحوطها وتتقاطع فيها الترع وخنادق الرى ، وقد زين المنظر كله أشجار النخيل المتناثرة وأشجار اللبخ التى تبدو أزهارها كالزغب وأشجار الأثل المزهرة . وإذا كان السور يقف شامخاً ، والأبواب تخفض هاماتها فى تجهم ، فإن منظر الطبيعة خارجها كان يبدو باسماً . على حين أنه فى داخلها كان طنين الخلية الدائبة العمل ، وتكدس وجوه نشاطها ، وتدفقها بالحيوية ، تتباين مع سمات وجوه النشاط فى القرية ، وكانت طفيفة متناثرة حتى لا تكاد ترى .

وكان لا يضارع النظام الخارجى للقلعة ومدينتها إلا النظام الداخلى للقصر والمعبد ، وكانا يقعان أحياناً عند جانب من جوانب الأسوار ، وأحياناً فى وسطها تماماً . وكان هذان المركزان المقدسان يشعان السيطرة والنفوذ نحو الخارج ، ولقاء ذلك كانت كل ألوان الجزية من الذهب والفضة والنحاس والقصدير واللازورد والطعام والعمل اليومى والحياة ذاتها تتدفق على هذين المركزين بعينهما . وإذا كانت المنازل مزدحمة وتكاد تختنق لفرط ضيقها فى بعض الأحيان ، فإن الحرم المقدس كان فسيحاً وله أفنية داخلية مستطيلة كانت تتسع لاحتشاد جمع كبير فيها . وهنا تدخل الفن ليدعم ويقوى — بما تجاوز أثره أثر الألفاظ وحدها — كل ما استحدثه النظام الجديد لتغيير مقاييس النظام السابق — وكان نظاماً زراعياً بحتاً — وفوق كل شىء ما للخيال من قدرة على تحويل الممكن إلى حقيقة واقعة ، والسمو بما فى الحياة اليومية من عادات وضيعة إلى أنظمة جليلة الشأن .

وإذا كان من الممكن التعرف على القرى بأساسات المنازل وحطام الفخار ، فإن المدينة القديمة يمكن التعرف عليها تعرفاً لا يتطرق الشك إليه بما تزخر به من التماثيل التذكارية ، فألوان الفن الحضرى أكثر دلالة على التحول الكامل الذى حدث من أى إحصاء للمنازل أو اتساع للمساحة . وقد بين لهم وليام جيمس فى مؤلفه النفيس « مبادئ علم النفس » كيف أن منزل الرجل وممتلكاته تصبح جزءاً من شخصيته الكاملة ، شأنها شأن معرفته وعواطفه وآرائه وأفعاله . وإذا صدق هذا عن الفرد فإنه بالأحرى أكثر صدقاً عن المجتمع ، إذ أن المنشآت الجميلة الحديثة كانت الوسيلة التى توسلت بها المدينة لتحدد معالم الشخصية الجماعية الجديدة التى انبثقت ولتتطلع إلى محياها بزهو شديد . وإذا كان الملك أو الحاكم أسمى وأمنع من أن يستطاع الوصول إليه إلا عند أقصى الحاجة ، فإنه مع ذلك كان

فى وسع أحقر فرد من السكان أن يوحد بين نفسه وشخصية المدينة فى كل قوتها وبهائها .

ولما كانت شئون الزراعة تقيد القرويين وتربطهم بواجباتهم اليومية ، فإنه قد سرى فى دمائهم التعود على كل ما كان مألوفا ، وراضوا أنفسهم على حقارة شأنهم وقلة حيلتهم ، وأما فى المدينة فإنه كان فى وسع حتى أحقر الناس أن يأخذ عن طريق الإنابة بنصيب من العظمة يدعيه لنفسه ، وبفضل الوسائل الجديدة التى كانت تحت إمرة البلدية ، توافرت للجميع أوقات فراغ حافلة بالمهرجانات وفرص للترفيه عن أنفسهم . ولتأييد ذلك أعود فأستشهد بالنص الأكادى القديم الذى يقول : « تعال إذن أيا انكيدو إلى أوروك ذات الأسوار ، حيث يتألق الناس فى ثياب الأعياد ، وحيث يجعلون كل يوم عيداً » .

ولعل هذه العبارات تنطوى على مبالغة تشبه ما قد تلقاه اليوم فى نشرة سياحية ، بيد أنها فى قرارها تكشف عن إحساس بالرونق والمتعة اللذين تعبر عنهما الموسيقى والغناء والثياب ، وكذلك العمائر التى بدأ الناس يقرنونها بالمدن . ولولا هذه المزايا لتعذر على الناس احتمال ما كانوا يلقونه فى واقع الحياة من ضنى وإرهاق .

ولنتأمل ما كان للمدينة من جاذبية سحرية ، فقد كان الناس يفدون إلى ذلك المكان المقدس ليكونوا فى رعاية إله قادر ، وملك يكاد يعادله فى قدرته ، وقد أخذت تبدو فى شخصه بالذات خصائص جديدة — القدرة على القيادة والفهم ، والقدرة على اتخاذ القرارات ، وحرية الإرادة — وكان من الممكن أن يتعارض ذلك مع أساليب القبيلة التى كانت موضع الإجلال . وحتى هذه اللحظة كانت الجماعة المحلية هى التى تصوغ خلق الإنسان ، ولم تكن له صفة أو شخصية مستقلة . بيد أنه فى المدينة ، فى

كنف النظام الملكى ، انبثقت الشخصية ذاتها لأول مرة واتسمت بتوجيه نفسها ، وحكم نفسها ، وتركيز اهتمامها فى نفسها ، ومطالبتها لفرد واحد (الملك) وقد ارتفع شأنه بوصفه الممثل المقدس للجماعة الكبرى — بكل ما كان فى الماضى من حق هذه الجماعة التى تضاءل شأنها الآن .

ولإدراك أهمية هذا التغيير نستطيع لحسن الحظ الرجوع إلى ما يقوله الفيلسوف الصينى منشيوس (Mencius) : « عند ما يقهر الناس على الخضوع بالقوة ، لا تخضع عقولهم ، وإنما يكون خضوعهم بسبب عجز قواهم . أما عند ما تقهرهم بقوة الشخصية على الخضوع ، فإن سرورهم يتغلغل إلى قرارة نفوسهم ويمتثلون للخضوع فعلا » . ولقد كانت « قوة الشخصية » هى ما وفرته المدينة وآلهتها ، فكانت المصدر الأساسى لكل الأعمال العظيمة التى استطاعت الملكية ذاتها أن تحققها . ولقد انقضت بضعة آلاف من السنين قبل أن يتسنى للمدينة أن تنقل هذه القوة الشخصية إلى بقية سكانها .

ولو أن المدينة القديمة حرمت مثل هذه القوى المقدسة لما كانت إلا كوما من الآجر أو الأحجار بلا شكل ولا غرض ولا معنى : إذ أنه بدون مثل هذا التضخيم العظيم كان فى وسع الرجل العادى أن يستمتع فى القرية بحياة مماثلة ، بل بحياة أفضل منها كثيراً . بيد أنه عند ما أضفت المعتقدات على حياة الناس من القداسة ما جعلهم صورة للآلهة ، غدت المدينة القديمة ذاتها وبقيت طويلا فى العصور الرومانية صورة للجنة ، بل إن ما كان يبدو عليها من صفة الدوام وخلو مبانيها المقدسة من علائم البلى والتصدع التى كانت تصيب كوخ الفلاح الضيق ، لم يكن من شأنه إلا أنه جعلها أقرب شبها بالنموذج الخالد الذى اكتسب جاذبية كبيرة بفضل تزايد شعور الإنسان بالكون الذى من حوله . ولهذا فإن طيبة ، التى كانت

مركز عبادة إله الشمس : أصبحت فى الأساطير الدينية الموطن الأصلى للخليقة ذاتها .

وفى المدن الباكرة عبر الفن عن وجوه حياة الإنسان ونشاطه على نطاق لم يكن ليتسنى الوصول إليه من قبل ، فأصبح عندئذ فى استطاعة كل جيل أن يخلف وراءه تراثا من المنشآت والأشكال والصور المثالية — كالهياكل والمعابد والقصور والتماثيل والصور والنقوش والعبارات التى حفرت وطليت بالألوان على الجدران والأعمدة — مما كان يحقق أقدم رغبات الإنسان فى الخلود عن طريق بقائه ماثلا فى أذهان الأجيال التالية . وحتى عند ما كانت نذر الفناء تهدد المدينة كانت الكبرياء والطموح يقيان عالقين بأحجارها ، إذ أن الفن قد سبق الكتابة فى حفظ ما كان مصيره الزوال لولا الإبقاء عليه فى هيئة رموز « خالدة » . وفى الرواية البابلية لملحمة جيلجاميش نجد أن البطل ، وإن كان يعترف بأن لأجل الإنسان وأعماله مدى محدودا يتبعه كظله ، ويعلم أنه ليس فى وسع مجرد كائن بشرى أن « يصعد أسباب السماء بسلم » إلا أنه مع ذلك يعلل نفسه بالفكرة التى كان يتعزى بها الرجل الحضرى الجديد فهو يقول : « إذا قدر لى أن أسقط فإنى قد كونت لنفسى اسما : ولسوف يقولون جيلجاميش . . . قد سقط ، وذلك بعد أن تكون ذريتى قد ولدت فى بيتى منذ زمن طويل » . « فذيوع الصيت » كان يستحث ساكن المدينـــة على القيام بأعمال تبقى ذكراها خالدة بعد انقضاء حياته .

ولقد انتشرت فى أرجاء المدينة النماذج الهائلة لما كان العقل الباطن يتخيله عن ملوك فى سمات الآلهة : وثيران ذات أجنحة ، ورجال برءوس صقور . ونساء فى شكل الأسود . وكلها فى أحجام بالغة الضخامة صنعت من الطين والحجر والنحاس والذهب . ولم يكن المسرح وحده هو المكان الذى يستشعر فيه النظارة أن الممثلين أكبر حجما مما هم فى واقع الحياة ،

فقد كان هذا الوهم من الخصائص التى تميزت المدينة بإحداثها ، إذ أن المركز الحضرى لم يكن فى واقع الأمر إلا مسرحا . وبعد التجارب التى أثبت بها أدلبرت ايمز Adelbert Ames مدى ما للقيم والأغراض الذاتية من تأثير فى تحويل اتجاه المشاعر التى تبدو ظاهريا بدون اتجاه معين ، لا يكاد يوجد مجال للشك فى أنه فى وسط ما طرأ من التضخم العام على وجوه نشاط الإنسان فى الألف العام الرابعة قبل الميلاد كان الملك ، شبيه الآلهة ، أو الكاهن الأكبر ، يبدو فعلا فى « واقع الحياة » بنفس الحجم الذى يبدو به فى الصورة التى تمثله ، سواء أكانت مرسومة أم منحوتة — على الأقل عندما كان يقوم بأداء تلك الطقوس المقدسة التى دعمت كل سلطاته . والعزلة التى عنى ديوكيس بتوفيرها لنفسه ، عندما ارتفع من رتبة عضو فى مجلس قرية إلى مرتبة الملك ، تعين على بلوغ هذا التضخم ، إذ أن البعد النفسانى الذى تزداد ثقته اتساعا بتأثير الرهبة والإجلال والخوف من شأنه أن يضخم الشخص الوحيد الذى تتركز الأنظار عليه ، وأن يسبب تضاؤلا وطمساً لمعالم جموع النازلين بالمدينة البعيدين عن محط الأنظار ، مثلهم مثل الأشياء الخارجة عن نطاق عدسة مبكرة .

بيد أن الممثل يحتاج إلى نظارة لتقوية ذاتيته وإسباغ الأهمية على الدور الذى يقوم به ، فأين هو الممثل الذى يستطيع إجادة التمثيل فى دار خاوية ؟ فلكى يقوم الملوك حقيقة بممارسة القوى التى كانوا يدعونها لأنفسهم ، كانوا فى حاجة إلى الاهتمام الدائم والتصفيق المستمر من جانب نظارة وفيرى العدد من أبناء المدينة ، وهكذا فإن من كانوا قديما يشتركون فى طقوس القرية ويقومون فيها بدور إيجابى ، سرعان ما أصبح دورهم سلبيا فى الدراما الحضرية الجديدة مثل جوقة المنشدين والنظارة والملقين . وفيما مضى ، كان لهؤلاء المتفرجين نصيب كامل فى كل ما يجرى فى القرية القديمة ، فكانوا يستطيعون أداء كل الأدوار بنجاح ، تارة ممثلين وتارة متفرجين :

وأما الآن فى المدينة ، فقد تضاءل شأنهم ، وأصبحوا أعدادا زائدة على الحاجة . وبإقامة الآثار الضخمة ، أدى الفن الحضرى رسالة لعله لم يكن أقل جوانبها شأناً إنزال الرجل العادى إلى هذا الوضع الذليل ، مما جعله أسلس قياداً ما دام الوهم مسيطراً عليه .

٤ - النهر والطريق العام والسوق

وإذا كان لكل مهام القلعة أثر قوى فعال فى تركيز وتوسيع نطاق السلطتين الدينية والسياسية ، فلعل القلعة قد قامت بدور يماثل ذلك فى الحياة الاقتصادية للمدينة . وإذا كان لم يوجد فى البداية متسع من الأرض الفضاء يمكن تسميته سوقا ، فلعل ذلك لأن هذا المتسع كان جزءا من حرم المعبد ، ولم يجد لنفسه مجالا إلا فى عهد تال فى الأحياء الشعبية بالمدينة . والسوق من هذه الناحية يشبه تلك المكاتب الحكومية التى يحتمل أنه خصص لها مكان معين فى العصر القديم حالما بدأ تكوينها ، إذ أنه من المحقق أن ما نسميه الآن قصرا كان أيضاً ثكنة وسجناً ومحكمة ومركزاً للإدارة .

وبين العناصر التى كانت المدينة تتألف منها ، عنصر دينامى تركته إلى النهاية ، ولولا هذا العنصر لما كان يتسنى للمدينة الاستمرار فى الاتساع من حيث الحجم والمجال والإنتاج ، وأعنى به أول وسيلة فعالة للنقل على نطاق واسع ، أى الطريق المائى . فإنه لم يكن من قبيل المصادفة أن المدن نشأت أول ما نشأت فى أودية الأنهار ، كما أن تقدم المدينة كان معاصرا لما دخل على الملاحة من تطور بالانتقال من طوف عائم يتألف من السمار أو الكتل الخشبية إلى السفينة التى تسيرها المجاذيف والأشرعة . وبعد ذلك قام الحمار والحصان والجمل والعربة ذات العجلات ، وأخيراً الطريق الممهد ، بتوسيع مدى الانتقالات وتهيئة السبيل أمام المدينة للسيطرة على أهل الجهات النائية ومواردها . وبفضل النقل أصبح من الميسور تصريف ما فى بعض

المحصولات من زيادة وسد ما فى بعضها الآخر من عجز ؛ والحصول على القاصى من المنتجات الخاصة ، وكان ذلك وظيفة منشأة حضرية جديدة وهى السوق ، وكانت فى ذاتها إلى حد كبير ثمرة لما نعمت به الحياة الحضرية من ضروب الطمأنينة والانتظام . وفى المدن التى تمدنا بأقدم السجلات نجد أن المعبد كان يؤدى وظائف السوق — التدبير والتخزين والتوزيع — لكن من المحتمل — كما هو الحال فى روسيا السوفيتية اليوم — أنه بعد سد الحاجة الجماعية ، كان الفلاح نفسه يستهلك أو يستبدل جانباً من محصوله .

وقد كانت السوق تماثل غيرها من العناصر الأصلية التى تكونت منها المدينة من حيث إنه كان من الممكن أن توجد كوحدة منفصلة دون أن يترتب على ذلك أكثر من توفير حظائر مؤقتة ، وما زال قدر من هذه الصفة الزائلة باقياً فى الأسواق الأسبوعية بالمدن الأوروبية ، حتى الكبيرة منها ، حيث تحتشد قوافل سيارات البائعين وحوانيتهم المؤقتة . فإن ما يكسب السوق مقراً دائماً فى المدينة عاملان : أحدهما هو توافر عدد من السكان يكفى لتأمين طيب العيش لتجار لهم اتصالات بجهات نائية ولديهم سلع غالية الثمن . والعامل الآخر هو وجود إنتاج محلى كاف يسمح بأن يعرض للبيع بين الناس ما يفيض عن حاجة صناع المدينة ، ولكن هذه الأحوال لم تكن سبباً أصلياً فى نمو السكان وإنما نتيجة له .

وعلى مر الزمن كان التوسع فى نطاق نظام المواصلات أكثر أهمية مما صحبه من التوسع فى نطاق توزيع السلع فى السوق . ويبدو أن الكتابة كانت أول الأمر نتيجة فرعية للمعاملات التى كانت تتم فى السوق ، فأعظم المبتكرات بعد الرموز اللغوية والعددية ، وهو ابتكار الحروف الهجائية ؛ قد قام به تجار فينيقيون . ولقد صحب التجارة اختلاط بين الناس على نطاق لم يعرف مطلقاً من قبل . وكانت الصفة المميزة لسومر أنها « متعددة

اللغات » ، وكان من جراء انتشار اللغات المحلية واقتباسها أن اكتسبت المدينة وضعها الخاص بوصفها مركزاً للإعلام ، ومقراً لأدب مشترك لم يكن هناك مناص من أن تشارك فيه أخيراً مراكز أخرى .

ولما كان النقل هو أعظم عناصر المدينة « دينامية » فيما عدا الحرب ، فقد كان يتهدد نمو المدينة ، بل وجودها نفسه ، انعدام النقل ، أو السهولة التي كان يتسنى بها لإحدى الجماعات تعطيله على طريق مائي برفض السماح للسفن بالمرور . وهذا يفسر ولا شك ما كانت المدن القوية تبديه من الميل إلى توسيع نطاق حدودها ، وتدمير المدن التي كانت من الممكن أن تقف حائلا في وجه طرقها التجارية ، فقد كان من المهم تأمين « خطوط الحياة ». وفي هذا تفسير جزئي للطريق السياسي الذي سلكه المركز الحضري حتى صار إمبراطورية .

وفي أحد النصوص التي قام بترجمتها س . ن . كرامر نجد إشارة إلى « شارع السوق في أور » ، وأن القتال الذي دار بين انكيدو وجيلجاميش وقع في « سوق البلاد » . والاصطلاح الرمزي للسوق في اللغة السومرية ، وهو ما يشبه حرف « Y » قد يدل على أن الفكرة القائلة بأن السوق هي ملتقى لطرق النقل ، كانت معروفة من قبل . ولا مجال للشك في أن ظهور السوق لممارسة المقايضات المحلية قد سبق بزمن طويل ظهور أي لون من « اقتصاديات السوق » المبنية على المعاملات التي تهدف إلى كسب المال وتكوين رأس المال الخاص . وإذا ما أمكننا الاطمئنان إلى أن هذه الإشارات إلى السوق تدل على استعمال أوسع نطاقاً ، فمن المحتمل أنه بحلول سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد على أقصى تقدير ، كانت السوق قد اتخذت مظهرها الحضري في كلا الشكلين المعروفين عنها وأحدهما الساحة المكشوفة التي تنتشر العرائش في أرجائها ، والآخر الطريق المسقوف الذي تصطف الحوانيت على جانبيه . ولكن لعله كان قد سبق هذين الشكلين شكل أقدم عهداً من ذلك كان يتكون

من سوق جامعة فى داخل حرم المعبد . وفى هذه الحالة كانت السوق تحت إمرة الإله وكهنته ، وليس جماعة همها جمع المال ، ويحتمل أن كل ألوان السلع من زراعية وصناعية كان يؤتى بها إلى هذه السوق لأداء الضرائب المباشرة المفروضة عليها قبل إعادة توزيعها .

وفى المراحل الأولى لتطور المدينة القديمة يبدو أننا فى الواقع نواجه نظاماً اقتصادياً موجها يحتكر جميع موارد الدولة ويتركز فى المعبد ، فلا نرى فقط أن الإله وحده كان يملك الأراضى المجاورة ويفرض العمل على كل فرد ، فقد كان يتعين تخصيص جزء من السنة للعمل الإجبارى فى خدمة المجتمع ، بل نرى فضلا عن ذلك ، أن حرم المعبد ذاته لم يكن منطقة دينية بحتا ، فقد كان يقوم أيضاً بدور « مركز للحرف » حيث كانت السلع تصنع ، وكذلك بدور « مركز تجارى » حيث كانت السلع تخزن وتوزع .

ويحدثنا فرانكفورت بأن المخازن كانت تحتوى على « مجموعة هائلة من الأصناف المتنوعة : سمسم — وكان المادة الأولية لاستخراج الزيت — وحبوب ، وبقول ، وبلح ، ونبيذ ، وسمك (مجففا أو مملحا) ودهن ، وصوف ، وجلود ، وكميات ضخمة من الغاب والسمار ، وحصير ، وأسفلت ، وحجارة » . وكانت عمليات نزع الصوف ، وطحن الحبوب ، والدباغة ، والغزل ، والنسيج ، تتم كلها فى داخل حرم المعبد . وإنما عندما ازداد عدد السكان فى المدن ، كما ازداد تعقد العمليات الاقتصادية ، سمح لأفراد لم تكن لهم أى صفة دينية بممارسة جانب من هذه العمليات الاقتصادية فى أحياء أخرى من المدينة .

وحتى فى أبسط أشكال النظم الاقتصادية لابد من أنه توجد طريقة لتوزيع الفائض عن الحاجة واستبدال المنتجات الخاصة التى يكون الطلب عليها محدوداً ، وذلك إما بالمقايضة ، وإما بإهدائها ، أو بإقامة حفلات . وكان المستهلكون المبكرون من سكان المدن لا يعتمدون على منتجات الفلاح فحسب ،

بل على ثمرات جهود المشتغلين بصيد السمك ، وتربية الطيور ، وصنع الفخار ، والنسيج ، والحدادة . وفى الحقيقة أن هذا الانقطاع الكلى إلى مباشرة عمل واحد كان من السمات المميزة للنظام الاقتصادى الجديد فى المدينة — حتى وإن أبقى على نظام أقدم منه فى قرى قاصية أو ضياع ريفية .

ولقد أوضح بيترى أن العواصم الباكرة لمديريات الوجه البحرى والمدن الباكرة فى بلاد ما بين النهرين كانت تبعد إحداهما عن الأخرى فى المتوسط بمقدار عشرين ميلا تقريباً ، وبأقل من ذلك أحياناً . وإنه لعلى صواب فيما يراه من أنه يمكن تفسير هذا الانتظام بأنه يرجع إلى الحاجة إلى مركز رئيسى لتخزين الحبوب بحيث يتسنى الوصول إليه بسهولة . وما دام التجار يدفعون باستمرار ثمن مشترياتهم حبوبا فلابد من أن يكون التخزين والائتمان قد أديا إلى مضاعفة عدد مراكز الأسواق التى كانت تستظل برعاية إله رفيع القدر من الآلهة المحلية . ومن الجائز أن التقارب ذاته بين هذه المدن الباكرة يدل على أنه فى وقت إنشائها كانت تسود حالة من الأمن والسلام لا نتبينها ، مما يجل عن النزاع والحروب التى وقعت فى العصور التالية .

٥ — مبتكرات ونقائص تقنية :

وبرغم أن الحجم المألوف للمدينة الباكرة كان متواضعا ، كما أن منطقة نفوذها كانت مقصورة إلى حد كبير على الإقليم المجاور لها ، فإن حجم القلعة والمبانى الرئيسية فى المدينة كان يميل إلى الضخامة ، فما من تضحية كانت تعز فى سبيل دعم مكانتها وقوتها أو لتأمين دوامها . ومع ذلك فإنه لمن الغريب حقاً أن بعض المدن الأقدم عهداً تتكشف فى أحيائها السكنية عن ملامح مادية اختفت فى المراحل التالية لتطور المدينة وإن ظل الحكام محتفظين بها : فالتخطيط المنتظم للشوارع ، وصفوف المنازل ، والحمامات ، والمراحيض الداخلية ، وأنابيب الفخار ، وقنوات المجارى المبطنة بالطوب ، وبرابخ

تصريف مياه الأمطار – كل ذلك يعثر عليه من يقوم بالحفر فى أطلال موهنجودارو ، كما يجدها أيضاً مع فوارق بسيطة ، سواء فى أور المترامية الأطراف ، أم فى لاجاش الصغيرة .

ولقد ظهر الشارع العريض قبل ابتكار العربات ذات العجلات ، إذ يحتمل أنه أعد أولا لسير المواكب المقدسة وطوابير الجنود . ولعل كثرة ما يشاهد من تخطيط الطرق الرئيسية فى اتجاهات البوصلة يدل على تزايد سيطرة آلهة السماء ، وقد كان هذا التخطيط يستخف أحيانا باعتبارات عملية ، مثل تخفيف وطأة الحر واستقبال هبوب الرياح السائدة . لكن الكثير من هذه التحسينات اختفى عن الأنظار إبان ما طرأ على المدن من التطور فيما بعد ، وظلت إلى عهد قريب لا وجود لها فى كثير من المدن الكبرى « التقدمية » فى العالم الغربى – وإنى أشير بنوع خاص إلى الحمامات والمراحيض الداخلية وأنابيب الفخار – حتى أوائل القرن التاسع عشر . وحسبنا هذا دليلا على بطلان نظرية التقدم المادى المتواصل .

وكما يتبين من الحقائق فى أور ، كان الشارع نادر الوجود فى أقدم المدن ، وذلك بوصفه طريقاً واسعاً واضح المعالم يسمح بالمرور ، فقد كان الطريق المألوف للمرور هو الزقاق الضيق المتعرج الذى يغمره الظل فيقيه حرارة الشمس ، وبذلك كان أكثر ملاءمة للطقس من الطريق الواسع . ويجب ألا نخلط بين ما يترجمه أحياناً بعض الباحثين فى تاريخ « سومر » بعبارة شارع عريض (بوليفار) وبين الشارع العريض الذى أنشئ فيما بعد فى القرن السابع عشر ، فقد كان على الأصح طريقاً عريضاً يكفى اتساعه لمرور جمهرة من الناس حيث كان يتسنى للمرء أن يجول ذات مساء ليشاهد الرقص ، أو ليستمع إلى الموسيقى ، أو ليلتقى بسواه ليتجاذب أطراف الحديث ، كما يؤخذ من وثيقة قديمة ، وبالجملة كان يؤدى وظيفة الشارع الرئيسى المعروف (Main Street) .

ولقد ظل الافتقار إلى الإنارة الصناعية الكافية من أكبر النقائص التمنية فى المدينة إلى القرن التاسع عشر ، وعلى كل حال فإنه لم يواف عام ٢٠٠٠ ق . م . حتى كان معظم الأجهزة المادية الكبرى فى المدينة قد تم إنشاؤها . وإذا كان يتعذر على أبناء القرن التاسع عشر أن يشعروا بالألفة نحو المعتقدات الأسطورية المضطربة ، والفحش الجنسى السافر ، أو الطقوس الدموية الخاصة بتقديم القرابين طبقاً للعقائد الحضرية السائدة ، فإنهم قلما كانوا يجدون فى التكوين المادى للمدينة جزءاً غير مألوف لديهم . وأما أولئك الذين يدركون منا إدراكاً كافياً ما اعترض العصر الحاضر من انحلال المجتمع وانحرافه عن التفكير السليم ، فإنهم يشعرون بالراحة — أو على الأصح بعدم الراحة — فى كلتا الحالتين .

وكما أوضح ليونارد وولى لا بد من أن المظهر العام للمدن القديمة فى بلاد ما بين النهرين كان شبيهاً جداً بمظهر مدينة ذات أسوار فى شمال أفريقيا اليوم ، فقد كانت توجد ذات الشبكة من الطرقات الضيقة ، أو بالأحرى الأزقة التى ربما لم يزد عرضها على ثمانى أقدام ، ونفس المنازل ذات الطابق الواحـد أو الطابقين أو الطوابق الثلاثة ، وذات الأسطح التى يمكن استخدامها ، وذات الأفنية الداخلية ، وأخيراً المعبد المدرج السامق الذى كان يشرف عليها جميعاً ، مثل ما تشرف مئذنة المسجد على المدينة الإسلامية . وفيما وراء حرم المعبد ، وكان فسيحاً محوطاً بالأسوار ، كانت تمتد سلسلة من مناطق الجوار التى كانت تتفاوت فى تلاصقها وتوجد فيها هياكل ومعابد أصغر حجماً ليستخدمها أصحاب البيوت فى العبادة . ويبدو أن كل مواطن من المواطنين القدماء فى بلاد ما بين النهرين كان ينتمى إلى معبد معين ، وإله هذا المعبد ، ويقوم على خدمته . فكان أساس « المواطنة » يكمن فى هذه الرابطة الدينية الخاصة . ويشير فرانكفورت إلى أن المجتمع الخاص بمعبد ما — وكان يتخذ شكل « وحدة جوار » — كان يتألف من الكهنة والموظفين والبستانيين والصناع وقاطعى الأحجار والتجار حتى العبيد — فقد كانوا جميعاً

شعب الإله . ولقد ظل السكان مدة طويلة — رعايا أو موالى — مرتبطين بسيدهم الديني وليسوا مواطنين ، وكانوا يتلقون الأوامر ، ولعلهم كانوا لايجرؤون على إصدارها ولو على النحو الذى قد يتبعه مجلس القرية فى إصدار الأوامر لأعضائه . وقد ورد ذكر أربعة وثلاثين معبداً وهيكلا فى وصف مدينة «آشور» الذى يرجع إلى حوالى ٧٠٠ ق . م . ، أى حينما لم تعد آشور مدينة ملكية . وتتكشف كل سمات المدينة الباكرة عن الاعتقاد بأن الإنسان لم يخلق إلا لغرض واحد وهو تعظيم آلهته وخدمتها ، فتلك كانت الغاية القصوى من وجود المدينة .

وعلى الرغم من أن المقارنة التى عقدها «وولى» بين المدن القديمة والمدن الحديثة فى الشرق الأدنى قد تكون عادلة ، إلا أنه اتخذ أساساً لها المدينة القديمة فى عهد متأخر ، حينما كان قد حل بها ما حل بمدننا فى أواخر العصور الوسطى، من زوال ما كان يوجد بها عند نشأتها من مساحات فضاء ، لاشتداد الازدحام وازدياد المبانى وعدم الاكتراث بتراكم الأنقاض . ومع ذلك فإننا نعرف أنه كانت توجد حقول فى داخل أسوار بابل حتى فى مرحلة متقدمة من مراحل نموها . وكان قسم كبير من أهل المدن القديمة يعملون فى الحقول والبساتين الواقعة خارجها ، كما لا يزالون يفعلون إلى الآن فى كثير من المدن اليونانية والإيطالية . ولعله قد احتفظ لمدة طويلة فى داخل الأسوار بأرض زراعية «مخصصة للبساتين» ، نظراً إلى أن البساتين والمواشى كانت تضمن دفع غائلة القحط إبان حصار طويل الأمد .

بيد أنه فى عهد مبكر ، كانت الأساليب الريفية المتراخية للتخلص من القمامة وفضلات الناس تشكل خطراً على الأحياء الحضرية المزدحمة دون أن يؤدى ذلك فيما يظهر إلى بذل ما يكفى من المجهود لتحسين وسائل النظافة العامة وتدابير المحافظة على الصحة العامة فى المدينة ، وكان الشأن عندئذ كما هو اليوم فى أفريقيا ، إذ يقول وولى : كانت كناسة أرض المنازل ومحتويات

صناديق القمامة يلقى بها فى الشارع ببساطة « وانتظام » ، ولذلك فإنه فى تلك المدن القديمة كان مستوى أرض الشوارع يرتفع تدريجياً ، وكانت المنازل الجديدة تقام فوق المستوى المرتفع للشارع ، على حين أن مداخل المنازل القديمة كانت تهبط دونه .

ولقد ظل سكان المدينة عدة آلاف من السنين يتحملون فى صبر وسائل معيبة للنظافة العامة ، كثيراً ما كانت شديدة الانحطاط ، مما جعلهم يتمرغون فى القمامة والأقذار التى لم يكن هناك شك فى قدرتهم على إزالتها ، إذ أن الاضطلاع بعبء إزالتها بين حين وآخر لا يمكن أن تعافه النفوس أكثر من السير والتنفس باستمرار وسط مثل هذه القاذورات . وإذا حصلنا على أى تفسير شاف لعدم المبالاة على هذا النحو بالقذارة والرائحة ، وهو الأمر الكريه لدى كثير من الحيوانات ، حتى الخنازير ، فهى تعنى بالاحتفاظ بنظافتها ونظافة أوكارها ، فإننا قد نجد أيضاً ما يهدينا إلى السر فى أن التقدم التقنى ذاته سار بهذا البطء وعدم الانتظام خلال خمسة الآلاف عام التى أعقبت مولد المدينة .

على أن هناك وجهاً آخر لهذه الصورة يكشف عنه ما ورد فى الإنجيل من وصف مدن اللاويين (Levites) فى فلسطين ، ونجده أيضاً فى فقرة أقدم عهداً من ذلك وردت فى القصيدة التى سبق لى الاستشهاد بها . وذلك أنه كان يوجد فى محيط المدينة قدر من الطلاقة والجمال الطبيعى أكبر مما تشجعنا المخلفات المتربة على الاشتباه فى وجوده . ومهما كانت الوحدة التى كانت كلمة « سار » Sar تدل عليها فى أوروك ، فإنه طبقاً لما يقوله جيلجاميش « كانت إحدى الوحدات المسماة « سار » مدينة ، وكانت « سار » ثانية بساتين فاكهة ، وكانت « سار » ثالثة « أرضا فى مشارف المدينة » وفضلا عن ذلك كان يوجد حرم معبد « إيشتار » . فكانت أوروك تتألف من ثلاث وحدات « سار » ومن الحرم المقدس ، وعلى ذلك فإن نصف المدينة كان مخصصاً

لمساحات طلقة مكشوفة . وأما ما يدعوه مترجم النص بأرض فى مشارف المدينة ، فلعله كان فى الواقع ضاحية ذات دور منفصلة عن بعضها البعض وحدائق ، أو من المحتمل أنه كان حزاماً أخضر يتألف من مزارع الخضر والبقول . ولا جدال فى أن المساحة الكبيرة من الأرض المزروعة توحى بسهولة التمتع بالهواء الطلق وضوء الشمس المفيد للصحة ومنظر النمو والترعرع . وما دام عدد سكان المدينة أقل من ثلاثين ألفاً ، فإن الوصول سيرا على الأقدام من وسط المدينة إلى النطاق المزروع الذى يطوقها ، كان أيسر وأسهل مما هو عليه الحال اليوم حتى فى مدينة إنجليزية حديثة — وفيما عدا ما كان يحتاج إليه توسع المدينة نحو الخارج ، فإن ذلك النطاق الأخضر كان أيضاً أقل تعرضاً للاعتداء عليه لتحقيق أغراض لا تتصل بالزراعة .

٦ — لمحات معاصرة من المدينة :

إن الحفائر حتى وإن كانت جزئية ، تمد الآثارى بشواهد كثيرة عن الحياة فى المدن القديمة ، وكذلك عن شكل تلك المدن ، إلا أنه عندما يحاول أن يجمع العظام الجافة معاً ويبث فيها قبساً من الحياة ، يتضح بجلاء أن هذا النموذج الدقيق نموذج مصطنع لا ينبض بالحياة . ولذا فإنه يتعين علينا أن نتجه إلى الفن القديم ، أى إلى الأساطير والفنون المعبرة لكى نستكمل الأشكال المتآكلة التى كشفت عنها معاول المنقبين . ومع ذلك فإننا نجد أنفسنا عندئذ حيال صورة جامدة أو قطاع جانبي لا أثر فى أيهما للحياة بتدفقها وتعدد حركاتها ، بيد أننا نحس هنا أثر اليد النابضة بالحياة التى تحسستهما ، والعين الفاحصة التى تفرست فيهما أصلا .

ولسوف أقتصر على ثلاثة مصادر معاصرة ، وهى الآثار التى كشف عنها لايارد Layard فى نينوى ، وخريطة نيبور Nippur التى ترجع إلى سنة ١٥٠٠ ق . م . وعثر عليها الأستاذ كرامر Kramer بين

مجموعة هيلبرخت (Hilprecht) فى يينا ، والوصف الخالد الذى خلفه هيرودوت عن بابل . والمصدر الأول لا يطلعنا على مبان وأشجار وحدائق فحسب ، بل يرينا أيضاً الناس وهم يعملون ، فنرى جنوداً وهم يهاجمون مدينة من أبراج متحركة ، وهم يسبحون عبر الأنهار مسلحين تسليحاً كاملا ومستعينين بعوامات من مثانات الحيوان ، وهم يقتلون الأسرى ، وهم يتسلقون الأسوار . وإذا لم يكن فى هذا ما يمثل الحياة اليومية المألوفة فى المدينة فإنه يمثل ذلك الشطر الذى له أبلغ الأثر فى أجهزتها جميعاً . وإذا كانت الصور تخلو من أى مظهر للجماهير على نحو ما يتوقع المرء أن يرى فى السوق أو فى حرم المعبد ، فإن معالمهم موجودة ، ونجد أن النقوش الحجرية ، والقراميد المصقولة الملونة ، والأوصاف المدونة : يؤيد بعضها بعضاً .

وأما خريطة نيبور ، فإنها أقرب شبهاً إلى الرسم التخطيطى الذى وضعه الآثاريون ، لأن تلك هى طبيعة تخطيط المدن ، إلا أن ما فى الخريطة من عدم الانتظام يكشف فى ذاته عن مستوى رفيع من المهارة التفنية ، والمقدرة على نقل أشكال غير منتظمة إلى سطح مستو دون مسخها بتحويلها إلى رموز اصطلاحية . فهنا فى « أقدم خريطة عرفها التاريخ » نجد تخطيط مدينة حقيقية فى بلاد ما بين النهرين بأسوارها وأبوابها وقنواتها ومعابدها ، (والإله اينليل « Enlil » نفسه يخاطب فى وثائق أخرى بوصفه جبلا يرمز للوقاية) ، و « هيكلها الشامخ » و « حديقتها الوسطى » وقد سميت على هذا النحو مع أنها لم تكن واقعة فعلا فى وسط المدينة .

وأما القلعة ذاتها فإنه لسوء الحظ لا يمكن التعرف عليها : بيد أن الموقع البارز للحديقة الوسطى يمكن أن يوحى بأن القصر والحصن كانا يقعان هنا — وهما فيما عدا ذلك قد أغفلهما الكاتب الذى وضع الخريطة — ومع ذلك يحتمل أن الحديقة كانت تحيط بالقصر على نحو ما تحيط بقصر

بيتى (Pitti) فى فلورنسا . وأما القناة التى كانت تخترق وسط المدينة ويبلغ اتساعها ثمانين قدماً فإنها كانت تشطر المدينة شطرين متساويين تقريباً ، والشطر الواقع فى الجنوب الشرقى يشير إلى أنه كان يوجد فيه الحرم المقدس « لدار الجبل » ، وكان المعبد الرئيسى . ولا يقتصر هذا المسقط الأفقى للمدينة على بيان توزيع عناصرها الأساسية فحسب — كالقنوات والحدائق العامة والمؤسسات المدنية — بل إنه يدل كذلك على توافر قدر من العلم والكفاية المهنية يتيسر معه التفكير فى مجردات وتصوير ما يمثلها ، وعلى ذلك فإننا حتى إذا كنا لا نعرف شيئاً عن الرياضيات البابلية ، فإنه ينبغى أن نفترض وجودها . وإذا ما أردنا أن نملأ ما فى هذه الصور المبكرة من فراغ ، فسوف يتعين علينا أن نستكملها بوصف مكتوب ، ليس فى هذه المرة من وضع أثرى ، وإنما من قلم شاهد عيان لم ير إلا ما بقى من مدينة بابل بعد سقوطها ، ولعل ذلك كان عقب إعادة بنائها جزئياً للمرة الثالثة :

ومما يزيد من شأن ملاحظات هيرودوت ، أنه فى القرن الذى عاش فيه ، كانت القوة والنفوذ آخذين فى التسرب من المدن الرئيسية فى بلاد ما بين النهرين نحو الشرق إلى إيران ، ونحو الشمال إلى مقدونيا ، ونحو الغرب ، وكذلك نحو الشمال إلى روما . وكانت مدينة بابل آخر المدن العظمى فى هذه المنطقة ، بل لعلها كانت أعظمها جميعاً ، فقد جمعت فى مدنيتها كل العناصر السابقة عليها . ويقول هيرودوت : فيما يلى وصف المكان :

« تقوم المدينة فى سهل متسع ، وهى مربعة الشكل تماماً ؛ ويبلغ طول كل ضلع سواء فى الطول أم العرض خمسة عشر ميلا ، ولذلك يبلغ محيط المدينة كلها ستين ميلا . ولما كان هذا مبلغ حجمها ، فإنه ما من مدينة أخرى تدانيها . وهى محاطة أولا بخندق عريض وعميق مملوء بالماء ،

ويقوم خلفه سور يبلغ عرضه خمسين ذراعاً ملكياً ، وارتفاعه مائتى قدم . وهنا لا يمكننى أن أغفل ذكر الإفادة من الطين المحفور من الخندق العظيم ، ولا الطريقة التى تم بها بناء السور ، فإنه بمثل السرعة التى كان يحفر بها الخندق ، كان الطوب يصنع من الطين الذى يستخرج من الحفر . وعندما يتم صنع عدد كاف من الطوب ، كانوا يحرقونه فى « قماين » ثم يشرعون فى البناء بادئين بدعم حواف الخندق بالطوب . وبعدها يأخذون فى إقامة السور ذاته ، مستخدمين القار الساخن بدلا من الأسمنت ، مع وضع طبقة من الغاب المجدول بين كل طبقة من الطوب ، وقد أنشأوا فى أعلى السور على طول كل من حافتيه الداخلية والخارجية مبنى يتألف من حجرة واحدة تاركين بين المبنيين فراغاً يسمح لمركبة تجرها أربعة خيول بأن تستدير . ويوجد فى محيط السور مائة باب كلها من النحاس ، ولها عتب وقوائم جانبية من النحاس : . . ويشطر المدينة شطرين نهر يشق وسطها . وهذا النهر هو الفرات ، وهو مجرى عريض ، عميق ، سريع الجريان ، ينبع فى أرمينيا ويصب فى البحر الأحمر .

« وللسور على كلا الشاطئين ذراع منحنية تمتد حتى مجرى النهر حيث يمتد من أركان السور على طول الشاطئين سور من الآجر . ومعظم المنازل تتألف من ثلاثة أو أربعة طوابق ، والشوارع كلها تمتد فى خطوط مستقيمة ، وليس ذلك مقصورا على ما كان منها موازياً للنهر ، بل هو أيضاً حال الشوارع التى تتقاطع معها وتؤدى إلى شاطئ النهر . وعند نهاية هذه الشوارع العرضية توجد أبواب منخفضة فى السور الذى يحف بمجرى النهر .

« والسور الخارجى هو الوسيلة الرئيسية للدفاع عن المدينة ؛ ومع ذلك فإنه يوجد سور داخلى أقل سمكا من الأول ؛ ولكنه ليس دونه متانة إلا بقدر ضئيل جدا ، ويشغل وسط كل شطر من شطرى المدينة حصن . ويوجد فى أحد الحصنين قصر الملوك ويحيط به سور عظيم المتانة كبير

الحجم ، وكان يوجد فى الحصن الآخر الحرم المقـــدس لجوبيتر بلوس (Jupiter Belus) ، وكان مربع الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ربع ميل ، وله أبواب من النحاس الصلد ، وكان لا يزال موجودا عندما كنت هناك . وكان يوجد فى وسط الحرم برج من البناء المتين يبلغ امتداده ثمن ميل فى كل من الطول والعرض ، وقد أقيم فوقه برج ثان ، وفوق هذا أقيم برج ثالث وهكذا حتى بلغ عددها ثمانية أبراج — وجملة القول أن هذه الأبراج كونت منصة مدرجة ، وقد ظل هذا الشكل كما هو عشرات القرون دون تغيير جوهرى . « والصعود إلى القمة يتم من الخارج عن طريق ممر يدور حول كل الأبراج . وعندما يبلغ المرء فى صعوده ما يقرب من منتصف المسافة يجد مكاناً للراحة ومقاعد . . . وفوق أعلى الأبراج يوجد معبد فسيح ، وهناك كما ذكر المصريون فى طيبة بالضبط ، كانت توجد فى وقت ما أريكة كبيرة حيث يزعم الناس أن الإله كان يخالط إحدى الكاهنات . وإلى جانب هذه الأريكة كانت توجد منضدة من الذهب » . وطقوس الإخصاب القديمة ، التى كان الملك المؤله ، يضمن بمفعولها السحرى استمرار التوالد فى كل نواحى الطبيعة ، كانت شعائرها لا تزال تقام تحت رعاية الآلهة ، أو على الأقل ظلت تقاليدها ماثلة فى الأذهان .

وعلى الرغم من أن « هيرودوت » لم يكن فى استطاعته أن يرى إلا البقايا المحطمة لهذه المدينة العظيمة ، فإنه كان قريب العهد بها إلى حد أتاح له التقاط آخر نفحة من نسمات حياتها ، وهذا شىء أصبح من المتعذر توافره فى أغنى المخلفات الأثرية . ولسوف يبقى وصفه نفيساً حتى وإن اقتصر على أن يروى لنا كيف أن كتل القار — وهو كبير الفائدة فى مقاومة تسرب الماء — كان يحملها أحد الروافد إلى الفرات ، ومن ثم تطفو حتى تصل إلى بابل ، أو كيف أن التجار الذين يجلبون دنان نبيذ النخيل ، كانوا يستخدمون الطوف التقليدى المستدير — وكان يتكون من حزم من أعواد البوص ،

وضلوع من خشب الصفصاف ، وغطاء من جلود الماشية - لإحضار سلعهم إلى المدينة ، وكيف أنهم بعد ذلك كانوا يبيعون الضلوع - إذ كان الخشب غالى القيمة فى السهل الخالى من الأشجار - ثم يحزمون الجلود فوق ظهر حمار كانوا قد حملوه معهم على الطوف ويعودون برا إلى التلال التى وفدوا منها ، نظرا إلى أن التيار السريع فى الفرات لم يكن ليسمح لهم بتسيير الطوف فى مواجهة التيار .

وفى كل من وصف « هيرودوت » وما يحدثنا به الآثاريون ، يتعذر العثور على فئة بعينها من فئات السكان . فأين هم الأطفال ؟ إننا نعرف أنهم كانوا يقضـــون جزءا من النهار فى المدرسة ، فسجلات أور لا تدل فحسب على وجود المدرسة ، بل إنها أيضا تستعيد ذكرى رشوة ودية صغيرة للمدرس ، بدعوته لتناول الغداء فى المنزل . إلا أن رسالة سومرية عمرها ٣٧٠٠ عام ، تمدنا بصورة أفضل من ذلك عن الشاب الذى أعفاه أبوه الشديد التسامح من العمل فى الحقول ، وحمل السماد ، والحفر ، والحرث ، فإن ذلك الشاب الكسول كان لا يجد أمامه عملا جديدا يشغله بعد الخروج من المدرسة ، ولذلك ، على حد قول أبيه ، كان يجول فى الشارع ويتسكع فى الميدان العام ، فقد كان يبحث عن أسباب المتعة والسرور ، ويتصف بقدر من الوقاحة ، وكان على ما يلوح لا يبالى بالفرص التى تتيحها له المهنة المتوارثة ، إذ لم يكن له ميل لاقتفاء أثر أبيه فى احتراف مهنة الكتابة وإن هذه اللمحة من الحياة الواقعية التى أتاحها لنا مؤلف كتاب « التاريخ يبدأ فى سومر » لتسد فجأة فجوة آلاف السنين التى تفصل بيننا وبين أولئك الذين كانوا يعيشون فى المدن المبكرة ، فإن الدراما الإنسانية التى محورها أب ساخط على ابنه ، لكنه يحبه ، وابن ملول متمرد ، تبدو أقرب ما تكون إلى عصرنا الحاضر .

والمدينة عندما تتكشف أمامنا لأول مرة ، تبدو كأنها بأكملها وقف على البالغين من سكانها ، ولعل الشطر الأكبر من سكانها الأطفال كانوا

يعملون فى الحقول ، وهو ما يمكن أن نستشفه من العبارة السالفة الذكر ، فكان عملهم الزراعى يعفيهم من المدرسة وينقذهم من الانحراف . ولكن أين كان يلعب أبناء عامة الناس فى هذه الشوارع المزدحمة ، والطرقات الضيقة ، والمساكن المنكمشة ؟ ولسوف تمر آلاف السنين قبل أن تتطلب وجوه نشاط الأطفال فى أوقات اللعب مساحات واسعة من الأرض الفضاء فى قلب المدينة ، وفى الساحات المحيطة بالمدرسة ، وفى الملاعب الرياضية القريبة — وذلك أولا فى مدن العصور الوسطى ، ولكن على وجه أخص الآن ، فى المدن البريطانية الجديدة .

٧ — مصر والمدينة غير المحصنة

إن قصة المدينة كما تكشفت فى بلاد ما بين النهرين ، لايمكن إعادة سردها فيا يتعلق بمصر دون أن ندخل عليها الكثير من التعديلات والمفارقات والخصائص . وإن هذه الحقيقة لتدعم حقيقة أعم عن المدن ، وهى أن لها منذ نشأتها ذاتية واضحة السمات حتى ليبلغ من قوتها وانطباعها بطابع معين أن فيها الكثير مما تتصف به الشخصيات البشرية .

وإن المدنية التى بزغ فجرها فى الألف العام الرابعة قبل الميلاد لتسفر فى مصر عن كثير من المظاهر التى أسفرت عنها فى سومر ، بل إن مصر ترينا فى أنظمتها المركزية المستبدة ، وفى الانصراف الشامل إلى العبادة الدينية ، وفى تأليه فرعون الذى انفرد أمدا طويلا بمشاركة الآلهة نعمة الخلود — ترينا أن هذا التجميع وتركيز السلطات وأدواتها قد بلغ فيها مدى أبعد مما بلغه فى بلاد ما بين النهرين .

لقد ظهر على وجه المدنية فى مصر الكثير من الاضطراب والتغير ، إذ كانت هناك وفرة من كبار الآلهة وصغارها ، ومجموعة متنوعة من طواطم القبائل ، فتكون مزيج مما هو خالد ومما هو إلى زوال ، ومما يمثل الحيوان ومما يمثل الإنسان ، كما لو كان كل مظهر من مظاهر الحياة نفيساً ذا قيمة ،

فلا يمكن إنكار أو إضاعة أى جزء منها دبت فيه الحياة فى وقت ما . ولكن هذه كانت بمثابة خدوش وألوان أضفيت على جلمود ضخم من الجرانيت بتغلغل عميقاً فى طمى النيل ، ولم ينل مرور آلاف السنين من أشكاله الرئيسية إلا قليلا ، وذلك لأنه لم يكن لدى المصريين ما يعادل فى قيمته الحياة الثانية بعد الموت ، ولا بد من أن المبكرين منهم كانوا يحلمون على الأقل بالفوز بنصيب من الخلود قبل أن يستجيب الكهنة لثورة شعبية عارمة ويهيئوا لهم إمكان الوصول إلى الجنة ، فقد أصبح تحقيق ذلك يكفل بالتحنيط والتعاويذ السحرية ، وبعد ذلك عاد كل شىء إلى ما كان عليه من قبل تقريباً .

بيد أنه من العبث البحث فى مصر عن مخلفات ظاهرة للمدينة تماثل ما كان يوجد فى سومر فى عام ٢٥٠٠ ق . م . مع أن أهرام مصر قديمة العهد وأكثر رسوخا وثباتا من تلك البقايا . بل لقد قال أحد الباحثين المحدثين — ولعله قال ذلك متحديا — إن المدينة المصرية لم تظهر فى الوجود حتى سنة ١٥٠٠ ق . م . ولا يتضمن هذا التحدى من الدعوة إلى متابعة أعمال الحفر بقدر ما يتضمن من الدعوة إلى وضع تعريف للمدينة يكون أكثر دقة وملاءمة من التعريف الذى قنع به حتى الآن الباحثون فى تاريخ المدينة وفى علم الاجتماع .

حقاً إننا فى مبدأ الأمر لا نجد فى وادى النيل النموذج الأصلى للمدينة الذى عرف فى العصور التاريخية ، أى البلدة ذات الأسوار التى أحكم تطويقها بالحواجز والمتاريس ، وشيدت لتبقى على الدهر . وفى مصر يبدو أن كل شىء ما عدا المدينة ، تهيأ له شكل يستطيع مغالبة الأيام . ولقد احتفظ معبدا الأقصر والكرنك بمعالمهما الشامخة على مدى عصور التاريخ ، ومازالت الأهرامات الكبرى والصغرى تشاهد قائمة إلى اليوم برغم أن الولع بإقامة الأهرامات ازدهر وتلاشى على نحو يكاد يماثل فى سرعته ما حدث

فى حالة الولع بإقامة حصون متقنة البناء على شكل النجمة فى الفترة الأخيرة من عصر النهضة الأوروبية . ولا تعوزنا المنشآت المستقلة التى تدل على التضخم العام فى القوة عند بدء قيام المدنية ، فالمسلات والطرق الفخمة لمرور المواكب وأبهة الأعمدة وأعمال النحت فى الجرانيت والديوريت على أوسع نطاق — فكل هذا يدل على نوع الحياة التى نتوقع أن نجدها فى المدينة . بيد أن المدينة كانت إلى زوال ، فقد كان كل فرعون يبنى عاصمته الخاصة[1] ، ولم تكن له أى رغبة فى مواصلة عمل سلفه أو توسيع مدينته ، إذ كانت حاضرته خاصة به وحده مثل مقبرته سواء بسواء . ولعل ذلك يرجع إلى ذات السبب الأنانى . وحتى فى حالة الإبقاء على الموقع العام ، كحالة طيبة ، كان النمو يتخذ شكل إضافات غير مترابطة فى الضواحى .

على أنه قطعاً إذا كنت على صواب فيما أراه من أن المبتكرات الفنية الضخمة أحد الدلائل الأكيدة على وجود المدينة بأجلى مظاهر الوجود ، فإنه من المحقق أن المدينة كانت موجودة فى مصر منذ عهد بعيد . وفى وسعنا أن نتبين كذلك فى النماذج الخشبية الصغيرة التى عثر عليها فى المقابر كل ما كانت المدينة تستلزمه من منشآت تكميلية مخصصة لأغراض معينة ، كحانوت الجزار والقارب ومبنى التحنيط والمخبز . وبطبيعة الحال كانت توجد قصور ومعابد كبيرة جداً ترجع إلى ما قبل عام ١٥٠٠ ق . م . بزمن طويل . ولا بد من أنه كانت توجد كذلك عندئذ مراكز لمباشرة شئون الحكم ، فإن وظيفة كبير الوزراء ظهرت فى الوجود منذ عهد الأسرة الرابعة ، وكان يتولى مهمة كبير القضاة ورئيس المحفوظات والشئون المالية وعمدة القصر ، أى الحاكم العسكرى للقلعة . وكانت كلها مهام مدنية مركزية .

أما إذا كان لا يمكن الكشف عن المدينة بذات الشكل المعمارى الذى نجدها

---

(١) إذا صح هذا عن بعض الفراعنة ، فإنه لا يمكن اعتباره حكماً عاماً على نحو ما يذهب إليه المؤلف . (المشرف)

عليه فى بلاد ما بين النهرين قبل عصر تل العمارنة المتأخر نسبياً (أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد) فقد يكون هذا لأن المدينة ذات الأسوار كانت طرازاً عتيقاً فى مصر اختفت مظاهره الحربية عند ما نشر الفراعنة العظام لواء النظام فى كل أرجاء دولتهم ، وأقاموا فيها سلطاناً موحداً يرتكز أساساً على الاعتقاد الدينى والتأييد الاختيارى أكثر منه على الإكراه بالقوة . ولقد سادت هذه الأفكار وادى النيل بأسره . ومن المحقق كما يذكر هـ. و. فيرمان H. W. Fairman أنه إبان الفترة الثانية فى حضارة نقادة كانت توجد مدن تطوقها أسوار من الطوب . وعلى الألواح الحجرية التى من أواخر عصر ما قبل الأسرات وأوائل عصر الأسرات تبدو المدن فى أشكال مستديرة أو بيضاوية وقد أحيطت بأسوار ضخمة مزودة بدعائم فى كثير من الأحيان .

ولعل هذا يفسر الرمز الهيروغليفى للمدينة الذى لا يمكن تفسيره بغير ذلك ، فهو عبارة عن حظيرة بيضاوية أو مستديرة الشكل بداخلها طريقان متقاطعان (إذا كانا طريقين متقاطعين) يقسمان المدينة إلى أربعة أحياء . وإذا كان هذا فى الواقع مسقطاً أفقيا رمزياً فإنه يكون أفضل ما يمكن اتخاذه رمزاً للمدينة الأصلية . واستخدام هذا الرمز منذ أول البدء فى الكتابة يشير الى أن منشأ المدينة أقدم عهداً من ذلك . والواقع أن الشكل المستدير فى ذاته من شأنه أن يجعل إعطاء منشأ المدينة تاريخاً مبكراً أمراً مرجحاً على الرغم من أنه قد تكرر ظهور هذا الشكل على ما يبدو فى مدن الحيثيين المتأخرة عن ذلك ، وعلى الرغم أيضاً من وجود شكل يماثله على أقداح من أوائل عصر ما قبل الأسرات . ومدينة الكاب فى الوجه القبلى بمصر ، فيما بين لاتوبوليس وهيراكونوبوليس ، تقع منطقة غنية بالمقابر التى من عهد الأسرتين الخامسة والسادسة . ومن المرجح أن هذه المدينة الكبرى . التى كان يحوطها سور مربع يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه نحو ١٦٠٠ قدم ، كانت مزدهرة حوالى الفترة ١٧٨٨ — ١٥٨٠ ، بيد أن هذا السور يتقاطع مع سور مدينة أخرى

أكثر بدائية ، شكلها بيضاوى أو مستدير ، ويحميها سور مزدوج ، وكلا الشكل والتاريخ لمما يسترعى الانتباه .

وفى بلاد ما بين النهرين ، كانت كل مدينة عالماً منفصلا ، وأما فى مصر الفرعونية ، فيرجح أن المدن لم تكن تضم مثل ذلك الجانب الكبير من السكان ، وذلك لأن المهام التى كانت المدينة تؤديها — الاكتناف والاجتماع والاختلاط — كانت الأرض نفسها تقوم بها ، فالصحراء والجبل كانا بمثابة « السور » ، والمديريات والجماعات القبلية الملتفة حول طوطم واحد ، كانت بمثابة « وحدات الجوار » ، كما أن مقابر الفراعنة والمعابد كانت تؤدى ما تؤديه « القلاع » فى الأنحاء الأخرى من العالم . وكان فرعون نفسه ، وليس إله المدينة المألوف ، هو الذى يتجسد المجتمع فى شخصه ، فقد كانت قواه الإلهية تعم الدولة بأسرها . بيد أنه فى عصر ما قبل الأسرات ، وفى القترتين الكبيرتين اللتين حدث فيهما الارتداد إلى التفكك والحكم الإقطاعى المحلى ، كانت المدن — وفقاً لما يرويه چاك بيرين Jacques Pirenne — تؤلف وحدات منفصلة عن بعضها بعضاً ، تحكم نفسها بنفسها ، وكان مواطنوها متحررين من قيود العبودية ، وفى استطاعتهم التنقل كما يريدون ، وفى قدرتهم مزاولة الأعمال الخاصة — فى الوجه البحرى على الأقل . ومن الغريب أن هذا « الارتداد » إلى الحكم الذاتى يطابق إلى حد كبير تحرراً مماثلا من السيطرة المركزية ، ومظهراً مماثلا لاستقلال المدن استقلالا محلياً فى العصور الوسطى فى أوروبا بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية .

أليس من الممكن إذن ، أن يكون نجاح نظام الحكم الذى أقامه الفراعنة على أساس دينى بعد عهد مينا هو فى ذاته السبب فى إزالة الحاجة إلى مركز للسيطرة تحيط به الأسوار ؟ إن نجاح الأسرات الأولى فى ابتداع نظام للحكم له صبغة دينية ، يتركز حول ملك يقبله عامة الشعب على أنه إله

حى ، قد أحدث تغيرا فى مشكلة بناء المدينة من ناحيتين ، فقد استبعد الحاجة إلى السور بوصفه وسيلة للإخضاع بالقوة ، كما أوجد مدينة من طراز فريد لم يكتمل تطوره إلا فى مصر ، ونعنى بذلك مدينة الموتى . فإننا نجد حول الأهرام الكبرى فى الجيزة موطنا حضريا حقيقيا للموتى ، فالقبور مقامة فى صفوف منتظمة ، فى شوارع تتقاطع معها شوارع أخرى ، بل إن مصاطب النبلاء تبدو فى شكل المنازل . وإزاء مثل هذا السخاء فى الإنفاق على تشييد هذه المبانى الضخمة لتبقى أبد الدهر ، لاعجب أن مدن الأحياء كانت تفتقر إلى الوسائل ، بل لعلها كانت تعوزها أيضا الإدارة ، لاتخاذ شكل أطول بقاء مما اتخذته .

ووفقا لهذه المعتقدات الدينية المقلوبة ، كان الموتى أجل شأنا من الأحياء ، وقد ترتب على ذلك أنه كان يخول الفلاح البقاء فى قريته وفى بلدة السوق الصغيرة ، وأن حضارة القرية كانت تكفى لسد حاجات الحياة العادية . وعلى الرغم من أن المدنية المصرية قد خلفت قدرا وافرا من الوثائق المكتوبة والآثار ، فإن مصدرها كان مقصورا على الطبقات الحاكمة . وفيما عدا مناسبات الأعياد الكبرى التى كانت تجتذب جموعا كبيرة من الشعب إلى مجتمعات المعابد العظيمة كأبيدوس ، لم تكن الحاجة تدعو إلى حشد هؤلاء القرويين الوادعين القانعين بحالتهم ، وسوقهم إلى المراكز الحضرية العظيمة . وإذ كانوا سعداء بآلهتهم الصغرى وواجباتهم القليلة فى الحقل وفى البيت وفى القرية ، فإنهم كانوا يخضعون فى سرور لحكم فرعون الجم الفوائد . وإذا كان رجاله يأخذون جزءا من المحصول ، فإنهم كانوا كذلك يسهرون على نظام الرى ، ويعيدون تعيين الحدود بين قرية وقرية عقب الفيضان السنوى . ولقد كان من شأن سيادة القانون والنظام على هذا النحو أنها على مر الزمن كفلت زيادة الرخاء للسكان الذين كان عددهم آخذا فى الزيادة .

وإلى أن تحدى السلطة الملكية المركزية أمراء الإقطاع فى حصونهم المحلية ، وبعد ذلك الغزاة الأجانب ، كانت السلطة السياسية تتجاوز نطاق المدينة ، ولم تكن بها حاجة عسكرية إلى أسوار ، بل إن العواصم الملكية ذاتها استمرت تقوم فى جو يشعر بأنها مؤقتة ومرتجلة ، وكانت المقبرة ومدينة الموتى هما وحدهما اللتين تبنيان وكأنما ذلك لإقامة مستديمة ، بل إنه إلى عهد متأخر يمتد بين سنتى ١٣٦٩ ، ١٣٥٤ ق . م . لم تطل الإقامة فى أخيتاتون العاصمة الجديدة إلا لمدة ستة عشر عاما ؛ بيد أن مدن المعابد ، مثل منف ، ظلت مركزا مقدسا طيلة ألف وخمسمائة عام .

وإذا كانت الأسوار لا وجود لها فى المدن التى أقيمت فى الفترة الممتدة بين عصر ما قبل الأسرات أو أوائل عصر الأسرات وعصر الإمبراطورية ، فهل حققت وسيلة أخرى من وسائل التنظيم ألوان الامتزاج وتبادل التأثيرات التى كانت تحققها المدن ذات الأسوار ؟ وعلى أية صورة كانت توجد ــ إذا وجدت على الإطلاق ــ تلك الوظائف الحضرية بعد توحيد الوجهين القبلى والبحرى فى مصر ؟ وهل يستطيع المرء فى مثل هذا المقام أن يتحدث عن تجمع حضرى أكثر مما يتحدث عن تكوين حضرى ؟

وفى تحليل العناصر التى تتكون منها المدينة ، كنت إلى الآن أبرز المهمة الأساسية للوعاء المغلق الذى قام بتركيز العوامل الاجتماعية وهيأ لها مجالا مغلقاً ساعد على بلوغ أقصى ما يمكن من التأثير المتبادل . بيد أن المدينة ليست وعاء فحسب ، فإنها قبل أن يوجد لديها ما تستبقيه يجب أن تجتذب الناس والأنظمة التى تسير حياتها . ولقد وفق ابنزر هوارد **Ebenezer Howard** فى إطلاق تعبير « مغناطيس » على هذا الوجه من وجوه حياة المدينة ، فإن هذا التعبير جم الفائدة فى الوصف ، إذ أن المغناطيس يقترن فى أذهاننا بوجود « مجال » وإمكان الفاعلية عن بعد ، كما يشاهد فى « صفوف القوة الاجتماعية » التى تجذب إلى مركزها جزيئات متباينة عنها فى طبيعتها . ولقد

قامت الديانة المنظمة بدور مماثل فى المدينة الباكرة ؛ لأن الدين كان يؤلف أفضل جانب فى الحياة ، والواقع أنه عن طريق الدين استطاع الناس أن يزيدوا من حيويتهم وحيوية محصولاتهم وحيواناتهم ، كما أنه من الخلود المعزو إلى الآلهة استمد الإنسان الشجاعة لاتخاذ التدابير التى تكفل خلوده شخصياً . وكان فرعون أول من حظى بذلك الخلود ، لأنه كان أيضاً إلها ولكن فى النهاية حظى بالخلود كل الناس الذين احترموا القوانين وشاركوا فى إقامة الشعائر والطقوس وعاملوا بعضهم بعضا بروح معات (Ma'at) ، أى روح النظام والإنصاف .

وإننا لنلاحظ هنا اختلافاً بارزاً بين مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين فى عهدهما المبكر ، ففى بلاد ما بين النهرين لم يكن الملك إلها ، وفضلا عن ذلك فإن الآلهة ذاتها ، فيما عدا القليل منها ، لم تكن تتصف بالحب ولا التعقل ، ولا الإعجاب بالخلق الكريم ، بل إن أكثر من وثيقة واحدة تشير إلى أنه كان من المستحيل إرضاؤها ، أو الأمل فى اكتساب عطفها بحسن السلوك .

« فانعدام الطمأنينة » و « الإرهاب » مسطوران فى كل سجلات بلاد ما بين النهرين ، حتى المدرسة كان فيها موظف مهمته حفظ النظام بسوط ، ولقد خلفت ممارسة هذه العادات أثرها فى كل ناحية من نواحى الحياة ، وفيما كان يتكرر وقوعه من أعمال القسوة التى بلغت ذروة الوحشية الجامحة فى شخص آشور بانيبال ملك آشور . وذات السلطة الشاملة التى كان الحكام يتمتعون بها بدلا من أن تبث فيهم شمائل أقرب إلى الصفات الإنسانية ، أقرت سياسة تقوم على الإرهاب ، وقد بلغ من تطرف مداها أنه فى عهد متأخر مثل عهد حامورابى كانت نصوص القانون الذى اشتهر به تحتوى على قائمة من الذنوب لا حصر لها ، وكثير منها طفيف ، ولكنها كانت تستوجب العقاب بالموت أو بالتشويه عملا بالنص الحرفى لمبدأ العين بالعين والسن بالسن مع إضافة بعض أعضاء أخرى أحياناً إتماماً للموازنة . حتى إذا كانت الحرب لا تنشب باستمرار ،

فقد كان يوجد فى مثل ذلك النظام تيار خفى من الإرهاب والعقاب السادى على النحو الذى بعث من جديد فى عصرنا الحاضر فى الدول الدكتاتورية ، وهى تشبه من وجوه عديدة تلك الأنظمة المستبدة العتيقة . وفى مثل هذه الظروف ، تكون ممارسة ضروب التعاون اللازمة لقيام الحياة الحضرية فى حاجة دائمة إلى استخدام قوة الشرطة ، وبذلك تصبح المدينة أشبه بسجن نزلاؤه تحت رقابة مستمرة ، وهى حالة لا يرمز إليها سور المدينة وأبوابه الموصدة فحسب ، بل تقوم بدور فعال فى دوام بقائها .

ومن بين جموع آلهة قدماء المصريين كان يبرز فريقان ، وهما فريق رع وأوزيريس وفريق بتاح وحاتحور ، أى الشمس ذات الإنعام وقوى الإخصاب والخلق بمختلف أنواعه . ونتيجة لذلك يبدو أن المغناطيس ، أو مركز الجاذبية والطموح ، قد تفوق فى مصر منذ أقدم العهود على الوعاء الذى كان يستخدم ضغطاً أشد وأقوى ، ولعل هذا يفسر السبب فى أن المدينة اتخذت فى مصر شكلا مختلفاً عما اتخذته فى بلاد ما بين النهرين . ولقد كانت الحياة المصرية تتسم بوحدة خارجية ووحدة داخلية ، إذ أنه على الرغم مما كان يوجد من الفوارق بين شطرى الوادى ، قبليه وبحريه ، فإن الوادى بأكمله كان وحدة واحدة تطوقها منطقة من المزروعات على نمط يكاد يكون مطرداً ، وتتمتع بسماء صافية وجو رحيم ، ودورة مناخية يمكن التنبؤ بها سلفاً . ولم يكن على المرء إلا أن يطفو مع تيار النهر ليبلغ المصب ، أو ينشر الشراع – عندما ابتكرت الأشرعة – ليمضى فى النيل مصعداً يدفعه ريح تهب عادة من الخلف . وفى بلاد ما بين النهرين كان على المرء أن يتحدى الطبيعة ويقابل ضرباتها بضربات مماثلة ، أما فى مصر فإن الاستسلام كان كفيلا بضمان أن السنة سوف تكون موفورة الخير كسواها من السنين . فهذا التناسق الثابت ، هذا التوازن الداخلى العميق ، قد يسر مشكلة استخدام القوى التقنية الجديدة التى جاءت بها المدنية ،

فالاطراد الخارجى كان مصحوباً بوحدة داخلية ، بل بإجماع على الرضا والمطاوعة .

وكان فرعون ، بوصفه إلها ، يتجسد فيه ما للشمس من صفات نافعة ، وما فى النبات من حياة ، وما فى الحيوان من قدرة على الإخصاب . ويلاحظ بريستيد أنه منذ عهد سحيق يرجع إلى عام ٣٠٠٠ ق. م. كان « التوجيه » و« الفهم » قد أصبحا من صفات رع إله الشمس الذى صار على نحو ما العضو الذى يرأس مجمعاً هائلا من الآلهــة كان يضم نحو أربعمائة من المعبودات . والحاكم هذا شأنه ، كان المعبد يقوم بدور أجل قدراً مما يؤديه الحصن والحرس المسلح . وما الحاجة إلى الإرهاب إذا كانت الطاعة تأتى فى يسر على هذا النحو ، وإذا كان وجود إله على قيد الحياة فى وسط الناس ، يكفل لهم الوفرة والطمأنينة والأمن والانتظام والعدل فى هذه الدنيا ، والخلود فى الآخرة ، عن طريق الإنابة على الأقل !!

٨ — من مركز الطقوس إلى مركز السيطرة :

عند ما أخذت السلطة المركزية فى الانهيار ، وبدأ عهد الإقطاع الانفصالى عقب عهد الأسرة السادسة ، كانت الحال تلفت النظر بخلوها من التوتر والاضطراب ، وذلك إذا أدخلنا فى اعتبارنا الهيئة الضخمة المؤلفة من الموظفين المدنيين وشبه العسكريين الذين كانت الحاجة تدعو إليهم لجمع الضرائب وحشد اليد العاملة وبناء المقابر والمعابد العظيمة ، وبالجملة لإدارة الحكم فى بلد ربما كان عدد سكانه يبلغ ثلاثة ملايين نسمة . وإذا كانت قد وجدت حرب فى الفترة بين استتباب الأمر للملك مينا وغزوة الهكسوس : فإنها قامت بدور ضئيل إلى حد أن عدم وجود أسوار حول البلاد الريفية الصغيرة والقرى ليس من شأنه أن يدعو إلى الدهشة ، وهو ما أعيد قوله ، فإن ما كان يعتبر حربا لم يكن سوى حملات ضخمة للإغارة من جانب

واحد ، وكانت تعود محملة بالملاخيت (malachite) والنحاس والخشب والذهب .

والوحدة التى لم يتيسر لأهل بلاد ما بين النهرين تحقيقها إلا تحت الضغط الذى استخدمته المدينة ، حققها المصريون كهبة من الطبيعة فى وادى النيل ؛ فإن الإقليم ذاته ، كما لاحظنا آنفا ، كان يتسم بمظاهر مدينة ذات أسوار ، إذ أن الجبل والصحراء والبحر أدت لمدة طويلة عمل الحواجز والمتاريس ، ووقت المصريين فعلا شر الغزو . ولعل نفس هذا الاطراد والانسجام يفسران ما تتسم به الحضارة المصرية من صفات أخرى طويلة البقاء ؛ إذ أنها حتى بعد فترات التصدع الاجتماعى التى كانت تصادفها ، كانت تعود إلى نفس الأنظمة وتحت نفس القيادة الدينية والسياسية التى عرفتها فى عهد تكوينها . وفى ظل مثل هذه الظروف كان من الطبيعى أن تتخذ المدينة شكلا مغايرا لما اتخذته فى بلاد ما بين النهرين كان أكثر منه انفتاحا وأوسع منه انفراطا ، فقد كانت المدينة المصرية فى جوهرها مركزاً لإقامة الطقوس ، قوامه القصر والمعبد والهيكل ، وربما كانت بلا أسوار من وجهة النظم العسكرية ، ولو أنها كانت فيما يبدو مسورة من الناحية الرمزية ومحوطة بمجموعة من القرى . وليس فى هذا الوضع ما يجعله بعيد الاختلاف عما كان للمايا (Maya) من مراكز لإقامة الطقوس وإدارة دفة الحكم . ولا يستطيع أحد الامتناع عن إطلاق لقب مدينة على هذا التكوين الحضرى المفتوح إلا إذا كان يرى فى احتشاد السكان فى مساحة محددة تطوقها الأسوار الأمارة الوحيدة القاطعة للمدينة الباكرة .

وتعريف المدينة بأوصاف وخواص مبالغ فيها ، هو بالذات ما يجب أن نتجداه بشدة ، فما شدة الزحام وكثرة العدد والسور ، إلا صفات عرضية فى المدينة ، وليست صفات جوهرية فيها ، وإن كان ازدياد الحروب قد جعلها فعلا من المظاهر البارزة الثابتة للمدينة إلى وقتنا الحاضر تقريباً .

وليست المدينة كتلة من المنشآت بقدر ما هى مركب يتكون من وظائف تتشابك بعضها مع بعض وتتفاعل دائماً فيما بينها ـ ليست مركزاً للقوة فحسب ، بل قطبا لرحى الحضارة .

وكما يلاحظ مورلى (Morley) عن وصف لاندا (Landa) لقيام إمبراطورية جديدة بين المايا ، من الواضح أنه « يصف مدينة بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، ومع ذلك فإنه يجب التسليم بوجود فارقين مهمين ، أحدهما ، أن مراكز السكان لدى المايا لم يكن فيها ما فى مدننا وبلداننا الحديثة من شدة التجمع والاحتشاد الكثيف فى وحدات مبان مكدسة ، بل على النقيض من ذلك ، كانت موزعة على ضواح فسيحة أقل سكانا ، وتمتد أطارفها امتداداً طويلا على هيئة منشآت صغيرة . وهكذا كان طراز السكنى عند المايا على هيئة طراز الضواحى ، ويختلف عن طراز المدن الذى يتسم بشدة التجمع . وأما الفارق الآخر ، فهو أن المبانى العامة والمعابد والأماكن المقدسة والقصور والأهرام والأديرة وملاعب الكرة والمراصد وساحات الرقص ، كانت لا تقام عادة على طول الشوارع والطرق الواسعة . . . إذ أنه بدلا من ذلك كانت المبانى تقام حول جوانب الساحات والميادين التى كانت خططا دينية وأقساما حكومية وتجارية فى المدينة » . وإنى لأوافق كل الموافقة على هذا التفسير الأعم لمعنى المدينة ، إذ أن النواة الاجتماعية أعظم شأنا من أى مظهر مادى معين ، فهنا ترجح كفة الأغراض الإنسانية المثالية على العوامل والوسائل التمهيدية .

بيد أن ذلك النوع من السور الذى أقيم حول المدينة فى بلاد ما بين النهرين ، يبدو أنه أقيم كذلك ولنفس السبب عند المصريين والمايا فى دور متأخر من أدوار تطورهم . ولقد بين بيدرو ارميلاس Pedro Armillas أن الأزمة التى يظهر أنها تفاقمت فى مجتمع أمريكا الوسطى حوالى سنة ٩٠٠ ميلادية ، قد نشأ عنها أن نظام الحكم تحول من نظام دينى إلى نظام دنيوى

عسكرى » بقى فيه الدين عاملا قويا للسيطرة الاجتماعية ، ولكن طبقة الكهنة كانت أقل شأنا من أصحاب السلطة الزمنية . وقد حدث فى نظام السكنى تغيير يقابل ذلك » . فقبل نشوب هذه الأزمة ، كانت كل المواقع المعروفة تقريباً تقوم على أرض مكشوفة بلا وسائل طبيعية للدفاع ، ولا فيما يبدو وسائل صناعية . وإنه لمن شأن هذا أن يفسر وجود مدينة تؤدى مهامها ، وتقوم على نسق مكشوف يتخلله المزيد من الفتحات ويترك مساحة أكبر للقرية ، ويغشاه نوع من الحياة أكثر جنوحا إلى المسالمة ، وفيما يبدو إلى التعاون .

وإن أربعة آلاف سنة وما يعادل هذا القدر من الأميال لتفصل بين مدن المايا ومدن المصريين فى أوائل عهد الأسرات ، ولا يمكن التثبت إلى الآن إلا من صلة حيوية واحدة بين أشكالهما ، فكلاهما ازدهر فى ظل نظام سياسى وطيد الأركان لم يكن للحرب فيه وجود أو كانت تكاد لا توجد ، وحيث قل شأن القوة ورضى الناس طويلا دون أى منازعة خطيرة بأن تكون السلطة المقدسة ، والمعرفة المقدسة وقفاً على الطبقات الحاكمة ، وكانت تتألف من النبلاء والكهنة ذوى الامتيازات العديدة . فوسط هذه الظروف لم تكن الأقلية المقيمة فى القلعة بحاجة إلى الحماية من القرى المجاورة : وكانت وفيرة السكان ، ولديها من الإمكانيات ما يجعلها شديدة البأس ، ولكنها كانت خاضعة مستسلمة . ولو أن هذه الظروف كانت عامة شاملة لكان من المحتمل أن يكون الطراز الغالب هو طراز المدينة المفتوحة ، وهى مع ذلك مدينة حقيقية بفضل ما فيها من ضروب التماسك والتفاعل وما تتكشف عنه من قدرات وابتكارات .

وحسبنا هذا القدر عن أصل المدينة المصرية وقد وجدت فيها منذ البداية كل العناصر الأساسية التى استحدثتها المدنية ، ولكن لعل بقاء هذه العناصر متماسكة فى مبدأ الأمر لم يكن يرجع إلى إنشاء أسوار حجرية حول كل مدينة من المدن المصرية ، بل إلى وجود الأسوار الطبيعية المشتركة التى تحوط

البلاد بأسرها ، كما أن قبلتها لم تكن المعبودات والهياكل المحلية العديدة فحسب، بل الوجود المفرد لفرعون المؤله ، فى نوع من التوحيد الدينى والسياسى ، كان سابقاً على أى عقيدة دينية من هذا القبيل . وبالجملة كان مركز الجاذبية أعظم أهمية من الوعاء وذلك لأن الاعتقاد الدينى كان أدخل أثراً فى مصر من وسائل الضغط والإكراه فى سومر وأكاد . وقد لا يكون هذا مصحوبا بالتحرر من القلق العصابى فحسب ، بل بالتخفيف من حدة التوتر النفسانى : وحيال هذا الإحساس بالاسترخاء الشامل ، وهذا النقص فى دوافع الطموح ، نستطيع أن نذهب إلى حد وصف المدينة المصرية المبكرة بأنها من طراز الضواحى ، ولعلنا نكون أقرب إلى الصواب وأكثر كرما كذلك إذا قلنا إنها على الرغم من اتساعها المادى الضخم قد احتفظت بما تتسم به القرية من مراعاة العرف ، والمحافظة على التقاليد ، والميل إلى الألفة فى المعاشرة .

وبمرور الزمن ظهرت فى مصر الأشكال الأخرى للمدينة المألوفة أكثر من ذلك ، ولعل بيير لافدان Pierre Lavedan على صواب فيما يراه من أن المدينة الدنيوية كانت تتصف بانتظام تخطيطها وامتداد شوارعها الرئيسية صوب اتجاهات البوصلة ، على نحو ما كانت تتصف به مدن الموتى الكثيبة مثل المدينتين الموجودتين عند الجيزة وسقارة . وإن تخطيطاً شبكيا gridiron plan ، كالذى نجده فى تل العمارنة وكاهون ، لا يمكن أن يوصف إلا بأنه غير ملائم للجو ، فقد كان التعرض للشمس يبلغ أقصى مداه فى شوارع تل العمارنة الفسيحة ، إذ كان يبلغ عرض شارع الكاهن الأكبر ١٨٠ قدماً ، ومن المرجح أنه كان طريقاً رئيسياً للمواكب :

بيد أنه إذا كان الدين أحد البواعث على مثل هذا النوع من النظام الخالى من المرونة ، فقد كان هناك باعث آخر أكثر أهمية من الناحية العملية ، حتى إنه ليتكرر ظهوره فى مدن الاستعماريين الإغريق والرومانى ، وفى القلاع المؤقتة التى عرفت فى العصور الوسطى ، ثم فى مدن الرواد الأمريكيين ، وهو السرعة واستخدام الآلات ، بل إن اسكندر موربه Alexandre

Moret كشف عن سياسة لإنشاء « مدن جديدة » فى عهد الدولة القديمة فى مصر ، وكانت هذه السياسة تنطوى على منح هذه المدن براءات تكسبها امتيازات معينة . ولقد كان إنشاء المدن فى عهد الفراعنة عملية سريعة تتم فى مرحلة واحدة ، فإن التخطيط على نسق هندسى بسيط كان يساعد على سرعة الإنشاء ، لا سيا أن المنشآت الأساسية ، فيا عدا القلاع ، كانت تقام على أرض مستوية السطح ، وأما التخطيطات الأكثر تعقيداً من ذلك ، وهى تمثل النمو البطىء لحاجات أجيال عديدة وقراراتها ، فإنها تحتاج إلى مدة من الزمن حتى يصبح شكلها المكتمل أكثر روعة وتعقيدا .

ومن المحتمل أنه كان يوجد نظام مختلف للتخطيط فى المدن الريفية القديمة التى كانت لا تزال منتشرة فى جوانب المنطقة الإدارية المسماة مديرية (nome) ، وهى تقابل ما يعرف فى إنجلترا بالمقاطعة ، بقراها ومدنها الصغيرة وعاصمتها الإدارية حيث كان يقيم جامع الضرائب والحاكم المحلى والقاضى . وربما كانت هذه العواصم الإدارية من مخلفات الحصون الإقطاعية التى صاحب ظهورها تفتت السلطة المركزية حوالى سنة ٢٦٢٥ ق . م . عقب حكم أونيس ، بيد أنها ربما كانت فى بعض الحالات مراكز جديدة أقيمت خصيصاً من أجل الإدارة . ولا يمكننا أن نغفل ما يذهب إليه تشايلد (Childe) من أن المديرية فى مصر تقوم إلى حد كبير مقام المدينة ، فإن هذا الطراز من المدينة المفتوحة ، وهو مألوف فى نيو إنجلند (بأمريكا) ، ربما كان صورة للمدينة المتكافلة ، بل لعله كان بديلا دافقا بالحيوية لذلك الطراز الذاهب الذى ظهر مع الحروب وإقامة الأسوار . وعلى ذلك فلعله كانت توجد فى المدن المصرية درجات مختلفة من النظام والتنسيق ، على نحو ما كان يوجد على وجه التحقيق من التفاوت فى مقدار ضخامة المنشآت وفخامتها . ولكن مهما يكن من خلاف بين علماء الدراسات المصرية القديمة حول أصل المدينة المصرية وطبيعتها ، فإنه يبدو لى بوضوح أن جميع عناصر

التجمع الحضرى كانت متوافرة ، وأن المدينة كانت تؤدى بشكل من الأشكال وظيفتها الخاصة ـ وظيفة وعاء معقد التركيب لتحقيق أكبر قدر ممكن من الاتصالات بين الناس ونقل مشتملات المدنية من جيل إلى جيل .

وبحلول الأسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ ـ ١٢٠٠ ق. م.) يغدو الافتقار إلى المخلفات الأثرية أمراً لايدعو إلى الانزعاج ، إذ لم يعد هناك مجال إلى الشك حول وجود المدينة ، وإلى ذلك العهد المتأخر كان لا يزال يتضوع منها أريج يحمل الدليل على ماضيها الريفى الزاهر . ولنتأمل ما قيل فى مديح مدينة رمسيس :

« وصلت إلى پر رمسيس (Per-Ramses) فوجدتهـا فى حالة طيبة جداً ، وتقوم فى منطقة جميلة لا نظير لها ، على غرار طيبة . ولقد كان (رع) نفسه (هو الذى أنشأها) .

« إن الإقامة فيها تجعل الحياة هنيئة ، فحقلها حافل بكل ما هو جيد ، وهى زاخرة بالمؤن والطعام فى كل يوم ، إذ تمتلئ بركها بالسمك وبحيراتها بالطيور ، ومراعيها زاهية الخضرة بالحشيش ، ويكثر البلح على الجسور ، ويتوافر البطيخ على الرمال . . . ومخازن غلالها مكدسة بالشعير والحنطة حتى إنها لتكاد تبلغ السماء . ويوجد بصل وكراث للطعام ، وخس البستان ، والرمان والتفاح والزيتون وتين حديقة الفواكه ، ونبيذ « كا » ، نبيذ مصر الحلو الذى يفوق الشهد ، وسمك الأنومة الأحمر الذى يوجد فى قناة « مدينة الإقامة » ، ويعيش على زهر اللوتس وسمك البدين (Bedin) الموجود فى مياه هارى (Hari) ... إن المرء ليبتهج بالإقامة فى داخلها ، وما من أحد فيها يقول لها « يا ليتنى » ، فصغار الناس فيها كالعظماء » .

وليس فى هذا الوصف شىء عن شكل المدينة ، وهو لايذكر إلا قليلا جداً عن المشتملات الاجتماعية فيما عدا أنها تدل على الأقل على احتمال وجود

مستوى عال من طيب العيش والرضى به ، وهو ما يتصل بذات التجانس الديني الذي قد يفسر كلا من النجاح الفريد الذي أحرزه نظام الدولة في مصر ، والشكل الخاص الذي اتخذته المدينة فيها . وكل هذا يؤيد فرانكفورت فيما يؤكده من أن « الجميع كانوا في نظر الملك أفراداً من عامة الشعب » . وعلى ذلك فإنه حتى في المدينة لم يكن وجود نظام يقسم الطبقات والوظائف إلى درجات متفاوتة ـــ وهو النظام الذي نشأ عنه الكثير من ألوان التفارق في منشآت المدينة ـــ لم يكن هذا ليحول على الأقل دون شعور صغار الناس بأنهم كالعظماء ، بل ربما دون الإعراب عن رضاهم شخصياً عن تلك العظمة ذاتها .

وجملة القول أنه من المرجح أن تكون المدينة ذات الأسوار قد ظهرت في مصر قبل تركيز السلطة في عهد الأسرات ، ولكن لعله قد مرت على مصر فترة طويلة نعمت فيها بالسلام ، فخف التوتر الداخلي ونقصت الحاجة إلى حماية خارجية . وعندما عادت ثانية المدينة المحاطة بالأسوار ، كانت وسيلة للدفاع المشترك ضد الغزاة الأجانب أكثر منها وسيلة لبسط السيطرة محلياً بالقوة . بيد أنه منذ عهد الهكسوس ، ينطبق على مصر ـــ مع بعض التعديلات ـــ الكثير مما علمناه عن مدن بلاد ما بين النهرين مثل ما ينطبق على مدن أخرى تمتد من فلسطين إلى الهضبة الإيرانية وما وراءها . والصورة التي تبدو فيها مدن وادي السند تكشف عن صلابة النظام والتنسيق على وتيرة واحدة ، وهو ما كان من دلائل التجمع الحضري بما فيه من اهتمام بالغ بوسائل التحكم . ولو أننا عرفنا المزيد من التفاصيل ، فلربما استطعنا الوقوف على الكثير من الاختلافات ـــ في داخل المدن وخارجها ـــ التي من شأنها أن تبدد الملل من اطراد التشابه ، اختلافات من قبيل ما يتبينه الأثري في المدن المقامة في مواقع غير منتظمة ، وبخاصة آشور العاصمة القديمة لآشور ، أو بوغازكوي عاصمة الحيثيين ، حيث نجد أن واضعي

التخطيط بدلا من أن يتقيدوا تقيداً أعمى بخطة نظرية ، استغلوا بجرأة طبيعة الموقع لخلق منظر عام لعله لم يكن أقل روعة من منظر مدينة درهام (Durham) التي أنشئت في إنجلترا في العصور الوسطى.

وإذا ما تجاوزنا عن كثير من وجوه الخلاف والمفارقات ، فإن حقيقة أكبر من ذلك تأخذ في الظهور ، وهي أنه ، فيما يبدو ، قد تكوّن في أودية الأنهار العظمى بالشرق الأدنى نموذجان أصليان متباينان للحياة الحضرية ، كان أحدهما يعبر عن الهدوء والاطمئنان ، وكان الآخر يعبر عن قلق عاصف فأحدهما وقد استبد به الخطر والقلق ، لجأ إلى تكديس الرموز الدالة على القوة ، وحصن نفسه بأسوار ضخمة لصد أولئك الذين «كانوا يدبرون الشر» ، على حين أن الآخر وقد اطمأن إلى نماء الشمس و«أبيه النيل» وعرف أن كل سنة ستكون كالسنة التالية لها ، فرض النظام باسم العدالة وألبس الموت بهيج ثياب الحياة . وفي أحدهما كانت القلعة تؤلف النواة الصلبة للسلطة إلى حد أنها لو انفجرت لأطاحت بنفسها وكذلك بالغرض الذي وجدت من أجله . أما في الآخر فإن الطقوس الأصلية للقرية كانت تبث روح الاعتدال والإنسانية في كل القوى التي كانت تحت إمرة المدينة ، وفي هذه المدينة كان «الفلاح الفصيح» لايزال مسموع الصوت. وما زالت هذه المتناقضات الشاسعة موجودة تحت أقنعة جديدة :

وعلى ذلك فإن التراث الحضري تشعب إلى طريقين منذ أول البداية ، ولقد ظلت وجوه الاختلاف بين أنظمة الواديين العظيمين بادية للعيان طوال التاريخ الحضري ، وإن استترت في كثير من الأحيان . والواقع أنه كان يوجد طريقان أمام تطور الحضارة الإنسانية بعد اجتيازها المرحلة التي بلغتها في مجتمع العصر الحجري الحديث ، وهما : إما طريق القرية ، وإما طريق القلعة ، أو طبقاً للتعبير البيولوجي . . طريق التكافل أو طريق الافتراس . ولم يكن اتخاذ أحد الطريقين متروكاً للخيار المطلق ، وإن كان

كل من الطريقين يسير فى اتجاه مغاير للآخر ، فالأول كان طريق التعاون الاختيارى وتبادل المجاملات ، كما كان أوسع مجالا للاتصال والتفاهم ، وكان يؤدى إلى قيام مجتمع منظم على منوال أشد تعقيداً وعلى مستوى أرفع مما كان يتهيأ فى مجتمع القرية والأراضى المجاورة لها . وأما الآخر فكان طريق السيطرة بالإغارة ، وكان يؤدى إلى الاستغلال بلا رحمة ولا شفقة ، ويفضى مع الوقت إلى الإصابة بالضعف الذى ينتاب الطفيليات ، فهو طريق التوسع بكل ما ينطوى عليه من ألوان العنف والصراع والقلق مما يحيل المدينة نفسها إلى أداة — كما يلاحظ تشايلد بحق — « لابتزاز الفائض وتجميعه » . وهذا النوع الثانى هو الذى سيطر إلى حد كبير على التاريخ الحضرى حتى عصرنا الحاضر ، وهو يفسر إلى مدى غير قليل إقامة الأسوار وانهيار المدنيات الواحدة بعد الأخرى .

بيد أنه كان يوجد قدر كبير من الإكراه حتى فى الفترات التى كان يبلغ فيها الحكم المصرى أقصى درجات الرفق ، كما أنه كانت توجد أمارات سارة عديدة للتعاون بين الناس ، ووفرة فى الثروة الفكرية والعاطفية : حتى فى ظل أقسى الملوك المستبدين فى بلاد ما بين النهرين : وفى كلتا الحالتين كان يحدث نهوض وتوسع فى كثير من أسمى مهام المدينة . وعلى هذا ، فإنه لا الطراز المصرى ، ولا طراز بلاد ما بين النهرين كانا خاليين من الشوائب ، وذلك أن التجمع المحلى الأكثر ميلا إلى التعاون كان يتصف بظواهر تثير القلق بما فيها من وجوه الشبه بمجتمعات الحشرات من حيث الميل إلى الجمود والتناقض ، على حين أن أشد المجتمعات قصوراً بسبب ما تعانيه من القلق العصابى ودوافع الاعتداء بدون مبرر معقول ، كان مع ذلك يتهيأ لها من أسباب النهوض بأكثر نواحى الحياة إيجابية ما يسمح بإنشاء قواعد للقانون والنظام تنطوى على التزامات متبادلة ، وبث قدر معين من الخلق القويم بين المقيمين فى داخل المدينة على الرغم من أن عدداً متزايداً منهم كانوا أرقاء

أسروا فى الحروب ، أو كانوا ممن ظلوا يسكنون القرى ، تتملكهم الرهبة ويضطرون للعمل كالأرقاء خشية الموت جوعا . وحسبنا هذا القدر عن القوى التى عملت على ظهور المدينـــة إلى الوجود فى أولى مراحل المدنية ، وسنقوم عاجلا بعمل تقدير مؤقت لما ترتب على ذلك من النتائج الحضارية .

٩ — نماذج أصلية أم عوامل وراثية

عند عام ٢٥٠٠ ق . م . كانت السمات الرئيسية فى المدينة قد تكونت واتخذت مكانها فى القلعة ، إن لم يكن فى المجتمع الحضرى بأسره ، فالمأوى المحاط بالأسوار ، والشارع ، ووحدة المساكن ، والسوق ، وحرم المعبد بأفنيته الداخلية ، .والوحدة الإدارية ، والمنطقة الصناعية — كانت جميعا موجودة فى شكل بدائى على الأقل ، كما أن المدينة ذاتها كانت بادية للعيان بوصفها رمزاً جمالياً قويا معقد التركيب يعمل على رفع شأن إمكانيات الإنسان والإضافة إليها . وإن استمرار بقاء هذه الأنظمة والأوضاع ليستوقف النظر بقدر ما يستوقفه اتساع نطاق التنوع الذى صادفته .

وحتى فى الجانب الآخر من العالم ، نجد بين المايا وأهل بيرو والأزاتكة فى العهود السابقة لعصر كولمبوس ، نجد ما يماثل ذلك من الأنظمة وأساليب الحياة التى تجسدت فى منشآت مشابهة تقترن بأساطير وأفكار ومشاهدات علمية ، ومهرجانات وعادات مماثلة ، بل شواغل ومتاعب نفسانية مماثلة . وإزاء ما ساد طويلا من الاعتقاد بأن الهجرة إلى العالم الجديد انقطعت منذ نحو عشرة آلاف أو اثنى عشر ألف سنة ، فإن هذا التماثل يثير تساؤلا هاما : هل المدينة مسكن طبيعى كصدفة القوقعة ؟ أو أنها مما تعمد الإنسان صنعه بيده ؟ أى ابتكار خاص فى نوعه ظهر إلى الوجود فى مكان واحد أو أكثر تحت تأثير الاقتناع بآراء حضرية ودوافع اقتصادية ، وقد يكون من

بين الصفات التى تميز بها النوع الإنسانى استعداد فطرى للحياة الاجتماعية ، بل للاستقرار فى جماعات ، ولكن أكان من شأن هذا الاستعداد العام أن يجعل الإنسان أينما كان لا يجد مناصاً من إنشاء المدينة على نحو ما يجد العنكبوت ألا مناص له من نسج بيته ؟ وهل من الممكن أن تكون الاستعدادات ذاتها ، التى أفضت إلى انتشار المعسكر أو القرية على وجه الكون ، قد أفضت كذلك إلى قيام منشأة مثل المدينة ، ذات تكوين معقد ونواح حضارية متعددة ؟

وإذا أخذنا بمقدمات أنصار العزلة من الجيل القديم من علماء الإنسان والآثاريين الأمريكيين ، فإنه يجب أن نعتبر الأوضاع التى جاءت بها حضارات المايا والأزانكة وبيرو ابتكاراً مستقلا تماماً ابتدعه العالم الجديد . وقد يكون هذا الرأى جائزاً ، بيد أن هناك حقائق كثيرة تحول دون قبوله قبولا تاماً . وإذا كان فى الواقع يوجد بين الحضارات من الاختلاف مثل ما يوجد بين الأنواع البيولوجية ، فإن ما فيها من وجوه التشابه قد تكون منقطعة الصلة فيما بينها ، كوجوه التشابه التى توجد بين بيت الأرضة وبيت النمل ، وهى لا تقل لفتاً للنظر عن وجوه التشابه بين الحضارات . بيد أن ما نجده فى العالم الجديد ليس مجرد مجموعة من المنازل والمبانى التى قد تكون سليلة أصل واحد مشترك هو قرية الفترة الفاصلة بين العصرين الحجرى القديم والحجرى الحديث ، إذ أننا فى واقع الأمر نكشف عن مجموعة مشابهة من السمات الحضارية تتألف من طقوس للإخصاب على درجة بالغة من التقدم ، وجمع من الآلهة الكونية ، وحاكم معظم تتركز السلطة فى قبضته ، ويتمثل المجتمع بأسره فى شخصه ، ومعابد عظيمة تعيد أشكالها إلى الذهن صورة منشآت أخرى أقيمت لأغراض مختلفة كالهرم والمعبد السامق المدرج . وإلى جانب هذا نجد عين ظاهرة خضوع طبقة الفلاحين لجماعة كانت أصلا من الصيادين المحاربين ، أو كما هى الحال بين المايا الأولين ، لطبقة من رجال الدين أقدم عهداً من ذلك . وفضلا عن هذا نجد أيضاً عين التقسيم إلى طبقات ،

والجماعات التى تتخصص كل منها فى مهنة معينة ، ومبادئ الكتابة ، وقياس الزمن ، والتقويم ـ وعند المايا كان هذا يشمل اتساعاً عظيماً فى أفق تقديرهم ونظرتهم إلى الزمن إلى حد يفوق فى تعقيده ودقته ما عرف عن البابليين والمصريين حتى فى الفترات التى بلغوا فيها ذروة المجد . ويلوح أن هذه المميزات ذات سمات خاصة بما لا يدع مجالا لتكرارها تلقائياً فى كل أنحاء الدنيا .

ومن المسلم به أن هناك كثيراً من وجوه التباين بين مدن سومر ومصر ، وبين مدن المايا التى ظهرت بعد ذلك بألف أو ألفين من السنين ، على غرار ما يوجد من التباين بين مدن بيرو والمكسيك ، بيد أن هذا التباين هو بالذات ما يتوقع المرء وجوده بين حضارات متباعدة بعضها عن بعض فى الزمان والمكان ، وكانت الصلة الوحيدة بينها هى الأفكار التى ينقلها التجار والمستكشفون ، بل المبشرون الدينيون . وليست أى هجرة على نطاق واسع أو غزو بالقوة . ومن المحتمل أن تكون وسائل هذا النقل ، من سفن بل جزر ، قد غابت عن الأنظار قبل وصول الأفكار نفسها إلى العالم الجديد . وإذا كان انتشار الحضارة قد بدأ فى عهد مبكر جداً ، فمن الجائز جداً أن يكون قد اشتمل على النموذج الأصلى للهرم أو المعبد السامق المدرج ، ولكنه لم يشتمل على المحراث والعجلة ، أو لعله قد نقل ما تعيه الذاكرة عن المدينة لكنه لم ينقل الثور ولا الحمار . وإذا كانت الكتابة فى بلاد ما بين النهرين قد حفزت المصريين إلى تطوير الكتابة عندهم ؛ وهو ما يعتقده الكثيرون من الآثاريين ، فإن الفارق بين شكل الحروف الهيروغليفية والنموذج الذى نقلت عنه مباشرة لا يتجاوز الفارق بين أحدهما وحروف المايا ، وعلى ذلك فإنه يمكن تعليل ما يوجد من وجوه الاختلاف العديدة بين المراكز الحضرية فى مصر وسومر والهند والصين وكمبوديا وبيرو وعند المايا والأزاتكة ، دون إنكار ما يكمن فيها من وجوه التشابه ، ودون إقامة أى حاجز تعسفى ، حتى

ولا المحيط المادى ، أمام إمكان انتشارها يبطء من بضعة مواضع . وأما أن الشكل الهرمى استخدم مقبرة ورمزاً لجبل الخليقة عند المصريين ، على حين أنه تحول إلى معبد لإقامة المهرجانات الدينية الجماعية عند المايا والأزاتكة ، فإن هذا ليس أقل استساغة مما طرأ على نظام الشوارع الشبكى من التحول من رمز أتروري الأصل لنظام الكون إلى نموذج ملائم لإقامة أولى المدن الأمريكية - أو للاستغلال فى مشروعات تقسيم الأراضى .

هل تعزى هذه العقدة الحضرية فى العالم الجديد إلى استعداد أصيل للحياة الحضرية منشوه عوامل الوراثة ؟ أو هى حالة من الحالات التى يقدمها يونج (Jung) مثلا للنماذج الأصلية الجماعية التى تم انتقالها بوسيلة أشد غموضاً ؟ أو أن العقدة الحضرية فى العالم الجديد نتيجة تدبير عجيب لأحداث لا يمكن تفسير تقاربها فى النهاية من أحداث العالم القديم بشيء أقل من حدوث معجزة ؟ ألا يكون أدنى إلى العقل ، وقد أخذت تتجلى الآن قدرة الشعوب المبكرة على التنقل حتى عن طريق البحر ، أن نسلم بأن فكرة المدينة ربما تكون قد وصلت إلى العالم الجديد من جهة نائية ، على الرغم من أنه لايمكن تتبع الطريق الذى سلكته ، ومن أنه قد يعوزنا إلى الأبد دليل أشد حسما ؟ ولسوء الحظ أن قدامى القائلين بانتشار الحضارة من أمثال ج . إليوت سميث G. Elliott Smith قد أساءوا إلى الموضوع بتعجلهم فى الوصول إلى حل ، بيد أن المشكلة ما زالت قائمة ، فإن كلا العزلة والانتشار من الحقائق الثابتة فى علم الإنسان ، وبالمثل فإن بعض المبتكرات فريدة لا نظير لها ، وبعضها واسعة الانتشار وتتكرر من تلقاء ذاتها .

وإذا كان من المحتم فعلا ظهور المدينة إلى الوجود كلما توافرت ظروف طبيعية واقتصادية معينة تلائم استقرار الناس وقيام وشائج قوية بينهم ، فإن وجود المدينة فى العالم الجديد يثير مشكلة خطيرة ، وهو ما يعترف به جوردون تشايلد صراحة . فالحقيقة التى تبدو بجلاء هى أنه لا وجود لأغلب

هذه الظروف الخارجية الملائمة ، فمدن العالم الجديد لم تظهر فى أودية الأنهار العظمى كالأمازون أو لابلاتا أو المسيسبى ، بل فى أماكن أقل منها نسبياً من حيث الملاءمة ، أماكن فقيرة فى الوسائل الطبيعية للمواصلات ، والنقل ، وكانت تتطلب من الإنسان أن يبذل أقصى الجهد لإزالة الأحراش أو إصلاح التربة لكى يحصل على قوته — وذلك على نقيض الحياة السهلة الرخية نسبياً التى كان يحياها زارعو الحبوب ، وغارسو النخيل فى العالم القديم . ولم يكن ليتسنى وجود الطرق الكبرى بين مدن المايا ومدن بيرو إلا بعد قيام سلطة مركزية أنشأت النظام الجماعى القادر على بنائها . حتى فى أكثر عهود مدن أمريكا الوسطى ازدهاراً ، كانت هذه المدن تعتمد على نظام غير ثابت من الزراعة الاستوائية التى كانت تقوم إلى حد كبير على نوع واحد من الحبوب وهو الذرة . وكان هذا النظام يعتمد على تغيير الرقعات المزرعة وإحراق النباتات الطفيلية السريعة النمو على الأرض المنهكة ، وذلك لتجديد قوى التربة . ولم يكن هناك ما يحمل على الاتجاه نحو إقامة نظام حكم مركزى بدافع من الحاجة إلى التحكم فى الفيضانات أو إلى وضع أنظمة للرى . ولما كانت هذه الحضارة مجردة ، سواء من الآلات المعدنية أم حيوانات الجر أم العجلة أم المحراث ، فإنه كانت تعوزها أغلب الوسائل التقنية التى تيسر حدوث أول تجمع حضرى . وإذا كانت الظروف الطبيعية هناك تلائم أى نوع من أنواع مراكز الاستقرار ؛ فإنها لم تلائم إلا قيام القرية المنعزلة الصغيرة البدائية التى يمكن نقلها من مكان إلى آخر .

بيد أنه إذا لم تكن الأسس الاقتصادية للمدينة فى العالم الجديد وافية بالغرض ، وكانت الدوافع الجغرافية غير متوافرة ، فإن النواة المثالية لتكوينها كانت موجودة . فقد تغلبت الغاية على الوظيفة . وإلى عهد متأخر فى العصور التاريخية الحديثة نجد ما يدل على اندماج السلطتين الزمنية والدينية ، وهو ما كان يصاحب ظهور المدينة فى العالم القديم . وذات

الافتقار إلى البيئة الملائمة وإلى التقدم فى النواحى التقنية ، ليس من شأنه إلا أن يجعل النموذج المثالى ذاته أبلغ أثراً فى النفس ، وأكثر صعوبة فى تعليله بأنه « نمو طبيعى » فى ظروف تشبه عن قرب تلك التى نجدها فى الشرق الأدنى . ومما يلفت النظر توافر الشروط الحضارية اللازمة ، كاتجاه الديانة نحو المعتقدات السماوية ، والاعتراف بسيادة قوة الشمس ، وتركيز تلك القوة فى شخص ملك كانت حياة المجتمع بأسره مركزة عليه . وأعمال المايا السياسية والفكرية ، بما فى ذلك العمليات الحسابية الشاقة ، وإدراكهم لقيمة الزمن ، كانت كفيلة بأن يتمخض عنها نظام جديد يقوم على أساس من الإدراك المتسع الأفق ، وبفضل هذا النشاط الذهنى المركز ، تكونت المدينة وظهر عدد منها ابتداء من تنوشتيتلان (Tenochtitlan) حتى تشتشن ـ اتزا[1] (Chichen—Itza) . وهل كان حشد القوة وتضخيمها على هذا الوجه عملا أصيلا أو مقتبساً ؟ لا يمكن الإجابة عن هذا التساؤل فى ضوء الأدلة الموجودة الآن ، إلا أنه على ما أعتقد يجب عدم ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر .

ومن الواضح أن هذه ليست إلا خواطر وفروضا ، إذ أن الحقائق لا تنم ، ولو بمقدار ، عن العملية الفعلية التى تم بموجبها نقل صورة المدينة وأغراض منظماتها إلى العالم الجديد ــ أو عن أن ذلك قد حدث فعلا . بيد أن الأدلة المستمدة من ملابسات الأحوال تلقى على الأقل ظلا من الشك حول احتمال ابتكار هذا الكائن البالغ التعقيد ابتكاراً مستقلا عن أى مؤثر خارجى بعد أمد طويل من ظهور المدن فى بلاد ما بين النهرين وفى وادى السند . وبعد ما تكلل بالنجاح قيام المدينة بوصفها وعاء مستديما ومؤسسة ذات منظمات قادرة على اختزان مشتملات المدنية ونقلها إلى الأجيال التالية ، كان من الممكن أن تنتقل المدينة (بوصفها صورة) إلى آفاق بعيدة ، وكان

(١) مدينتان قديمتان من مدن المايا فى المكسيك . (المشرف)

من الممكن أيضاً أن ينقل الناس أجزاء منفصلة من حضارتها ، وأن ترسخ جذور هذه الأجزاء فى تربة قاحلة إلى حد كان لايسمح للبواكير الحضرية المتغيرة أن تنمو حتى يكتمل نضجها . ولذلك فإنه على مر الزمن أنشئت مدن فى مناطق جغرافية غير ملائمة مثل التبت وأيسلنده ومرتفعات الأنديز .

وبعد إنشاء المدينة كان من الممكن محاكاة منشآتها المادية ، بل تخطيطها العام على يد جماعات ممن كانوا يعترضون على هذا أو ذاك من أنظمتها ومنظماتها ، وهكذا ، فإن جزيئات من المدينة ، مجموعات غير محدودة الشكل من المبانى والشوارع لا تحاكى المدينة إلا فى أبعد مظاهرها الخارجية ، من حيث مساكنها المكدسة وسوقها ، كان من الممكن أن تنتشر فى كل مكان وتتجمع على غير هدى دون أن يتوافر لها فى الغالب ما يتوافر حتى للقرية من وسائل الحياة الاجتماعية . وقد أخذت هذه الجزيئات الحضرية تتكاثر وتتكتل بسرعة عظيمة فى وقتنا الحاضر ، ولكن مهما يبلغ من كبر حجمها فى النهاية ، فإننا لا يمكن أن نسميها مدناً إلا مع التجاوز فى المعنى ، إذ هى على الأصح تكتلات متحضرة . ولتعريف المدينة يجب أن نبحث عن نواتها التنظيمية ، ونتتبع حدودها ، ونقتفى أثر خطوط القوة الاجتماعية فيها ، ونعين المراكز الفرعية فيها للاتصال والاختلاط ، ونحلل ما فى جماعاتها من تفاضل وتكامل . فعلى حين أن المدينــة قد جمعت معا وأدمجت فى وحدة ظاهرة كلا من القرية والهيكل والحصن والورشة والسـوق : نجد أن صبغتها كانت تختلف من إقليم إلى إقليم ، ومن عصر إلى عصر ، تبعاً لتغلب عنصر أو آخر وتأثيره على بقية عناصرها . بيد أنه كما هو الشأن فى الخلية الحية ، كان دائماً وجود النواة المنظمة أمراً ضروريا لتوجيه النمو والتخلق العضوى فى المدينة بأسرها .

ففى كل مرحلة إذن يجب أن نفرق بين التجمع الشديد للمنشآت الحضرية مع مجرد تكاثف فى عدد السكان ، وبين نظام المدينة المعقد

الدينامى حيث تعمل المنشآت والوظائف القديمة فى خدمة أغراض جديدة . والمدينة فى أبسط حالاتها ، أو الضاحية ، تشبه القرية من حيث إن لها من نواح عديدة ما للمدينة من الإمكانيات الكثيرة ، إلا أنه يجب ألا يغيب عن بالنا تعريف روسو القائل بأن « المنازل تؤلف بلدة ، لكن المواطنين يؤلفون مدينة » . ونعتبر القدرة على نقل شطر من الحضارة يكون ممثلا لها — القدرة على نقله فى صور رمزية ونماذج بشرية أكبر دلالة على المدينة . ومن شأن هذا أن يبرز إلى أقصى مدى ما يتوافر للإنسان من نواحى الكفاية والمقدرة حتى فى المناطق الريفية وما وراءها من أماكن بدائية . وأن البناة الأوائل للمدينة بجعلهم تحقيق هذا الهدف ميسوراً ، قد بنوا فى الواقع أفضل مما قدروا .

الفصل الرابع

طبيعة المدينة القديمة

١ — تطور المهام الحضرية

لايمكن أن نتصور بعد الآن أن التكوين المادى للمدينة ـ أكثر مما يمكن أن نتصور أن تكوينها الحضرى القديم ـ كان ثمرة نمو فجائى برمته . ولقد كان هذا الفرض طبيعيا عندما لم يكن تحت أعيننا سوى أطلال بابل ، إلا أنه انقلب رأساً على عقب بالكشف عن مدينة ذات أسوار بها معبد ونوع فريد فى رقته من فن الصورة ، وذلك فى إحدى طبقات الأرض السفلى فى أريحا ؛ وترجع هذه المدينة إلى عهد يسبق بآلاف السنين أى مخلفات عرفت فى أى مكان آخر ، وقد كشف أعمال الحفر عن وجود صهاريج ضخمة لضمان توافر الماء باستمرار ، وهى ما زالت تعطى ألف جالون فى الدقيقة الواحدة . وفى أقدم المنازل التى كشفت توجد حجرات يدل شكلها المستدير على ما صحب الاستئناس من المظاهر المبكرة لسيادة الأم .

ويلوح من المحتمل جداً أن شطراً كبيراً من الغلاف المادى قد أقيم فى وقت سابق لقيام نظام الحكم الملكى ، ومما يلفت النظر أن كلمة لوجال (Lugal) (أى الرجل الكبير أو الملك) لم يعثر عليها فى نصوص الفترة المبكرة لظهور الكتابة ، ولكن ربما كان انتقال الصدارة من الزعيم إلى الملك ، كالانتقال من المعزقة إلى المحراث . قد استمر مدة طويلة قبل ظهور المدينة مكتملة الشكل فى النهاية . ولعل هذه المرحلة الأخيرة فى تنظيم شكل المدينة قد حدثت خلال فترة قصيرة من الزمن ، كما حدث فى شأن تطور القبور الهرمية فى

مصر ، ولكنه عندما تبلورت أنظمة المدينة لم يدخل على الشكل المثالى أو النموذج الأصلى للمدينة إلا تعديلات قليلة إلى حد يثير الدهشة . فإن مدينة الأسلاف ، التى بدأت بوصفها تجمعا للقوى العاملة تحت زعامة حازمة موحدة تعتمد على نفسها ، كانت قبل كل شىء أداة لبث روح النظام بين الناس ، وقهر الطبيعة ، مع توجيه المجتمع ذاته نحو خدمة الآلهة .

وكان هذا الهدف المقدس يخلع ثوباً من القدسية على كل تضحية ، ويمحو أثر كل حرمان تحملته النفس ، وكانت كل الأنظمة الراقية التى أنشأتها المدينة ترتكز على هذه القاعدة الأساسية ، وكانت ذات المبادئ التى قامت عليها الزعامة تطبق كذلك على الأنظمة الأخرى . ولنتأمل ما جاء من التقريع على لسان « الفلاح الفصيح » حيال ما وقع عليه من ظلم : « انظرى إنك بلدة لا عمدة لها ، كفرقة لا رئيس لها ، أو سفينة لا ربان لها ، أو عصبة لا زعيم لها » . وقد كان تركيز المسئولية الشخصية المقرونة بحرية التصرف أحد التدابير اللازمة للحكم فى المجتمعات المعقدة التركيب التى أعطاها الحكم الملكى للمدينة . بيد أنه لحسن الحظ ظلت تقوم فى كنف هذا النظام — حتى فى المدن التى بلغ فيها تركيز الحكم أقصى مداه — مجموعة من العادات أقدم منه عهدا ، فقد أخذت جميعا عن القرية القديمة ، وهذه العادات تقوم على تدين الأسلاف ، والمشاركة الديمقراطية ، وتبادل المعونة .

وعند إحصاء وجوه نشاط المدينة ، يجب أن نفرق بين ناحيتين وهما : الخدمات الإنسانية العامة التى تؤدى فى كل مكان ، ولكن وجود المدينة يوفر لها أحياناً عوناً ومجالا كبيرين ، والخدمات الحضرية الخاصة التى لا يمكن تأديتها إلا فى داخل المدينة لأنها ثمرة روابطها التاريخية وتكوينها الفريد فى تشابكه وتعقده . ولكى نحتفظ فى أذهاننا بصورة أشد وضوحا لهذه المجموعة من وجوه النشاط فإنى سأوردها على نحو يساعد على تذكرها ، وهى : الحشد والاختلاط والتضخيم . بيد أنه تنشأ عن هذه المهام والعمليات قدرة

أكبر على التعاون ، واتساع فى نطاق الاتصال والتعاطف ، مما يؤدى إلى ظهور أهداف جديدة ليس لها ارتباط بالحاجات الأصلية التى أفضت إلى قيام المدينة .

والمدينة القديمة إذ بدأت كبقعة مقدسة ، كانت جموع متفرقة من الناس تتردد عليها فى أوقات معينة لإقامة المهرجانات والطقوس الدينية ، فإنها كانت قبل كل شىء مكاناً دائماً للاجتماع . ولعل ما فى المدينة من صفات جذابة باعثة على الحياة قد ازداد زيادة عظيمة بفضل ما تهيأ لمدن بلاد ما بين النهرين — المقامة على تلالها الماثلة — من المقدرة على البقاء بعد الفيضانات التى كانت تمحو معالم السهل بأكمله وتبيد سكان القرى الواقعة فيه . وكما يظن « وولى » لعل أقدم المدن ، وليس فلك أوتنابيش تيم (Utnapish - tim) هى التى كانت أهم العوامل الرئيسية التى كفلت البقاء بعد كارثة كادت تكون ساحقة .

بيد أن الفرص الجديدة التى كانت تتاح للناس ، وكذلك الأخطار الطبيعية التى تهددهم ، كانت تجذبهم من مناطق بعيدة نحو المراكز الجديدة للاستقرار الحضرى . فكانت تتلاقى وتمتزج أجناس مختلفة الأصل ، وحضارات مختلفة ، وتقاليد تقنية مختلفة ، ولغات مختلفة ، فنجد أن قوماً من أهل الوجه البحرى فى مصر كانوا فى عهد سحيق جداً يشغلون مراكز ذات نفوذ فى مدينة الأبيض بأعلى وادى النيل . ويلوح أن ظهور المدينة كان مصحوباً فى كل مكان ببذل الجهود من أجل القضاء على ما كان فى القرية من عزلة واكتفاء ذاتى . وقد سجل التاريخ فى بلاد الإغريق أن كليسثينز مزج أهل التلال بأهل السهل وأهل الشاطئ[1] . ولعله كانت لهذا الحشد والمزج فوائد بيولوجية خاصة ، فقد اختفت فى المدينة الأخطار التى تنشأ

---

(١) حدث هذا فى أتيكا فى آخر القرن السادس قبل الميلاد للقضاء على العصبية الإقليمية التى كانت سبباً فى اضطرابات عنيفة . (المترجم)

عن التناسل زمناً طويلا من سلالة محدودة ، ومن المحتمل أن يكون قد حدث تهجين بيولوجي على نطاق واسع .

وبالرغم من أنه ليس فى وسعنا أن نعرف عن هذه العملية البالغة التعقيد إلا القليل الذى لا يسمح حتى بتقدير محدود لمدى تأثيرها ، فإن وجوه التشابه فى التناسل عند النبات والحيوان لتوحى بأنه ربما كان للاختلاط الحضرى أثر مماثل فى إنتاج تغيرات موفقة ، وعلى ذلك فلعل فليندرز بيترى قد أصاب بقوله فى كتابه « ثورة المدنيات » : إن بعض الظواهر الدينامية فى المدنية نعزى جزئياً إلى حيوية بيولوجية مهجنة ، على أن مثل هذه الفروض لا يمكن إقامة الدليل عليها .

وأما عن فوائد الاختلاط الحضارى ، فإن مجال الشك حوله أضيق نطاقاً ، فقد قضت المدينة على ما كان فى حضارة القرية من شح الاكتفاء الذاتى وأحلام النرجسية . فالمدينة باجتذابها الناس من أقصى نواحى الوادى إلى صعيد واحد ، هيأت مكاناً مستمراً للاجتماع لمن كانوا يعيشون عيشة الرحل ، كما هيأت لمن كانوا يقبعون فى عقر دورهم مواجهة ما فى تجارب « الخارج » من إثارة وتحد . وأما ما أوجدته هذه المجتمعات القائمة على ضفاف الأنهار من زيادة تفيض عن الحاجة فى عدد السكان ، فإنه فى ذاته أدى إلى تنقلات أوسع مدى ، إما بالتجوال المتواصل أو بالاستعمار ، أى بالاستكشاف أو بالهجرة — وإلى ما لم يكن نادر الوقوع من انتقال السكان على نطاق واسع بسبب الاسترقاق أو الغزو .

وهكذا ، فإن ما يبدو أنه نشأ بوجه خاص بمثابة نظام لعبودية تحوطها هالة من الجلال ، فرض على مجموعات مستأنسة تشتغل بالزراعة لم تجد سبيلا إلى التخلص من مثل تلك السيطرة ، أصبح بمرور الزمن ، إلى حد ما على الأقل ، عملا إيجابياً مبعثه الاختيار . فقد ازداد باطراد عدد من كانوا ينشدون الإقامة فى المدينة ، وأضحوا جزءاً منها بمحض الرضا والميـــل

للمشاركة فى حياتها . وعلى حين أن المرء لا يكتسب الانتساب إلى مجتمع بدائى كالقرية أو العشيرة إلا نتيجة للمولد أو الزواج فقط ، فإن المدينة ، فيما يحتمل منذ البداية ، كانت تترك باب الانتساب إليها مفتوحاً أمام الغرباء والمقيمين خارجها . بيد أن طابع القرية كان يبلغ من قوة الأثر ما حمل الإغريق على التمسك زمناً طويلا بالزعم القائل بأن كل أبناء المدينة كانوا فى الواقع من سلالة جد واحد . وكتاب أرنولد توينبى Arnold Toynbee « دراسة فى التاريخ » قد قدم لجيلنا استبصاراً طلباً لمدى الدور الذى تقوم به أنواع « الاتقاء » و « التحدى » فى تطور المدنية وفى تطور الفرد سواء بسواء . إلا أن النقص الغريب فى هذه الدراسة التى تكاد — فيما عدا ذلك — تتجاوز الحد فى استفاضتها ، هو إدراك هذه الحقيقة ، وهى أن هــذه التفاعلات والمعاملات ، وهذه العروض والاستجابات لا تتم إلا فى المدينة ، وفى المدينة وحدها ، وعلى نطاق فعال وفى تواصل كاف .

وإذا كان الإنسان المبكر قد تعمد أن يعمل على شق طريقه للخروج من أنواع العزلة والتطويق التى ضربها حوله مجتمع شديد الثبات والرسوخ ، مستمسك بأساليبه ، غير مبال للخروج على منواله الرتيب المألوف ، فإنه كان يتعذر عليه أن يدبر حلا لتلك المشكلة أفضل من المدينة . وقد كان نمو المدينة فى ذاته يعتمد على الحصول من مجتمعات أخرى على الطعام والمواد الأولية ، ومختلف أنواع المهارة والرجال ، وذلك إما بالغزو وإما بالتجارة . وقد ترتب على قيام المدينة بذلك تضاعف الفرص لحدوث الصدمات النفسانية وظهور عوامل الإثارة والتنبيه .

ومن أجل هذا السبب فإن كلا من الأجنبى والغريب ، والمسافر والتاجر ، واللاجئ والرقيق ، أجل ، بل حتى العدو الغازى ، قد قام بدور خاص فى كل مرحلة من مراحل التطور الحضرى . ويعدد هوميروس فى « الأوديسة » أنواع الأجانب الذين « قد يستدعيهم من الخارج » مجرد مجتمع بسيط —

« رجل بارع فى صناعة ما ، معبر عن النبوءات ، أو مطبب للأمراض ، أو بناء ، أو شاعر ممتاز » . وهؤلاء هم سكان المدينة الجدد ، وهم يختلفون اختلافاً شاسعاً عمن كان يسكنها أصلا من الفلاحين والزعماء ، وحيثما لم يوجدوا ، بقيت البلدة الريفية مستغرقة فى سباتها العميق .

ولقد بقيت وظائف الوعاء خلال شطر كبير من التاريخ الحضرى أعظم أهمية من وظائف المغناطيس ، فإن المدينـــة كانت قبل كل شىء مكاناً للتخزين ، وأداة للحفظ ، وعاملا للتكديس . وبفضل السيطرة على هذه الوظائف تيسر للمدينة أن تؤدى مهمتها النهائية ، وهى مهمة التحويل والتغيير ، إذ أنه عن طريق خدماتها العامة كان ما فى المجتمع من طاقة الحركة يحول إلى أوضاع رمزية يمكن الحفاظ عليها . فالمجتمع ، كما لاحظت طائفة متعاقبة من الباحثين ، من أوجست كونت Auguste Comte إلى و . م . هويلر W.M. Wheeler عبارة عن « عملية نشاط للتكديس » . وقد أصبحت المدينة الجهاز الأساسى فى تلك العملية .

ولم يكن من قبيل المصادفة أن ظهور المدينة ــ بوصفها وحدة قائمة بذاتها اكتمل تخلق أجهزتها التاريخية وبلغت أقصى نشاطها ــ قد صاحب نشوء وسائل التسجيل المستديم بالصور المنقوشة والرموز والحروف ، وكانت أولى الشارات المجردة التى تنم عن الأعداد والألفاظ . وذلك أنه عندما حدث ذلك كان مقدار ما يتعين نقله من الحضارة شفوياً قد تجاوز ما تستطيع جماعة صغيرة أن تقوم به حتى فى خلال عمر طويل ، فلم يعد يكفى أن تودع تجارب المجتمع المدخرة فى أذهان أكبر أعضائه سناً .

على أن الحاجة إلى علامات وإشارات دائمة كانت أكثر وضوحاً فى المعاملات اليومية ، وكذلك من أجل التصرف فى أماكن بعيدة بوساطة وكلاء وعمال ، مثل إصدار الأوامر وإبرام العقود ، كانت الحاجة ماسة إلى وسيلة ما غير الشخص نفسه . وأقدم لوحات أور هى مجرد قوائم وحسابات ، فإنها تسجل

مقادير من الدقيق والخبز والجعة والماشية ، وأسماء أشخاص ، وأسماء الآلهة ومعابدها — أى أنها لاتخرج عن تدوين أمور واقعية لتمكين المجتمع من معرفة مصير كميات كان من الممكن أن يبقى أمرها بغير ذلك موضع الشك أو غائباً عن البال .

ولحسن الحظ أن الإشراف على هذا النوع من وجوه النشاط كان فى البداية إلى حد كبير فى يد طائفة من رجال الدين كانت غير مكبلة بقيود الحاجة المستديمة إلى العمل اليدوى ، وكانت تزداد إدراكا لوظائف العقل بوصفها وسيلة لأداء تلك المهام . وبخطوات متتابعة فى مجال التصور النظرى ووضع الرموز استطاعوا الوصول إلى تحويل السجل المدون إلى وسيلة لحفظ ونقل الآراء والمشاعر والعواطف التى لم يسبق ظهورها على الإطلاق فى صورة مرئية أو مادية .

وبفضل مثل هذه السجلات كان يتهيأ لحكام المدينة أن يحيوا عدة مرات ، فمرة وهم يضطلعون بأعبائهم ، ومرة فى الآثار والنقوش ، ومرة ثالثة فيما تتركه الحوادث المسجلة من الأثر فى أذهان الأجيال التالية ، فهى تزودهم بنماذج يحتذونها ، وبتحذيرات من المخاطر ، وبحوافز تدفعهم إلى القيام بجلائل الأعمال . وقد أصبحت الحياة عن طريق التسجيل ، ومن أجل التسجيل ، إحدى الوصمات الكبرى فى جبين الحياة الحضرية ، والواقع أن الحياة كما سجلت — بكل ما فيها من مغريات للمبالغة فى تصوير أحداثها وتضخيم مظاهرها تضخيما خداعا ، وتعمد تزييف الحقائق — كانت كثيراً ما تصبح أعظم شأناً من الحياة على حقيقتها . ومن ثم نشأ تضليل التضخيم الذى بلغ ذروة السخرية فى مفاخر أوزيماندياس (Ozymandias) . ولقد ازداد الجنوح نحو هذا الاتجاه فى وقتنا الحاضر باستخدام الأشرطة السينماتوغرافية فى تصوير مشاهد وهمية ، قبل أو بعد وقوع الأحداث الحقيقية ، من أجل ترك سجل « دقيق » عنها للأجيال القادمة :

وتقدم الأساليب الرمزية للتخزين قد زاد كثيراً فى طاقة المدينة بوصفها وعاء ، فهى لم تقف عند حد احتوائها جماعة من الناس والمنظمات أكبر مما كان يحتويه أى نوع آخر من المجتمعات ، بل إنها كانت تصون وتنقل من حياتهم شطراً أكبر مما كان ينسنى لذاكرة الأفراد أن تنقله مشافهة . وهذا التكثيف والتخزين من أجل توسيع نطاق حدود المجتمع زماناً ومكاناً ، ما هو إلا إحدى الوظائف التى تنفرد المدينة بأدائها ، ومستوى أداء هذه الوظيفة يقرر إلى حد ما مكانة المدينة وقدرها ، إذ أنه مهما كانت وظائف المدينة الأخرى أساسية ، فإنها غالباً ثانوية بالنسبة إلى هذه الوظيفة ، وتمهيدية لها . فالمدينة كما لاحظ إمرسون (Emerson) فأجاد ، « تعيش بذكرياتها » .

والمدينة تجمع بين الماضى والحاضر والمستقبل عن طريق مبانيها ومنشآتها العامة القادرة على البقاء ، بل عن طريق المظاهر الرمزية الأوفر قدرة على البقاء ، وهو طريق الأدب والفن . فى المناطق التاريخية بالمدينة تتصارع العصور ويتحدى بعضها بعضاً . ولما كانت منشآت المدينة تبقى بعد زوال الأغراض والوظائف التى أعطتها فى الأصل طابعها ، فإن المدينة تحتفظ أحياناً للمستقبل بآراء كانت قد نبذتها أو رفضتها باستهتار أجيال سابقة ، إلا أنها من ناحية أخرى ، تنقل إلى الأجيال اللاحقة من سوابق سوء التصرف ما كان خليقاً بأن ينبذ جانباً لو أنه لم يرسخ فى المدينة ويترك أثره فيها ، على نحو ما يبقى فى الجسم نفسه من أثر التئام جرح أو تكرار طفح جلدى نتيجة لإصابة أو علة ألمت به منذ أمد طويل . ويحمل جيلنا الحاضر عبء التزام خاص وهو أن يعيد دراسة ذلك الأثر الحضرى فى أسوأ أنواع الإصابات المزمنة — وهى الحرب .

ولا جدال فى أنه من طبيعة الأوعية الجيدة ألا يتغير تركيبها بتأثير ما يجرى فى داخلها من ألوان التفاعل ، إذ أنه لو كانت الأوعية تتغير بنفس السرعة التى تتغير بها محتوياتها ، لكان مآل الأوعية والمحتويات إلى

الزوال . ومع ذلك لو أن الوعاء الحضرى كان مفرط التشدد فى الاختيار لفقد ميزة من أهم مميزاته ، وهى اتساع أفقه الاجتماعى ، وقدرته على تحقيق مطالب الحياة بطرق شتى لئلا « تكون عادة حسنة واحدة سبباً فى إفساد العالم » ، على حد قول أحد شعراء عصر الملكة ڤيكتوريا .

وعلى ذلك فإن الجرة الحضرية – على سبيل الاستعارة – التى احتوت فى البداية شعير بلاد ما بين النهرين ، كان مآلها أن تحتوى كذلك زيتون أثينا ، وجعة مصر ، أو سجق روما . وقد حدث أحياناً أن تصدع الوعاء الحضرى وتسربت منه محتوياته ، كما أنه مرة بعد أخرى كان يطرح أرضا ويتحطم فتنسكب محتوياته ويحل به من العطب ما لا يمكن معالجته . ولعل تكرار وقوع العطب على هذا النحو ، يفسر سبب الثقة نسبياً فى المبتكرات الآلية – إلا فى زمن الحرب – منذ طلع فجر العصر البرونزى . بيد أن المدينة بقيت صامدة على الأقل حتى القرن السابع عشر دون أن يطرأ على شكلها أى تغيير جوهرى ، إذ أن القالب الذى صبت فيه وجوه نشاط « الإنسان المتمدن » كان قد برد وتماسك .

٢ – احتكار الابتداع

ووفقا للتعبيرات الدارجة فى لغة علم النفس الاجتماعى ، فما المدينة إلا وعاء خاص لاختزان الرسائل ونقلها . وفى مبدأ الأمر ربطت كل وظائفها الخلاقة بالدين ، وكانت الرسائل المقدسة أعظم رسائلها شأنا . وهذه الرسائل المقدسة المسطورة فى النجوم ، أو فى أحشاء الحيوانات ، أو الأحلام أو التخيلات أو التنبؤات ، كانت تدخل فى نطاق اختصاص رجال الدين ، ولقد احتكروا القوى الخلاقة زمناً طويلا ، وعبرت أوضاع المدينة عن ذلك الاحتكار .

والقدرة على الابتداع بطبيعتها متقلبة متغيرة ، ومن السهل أن يفسد عليها أمرها الإكراه أو التشاؤم ، أو عدم الاطمئنان ، أو الضغط الخارجى .

وشدة انشغال البال بمشاكل تأمين البقاء الحيوانى ، تستنفد القوى وتضعف قدرة الذهن الحساس على الاستيعاب : وما حققته المدينة فى البداية من مظاهر القدرة الخلاقة قد حدث نتيجة لقيام أقلية ضئيلة متصلة بالمعبد والقصر ، باغتصاب الوسائل الاقتصادية للإنتاج والتوزيع . وفى ملحمة الخليقة يقول ماردوك (Marduk) عن الإنسان : « فلندعه يثقل كاهله بأعباء الآلهة ليتيسر لها أن تستريح » : وهل نخطئ كثيراً إذا ترجمنا ذلك كما يلى : « فلندع رعايانا يثقلوا كواهلهم بأعباء العمل اليومى ليتيسر للملك ورجال الدين أن يستريحوا ؟ » :

ولقد اعتبرت هذه الفئة القليلة أنه ليس لغيرها الحق فى امتلاك موارد عظيمة ، إذ كانت لا تعتبر نفسها ملزمة برفع مستوى حياة الأغلبية المكونة من الفلاحين والصناع إلى نفس مستواها . ورجال الدين بممارسة سلطتهم المقدسة فى بناء الهياكل وتنظيم الطقوس الدينية ، ثم بإخفاء أسرار محتويات سجلاتهم ، أو بالأحرى التعاويذ السحرية ، والمدونات الرياضية والمشاهدات العلمية ، المحتفظ بها فى السجلات — بهذا كله دعم رجال الدين السلطة الملكية التى كانت فيما عدا ذلك لا تستند إلا إلى تأييد موظفى الحكومة ورجال الجيش .

وكثير من الرسائل التى كتبت بالرموز فى المعبد لم تتجاوز إطلاقا فتحة الشق الذى أودعت فيه ، ومن المحتمل أن بعض ألوان هذه المعرفة — وكانت تشتمل على خواص مواد لتهدئة الأعصاب والتخدير — قد فقدت أكثر من مرة بسبب السرية ذاتها التى اتبعت فى تناقلها ، على حين أن تكرار تخريب المعابد فى الحروب كان يسبب من الخسارة ما يزيد كثيراً على مجرد تشويه أو محو أعمال فنية عظيمة . ونتيجة لهذا المزيج من السرية فى السلم ، والتخريب فى الحرب ، فإن شطرا كبيراً من جلائل أعمال

المجتمع الحضرى الجديد قد تبدد هباء . بل إن شطرا أكبر من جهده لم تتهيأ له إطلاقا الفرصة للنمو والازدهار .

وإذا نهض دليل على أن المدينة كانت أصلا مركزاً للسيطرة زمناً طويلا قبل أن تغدو مركزاً للاتصال ، فإن من شأن القيود التى كانت تفرض بإصرار على نشر المعرفة ونقلها ، أن يؤيد هذا التعليل . وكما هى الحال اليوم فى الولايات المتحدة وروسيا السوفيتية كان أكبر عمل للقلعة « أن تحفظ الأسرار الرسميــة » . ولقد أوجدت هذه الأسرار ، فجوة بين الحكام والمحكومين على نحو كاد يحيلهم إلى أنواع بيولوجية مختلفة ، ولم تتسن المشاركة فى أى جزء من هذه الأسرار ، إلا بعد أن عبر الشعب بثورته عن ارتيابه فى ثمار المدنية ذاتها .

وتوجد شكوى مريرة من أول ثورة عامة قامت فى مصر ، وهى تفصح عن سخط الطبقات العليا لأن أبناء الطبقات السفلى اقتحموا معاقلهم ، ولم يكتفوا بأن جعلوا من زوجاتهم بغايا ، بل إنهم — وهو ما يبدو أنه لا يقل عن ذلك بشاعة — وضعوا أيديهم على المعرفة التى كانت محجوبة عنهم : « لقد قرئت كتابات الموئل السامى (المعبد) . . . إن مكان الأسرار . . . قد أزيل (الآن) الستار عنه . . . وأصبح السحر مكشوفا للأعين » . (مواعظ ايبوير Ipu-wer ٢٣٠٠ — ٢٠٥٠ ق . م .)

ومع ذلك فإن رجال الطبقات الحاكمة فى استئثارهم بعمليات الإبداع كشفوا عن قاعدة لها أهمية عامة فى تقدم الإنسان ، وما زال الناس حتى اليوم لا يفهمون هذه القاعدة دائماً ولا يطبقونها باستمرار ، وأعنى بها استخدام الانسحاب والاعتزال عمداً للانصراف إلى الدورة التكرارية البحت ، دورة الولادة والتغذية والتوالد ، أو دورة الإنتاج والتبادل والاستهلاك . وعلى الرغم من أن شطراً كبيراً من فائض إنتاج المجتمع

الحضرى كان يضيع هباء بالإسراف فى الاستهلاك ؛ وفيما هو أكثر إسرافا من أعمال التخريب الحربى ، فإن جانباً كبيراً كان يستنفد فى أوقات الفراغ ، وهى التى لم ترتبط بأداء عمل ما ، وإنما أخليت من العمل اليومى الرتيب ، وخصصت لتأمل طبيعة العقل الإنسانى ونظامه .

وتبعاً لازدياد نمو القشرة الخارجية للمدينة – إذا جاز لنا أن نقول ذلك – كان داخلها يزداد اتساعا كذلك ، ولم يقتصر الأمر على أماكنها الداخلية الكائنة فى الحرم المقدس ؛ بل كان يشمل حياتها الداخلية أيضاً ، فكانت الأحلام تطفو من ذلك الداخل وتتخذ شكلا يعبر عنها ، وكانت الأوهام تتحول إلى دراما ، والرغبات الجنسية تزهر شعرا ورقصا وموسيقى . وبذلك أصبحت المدينة تعبيراً جماعيا عن الحب مجرداً عن دوافع التوالد الجنسى . وألوان النشاط التى كانت الحيـاة لاتدب فيها إلا فى مناسبات الأعياد فى مجتمعات أقل تقدما ، أصبحت جزءاً من الحياة اليومية فى المدينة ، وما بدا بمثابة تحويل للبيئة على نطاق واسع أصبح تحويلا للإنسان .

ولا حاجة بى إلى أن أؤكد أن هذا الانطلاق فى القدرة الخلاقة لم يكن أحد الأغراض الأصلية لاستقرار الإنسان ، ولا كذلك للتجمع الحضرى فى ذاته ، فإن تلك القدرة لم تصبح من الصفات المميزة لتطور المدن إلا على نحو جزئى ، وعلى نسق غير منتظم . وحتى اليوم ، لا يستخدم فى سبيل التعلم والتعبير إلا جزء يسير من مجموع جهود المجتمع ، فنحن نبذل من التضحيات من أجل فنون التدمير والإبادة ، أكثر جداً مما نبذله من أجل الفنون الخلاقة . بيد أنه عن طريق ما تؤديه الأعمال الخلاقة فى مجال الفن والفكر والعلاقات الشخصية ، يمكن التعرف على المدينة ، بوصفها شيئاً أكثر من مجرد نظام فعال للمصانع والمتاجر والثكنات والمحاكم والسجون ومراكز السيطرة . إلا أن أبراج المدينة التاريخية وقبابها لتذكرنا بذلك الأمل الذى لم يتحقق بعد .

٣ — تسرب الحضارة

لقد تناولت حتى الآن ناحية واحدة من نواحى ما تمتع به أصلا حكام القلعة من احتكار سبل المعرفة والسلطة ، ولكن هذا الاحتكار كان فى الواقع يشمل أغلب الوظائف التى آلت إلى البلدية فيما بعد ، وقامت بتوزيعها بين مواطنيها ، وإن كان ذلك لم يحدث إلا بعد عدة آلاف من السنين . ويمكن أن يسمى ذلك قانون تسرب الحضارة .

وإننا لنتبين فى حرس القلعة أول جيش وأول رجال للشرطة ، وعلى الرغم من أننا لا نستطيع التعرف على كل مبنى على حدة إلا فى زمن متأخر ، فإن الثكنات كانت المسكن الأول لأمثال هؤلاء الموظفين العسكريين . وهناك أيضاً نتبين أول وزارة للشئون الخارجيـــة ، وأول هيئة لموظفى الحكومة ، وأول دار للقضاء (عند باب القصر) ، كما أننا نتبين فى القسم الخاص بالمعبد أول مرصد فلكى ، وأول مكتبة ، وأول مدرسة وكلية ، وما ليس أقل من ذلك شأناً : أول مسرح . ولقد ازدهرت هذه كلها فى القلعة قبل أن يوجد أى نوع مستقل يماثلها من منشآت بلدية لديها مجال أوسع نطاقاً للعمل ، وقبل أن تكون المشاركة الديمقراطية موضع أى بحث أو تفكير .

ولقد كان هذا الاحتكار الملكى يسرى على كثير من المبتكرات التقنية التى ظهرت فى القلعة قبل أن تنتشر فى باقى المدينة بزمن طويل . فى القلعة ظهرت لأول مرة المبانى التى تقاوم الحريق بإنشائها من مواد مستديمة ؛ كما ظهر كذلك رصف الأرض ، وهناك أيضاً قبل عام ٢٠٠٠ ق . م . أنشئت ، فى إقليم أو آخر ، المجارى ، والمياه الجارية ، وأحواض الاستحمام ، ودورات المياه ، والأجنحة الخاصة للنوم . وكذلك هناك فى منطقة القصر ، فى الوقت الذى أصبح فيه باقى المدينة كتلة من المنازل المتلاصقة ، المكدسة

بالسكان ، كان يتسنى للملك ورجال بلاطه أن يستمتعوا بما لا يزال يعتبر أعظم ألوان الترف الحضرى وأكثرها دلالة على الأرستقراطية ، ألا وهو وفرة من الأرض الفضاء التى تمتد إلى ما وراء المسكن ذاته على هيئة حدائق وساحات للمتعة كان يتألف منها أحياناً حى بأسره يتكون من دور للنبلاء وكبار الموظفين .

حتى الحرف الصناعية فى المدينة كانت تدين بوجودها إلى مدى غير ضئيل لرعاية الملك ، وهذه حقيقة قديمة العهد ما زال يرمز إليها فى إنجلترا الشعار القائل « مورد لحضرة صاحبة الجلالة الملكة » . والحملات الملكية للسلب والنهب كانت أول ما وفر ثمار التجارة عن طريق عملية من جانب واحد لجمع المواد الأولية ، فبأمر الملك كانت تهيأ الدروع ، وتصنع الأسلحة ، وتعمل العربات ، ومن أجل زوجات الملك ومحظياته ، وكذلك من أجل صحبة النبلاء ، زاول صناع الحلى والمجوهرات فنونهم لأول مرة . وبعد ذلك بآلاف السنين ، عندما أدخلت فى أوروبا صناعة الخزف الصينى الرقيق ، لم يكن من قبيل المصادفة أن الإنتاج الجديد كان يتم فى مصانع الخزف الملكية فى سيفر ودرسدن ومايسن (Meissen) وكوبنهاجن . ولقد كان أول ما بدأ به الإنتاج الصناعى سلع الترف للبلاط ، بل إن الإنتاج على نطاق واسع لم يبدأ بالحاجات الضرورية ، وإنما بألوان من التقليد الرخيص لمنتجات الترف الخاصة بالطبقة الراقية ، كالحلى التى كانت برمنجهام تصنعها فى القرن الثامن عشر ، أو سيارات القرن العشرين .

وهذه الحقائق المتعلقة بأصول المدينة بأدق معنى الكلمة ، وهى الموجودة فى داخل القلعة ، أو « المدينة الصغيرة » يبدو أنها جوهرية للوصول إلى صورة شاملة لوظائفها وأغراضها . وعلى حد التعبير الاقتصادى الدارج ، كانت القلعة بمثابة المشروع الأصلى الذى تولى مهمة إرشاد المدينة : وهذا يعلل ما هو واقع من أن كثيراً من الخصائص المميزة للمدن والدول اليوم

تحمل طابع الأساطير والانحرافات السحرية القديمة والحقوق والامتيازات التى بطل استعمالها ، وكانت تقوم فى الأصل على ما ادعاه الملوك لأنفسهم ، ومثل ذلك أسطورة حقهم فى التمتع بالسيادة المطلقة . ولحسن الحظ أن المدينة بجمعها بين القرية والقلعة ، وبين الهيكل والسوق ، ظلت تعتمد على ما للقرية من أسس معنوية تتمثل فى عادات العمل المنتظم والتعاون اليومى لأداء عمل مشترك ، وفى الاهتمام بالتغذية والتوالد وتقديس الحياة . حتى هيكل القرية لم ينسن مطلقاً للمركز الرئيسى لإقامة شعائر العبادة أن يقضى عليه كلية ، ففى بلاد ما بين النهرين كانت نواة المعابد فى وحدات الجوار مذاهب وهياكل ثانوية . ولقد عثر الآثاريون فى « خفاجة » على وحدة جوار من هذا القبيل حيث كانت كل دروبها تلتقى عند المعبد .

٤ — التقسيم الحضرى للعمل

عند الكلام عن جماعات العصر الحجرى نستخدم ألفاظا مثل صياد وعامل منجم وراع وفلاح ، والواقع أننا بذلك ننقل ما استعمل فى عصر حجرى متأخر إلى مرحلة سابقة من مراحل التطور الإنسانى . ولو أننا استطعنا التفكير بعقلية الشعوب الباكرة ، فإن من المحتمل أن نجد أنهم كانوا فى نظر أنفسهم مجرد أشخاص يزاولون صيد السمك ، أو برى الصوان ، أو حفر الأرض ، تبعا لمقتضيات ظروف الزمان والمكان ، أما أنه كان يتعين عليهم القيام بالصيد أو الحفر كل يوم ، أى البقاء فى بقعة واحدة ومزاولة عمل واحد ، فإنه يصعب أن يكون ذلك قد خطر ببالهم بوصفه منوالا للحياة يمكن تصوره أو احتماله . وحتى فى عصرنا الحاضر يبلغ من احتقار الشعوب البدائية لمثل هذا الضرب من العمل : أن الأوروبيين الذين يستغلونهم قد اضطروا إلى استخدام كل أنواع التحايل القانونى للظفر بخدماتهم .

ولعل فكرة التقسيم الثابت للعمل ، أى فكرة وقف وجوه عديدة من

النشاط الطبيعى على مزاولة حرفة واحدة طول الحياة ، أو بمعنى آخر ، الاقتصار على ممارسة حرفة واحدة ، لعل هذه الفكرة ، كما بين تشايلد يرجع تاريخها إلى وقت إنشاء المدن . ولقد دفع الرجل الحضرى من انكماش حياته الشخصية ثمن ما ناله من التوسع الجماعى الهائل فى السلطة والسيطرة على البيئة ، فمجتمع العصر الحجرى القديم ، عندما ولج المدينة ، قطعت أوصاله إلى أجزاء عديدة من الطوائف والطبقات والمهن والحرف والصناعات .

ومن المسلم به أن الدلائل الأولى على التخصص وتقسيم العمل قد ترجع إلى العصر الحجرى القديم ، وتتبين فى السلطات الخاصة التى كان يزاولها الساحر أو رئيس الطقوس الدينية . ولعل ذلك قد حدث فى وقت ربما كان قد وجد فيه أيضا نوع من التخصص المهنى بين المهرة فى أعمال المناجم أو نحت الصوان . ويرى هوكارت أن تقسيم العمل كان أصلا تقسيما متوارثاً للوظائف الخاصة بإقامة الطقوس الدينية . ولما كان البدائيون يرون أن الطقوس الدينية لا تقل أهمية عن العمل ، بل إنها أكثر أنواع العمل إنتاجاً ، فإنه لا حاجة إلى افتراض أن كلا النوعين من التخصص كان مقصوراً على أربابه وحدهم ، بل لعل الأصح أن نتوقع أنهما كانا مختلطين وممتزجين ، امتزاج الطقوس الدينية للإخصاب بغرس البذور ورى المحصولات فعلا .

حتى قبل أن تتكون المدينة لعله كان يوجد قدر من الرسوخ فى طوائف ومهن خاصة عن طريق التوارث فى محيط أسرة معينة ،لأسرار بعض العمليات أو لما كان عليه الأسلاف من حذق ومهارة . ولكن لعل أول من تخصصوا حقيقة من الحضريين كانوا أفراد جماعات الصيد المسلحين الذين كانوا يأنفون من العمل اليومى المتكرر بأيديهم ، وحراس الهياكل الذين يرجح أنهم كانوا يعفون من عناء العمل اليومى اليدوى .

وفى المجتمعات الباكرة ، كان العمل ذاته لايشغل إلا جزءاً من الوقت ،

بحيث كان يستحيل فصـــله كلية عن باقى مهام الحياة ، كالدين واللهو والاختلاط الاجتماعى وحتى عن الرغبات الجنسية . وأما فى المدينة ، فإن القيام بعمل مخصص أصبح لأول مرة مهمة تشغل النهار بطوله على مدار السنة . وكانت النتيجة أن العامل المتخصص فى حرفة معينة ، لبراعة يده أو ذراعه أو عينه ، بلغ من البراعة والإتقان فيما يؤديه درجة كان يتعذر بلوغها بغير مثل ذلك التخصص ، إلا أنه فقد سيطرته على حياته فى مجموعها وكانت هذه التضحية أحد العيوب المزمنة التى تمخضت عنها المدينة ، ولقد بلغ من انتشارها أن أصبحت « طبيعة ثانية » فى الرجل المتحضر ، وغدا وقفاً على الطبقات الحاكمة الاستمتاع بنعمة حياة متنوعة الوجوه ، مكتملة الجوانب الإنسانية ، ومتحررة من قيود الاشتغال بمهنة ما . ولقد أدرك النبلاء ذلك فاحتفظوا لأنفسهم فى أكثر من حضارة بلقب « الرجال الحقيقيون » .

ومنذ عهد آدم سميث ، يعلم كل إنسان تمام العلم ما يضمنه التخصص فى العمل من مكاسب فى قوة الإنتاج ، وذلك قبل ابتكار المكنات المعقدة التركيب بزمن طويل . وقيام حضارة المدن بتطوير مثل ذلك التخصص كان من أهم أسباب ما صحب ظهور المدن من تكدس فى رءوس الأموال وازدياد فى الدخل ، قبل حدوث أى تقدم مماثل فى المبتكرات الآلية . فعلى حين كان الكثير من سكان المدن المبكرة يعملون فى الحقول التى يملكها المعبد ، أو كانت لهم مزارع عند مشارف المدينة ، كان شطر متزايد العدد من السكان يزاولون حرفاً وأعمالا أخرى كخدم للمعبد أولا ، ثم كصناع ينصرفون إلى صناعتهم بعض الوقت ، أو طواله ، تلبية لما يطلب إليهم رأساً صنعه ، ولعرض مصنوعاتهم فى السوق .

وفى الرسالة التى تدعى « تهكم على الحرف » — ولعل تاريخها يرجع إلى الألف العام الثانية قبل الميلاد فى مصر — يذكر الكاتب نحو ثمانى عشرة

حرفة مختلفة عن حرفته ـ وهى الكتابة ـ إلا أنه أغفل ذكر المهن الراقية ، كمهنة الكاهن والجندى والطبيب والمهندس المعمارى ، ولا بد أنه بدافع من الإجلال كان يراها فوق النقد أو الاستخفاف ، لأن تقديره للمهنة التى كان يمارسها كان فى الواقع يرجع إلى حد ما إلى ما كانت تتيحه له من فرص الاجتماع بمثل تلك الشخصيات السامية . وتتفاوت الحرف التى يوردها الكاتب ، من الحلاق إلى المشتغل بالتحنيط ، ومن النجار إلى الإسكاف ودابغ الجلود ، وهو فى كل حالة يبرز ما يلقونه من مصاعب ، وما تجره عليهم حرفهم من ضروب العلل والتشويه بالقياس إلى الفرص المتاحة للكاتب الذى كان يعيش فى سعة ويختلط بالعظماء .

وفى المدينة تيسر لأول مرة قضاء حياة بأكملها فى الاشتغال بعمل جزئى ، فقد كان العامل جزءاً فى مكنة اجتماعية معقدة التركيب ، وكان من طراز منتظم بحيث يمكن استبداله بغيره ، كان يوضع فى نفس المكان ويكرر نفس العملية ، ويعيش فى نفس الحى طول حياته . ويلاحظ بيترى أنه حتى فى خارج المدينة فى مجال العمل بالمناجم « نعلم من سجلات الموميات أن العمل كان مقسماً بدقة كبيرة ، فقد كان كل جزء من أجزاء العمل يتحمل مسئوليته شخص بعينه ، فكان واحد يقوم بالتنقيب ، وآخر يختبر الصخر ، بينما كان ثالث يتولى الإشراف على المنتجات : ويوجد أكثر من خمسين صفة ودرجة مختلفة للموظفين والعمال الذين كانوا يلحقون بالحملات التى توفد للعمل فى المناجم » .

ولقد كانت هذه التقسيمات تكمن فى ذات طبيعة المدينة فإنه ما كان يتسنى لهذه العمليات المتداخلة فى بعضها بعضاً أن تؤدى فى كل ناحية من نواحى الحياة الاقتصادية إلا بفضل قدرة المدينة على حشد الأيدى العاملة وتوزيع العمل بينها .

وعندما زار هيرودوت مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كان

التقسيم الشامل للعمل وما تفرع عنه من تقسيم دقيق فى ضروب التخصص ، قد بلغ درجة تماثل ما عاد إليه عصرنا الحاضر ، فإنه يسجل أن « بعض الأطباء يختصون بالعيون ، وبعضهم بالرأس ، أو بالأسنان ، والبعض بالبطن وبالعلل الداخلية » .

وهكذا ، فإن الشكل الحضرى الجديد ، على حين أنه جمع وربط بين جماعات من الناس يتعاونون سويا ، ويتفاعلون معا ، ويفوق عددهم ما سبق وجوده على الإطلاق فى أى مكان واحد ، فإنه قسمهم أيضاً إلى فروع محكمة الانفصال بعضها عن بعض ، وقد اصطبغ كل منها إلى الأعماق بصبغة حرفته . ولقد بلغ من تطرف الهند فى الأخذ بنظام التخصص فى العمل ، أنه وصل إلى حد المسخ حيث أصبحت الطوائف — بعد التقسيمات الدقيقة فى داخل الطوائف — وراثية ، بيد أنه عندما حل عهد أفلاطون كان هذا التقسيم قد تغلغل فى أفكار الناس إلى حد أنه — كنظام الرق نفسه — اعتبر كأنه تقريبا حقيقة ماثلة من حقائق الطبيعة . ويعتبر توينبى الطائفية والتخصص المهنى صفتين بارزتين تدلان على « ركود الحضارة » ، ولكن كل المجتمعات الحضرية تتسم بهذا الركود على درجات متفاوتة . حتى فى الوقت الحاضر ما زال كثيرون عاجزين عن تصور أى تقدم للإنسان إلى أبعد من هذا الحد ، فالناس بعد تحررهم من العمل الجسمانى بفضل المكنات الأوتوماتية ، ما زالوا يطبقون نفس ألوان الجمود والقيود المهنية فى الألعاب الرياضية واللهو والمنح الدراسية والعلوم .

ولقد نشأ عن تقسيم الناس إلى طبقات وفقاً للمهن والطوائف ، أنه تكون منهم فى المدينة القديمة هرم حضرى كان يبلغ ذروته فى الحاكم المطلق . وإذا كانت القمة تتألف من الملك والكاهن والمحارب والكاتب ، فإن الملك بحكم وضعه فى أعلى موقع ، كان يتلقى وحده أشعة الشمس كاملة ، ومن تحته كانت الطبقات تتسع تدريجياً وتتألف من التجار وأرباب الحرف ، والمزارعين والملاحين وخدم المنازل ، والأرقاء المحررين والأرقاء ، وكانت

أحط الطبقات تقبع فى ظل دائم . وكانت هذه التقسيمات تبدو فى الملابس ، وفى أسلوب الحياة ، وفى الطعام وفى المسكن .

ولقد كان من جراء نشوء وظائف اقتصادية ، ومهام اجتماعية لكل طبقة على حدة ، أنها بدورها أنشأت ما يقابلها من المناطق فى المدينة ، ولم تكن السوق أقل هـــذه المناطق شأناً ، إلا أنها لم تكن فى مقدمتها . وإذا كان المعبد المحلى مركز الجاذبية للمقيمين فى نطاق حى بأكمله ، فقد كان يوجد كذلك حاجز مهنى يشاهد بالعين إلى حد ما ، ويمكن التعرف عليه بطراز المنازل الذى كان بمثابة غلاف طبقى . وما زالت هذه العادة باقية إلى اليوم بتجمع أرباب مهن معينة من تلقاء أنفسهم ، حتى دون الضغط عليهم بأى تنظيم محلى يحدد المناطق للطوائف . وهكذا نجد أن فيلادلفيا ــ وهى المدينة التى أكتب فيها هذه الكلمات ــ يتجمع الأطباء فى منطقة صغيرة محورها شارع سبروس (Spruce St.) على حين أن وكلاء شركات التأمين يملأون حيا بأكمله يقع بين دار الاستقلال ومنطقة بيع مواد التغذية بالجملة . و « هارلى ستريت » ، و « ماديسون أفينيو » ، و« ستيت ستريت » هى تعبيرات موجزة لا تنم عن المهن فحسب ، بل عن نظام للحياة بأكمله . وقد كان يوجد ما يماثل ذلك فى روما وأنطاكية ، ومن المحتمل أيضاً فى نينوى وأور .

وقد كان نظام تقسيم العمل والفصل بين الوظائف ، سابقا لاقتصاد النقود ، وكان إلى حد ما ، امتدادا لعادة تقديم القرابين وذلك بالتخلى عن عدد من الوظائف أو بتأجيلها وبالتغيير والتبديل فى أدائها دون قيد ، من أجل التركيز على نوع واحد من النشاط خدمة لصوالح الملك والإله والمدينة . وسواء أكان احتراف الدعارة أقدم مهنة عرفها العالم أم لم يكن ، فإنه لما يلفت النظر أن المتخصصات فى اللهو الجنسى تطالعنا على هذا النحو

المبكر فى النصوص التى تتصل بالحياة الحضرية ، فنقرأ أنه على حين أن « جيلجاميش » استدعى أرباب الحرف وصناع الدروع ، جمعت ايشتار « بنات اللهو وبغايا المعبد » .

وإن هذا التخصص الجنسى المبكر ليوحى باحتمال أن المدن القديمة كانت تحتوى على نسبة كبيرة من الذكور غير المتزوجين ، ولكنه يدل كذلك على عملية أكثر شمولا حدث بمقتضاها أن أعمالا كان يؤديها فى الماضى أهل البيت الواحد فى القرية ــ كالنوم والشراب والأكل والكلام والمضاجعة والتعليم ــ حدث بمرور الزمن فرز هذه الأعمال ، أو تضخيمها وفصلها عن بعضها بعضا فى مبان وأحياء محددة فى المدينة . فالفندق والحانة والسوق والمعبد والمدرسة وبيت البغاء غدت جميعاً تحت إشراف محترفين متفرغين لإدارتها ؛ وعلى هذا الوجه أصبحت المدينة صورة جماعية مكبرة من أهل البيت الواحد . ولقد اقترنت هذه التفرقة بقدر من الابتعاد عما جرت به العادة ، فإن كل الأعمال الضرورية ، حتى ما كان منها بدنيا ، اتخذت مظهرا لاهيا ، وكانت تمارس وتطول ممارستها لما تهيئه من فرص الائتناس أكثر مما تحققه من الأغراض العملية .

وقد زاد استخدام الكتابة والنقود من هذا الابتعاد ــ ابتعاد وظائف متخصصة ومتميزة ــ عن الناموس الأصلى للحياة العادية ، لأنه بنمو التجارة مع جهات نائية غدت كل القيم الإنسانية المتنوعة التى لم تكن لتتمثل إلا فى الشئون المباشرة للحياة ــ غدت هذه القيم تتمثل فى واسطة محايدة يمكن المساومة عليها وادخارها واستخدامها مصدرا تستمد منه القوة للسيطرة على الآخرين .

ولعل الأشكال الرئيسية للتخصص الحضرى قد نشأت أصلا فى المعبد مع أول ظهور الإصلاح والتنظيم فى تلك المراكز المقدسة ، وربما كانت

بالدعارة نفسها قد نشأت عن استخدام الكاهنات فى طقوس الإخصاب ، فإن عادة الدعارة فى المعبد لم يحتفظ بها فحسب إلى وقتنا الحاضر فى بلاد مثل الهند ، بل إن معابد إلهات الحب ، ايشتار وأفروديت وفينوس وإيزيس كانت حسب التقاليد الأماكن المفضلة لتلاقى العشاق . ولقد أثارت الدعارة فى المعبد اشمئزاز هيرودوت ، إذ يلوح أنها كانت فى بابل تقتضى تكليف جميع النساء ، حتى المتزوجات ، بمزاولتها لمدة يوم واحد فى السنة على الأقل ، وكان على المكلفات اللائى يفقن غيرهن قبحا أن يبقين فى المعبد إلى أجل غير محدود حتى تأخذ أحدهم الشفقة بهن فيضاجعهن .

وكل هذا يبرز صفة أعم فيما اتصفت به المدينة ، وهى الطريقة التى استطاعت بها أن تسبغ شكلا جماعيا مهنيا متجرداً ومتخصصاً على الحاجات الإنسانية التى لم يسبق إطلاقا لأحد من قبل التفكير فى تكريس حياة بأكملها من أجل سدها .

وهنا يجب أن نتنبه مرة أخرى إلى الدور المناقض للطبيعة الذى قامت به المدينة : فمن الناحية البيولوچية بلغ الإنسان فى تطوره حداً يفوق كل الأنواع الأخرى ، لأنه ظل غير مقيد بتخصيص معين — فهو يأكل كل أنواع الطعام ، حر فى تحركاته ، ماهر فى استخدام يديه ، ذو كفايات متعددة ، إلا أن تكوينه كان يتسم دائماً بقدر من النقص وعدم الاكتمال ، فلم يستطع أبداً أن يتكيف تكيفا كاملا مع أى حالة بذاتها حتى ولو قدر لها أن تمتد امتداد عصر الجليد الماضى . فالإنسان بدلا من الحد من نشاطه بإيجاد أعضاء متخصصة لتضمن تكيفه تكيفاً فعالا ، وضع كل رأس ماله العضوى — إذا جاز لنا القول بذلك — فى ناحية واحدة من نواحى التطور الحيوانى ، استطاعت ابتكار ما يصلح بديلا من مثل تلك الأعضاء المتخصصة ، ونعنى بذلك الجهاز المركزى للأعصاب . فبفضل ازدياد نمو المخ إلى حد يجاوز بكثير أى احتياجات وظيفية مباشرة ، استطاع الإنسان استنبات أعضاء

جديدة خارج الجسم دون أن يتقيد باستبقائها على الدوام ، كما هو الشأن فى حالات التكيف العضوية الأخرى . والإنسان ببقائه غير مقيد بتخصص معين فتح ألف طريق جديد أمامه ليمضى قدما نحو إدراك المزيد من التقدم :

إلا أن المدنية فى خلال أدوار تطورها داخل المدينة عكست هذه العملية إلى حد ما ، فقد كان أكثر أبناء المدينة حظاً من النجاح هم أولئك الذين انقطعوا إلى التخصص ، وكانت حيلتهم غير المكتملة تتوقف على نجاح الترابط بين أجزاء نظام بأكمله ، وكانت كل جماعة داخلة فى نطاقه راضية بالوقوف عند حدود الدور الذى عهد إليها به . فقد كان محظورا على الصانع المصرى القديم أن يغير حرفته المتوارثة ، وإن كان التعود والشروع فى تعلم الحرفة فى سن مبكرة جعلا هذا الحظر القانونى غير لازم تقريباً . وفى كل مكان كان العامل على الدوام عاملا ، والعبد على الدوام عبداً ، والسيد على الدوام سيدا — على الأقل إلى أن ثار العبد ، أو اشترى حريته أو وقع السيد أسيرا فى الحرب ، وفقد حريته شخصياً .

وهكذا فإن المدينة فى عهد مبكر من تاريخها اتسمت بتعدد الوجوه كخلية الحشرات ، فقــد حققت بوسائلها الاجتماعية ما يقابل التنوع الفسيولوجى الذى يصحب تكامل المجتمعات الحشرية ، بيد أن تقسيم العمل على هذا النحو فى المدينة ، يسمح بحرية التنقل داخلها على نطاق أوسع بكثير مما تعرفه المجتمعات الحشرية . حتى الدعارة ، على الرغم من أنها كانت تقضى على طبقة بأسرها بمزاولة تلك المهنة الدنيئة ، فإنها لم تصل إلى حد إيجاد طبقة بمفردها للتوالد الجنسى تخصص للحمل والولادة . « ولعل هذا اللون من البشاعة ما زال ينتظر انتصار إنسان ما بعد التاريخ » . ومع ذلك فإن وجه المقارنة بين مجتمعات البشر والحشرات ينطبق حتى على الحياة العاملة ، إذ أنه فى خلال عمر واحد ما زال اختلاف أنواع الحرف يتسبب فى الإصابة بأنواع معينة من المرض أو العجز ، بل بتغييرات فى تركيب

الجسم . وما زال هذا الاختلاف يؤثر فى معدل الوفيات وطول العمر فى كل مهنة كبرى .

٥ – الملكية والشخصية

وقد تبع ازدياد عدد السكان وزيادة الثروة ظهور نوع آخر من التقسيم ، وهو تقسيم الناس إلى أغنياء وفقراء ، وجاء هذا التقسيم مع الابتكار التالى العظيم فى الحياة الحضرية وهو نظام الملكية . فالملكية بمعناها المعروف فى ظل المدنية لم يكن لها وجود فى المجتمعات البدائية ، وإذا وجد أى نوع من الملكية فإن الناس كانوا ملكا للأرض أكثر مما كانت الأرض ملكا لهم ، وكانوا يتقاسمون منتجاتها فى سمان الأيام وعجافها سواء بسواء . وقد قيض للمدنية أن تصطنع المجاعات ليبقى العامل مرتبطا بعمله فيحصل الغنى من فائض الإنتاج على ما يضمن له الاستمتاع بالرفاهية .

وإننا لنجد فى التحول من القرية إلى المدينة مزيداً من التأييد لهذا الاستقراء لأساليب المجتمع ، وذلك أن الأرض وكل ما كانت تنتجه أصبح ملكاً للمعبد والإله ، بل إن فلاحيها كانوا ملكاً للمعبد ، كما أن كل أفراد المجتمع الآخرين كانوا ملكاً للأرض ، وملزمين ببذل جانب من جهودهم فى أداء الواجبات المشتركة من حفر وإقامة جسور وإنشاء مبان . ونتيجة لاتساع سلطات الملك الزمنية ، غدت هذه الممتلكات ضيعته ، وقد رسخ فى الأذهان الربط بين الأملاك العامة والسلطة صاحبة السيادة العليا إلى حد أنه حتى فى الدول الحديثة ، مع تقديرها الشديد لحقوق الملكية الخاصة ، نرى أن الدولة نفسها هى المالك والوريث الأخير لما يتبقى من التركات ، وذلك بفضل ما لها من سلطة الاستيلاء وفرض الضرائب ، فهذه السلطة هى فى آخر الأمر سلطة الامتلاك أو إنزال الخراب .

ولم تبدأ الملكية الخاصة عن طريق السرقة ، كما ظن برودهون

(Proudhon) ، بل عن طريق اعتبار جميع الأملاك العامة ملكاً خاصاً للملك الذى كانت حياته ورفاهيته تتوحدان مع حياة المجتمع ورفاهيته ، فكانت الملكية امتداداً واتساعاً لشخصه بوصفه الممثل الأوحد للمجتمع بأكمله . بيد أنه عندما قبل هذا الزعم أصبح من الممكن لأول مرة نقل الملكية ، أى أخذها من المجتمع عن طريق المنح من الملك بمفرده .

ولقد ظل هذا المفهوم للممتلكات الملكية باقياً فى شكله الأصلى إلى ما بعد عصر لويس الرابع عشر ، فإن الملك الشمس عند ما ساوره شىء من القلق فى شأن الضرائب الثقيلة التى كان يرغب فى فرضها ، دعا فقهاء باريس الأعلام ليقرروا ما إذا كان يوجد من الناحية الأدبية ما يبرر مطالبه الباهظة . وقد كان لاهوتهم كفؤًا للتجاوب مع هذا الموقف ، إذ أنهم أوضحوا له أن الدولة بأسرها كانت ملكاً له بموجب الحق الإلهى ، وعلى ذلك فإنه بفرض هذه الضرائب الجديدة إنما كان يفرضها على نفسه . وقد انتقل هذا الحق — دون أى مساس به — « إلى الدولة ذات السيادة » فهى فى أوقات الأزمات الطارئة تلجأ دون تردد إلى القديم من السحر والخرافة .

ولقد بدأ فصل الملكية وتقسيمها عندما شرع الحكام المستبدون فى منح الهبات لرفاقهم النبلاء وأتباعهم وخدمهم مكافأة لهم على ما أسدوه من خدمات ؛ وعندما أفلتت الملكية من زمام الأملاك العامة ، كان من الممكن نقلها أو تقسيمها أو زيادتها . وفى زمن غير قريب ، حوالى سنة ١٧٠٠ ق . م . عندما صـــدر تشريع حامورابى يتبين مما فيه من قوانين مفصلة عن الملكية الخاصة ونقلها وإعارتها وتوريثها ، أن هذا الوضع القانونى الجديد كان قد ظهر إلى الوجود .

وفى داخل المدينة ، اكتسبت حقوق الملكية قدسية خاصة ، وتبعاً لازدياد وتنوع الطبقات ازدادت كذلك أهميتها — بل كثيراً ما كانت أعظم حرمة من الحياة البشرية نفسها ، وذلك أنه فى سبيل حماية هذه الحقوق ، كان الحكام

الأوائل لا يترددون فى تشويه جسم المعتدى أو بتر بعض أعضائه . بيد أن الفجوة العامة بين الأغنياء والفقراء كانت تبدو بوضوح حتى فى هذا ، فقد كانت توجد درجات مختلفة من العقاب لكل طبقة .

ولم تكن هذه الألوان من العنف التى قضى بها القانون تراث نظام بدائى أشد نكراً ، كما كان يحلو للقدامى من دعاة التقدم أن يعتقدوا ، بل إنها كانت على الأصح — كالحرب نفسها — نوعاً جديداً من القسوة والوحشية تميزت بها حضارة المدينة ، فهى ما وفق جامباتيستا فيكو Giambattista Vico فى وصفها « بوحشية المدنية » .

ولقد نشأ عن التخصص والتقسيم والإكراه واختلال الإنية توتر داخلى فى المدينة ، نجم عنه فى كل أدوار التاريخ تيار خفى من السخط المستتر والثورة الحقيقية ما يبدو أنه لم يسجل إطلاقاً على وجه كامل ، إذ أن هذه المشاعر كانت لا تظهر بوضوح إلا فى فترات قصيرة عندما كان العبيد يثورون وتخمد ثورتهم بمذبحة دموية بينهم ، مثل ما حدث فى عصر الأخوين جراكوس[1] .

ولكن يبدو كأنه حفر على أسوار المدينة القديمة بما لا يدع مجالا للشك فى أن المدينة قد قامت منذ البداية على أساس من العمل الجبرى ، وأن هذا العمل الجبرى لم يفض إليه الاسترقاق فقط ، بل احتكار توفير الطعام ، إذ أن ندرة الطعام وفقاً لخطة مرسومة ، وتكرار التعرض لخطر المجاعة ، قد قاما منذ البداية بدور فى تنظيم قوة العمل الحضرية تنظيما فعالا . ولا عجب فى أن السر مورتيمر هويلر قد طرب جزلا عندما توصل فى النهاية إلى التعرف على مخزن الغلال الكبير فى قلعة موهنجودارو ، فإن القوامين على

---

(١) الإشارة هنا إلى ثورة العبيد فى صقلية التى نشبت فى سنة ١٣٤ وأخمدت فى سنة ١٣١ ق . م . وقتل فيها عدد كبير من أشد العبيد خطورة . وقد تولى تيبريوس جراكوس التريبيونية الشعبية فى روما فى سنة ١٣٣ ق . م . وتولى أخوه الأصغر جايوس المنصب نفسه فى عامى ١٢٣ و ١٢٢ ق . م . (المشرف)

هذا المخزن ، ومن حولهم قوة عسكرية مسلحة ، تشد أزرهم ، كانوا يتمتعون بسلطة الحياة أو الموت إزاء المجتمع بأسره . فلم يكن دون هدف أو غاية أن هذا المخزن العظيم قد أقيم فى داخل الأسوار الضخمة للقلعة ، مصوناً من سكان المدينة .

ولما كان تقسيم العمل ينطوى على قيود تحد من جوانب الحياة فما الذى دعا إلى تحمله — وإن لم يكن محتملا على إطلاقه — طوال تلك القرون والآلاف العديدة من السنين ؟ توجد طرق مختلفة لتعليل قبوله ، وأولها أنه ساعد على إنشاء أول نظام اقتصادى للوفرة ، كان التعرف على مزاياه فى أول الأمر أسهل من الوقوف على ما سيفضى إليه من وجوه العجز والضعف . وهذه هى إحدى الحقائق العديدة التى تربط بين ما حدث فى أواخر العهد الحجرى الحديث من تضخم فى القوى البشرية ، وبين التغييرات المماثلة التى حدثت فى عصرنا الحاضر . وعلى الرغم من الاحتكارات الملكية والكهنوتية فإن شطراً من الكميات الضخمة من المنتجات كان يتسرب إلى الطبقات الدنيا فى الهرم الاجتماعى ، وكان ساكن المدينة مهما بلغ من الفقر ، يحصل على نصيب أكبر من عامل القرية : ولو لمجرد أنه كان أقرب إلى مصدر التموين . حقاً إنه لم يكن ليتسنى لساكن المدينة أن يرتوى من النبع الملكى ، ولكنه على النقيض من ساكن القرية ، كان يعيش على مقربة منه ويفوز ببعض ما يطفح على جوانبه .

ولحسن الحظ أن التكوين الاجتماعى للمدينة ساعد على التغلب على ما كان فيها من ضروب القهر والتضييق ، فهى إذا كانت قد فرقت شمل الناس وأرغمتهم على قضاء حياتهم بأكملها منصرفين إلى القيام بأعمال بعينها ، فإنها عادت فجمعت شملهم فى وحدة اجتماعية جديدة بحيث إن حياتهم الفردية ربما كانت محدودة الأفق كثيرة القيود ، على حين أن تكوين المجتمع الحضرى الذى تم على هذا النسق ، كان أوفر اكتمالا بفضل تباين طابع العناصر التى

تألف منها . ولم يقتصر الأمر على أن كل طائفة خاصة وجدت فى المدينة طوائف أخرى مماثلة ، بل إن كلا منها كانت تستطيع أن تتبين ، فيما تنطوى عليه المعاملات اليومية من أخذ وعطاء ، ثروة من الإمكانيات الإنسانية التى ظلت مختفية طوال بقائها فى مستوى أحط شأناً .

وإذا كان من المحتمل أنه فى كل جيل يوجد شخص واحد ذو كفاية خارقة للعادة بين كل عشرة آلاف من الناس مثلا ، فإن جماعة من ألف شخص قد يطول بها الانتظار لعدة أجيال قبل أن تظفر بعقلية ممتازة ، وهذه العقلية قد تفتقر بسبب عزلتها إلى الباعث الذى تمدها به عقليات أخرى وبذلك تعينها على الاهتداء إلى حقيقتها . بيد أنه كان من الممكن أن تتمخض مائة ألف نسمة ، فى سومر أو بابل ، فى القدس أو أثينا ، فى بغداد أو بنارس ، عن خمسين عقلية ممتازة على الأقل فى مدى جيل واحد ، وبحكم قوة الاتصالات الحضرية كانت هذه العقليات تصادف عدداً من ضروب التحدى والإلهام يفوق كثيراً فى تنوعه ما كانت تلقاه لو أنها ظهرت مجتمع أصغر من مجتمعها .

وأخيراً ، إذا كان الرجل الحضرى – نتيجة لتقسيم مواطنى المدينة إلى طوائف وطبقات – قد فقد ما كان له من كيان مكتمل كان يحس به وهو فى حالته القروية البسيطة ، فإنه قد اكتسب على الأقل عن طريق غيره ، وهو يبرز من خادرة القبيلة والعشيرة والأسرة والقرية ، إحساساً جديداً بشخصية الفرد . فعند قمة سلم التخصص المهنى ، برز فرد واحد كان يقوم بمهمة الملك نفسه ، وهو فرعون مصر أو « لوجال » سومر . وإذا كان يوجد فى الدرك الأسفل رق أو إكراه ، فإنه عند القمة – ومنذ عهد طويل عند القمة وحدها – كانت تتوافر الحرية والاستقلال فى الرأى ، وحرية الاختيار ، وكلها صفات ناجمة عن الشخصية ، مما كان يتعذر وجوده فى نظام يقوم على ترابط الأسرة والإجماع القبلى .

وكما أوضح فرانكفورت ، كانت الإرادة الملكية تسبغ على الأعمال التى يقوم بها مجتمع بأسره ، سمات الأعمال التى يقوم بها شخص متكامل ، كالاستعداد لمواجهة المخاطر ، واتخاذ القرارات ، ومتابعة أهـــداف بعيدة أو عسيرة التحقيق . ومهما تكن ألوان الحرمان والمصاعب التى كان يفرضها نظام حضرى واسع النطاق ، فإن أحقر فرد فى المجتمع كان يشارك عن طريق الإنابة ، فى اتساع مهام الملك ، بل فى تأمل المزيد من الصفات الإلهية التى كان يشارك فيها كذلك بوصفه من مواطنى مدينة لا يستهان بها ، وبهذا المعنى كانت المدينة بأسرها ملكاً لأقل سكانها شأناً .

وإنى لأعيد القول بأنه قد تمثل فى الملك ظهور الفرد لأول مرة فى مركز ذى مسئولية – يسمو على مركز باقى الجماعة ، ويبتعد عن النموذج الجماعى . وبظهور المدينة تمثلت فى الملك فكرة جديدة للتطور الإنسانى ، وأصبحت المدينة هى الصورة الجماعية المجسمة لهذه الفكرة الطارئة . وقد أخذت حقوق الملك وامتيازاته تنتقل واحدة إثر أخرى إلى المدينة ومواطنيها ، إلا أن إحداث هذا التغيير قد اقتضى آلافا من السنين ، وعندما تم حدوثه كان الناس قد نسوا أين وكيف بدأ .

وعلى هذا الوجه أصبحت المدينة بيئة خاصة لا تقتصر مهمتها على شد أزر الملوك فحسب ، بل تشمل تكوين رجال ، أى أفراد يفوقون أقرانهم الذين يعيشون فى ظروف أضيق نطاقا ، بحيث يكونون أكثر منهم تفتحا لإدراك حقائق الكون ، وأوفر استعدادا لتجاوز مطالب المجتمع القبلى وعاداته ، وأعظم قدرة على تمثل القيم القديمة وإيجاد قيم جديدة ، وعلى اتخاذ القرارات والسير فى اتجاهات جديدة . وكان أول امتياز ملكى انتقل – بشىء من التبرم – إلى باقى أفراد المجتمع هو الخلود كما كان المصريون يتصورونه ، بيد أنه مع مرور الزمن تبعته مميزات أخرى .

وفى النهاية غدت المدينة ذاتها العامل الرئيسى فى تحول الإنسان ، وأداة

التعبير عن الشخصية على أكمل وجه ، فعلى المدينة كان يفد موكب طويل من الآلهة ، ومن المدينة كان يظهر فى فترات متباعدة رجال ونساء يلمون بكل نواحى عالمهم الذى يعيشون فيه ، ولهم من القدرة ما يفوق قدرة آلهتهم المحدودة . بيد أن الناس لم ينشئوا المدينة أصلا وفى ذهنهم احتمال حدوث شىء من هـذا القبيل فى النهاية ، فالسلطة والملكية أعدتا عن غير قصد مهداً للشخصية ، وقد كان من شأن الشخصية أنها على مر الزمن قوضت ما كان لها من ادعاءات ومزاعم جوفاء .

٦ — نسق التطور

قد تعيش مجموعات من الكائنات فى بيئة مشتركة ، وتفيد من نشاط بعضها بعضاً دون أن يبلغ أى كائن منها أكمل مراحل نموه ، أو يدرك أقصى ما له من قدرة على التطور ، بل إنها فى الواقع قد تعيش معا زمنا طويلا وهى تكابد تدهورا منتظما يتسم بتشوهات مادية وانحطاط فى القدرة على مقاومة الأمراض وقصر أجل الحياة . فالبقاء على قيد الحياة لا يدل فى ذاته على شىء فيما يتعلق بتطور أو مرتبة الكائن الذى يبقى حيا .

إن التكافل الإيجابى الذى عرفه مجتمع قرية العصر الحجرى الحديث ، قد خلفه إلى حد كبير ، أو على الأقل قوض دعائمه فى التكوين الأصلى للمدينة ، تكافل سلبى قوامه الحرب والاستغلال والاسترقاق والتطفل . ولقد حقق التكافل الإيجابى الاستقرار فى مجتمع متوازن عنى بالمحافظة على توازنه إلى حد لم يدع مجالا للنمو والتطور ، وعندما دخلت المجتمع الحضرى الآخذ فى التكون عناصر طفيلية دأبها السلب والنهب ، ظهر فى الوجود حافز جديد يبعث على النمو ، وهو ما يفسر التوسع الزائد فى كل وظائف القلعة ، ولكن الوسائل ذاتها التى تم بها تحقيق هذا النمو ، وجهت المجتمع إلى التضحية وضنك الحياة ، فضلا عن الهلاك والموت قبل الأوان .

والواقع أن حكام القلعة تمادوا فيما كانوا يمارسونه من تطفل ، فقد ازدادوا تطرفا باطراد فى طلب الثروة والقوة المادية ، وبدلا من إخضاع مطالبهم لمقتضيات حقيقة الواقع ، وإشراك رفاقهم من المواطنين فى المزيد من الخيرات التى كانوا يحتكرونها ، ضاعفوا من مطالبهم إلى حد جاوز ما كان يمكن تحقيقه محليا .

ولم يكن من الميسور تحقيق هذه المطالب إلا بتوسيع نطاق دائرة الاستغلال ، وعلى ذلك فإن نمو العواصم الكبرى مثل نينوى وبابل وروما ، لم يتم إلا ببسط رقعة الإقليم الداخلية الخاضعة لها ، وبإيجاد تكافل سلبي يقوم على الرعب من توقع الهلاك والإبادة .

وكما يلاحظ كونتناو « من الواضح تماما أن الثروة الهائلة للإمبراطورية الآشورية والبابلية ، دون ذكر حالات أخرى ، كانت تعتمد إلى حد كبير على نظام الرق » . وبالمثل ينبغى أن يكون واضحا كذلك أنه كان من الممكن أن تكون هذه الثروة التى جمعت ، أضخم بكثير ، وأن تكون القوة التى استعرضت أطول بقاء ، لو أن حكام هذه الإمبراطوريات لم يطلقوا العنان لقسوتهم المتجردة من الإحساس والشعور . بيد أن هذا النطاق الذى زيد اتساعه من أجل الاستغلال ، كان كذلك مجالا من الممكن أن ينشأ فيه ترابط وتبادل مثمر ، فقد كان من المستطاع بذل كل جهود المدينة الناشئة فى إيجاد نوع أوسع نطاقا من المشاركة لو لم تستنفد فى إيقاع الأذى وإصلاح نتائجه .

وبرغم ما فى المدينة من نواح سلبية ، فإنها أوجدت حياة هادفة تمكنت فى مواطن عديدة من أن تتخطى ببراعة نطاق الأغراض الأصلية التى كانت سببا فى ظهورها إلى الوجود . ولقد عبر أرسطو ، على نحو يتعذر التعبير بأفضل منه ، عن طبيعة هذا الانتقال من المرحلة التمهيدية فى العمليات والوظائف الحضرية إلى مرحلة ظهور الأهداف الإنسانية ، فهو يقول :

« يتجمع الناس فى المدينة ليعيشوا ، ويبقون فيها لكى ينعموا بالحياة المثلى » .
وتعريف طبيعة المدينة فى أى إطار حضارى معين هو إلى حد ما تعريف
كل من الصفات المحلية والصفات الأعم منها للحياة المثلى .

بيد أنه حتى فى حالة الطبقات التى أفادت بوجه خاص من إنشاء المدينة ،
ظهر مرارا وتكرارا أن حياة الرجل المتمدن ، على النحو الذى كانت تسير
عليه فى المدن الكبرى ، كانت حياة كريهة جوفاء . وهل من قبيل المصادفة
أن كلا من الحضارة المصرية وحضارة بلاد ما بين النهرين خلفت لنا
محاورة خالدة عن الانتحار بسبب اليأس من فراغ الحياة المتمدنة ؟ وتبين
هاتان المحاورتان أن الرجل الحضرى برغم تغلبه على ما فى مجتمع القرية من
أسباب العجز والقصور ، لم يستطع التغلب على ضعف إيمانه الفطرى الذى
أفضى إليه بعده عن مصادر الحياة ، وانصرافه الكلى إلى السعى وراء القوة
والثروة . حتى حضارات الشرق المبكرة — بل لعل هذه الحضارات بوجه
خاص — أصيبت بالداء الذى يتهدد اليوم حضارتنا بالاكتساح ، وسط ما بلغته
من التقدم التقنى ، ونعنى بذلك المادية التى لا هدف لها ولا غاية . ولقد
توقف تقدم الحياة الحضرية فى أوان مبكر بسبب الوقوع فى خطأ اعتبار
التمدية غاية لذاته .

ولقد أوضح توينبى أنه لا توجد علاقة مطردة التناسق بين ازدياد
سيطرة الإنسان على بيئته الطبيعية وما يقترن بذلك من ازدياد تعقد
الأجهزة التقنية ، وبين صفة الحضارة الإنسانية . على أنه إذا كانت
هناك علاقة على الإطلاق فهى علاقة عكسية ، وذلك أن الحضارات التى
تظل راكدة غير خلاقة فى المحيط الإنسانى ، كثيراً ما تتمخض عن مبتكرات
واقتباسات تقنية بارعة ، على حين أن الحضارات الأقدر على الخلق فى
المحيط الإنسانى ، تحول ضروب نشاطها نحو وجوه أسمى وأرفع إلى حد أنه
حتى أجهزتها التقنية تتجرد تدريجيا من صفاتها المادية ، وتصبح أقل حجما

أو وزنا ، وأبسط فى تصميمها أو فى تشغيلها . ويطلق توينبي على هـذه العملية « الأثيرة »[1] .

وإذا قارنا بين التركيب الميكانيكي الضخم الطنان فى ساعة الحائط التى صنعت فى القرون الوسطى وتوجد فى كنيسة العذراء (Marienkirche) بمدينة لوبيك (Lubeck) ، وبين ساعة حديثة رقيقة مصنوعة فى جنيف ، فإننا نجد أن الأخيرة لا تزيد على جزء ضئيل جداً من الأولى فى الوزن والجسم ، ولكنها تكاد تفوقها تفوقا ساحقا من حيث الدقة فى تعيين الوقت . وإن هذا التحول ليحدث فى جميع النواحى بدرجات متفاوتة ، وهو ينطوى فى المنشآت الحضرية على تضاؤل الوعاء وازدياد قوة المغناطيس .

وعند ما تستمر عملية « الأثيرة » ، فإن شطرا متزايداً من البيئة المحيطة بنا مكاناً وزماناً يصبح مهيئاً للمزيد من التطور الإنسانى ، وذلك بالضبط لأنها تركزت فى صورة رمزية ، فعلى حين أن الكائنات الأخرى لا تحتاج من ماضيها إلى أكثر مما تحمل فى جيناتها (genes) ، ولا من بيئتها إلى أكثر مما هو موجود ماديا ، تتوقف مقدرة الإنسان على مدى اتصاله بأحداث أشد بعدا ــ سواء أكانت عالقة بالذهن أم ماثلة أمام العين ــ وبنواح فى بيئته قد تكون بعيدة أو يتعذر الوصول إليها . وعند ما تتوقف عملية « الأثيرة » لا يستطيع الإنسان تحقيق قدر معادل من التطور عن طريق العمل المباشر طوال حياته .

ولم يستخلص توينبي هذه النتيجة ، ولكن يبدو من الواضح أن « الأثيرة » أحد المبررات الرئيسية لوجود المدينة ــ ولو أنه مبرر انبثق منها ولم يكن يجول فى خاطر الذين أنشأوها أصلا ــ بل إنه إلى اليوم لم يقدر حق قدره تماماً . والعلوم والفنون فى متعدد صورها هى سمات هذا الانطلاق ومن

---

(١) يستخدم توينبى كلمة (etherialization) ، بمعنى جعل قوام الأشياء أثيريا . (المشرف)

اليسير التعرف عليها . وفى بيئة التكافل الإيجابى تشد هذه الوظائف أزر بعضها بعضا ، وتنساب فى نواح كثيرة التنوع من ضروب النشاط ، فمعيار الحياة هو كيفية ممارستها ، ومهما يبلغ من شأو النتائج الفرعية للحياة ، فإنها لا تغنى عنها ، إذ أنها ليست إلا دوافع لانتهاج أسلوب من المعيشة أكمل وأوسع نطاقا . وتبعا لذلك فإن كل التضحيات التى عاونت على ظهور المدينة إلى الوجود ، تكون قد ذهبت هباء إذا لم تجد جزاءها فى الحياة التى توفرها المدينة ، فلا ازدياد السلطة ، ولا الثروة المادية التى لا تحد ، بقادرة على التكفير عن يوم تنقصه لمحة من الجمال ، أو بريق من المرح ، أو تقوية الأواصر ومشاركة الناس صحبتهم .

بيد أنه فضلا عن هذا ، تؤدى المدينة وظيفة تعادل ذلك فى الأهمية ، وقد سبق أن وصفتها فى مؤلف آخر ، وهى وظيفة التمدية (materialization). وعلى الرغم من أن توينبى يغفل كليا هذه الناحية من العملية الاجتماعية ، فإنها تحدجنا ببصرها ونحن نجول فى أرجاء المدينة ، ذلك أن المبانى تتكلم وتعمل على نحو لا يقل عن شأن ساكنيها ، وعن طريق المنشآت المادية فى المدينة ، نجد أن الأحداث الماضية والقرارات التى اتخذت منذ زمن بعيد ، والمعايير التى حددت وتحققت ، تبقى حية وتباشر تأثيراً محسوساً .

ويظهر أن نسق الحياة فى المدن هو تناوب بين التمدية والأثيرة والبناء المادى عندما ينفصل عما عداه باستجابة الإنسان لتأثيره ، يتخذ معنى رمزيا يربط بين العارف وما عرف ، على حين أن ما يجول بالخاطر من صور وأفكار وأحاسيس لم يكتمل تكوين المظاهر الأصلية للتعبير عنها ، يتخذ كذلك مظاهر مادية ببروزها للعيان فى شكل منشآت تؤدى بحجمها وموقعها ، وما فيها من تشابك وتعقيد وتنظيم ، وما لها من جمال وروعة فى الشكل ، إلى اتساع معنى المدينة وقيمتها مما يتعذر الإعراب عنه بوسيلة

أخرى . وعلى هذا فإن تخطيط المدينة هو الذروة النهائية فى عملية تمدية وافية بالغرض من الناحية الاجتماعية .

حتى حينما تتجسد فكرة فى شخصية « بشرية » ، لا يتوقف تأثير تلك الشخصية على مجرد الاختلاط بها ومحاكاتها رأساً ، فإنه لكى يحقق الشكل تكامله ويظل باقيا بعد انقضاء أجله ، وخارج نطاق الجماعة التى يعيش فيها ، يحتاج أيضاً إلى أن تسانده مجموعة من الأنظمة والمبانى . وتحويل الأفكار إلى عادات وتقاليد عامة ، وتحويل الرغبات والمقاصد الشخصية إلى منشآت حضرية ، هما إحدى المهام الرئيسية للمدينة .

وبمقتضى هذا التفسير يكون كل من الأثيرة والتمدية أمراً لا غنى عنه لاطراد تقدم التطور الإنسانى . وعندما يحالف التوفيق الحياة ، فإن كلا من العمليتين تتناوب مع الأخرى على نحو طبيعى كما يتناوب كل من الشهيق والزفير . وليس النمو كما يتصور توينبى عملية واحدة تنحصر فى اطراد التجرد من الصفات المادية ، أى تحول الحياة الأرضية إلى صورة سماوية ، فإنه ليس من قبيل العبث أن أحجار البناء فى الدنيا هى العناصر التى تدوم وتبقى ، على حين أنه ليس من شأن أكثر العناصر اتساماً بالأثيرية — تلك التى لا تدوم حياتها أكثر من بضع ثوان إلا أن تجعل الدوام على أى وجه أمرا متعذرا لو أن الغلبة كانت لها على ما عداها من العناصر . فكل من الاستقرار ودوام الخلق والإنشاء ضرورى ، ولقد كان الجمع بينهما الهبة الكبرى التى قدمتها المدينة للإنسان .

ولقد احتلت كل من الجنة والمدينة الطوباوية مكانا فى بناء المدن القديمة ، بيد أن جهنم كذلك أصبحت جزءا من بنائها التشكيلى ، وذلك بقدر ما قد يصيب أفضل الخطط الإنسانية من فشل ، وما قد ينتاب أوفر الأحلام الإنسانية نصيبا من النجاح — بسبب هذا النجاح فى ذاته — من الاستسلام لألوان الانحراف الداخلية . وكثيرا ما حدث أن الشكل المادى الذى نتج

قد ظل قائما بعد زوال الحافز المثالى الذى عجل بظهوره ، كما هى الحال فى الأوعية ، فإن القديم من المبانى والطرق العامة يمكن أن تصلح بعد تعديلات طفيفة لتكون مسرح حلم جديد ، ولكن هذا التطور لم يتم إلا مؤخرا . ولقد بلغ من أهمية الرمز فى ذاته لدى الحكام الحضريين الباكرين ، أن أكثر من مدينة دكت دكا ثم تولى مدمرها إعادة بنائها على الموقع عينه . وما من قاعدة من قواعد الإدراك السليم أو علم الاقتصاد يمكن أن تفسر هذا المسلك .

٤ – الدراما الحضرية

وأخيراً فإن لوجوه النشاط المميزة للمدينة القديمة صبغة خاصة ، وذلك أن هذه المدن كانت تعيش فى حالة من التوتر والتفاعل ، وكانت هذه الحالة تنتهى إلى أزمة ، أى تبلغ ذروتها فى فترات معينة . ولقد تميزت هذه الحالة فى مرحلة مبكرة من مراحل تطور المدينة بظهور فن جديد هو فن الدراما . وللدراما مصدران على الأقل مهّدا لظهورها فى المدينة ، وقد بحثت أحدهما جين هاريسون Jane Harrison على وجه يدعو إلى الإعجاب فى كتابها « الفن القديم والطقوس الدينية » . حيث أوضحت كيف أن الدراما ، أى « ما تم عمله » قد نشأت أصلا فى الطقوس الدينية الموسمية القديمة للقرية ، وكان لكل أهل القرية دور يقومون به فيها . ولعل الفكرة فى ذاتها ، فكرة القيام بدور ما أو أداء دور ما ، قد نبتت فعلا فى المهرجانات السحرية الدينية قبل أن تتخذ أى مظهر آخر .

ولقد كانت تتمثل فى هذه الطقوس الدينية الصفات الجامدة لمجتمع القرية . وفى خلال نقل هذه الطقوس الدينية إلى المدينة تضخمت عن الأدوار ، وعلى الرغم من أن الموضوعات كانت تظل وثيقة الصلة بالخرافات والأساطير الأصلية فإنه كان من شأن ازدياد وعى المؤلف الممثل أن يحفزه إلى استحداث إضافات و « شطحات » . وكان هذا الانتقال من

الطقوس الدينية إلى الدراما ، من النسق الثابت المتكرر إلى النسق الدينامى المتسم بالمغامرة ، والحافل بالنقد العقلى ، والتأمل والوعية ، والخروج إلى حد ما عن المألوف ، كان هذا أحد الأعمال البارزة التى حققتها المدينة .

وعند ما دخلت الدراما إلى المدينة ، اكتسبت قوة من نوع آخر من المهرجانات القبلية ، وهى المسابقات أو المباريات ؛ وكانت أحياناً نضالا بين المواهب العقلية ، وأحياناً أخرى تنافساً فى استعراض القوى البدنية والمهارة فى استخدامها ، ومن المحتمل أن هذه المسابقات كانت أصلا تصاحب حفلات دينية كحفلات الألعاب الجنازية . ومن المحقق أنه عندما ظهرت الآلهة على مسرح التاريخ ، كانت أحداث الكون التى ترمز لها تبرز إلى حد كبير جداً على هيئة معارك ؛ كتلك التى تقع بين النور والظلام ، وبين الماء والأرض ، وبين الحقل والصحراء ، وبين الخير والشر . ولعل هذه المكائد والمعارك قد ظهرت أولا فى شكل دوافع ورغبات لاشعورية قبل أن تجد فى المدينة مسرحاً لنشاطها .

والناحية غير الجدية لهذا الصراع لم يتيسر إطلاقاً لأجهزة المدينة السياسية والاقتصادية أن تزيلها كلية ، ولذلك فإن المسابقات الرياضية والمصارعات الدموية ظلت قائمة جنباً إلى جنب مع معارك أشد ضراوة من أجل الاستحواذ على السلطة ، ولم يكن ذلك سمواً بالنوازع العدوانية بقدر ما كان تدريباً لها تدريباً تمهيدياً يتسم بالبراءة الشديدة على نحو ما تدرب الفتاة الصغيرة غرائزها حين تلعب بالدمى . ولعل المهنة الأولى لساحة السوق العامة فى بلاد الإغريق أو روما ، كانت توفير المكان الذى تتكون فيه حلقة من المتفرجين حول المشتركين فى مباراة ما ، ثم انتقلت إلى المدن فيما بعد عادة إقامة مثل هذه المباريات . وينوه فيرجسون W. S. Ferguson بأن الجمعية الشعبية فى أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد كانت مباراة كبرى بين رجال السياسة . ونعرف مما كتب فى زهو على نصب أحد القبور أنه كانت توجد مسابقات بين

صانعى الفخار . وكانت توجد أيضا مسابقات بين مربى الخيول ، والمغنين ، والفصائل العسكرية ، ومؤلفى الموسيقى ، وكتاب المسرحيات ، ولقد كانت مزاولة عادة اختيار الزعماء والتشيع لناحية ما ، من أول مظاهر التمييز الاجتماعى بين المواطنين . ولقد ضخمت المدينة هذه العملية وضاعفت من مناسباتها .

وإلى جانب نص رواية الأسرار الخفية التى كانت تمثل فى أبيدوس ، فإن من بين أقدم النصوص الأدبية الحضرية التى عثرنا عليها ، النصوص التى خلفها أهل سومر وهى مساجلات ساذجة بين أضداد ، شأنها شأن المفارقات الأولية فى كل من الدراما والمجادلات المنطقية البدائية ، فهى مساجلات بين الصيف والشتاء ، وبين المحراث والمعزقة ، وبين الراعى والفلاح . وقد صحب وعيبة الرجل الحضرى ، إحساس أعمق بفوارق تبدت أول الأمر فى متناقضات صارخة ، وعلى مر الزمن فى كل الظلال الدقيقة ، والخطوط الحادة ، التى يتألف منها « الخلق » وهو يتكون جانبا بتأثير الدور الذى يقوم به الإنسان فى الحياة ، وجانبا بتأثير ما يوجد بين الأفراد من وجوه الاختلاف التى لا حصر لها بالقياس إلى المتوسط العام بينهم .

وربما اقترن بهذا الإحساس مزيد من الاستمتاع بالمقارعة ذاتها ، أى بالمواجهة والصراع بين رجل ورجل ، بوصف ذلك صميم جوهر الحياة الحضرية . ولقد كان يلازم هذا المظهر الأكبر من مظاهر التوتر ، روح عدوانية شديدة العنف إلى حد أن المتنافسين كانوا يقذفون بعضهم بعضا بالشتائم ، ويكيلون فوقها من اللعنات ما كان من شأنه أن يعتبر جريمة تستحق الموت لولا أن روح الدراما ذاتها كانت تنقذ الموقف — أى أن كل ذلك كان من مقتضيات الدور ، وأن الحياة كما تمثل فصولها ، ضرب من الخداع والإيهام . وما دامت المدينة تؤدى مهماتها الأساسية فإنها لا تسمح للصراع والتوتر بأن يزيدا على الحد ، فضلا عن أنها ترفع من شأن ما لهما من دلالة .

فالمدينة القديمة إذن كانت قبل كل شيء مسرحا اتخذت فيه الحياة العادية شكل دراما زيدت روعة بكل حيل الملابس والمناظر ، فتنسيق أوضاع المكان الذى يدور فيه التمثيل يضخم الصوت ويجعل قامة الممثلين تبدو أطول من حقيقتها . ومهما بلغ من شدة ارتباط هذه الحياة الحضرية بالطقوس ، فإنها كانت تزخر بالمواقف الجديدة التى لم تعد تصلح لمواجهتها حكمة الأمثال ولا الردود التى درج الناس طويلا على تقديرها . وإذا توغلنا بعيداً عبر طيات الماضى فى تتبع أصل العناصر التى كانت تتكون منها هذه الدراما ، فإننا سنجد أن كلا منها ، وليس المسرح وحده ، يستمد نشأته من الدين ، وكما أن أولى المنازلات التى سمعنا عنها ، كانت تلك التى دارت بين الآلهة والأبطال ، كذلك فإن أولى المسرحيات الجديرة بهذا الاسم قد مثلت فى المعبد .

وكانت المسرحيات تعبر — بما تدور حوله من مواقف وأحداث وصراع وأزمات وحلول — عن واقع الحياة الجديدة فى المدينة ، وكان من شأن التأمل فيما ترمز إليه أن يزيد من دلالة ما فى تلك الحياة من أسباب التوتر والإثارة . وكلما زاد عدد « الأدوار فى التمثيلية » ازدادت خطتها تعقيداً — كما ازدادت النهاية غموضا .

« إن المدينة هى التى أعادت تكوين الإنسان » . إن هذه الملاحظة التى صدرت من روبرت ردفيلد Redfield — وهو باحث حكيم من المشتغلين بدراسة حضارات الشعوب البدائية — هى أبعد غورا مما يسلم به عادة أغلب علماء الاجتماع وعلماء النفس ، فيما عدا ج. ل . مورينو Moreno . حقا إن المجتمعات البدائية أعادت تكوين الإنسان ، بيد أنها عندما كانت تستقر فى قالب خاص بها يشتمل كل أفرادها ، كانت تعمد إلى تفادى أو منع المزيد من التغيير . ولقد كان الأمر على نقيض ذلك فى المدينة ، فإن تكوين الذات وإعادة تكوينها كانا من مهماتها الأساسية ، وكل مرحلة حضرية فى أى جيل

تهيئ عدداً وفيراً من الأدوار الجديدة وقدرا مماثلا من الإمكانيات الجديدة المتنوعة ، مما يفضى إلى ما يقابلها من التغييرات فى القوانين والعادات والقيم المعنوية والملابس والعمارة ، وينتهى الأمر بتغير حال المدينة بوصفها كلاً حيا .

وقد سار مثل هذا التفرد فى الصفات ، وما انطوى عليه من إزالة المظهر القبلى أو المحلى ، جنبا إلى جنب مع التطور فى وظائف أخرى أكثر سموا ، فالذكاء يشحذ متابعة الملاحظة والتسجيل بانتظام ، بل إنه ليرهف المشاعر ويهذب العواطف ويروضها بتفاعلها باستمرار مع مشاعر وعواطف الآخرين فى بيئة متحضرة . وهنا نجد أن الرجل الحضرى ، بالعمل والمشاركة ، وكذلك بالابتعاد والتأمل ، استطاع أن يوفر لجانب أكبر من الحياة فرصة الإفادة من ممارسة الفكر والروح الجماعيين ونشاطهما باستمرار . فما بدا على هيئة صراع خارجى مع قوى الطبيعة العادية انتهى إلى دراما داخلية لم تكن خاتمتها أى انتصار مادى ، بل ازدياد فهم الفرد لذاته وتطورا داخليا أوسع نطاقا .

والأعمال اليومية المعتادة فى المدينة كالأعمال المنزلية والحرف والمهن ، يمكن تأديتها فى أى مكان تقريباً ، حتى عندما تكون من نوع عال من التخصص ، فإنه من الميسور أن تمارس فى منطقة منعزلة مستقلة خارج المدينة — على نحو ما شرعت تعمله ثانية فى وقتنا الحاضر الكثير من المؤسسات الكبيرة شبه الإقطاعية . بيد أنه لا يتسنى فى غير المدينة حشد العدد الكامل من الأشخاص للقيام بأدوار الدراما الإنسانية ، ومن ثم فإنه لا يوجد إلا فى المدينة وحدها ما يكفى من التنوع والتنافس لبث الحيوية فى أحداث الدراما ، ودفع الممثلين إلى أداء أدوارهم بأقصى مهارتهم وأعمق مشاعرهم .

وإذا استبعدنا المناسبات الدرامية فى الحياة الحضرية ، كحفلات المصارعة ، والمحاكمات ، وجلسات البرلمان ، والمباريات الرياضية ،

واجتماعات المجالس والمناقشات ، فإن نصف ما فى المدينة من وجوه النشاط الجوهرية يزول ، وأكثر من نصف ما فيها من قيم ومعان يتضاءل ، إن لم ينعدم . ولقد نجم عن جميع أنواع التمثيل والطقوس الدينية ظهور شىء أكثر أهمية ، وهو الحوار بين الناس . ولعل خير تعريف للمدينة فى أرقى مظاهرها هو القول بأنها مكان أعد لتوفير أوسع الفرص لتجاذب أطراف الحديث الهام .

فالتحادث إحدى الوسائل الجوهرية للتعبير عن الحياة فى المدينة ، إنه الزهرة الرقيقة لنبت المدينة بعد ما طال أمد نموه . ولا جدال فى أن التحادث تقدم بصعوبة — إذا كان قد تقدم على الإطلاق — فى المدينة الباكرة ، وذلك لأن المجتمعات الحضرية الأولى كانت تقوم على أساس حديث القوة ، وهو حديث من جانب واحد ، فإذا ما صدرت مشيئة رجل الدين أو الأمر الملكى لم يكن من الحكمة الاعتراض على ذلك .

والواقع أن التحادث كان الخطوة الأولى فى الخروج من نطاق التطابق القبلى الذى كان عقبة فى سبيل الوعى والتطور . وبتزايد عدد السكان اكتسب التحادث من الجرأة ما جعله يتحدى الإجماع القاتل الذى أفضى إليه نظام السلطة المطلقة المركزة . ومن المحتمل أن « شكوى الفلاح الفصيح » فى مصر لم تتكرر كثيراً ، إلا أن هذا الاعتراض الأول من نوعه أحدث فى الجو الفكرى تغيراً بقطع الأنفاس ، إلى حد أنه بعث على نسخ القصة وتناقلها آلاف من السنين ، ولو لمجرد أنها بشرت بتقدم تحادث حقيقى فى كل مكان .

ولم يكن التحادث جزءاً من الخطة أو المهمة الأصلية للمدينة ، شأنه فى ذلك شأن الكثير من السمات الأخرى للمدينة التى انبثقت منها ، إلا أنه قد مهد لظهور التحادث احتواء النطاق الحضرى المقصور على أنواع متباينة من الناس ، وقد كان من شأن ذلك أن يتحول التحادث إلى دراما . والمدينة بعملها على زيادة تنوع المهن والناس ، لم تعد مجتمعاً يسوده التماثل التام فى الرأى والخضوع التام لسيطرة المركزية . وكما جاء على لسان هايمون

(Haemon) فى مسرحية « أنتيجونى » (Antigone) لسوفوكليس : « أن مدينة لا رأى فيها إلا لرجل واحد ليست مدينة » . ولا يمكن أن يتحول الصراع إلى مناقشات منطقية إلا حيث تقدر قيمة الاختلاف فى الرأى وتباح المعارضة ، وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نحرف قول بليك (Blake) ونقول إن المدينة ، من حيث نظامها الداخلى ، مكان يثبط همة الحرب البدنية ، ويشجع الحرب العقلية .

وجون ستو John Stow ، ذلك الملاحظ القدير لحالة المدن — وكان يعيش فى عهد الملكة إليزابيث — قد عرف هذه المهمة الخاصة من مهام المدينة فى إيجاز مثالى ، فهو يقول : « إن الناس بموجب هذا التقارب فى التحادث ، ينصرفون عن عنف الهمج وتوحشهم إلى قدر من الوداعة فى سلوكهم ، وإلى الإنصاف والمشاعر الإنسانية ، مما يحملهم على القناعة بأن يتعاملوا بالحق مع نظرائهم والأدنى منهم ، وبأن يسمعوا ويطيعوا رؤساءهم ومن هم أعلى منهم » .

وإذا كان توفير مادة التحادث والدراما فى كل تشعباتهما هو إحدى المهام الأساسية للمدينة ، فإن أحد عوامل التقدم الحضرى يصبح واضح المعالم — وهو يكمن فى توسيع دائرة القادرين على المشاركة فى التحادث إلى أن ينتهى الأمر باشتراك كل الناس فيه . وفى هذه العملية يجب الاعتراف بأن الأدوار الأصلية التى حددت ليقوم بها الناس فى المدن ؛ بحيث ينصرفون طوال حياتهم إلى أداء عمل بذاته ، كانت دائماً بمثابة وضع حدود لكل مجال المسرحية الإنسانية وأهميتها ، وإقامة حصار من الأنظمة حول حرية تطور الشخصية على أكمل وجه . وبالخضوع لهذه القيود فى هدوء واستسلام ، ترك إنسان العالم القديم لخلفائه المتأخرين واجباً لم ينجز .

فليس من قبيل المصادفة إذن ، أن أكثر من مدينة تاريخية بلغت ذروتها فى حوار يلخص كامل تجربتها فى الحياة ، ففى سفر أيوب نرى القدس ، وفى

مؤلفات أفلاطون وسوفوكليس ويوروبيديس نرى أثينا ، وفى كتابات شكسبير ومارلو (Marlowe) وديكر (Dekker) وويستر نرى لندن فى عصر الملكة إليزابيث. والحوار التمثيلى إلى حد ما أكمل رمز ، وكذلك أكبر مبرر لحياة المدينة ، وللسبب نفسه فإن أعظم أمارة تكشف عن إخفاق المدينة ، وعن انعدام وجودها كشخصية اجتماعية هو عدم وجود تحادث فيها - وهذا لا يستتبع حتماً أن الصمت يخيم على المدينة ، إذ أنه لا تقل عن ذلك دلالة الأصوات العالية التى تصدر عن جماعة تردد الألفاظ نفسها فى تطابق مبعثه الرعب وإن اتسم بالرضى والارتياح . وإن صمت القبور لأعز وأكرم من لغط الأصوات فى مجتمع لا يعرف التفرد ، ولا المعارضة المنطقية ، ولا يعرف التعليق الساخر ، ولا التباين المثير ؛ كما لا يعرف تصارع الآراء ، ولا الروح المعنوية اليقظة . إلا أن مثل هذه الدراما لتنتهى على وجه التحقيق بفصل ختامى مفجع .

الفصل الخامس

ظهور المدينة الحرة (Polis)

١ ـ فلزع مينوس

عندما ننصرف عن أودية الأنهار ـ حيث تكاثرت المدن فى مبدأ الأمر بالجزر الصخرية فى بحر إيجه ، والكتل الجبلية والسهول الواسعة فى شبه جزيرة البلقان ، نجد لأول وهلة أن الاختلاف فى البيئة الطبيعية يلفت النظر أكثر من أى اختلاف فى الأنظمة الحضرية الأساسية . بيد أن كلا من الأحوال الجغرافية والأغراض الإنسانية أفضت إلى تعديلات كثيرة فى المظهر الخارجى للمدينة . فهنا ، كما هو الشأن فى كل مكان ، نجد أن التربة والطقس ، والتكوين الجغرافى ، والنبات ، والوضع الإقليمى بأكمله قد تركت طابعها حتى على صحة السكان ، وكذلك على نواحى نشاطهم الاقتصادى ، وعلى وجهة نظرهم فى الحياة :

وإذا كانت المدن القديمة فى بلاد ما بين النهرين تتكون من مراكز تعبئة للتحكم فى النهر ، ومعالجة الأضرار التى تسببها العواصف ، فإنه لم يوجد فى مدن بحر إيجه شىء يشجع على قيام هذا الضرب من التعاون والتوحيد على نطاق واسع ، بل إن طبيعة الأرض فى ذاتها لم تدع للإنسان مجالا للقيام بتعديل كبير . وما مدى التأثير الذى كان يمكن أن يحدثه فى جزيرة باروس (Paros) إنشاء محجر فيها إذا كان الجبل بأسره كتلة من الرخام ؟ بيد أنه إذا كانت مدن السهول تسودها أحوال متماثلة تقريباً ـ فيما عدا وجوه الخلاف بين الشمال والجنوب ـ فإن حالة مجتمعات بحر إيجه كانت على عكس ذلك . فنى نطاق ضيق قد يبلغ العشرين ميلا من البحر إلى قمة الجبل ،

أوجدت الطبيعة اختلافات كثيرة فى الطقس وأنواع النبات . وإذا كانت محصولات الغلال وفيرة فى التربة الثقيلة بالأودية السفلى ، فإن أشجار الفاكهة والجوز ، وخاصة أشجار الزيتون والقسطل ، حررت إلى حد ما سكانها المقتصدين من ضرورة العمل بلا انقطاع ؛ فحتى الفلاحون فى بحر إيجه كان فى وسعهم أن يعرفوا الفراغ ويستمتعوا بثمراته .

وفى كريت وبلاد اليونان ننتقل من حضارة الشعير والجعة ، إلى حضارة الزيتون والنبيذ ، ومن الأغنام السمينة التى تعين على استمرار الخصوبة فى تربة غنية ، إلى الماعز العجاف التى تنهش بنهم الأعشاب اللينة النامية على سفوح التلال ، وعلى مر الزمن تكشف لعوامل التعرية طبقة التربة الرقيقة التى تكسو تلك التلال . وفى الوقت عينه ، فإن ما بالجبال من شقوق عميقة ، وما فيها من أنهار تفيض على غير انتظار ، أرغمت جماعات السكان على أن تعيش منعزلة عن بعضها بعضا . وإذا كان النيل والفرات قد ساعدا الإنسان الباكر بوصفهما طريقين للمواصفات ، فقد كان البحر بالنسبة لهذه المجتمعات الإيجية عقبة تكاد تعادل الممرات الجبلية ذاتها فى صعوبة الاقتحام . حتى بعد ابتكار القوارب والسفن ، كانت الملاحة عملا يزاول فى الجو المعتدل ويهجر فى الشتاء ، إذ أن الملاحين كانوا يتخذون سبيلهم عبر البحر الذى تتناثر الجزر فى أرجائه ، بالانتقال من رأس من الأرض إلى رأس آخر دون الابتعاد عن مكان يصلح للرسو فيه . وكان ركوب النهر لا يقتضى أكثر من الانقياد للتيار لبلوغ المكان المقصود دون سواه ، أما البحر فكان يتطلب مجهوداً جريئاً ويقظة فى التوجيه والاختيار .

والجبال المغمورة تحت سطح البحر – التى تكونت هذه الجزر من قممها الشامخة – وكذلك سلسلة الجبال المتصلة فى شبه جزيرة البلقان ، كانت بطبيعة تضاريسها شديدة الوعورة . وعلى الرغم من أن ما بها من كتل الحجر الجيرى وفرت مواد ممتازة للبناء بحكم أنها صخور ليست صلبة إلى حد

تستعصى معه على التشكيل بسهولة ، ولا هى رخوة إلى حد أنها لا تحتمل المقاومة والبقاء ـ على الرغم من ذلك فإنه لم يكن فى الاستطاعة تشكيل سطح الأرض وتحديده على نحو ما كان يتيسر عمله من تحديد رواسب النيل والفرات بالجسور والترع . وأقصى ما كان يمكن عمله هو أنه ببذل جهد يقصم الظهور ، كانت جوانب التلال الشديدة الانحدار تعد للزراعة على هيئة مدرجات . ولم يجرؤ أحد على التفكير فى تشكيل أعظم من ذلك حتى عهد الإسكندر عندما اقترح مهندسه المعمارى دينوكراتيس (Deinocrates) أن ينحت من جبل آثوس صورة له بطراز مثالى ينم عن بطولته الخارقة . ولم يقتصر الأمر على أن جزر بحر إيجه كانت بمثابة معابر كثيرة منعزلة ، بل إن كل واد فى الجزر الكبرى وفى شبه جزيرة البلقان ، كان أشبه شىء بقمة جبل مقلوبة ، وفى عزلة عما حوله ، كانعزال أى جزيرة طبيعية ، بل لعل الوصول إليه كان أشد صعوبة ، فلم يكن يوجد إلا القليل من الظروف التى عاونت على نمو المدن الأصلية والمواقع الصالحة للبناء ، إلى حد أنهم كانوا أحيانا يتخذون من شعبة جبلية تكاد تكون صخورا عارية موقعا لإقامة مدينة ، كما حدث فى حالة دلفى . حتى فى السهول كان المزارع يبدى من التبرم ما يمكن تبريره عند تخليه عن أرض زراعية لإقامة المبانى الحضرية .

وفى هذا الجزء من العالم ، بدأ نشوء المدينة فى كريت ، فإن خصوبة الأراضى المنخفضة فى هذه الجزيرة كانت عوناً للزراعة فى العصر الحجرى الحديث ، وعلى جوانب التلال كانت ثمار القسطل والتين والزيتون والعنب تكمل غذاء يتألف من حبوب الأراضى المنخفضة وأسماك البحر . ووفقاً لما يقوله تشايلد كانت هذه القرى الباكرة تؤلف مجتمعات منفصلة عن بعضها البعض لا تخضع لأى نظام مشترك للسيطرة » فهى لم تكن قد امتزجت بعد لتؤلف شعبا واحداً ذا حضارة متجانسة . ولكن يلوح أنهم كانوا يعيشون معاً فى سلام

إذ أنه لم يعثر على أى تحصينات ، وأنهم كانوا ينتمون إلى نظام اقتصادى واحد ، وذلك بالنظر إلى اطراد التماثل فى أنواع الآلات المعدنية والأوعية الحجرية .. الخ» وتحت مستوى أقدم مخلفات الحضارة المينوئية فى مدينة كنوسوس فى وسط كريت ، وجدت أنقاض إحدى هذه القرى التى ترجع إلى العصر الحجرى الحديث ، وكان يتألف منها تل يتجاوز فى ارتفاعه ثمانية عشر قدماً — مما يدل على أن سكنى هذه القرية دامت مدة طويلة .

وفى كنوسوس نستطيع التعرف مرة أخرى على قلب المدينة الباكرة ، أى القلعة ومعها المعبد نفسه الذى يبدو أنه أدمج فى القصر . وهل كانت فى الواقع هذه الجزيرة الجبلية ، التى يطوقها البحر وكأنه خندقها ، إلا قلعة هائلة ؟ إن مناعة كريت ضد الغزو فى الظروف البدائية أكسبتها من العزلة الهادئة عين ما تمتعت به مصر وقتاً ما ، وظفرت به إيسلنده وإنجلترا فيما بعد . وعلى ذلك فإن كريت نعمت بشىء من التحرر من الخوف وانعدام أسباب القلق والتوتر ، وما ينشأ عنها من تشتيت الجهود وتبلبل الأفكار ، مما جعل الحياة تزدهر فى خلال المراحل الأولى للحضارة المينوئية . فجزيرة كريت بأجمعها ، التى تركت الآن للرعاة والفلاحين ، كانت يوما ما تتناثر بين جنباتها القرى والمدن ومخازن الغلال والجبانات الضخمة . وفى وسعنا أن نستنتج من هذه الحقيقة وحدها ، دون حاجة إلى المزيد من البينات ، أن سادة القلعة ، ملوك البحر فى العصر المتوسط للحضارة المينوئية ، كانوا يسيطرون على أساطيل عظيمة حربية وتجارية كان فى وسعها كبح جماح القراصنة ، واستحضار الأغذية والمواد الخام فضلا عن المنتجات المصنوعة، إلى هذه المدن المحصنة على خير وجه ، فقد كانت حصوناً داخل حصن . وإن ما كان فى كنوسوس من الجدران الحجرية وأنابيب المياه المصنوعة من القرميد ليحدثنا عما كان بها من تركيز فى العمل وبراعة فى الهندسة مما يمكن مقارنته بما اشتهرت به سومر ، وتؤيد ذلك المعدات الداخلية فى القصر .

وعلى الرغم من أن أطلال كريت ، ومثل ذلك أطلال « جورنيا » لا تمدنا إلا بالقليل من المعلومات عن طبيعة المدينة مما لم يسبق لنا الوقوف عليه فى بلاد ما بين النهرين ، فإن قطعة مذهلة من تلك الأطلال — وهى مجموعة لوحات من الخزف اللامع وجدت فى قصر مينوس — تبين ، فيما يتعلق بطبيعة المدينة المينوئية ومظهرها ، أكثر مما يمكن جمعه من كل القصور التى كشف عنها إلى الآن .

ولقد عثر السير أرثر إيفانز على هذه اللوحات ، التى لا ينبغى وصفها بعبارات أفضل مما استخدمه هو نفسه إذ يقول : «كانت المعالم الرئيسية فى هذه اللوحات تتألف من الأبراج والمنازل ، ومدينة محصنة . ومع ذلك فقد كانت هناك بقايا وفيرة من نوع آخر من مواد الترصيع ، فهى تطالعنا بأشكال أشجار ومياه وماعز وثيران ، ومحاربين يسيرون بخطى منتظمة ، وحملة رماح ، وقناصة بالسهام ، وأسلحة ومعدات ، ومقدم سفينة فيما يبدو ووجوه متزنجة غريبة . . . ولعل أكبر ما يدعو إلى الدهشة هو منظر هذه الواجهات ، فهى ترينا منازل تتألف من طابقين أو ثلاثة ، فضلا عن غرف فوق السطح ، ونوافذ ذات أربعة أو ستة ألواح . ووجود نوافذ فى ذلك الوقت تتألف من أربعة بل ستة ألواح وتشتمل على بديل لزجاج النوافذ ، ينهض دليلا آخر على ما حققته الأيام الزاهرة فى التاريخ المينوئى من السبق المدهش إلى أساليب المدنية الحديثة — وهو سبق ليس أقل ظهوراً فى أجهزتهم الهيدرولية ، وأدواتهم الصحية » . وقد حدد إيفانز تاريخ هذه اللوحات بأنه « على الأرجح ليس بعد النصف الأخير من القرن الثامن عشر قبل الميلاد » .

وفى خلال نصف القرن الأخير منذ تم هذا الكشف أزيح الستار عن بعض ما فيه من غموض . وذلك أنه عند ما تغلب الآثاريون على انشغالهم كلية بالمادة التى كشف عنها — وهو أمر طبيعى كان يشوبه قصر النظر من الناحية العلمية —

أخذوا يتبينون فيها خواص حضارة من الحضارات فى ضوء قرائن أعم وأشمل مستمدة من طرق النقل والغزوات والهجرات والفتوحات ، وتبادل المعاملات التى اتضح أنها أقدم عهدا ، وأوسع نطاقا مما كان يخامر الباحثين فى القرن التاسع عشر «فالوجوه المزنجة الغريبة» لم تعد تبدو الآن غريبة إلى هذا الحد ، لأنه إذا كان تزنجها قد بلغ حدا لا يسمح باعتبارها وجوه أشخاص من أهل سومر ذوى البشرة السمراء ، أو من سلالتهم ، فلعلها كانت وجوه نوميديين من أفريقية . والمستوى الراقى الذى بلغته تصميمات المساكن ، أو ما يضارع ذلك من التفنن وسعة الحيلة فى إنشاء الوسائل الصحية التى وجدت فى القصر ليذكرنا تماما بسومر . . . وتوحى أناقة واجهات المنازل بأنها كانت فيما يبدو ، مثل القصور ، تشتمل كذلك على معدات داخلية متقنة وتوجد فيها مجار داخلية لجلب المياه وتصريفها . بل ربما كانت توجد فيها دورات للمياه تشبه تلك التى قامت الأدلة على وجودها فى مدن السند ، مثل هارابا (Harappa) وموهنجودارو قبل عام ١٥٠٠ ق . م . وفقا لما يقوله هويلر .

إلا أن النافذة كانت أعظم ما استحدث فى كريت ، ففى هذا المجال تقدمت كنوسوس تاركة وراءها مساكن سومر المظلمة التى لم توجد بها نوافذ وكان الضوء لا ينفذ إليها — إذا نفذ على الإطلاق — إلا من فناء ضيق ، أو من الفتحات الناتجة عن التفاوت فى ارتفاع سقف حجرات متجاورة . ومما يزيد هذا أهمية ودلالة ، ويجعله أشد غموضا من وجهة نظر تاريخ فنون الصناعة ، أنه لا بد من أن النوافذ كانت تغطى بمادة شفافة لم تعرف إلى الآن ، وكان فى الاستطاعة إنتاجها بكميات كبيرة نسبيا . وفضلا عن ذلك فإن قصر « فايستوس (Phaestos) كانت به مجار وأنابيب من الفخار لمياه الشرب ، وتوحى هذه الأنابيب بوجود نبع جبلى ، ولعله كانت توجد كذلك خزانات وقنوات معلقة بنيت من الحجر .

وبالأمس فقط – على حد ما يقولون – قام لويس فارنيل Lewis Farnell ببحث جرىء فى ديانات بابل والأناضول واليونان ليختبر على ضوء الشواهد التى كانت موجودة فى سنة ١٩١١ مدى صحة ما زعمه موريس جاسترو Morris Jastrow وغيره من الباحثين فى تاريخ بلاد ما بين النهرين من أن الديانة الإغريقية المبكرة اقتبست من الديانة البابلية بقدر ما اقتبس التنجيم الإغريقى بعد ذلك من التنجيم البابلى . ولقد انتهى فارنيل إلى رفض التسليم بوجود تشابه بين الديانتين ، ولكنه صاحب الفضل فى فتح باب الموضوع على مصراعيه . وتأكيد هيرودوت أن الحضارة الإغريقية مدينة للحضارة المصرية لا يبدو اليوم لغوا ولا افتراء بقدر ماكان يبدو لدى علماء الدراسات الإغريقية فى القرن التاسع عشر . ولقد كانوا ينظرون خطأ إلى الحضارة الإغريقية على أنها آية فريدة فى بابها ، أو على الأصح غير مقتبسة من سواها ، وإذا كان العلماء الذين جاءوا فيما بعد ، مثل ف . م . كورنفورد F. M. Cornford ، وترسموا خطى فارنيل قد نقلوا الدَّيْن فى شطره الدينى من مصر إلى بابل وبينوا تماثل الآلهة والأساطير فى كل من الديانتين ، فليس من شأن ذلك إلا أن يحدونا إلى البحث عن المزيد من وجوه التشابه بين حضارة بلاد ما بين النهرين والحضارة الإيجية ، وإن كانت إحداهما قد انبثقت من النهر كفرس الماء ، والأخرى من البحر كأفروديتى .

إن البينات المستمدة من كريت وفيرة ، ولكنها شذرية ، وهى لذلك تثير الشغف ولكنها لا تنقع الغلة ، ولا سيا فيما يتعلق بالمدينة . وإذا كان الكريتيون يصعدون إلى قمم الجبال لعبادة إلههم ، فمن المحتمل أن أحد العناصر الرئيسية فى تكوين المدينة لم يهبط أبداً إلى مركزها . وفيما عدا صور المدن الكريتية ، ومن الواضح أنها تتوج عهداً طويل الأمد من التطور الفنى والحضرى ، فإن نحو ألف وخمسمائة أو ألفى سنة من التاريخ الحضرى ما زالت مجهولة لنا ، فيما خلا معالم مبهمة غير متكاملة ، وحتى إذا أمكن فى النهاية

حل طلاسم جميع المخطوطات المينوثية ، فليس من المحتمل أنها ستروى لنا ما يزيد كثيراً على ما عرفناه من قبل عن المدينة . فالأنقاض الفنية لهذه الحضارات المبكرة لم تكن إطلاقاً من ابتكار أخصائيين فى الاجتماع الحضرى، ولا مفكرين موهوبين ذوى نظرة شاملة مثل أرسطو ، بل إن الاحتمال ضئيل فى أنه كان يوجد كريتى قديم من طراز هيرودوت ، فقد يسفر البحث هنا كما أسفر فى أماكن أخرى عن مراسلات تجار وحساباتهم ، وقوانين حكام ومفاخراتهم ، ووصفات سحرية وطقوس دينية ، ولكن على الرغم من أنها قد تروى لنا شيئاً عن محتويات الحياة الحضرية فإنها خليقة بألا تروى إلا القليل عن غلاف تلك الحياة .

وقد كانت كريت ، على سبيل المجاز فى التعبير ، جزيرة أتلانتا أخرى ، فإنها على حين فجأة « اختفت فى البحر » أو — وهو ما يكاد يكون الشيء نفسه — لعل أساليبها الرفيعة فى الحياة ، وما كانت تنعم به من طمأنينة يبدو أنه لا سبيل إلى منازعتها ، قد ولدت على مر الزمن طبقة منحلة من الحكام ، وبعد انقضاء عدة قرون على وقوع زلزال مدمر ، قضت على كل منشآتها عصابات مماثلة من ميكينى ، ولعلها كانت تخرج للغزو من مواقع قلاعها ، وخاصة ميكينى وتيرينس . وبوسعنا أن نتخيل أن الفاتحين الجدد كانوا ، على مثال الفحول الأقوياء المختالين الذين نجدهم فيما بعد فى الإلياذة ، رجالا يسارعون إلى إثارة الخصام والنزاع ، ويتلهفون على الصيد ويبذلون فيه أقصى الجهد ، ويحذقون أساليب العنف والسرقة ، ويبدون جرأة فى أعمال القرصنة فيقومون بغارات على السواحل المصرية ، بيد أنهم احتفظوا بما كان النبلاء العريقون يكنونه منذ القدم من الاحتقار للعمل الشريف ، وما لا يقل عن ذلك احتقارا للتجارة الشريفة . ولقد ترتب على احتلالهم المتواصل لكريت أن تحولت تلك الجزيرة إلى ضرب من البقايا السياسية المتحجرة للدولة العسكرية العزيزة على أفلاطون .

وعلى أثر التدمير الشامل لمدن كريت وقصورها ، انكمشت نواحى النشاط الحضرى واقتصرت على الأعمال الضئيلة فى القلعة ، ذلك المعقل الحصين للسيطرة ، وظل الغزاة المسلحون يرقبون بعين يقظة سكان البلاد المستعبدين الذين كانوا يفلحون الأرض . وبقيت كريت إلى عهد أفلاطون صنوا مقابلا لإسبرطة ، ومن ثم كان يراهما جديرتين بالإعجاب سواء بسواء . ألم يقدم أحد أبناء كريت بدلا من أحد أبناء إسبرطة المقوتين إذ ذاك للاشتراك فى الحوار الختامى فى مدينته الطوباوية ؟ ومن المحقق أنه لم يكن من قبيل المصادفة أن التدريب على أساليب القتال والتمرينات الرياضية استعداداً للحرب كانت من العناصر الأساسية فى تدريب النخبة الممتازة فى كل من البلدين . ولعل المائدة العامة التى كان يفخر بها من الكريتيين والإسبرطيين كانت لها دعامتان : إحداهما فى المعبد والأخرى فى الثكنات .

ولا بد من أن بعض العادات التى نشرتها هذه الأرستقراطية الميكينية وخلفاؤها من الآخيين والدوريين — وكانوا جميعاً يتشابهون فى العقلية والتفكير — لا بد من أن تكون قد تسربت إلى المدينة الإغريقية عند ما تكونت حوالى القرن السابع قبل الميلاد . وعلى الرغم من أن حصونها فقدت أهميتها الحضرية القديمة ، فلعلها بوجودها ومناعتها أتاحت لثيسيوس (Theseus) — الذى ابتدعت الأساطير شخصيته — أن يتبين مدى الدور الذى كانت المدينة تستطيع أن تؤديه بوصفها مركزاً للتجمع ، بل أيضاً مقراً مستديماً فى الشتاء للفلاحين والصيادين الذين لم تكن لديهم وسيلة أخرى لحماية أنفسهم .

ومن أجل هذا السبب ، نوجه عناية خاصة إلى التمهيد الذى حدث فى العصر المينوى بكريت على الرغم من قلة التراث الذى يبدو أنه قد خلفه . وأما فيما يتعلق بمراكز استقرار الميكنيين ، فإنها رجعت القهقرى إلى مستوى حضرى أشد بدائية ، ولو أن من المحتمل أنها كانت تتألف من تجمعات كبيرة من المنازل والمساكن المزدحمة فى مدن أقرب شكلا إلى ما كشف عنه أطلال

أسفل طبقات أريحا منها إلى أناقة أطلال طبقات كنوسوس . ويبين أن سيادة الميكنيين لم تؤد إطلاقاً إلى توافر القوى الحضرية الدائمة التي لا غنى عنها لسير النمو قدما ، كإصدار قوانين مدونة ، ووضع ضوابط لأداة الحكم ، وسن نظام للضرائب ، مما كان من شأنه أن يكفل لها البقاء حتى إلى ألف سنة . ولذا سرعان ما انهارت السلطة التي كانت تعتمد أساساً على القوة الشخصية .

وفيما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد أخذت خيوط نسيج حضرى جديد تمتد وتتشابك فى أرجاء بحر إيجه ، فقد امتاز هذا العصر بظهور حروف الهجاء ، وبابتكار سك النقود حوالى سنة ٦٥٠ ق. م . كما أنه امتاز بانتقال السلطة من القلعة إلى المجتمع الديمقراطى الذى كانت القرية قاعدته ، وبارتفاع القرية ذاتها إلى مرتبة من الوعى ، واتساع أفق فهمها اتساعا كبيرا . وتشهد بذلك كل من قصيدتى « هسيود Hesiod » : « أعمال وأيام » و « نسب الآلهة » (Theogony) . وإن ما فعله هسيود من الجمع بين الإدراك العملى المألوف وبين الأساطير والتأملات الدينية أرسى قواعد النظام الحضرى الجديد من حيث الطابع والاتجاه ، ولقد بلغ هذان المظهران أوج اكتمالها فى المدينة الحرة الإغريقية (Polis) حيث انتقلت إلى المدينة كل سلطات أبطال الأساطير من ملوك ومحاربين مغرمين بالقتال كانوا يسكنون الأكروبول ، فإذ ذاك ظهرت المدن ، وكانت بداية ظهورها فى أيونيا بالأناضول على شاطئ بحر إيجه[1] ، ثم تكاثرت وازدهرت وأنشأت المستعمرات . ففى زمن مبكر يرجع إلى سنة ٧٣٤ ق . م . أنشأت كرونثه مدينتى سيراقوسه وكوركيرا ، وفى خلال فترة تزيد على قرن — تمتد على وجه التقريب من ٧٣٤ إلى ٥٨٥ ق . م . — بفضل حركة استعمارية بالغة النشاط . قامت بها جماعات من مختلف

---

(١) جاء فى الأصل سهوا على شاطئ البحر الأسود . (المشرف)

المدن الإغريقية ، كانت تحمل معها كل الأنظمة والمعدات الأساسية الموجودة في المدينة الأم التي خرجت منها كل جماعة ، تيسر نشر « المدينـــة الحرة » الإغريقية والحضارة الإغريقية في طول العالم وعرضه ، من نقراطيس في مصر إلى مرسيليا في بلاد الغال ، ومن صقلية إلى أقصى شواطئ البحر الأسود . وكانت هذه الحركة ترجع في بدايتها إلى ضيق نطاق الرقعة الزراعية أكثر منها إلى المطامع التجارية ، وبفضلها انتشرت أساليب الحياة الإغريقية فيما وراء بحر إيجه بمسافات بعيدة .

وقد تمخض تطور المدينة الإغريقية عن اتجاهات عديدة في النظم تبعث على الأمل وتختلف عما تطور إليه النموذج الأصلي للمدينة في كل من بلاد ما بين النهرين وفي مصر على عهد الإمبراطورية . ويبدو أن الإغريق كانوا قد حرروا أنفسهم إلى حد ما مما كانت الديانة في العصر البرونزي وفنون الصناعة في عصر الحديد تذكيه فيهم من أوهام فاضحة عن السلطة المطلقة التي لا تحد ، فقد أقيمت مدنهم على نطاق أقرب الى طاقة البشر ، وتخلصت من ربقة المطالب الجنونية لملوك شبه آلهة ، ومن كل ما كانت تستتبعه من وسائل القهر والإرغام وألوان التنظيم العسكري والإداري . ولقد حطم الإغريق – بل هم في الواقع لم يكونوا بعد قد طوروا – ذلك النظام الجامد ، نظام التقسيم الطائفي والمهني الذي ظهر مع الحضارة نفسها ، ففي هذه الفترة الباكرة كان لديهم من المرونة وقوة الابتكار ما لدى الهاوي الذي لا يميل إلى التضحية بقدر من حياته أكبر مما ينبغي ليبلغ ما في التخصص من كفاية ومقدرة .

وفي خلال تطور المدينة ، غالباً ما كانت العادات الديمقراطية للقرية تنتقل إلى ألوان نشاط المدينة التي كان يمارسها إخصائيون إلى ذلك الحين ، مع استمرار الناس في أداء مهامهم العادية تارة وواجباتهم المدنية تارة أخرى ، ومع مشاركة كل مواطن مشاركة كاملة في كل مظهر من مظاهر الحياة العامة :

وهذه الحضارة المادية الشحيحة — التى لم تكن فى أماكن كثيرة أكثر من نظام يقيم أود الحياة — أفضت إلى ظهور نظام اقتصادى للوفرة من نوع جديد ، إذ أنها فتحت آفاقاً بكراً ، عقلية ونفسية ، يبعد أن تكون قد طرقت من قبل ، ومن باب أولى أن تكون قد استثمرت . ولم تقتصر النتيجة على مجرد تدفق سيل من الآراء والصور فى الدراما والشعر والنحت والتصوير والمنطق والرياضيات والفلسفة ، بل تولدت حياة جماعية كانت أبعد مدى فى نشاطها ، وأعلى كعباً فى قدرتها على التعبير الجمالى ، وعلى الوزن والتقدير بمعيار العقل ، مما حدث من قبل على الإطلاق . وفى مدى قرنين اثنين كشف الإغريق عن طبيعة الإنسان وإمكانياته أكثر مما يظهر أن المصريين أو السومريين قد كشفوه فى ألفى عام . ولقد تركزت كل هذه الأعمال الباهرة فى المدينة الحرة الإغريقية وخاصة فى أعظم تلك المدن ، وهى أثينا :

وكانت أثينا ، بتفوقها فى كل ناحية فيما عدا الاستعمار ، تمثل جماع هذه الآمال الجديدة ، بيد أنه على حين أن أثينا شادت تراثاً من الحضارة طوق بدينه كل عصر من العصور التالية ، إلا أن إرضاء غرورها حدا بها إلى أن تدعى لنفسها جلائل الأعمال التى أسهمت فيها كل مدينة أخرى ، وكان من حقها أيضاً المشاركة فى المفاخرة بها . وعلى الرغم من احتفاظ أثينا ، بل عملها على تنمية مزايا النظام الديمقراطى داخلياً ، إلا أنها اختارت لنفسها أن تقوم بدور الملك بين المدن الأقل منها شأناً ، فكانت تستبد فى مطالبتها بفروض الطاعة والجزية لقاء الدفاع عن سلامتها . فقاذورات الحضارة المبكرة — من حرب واستغلال واسترقاق وإبادة شاملة — ارتدت على أثينا كما لو كانت قد لفظتها بالوعة قديمة . ولقد تغلبت هذه القوى فى النهاية على حركة كانت تستهدف نفدقاً أرحب من التآخى . وأغراضاً أكثر اتساماً بالإنسانية . وهى الحركة التى كانت معالمها قد ظهرت فى القرن السابع . ولو أنه قيض لقادة الفكر فى بلاد الإغريق أن يدركوا تمام الإدراك ما كان ينطوى عليه هذا

الإخاء الشامل ، فلربما استطاعوا تحرير حضارة المدينة من تورطها المزمن فى عادة تقديم الضحايا البشرية من أجل غايات شاذة لا يبررها العقل .

وفى لحظة حاسمة ، كان رفض أثينا أن تمنح الحرية للمدن الخاضعة لها — وليس تحدى أسبرطة الفظ — هو الذى أشعل نار الحرب البلوبونيزية ، وأثينا بإزاحتها الستار عن الإمكانيات التى لم يكتمل ازدهارها ، وعن ضروب الخيبة والفشل من جراء إضاعة الفرصة التى سنحت ، وعن إهدار الحياة قبل الأوان ، يمكن اتخاذها مثالا لكل المدن العظيمة الأخرى التى كانت تضارعها فى تعدد جوانبها وفى قوة فرديتها . واتخاذ أثينا مثالا لغيرها أمر تفرضه الضرورة أيضاً ، إذ أنه فيما عدا المخلفات الأثرية — وهى فى ذاتها متناثرة وغير كاملة — فإن أثينا هى مصدر أغلب الوثائق المتعلقة بالتطور الحضرى الإغريقى . بيد أن ما يصدق فى شأن أثينا يصدق على الأرجح — مع درجات شتى من التفاوت — فى شأن أغلب المدن الإغريقية الأخرى عند نفس المراحل فى أدوار تطورها ، ولعل أكبر وجه للخلاف بينها كان من حيث العدد ، فإن كثيراً من المدن الإغريقية الشقيقة التى برزت فى التاريخ لم تشتمل فى يوم ما على أكثر من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من السكان . وعلى النقيض مما يعتقده الأخصائيون فى إحصائيات التعداد ، فإن الفن والحضارة والغاية السياسية ، وليست الأعداد ، هى التى تعرف بها المدينة .

٢ — صوت القرية

إذا كنا نجد فى أشعار هوميروس صورا خاطفة لقصور ومدن العهد الميكينى ، أو العهد التالى له ، فإننا نتبين فى منظومة هسيود « أعمال وأيام » خلفية حضارة القرية التى نشأت منها المدينة الإيجية ومستعمراتها . وإذا كان للنظر ينتقل من كريت إلى الشاطئ الغربى لبحر إيجه ، فإن أكمل تطور

للمدينة قبل القرن الخامس حدث فى الواقع فى ثغور أيونيا ، وكانت بمثابة منافذ لآسيا الصغرى والمقاطعات البعيدة فيما وراءها .

وكما أسلفنا ، لم تكن هذه الأودية المحصورة بين الجبال تيسر أسباب المعيشة ، ولم يكن فى وسعها أن تفى إلا بأود عدد ضئيل من سكان القرى . وعند ما ازداد عدد السكان ، كانت سهول تساليا وبيوتيا هى التى تزودهم فى أول الأمر بالحبوب الغذائية ، بيد أن هذين الإقليمين كانا من الوجهة الحضارية يعتبران من المناطق المتخلفة فى بلاد الإغريق . وإذا كانت القرى القريبة من البحر فقيرة فى إنتاج الشعير والقمح ، فقد كانت تحصل من البحر على قدر إضافى من الغذاء ، فالصياد أصبح ملاحا ، والملاح غدا تاجراً — غير أنه كان من المحتمل أن يتحول الثلاثة جميعاً ، إما عن خبث أو سوء حظ ، إلى قراصنة فى بعض الأحيان ، وكان من الممكن أن تؤدى القرصنة إلى الحرب بسبب نهب السلع وخطف الناس . وكانت القرى التى تقع فى الداخل على بعد أميال قليلة من البحر ، وفى كنف تل وعر المنحدر ، تملك وسيلة مزدوجة للوقاية من إغارات القراصنة . وعلى نقيض ميكينى ، أو إسبرطة ، من حيث إحاطة الأرض بها ، فإن المدن ذات المنافذ إلى البحر — ومع وجود شقة من الأرض تفصلها عنه — مثل أثينا وكورنثه ، هى التى تحولت إلى عواصم عظيمة .

إن النموذج لحصن طبيعى ذى جوانب وعرة شديدة الانحدار بحيث يسهل الدفاع عنه دون تحصينات إضافية ، وتحوطه مجموعة من القرى ، كان ظاهرة شائعة فى كل بلاد الإغريق وإيطاليا ، ومن آسيا الصغرى إلى صقلية واترووريا . وما زالت تشاهد إلى اليوم بقايا مثل هذه المقرات وكثيراً ما تكون قد عادت إلى الحالة التى كانت عليها فى أقدم عهودها . وكانت هذه المواقع الدفاعية الطبيعية تحتوى عادة على ميزة تزيد من الرغبة فيها ، وهى عين ماء ، وربما كانت العين سببا فى وضع البقعة تحت رعاية أحد الآلهة وفى كنف

أسرة واحدة تقوم بحراستها على الدوام . وإذا استطاع أهل القرى المجتمعون هناك فى وقت الخطر أن يصمدوا جيداً فى وجه الهجوم ، فإن الهيكل المشترك لم يكن إلا ليزداد بذلك احتراما وتبجيلا .

فالقرى التى كانت تعيش من قبل فى عزلة عن غيرها كانت تستمر فى المشاركة الدينية مع غيرها بعد زوال الضرورة الحربية ، وذلك أنه إذا لم يكن الخطر موجودا ، فإن الرغبة فى درئه بإقامة الشعائر الدينية ، كان يجتذبها نحو العودة إلى الأكروبول الطبيعى . وهناك كانت توقد النيران المقدسة ، ويحتفظ بها مشتعلة استكمالا للنار الموقدة للإله فى البيت ـ فكلا العملين الورعين يرمزان إلى الرابطة المشتركة ، على حين أن الهيكل نفسه كان يجتذب إلى جواره هياكل أخرى من هياكل البيوت أو القرى ، بل يدمجها فى العبادة الكبرى . ومما له دلالته أن الرجل الذى كان يهمل بقعة الأرض التى يثوى فيها موتاه ، كان لا يستطيع أن يتولى منصباً من مناصب الحكام الرئيسية فى أثينا . وطابع المدينة الإغريقية هو أنها اتحاد عدد من القرى (synoecism) على نحو ما مر بنا : وكان ذلك الاتحاد ينشأ أحياناً نتيجة عمل ديمقراطى اختيارى ، وأحياناً ـ كما حدث فى حالة أثينا نفسها ـ يفرضه الملوك قسرا ، إلا أنه لم يحدث يوما أن كان الاندماج تاماً وحكم المدينة مطلقا .

والعناصر الأصلية فى نظام الملكية وإنشاء المدن بين الإغريق كانت إلى حد كبير عين ما وجدناه فى بلاد ما بين النهرين ، ولكن مع فارق ؛ وذلك أنه فى بلاد الإغريق كانت وفرة المواقع الطبيعية التى يسهل الدفاع عنها تقلل من ظروف الاعتماد على الحذق الهندسى فكانت حفنة من الرجال الشجعان تستطيع الصمود فى الدفاع عن ممر جبلى أمام جحافل تبدو ساحقة بكثرتها ، وكانت لديهم ميزة مماثلة فى المنحدرات الصخرية لقلعتهم الطبيعية . وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن من الميسور تنظيم سكان قبليين فى تكتلات

كبيرة ، أو إخضاعهم للنظام وهم على بعد مسافات شاسعة من حكامهم ، فأحقر الناس ، وقد ألفوا الفاقة وعودتهم العزلة على الاستقلال ، كانوا لا يقبلون إساءة من سادتهم دون أن يردوا عليها بعنف . وفى الإلياذة نرى أن ثيرسيتس Thersites على الرغم من أنه لا حول له ولا قوة ولا صديق ، بل إنه موضع الازدراء والاحتقار ، لا يتردد فى أن يغلظ القول لسادته .

ولما كان فقراء الفلاحين والرعاة يرضون بأن يعيشوا عيشة الكفاف ، فقد كان فى استطاعتهم أن يستمروا فى حياتهم دون الخضوع لنظام جماعى واسع النطاق ، وبما أن الفائض المغرى لم يكن له وجود ، فإنه لم يكن من اليسير رشوتهم بالخبز والحفلات . وهكذا فإنه إذا كانت الفرصة للاستغلال من جانب واحد أقل فى بلاد الإغريق منها فى غيرها ، فإن الحاجة إلى إحكام الرقابة والإشراف كانت أقل كذلك . ومن ثم نشأ فيما يبدو نوع من النظام كان إلى حد ما أكثر تفككا ، وأقل اتساما بالشكلية ، وكذلك أقل تشددا فى تنظيم الدرجات والمراتب ، وفى ركاب ذلك جاء الاستقلال الشخصى فى التقدير وفى العمل على حد سواء . وكان الاستقلال والاعتماد على النفس متغلغلين فى بلاد الإغريق قبل عهد البطش والسيطرة على نحو ما كانت عليه الحال فى نيو إنجلند فى عهد إمرسون . وإن القول القديم « بلاد الإغريق والفقر توأمان » لينطوى على الكبرياء . ولم يكن لدى المدن الإغريقية فى أزهى أيامها فائض كبير من السلع ، وإنما كان لديها فائض من الوقت ، أى الفراغ الحر الطليق من كل قيد ، غير المخصص — كما هو الحال اليوم فى أمريكا — للاستهلاك المادى المفرط ، بل لاستخدامه فى المحادثة والعواطف الجنسية والتأمل الفكرى والاستمتاع بالجمال الفنى .

إن اليمين الموجزة التى كان يقسمها شباب أثينا ، كانت تتضمن عهداً بأن يؤدى الواحد منهم واجبه « بمفرده أو بمعاونة الجميع » فهل من قبيل المصادفة أنهم كانوا يرددون هذا العهد مرتين ؟ لقد نبتت فى القرية بذور الزهو

بالمرونة والتحرر من قيود التخصص ، وهو الزهو الذى أسند المؤرخ ثوكيديديس Thucydides إلى بريكليس اعتباره صفة خاصة يمتاز بها الآثينيون . ولكن هذه الفضائل لم تكن وقفاً على الآثينيين وحدهم ، فالذين يعيشون فى القرى ويعرفون قدر الألفة السائدة بينهم لا يخلطون بين الحجم والدلالة . ولقد قامت الشجاعة الفردية بدور لم يستطع منافسته على الإطلاق الخضوع الجماعى لأمر الزعيم ، وأن مثل هذه الشجاعة هى التى أوجدت أبطال الفكر وأبطال القتال سواء بسواء ، وكثيراً ماكان الشخص نفسه بطلا فى المجالين .

وفى أثناء دور التكوين لم تقطع المدن الإغريقية صلاتها إطلاقاً بضواحيها الريفية أو بالقرى التابعة لها ، فلقد كان الناس يقبلون على المدينة وينفضون عنها تبعاً للمواسم فى حركة دائبة أشبه ما تكون بالمد والجزر . وإلى عهد متأخر وصل إلى سنة ٤٠٠ ق . م . ، على حد قول إليزابيث ڤيسر Elizabeth Visser ، كان ثلاثة أرباع المواطنين الآثينيين يملكون بعض الأراضى فى أتيكا . وفى أماكن عديدة يبدو العنصر الفردى العتيق أقوى بكثير من عنصر القلعة . ولقد ربط أرسطو — مع قدر من المبررات التاريخية — بين المواقع الجبلية المحصنة وبين الملكية وحكم الأقلية ، على حين أنه اعتبر المدن الواقعة فى جهات منخفضة مهد الحكم الديمقراطى . بيد أنه من الناحية الفعلية ، لم يكن التفاوت بين المنطقتين كبيراً إلى هذا المدى ، ولا الحد الفاصل بينهما حاسماً إلى درجة بالغة . وقد لاحظ مؤلف كتاب « نظم الحكم عند الآثينيين » — لاحظ متأففاً أن الآثينيين « يقيمون وزناً فى كل مكان للطبقة الأدنى شأناً من العليا » وماذا يمكن أن يكون أكثر دلالة من هذا على الصفة التى امتازت بها ديمقراطية القرية ؟

ولقد كانت معايير القرية هى السائدة فى أثناء تطور المدن الإغريقية إلى القرن الرابع ، مثل الأحجام المتواضعة للنصب والأحجار المقامة على

التجو ، والنقوش الرقيقة الموجزة ، ومسحات الفكاهة ، فقد كانت كلها أبعد ما تكون عن الاتسام بالفخفخة والضخامة والخيلاء . وفى هذه المجتمعات لم يكن الفقر باعثاً على الحرج ، وإن بعثت الثروة على شىء فعلى الريبة ، كما أن الصغر لم يكن دليلا على قلة الشأن . وقد كان من شأن الأساليب الديمقراطية المتبعة فى القرية ، بخلوها من الفواصل القوية طبقية كانت أم مهنية ، أن تنمى عادة التشاور معاً . وخير مبرر لقيام المدينة على هيئة قرية كبيرة الحجم هو أنها كانت توفر فرصاً أوسع للحديث . وإذا كان الإسبرطيون قد شذوا عن باقى الإغريق ، فلعل ما جرت به عادتهم من الإيجاز فى القول قد تولدت عن حاجتهم إلى إخفاء مقاصدهم عن الذين كانوا يستعبدونهم بقسوة متناهية ، ومن ثم لم تكن للمدينة فائدة لديهم .

ولقد أفضت هذه الأساليب القروية إلى أن الاغريق فيما بعد عصر هوميروس كانوا يسيئون الظن بالسلطة الملكية وبالحكم المركزى ، وكان ذلك واضحاً حتى فى طروادة . فقد كان ما يحيط بالملكية من غموض وإبهام لا يتلاءم مع ما تنطوى عليه طبيعتهم القروية من العصبية المحلية ، ولا مع ما جبلوا عليه من احترام النفس ، فكان تقديرهم لما يتسم به رجل مثل « أوديسيوس » من دهاء عقلى لا يقل عن تقدير تلميذ صغير لبأس رجل فى شجاعة « أخيلس » ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يعبدون الآلهة فإنهم ، مثل منافسيهم الفرس ، لم يشجعوا على الإطلاق فكرة أن الحاكم نفسه قد يكون إلها . ولقد وجه « أجاممنون » اللوم إلى « كليتمنسترا » لإسرافها فى الإعراب عن عواطفها نحوه إسرافاً ينم عن الذلة ، فقال لها : « فليكن تكريمى بوصفى رجلا لا إلها » ولم يكن توهمهم بأن الحاكم يتمتع بالألوهية إلا نتيجة لانحلالهم المدنى .

وحتى نمو الروح الاستعمارية فى القرن الخامس — على الرغم من أنه

دفع أثينا إلى استغلال المدن الإغريقية الأصغر منها بلا شفقة ولا رحمة — لم يفض إلى عودة نظام الحكم الملكى ، ولا إلى توسيع نطاق سلطان آلهة أوليمبوس . بل حدث عكس ذلك تماماً ، إذ أن الإغريق لم يكتفوا بنبذ المزاعم الخرافية المبالغ فيها عن الملكية ، وجعل زعمائهم يعتمدون على التأييد الشعبي ، ويلتزمون نطاق الأوضاع البشرية ، بل إنهم صوروا آلهتهم إما على نحو يماثل المخلوقات البشرية ، كما هو الحال فى إفريز البارثنون ، وإما على هيئة مخلوقات بنفس الشكل وإنما فى حجم أكبر قليلا . بل إنهم عندما حل القرن الخامس ذهبوا إلى حد جعل الآلهة تبدو مثاراً لقدر من السخرية إن لم يكن الاحتقار ، وذلك بالضرب على مواطن الضعف فى علاقاتها الغرامية ، وما يشوب منافساتها من ألوان الغيرة .

ولم تنتعش المزاعم العتيقة عن الملكية الإلهية إلا عندما خرج المقدونى المتبربر — الإسكندر — للقيام بفتوحاته ، ولعل هذا ينهض دليلا على أن المذهب القديم كان قد اعتصم بالجبال كما فعل مذهب المانوية (Manichaeism) فيما بعد . وعندما تولى الطغاة السلطة فى المدن الإغريقية ، وصلوا إلى ذلك فى أغلب الأحيان بتأييد المطالب الشعبية ، وتحدى الأقلية الإقطاعية القديمة من أبناء « أحسن الأسرات » — وكانوا ملاك الأراضى الذين لم يقتصروا على ادعاء الحق فى التمتع بنصيب أكبر من الثروة ، بل كانوا ينفردون بتوارث الوظائف الكهنوتية ، ويحق لهم وحدهم أن يؤدوا بعضا من أرقى المهام فى المدينة .

وهذا الإبقاء على الصلات القديمة بالمزرعة والقرية ، هذا الاحتفاظ بروابط الأسرة القبلية ، كان مصدراً تستمد منه المدينة الإغريقية قوة فى وقت الشدة ، بيد أنه كان من شأنه أيضا أن يحد من مزاياها . وذلك أنه عندما ازداد عدد سكان المدينة بسبب التجارة والمهاجرة إليها ، غدا شطر من السكان ، كان عدده يتزايد باطراد ، مواطنين من الطبقة الثانية ، غير

مسئولين ، كانوا فى الواقع محرومين من شغل المناصب العامة ، وحتى من المشاركة فى الأعياد الهامة للمدينة .

حقاً إلى أن حل القرن الرابع لم يكن ممكنا أن يتألف أى شطر كبير من سكان مدينة إغريقية من أجانب لايحق لهم امتلاك الأراضى ، وعندئذ كانت الحرب قد طوحت بالكثيرين من أبناء المدينة الأصليين ، إما إلى المنفى الدائم أو الرق الأبدى ، غير أن جذور حياة القرية كانت متغلغلة فى النفوس إلى حد أنه ، حتى أولئك الذين كانوا ضحايا غزو غاشم أخرجهم من مواطنهم ، كان يتسنى لهم أحيانا متابعة حياتهم بعد تدمير مدينتهم ، فمثلا عندما أرغم الإسبرطيون سكان مانتينيا على تدمير مدينتهم بأيديهم — وهو تفنن فى القسوة يضارع ماعمد إليه النازيون من إرغام ضحاياهم على حفر قبورهم بأيديهم — ارتد أولئك التعسون إلى أحيائهم الريفية التى لم تكن صلاتهم بها قد انقطعت انقطاعا تاما .

والواقع أنه طوال بقاء المدن الإغريقية صغيرة كانت ضواحيها الريفية لاتبعد عنها إلا مسافة يسهل قطعها على الأقدام ، فنخضم المنازل الذى يمتد اليوم بين أثينا وبيريه كان أرضا مزروعة ، شأنه شأن الريف الممتد على جانبي الطريق المقدس المؤدى إلى اليوسيس ، حيث تقوم مصانع الأسمنت فى الوقت الحاضر . وحتى إبان نمو أثينا كان من الطبيعى لدى سقراط وفيدروس فى يوم قائظ أن يجولا خارج المدينة ويرطبا أقدامهما فى ماء نهر اليسوس الضحل فى ظل الأشجار طلبا لعزلة الريف وهدوئه . وكانت الأسرات التى تمتلك أرضا ترسل من الريف إلى مساكنها الحضرية مايلزمها من الزيت والنبيذ والعسل والتين والصوف ، وبذلك كانت تبقى إلى حدما فى غنى عن السوق وعن التعامل بالنقود . ولابد من أنه كان لذلك أثره فى مضاعفة احتقارهم للغرباء الذين كان يتحتم عليهم أن يتفرغوا لكسب المال من أجل شراء مثل هذه المنتجات . وكما لاحظ إميل كوهن Emil Kuhn

منذ أمد طويل فى مؤلفه الجدير بالتنويه « مدن العصور القديمة » ، كانت المدينة والريف عند الإغريق يؤلفان وحدة منسجمة ، ولم يكونا أسلوبين للحياة على طرفى نقيض .

ولا نزاع فى أن هذا الاتصال الوثيق بالأساليب الريفية يفسر إلى حد ما الحالة البدائية للمساكن والوسائل الصحية التى اتسمت بها المدن الإغريقية إلى عهد طويل فى القرن الرابع ، بل إلى ما بعد ذلك . فالمنازل كانت تبنى من مواد خفيفة تتألف من الخشب والطين المجفف فى الشمس ، ويبلغ من ضعف الجدران أن ثقب الجدار كان أسرع طريقة يدخل بها اللص منزلا . وأما من حيث الإقامة فإن أكبر المدن كانت فى البداية لاتفضل إلا قليلا قرى جاوزت الحد فى نموها ، والواقع أنه بسبب هذا النمو الذى جاوز الحد ، وكثافة السكان فى الموقع الذى يشغلونه ، كانت المدن الكبرى فعلا أسوأ بكثير من القرى ، إذ كانت تنقصها الرحبات المفتوحة المتوافرة فى أفنية المنازل الريفية وفى الحقول المجاورة .

وهكذا ، فإن أرفع حضارة فى العالم القديم ، وهى حضارة أثينا ، بلغت ذروتها فى مدينة بلغت درجة يرثى لها من التأخر من حيث التخطيط وقواعد الصحة العامة ، فالوسائل الصحية المتنوعة التى كانت تفخر بها أور وهارابا قبل ذلك بألفى سنة ، قلما وجدت حتى فى أبسط مظهر فى أثينا فى القرن الخامس . فالشوارع فى أى مدينة إغريقية ، إلى أن حلت العصور الهيلينسية ، لم تكن أكثر من أزقة ، وكثير من هذه الأزقة لم تكن إلا ممرات يبلغ عرضها بضع أقدام ، وكان الروث والقمامة يتراكمان عند أطراف المدينة مما كان يؤدى إلى انتشار الأمراض وتضاعف عدد ضحايا الطاعون . والواقع أن الصورة المنطبعة فى الأذهان لمدينة القرون الوسطى — وهى صورة كاذبة إلى حد كبير ، ولكن مازال يتشبث بها كثيرون ممن يجب أن تكون معلوماتهم أفضل من ذلك — أجدر بأن تكون الصورة الحقيقية لما كانت عليه مدن

الإغريق وهى فى دور النمو فى القرنين السادس والخامس ، وبخاصة فى أتيكا والبلوبونيز . ومن المحقق أن انطباقها على حالة هذه المدن أعدل جداً من انطباقها على حالة كثير من مدن غرب أوروبا فى القرن الثالث عشر من الميلاد .

وطوال الوقت الذى ظلت فيه المدن الإغريقية صغيرة ، لم تكن هذه الأساليب الريفية البدائية حتماً ضارة أو خطرة على الصحة : ذلك أن الشمس مطهر فعال ، والأرض الفضاء كومة سماد فى نظر الناس جميعاً ، والخنزير والكلب يقبلان بشغف على التهام الفضلات . بيد أن الأدلة متوافرة على أن الأقذار بكل أنواعها كانت تتكدس على حدود المدينة . وفى أثينا كان الأطفال غير المرغوب فيهم يلقى بهم عند أمثال هذه الأكوام من قمامة المدينة ويتركون ليلقوا حتفهم . ولا عجب أن أرسطو استحث مفتشى الصحة الرسميين فى كتابه « السياسة » على أن يقوموا بمراقبة قمامة المدينة ، فالتغير فى الكم عند التحول من قرية إلى مدينة قد أحدث كذلك تغيراً فى الكيف ما كان يتسنى للطبيعة ولا للأساليب القروية العتيقة أن تتولى أمره .

ولحسن الحظ أن نموذج القرية لم يقض عليه فجأة ، لأن أغلب المدن الإغريقية لم تكن تتطلع فى أيام تكوينها إلى أعداد كبيرة من السكان ، ولا إلى أملاك واسعة . وكانت بعض المدن التى لا يتجاوز عدد سكانها بضعة آلاف تبعث جماعات من أبنائها لتأسيس المستعمرات قبل أن تزدحم بالسكان بعهد طويل . حتى لو أن المدينة كانت قد سعت وراء توافر عدد أكبر من السكان فيها ، لحدت من نموها القيود الناجمة عن مساحات الأرض الصالحة للزراعة ، ووجود مورد كاف للمياه . وعلى الرغم من أن أثينا تحيط بها تربة طيبة غنية نسبياً : فمن المرجح أنها لم تكن تأوى فى القرن الخامس أكثر من مائة ألف نسمة بما فيهم الأرقاء . وإنه ليشك فيما إذا كانت ميليتوس (ملطية) أو كورنثة ــ وحسبنا ذكر اثنتين من العواصم المزدهرة ــ تستطيع استيعاب

عدد أكبر من ذلك بكثير – على الأقل إلى أن أعاد المهندسون الرومان تنظيم هاتين المدينتين . ويلفت ويتشرلى R. E. Wycherley النظر إلى أن مدناً قليلة هى التى كان عدد سكانها يزيد على عشرة آلاف نسمة .

وسأعود إلى مشكلة حجم المدينة التى بحثها الإغريق بروية لأول مرة فى حقبة تالية ، بيد أنه إذا كانت ثمة حاجة إلى إثبات أن المدن الإغريقية فيما بين القرن السابع والقرن الرابع قبل الميلاد ، كانت فى آن واحد صغيرة ومكتفية بذاتها نسبيا ، ومعتمدة إلى حد كبير على ريفها المحلى للحصول على الغذاء ومواد البناء ، فإن قصة الاستعمار الإغريقى فيها كل الكفاية ، إذ أن هذه المدن الإيجية كانت تبعث بجماعات من أبنائها إلى الخارج فى كل اتجاه ، وخاصة إلى صقلية وإيطاليا ، من أجل تأسيس المستعمرات ، التى انتشرت من مرسيليا عند مصب الرون إلى نقراطيس فى دلتا النيل ، وشرقاً إلى شواطئ البحر الأسود . وإننا لنجد فى مدن اتروريا من الفن وأسلوب الحياة ما من شأنه – مهما يكن الأصل البعيد لتلك المدن – أن يجعل هذه الحضارة المستقلة فى الظاهر وثيقة الاتصال بالحضارة الإيجية .

وكانت أهم المدن التى أسست مستعمرات ، مراكز عظيمة للتجارة : مثل رودس وميليتوس فى آسيا الصغرى – والمفروض أن هذه المدينة الأخيرة أنشأت سبعين مستعمرة حضرية . وهذه الواقعة تدل فى آن واحد على زيادة مطردة فى عدد السكان ، وعلى عدم الميل إلى تحوير طبيعة المدينة بتشجيع الإفراط فى النمو ، حتى بعد ما فتحت التجارة أبواب مصادر بعيدة لتوفير حاجاتها . ولم يكن العائق مجرد الافتقار إلى الأرض اللازمة لإقامة المبانى ، ولو أنه لا بد من أن ذلك الاعتبار كان له أثره فى مناطق عديدة . فالماء والغذاء كان لهما دور إيجابى فى التحكم فى مدى النمو ، لعل ما هو أبعد أثراً من ذلك أن الإحساس بروابط الأسرة والقرية كان يشحذ الرغبة فى وحدة تسودها الألفة الحميمة .

ومما له دلالته أن أثينا لم تكن بين كبرى المدن التى أسست مستعمرات ، مع أنها اتبعت سياسة تقوم على استغلال المدن الخاضعة لها ، والاتجار فيما وراء البحار فى الفخار والزيت . وباحتفاظ هذه المدينة بمواطنيها فى عقر دارهم ، تجاوزت الحدود المأمونة للنمو وزادت من اعتمادها على الحرب والجزية لضمان استمرار ازدهارها . بيد أن أجرأ الفاتحين العسكريين اضطر إلى الاعتراف بالحدود الطبيعية للمدينة ، ذلك أنه عندما عرض كبير مهندسى الإسكندر أن يشيد له أكبر مدينة عرفها التاريخ ، فإن ذلك القائد الذى كان ملماً بفن تحركات الجيوش وتموينها قدر إلمامه بفن الخطط الحربية ، رفض تلك الفكرة رفضاً حاسما لاستحالة تموين مثل هذه المدينة !

وإننا لنرى بأعيننا فى بلاد الإغريق تحول القرية إلى مدينة يتجمع الناس فيها ، لا بموجب المولد والعادة فحسب ، بل عن وعى وإدراك سعياً وراء نوع أفضل من الحياة . ولا بد من أنه قد وجدت مراكز حيوية عديدة حيث غدت سلطة الحاكم والأرستقراطية الإقطاعية ضعيفة واهنة ؛ وحيث — على ما يظهر — بلغ من كراهية القرويين للحرب — وقد سجل هسيود هذه الكراهية بمرارة شديدة — أنها أثرت فى تكوين المدينة وما يجرى فيها يوميا . فمن المحقق أن القرية الإغريقية لم تكن تنشد إلا أن تترك وشأنها فى بيئتها المكتفية بذاتها ، فهى لم تكن تريد أن تغزو ولا أن تتعرض للغزو . فهل كان يتسنى للمدينة أن تزدهر ، بل هل كان يتسنى لهـا البقاء ، على هذه الأسس نفسها ؟ وكون أثينا ، شأنها فى ذلك شأن مدن أخرى كثيرة ، لم تقم ببناء أى أسوار تطوقها بأكملها إلا بعد الغزوة الفارسية الأولى ، ينهض دليلا على أن المراكز الحضرية ، فى ظل الأحوال التى كانت تعيش فيها حتى القرن الخامس ، كان لديها قدر معين من الشعور بالأمن الداخلى . ولعل عدم وجود أسوار منذ عهد مبكر يفسر الصفتين الإنسانيتين اللتين ميزتا فى البداية المدن الإيجية عن مدن الشرق الأدنى ونعنى بهما الحرية وتفتح آفاق الذهن . ولقد جاء إنشاء السور فى أثينا بمثابة

استدراك ، وأما إسبرطة فإنها إلى آخر عهدها تقريبا ، رفضت إقامة سور بوصفه غير خليق بقوم محاربين .

غير أنه يجب أن نلاحظ أن القرية جاءت بصفة سلبية معينة وهى : العزلة والغيرة وسوء الظن بالغريب والعصبية المحلية ، وهى الناحية المظلمة لصفتى الاعتماد على النفس والاكتفاء الذاتى . ولقد تحول هذا الاستقلال فى يسر شديد إلى ميل للمشاغبة والمعارضة من أجل المعارضة ، واستعداد الفرد إلى جدع أنفه نكاية فى وجهه . حتى فى داخل المدينة ، كان من الممكن أن يؤدى ذلك إلى نتيجة هدامة ، ومن ثم فإنه لم يكن دون مقتضى أن أريستوفان خصص مسرحية بأكملها ليؤاخذ الآثينيين مؤاخذة شديدة على إفراطهم فى الولع بالمنازعة والتقاضى . ويعبر خير تعبير عن هـــذه العزلة القروية ما حدث من أنه بالرغم من جهود دلفى لم تفلح المدن الإغريقية فى الوصول إلى اتفاق على تقويم مشترك ، بل إنها كانت تبدأ سنواتها فى أوقات مختلفة .

وتلك الصفة التى اتصفت بها القرية الإغريقية ، ولم يكن هناك سبيل إلى تقويمها ، صفة انطوائها على نفسها ، لم يكن يتسنى التغلب عليها إلا فى وقت الخطر عند ظهور عدو على مرمى البصر . ومن الواضح أن مثل هذا الاتحاد السياسى المؤقت يختلف عن نوع الاتحاد فى التكوين الذى كانت الحاجة تدعو إليه فى بلاد ما بين النهرين وفى مصر للتحكم فى الفيضانات أو لإعادة تحديد الأرض سنوياً . وإن ما أطلقت عليه مارى أوستن Mary Austin اسم « نظام المشاركة الجماعية فى المنفعة التى لا تتجزأ » لم يكن هناك مجال لتطبيقه فى بلاد الإغريق ، فالطبيعة الجغرافية والعادات القروية ، كانت تحول دون الوحدة على الرغم من كل ما فعلته اللغة والأدب والفن والأساطير لربط المدن الإغريقية بعضها ببعض .

وعلى الرغم من أن العصبية المحلية نشأت فى القرية ، فإنه كانت لها

مصادر أخرى كذلك ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أنه فى العهد الذى كانت فيه كل المدن الإغريقية أقرب ما تكون إلى حالة القرى التى نشأت منها ، فلم تكن أكبرها تضم إلا بضعة آلاف نسمة ، فى هذا العهد أنشأ الإغريق الألعاب الأولمبية . وقد كان من شأن ذلك التنقل على نطاق واسع ، والتقاء النخبة الممتازة من الناس ، أن تحطمت – بفعل الإرادة البشرية – تلك الفوارق التى بدا أن الظروف الطبيعية كانت تقيمها بين المجتمعات البشرية . ولقد كان أيضاً هسيود القروى هو الذى كره الحرب وحمل عليها ، على حين كان أفلاطون الفيلسوف الحضرى هو الذى امتدح الحرب بوصفها وسيلة أساسية لتنمية الفضائل الإنسانية :

وهناك صفة أخيرة يرجع أصلها إلى القرية ، فمن المحقق أنه من الفلاح ، وليس فقط من السادة أصحاب الأراضى ، قد نشأ عدم الثقة بالتاجر والمصرفى والوسيط التجارى ، ومقرض النقود ، وممارس عمليات الرهن ، بل بكل رجال الأعمال الذين كانوا يعملون لإنشاء نظام اقتصادى جديد على أساس العملة من أجل توسيع نطاق التجارة وزيادة الثروة ، فقد كان هذا النظام يتنافر تنافراً شديداً مع الأساليب الريفية القديمة وفقر أتيكا المدقع القديم .

وقد كان هؤلاء التجار والمصرفيون – ومن ورائهم أصحاب دور التشغيل والصناع يشدون أزرهم – المنظمين الجدد للمدينة ، وبعد القرن السادس ، كانوا يتهددون سلطة الأرستقراطيين والمحاربين الأصليين . بيد أن كبار المفكرين الإغريق لم يشغلوا بالهم إطلاقا بالتفكير جديا فى مشكلة إدماج هذه الطوائف التجارية الجديدة فى هيئة المواطنين وبذلك تفيد من نشاطهم فى خدمتها ويصبحون مواطنين مسئولين . وحتى فى المدن التجارية ، كان الدستور لا يعترف بوجود الأعمال التجارية ، فكان المواطن ، بحكم تعريفه ، لا يستطيع أن يكون له أى نشاط فى التجارة ، وإذا ما أراد أن يتخذ مثل هذه المهنة ، فإنه كان يتعين عليه أن يهاجر إلى مدينة أخرى

ويمارس هذه المهنة فيها ، بوصفه غريباً عنها ، فإن مدنا قليلة ، مثل إيجينا وخيوس ، هي وحدها التي كانت تبيح لمواطنيها أن يزاولوا التجارة :

ومع ذلك فإن طائفة لا حصر لها من الآراء الجديدة انبثقت من المدن التجارية في أيونيا ، بل من رجال كانوا تجارا ، مثل طاليس Thales . وعلى الرغم من أن هذه الآراء ميزت العلماء والفلاسفة الإغريق عمن سبقوهم في بابل ومصر ، وكانوا من رجال الدين ، فإن هذه الحقيقة لم يكن لها من أثر في تغيير القيم والأوضاع في المدينة حتى القرن الرابع . وعندما استوعبت في النهاية هذه الآراء الجديدة ، كان ذلك إلى حد كبير تحت التأثير الرجعي للأباطرة الجدد ، أي الملوك المؤلهين الذين اتخذوا لأنفسهم صفة « المنقذين » .

عند هذه النقطة الأخيرة أصبح التنظيم والتضخم هدفين في ذاتهما ، واختفت أفضل صفات المدينة الحرة ، وعادت خرافات السلطة في ركاب ممارسة سلطة عسكرية بلغت في ذاتها حد الإفراط في التركيز . وإن فشل المدينة الإغريقية في توسيع نطاق أفق القرية إلى المدى الوافي بالغرض ، لينطوي على بعض المسئولية عن انهيارها في النهاية . ومن الغريب أنه لم يتسن لعظماء المفكرين في بلاد الإغريق أن يتجاوزوا بجهودهم الفكرية نطاق بيئتهم الجغرافية أو الحضرية .

٣ — أولمبيا ودلفي وكوس

إن المدينة الإغريقية ، بوصفها أحد عوامل الحضارة ، بلغت أشدها في القرن الخامس قبل أن تصل إلى مستوى رفيع في تنظيم شكلها المادي فيما عدا الأكروبول . وفي ذلك الوقت كانت أهدافها الحضرية التي انبثقت من وظائفها المحلية الأصلية ، أرقى كثيراً في تطورها من شكل المدينة المادي . وعلى أساس التركة المزدوجة التي آلت إليها — حصن ما بعد العهد الميكيني

وقرية الجبل – أقيمت مجموعة جديدة من الأنظمة أوسع اشتمالا فى طبيعتها، وأكثر اتساما بالميل التلقائى إلى الاختلاط . وقد حدث أكثر من مرة أن هذه الأنظمة الأوفر حرية من سابقتها بدت على وشك أن تخلق نوعاً جديداً من التنظيم الحضرى أقل انحصارا وانقساما ، وأقل صلابة وإرهاقا من التنظيم الذى أعطى المدينة ذات الأسوار طابعها . وقبل أن أصف التكوين الفعلى للمدينة فى القرن الخامس ، أعتزم فحص هذه العناصر الجديدة ، ولعلها أكثر وضوحا أمامنا الآن مما كانت عليه فى أى وقت أمام الإغريق :

لقد استبعد باوسانياس[١] Pausanias – وكان إغريقيا يعيش فى عهد متأخر ويهتم بدراسة شئون المدن – إحدى مدن الفوكيين ، على أساس أنه من العسير اعتبارها جديرة بأن تسمى مدينة لأنه لم تكن لها مكاتب حكومية ولا جمنازيوم ، ولا مسرح ، ولا سوق ، ولا أنابيب لتوصيل المياه . فى نظره كانت هذه المبانى والمرافق هى التى تميز المدينة عن مجرد قرية تتكدس فيها المنازل . بيد أن البذرة التى نبتت منها المدينة الإغريقية كانت قد نمت وترعرعت على خير وجه فى القرية ، فإن ما ثبتت صحته فى دور الانتقال فى العصر الحجرى الحديث لايزال صحيحا . وهل كان اجتماع رجال الحكم فى البريتانيوم أو دار المدينة إلا المظهر الحضرى لمجلس الشيوخ القديم الذى يرجح أنه كان أقدم الأنظمة السياسية الدنيوية ؟ وهل كانت ساحة السوق الرسمية (أجورا) إلا نفس المكان الفسيح الملائم الذى كان الشيوخ يجتمعون فيه ، وكان يبلغ من الاتساع ما يسمح لجميع أهل القرية بالاجتماع فيه ، وحيث كان يتسنى للأهالى المجاورين أن ينشروا عرضا فائض منتجاتهم للمقايضة ؟ وهل كانت النافورة ذات الأنابيب إلا مظهرا آخر للنبع المقدس ولكنها تمتاز عنه بأنه كان يمكن الاعتماد عليها أكثر منه ؛ وبأن حوضها المرتفع كان يجعلها أقل تعرضا للتلوث ببول الكلاب أو بأقدام الرجال.

---

(١) كان باوسانياس يعيش فى القرن الثانى للميلاد .

المرحلة ؟ وأما المسرح فإنه كذلك كان موجوداً فى دور التكوين فى شعائر الإخصاب التى كانت تقام فى القرية فى وقت الربيع وعند الحصاد . وقد أصبحت أرض الجرن المستديرة منصة المسرح الجديد ، ولما لم يعد الفلاحون أنفسهم يؤدون أى دور فإنه فصل بينهم وبين الذين كانوا يقومون بالأدوار الرئيسية كما لو كانوا جوقة المنشدين ، إلا أنهم كانوا لايزالون أكثر نشاطا ولغطا من أن نستطيع تسميتهم مجرد متفرجين .

ومن المحتمل أنه بحلول القرن الثامن كانت المدينة الإغريقية قد بدأت تتخذ ملامح خاصة بها . فالمدينة الإغريقية ، كغيرها من مراكز الاستقرار القديمة ، كانت منذ البداية موطنا لأحد الآلهة . وعلى الرغم من أنه كان فى وسع مدن كثيرة أن تدعى أنها موطن الآله نفسه ، وخاصة المدن التى أسسها المستعمرون الذين كثيراً ما كانوا يهاجرون تحت رعاية « أبولو » ، فإن الإله المحلى كان يتسم بصفة خاصة تربط إما بينه وبين الآلهة القديمة التى كان الأهالى يتعبدون إليها فى بيوتهم ، وإما بينه وبين حدث تاريخى حاسم ، وكان ذلك يتكرر آليا .

ومع ذلك فإنه فى وقت مبكر يرجع إلى عهد سولون فى القرن السادس، يبدو أن ريحا جديدة أخذت تهب على هذه المدن من شرق بحر إيجه حتى المشارف الشمالية للبحر المتوسط ، وبوجه خاص على أتيكا حيث أخذ ضباب الحيرة والخرافة يتبدد أمام شمس الصباح ، وبدأت أشعتها تتغلغل فى أعمق الكهوف . والعقل الذى أحس حديثا بذاته ومقدرته ، استغرق فى تأمل نفسه . ولعل الابتسامة التى تفتر عنها ثغور التماثيل الإغريقية ، ويستخف الناس بها على أساس أنها تقليد عتيق ـ لعلها تكشف حقيقة عما فى الباطن من ثقة واستنارة . ومهما كان المكان الذى احتلته الحياة القروية فى أساس المدينة ، فإن من كان يصعد إلى قمة الأكروبول يتسنى له أن يرى فى منحدرات الجبل الحادة الأطراف ، وفى السموات المضيئة ، صورة لعقل

أصبح هو المعيار لكل الأشياء ، يحكم على العادات والتقاليد والقوانين القديمة طبقا لقاعدة مستقلة معقولة ، ومن ثم أصبح يتعين على الآلهة عندئذ أن تتلاقى مع مستويات البشر. ونتيجةلهذا التحول أصبحت المدينة الإغريقية ، وبخاصة أثينا ، لمدة قرن أو قرنين من الزمان ، رمزاً لكل ماكان إنسانيا فى الحقيقة . وقد تبين أن الحياة الطبيعية فى نطاقها المحدود أشد روعة مما فى أوهام الأساطير من ألوان التهويل الجامح والتشويش المعقد ، وأصبح اتسام شخص بالإنسانية ، يجعله أقرب شبها بإله من الآلهة القدماء : فما هى العوامل التى أحدثت هذا التغيير ؟

إن أبسط تعليل لحضارة المدن الإغريقية هو ذلك الذى يربط بين ما أدركته سريعا من ضروب الهناءة وبين مبادئها الديمقراطية ، ويبرز وجوه الخلاف بين المدينة الإغريقية وبين العواصم الشرقية الكبرى التى جاوزت الحد فى نموها وكانت تخضع لسلطان الحكم المطلق . ولقد كان من الطبيعى أن يعقد الإغريق هذه المقارنة فى نشوة ابتهاجهم بقهر الغزو الفارسى ، إلا أن الشواهد لاتؤيد هذا التعليل كل التأييد .

وإذا كان الإغريق قد نجحوا بوجه خاص فى التخلص من نظام الحكم الملكى الذى لم يكد يتجاوز مزاعم أقدم رؤساء القبائل ، فإن الديمقراطية التى حققوها ظلت بطيئة ناقصة نهبا للانقلابات ولم تكتمل يوما فاعليتها ؛ فالأمر لم يقف عند حد استمرار الحكم زمنا طويلا فى أماكن كثيرة فى أيدى الطغاة وأقليات من أصحاب الأراضى ، بل إنه حيث سادت الديمقراطية فى النهاية ، كما حدث فى أثينا ، نجدها قد احتفظت بالمبادئ القديمة ، مبادئ التفرقة والاحتكار ، فالديمقراطية الأثينية كانت لاتمنح حقوق المواطنة للأجانب والأرقاء وكانوا عدداً غير قليل من مجموع السكان ، (ومما كان ينذر بالسوء أن المدينة كانت تحتاج إلى ألف ومائتين من رماة السهام الاسكيثيين لحفظ النظام فى الجمعية الشعبية ودور القضاء) . وعلى الرغم من أنه بعد

عهد بريكليس كثيراً ما ارتقى نفر من التجار والصناع إلى أرقى المناصب فى المدينة ، فإن الحرية والمساواة ، اللتين كانت تفخر بهما الديمقراطية الأثينية ، كانتا ترسفان فى قيود عديدة . ولذا يجب أن نبحث فى مكان آخر عن قوى العقل التى كان يبدو عليها الاستعداد لاختراق الأسوار غير المنظورة التى كانت تحوط الصفات الجديدة للشخصية وتقصرها على الملك ونبلائه ، وتقيد حركة التطور الإنسانى الشامل فى المدينة القديمة .

وللعثور على السر الخاص للمدينة الإغريقية يجب أن نبحث خارج المراكز الكبرى . وإذا أردنا أن نجمل فى ثلاث كلمات السر فى التفوق العظيم الذى امتازت به حضارة المدينة الإغريقية عن الحضارات التى سبقتها فإننا نستطيع أن نقول ببساطة : أوليمبيا ، ودلفى ، وكوس ، فإن ما أسهمت به هذه المراكز هو الذى سما بكل ماحققه الإنسان إلى ذلك المستوى الرفيع .

ولم يكن أى مكان من هذه الأماكن يدعى أنه مدينة عظيمة ، فكل منها فى الواقع كان بمثابة مدينة لها ميزة من نوع خاص وقدرة على اجتذاب الناس من أقصى أنحاء بلاد اليونان الكبرى فى مناسبات أو فصول معينة ، يعودون بعدها وقد تكشفت لهم وجوه النقص فى تعصبهم المحلى وتجددت ناحية بارزة من نواحى حياتهم وارتقت إلى مستوى أرفع .

وإذا كان نقل السلع وتبادلها قد أفضيا إلى إنعاش الحياة اليومية فى بلاد مابين النهرين ، فإن الزيارات الشخصية إلى أوليمبيا ، ودلفى ، وكوس ، قد أفضت إلى تطور الإغريق فى النواحى الدينية والسياسية والأدبية والرياضية . فأولى هذه المدن كانت مقر الألعاب الأوليمبية ، وكانت الثانية تضم المعبد الرئيسى لأبولو ومهبط وحيه المقدس ، وكان أكبر عامل مدنى ودينى يدعو إلى الوحدة ، له من الأثر ما يضارع أثر الفاتيكان فى البلاد الكاثوليكية الرومانية ، على حين أن الثالثة كانت من أكبر مراكز انتجاع الصحة والاستشفاء ، حيث كان رهط جديد من الأطباء ، من أسلافه

أبقراط ومن خلفائه (٤٦٠ - ٣٧٥ ق . م .) يحاولون معالجة الأمراض وتحسين الصحة على أساس من تحكيم العقل لفهم حقيقة الطبيعة :

ولقد سرت من هذه المراكز الثلاثة تيارات من النشاط الحيوى كان يتولى نقلها الحجاج والمشتركون فيها الذين كانوا يعودون إلى بلادهم على ظهر السفن أو سيراً على الأقدام ، مما كان سبباً فى أن كل مدينة إغريقية يصل إليها فيض من الآراء وأساليب الحياة التى تبث روح الوحدة والسمو بالنفس . وكانت مدن أخرى عديدة تقوم بالعمل الذى يمتاز به كل من هذه المراكز ، فقد كانت تنافس كوس كل من كنيدوس وأبيدا وروس ، الموطن الأصلى لعبادة أسكليبيوس . وكان معبد أبولو فى ديلوس سبباً فى تحويل هذه الجزيرة القاحلة إلى كعبة للحجاج ، ومركز دولى للتجارة وأعمال المصارف ، على الرغم من أن البحر عندها غير مأمون . وبالمثل فإنه عندما بدأت المباريات بين المدن فى الألعاب ، شرعت مدن أخرى عديدة تنافس أوليمبيا . وعن طريق هذه الأنظمة تيسر لمن كانوا أكثر من سواهم حبا فى المغامرة من أبناء المدن أن يتصلوا اتصالا مباشراً بمدن أخرى ، وأقوام وشعوب أخرى ، وأساليب أخرى . وقد مر الذين شاركوا فى هذه الاتصالات بتجربة عملية « الانسحاب والعودة » وهى التى أثبت باتريك جيديس وأرنولد توينبى بالأحداث التاريخية أنها وسيلة أساسية لنمو النوع الإنسانى . وكانت هذه الحفلات والتجمعات تحديا لما تأصل فى المدينة من تعصب إقليمى ، إذ أن الحفلات الأربع الكبرى - الحفلات الإغريقية الجامعة - الأوليمبية ، والبيثية ، والبرزخية (فى برزخ كورنثة) ، والنيمية - كانت تجتذب إليها الإغريق من كل أنحاء بلادهم على طول امتداد الطرق المقدسة ، وكان السائرون فيها يتمتعون بالحصانة من أى اعتداء فى أثناء أمثال تلك المواسم . ولقد كان الاحتشاد والتجمع على هذا النحو بشيراً بتنقلات أكثر حرية فى عالم أوسع مدى .

وبفضل حفلات الألعاب كانت أوليمبيا بالنسبة للإغريق بمثابة الجسم بالنسبة للإنسان ، وذلك بوصف الجسم المظهر المادى الإيجابى للروح البشرية ، ومهما بلغت فيما بعد نقائص المذهب الثنوى عند الإغريق ، فإن الإغريق القدامى فى أثناء بناء حضارتهم لم يربطوا إطلاقاً بين التطور الروحى واللاجسدية ، وبالأحرى كانوا أقل ميلا إلى الربط بين هذا التطور وازدراء الجسم على مذهب بورفيريوس ، أو استمتاع الراهب استمتاعاً ماسوكياً بامتهان الجسم أو بالترحيب باعتلاله . ولقد كانت دلفى تمثل عن طريق وحيها الجمع فى أعماقها بين اللاشعورية — وكان الوصول إليها عن طريق الظلام والنوم والعقاقير والنشوة — وبين الذكاء اليقظ والحكمة البعيدة النظر . فقد كان لها — كما يذكرنا فرنر ييجر Werner Jaeger إلهان توأمان هما : أبولو وديونيسوس ، وليس أبولو فحسب ، ذلك الإله المحب للنظام ، الثاقب الرأى ، الذى كان فى ذاته رمزاً لكلا النور الشمسى والنور الروحانى . وكان الذين تقوم الكاهنة بتنويمهم فى دلفى ، يزورهم الإله فى أحلامهم ، ومن المرجح أن ذلك كان يتم تحت تأثير التنويم المغناطيسى ، أو تحت تأثير مخدر ، فقد تواترت من هناك رواية عن إزالة المياه الزرقاء من عين أحد المرضى فى أثناء الليل دون أن يعلم صاحب الحلم .

ولقد كانت كاهنة دلفية من هذا الطراز ، تدعى ديوتيماه هى التى أمرت سقراط أن يصغى إلى هاتفه الروحى ، ومن ثم فإنه فى اللحظة التى كان الفكر المنطقى يبرح فيها المعبد ليصطرع مع الأحداث التى تقع عادة فى السوق ، كان يصحبه ما يذكره تذكيراً قوياً بحياته الأولى فى الكون وسط طقوس الكهوف والمغامرات والحيوانات قبل إخضاعها لمعايير العقل والمنطق . ولم ينس أقطاب التراجيديا الإغريقية ذلك الدرس أبدا ، فلم يكن مصادفة أن احتلت دلفى وسط الأرض تماماً فى الأساطير الإغريقية ،

مثل بيت المقدس فى الخرائط التى وضعها المسيحيون فى العصور الوسطى ، فقد كان هذا هو عين موضعها فى العقل الإغريقى . وكانت المهمة الأصلية لكهنة دلفى هى تحديد الترتيب الصحيح للأعياد الدينية ، ومن المرجح جداً أنه فى وقت مبكر يرجع إلى القرن السابع حاولت دلفى ، وإن كانت لم تنجح فى ذلك ، أن تنشر اعترافها بنظام موحد للتقويم فى العالم الإغريقى .

وأخيرا فإن كوس كانت المركز الكبير الذى كانت تشع منه فكرة جديدة عن الصحة ، فقد كانت فى آن واحد مصحة ومستشفى ومركزا للأبحاث الطبية حيث نضج الفكر الطبى ، كما أوضح چورج سارتون George Sarton . بيد أن هذه المراكز لم تكن مجرد مجموعة من المبانى للانتفاع من ورائها ، نصفها مصنع ونصفها الآخر فندق كأغلب مستشفياتنا الحديثة ، فقد كان فيها كذلك ما فى الدير من مزايا الهدوء . وهنا ، ولعلها للمرة الأولى ، نجد أن مهمة الدير ، مهمة توفير الانزواء والاختلاء بالنفس : قد أفلتت من نطاق المعبد ، حتى حينما كان معبد أسكليبيوس ذاته على قيد خطوات .

وقد كان الأطباء فى كوس يعرفون ا كان للعزلة والجمال والفضاء والنظام من خواص شافية ، فأقاموا مصحاتهم على جزيرة صغيرة اشتهرت بكرومها وأشجار توتها وحريرها الممتاز ، فضلا عن موقع فسيح يشرف على البحر ، وطبيعة سمحة خلت مما فى المدينة الإغريقية من الاضطراب وسوء النظام والروائح والضوضاء .

ولعل أحدا لم ينجح قط فى الإعراب عن هذه المثاليات نجاح هنرى چيمس الباهر فى حامه المجازى « المكان الطيب العظيم » وإن كان قد فعل ذلك عن غير قصد على الإطلاق .

ولقد كان الناس يقطعون مئات الأميال برا وبحرا ليكونوا تحت عناية

مثل هؤلاء الأطباء الذين وقفوا أنفسهم على عملهم ، وتقيدوا بيمينهم النبيلة وعملوا فى مثل هذه البيئة الشافية . وكان المريض ، بمجرد سفره وابتعاده عما كان فيه ، يخطو الخطوة الأولى نحو استعادة صحته ، ولعل ما كشف فى مجال الأبحاث السيكوسوماتية عما لتغيير المناظر من خواص علاجية كان ثمرة من ثمار حكمة أبقراط قامت على ما كان الأطباء يلاحظونه من تحسن فى حالة الوافدين حديثاً حتى قبل أن يباشروهم بألوان العلاج الإيجابى . وهل يستطيع أحد أن يشك فى أن النظام الذى ظهر فى المدن الحديثة التى أنشئت فى القرن الرابع كان تسجيلا ، فى شكل جماعى ، لبعض الدروس التى كانت هذه الطائفة العظيمة من المشرفين على شئون العلاج والصحة العامة تطبقها على الحالات الفردية للمرضى ؟ إن ذلك الإحساس بالاتساع والتناسق فى الطبيعة — وهو وإن كان مستمدا من الطبيعة إلا أنه يفوق الطبيعة بفضل جهود الإنسان المنظمة — قد ترك طابعه فى المدن التى ظهرت فيما بعد .

ولقد أنشئت الألعاب الأوليمبية فى سنة ٧٧٦ ق . م . وظلت تقام طوال ألف سنة تقريباً ولم يكن من محض المصادفة المطلقة أن هذه الألعاب نشأت فى مدينة أوليمبيا الصغيرة ، موطن الآلهة المنافس للجبل الذى يضطجع فى الشمال حيث نشأت أسرة الآلهة الأوليمبية . وقد كان للألعاب والمسابقات أصل دينى وإن لم يكن لها فى كل الأحوال صلة مباشرة بالدين . ويحدثنا هيرودوت بأنه كانت تقام كل عام عند مدخل أحد المعابد المصرية مبارزة بالهراوات لعلها كانت بمثابة رجع الصدى لطقوس أقدم منها عهدا كانت على هيئة نزال بين ممثلى أوزيريس وممثلى ست . وأما فى بلاد الإغريق فمن المحقق أنه قبل مجىء الألعاب الأوليمبية ظهرت الألعاب الجنازية التى كانت تقام للاحتفال بحياة وموت زعيم أو بطل ، وكان الفائزون فيها يمنحون تيجاناً من العشب المقدس — البقدونس . بيد أن الميزة الفريدة للألعاب الأوليمبية

هى أنها كانت تنشر كل أربع سنوات حالة من السلم السياسى ، يستطيع خلالها سكان كل المدن أن يتنقلوا بحرية مستظلين بحماية زيوس ، دون أن يخشوا القبض عليهم أو إلحاق الأذى بهم ، إذ أن الاعتداء على مثل هذا الحجيج كان يعد انتهاكاً لحرمة مقدسة .

وفى أوليمبيا ، كانت المدن تتلاقى وجهاً لوجه ، إذا جاز استخدام هذا التعبير ، وكانت المباريات تعنى بالبدن بوصفه معبراً عن روح الإنسان . وكانت هذه الألعاب تجمع بين الشعراء كما تجمع بين الرياضيين ، فكان كل من الفريقين يجد ما يحفزه إلى بذل قصارى جهده فى التبارى ، نظراً إلى أن الحاضرين لم يقتصروا على إخوانهم من أهل بلدتهم فحسب ، بل كانوا يتألفون من ممثلى مجتمع أوسع نطاقا يشمل بلاد الإغريق « هيلاس » من أقصاها إلى أقصاها .

وبحافز من هذه الألعاب ، دخلت المدينة الإغريقية منظمة جديدة أصبح من الضرورى إيجاد مكان لها وهى « الپاليسترا » أو ساحة المصارعة التى تطورت مع مرور الزمن حتى أصبحت جيمنازيوم ، وكانت ساحة ألعاب رياضية محاطة بالجدران ، كثيراً ما كانت تقام وسط روض من أشجار الدلب لإقامة كل ضروب العرض أو المباريات الرياضية . وكان مثل هذا المركز يجهز بالحمامات وحجرات اللبس ، وأخيراً قاعات للدراسة ؛ فإنه اتباعاً للسنة الأوليمبية ، لم يكن العقل ليغفل ويترك خاملا بالانهماك العنيف فى التدريبات البدنية . فهنا كان المكان الذى يلتقى فيه الشباب والشيوخ للاشتراك فى جولات ودية للمصارعة ، أو الملاكمة ، أو العدو ، أو قذف القرص أو الرمح . ومن ثلاثة من أمثال هذه الرياضة المقدسة التى كانت قد أنشئت فى القرن السادس ، نشأت ثلاثة مركز شهيرة للعلم وهى الليكيوم

Lyceum والأكاديمية والكينوسارجس Cynosarges [١].

وإذا كان من المحتمل أن ساحة السوق كانت تستعار لمزاولة مثل هذه الألوان من النشاط قبل القرن السادس ، فإنه لم يعد هناك مجال لذلك بعد ما أخذت المدينة فى النمو ، ولذا فإننا نجد الجيمنازيوم عند أطراف المدينة حيث يوجد من الأرض التى لم تشغل بالمبانى ما يكفى لممارسة ضروب النشاط التى تحتاج إلى الهواء الطلق . وكانت توجد فى كل مكان من المدينة — وهنا بوجه خاص — تماثيل للآلهة والأبطال . ولما كانت هذه التماثيل تذكر الناس « بالرياضيين الكاملين والأمهات الكاملات للرياضيين » ، فإنها حددت مستوى عاماً لرشاقة الجسم وقوته ، وكان لهذه التماثيل من الأثر على شباب المدن الإغريقية ما للصور الشمسية والإعلانات الخاصة بنجوم الصور المتحركة من الأثر فى تجديد معايير الجمال النسائى فى حضارة اليوم . ولا يمكن المبالغة فى تقدير ما لمثل هذه النماذج من تأثير فى دور المراهقة ، حين تبدو لأول مرة علائم عشق الذات اللاشعورى (النرجسية) والإحساس بمفاتن الجسم ، وإنى لأستطيع أن أقرر من خبرتى الشخصية أن تمثالا رومانيا أقل قدراً من هذه التماثيل ، وهو يمثل شاباً رياضياً ممسكاً بأداة لتنظيف الجسم ، كان له أثر أى أثر فى اهتمامى بتنمية قواى الجسمانية .

وفى خلال قرن أو قرنين ، مع نمو الروح التجارية فى المجتمع الإغريقى طغت النزعات الوضيعة ، نزعات الاحتراف والمتاجرة ، على تلك الأغراض الدينية والثقافية التى كانت الألعاب الأوليمبية تنشدها ، وقد صاحب ذلك إقامة مسابقات منافسة لتلك الألعاب فى مدن أخرى . ولم يلبث مجرد التفوق فى القوة

---

(١) الليكيوم : كان الجيمنازيوم الذى درس فيه أرسطو والمشاءون . الأكاديمية : كان الجيمنازيوم الذى درس فيه أفلاطون وأتباعه . وكان الكينوسارجس جيمنازيوما مخصصا للذين لا يجرى فى عروقهم دم أثينى خالص ، وكان مركز تدريس أنتيسثينس مؤسس مدرسة الكلبيين الفلسفية . (المشرف)

البدنية – كتفوق ميلو الكروتونى – أن خلف الرشاقة فى مظاهر القوة ، والسرعة ورباطة الجأش . والواقع أنه عند ما حل القرن الرابع كان فوز الرياضيين المحترفين بالجوائز قد أصبح هدفاً فى ذاته كشأنه اليوم ، حتى إن تياجينيس الطاشيوزى كان يفاخر بأنه أحرز خمسمائة جائزة .

ولقد بلغ من تغلغل الروح الرياضية فى النفوس فى مبدأ الأمر أن صارت الحروب بين المدن تتخذ أحياناً هيئة مباراة رياضية غايتها إحراز شرف الفوز أكثر من استهداف غايات شريرة . ومثل ذلك « الحرب » التى وقعت بين خالكيس وأريتريا فى القرن السابع ، فقد جرت على هيئة مباراة حظر فيها استخدام جميع ما يرمى من أنواع القذائف ، كالحراب والمقاليع والسهام . فهاتان المدينتان خرجتا من نطاق الانحطاط البربرى الذى كانت تنطوى عليه الحرب الشاملة وهذبتا أساليب العدوان الوحشى .

وسكان الحضر بانتقالهم إلى المدينة ، خلفوا وراءهم كثيراً من ضروب التسلية الريفية الصحية والأعمال التى تستدعى نشاطا جسمانياً عنيفاً ، ولذلك فقد كانت رسالة الألعاب الأولمبية أن تعيد هذه الفضائل الريفية وتجعلها جزءاً من الحياة الحضرية اليومية ، على هيئة تمرينات منفصلة لها نسق ثابت مستمد من الحركات القديمة المألوفة فى المزرعة وفى المرعى وفى الصيد فى الغابات .

ولقد أثبتت النتائج الروحية التى تولدت عن هذا النظام أنها لا تقل شأناً عما أسداه للصحة من خدمات ، وذلك أن الشيوخ والشباب كانوا يلتقون باستمرار فى الجيمنازيوم ، لا كآباء وأبناء ، ولا كأساتذة وطلاب ، وإنما كأقران يشتركون فى مناقشة يدير دفتها أكبر الأعضاء سناً . وكان يزيد من طلاوتها الفارق فى السن والتحرر من السلطة الأبوية البحت . ولقد ثبت أن هذه الألفة كانت تؤدى فى بعض الأحيان إلى الشذوذ الجنسى العقيم بإثارة ضروب من الافتتان العاطفى الذى لا يتهدده خطر إنجاب الأطفال ، بيد أنها

أسهمت كذلك فى رفع مستوى التعليم ، وهو ما تشهد به محاورات أفلاطون . فهل كان لدى أى سلطة كهنوتية مسئولة من الطرق ما يمكن مقارنته بذلك من حيث القيمة والأهمية ؟ وطالما ظل الجيمنازيوم يحفز إلى مزاولة التمرينات البدنية ، فإنه كان يعين على التغلب على الخمول وهو الثمن الذى كثيراً ما كان يقتضيه التلاؤم مع البيئة الحضرية بما كانت تنطوى عليه من تقييد للحركة والتزام الجلوس طويلا .

وأما الدور الذى قام به معبد دلفى فإن وصفه أكثر صعوبة ، ولا سيما أنه لم يتخلف عن نشاطه الدينى أدلة ناطقة سوى بيت المال والنصب التى أقيمت وفاء للنذور . وعلى الرغم من أن عبادة ديونيسوس ربما تكون قد وفدت من مكان أشد بعداً ، فإنه من المحتمل أن تكون دلفى قد باركت استحواذ الدراما[1] على لب المدن الإغريقية ، فقد كانت دلفى تجمع على الدوام بين ما فى مذهب أبولو من الوضوح والاتزان وما فى مذهب ديونيسوس من الغموض وفرط النشوة . وهنا نستطيع أن نقف هنيهة لنتناول المسرح بوصفه نظاماً حضرياً دخل المدينة الإغريقية حوالى عين الوقت الذى دخلها فيه الجيمنازيوم . ولعل التمثيل كان يدور فى البداية فى ساحة السوق ، فتقام فور الساعة مدرجات خشبية كالتى نراها مصورة على ثلاثة أوان ترجع إلى أوائل القرن السادس . بيد أنه بسبب احتشاد جموع من المتفرجين فى المدينة الآخذة فى النمو ، سرعان ما استقر المسرح فى الهواء الطلق على منحدر أحد التلال فى أطراف المدينة .

ولقد كانت الأعياد التى نشأ عنها المسرح أعياداً دينية يحتفل بها فى القرية منذ عهد بعيد ، وكان كهنة المعبد يشغلون الصف الأول من المقاعد حول الدائرة الوسطى (أوركسترا) . وإذا كانت كوميديا أتيكا قد نبتت من

(١) الاعتقاد السائد بين الباحثين أن الدراما الإغريقية نشأت من الأغانى والرقصات التى كانت تصاحب حفلات ديونيسوس . (المشرف)

طقوس الإخصاب القديمة التي يرجع أصلها إلى العهد الحجرى الحديث ، فإن التراجيديا كانت تعالج مشاكل التطور الإنسانى التي فتح أبوابها النظام الحضرى الجديد ، وهى مشاكل القدر والحظ وحرية الإرادة . وتبعاً لتطور المدينة نفسها أخذت الدراما تبتعد عن التركة الدينية التي ورثتها ، وحلت التسلية الذهنية البحت مكان الطقوس الداعرة والفكاهة الصاخبة ، وكذلك التهذيب الروحى الجاف . ولقد صحب ذلك ابتعاد الدراما عن واقع الحياة ، ففى اللحظة التي تحول فيها زهوها واعتدادها بنفسها إلى صلف وغرور ، أخذ العنصر الإنسانى فيها يتفضن وينكمش . وعندما قطعت صلتها بأمور الدنيا والدين ، بدت باطراد نهباً لأهواء خارجية وتغييرات بلا معنى . وعلى هذا فإن الدراما فى أثناء تطورها كانت تنم عن الطريق الذى سلكه التطور الحضرى ، حيث حل المبتذل والتافه والدنىء وما يبهر الأنظار ، مكان مقدسات المولد والمواطنة والمهنة والزواج والموت .

غير أنه فى الدور الذى أعقب ظهور التراجيديا — عندما انقطت صلة المسرح بالدين — بقى المسرح أحد المعالم البارزة التي تمتاز بها المدينة « الكلاسيكية » ، فكان يشاهد حتى فى أقصى المدن التي كانت تشيد لطوائف المستعمرين ومن تعولهم الإمبراطورية . وحتى فى الوقت الحاضر ، على جنبات تل « فيسولى » بالقرب من فلورنسا ، نجد أن المقاعد الحجرية التي تنتظم فى شبه دائرة وتطل على الوادى المنبسط فى أسفلها والجبال القائمة من ورائه ، تحتفظ بالشكل الذى يكاد يكون عالمياً للمسرح الإغريقى ويتضوع منها عبير خفيف للحضارة الأصلية التي تمخضت عنها ، وتتكشف عن جمال ما نسقه الإنسان فى بيئة أبدعت الطبيعة تنسيقها .

وإذا كان وقف الألعاب الأولمبية أمارة على انتهاء عهد المدينة الكلاسيكية ، فإن الأمارة الأخرى هى العزوف عن المسرح ، ففى المسرح كان المواطن الإغريقى يرى نفسه ويطيع قول دلفى المأثور ، « اعرف نفسك » . بل إنه

كان يفعل ما هو أفضل من ذلك ، إذ أن كوميديات أريستوفان اللاذعة تحدثنا بأنه تعلم أن يرى نفسه كما يراها الآخرون بكل ما فيها من اعوجاج تصلحه سخريتهم المريرة . بيد أنه فى الوقت عينه كان يرى فيما هو أعظم منه ، فى الأبطال والآلهة ، شخصيات تجتذبه إليها ، وإذا ما حاكاها فى وقت الشدة قد يجد ما يعينه على تجاوز المستوى الوسط ، ذلك المستوى المأمون المألوف . فإن الوعية وتحقيق الذاتية بل استعلاءها أصبحت الأمارات الجديدة للشخصية الحضرية — أو على الأقل للأقلية المستيقظة .

بيد أنه بطريقة عملية مباشرة أكثر من ذلك ، أحدثت دلفى تغييراً آخر فى تطور المدينة الإغريقية ، فإنه نظراً إلى أن إنشاء المدينة كان عند الإغريق — كما كان عند الحضارات السابقة — عملا دينياً قبل كل شىء ، فإن دلفى تولت بطبيعة الحال أمر المنشآت الجديدة . ففى أوائل عهد الاستعمار بوجه خاص ، كانت تصدر عن وحى أبولو دلفى نصائح محددة أفضت إلى إرسال طوائف من المستعمرين إلى كل الأنحاء تحت رعاية أبولو نفسه ، ولم تقدم إلا قلة من المدن ، على إرسال مثل هذه البعوث دون استشارة هذا الوحى . وعلى ذلك فإنه فى الوقت الذى كان يحتمل أن يؤدى فيه ازدياد عدد السكان إلى الاكتظاظ فى داخل المدينة ، أو إلى الهجرة حيثما اتفق ، أو إلى التنازع على الأراضى الصالحة للزراعة فى أكثر المناطق ازدحاما بالسكان ، فإن دلفى ، إن طوعا أو كرها ، واجهت مشكلة السكان باتباع خطة لتوزيعهم توزيعاً منظما .

وعن طريق هذه الخطة ، تسنى لسدنة هذا المعبد أن يقللوا فى آن واحد من حدة التنافس الاقتصادى ومن حزوب الفتح ، وأن ينشروا الحضارة الإغريقية والمدينة الإغريقية حتى بلغتا مجتمعات القرى القليلة السكان عند أطراف العالم الإغريقى . وكان التحكم فى نمو المدينة عن طريق الاستعمار المنظم — وهو ما تكرر حدوثه كلما دعا إلى ذلك ازدياد عدد السكان — أول

اعتراف عملى بوضع حد جوهرى لنمو المدينة .. وفى خلال القرن الذى روعى فيه ذلك على أوسع نطاق ، واحتفظ فيه بمعدل واحد ، أثبتت المدينة الإغريقية أنها بيئة صالحة للغاية للتطور الإنسانى ، وأن مذهب دلفى الداعى إلى التزام حد الاعتدال ينطبق على المدن بقدر ما ينطبق على الناس . ومما يجدر بالملاحظة أن هذه الحركة الاستعمارية كانت وليدة الإغراء الدينى والعمل الاختيارى ، لا السلطة العسكرية المركزة ، فإن هذا العامل الأخير لم يأت إلا فى عهد الإسكندر الأكبر حينما كان النفوذ الدينى قد ضعف ، وكانت معايير المدينة قد زالت .

ولم تكن كوس وكنيدوس وابيداوروس دلالات أقل شأناً من الألعاب الأوليمبية أو معبد دلفى من حيث اهتمام الإغريق بكلية الفرد واتزانه ، فالدروس التى لقنتها هذه المدن لعبت دورا فى تخطيط المدن فيما بعد ، ولو أنها لم تستوعب استيعابا كاملا حتى اليوم .

ومن أشهر رسائل أبقراط رسالة عن « الهواء والماء والأماكن » ، وهو مؤلف وضع معالم قانون الصحة العامة من حيث علاقته بتخطيط المدن واختيار مواقعها . وإذا كان قد ترتب على حب الإغريق للمحسوس الملموس أن هؤلاء الأطباء الحاذقين أغفلوا أمر القوى والكائنات التى يتعذر على العين المجردة رؤيتها ، حتى إنهم ، فيما يبدو ، لم يدر بخلدهم مطلقاً أن الأمراض قد تنتقل عن طريق عوامل لا يمكن رؤيتها ، فإنهم على الرغم من ذلك قد أولوا عناية تامة للشئون التى كانت أيسر سبيلا فى الكشف عنها ومعالجتها ، مثل تحديد اتجاه المبانى وشوارع المدينة بحيث تتفادى شمس الصيف وتستقبل الرياح الملطفة للحرارة ، وتجنب أراضى المستنقعات والجهات غير الصحية ، وتوفير منابع نقية للماء باعتبار ذلك أمرا له أهمية مضاعفة بالنسبة للمرضى الذين كان يجب عادة منعهم من تناول النبيذ .

ولم تجد هذه الإرشادات سبيلا إلى سرعة التنفيذ ، فقد كان ذهاب الموسر أو من لديه فراغ من الوقت إلى إحدى المصحات فى حالة المرض ، أيسر من أن تقوم إحدى البلديات بتقديم المال اللازم للأعمال الهندسية الكبرى التى كان من شأنها أن تجلب المـــاء النقى من التلال ، أو بتقديم ما يكفى من الساحات الطلقة الهواء من أجل التريض فى داخل المدينة ، أو بإجراء ما يلزم لتمكين الهواء من أن يتخلل الأحياء السكنية المزدحمة ، إن لم يكن بالتخفيف من كثافة ازدحام السكان فيها ، فإذن بشق عدد من الشوارع والأزقة فى كل وحدة من وحدات المبانى . ولقد كان من المتناقضات أن المدن الكبرى ، التى كانت تملك المال اللازم لهذه التكاليف ، كانت أقل من سواها ميلا إلى تحمل نفقات التحسينات الضرورية ، على الرغم من أن عدد سكانها فى ذاته كان من شأنه أن يجعل تحسين الوسائل الصحية أكثر مدعاة للتعجيل به .

ونتيجة لذلك فإن نظرية أبقراط لم تصبح من القواعد الحضرية المعمول بها إلا بعد إنشاء المدن الهيلينسية الجديدة ، أولا فى العالم الإغريقى ، وثانياً فى مدن الاستعمار الرومانى : غير أن ترديد هذه المبادئ على لسان مهندس التخطيط والعمارة الرومانى ڤيتروڤيوس Vitruvius فى القرن الأول للميلاد يدل على أنها بقيت حية ومعمولا بها ، شأنها فى ذلك تماماً شأن ذلك القدر غير القليل من طب أبقراط الذى بقى حياً فى طب جالينوس .

وإدراك ما للماء النقى من أهمية لم يؤد فقط إلى تحسين المرافق البلدية ، بل أيضاً إلى استطلاع الخواص العلاجية للينابيع المعدنية ، ومن ثم تولدت عن المراكز الأصلية للعلاج الطبى سلالاتها الفرعية ، أى مراكز انتجاع الصحة التى تخصصت فى العلاج بالحمامات الساخنة والباردة طبيعياً ، وبشرب المياه بكميات وافرة . ومدينة « باث » نفسها الكائنة فى إنجلترا كانت مركزاً رومانياً من هذا القبيل . والاعتقاد فى فائدة الحمامات ،

بما فى ذلك تقدير قيمة الاستحمام فى المساء الملح ، عاد إلى الظهور فى القرن الثامن عشر كنتيجة مباشرة لحركة الإحياء الكلاسيكى الرومنطيقى . وقبل ذلك بقرن كامل كان الهواء الطلق وضوء الشمس قد أصبحا يعتبران الوسيلة الطبيعية التى يقرها العلم لمكافحة الكساح والسل .

وإن ما أبداه أبقراط من تأكيد أهمية الهواء والماء والتربة والموقع لم يصادف نجاحاً سهلا ، إذ أن التقليد القديم الذى كان ينطوى على تلاصق المبانى ، والتسامح فى شأن القذارة والعفونة ، والرغبة الشرهة فى الانتفاع بكل قطعة أرض فى متناول اليد ، قد أفضت إلى نقل المساوئ الطبية والصحية التى ارتكبها البناة الأوائل للمدن دون إدخال تحسين عليها . بيد أنه كان من شأن إرشادات أبقراط أنها جلبت إلى المدينة تدريجاً الماء النقى للشرب والاستحمام ، والحدائق الفسيحة للتريض وتجديد شباب الروح ، وكانت هذه عناصر حضرية أساسية تقابل المزايا الطبيعية التى أعرضت عنها المدينة . ومع ذلك فإنه ليتملكنا العجب من أن إحدى نواحى الصحة العامة لا وجود لها ، إذ أن مدارس الطب لم تترك أى نص عن طرق وقواعد المحافظة على الصحة العامة ، ولا توجد أى إشارة إلى السبيل القويم لتصريف فضلات الناس .

وهكذا نرى أن الإغريق الذين انتشروا انتشاراً واسعاً ، وكانوا يجتمعون فى مراكز خاصة بين حين وآخر ، قد قدموا لحضارة المدن هذه الخدمات الحاسمة ، وأعنى الجيمنازيوم والصحة والمسرح . ولم يقتصر أثر هذه المنشآت على إعادة تشكيل قالب المدينة ، بل إن كلا منها أوجد كذلك باعثاً على المزيد من التنقل والتبادل الثقافى عن طريق السفر والحج . ولقد بث هذا الأثر فى نفوس الإغريق الإحساس بأنه تربطهم جميعاً رابطة الحضارة المشتركة . وقصائد تيرتايوس Tyrtaeus التى أنشدت فى مناسبة الألعاب الأوليمبية تنهض دليلا على أنه حتى إسبرطة الجافية الطبع أسهمت فى الثقافة الأدبية المشتركة :

وكان الذين يخاطرون بالذهاب وحدانا أو زرافات إلى أوليمبيا ودلفى وكوس وشقيقاتها من المدن ، يعزلون أنفسهم وقتياً عن عالم المدينة المنطوى على نفسه ، ويصبحون أعضاء فى وحدة أوسع نطاقاً لم يكونها التطويق والإحاطة ، وإنما كونتها جاذبية ساحرة . وعند التقائهم كانوا يتغلبون على ما جبلوا عليه فى مدينتهم الأصلية من الانفصالية والعصبية المحلية ، ويشخصون بأبصارهم إلى أفق أعظم اتساعاً . وكانت الطرق المقدسة التى تؤدى من اليس (Elis) فى أوليمبيا ، أو من أماكن أخرى عديدة إلى دلفى ، بمثابة روابط محسوسة فى هذه الوحدة .

ومن الناحية الاحتمالية ، كانت مزاولة هذه العادات تنطوى على أساس نوع جديد من الدولة الحضرية يقوم على نظام فيدرالى يسرى على مناطق واسعة المدى ، ليس عن طريق سلطة مركزية ، بل عن طريق التعامل الاختيارى وتبادل المنافع . ولو أن هذه الجهود صادفت لدى المفكرين السياسيين فى بلاد الإغريق إدراكاً أعمق وتقديراً أوفى ، فلربما أمكنها — حتى فى وقت متأخر كالقرن الرابع — أن تترك أثرها فى المدينة . ولكن الإغريق كانوا فى الناحية العملية أسبق بمراحل منهم فى الناحية النظرية ، والواقع أن النظريات الإغريقية آزرت الانفصالية والفردية والسلبية والقدمية ، وأغفلت شأن الميول الجديدة نحو التبادل الثقافى الدينامى والاتحاد السياسى الفيدرالى . ولقد درس أرسطو أنظمة الحكم فى ١٥٨ مدينة إغريقية فوجد فى نظام كل منها من وجوه الاختلاف ما يبرر أن يختصه بتحليل منفصل، بيد أنه لا يوجد دليل على أنه وجه عناية إلى الجهود التى بذلت لإنشاء عصبة عامة من المدن ، وإن كان السعى إلى ذلك قد بدأ منذ القرن السادس . وقبل أن تقضى روما على آخر بقايا الحرية الإغريقية ، كان الإغريق قد أنشأوا نحو العشرين من أمثال تلك العصبة .

وإن ما يذكره ماكدونالد ليطابق الواقع حيث يقول : إن نقطة البداية في نشأة أغلب هذه العصب كانت إحدى الحفلات الدينية المشتركة والتنظيم اللازم لحماية شعائر دينية خاصة والإشراف عليها . وأخيراً ، وبعد لأى استحدث فى نظم الحكم الحضرى مبدآن جديدان ، وهما مبدأ الايزوبوليتى (Isopolity) وبموجبه كانت إحدى المدن تمنح حقوق المواطنة فيها لمواطنى مدينة أخرى مع بقاء كل من المدينتين منفصلة عن الأخرى وتتولى حكم نفسها ، ومبدأ سيمبوليتى (sympolity) وبموجبه كانت المدينة تصبح جزءاً من مجموعة مدن متعاونة فى كنف سلطة تربط بينها على قدم المساواة ، مع اعتراف المواطن بولاء مزدوج . وقد كان من الممكن أن تتضاعف هذه المحاولات وتؤتى ثمارها لو أن السلام كان يسود عالمها .

وحتى أولئك الذين يلمون بتاريخ بلاد الإغريق إلماماً واسعاً ، مثل توينبى ، يجنحون إلى عزو انفصال المدن الإغريقية عن بعضها بعضا إلى طبيعة التضاريس الأرضية ، أو إلى الغيرة والتنافس ، أو إلى شغفها النرجسى بمحاسنها الذاتية . ولايمكن أن نشك فى أنه كان لهذه العوامل جميعاً أثر فى ذلك ، ولكن ما حدث من بذل محاولات كثيرة للاتحاد يدل على أنه وجدت عوامل كثيرة مضادة للعوامل سالفة الذكر . وأول دولة فيدرالية فى بلاد الإغريق استطاع لارسن J.A.O. Larsen أن يجد لها وصفا وافيا ، كانت دولة الاتحاد البيوتى فى الفترة من ٤٤٧ — ٣٨٦ ق . م . ولم تقدر قيمة هذه المحاولة إلا منذ سنة ١٩٠٨ عندما عثر على بردية إغريقية فى أوكسيرينخوس[1] .

ولعله مما ساعد على ظهور هذا الابتداع خلو ذلك السهل الخصب الفسيح من حواجز الجبال ومن المدن القوية . وعلى الرغم من أن البيوتيين اشتهروا عند أهالى أتيكا ببلادة الذهن ؛ فإنهم فى الواقع أنشأوا نظاماً فيدرالياً حسن التنظيم له هيئة من الحكام ومجلس كبير يتألف من ممثلى المدن الأعضاء ،

---

(١) أوكسيرينخوس : البهنسا فى مصر الوسطى .

وبيت للمال يتحكم فى دخل معين ، بل حتى محكمة أو محاكم فيدرالية . وقد بلغ هذا الاتحاد من القوة أنه استطاع أن يفرض على المدن الأعضاء نظاماً موحداً للحكم المحلى . وجملة القول أنه كان ابتداعا رائعا .

وهذا النجاح فى إقامة حكومة تمثيلية فيدرالية تجمع بين الاتحاد والحكم الذاتى المحلى كان تطوراً سياسياً لا يستهان به ، أو لم يكن السبب فى فشله راجعاً إلى الفردية المتأصلة فى المدن الإغريقية ، وهو ما لم يكن لها حيلة فى وجوده بالفطرة فى طبيعتها وتكوينها ، بل على النقيض من ذلك لقد أطاح بذلك النظام الفيدرالى إجراء قاس معين ، وهو « صلح الملك » الذى عقد فى سنة ٣٨٦ ، ونص على أن تكون المدن الإغريقية « حرة » . وفى عهد سيطرة إسبرطة كان معنى ذلك أن المدن لم تكن حرة فى الانضمام معاً فى اتحاد فيدرالى . ولقد حدث ذلك كله قبل أن يحاول ديموستينيس تنظيم صفوف المدن التى كانت تواجه فيليب المقدونى وقد استبد بها الخوف . ولو أن نظام بيوتيا الفيدرالى انتصر على نظام إسبرطة الانعزالى ، فلربما استطاعت المدن الإغريقية أن تدرأ الضربة القاتلة التى نزلت بها عند خايرونيا[1] Chaeronea .

ولو أن قوة المدن الإغريقية وثقتها بنفسها لم تحطمهما سلسلة الحروب التى نشبت فيما بينها ، فلربما كان فى وسع المحاولات التى قامت بها فيما بعد للانضواء فى اتحاد فيدرالى — وكانت إلى حد كبير وليدة اليأس — أن تهيئ لها فرصة أكبر للصمود فى وجه الإمبراطوريات التى اكتسحتها فى النهاية . بيد أن الفكرة الأوسع نطاقا ، فكرة نظام حكم حضرى فيدرالى — وهى التى كان من شأنها أن تقيل فى آن واحد من عثرات الميول الحضرية للعزلة

---

(١) انتصر فيليب المقدونى فى ٣٣٨ ق . م . على أثينا وطيبة ثم أرغمهما مع عدد كبير من المدن الإغريقية على تكوين عصبة كورينثه بزعامة مقدونيا وكان ذلك فاتحة سيطرة مقدونيا على بلاد الإغريق وضياع استقلال المدن الإغريقية .

وكذلك للتوسع الاستعماري سياسياً وثقافياً ـ هذه الفكرة لم يتح لها إطلاقا أن تعمر زمناً يكفي لإنشاء نموذج لحياة المدينة يكون جديدا من أساسه . وذلك لأن الحروب عادت بالمدينة القهقرى إلى النموذج الأكثر تأخراً ، نموذج أقدم المدن وكانت حياتها تتركز حول الملك ، وقضت فى النهاية على كل ما كان لها من استقلال وحكم ذاتى ولم يبق لها إلا ظلهما . وعلى ذلك فإن الإغريق الذين حلوا فى النهاية دروس أولمبيا ودلفى وكوس إلى بقية أنحاء العالم ، لم يقوموا بذلك بوصفهم من المواطنين الأحرار ، وإنما بوصفهم من اللاجئين المقهورين والرعايا الأرقاء .

٤ — المعبد القديم والإله الجديد

لقد تناولنا المدينة الإغريقية من أطرافها إذ أن المنظمات الجديدة التى أطلقتها من عقال النماذج القديمة وجدت مستقرها فى أطراف المدينة ، إلا أن المدينة الإغريقية عندما اتخذت شكلها آخر الأمر فى القرن الخامس ، كانت تقوم فى وسطها ، دون أى تغيير تقريبا ، تلك المنظمات التى كانت تمتاز بها القلعة القديمة . فهنا كان يقوم المعبد الذى رعى العبادة القديمة وصانها ، وعلى مقربة منه كانت توجد مساكن الكهنة والكاهنات . وهنا أيضا كان يقوم القصر القديم الذى تحول إلى دار للمدينة عندما قسمت السلطة الملكية بين الحكام المنتخبين ، وكان أحدهم يهيمن على شئون الحرب وثان على شئون القانون ، وثالث على شئون الديانة — ولو أن روبرت ج . بونر Robert J. Bonner ينبهنا إلى أن الرئيس الدينى للدولة ظل يعرف باسم أرخون باسيليوس Archon Basileus أى الحاكم الملك . وأما مكان الاجتماع القروى وهو « الأجورا » أو السوق ، فإنه كثيراً ما كان يقع عند سفح القلعة . غير أن اتساع مهمة السوق كان كثيراً ما يؤدى ، فى حالة امتداد نطاق المدينة أو إعادة بنائها بعد تدميرها فى زمن الحرب ، إلى نقل السوق إلى حافة الماء ليتيسر شحن السفن وتبادل البضائع وتخزينها .

وكانت وجوه النشاط اليومية فى مدينة إغريقية تزاول فى الهواء الطلق ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك تحت سماء صافية مشمسة ، وأحياناً فى أحوال جوية كئيبة بسبب خريف مطير أو شتاء كثير الثلج . ولقد كان فى هذا التعود على الحياة فى الهواء الطلق بعض التعويض عما فى المعيشة فى الأحياء السكنية من ضيق وانقباض ، ولاسيما بالنسبة للذكور من أفراد المجتمع . وجاءت الوقاية الجزئية من عناصر الطبيعة بوصفها أحد ألوان الترف الجديدة فى العهد الهيلينيسى ، وذلك أنه عندما فقد المواطنون حريتهم عمدوا إلى تعزية أنفسهم عن ذلك بوسائل الراحة البدنية ، كما يفعل الناس اليوم ثانية فى مجتمعنا نحن الذى يكاد يكون استبدادياً . إلا أن الأكروبول ظل المركز الروحى للمدينة ، وبعد القرن السابع لم يعد المبنى الذى يتوجه هو الحصن وإنما المعبد .

وبوصف المعبد بيت رب المدينة ، فإنه اتخذ الشكل التقليدى للقصر المنيف ، وكان يتألف من صالة هائلة تتقدمها ردهة وبهو أعمدة أمامى ، وهو مبنى أشبه بمخزن للغلال يعلوه سقف هرمى الشكل تحولت دعائمه الخشبية العمودية مع مرور الزمن إلى أعمدة رخامية ضخمة من الطراز الدورى أو الأيونى . وقد كان هذا المبنى يأوى عادة تمثالا للإله أو الآلهة مكسواً بالذهب ، وربما كان الرأس يصنع من العاج والعيون من الجواهر على نحو ما صنع فى التمثال الذائع الصيت الذى صنعه فيدياس للإلهة أثينا . وكانت النقوش المنحوتة والزخارف المندسية على الجدران الخارجية تطلى بألوان زاهية ، وتزخر جميعاً بفيض دافق من المعانى الرمزية . ولم يكن المعبد الكبير إلا واحداً من كثير من المعابد والهياكل الصغيرة التى أنشئت فى أنحاء المدينة فى مواقع لم يكن اختيارها راجعاً إلى أهميتها الجمالية بقدر ما كان راجعا إلى الأحداث أو المناسبات المقدسة التى كانت تضفى على الموقع قداسة خاصة . فقد كانت الحجج المنطقية والاعتبارات الجمالية تحتل مرتبة ثانوية إلى جانب العواطف الدينية التى توج الزمن هامتها بجلاله .

وعلى عكس الحال فى مدن العصور الوسطى المسيحية ، لم يكن المعبد فى المدن الكبرى يبلغ إطلاقا من الاتساع ما يسمح بإيواء أى شطر كبير من المجتمع فى وقت واحد ، فإن ذلك لم يكن الغرض منه ، لأن الطقوس والاحتفالات الرئيسية كانت تقام خارج المبنى ، وإنما فى داخل الحرم المقدس . وعند ما حل الوقت الذى أقيمت فيه المعابد العظيمة فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، كانت الآلهة نفسها قد طرأ عليها تغيير جوهرى ، فهى لم تعد الصورة القدسية لسادة القلعة وسيداتها : تلك الصورة التى كانت الأنظار تتطلع إليها عن كثب ، بل أصبحت صوراً مجسدة لصفات أو فضائل بشرية خاصة ، صوراً مجسدة للعدالة ، أو الحكمة ، أو العاطفة الجنسية . وقد كان هذا جزءاً من ذلك التحرر من « العبث الأحمق » وهو التحرر الذى اعتبره هيرودوت . إلى جانب الذكاء الإغريقى ، السمة التى امتاز بها الإغريق عن المتبربرين .

وحتى فى وقت مبكر يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، كان يوجد فى الديانة الإغريقية عنصر من الإبهام المتعمد ، فى سياق خطبة بريكليس بأسرها ، وهى الخطبة التى ألقاها تخليدا لذكرى موتى الأثينيين ، لا توجد إشارة واحدة إلى الآلهة . وهل كان أريستوفان ، ذلك المحافظ القح ، يجرؤ على أن يصور ، ولو على سبيل الدعابة ، محاصرة الطيور للآلهة . لو لم تكن المعتقدات التقليدية فى الآلهة الأوليمبية قد تضاءلت ؟ حقا إن سقراط قد حكم عليه بالإعدام فى زمن تال على زعم أنه نفر شباب أثينا من الآلهة القديمة ، بيد أن هذا قد حدث فى إبان سورة ديمقراطية من سوء الظن والسخط فى خلال حرب خاسرة ، وهو ما يشبه كثيراً نفس الروح التى ربما كانت لجنة تحقيق من مجلس الشيوخ الأمريكى — لو أن النازيين هزموا الولايات المتحدة — تصدر بها حكمها على تشارلس بيرد لزعزعة

إيمان الشعب بواضعى الدستور ، أو على چون ديوى لمناداته بعدم الاعتماد على الحفظ غيبا فى تعليم القراءة والكتابة والحساب .

والحقيقة هى أنه عند ما حل القرن السادس كان إله جديد قد وضع يده على الأكروبول ، واندمج مع المعبود الأصلى بطريقة غير محسوسة ، وكان هذا الإله الجديد هو المدينة نفسها ، إذ أن الذين شيدوا تلك المعابد العظيمة تملكتهم نشوة عبادة الذات عبادة جماعية ، ولعلهم لم ينتبهوا إطلاقا إلى أن ما أقاموه على ذروة تل لم يكن سوى الصورة التى تخيلوها بأنفسهم للنظام والجمال والحكمة ، وأنه فى سبيل توفير الوسائل لإقامة مثل هـــذه المنشآت سوف تتسم تصرفاتهم فى كثير من الأحيان بالصلف المفرط والقسوة المنكرة . وإزاء ذلك كان إنقاذ المدينة يقتضى المواطنين أن يفحصوا حالهم فى تواضع وبنظرة ثاقبة . ولقد كان البارثينون ــ وهو من أعظم هذه المبانى ــ مشروع المنشآت العامة الذى اقترحه بريكليس نفسه ، ولم يتيسر تنفيذه إلا بارتكاب أعمال تنطوى على الظلم الصارخ والإرهاب المدبر ، أنزلتها أثينا بالضعاف من جيرانها وحلفائها . ولقد بلغت هذه الأعمال ذروتها فى إبادة الذكور من أهل ميلوس جملة حتى بعد استسلام سكانها . ومن المحتمل أن أمثال هذه المنشآت العامة الأنيقة كانت تهيئ العمل للزائدين عن الحاجة من سكان أثينا ، إلا أن المال الذى جعل تحقيقها أمرا ميسورا كان مالا ملطخاً بالدماء حط من شأن آخذيه .

وإذا ما تخلص المرء من سحر بلاغة توكيديديس ، وجد أن المرثية التى ألقاها بريكليس تروى قصة تختلف عما يستنتجه منها فى الغالب الباحثون فى تاريخ الإغريق . وذلك أن هذه الخطبة ما هى فى الواقع إلا أنشودة من تسابيح العبادة الذاتية المهذبة مستورة وراء قناع رقيق من التواضع والاعتدال ، فقد تناولت مثلا عليا كما لو كانت حقائق ثابتة ، مع أنها لم تكن قد تحققت عندئذ إلا جزئيا ، على حين أن مظالم وقعت فعلا

وكانت تملأ الأسماع والأبصار لم تكد تظفر حتى بمجرد النظر إليها ، بله الندم عليها .

وإذا احتجنا إلى دليل آخر على هذا التضخم الخبيث للذات الجماعية فقد وافانا به البارثينون ذاته ، وليس الضعف الخلقى أقل ظهوراً لأنه تجسد فى صورة لا عيب فيها من الناحية الجمالية . فما الإفريز المزخرف بمناظر موكب الحفل الأثينى الجامع إلا عرض فى صورة مثالية للموكب الفعلى الذى كان يطوف شوارع المدينة الضيقة ، ثم يرتقى تل الأكروبول صوب معبد أثينا حيث كان المشتركون فى الموكب يشاهدون أنفسهم فى الزخارف المنحوتة الماثلة أمامهم ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يقومون فيه ، عند بلوغهم ذلك الجزء الطلق من التل أسفل سلم المعبد ، بإبداء إجلالهم نحو حارسة الحكمة لديهم ، حاملين البومة — وكانت الطائر الذى اتخذوه جميعاً طوطما لهم . وعلى هذا النحو كانت الذات تنظر بإعجاب إلى الذات التى تطل على الذات ، وهذه حالة من النرجسية المنتشية جذلا وابتهاجا . ولا شك فى أن افتتان الأثينيين بصورتهم الذاتية ازداد تغلغلا بسبب انتصارهم النهائى على الفرس ، وهو الذى أدى إلى إعادة بناء المعبد الذى كان الفرس قد دمروه فى سنة ٤٨٠ ق . م . وحتى فى سنة ٣٣٦ ق . م . ، أى بعد مرور سنتين على هزيمتهم القاضية فى موقعة خايرونيا ، نقش مواطنو أثينا على نصب أقاموه ، نص قانون ضد الطغيان ، وكان النقش الزخرفى البارز الذى اقترن بذلك النص يمثل الديمقراطية وهى تتوج شعب أثينا !

ومن المحتمل أنه لمدة من الزمن ، كان لزهو الإغريق بمشاعرهم الإنسانية الطليقة من كل قيد أثره فى تهذيب الدين ، وكانت النتيجة ، كما أوضح جيلبرت مورى Gilbert Murray ، أنه أضفيت صفات خلقية على آلهة أوليمبوس لرفع سلوك الآلهة إلى مستوى السلوك الإنسانى على الأقل ، وستر ألوان حبها الفاضح وحيلها الدنيئة ، بوصفها غير خليقة بالآلهة ،

إذ كان أعضاء مجمع الآلهة قد نقلوا تلك التصرفات عن المنحرفين الذين ملأوا جنبات الكون فى عهد سابق ، ومن ثم فإنه كان يجب أن يتحول أوليمبوس ذاته إلى مدينة مواطنين يبعثون على الاحترام . وبذلك تسنى لأقل الآلهة شبها بالآلهة ، وهو هفايستوس الحداد ، أن يجد أنه احتفاء بفضائله القوية التى تحاكى فضائل الصناع ، قد أقيم له معبد فى مكان ملاصق للأحياء القديمة لصناع الفخار والحدادين عند سفح الأكروبول ، على حين أن برومثيوس — وهو الذى نعته هسيود بأنه « ماكر » — قد أصبح فى دراما ايسخيلوس أسمى خلقا من زيوس . وعلى الرغم من أن أثينا تقدم أغلب ما لدينا من أمثلة تأليه المدينة ، فإن الروح نفسها كانت سائدة فى كل مكان ، فقد أصبح الإله والمدينة والمواطنون مظهرا محكما واحدا للذات .

وقد كان لعبادة العاصمة على هذا النحو — وهى التى تحتل مكاناً بارزاً فى الخرافات والأساطير ، وصيغت فى أعمال معمارية باهظة التكاليف ، وملئ وفاضها بسلسلة متعاقبة من الطقوس التى تخلب الألباب — كان لهذه العبادة تأثير خبيث على المدينة . وذلك أن ما بدا على هيئة احترام جماعى للنفس والثقة بقوى عجم عودها الخطر الخارجى ، قد تحول إلى عبادة صورة متجمدة للذات الجماعية . وفى النهاية انهارت المدينة وأصابها الدمار بسبب إفراطها فى الانصراف إلى مزاولة الفنون والشعائر التى أمدتها بالقوة إبان الهزيمة واحتفلت بانتصاراتها . ولقد أصاب أفلاطون فيما أبداه فى كتابه « القوانين » من أن أشد ما نكبت به المدينة لم يكن التلاحى ، بل التلاهى .

وعندما أقبل القرن الرابع الذى آذن بحلول عهد عظيم من التوسع الحضرى ، وبإدخال ضروب من التجميل على المدن ، أصر أهل أثينا ، كما كانت شيمتهم على أن ينفقوا على ألعابهم وحفلاتهم العامة الأموال التى كانوا فى أشد الحاجة إليها لإعادة بناء أسطولهم البحرى لصد الغزاة المقدونيين. وخطاب ديموسثينيس « عن المجالس البحرية » كان فى الواقع رداً على المرثية

التي ألقاها بريكليس ، ولم يكن ديموستينيس ينعى الجنود الذين خروا في ساحة القتال ، بل كان على الأصح ينعى المدينة ذات الكبرياء التي كانت تحتضر في سلام تسوده الغفلة . ولكن واأسفاه فإن ما حاول أن يبث فيه الحياة كان جثة هامدة زينت وعطرت استعداداً للدفن . وقد كانت لوعة ديموستينيس على معاصريه المحبين للهو والمتهربين من المسئولية ، رداً حاسماً على ما فاخر به بريكليس . ولقد بلغ من شدة تعلقهم بما اعتادوه من أسباب اللهو والإثارة – رياضاتهم وألعابهم وملاهيهم واهتمامهم الجديد بالتفنن في الطهي ، وهو ما كشف عنه أولوس جيليوس Aulus Gellius – أنهم كانوا لا يحبون مواجهة حقائق الحياة والموت ، التي كانت تتطلب بذل التضحية

ومرة أخرى كان البنيان المادى الصلب يخفى ما يحتمل أن يوجد وراءه من الانحلال الروحي . والآثينيون بتضخيمهم شأن كل ما يمكن أن تأتي به الثروة والقوة الحربية قد أغفلوا شأن ما في المدينة من الروابط الأساسية للتكافل والتعاون . وهي لا تزدهر إلا عندما تكون متوازنة في بيئتها ، وكذلك بيئة أوسع منها نطاقا ، فإن أثينا لم تبلغ ما بلغته من العظمة بفضل ما حققته من آيات الكمال في العصر التالي لعصر بريكليس ، بل بسبب الإمكانيات التي لم تبلغ غاياتها في الفترة بين سولون وبريكليس – تلك الفترة الخصبة عندما لم تكن المباني قد احتلت بعد مكان الناس – في ذلك الحين شاع في كل مهمة حضرية روح من الابتداه والابتداع الرائعين .

ولم تكن المدينة الإغريقية فذة في معابدها ومعالمها العظيمة ، فمن المحقق أن الكرنك وهليوبوليس وبابل ونينوى لم تكن أقل منها شأناً في ذلك ، إلا أن القوة الحقيقية للمدينة الإغريقية كانت من طراز آخر . فإنها وقد كانت غير مفرطة في صغر الحجم ولا في كبره ، وغير مفرطة في الغنى ولا في الفقر ، حفظت شخصية الإنسان من أن تطغى عليها منتجاتها الجماعية ،

على حين أنها استخدمت إلى أقصى حد كل العوامل الحضرية الكامنة في التعاون والصحبة . ولم يحدث إطلاقاً أن أى مدينة ، مهما يبلغ من ضخامتها ، حوت ورعت مثل هذا الجمع من الشخصيات الخلاقة التى احتشدت فى أثينا لمدة قرن من الزمان تقريباً . وهذه هى أهم حقيقة عنها ، بيد أنه إذا أعوزتنا الوثائق المكتوبة فإن أحجار أثينا لا تروى لنا قصتها .

٥ — دار المدينة وساحة السوق :

والآن نصل إلى المركز الدينامى فى المدينة الإغريقية . ونعنى به « الأجورا » . ومنذ البداية تقريباً كان « الأجورا » مفصولا عن الحرم المقدس للمعبد ، أى أن المكان الوضيع للاجتماع من أجل المعاملات الدنيوية كان مفصولا عن المكان السامى للاجتماع الذى كان مكرساً لتقديم القرابين والصلوات للآلهة . ولقد حدث هذا الفصل فى بلاد الإغريق بأسرع مما حدث فى بلاد ما بين النهرين ، إذ أنه فى العصر التالى لعصر هوميروس على الأقل لم تزاول الحرف والصناعات إطلاقاً تحت سلطة المعبد مباشرة ، ولم يحدث أن وجد فى وقت مبكر نظام رأسمالى فى دولة ثيوقراطية نتيجة لتركيز السلطة الملكية ، وإنما حدث نقيض ذلك تماماً ، فإن تقديم الهدايا طوعا واختياراً لمعبد مثل معبد أبولو فى ديلوس ، حوّل تلك الجزيرة القاحلة إلى مركز ناجح للأعمال المصرفية لعب دوراً هاماً فى تقدم التجارة الهيلينسية . وإذا أمكن تسمية « الأجورا » بحق ، ساحة السوق فى نظام الحياة الاقتصادية فى القرن الخامس ، فإن أقدم وظيفة كانت هذه الساحة تؤديها ، وأكثر وظيفة ثابرت على القيام بها ، هى وظيفة مكان لالتقاء المجتمع . وكما هى العادة ، كانت السوق نتيجة فرعية لاجتماع المستهلكين ، الذين كانت توجد لديهم أسباب أخرى عديدة للتجمع أكثر من مجرد أداء العمل .

وعلى غرار الكثير من المظاهر الأخرى للمدينة الإغريقية الباكرة ، نجد وصفاً «للأجورا» فى الإلياذة فى أول وصف واف للدورة اليومية فى حياة مجتمع إغريقى ، ونعنى بذلك ما ركزه هوميروس فى وصف صور من الذهب والفضة على الدرع الخيالية لأخيلس . ونجد « الأجورا » هنا « مكانا للاجتماع » حيث « كان أهل المدينة يجتمعون » . وكان الغرض من الاجتماع فى هذا السباق أن يبتوا فيما إذا كان رجل قاتل قد دفع دية مناسبة لأهل القتيل : ولقد أصـــدر الشيوخ قرارهم وهم « جلوس على أحجار مصقولة فى وسط الحلقة المكرمة » .

وحتى أكثر المجتمعات بدائية لا بد من أن تعالج شئونها العامة وتواجه مشاكلها العامة ، فتقضى على ما لا يطاق من ضروب التوتر الناجمة عن غضب أو خوف أو سوء ظن ، وتعمل على إعادة التوازن الاجتماعى عند ما يختل نتيجة لأعمال الاعتداء والانتقام أو النهب والتعويض الاستبدادى . ولا بد من أنه كان يوجد فى القرية منذ عهد طويل مثل هذا المكان للاجتماع : وربما كان ذلك تحت شجرة مقدسة ، أو إلى جوار عين ماء فى مساحة من الأرض تبلغ من الاتساع ما يكفى لأن تقام بها كذلك حفلات القرية للرقص أو الألعاب . وكل هذه الوظائف التى كانت تقوم بها « الأجورا » كان مصيرها الانتقال إلى المدينة لتتخذ أوضاعاً أكثر تنوعاً فى النموذج الحضرى المعقد . بيد أن « الأجورا » فى وضعها البدائى كانت فوق كل شىء مكاناً للتحدث ؛ ومن الراجح أنه لم توجد سوق حضرية (على الأقل فى الماضى) لم يقم تبادل الأخبار والآراء فيها بدور يكاد يعادل فى أهميته دور تبادل السلع .

والواقع أن وظائف السوق بوصفها مركزاً للمعاملات الشخصية والترفيه الاجتماعى لم تندثر كلية إلى أن تمخض مجمع السوق فى الولايات المتحدة عند منتصف القرن العشرين عن الآلية واللاشخصية . وحتى فى هذه الحالة لم تعوض الخسارة الاجتماعية إلا جزئيا بإنشاء المركز التجارى الأوسع نطاقا ،

وهنا وفقاً للأسلوب المعهود فى عصرنا المفرط فى استخدام الآلات ، تستخدم وسائل متنوعة للاتصال بالجمهور ، وتقوم هذه الوسائل على الأقل – تحت الإشراف الذى يمارسه الساهرون على أمر السوق من المعلنين – بدور بديل يحل مكان الاتصال المباشر وجها لوجه بين المشترى والبائع ، وبين الجار وزميله فى التسوق .

ولم يكن للأجورا فى أول عهدها شكل متبلور منتظم ، وإذا كانت أحياناً عبارة عن ميدان فسيح ، فإنها فى مدينة مثل « ثيرا » ربما لم تكن أكثر من مجرد اتساع فى الشارع الرئيسى ، أى إنها ربما كانت طريقا عريضا كما كانت الحال فى المدينة الإنجليزية هاى وايكوم (High Wycombe) ، وذلك على سبيل اختيار مثال واحد من مائة مثال . فالأجورا أساسا مكان مفتوح تملكه الدولة ويستخدم للأغراض العامة ، ولكنه ليس بالضرورة مكانا محاطاً بأسوار . وكثيراً ما كانت المبانى المجاورة تتناثر حوله على نسق غير منظم ، فترى هنا معبداً ، وهناك تمثالا لبطل أو نافورة ، أو قد ترى فى صف واحد مجموعة من حوانيت الصناع مفتوحة أمام المارة ، على حين أن المنصات أو المظلات الوقتية التى فى الوسط قد تشير إلى يوم السوق عندما كان الفلاح يحضر إلى المدينة ما لديه من الثوم أو الخضر أو الزيتون ، ويشترى جرة أو يصلح حذاءه عند الإسكاف .

وعلى ذلك فإنه منذ القرن السابع ، عندما أصبحت العملة المسكوكة من الذهب والفضة هى الوسيلة الجديدة للتعامل ، أمست التجارة عنصراً أكثر أهمية من ذى قبل فى حياة المدينة ، واستمرت الوظائف الاقتصادية للأجورا ماضية فى اتساعها . والآن أخذت جماعة من الناس متزايدة فى العدد – من المشتغلين غالباً بالتصدير وتجارة الجملة – أخذوا يعملون ليس من أجل رفع مستوى معيشتهم فحسب ، بل للحصول على الثروة فى ذاتها ، فقد كانوا يسعون حتى يصبح لهم من الثراء ما كان لكرويسوس ملك ليديا الذائع

الصيت دون أن تحملهم الفطنة على أن يفزعوا من سوء المصير الذى انتهى إليه . وفى الحقيقة أن هذه الوظائف الاقتصادية الجديدة للأجورا اشتدت مزاحمتها لما كانت تؤديه من المهام السياسية والقانونية ؛ إلى حد أنه فى آخر القرن السادس – على الأقل فى أثينا – عندما ضاق المكان بالجمعية الشعبية هجرت الأجورا إلى البنيكس[1] Pnyx :

ومع ذلك فإنه حتى فى عهد سولون أنشئت أجورا الخزف قصداً لتكون فى آن واحد سوقا ومكانا للاجتماع لإقامة الأعياد . وعلى الرغم من أنه كثيراً ماكان يخصص جانب من الأجورا لربات البيوت ، فإن الأجورا كانت قبل كل شىء حرما خاصا للرجل ؛ إذ أن الأجورا كانت فى الواقع بمثابة ناد غير رسمى ، حيث كان فى وسع المرء أن يلقى أصدقاءه ومحبيه إذا أطال الانتظار وقتاً كافياً . بيد أنه حتى فى القرن الخامس ، كما ذكر أريستوفانيس فى « السحب » ، كان السراة من ذوى الأملاك يفضلون أن يتلهوا بتمضية الوقت فى الجمنازيوم حيث كانوا لايلتقون إلا بمن على شاكلتهم .

وهذه الوظيفة الاجتماعية للمكان الطلق قد ظلت باقية فى البلاد اللاتينية ، فالميادين بأسمائها المختلفة – كالبلازا والكامپو والپياتزا والجران پلاس – تنحدر رأسا من الأجورا ، فإنه فى المكان الطلق وفيما حوله من المقاهى والمطاعم يحدث تلقائيا ووجها لوجه ، اللقاء والأحاديث والمقابلات والمغازلات دون التقيد بالشكليات ، بل إن الناس يعتبرون ذلك أمراً معتاداً . وحتى وظائف الأجورا الأصلية فى مجال الألعاب الرياضية والتمثيل لم تختف بأكملها إطلاقا : ففى ساحة السوق فى شمال أوربا كانت لاتزال تقام فى العصور الوسطى مباريات للفروسية . وفى القرن السابع عشر استعراضات

---

(١) تل منخفض غربى الأكروبول .

عسكرية . والحقيقة أنه فى مدينة اليس كانت الأجورا تدعى هيبودروم (مضمار سباق الخيل) ، وسباقات الخيول ، على غرار تلك التى كانت تقام هناك فى وقت ما ، مازالت تقام سنويا فى الباليو المشهود عند « سينا » Siena وتبلغ ذروتها فى الميدان الواقع أمام دار المدينة . ولما كانت الأجورا تجمع بين هذا العدد الكبير من الوظائف الحضرية الهامة - قانونية وحكومية وتجارية وصناعية ودينية واجتماعية - فلا عجب ، كما لاحظ وينشرلى ، من أن أهمية الأجورا ظلت تزداد على حساب الأكروبول إلى أن أصبحت فى النهاية أعظم عناصر المدينة حيوية ودلالة ، بل إنه فى الواقع قد بلغ من من أمرها فى المدينة الهيلينيسية أنها استحوذت ، فى المعبد الجديد أو المسرح المجاور ، على عدد من العناصر التى كانت تقام قديما فى الأكروبول .

ومع مرور الزمن أصبحت الأجورا وعاء بلا تمييز بين محتوياته ، فلم تختلف كثيراً عن الفوروم الرومانى فيما بعد . ولقد قال الشاعر الإغريقى يوبولس Eubolus ، وكان يعيش فى القرن الرابع ، إنك « ستجد فى أثينا كل شىء يباع معاً فى نفس المكان : التين ، وشهود النفى ، وعناقيد العنب ، واللفت ، والكمثرى ، والتفاح ، وشهود الإثبات والورود ، والمشملة ، والعصير ، وأقراص عسل النحل ، والبسلة ، والدعاوى القضائية ... وآلات لتوزيع الأنصبة ، وزهور السوسن ، ومصابيح ، وساعات مائية ، وقوانين ، واتهامات » . وهناك كان من الجائز أن يقوم معبد أو هيكل وسط حشد من حوانيت الصناع ، وأن يدفع فلاح بحماره فيلسوفا واقفا على النحو الذى لابد من أن يكون أفلاطون قد وقف فيه مرارا ليراقب صانع فخار أو نجارا وهو يعمل أمام حانوته المفتوح ، على غرار مايحدث اليوم فى أثينا ، فما زال فى وسع الإنسان أن يرقب نظائر أولئك الصناع .

وعلى الرغم من أن توسع الأجورا المتواصل يعتبر معياراً لما حدث من التحول فى الاقتصاد الإغريقى من تجارة ريفية فيما بين الجيران إلى تجارة فيما

وراء البحار ، فإنه يجب ملاحظة حقيقة فذة حول هذا النمو : إذ أنها تكشف عن عيب جوهرى فى تكوين المدينة . وقد كان ذلك العيب يكاد يضارع نشاط المدينة الحربى من حيث الأثر فى تقويض دعائم كل هذه المدنية الحضرية . ففيما عدا الصناع ، وكان من الممكن أن يكونوا إما من طبقة وضيعة من المواطنين وإما من الأجانب الأحرار أو من الأرقاء ، فإن ما توافر فى الأجورا من فرص متزايدة للتجارة كان فى أيدى جماعة من الغرباء المستوطنين أو « متويكوى metoikoi » كما كانوا يسمونهم . وقد كان هؤلاء الناس محرومين من التمتع بحقوق المواطنة إلا فى ظروف استثنائية ، فلم يكن فى وسعهم المعاونة فى وضع القوانين ، ولا إصدار الأحكام القضائية ولا امتلاك الأرض ، أو حتى التزاوج مع المواطنين إذا كانوا غير إغريق . وبالجملة أنهم كانوا أقلية معزولة سياسيا ، فكان شاغلهم الوحيد جمع المال ، أى كانوا قوما ينفقون بحكم الضرورة كل نشاطهم فى سبيل الحصول على المال ، وعلى الأشياء التى يمكن أن يشتريها المال .

ولسوء الحظ أن الصناعة والتجارة كانتا لا تدخلان فى نطاق الثقافة والتعليم Paideia ، والواقع أن الإغريق ، كما لاحظ هيرودوت ، « كانوا يعتبرون من يتلقن أى صناعة أدنى شأناً من المواطنين الآخرين . . . ويعتبرون أولئك الذين يعزفون عن الصناعات اليدوية كرام الأصل » . وهذا يتناقض مع الروح التى كانت سائدة فى عصر سولون حينما — طبقاً لما يقوله بلوطارخ — « لم يكن فى العمل ما يشين أحداً ، وكذلك لم تكن هناك تفرقة فيما يتعلق بالتجارة . بل إن مهنة التاجر كانت مهنة شريفة » . وفيما عدا مدن أيونيا التجارية التى كانت قد نبذت عادات عصر هوميروس الأرستقراطية ولم تعد تساوى بين أسمى ثمار الحياة وتلك التى تستمد من الصيد والحرب ، فإن الإغريق كانوا لا يعتبرون التجارة وسيلة ممكنة للحياة القويمة . وإذا جاز لنا أن نحكم مما جاء فى أشعار هوميروس ، فإن السرقة والغش لم يكن

فيهما ما يجافى الفضائل الأرستقراطية ، بل إن التعامل البسيط على أساس قيمة ما يعطى ويؤخذ ، كان يعتبر أشد نكراً من الاغتصاب عنوة واقتداراً . وكان الكورنثيون وحدهم هم الذين بلغ اعتزازهم بنجاحهم فى مزاولة التجارة إلى حد أبرأهم من هذا الهوى . وقد كان من شأن جمع المال على هذا النحو الفاسد أنه مهد السبيل لضروب أخرى من الفساد .

وكان احتقار الإغريق للتجارة يحمل بين طياته بذور فشلهم وخيبتهم ، فإن حسن النية وتبادل المنفعة ــ وهما ضروريان فى كل أنواع التجارة مع بلاد بعيدة لاعتمادها على الثقة ــ لم يمتدا إطلاقاً من نطاق الأعمال إلى مضمار السياسة ، بل إن ما حدث كان على نقيض ذلك تماماً ، إذ أن أثينا تحولت إلى مستغل لا يرحم لكل عاجز عديم الحيلة والناصر ، وإلى عدو لا يهدأ لمنافسيها فى الميدان الاقتصادى ، وذلك فى وقت كان تزايد عدد سكانها يتطلب توسيع المجال بأكمله للجهود المشتركة فى سبيل الصالح العام . ولقد لجأت أثينا فى بناء إمبراطوريتها إلى استخدام وسائل البطش المألوفة لدى الأرستقراطية ، فضلا عن قدر من ضروب القسوة التى تفننت المدنية فيها ؛ لكى تحصل لنفسها وحدها على كل الفائض الذى كان من شأنه أن ينشر الرخاء فى بلاد الإغريق بأسرها .

وعندما حاول بلوطارخ فى النبذة التى كتبها عن تاريخ حياة بريكليس أن يدافع عن سياسة الأشغال العامة التى انتهجها ذلك السياسى ، استخدم أسلوباً يشبه كثيراً الأسلوب الذى استخدمه الناس فيما بعد للدفاع عن نابليون الثالث وهوسمان Haussmann ، فهو يقول بما أن المدينة كانت مزودة « بكل الأشياء الضرورية للحرب . فقد كان فى وسع سكانها أن يحولوا الفائض من ثروتهم إلى المشروعات التى كانت خليقة عند إتمامها بأن تكسبهم فى المستقبل مجداً خالداً ، وأما فى الوقت الحاضر فإنها فى أثناء القيام بها تفيض على كل السكان بالخير الوفير » . ولقد أفاض فى

ذكر المواد المتنوعة التي كانت تدخل في بناء المعبد — من حجر ونحاس وعاج وذهب وأبنوس وخشب السرو — والحرف التي كانت تتولى تهيئتها ، وأعمال التجار والبحارة الذين كانوا يقومون بنقلها ، فضلا عن « صناع العربات والمشتغلين بتربية المواشي وسائقي العربات وصانعي الحبال وعمال الكتان وصناع الأغذية ودباغي الجلود وعمال الطرق والمناجم » . وقد اختتم كلامه قائلا « وهكذا فإن فرصة الأشغال العامة وخدماتها ، وزعت الخير الكثير على الناس من مختلف الأعمار ومشارب الحياة » .

وبطبيعة الحال كانت إقامة هذه المنشآت بمثابة بناء أهرام سواء من وجهة نظر المصريين أم من وجهة نظر كينز فيما بعد ، وإن لم يكن العملان في الواقع قابلين لأن يحل أحدهما مكان الآخر منذ البداية . وإنه لما يدل على نزاهة خلق فريق كبير من المواطنين الأثينيين أنه على الرغم من ضخامة هذه الرشوة واتساع مداها — مما لابد قد أدى إلى شعارات تمثل: تشغيل العمال المتواصل ! نشاطا اقتصاديا مطرد التوسع ! لم نظفر بمثل هذه الرفاهية إطلاقا ! — فإن سياسة بريكليس لم تلق في أي جانب منها أشد مما لقي هذا الجانب من النقد المرير في اجتماعات الجمعية الشعبية . ولقد أوضح خصوم بريكليس أن أثينا لوثت سمعتها بتمويل هذا البرنامج الضخم ، لأنها نقلت من جزيرة ديلوس أموال الحلف التي أسهم بها أعضاؤه واستأثرت بها أثينا لصالحها وحدها . وبالقياس إلى مثل هذا النوع من أعمال الاغتصاب كانت أسوأ ضروب التحايل في التجارة تفضله أدبيا . وإذ كانت أثينا لم تحقق الحكم النيابي ولا الفيدرالي ، ولم تبلغ ماكان لميليتوس ورودس من المهارة في الاستعمار ، فإنها عمدت إلى السعي وراء احتكار المزايا الاقتصادية والثقافية في آن واحد ، بدلا من استخدام مواهبها في سبيل تخليصها من شوائب المادية ونشرها في نطاق واسع ، فلا عجب أن إسبرطة البليدة الذهن قد حظيت بتأييد دلفي لها .

وفى الوقت الذى ازداد فيه عدد التجار الأجانب تبعاً لازدياد الرخاء المالى فى المدينة ، ازداد معه كذلك عدد السكان الذين لم يعنهم من أمرها شيئاً ، وكان هؤلاء القوم هم أولئك الذين لو أرادوا الحصول على التعليم لاستطاعوا أن ينالوه سريعا لقاء أجر من أولئك العلماء الجائلين ، أى السفسطائيين ، وكانوا معلمين جريرتهم الكبرى أنهم كانوا يعلنون فى الناس عن قدرتهم على أن يلقنوا بالأجر فى بضعة دروس موجزة ، ماكانت المدينة الإغريقية — مع تعاون كل مؤسساتها — تستغرق دهراً بأكمله لتلقينه مواطنيها .

وإزاء ذلك ، فإنه حتى عندما أصبحت المدينة الإغريقية « دولة ديمقراطية » كان مواطنوها يؤلفون طبقة على حدة تكون « أقلية مسيطرة » : وكلما ازدادت وجوه النشاط الاقتصادى فى عواصم القرن الخامس التى كانت آخذة فى النمو والاتساع ، ازداد حتما اتساع الهوة بين المواطنين وغير المواطنين . ومن المحتمل أن يكون العمال الذين جىء بهم من الخارج لمزاولة الصناعات اليدوية ، وكذلك التجار ، قد وفدوا من بلاد لم تألف الحكم الذاتى ، فلم يكن فى وسعهم تقدير ما فى المدينة الإغريقية من حرية واستقلال ذاتى . وإن أريستوفان ليذكر حتى بنائين مصريين ، ومن الجائز أنهم كانوا « أحراراً » ومع ذلك فإنه كان يتعذر عليهم أن يصبحوا مواطنين عاملين .

وكان الكثيرون من المواطنين فى أثينا يعوزهم المال ليعيشوا حياة الفراغ الأرستقراطية التى كان دستورهم يفترضها ، وكذلك فإن المواطن الأثينى لكى يجد الفراغ اللازم لتأدية مهامه كمشرع ومحلف ، كان يضطر إلى طلب المعونة من بيت المال طوال مدة تأديته وظيفته . وعندما أدخل بريكليس نظام الأجور عن مثل هذه الخدمات ، نجد أن الأسرات القديمة من أرباب الأراضى ، وكانت تعيش على إيجار ومنتجات ضياعها ، اعتبرت أن هـذه الأجور لا تعدو أن تكون صدقة أو رشوة ، بيد أن ما كان

يستوجب الخزى حقاً هو أن ذلك جعل استمتاع المواطنين بحريتهم يعتمد على استعباد مجتمعات أقل من مجتمعهم حولا وقوة .

ولقد ظلت التجارة فى نظر المواطن الإغريقى عملاً دخيلا غير مرغوب فيه فى المدينة المثالية ، إذ أنها كانت تتناقض مع طريقة كل من الحياتين الأرستقراطية والزراعية . ولقد انتقل هذا المقت إلى بعض الرومان من أمثال شيشرون الذى سخر فى رسالته « عن حقوق المواطنة » من أولئك الذين كان يغريهم بالنزوح بعيداً عن الوطن « الآمال والأحلام العريضة » بالمكاسب التجارية ، بل إنه عزا سقوط كورنثة وقرطاجـــة إلى « شدة شغفهما بالتجارة » وتفرق مواطنيهما وانتشارهم فى أرجاء الأرض . وفى الوقت عينه ازداد باطراد عدم مبالاة رجال الأعمال بشكل الحكومة ما دامت تسمح لهم بالمضى فى مشروعاتهم وجنى الأرباح . ولا بد من أن عدم المبالاة على هذا النحو كان له تأثير خبيث على من كانوا لا يزالون يحاولون ممارسة الحكم الذاتى ، إذ أنه لا يمكن تجاهل القوة الاقتصادية حتى ولو كانت مستترة . وعند نهاية القرن الرابع كان مركز الجاذبية الاقتصادية قد انتقل على وجه قاطع من الأرض إلى التجارة ، أى من الأقلية القديمة التى كانت تتسم بالتقشف والاكتفاء الذاتى ، إلى التجار اللبقين الميالين إلى استعراض أرباحهم والذين كان يتسنى لحاكم مطلق أن يتعامل معهم .

ولقد قام التاجر الأجنبى فى الحياة الاقتصادية الإغريقية فى القرن الخامس بدور لا يختلف عن الدور الذى قام به اليهودى فى الحياة الاقتصادية المسيحية فى مدينة العصور الوسطى ، فقد كانت الحاجة إليه قائمة والرغبة فيه معدومة ، وأحسن تقدير أمكن للباحثين أن يصلوا إليه اليوم بشأن سكان المدينة الإغريقية يكشف عن مدى الضعف فى مشاركة المواطنين فى شئون المدينة على هذا النحو المحدود ، فوفقا لوينشرلى كانت أثينا فى ذروتها تضم أربعين ألفاً من المواطنين الكاملى الأهلية (من الذكور) ومن المحتمل ١٥٠٫٠٠٠ نسمة

من الأحرار (الغرباء المستوطنين والنساء والأطفال) وربما ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ من الأرقاء . ومن المرجح أن هذه النسب صحيحة ، ولو أنه يكاد يكون من المحقق أن هذه الأرقام أعلى بكثير من الحقيقة . وبعبارة أخرى كان المواطنون المتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة أقل من واحد بين كل سبعة من السكان ، وحتى بين هؤلاء المواطنين كانت نسبة متزايدة تتألف من أرباب الحرف والصناعات الذين كان يعوزهم الشعور بالواجب العام ، وهو ما كانت أسر أرباب الأراضى تعمل على تشجيعه بين أفرادها ، شأنها فى ذلك شأن كبار أصحاب الأراضى فى إنجلترا . وكان الزعماء السياسيون الذين أعقبوا بريكليس على التوالى : بائع قنب وبائع أغنام وبائع جلود وبائع « سجق » ، أى إنهم كانوا رجالا لا تتوافر لديهم كبرياء الأرستقراطية القديمة ولا كفاية التعليم التى توافرت لدى الطبقة الجديدة من المشتغلين بالتجارة البحرية .

ولعل الفشل فى رفع المستوى الخلقى للتجارة وإدخال مزاولتها — تحت ضوابط ملائمة — فى نطاق الحياة القويمة كان مصدراً له من خطورة الأثر فى انحلال الإغريق ما كان لانتشار الرق أو الفشل فى مقاومة الهجمات المتتابعة التى شنتها عليهم الإمبراطوريات الكبيرة . فمنذ وقت إنشاء المدينة تقريباً لم يستطع الإغريقى إطلاقاً أن يصحح الصورة التى انطبعت فى ذهنه عن الحياة الكريمة الرضية على أساس أنها فى جوهرها الحياة التى كانت تنتهجها الأرستقراطية الهومرية . وقد أغفلت هذه الصورة التاجر والمصرفى والعامل بيده وصاحب الحانوت ، وفى الواقع كل من كانت الحاجة تدعو إليه لإنتاج الفائض الاقتصادى بوسائل أخرى غير السرقة والاستغلال السافر . وبدون ذلك الفائض لم يكن ميسوراً توافر الفراغ ولا قيام الديمقراطية .

وبفشل الإغريق فى تحويل رجل الأعمال إلى مواطن ، حولوا المواطن فى النهاية إلى ما هو أسوأ من رجل الأعمال : فقد صار أولا الفاتح والمستغل المتغطرس ثم التابع الخاضع ، ومعلم الصغار الذليل ، والمتسول الذى يقبل

النعال ، والطفيلى المهذب ، حتى أصبح اسمه علماً على الذلة والمهانة بين الرومان برغم شدة إعجابهم بقدماء الإغريق ومحاكاتهم إياهم .

غير أنه إذا كانت الوظائف التجارية للأجورا قد تضاعفت منذ القرن السابع ، فإن هذا ليس معناه حتما أن مظاهر النشاط السياسى للمدينة لم تعد تمارس هناك . ولقد كانت الدلالة الأولى على الاتجاه نحو الديمقراطية فى المدن التى طالب أبناؤها بتوزيع السلطة السياسية على نطاق واسع ، هى زوال القصر الأصلى ، مثل ذلك الذى كان الملك أرخيثوس قد شيده على الأكروبول فى أثينا .

ولقد كان فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية على هذا النحو نقطة تحول فى تاريخ المدينة الإغريقية . ومما له دلالته أن دار المدينة — وهو ما يمكن أن نترجم به كلمة پريتانيون — احتفظت بذلك الحجم المتواضع الذى نلقاه فى المدن الإغريقية المتأخرة ، وكذلك ببعض المعالم الأصلية للقصر والمعبد ، فقد ظلت تعتبر بمثابة بيت الملك ، كما أن النار المقدسة المخصصة لعبادة هستيا Hestia كان يحتفظ بها مشتعلة هناك . وهنا أيضاً كان يحتفل باستضافة المبعوثين الأجانب وتقام المآدب الرسمية . ومن الطبيعى أن أقدم الوثائق الخاصة بالشئون السياسية والمدنية كانت تحفظ فى البريتانيون ودار المجلس أو البوليوتربون — وكان مبنى كبيراً نوعا ما يؤمه عدد كبير من المواطنين لأداء واجبهم — كثيراً ما كانت تبنى فى الأجورا أو على مقربة منها .

ومع أن هذا الخلط بين الوظائف كان من سمات المدينة الإغريقية ، إلا أنه فيما يبدو أقلق بال أرسطو الرتيب المنظم ، فقد كان يدعو إلى إقامة أجورا سياسية منفصلة بحيث تكون منعزلة فى مكان بعيد عن الأجورا التجارية ، لكيلا يقتصر الأمر على مجرد فصل الوظائف السياسية رسمياً بل لكيلا يدخلها غير المواطنين حتى ولا بصفتهم متفرجين ساقتهم المصادفة .

ولقد حاولت مدن إغريقية مختلفة أن تطبق قواعد الديمقراطية فى الحكم

على نطاق واسع ، وخليق بعصرنا أن يتعلم من هذه المحاولات على نحو ما تعلم مؤلفو « البحوث الفيدرالية »[١] Federalist Papers وذلك لأن الإغريق حاولوا أن يعيدوا إلى نظام المدينة المعقد الاتجاه نحو مسئولية المواطن ومشاركته مباشرة فى شئون وطنه ، وهو ما كان موجوداً فى القرية . وفى أثينا كان قسم الشباب عند انتهاء تدريبهم العسكرى يعبر ، بقدر من الجمال غير قليل ، عن ذلك الجهد الذى كان يبذل دورياً فى الانصراف إلى واجبات المواطن . وعملا بنظرية أن كل المواطنين متساوون ، كانوا يوزعون صغرى المناصب العامة بالاقتراع ، ويتناوبون شغلها سنوياً أو فى فترات أقصر زمناً ، وذلك للعمل فى مجلس المدينة أو للقيام بواجب المحلفين. ونظراً إلى أن المشاورات والقرارات الكبرى كان يقوم بها أشخاص يخاطبون بعضهم بعضاً مباشرة ، أى وجهاً لوجه ، فقد أصبحت الفصاحة أداة كبرى فى السياسة ، وغدت المقدرة على استمالة المستمعين أهم للزعامة السياسية من القدرة على أداء العمل ، بل إنه كثيراً ما كانت الظنون تحوم حول من يؤدون أعمالهم على وجه بالغ الإجادة ، مثل ثميستوكليس أو أريستيديس .

وفى كنف هذه الظروف لم يكن من الميسور أن ينشأ ما يشبه أداة حكومية تتصف بالكفاية ، أو أداة قضائية مستقلة . وكما أوضح و. وارد فاولر لم يكن مجلس المدينة أكثر من لجنة كبيرة للشعب بأسره يتجدد انتخابها سنوياً . وكان المجلس بدوره يقوم بإعداد كل الأعمال لمجلس أكبر منه ، وهو الاكليزيا أو الجمعية الشعبية . وأما الوظائف التى كانت تحتاج

---

(١) البحوث الفيدرالية سلسلة تتألف من ٨٥ بحثاً كتبها إسكندر هاملتون وجيمس ماديسون وجون جى Jay ١٧٨٨ لشرح الدستور الفيدرالى والحث على الموافقة عليه عندما كان معروضاً على الولايات الأمريكية لأخذ رأيها فيه .

إلى مهارة عملية أو مهنية ، كالإشراف على الجيش ، والإدارة المالية ، وبناء المرافئ وصيانتها ، فقد كان يعهد بها إلى لجان ، وهو ما يشبه إلى حد ما طريقة مجلس شيوخ الولايات المتحدة فى أنه يعهد بهذه الواجبات إلى لجان دائمة .

وكان لهذا النظام أثر فعال فى القضاء على نفوذ الأسر من أرباب الأملاك ، وما درجت عليه من عادات سيئة باستخدام السلطة العامة لصالح شئون الأسرة . بيد أنه كان كذلك بمثابة التآمر على أرستقراطية المواهب . فإن وضع أصحاب الكفايات الخاصة فى مراكز تفيد من كفاياتهم لم يكن يحدث إلا مصادفة ، وحتى إذا أثبتوا مقدرتهم فإنهم على أرجح الاحتمالات كانوا لا يستبقون فى الخدمة . ونتيجة لذلك فإن نفى أصحاب الكفايات الممتازة من الزعماء أو خفض درجتهم كان أحد وجوه الضعف المزمن فى الحياة السياسية بأثينا ، حتى بريكليس نفسه لم ينج من جنوح الشعب نحو تقديم الزعيم كبشاً للفداء حينما كانت الأمور تسوء . وإن محاكمة سقراط لتكشف عن دافع الكراهية نفسه نحو أولئك الذين أثارت كفاياتهم معارضة الفئة الحسودة الحقودة من أصحاب الكفاية المتواضعة .

وتبعاً لازدياد عدد سكان المدينة ، وما اقترن به من ازدياد وجوه التعقد فى الحياة السياسية والاقتصادية تكشفت كذلك وجوه النقص فى الديمقراطية ، بوصفها نظاماً للحكم لا معدى عنه ، فالديمقراطية المحضة تتطلب الألفة فى الاجتماع وجهاً لوجه ، وهو ما لا سبيل إليه إلا إذا كان عدد المواطنين قليلا ، كما تتطلب فضلا عن ذلك الضوابط التقليدية والإجراءات النظامية . وحتى أفلاطون اعترف بما فى هذا التقارب من مزايا ، فقد لاحظ فى كتابه « القوانين » أنه « لا يوجد من الخير فى دولة ما هو أعظم شأناً من أن يعرف المواطنون بعضهم بعضا » . وإنه لمن الجلى أن الديمقراطية لا يمكن ممارستها فى الأعداد الكبيرة إلا بالمعنى المحدود

لاستفتاء شعبي . والآن عندما أخذ عدد سكان المدينة الإغريقية فى الازدياد ، لم يقف الأمر عند وجود نسبة متزايدة ممن لم يملكوا حق التصويت بالقياس إلى من كانوا يملكون ذلك الحق ، بل إن الهيئة الصغيرة المكونة من المواطنين الممتازين أصبحت كبيرة جداً ، ولم يعد هناك اتصال مباشر بين أفرادها ، فكانت النتيجة نمو الأندية والأحزاب والشيع ، وقد حدّت جميعاً من تأثير رأى فرد على رأى فرد آخر .

ولعل أكبر ما منيت به المدن الإغريقية من الفشل كان عجزها عن الانتقال من نظام الديمقراطية المباشرة إلى نظام الحكومة النيابية مما أوقفها حيال خيار تعس بين حكم يضطلع به أشخاص غير مسئولين ، من الأقليات أو الطغاة ، وبين حكم ديمقراطيات مسئولة نسبيا ولكنها عديمة الكفاية ومثقلة بأعباء فوق طاقتها . وحتى فى الاتحاد البيوتى ، كان المجلس الفيدرالى يتألف من ٦٦٠ عضوا . ويبدو أن الأمر لم يكن يقف عند مجرد التردد فى تفويض السلطة ؛ بل يلوح أن الإغريق كانوا فى كل جمعياتهم الشعبية الكبرى يحاولون أن يستعيدوا على الأقل مظهر اجتماع فى القرية حيث كان كل فرد يشترك فيه .

ومع كل مهارة الإغريق فى الاستنتاج المنطقى ، فإنهم لم يعهدوا بالسلطة طواعية لأى فرد لايكون تحت سمعهم وبصرهم . ولعل فى هذا دليلا آخر على ولعهم بما كان إدراك كنهه ومداه فى متناول الحواس ، وهو مالفت شبنجلر Spengler النظر إليه . لكن لعله أيضاً كان يكمن وراء ذلك إدراك أن ملكات الإنسان الأساسية لايمكن إسنادها إلى غيره ، وبأن كل الشئون الهامة يجب أن يؤديها أربابها بأنفسهم ، كما كان الملوك يسافرون بأنفسهم إلى دلفى ليتلقوا إرادة الإله . وهل حال هذا التحديد دون محافظة المدن الإغريقية على قيام علاقات سياسية نشطة حتى مع مستعمراتها ؟

وقد أقلقت مشكلة العدد بال صاحبي النظريات السياسية العظيمين

أفلاطون وأرسطو ، ومما له دلالته أن أرسطو – وكان حكيما فى إيمانه بنظام للحكم يقوم على مزيج من الأسس المتباينة – قد حاول مع ذلك أن يحل هذه المشكلة بتحديد حجم المدينة : ولقد كانت فكرته ممتازة ولكن فى مدن مثل أثينا أو كورنثة ، اللتين كانتا قد بلغتا فى نموهما مدى تجاوز كثيراً العدد الذى كان يعتبره ملائما ، لم يكن تطبيق هذه الفكرة ميسوراً دون إحداث تغييرات جوهرية فى النظام والتكوين . ولقد أظهر أرسطو فى ذلك قلة إدراكه سواء للحكمة السياسية التى كانت تنطوى عليها سياسة دلفى الخاصة بتوزيع سكان المدن ، أم لمبتكرات الاتحاد البيوتى . ولم تحدث أول محاولة لمعالجة هذه المشكلة على نحو سليم إلا حينما بدأ البحث فيها ايبنزر هوارد فى آخر القرن التاسع عشر فى الكتاب الذى يعرف باسم «مدن الحدائق فى الغد» .

والحل الملائم لايتطلب مجرد التحديد فحسب ، بل إنه يستدعى طريقة جديدة لإعادة تنظيم السكان وإعادة توزيعهم حينما يزدادون إلى حد يجاوز المعدل المرغوب فيه ، وذلك باتباع نظام اللامركزية والاتحاد الإقليمى . أما الإغريق فإنهم كانوا يعمدون أحياناً إلى القضاء على وحدات صغيرة لكى ينشئوا مدينة أكبر حجما ، على نحو مايظن أن تيسيوس قد فعله بقرى ومدن أتيكا المتناثرة لكى ينشئ أثينا العظمى ، وعلى نحو مافعله « الفوكيون » عند إنشاء « ميجالوبوليس » فى القرن الرابع ، إلا أن الإغريق لم يذهبوا إلى أبعد من هذا المدى . ولذلك فإنه حينما أخذت الديمقراطية تضعف ، وتقطع الخلافات الحزبية أوصالها ، وتتسم بعدم الكفاية ، لم يعرفوا سبيلا إلى العلاج إلا بالتشبث بالاكتظاظ ، واستدعاء طاغية أو إمبراطور يتولى العمل بنفسه عنهم جميعاً – وقد غشيتهم الفوضى وعمهم الاضطراب – ويفرض عليهم وحدة سطحية .

ولاشك أن فشل الديمقراطية الإغريقية كان أعمق غورا من فشلها فى معالجة مشكلة الأعداد الكبيرة . بيد أن تاريخ المجتمعات التى أتت فيما بعد

يرينا صعوبة الحصول على زعماء يقبلون تحمل مسئولية ثقيلة دون أن يطلبوا فى آن واحد مزيداً من السلطة ومزيداً من الجزاء المادى ، وكذلك عدم إقبال الموظفين على الاضطلاع بالتفصيلات المملة لشئون الحكم يوما بعد يوم مالم يكن لهم وضع مهنى بوصفهم موظفين يؤدون عملهم لقاء أجر . وإنه لمن دواعى عظمة أثينا – ولعله كان السر فيما أبدته من المقدرة الخلاقة الفائقة طوال قرنين – أنها عملت على الاحتفاظ بطائفة كبيرة من المواطنين الذين لم يستمدوا أى ميزة مدنية ، سواء من مركز أسراتهم ، أم من ثروتهم ، أم من المهن التى كانوا يؤدونها . ولكى يقوم الأثينى بواجباته العديدة ، بوصفه مواطنا – من خدمة عسكرية إلى مداولات سياسية والعمل فى هيئات المحلفين والاشتراك فى الحفلات العامة والغناء والتمثيل – كان ينأى عما فى التخصص المهنى من أعباء المسئولية ووجوه الكمال سواء بسواء .

لقد كان إذن للنظام الإغريقى مزاياه الخاصة ، وإن النفور من اجتماع الكفاية والذكاء مع التخصص ، وهو ماكان يثير الازدراء البالغ فى نفس سقراط ، ليفسر الاتصاف بنوع معين من المرونة والاستعداد لمجابهة كل طارئ ، وهما صفتان تربطان مرة أخرى بين السيد المواطن الإغريقى ونظرائه المعجبين به حتى اليوم فى إنجلترا . بيد أن ماكان فى المدينة من أعمال يستغرق تنفيذها فترة طويلة ، كان يتطلب منح سلطات لفترة طويلة حتى يمكن إتمام تنفيذه ، ومن ثم فقد كان بوجه خاص فى عهد الطغاة ماحدث فى القرن السادس من تقديم رءوس أموال لاستثمارها فى غرس أحراش الزيتون ، وهو استثمار لاينتج عائداً – حتى بصفة جزئية – لمدة عشرين عاما ولاعائداً كاملا لمدة أربعين عاما . وتبعاً لازدياد نمو المدينة كان استمرار بقائها يقتضى بذل قدر أكبر من المجهود المنتظم المتكرر المصحوب بالتقارير والبيانات الدقيقة ، وكانت هذه الواجبات الأخيرة تترك للأرقاء إلى حد كبير . ولو أن مدن بلاد الإغريق كانت ديمقراطية فى واقع أمرها ، بمعنى

اشتمالها على جميع الراشدين من سكانها ، إذن لكان النظام بأسره قد تهاوى بأسرع كثيراً مما حدث بفعل كثرة الأعداد وحدها :

لقد تناولنا إمكانيات الديمقراطية الأثينية ومصاعبها وهى ترزح فى القرن الخامس تحت ضغط ازدياد عدد سكانها ؛ بيد أن وجوه التضارب بين مقتضيات السياسة والسياسة الحربية والحاجة الاقتصادية ، كانت أكبر كثيراً مما يمكن تخطيه : فأثينا ، بسعيها وراء إيجاد مورد مضمون للغلال من أجل حاجة ما لديها من الأفواه العديدة ، تحولت إلى دولة مستعمرة استغلالية . ولقد بلغ من استحكام حلقات هذه النواحى من نواحى الحياة أن تكونت منها عقدة عويصة ، والسيف الذى بترها فى النهاية فكك أوصال المجتمع بأسره ؛

الفصل السادس
المواطن والمدينة المثالية

١ — المدينة والمواطن

عند نهاية القرن السادس كانت المدينة الإغريقية قد بدأت تتخذ شكلها ، ولكن الشكل الذى تحقق كان لا يزال ريفيا ، وفى أحيان كثيرة فجا ، وكانت الحياة التى يحتويها أهم شأنا من الوعاء . وإلى القرن الرابع ، لم تكن لتزيد أكثر المدن الإغريقية شموخا فى أتيكا ، إن لم يكن فى آسيا الصغرى ، إلا قليلا على مدينة ريفية ، من حيث المبانى وتوزيع الشوارع . وإنما قبيل آخر القرن الخامس عندما كان المرء يرفع عينيه إلى الأكروبول ويشاهد أعمدة الرواق المحيط بالبارثنون الجديد والنقوش المنحوتة فى « جملونية » pediment كان فى وسعه عندها فقط أن يحس بأن شيئاً آخر كان على قدم ساق هنا ، وأن العقل كان فى سبيله مرة أخرى إلى معالجة الفوضى .

وإن الصورة التى نتبينها عن حقيقة المدينة الإغريقية من بين ثنايا الأدلة الأدبية الوفيرة التى تمدنا بها أثينا — لتتناقض مع الصورة الباهرة التى كان ڤينكلمان Winckelmann وخلفاؤه ينزعون إلى تبينها فى الوضع بأكمله . فإن عشاق الحضارة الإغريقية أضفوا على الشكل المادى للمدينة صفات تتسم بالنقاء البالغ والصفاء والروعة ، وهى صفات من المحتمل أن تكون قد تكشفت فى رياضيات فيثاغورث أو منطق بارمنيدس ، ولكنها لم تكن إطلاقا من سمات المدينة الإغريقية القديمة ، ولا حتى من سمات الأحياء المقدسة فيها ، وإنما كانت من سمات القرن الثالث وابتكاراته ، مثل ما كان

تمثال « لاوكون » Laocoon الذى يثير قدراً كبيراً من الإعجاب[1] .
وإن القرن الخامس ليتناقض كذلك مع الصورة المتخلفة لدينا عن التفكير الإغريقى فى ذلك العصر ، إذا بالغنا فى التنويه بنظامه وترتيبه وولعه بالكمال الذهنى ، وأغفلنا كل ما فى الحياة الإغريقية من جوانب عنيفة ، بعيدة عن العقل مفعمة بالعذاب على نحو ما نرى فى المسرحيات التراجيدية ، أو نصادف فيما أورده أريستوفان من البذاءات .

أجل لقد كانت المدينة ، كما تشاهدها العين وتدركها الحواس ، مملوءة بوجوه النقص ، كمظاهر الاضطراب التى تقترن بالنمو ، وألوان التخمر والإفراز التى تنشأ عن الحياة ، وفضلات الأوضاع التى انقضى عهدها دون أن توارى التراب أو تزال بشكل لائق ، ومخلفات الأساليب الريفية التى لم يتسن بعد تحويرها لتتلاءم مع ما فى الحياة الحضرية من متاعب ومطالب لا تنتهى . ولعل مثل هذه المدينة كانت تتكشف هنيهة عن مظاهر من التجمع والترابط لها دلالتها إذا ما ارتقى الإنسان المنحدر المؤدى إلى الأكروبول فى أثينا وأطل بعد ذلك على السهل المتسع من ارتفاع خمسمائة قدم ، ولكن المرء ما كان ليؤمل فى أن يطول أمد ما يراه من نظام وتناسق . ومع ذلك لعل الاغتباط الذى كان خليقاً أن يشعر بشدو ترانيمه بين جوانحه بعد أن تنجاب صخور الأكروبول وتنسنى له فى النهاية رؤية البارثنون ذاته ، لعل الشعور بهــذا الاغتباط كان يزيده أثرا فى النفس ما هناك من مفارقة بين البارثنون وما يتجلى فى مظهر المدينة أسفله من فوضى وانتشار بغير نظام . ولم يكن لمن أضناهم الغرام بالجمال الفنى ولا بجرذان الحكام يد فى خلق هذه المشاهد التى تتضارب تضارباً عنيفاً ،

---

(١) يروى بليفيوس أن هذا التمثال من ابتكار المثالين أجساندر وبوليدوروس وأثينود وروس الذين يسود الرأى اليوم أنهم كانوا من مثالى النصف الثانى من القرن الأول ق . م . ويأخذ عليهم كثير من المحدثين أنهم تخطوا فى تصوير الألم نطاق القواعد التى يبيحها فن النحت الرفيع .

أو هذه الألوان الرائعة التى لم يبق منها إلى اليوم سوى ما نشاهده فى الصخور والسماء والبحر. فلقد كانت أثينا ، كما قال ألكايوس Alcaeus من صنع رجال كانوا « على استعداد لاستخدام أقصى ما لديهم من مواهب » .

ولعل أقرب ما يضارع الشكل المعمارى للمدينة الإغريقية يتمثل ليس فى ذات المبانى الباقية وإنما فى « مأدبة » أفلاطون ، ففيها إطار من الضوابط العقلية الواضحة المنطقية التى كبحت جماح ألوان التحدى الساخر والعبارات الطنانة ، وما ينشأ عن الشراب من تصريحات عاطفية وترنح خليع ، وسمحت لموجة الجمال الفنى بأن تنحسر فى النهاية مثلما كانت تنحسر فى المدينة كلما هبط الإنسان من الأكروبول واقترب من ساحة السوق ، أو أخذ سبيله ـ بدافع الغريزة أكثر منه بأى مبرر تهتدى به العين ـ للوصول إلى غايته وسط شبكة من الأزقة المحصورة بين المبانى والعطفات التى لا منفذ بها .

فهل مدينة أفلاطون وبارمنيدس ، مدينة الفضل والجمال ، حيث « يتولى العقل وضع الأمور فى نصابها » ، كما قال أناكساجوراس ، وحيث يتجلى فى مظاهر الفن من الكمال ما يسمو به إلى السماك الأعلى ـ أكان هذا كله إذن وهما ؟ وهل كانت التماثيل التى أبدعها فيدياس تطل على مثل هذا الخليط المتناثر تناثر محتويات الأفنية فى البيوت الريفية ، فقد كان يجمع بين حوانيت الصناع ومظلات الباعة وحظائر الماشية والهياكل والنافورات فى وسط تلك الأكواخ التى بنيت حيطانها من الطين ولا تكاد تستحق شرف تسميتها منازل ؟ ألا يوجد بين سمات المدينة مقابل لما يتسم به العقل الإغريقى من ترتيب وصفاء ؟

لا يوجد مكان أفضل من المدينة الإغريقية ، ومن أثينا بوجه خاص ، للتحقق فيه من التفاوت بين المثل والكيان الذى يعبر به عن نفسه ، أى الكيان

الاجتماعى الذى يتحول إلى بيئة متمدنة أو مدينة . ولا جدال فى أن أحد مظاهر النظام الذى نجده فى العقل الإغريقى قد انتقل إلى المدينة فى أواخر العصر الهيلينيسى ، إلا أن ما نلقاه فى مدينة القرن الخامس كان شيئاً أعمق من ذلك تغلغلا فى حياة أهلها ، شيئاً أدق اتصالا بصميم حياة الإنسان . ولقد برز هذا الضرب من النظام فى القرنين السابع والسادس على هيئة فكرة تمثلت فى امتزاج جارف بين الأضداد ، بين الانكماش والانطلاق ، بين ضبط النفس المأثور عن أبولو والهذاء الديونيسى ، بين التفكير السليم والبداهة العمياء ، بين التحليق فى الجوزاء والتعثر فى الأوحال ، أى النقيض تماماً من كل ما يمكن أن يوصف الآن بأنه كلاسيكى . ولم يكن أقصى ما أسفرت عنه هذه التجربة مدينة من طراز جديد ، وإنما إنسان من نوع جديد .

ولمدة تزيد قليلا على جيل واحد — وإنى لأحددها على وجه التقريب فيما بين سنتى ٤٨٠ و ٤٣٠ ق . م . — اتخذت المدينة لأول مرة شكلا مثاليا ميزها عن قرى ومدن العصور السابقة ، ولا نعنى شكلا مثاليا يتكون أساسا من الأحجار ، وإنما من اللحم والدم . فالنظام الحضرى الجديد ، أى المدينة المثالية ، أصبحت واضحة الملامح فى أجيال عديدة متعاقبة من أبناء المدينة ، وسمت فوق صفاتها العتيقة التى كانت تتمثل فى الانقياد الأعمى لنسق الحياة على وتيرة واحدة والرضا بما فيها من ألوان الجمود ، فقد أضاف الإغريق إلى المدينة عنصراً جديداً لم يكن مجهولا لدى الحضارات السابقة ، ولكنه كان خطرا على أى نظام للحكم يقوم على السلطة المطلقة أو النفوذ المستتر ، وذلك أنهم أوجدوا المواطن الحر . وعلى غرار أبطال سوفوكليس المستوحشين ، كان بمقتضى ماله من حقوق ، ملكا وإن لم يكن إلها ، وكان يعمل بمفرده ويحاول بذكائه « أن تعلو يده يد القدر » .

ولقد كان المواطن يعتبر كل ما تملكه المدينة ملكاً له بحق مولده ، فبين المواطنين كما هو الشأن بين الأصدقاء ما كانت لتوجد أسرار ولا حوائل مهنية ولا مزاعم من عدم المساواة ، فإن المواطن الذى ولد حراً لم يكن يدين بشيء لعطف سام ، ولا لوظيفته الاقتصادية أو الرسمية ، فهو إنما استأنف شغل مكانه الذى كان يشغله فى وقت ما فى حضارة القرية ، مكانه بوصفه قبل كل شيء رجلا وهب كل ما للبشر من صفات ، وأمامه كل نواحى الحياة مفتوحة ميسرة . وكان هذا على الأقل هو الغاية المثالية ، ولهذا فإننا ما زلنا نقدر قيمة المدينة الإغريقية تقديراً صحيحاً ، تبعاً لقدرتها على صوغ تلك الغاية المثالية ، لا تبعاً لفشلها فى تحقيقها .

٣ — شكل المدينة الإغريقية

قبل أن نبحث حالة المواطن المثالى ذاته ، فلننظر بمزيد من الدقة إلى حالة المدن التى عاونت على ظهوره إلى الوجود وهى أبعد ما تكون عن المثالية ، فإن مثل هذا البحث قد يفضى إلى تغيير معتقداتنا المبتسرة عما يهيئ البيئة الصالحة لنمو الإنسان . ومن المحتمل أننا سنتبين أن الكمال التام الذى نعتبره عادة صالحاً لذلك النمو قد يكون فى الواقع سبباً فى إعاقته أو وقفه .

ولقد كان الأكروبول قلب المدينة ، ومركز أجل أعمالها قدراً ، وجوهر كيانها بأسره ، فإن الأكروبول كان فوق كل شيء موئل آلهة المدينة ، وهنا كانت تقام كل الشعائر المقدسة المستمدة من الطبيعة والتاريخ . ولقد أسرف الناس فى قصر تصورهم لأكروبول أثينا على المبانى التى تتوجه ، وخاصة الأرخثيوم والبارثنون ، بيد أنه تحت هذه المبانى يوجد مصدر قوتها الجمالية وألوان نشاطها ، ذلك هو الجلمود الضخم الذى رفع تلك المبانى إلى عنان السماء ، وهو بما يغشاه من مسحة اللونين الأزرق والأحمر القرنفلى يتباين مع لون الرخام فى علو : وفضلا عن ذلك فإن ما ينطوى عليه مظهره العام من

وعورة وخشونة – حتى حيث يتخذ شكل جدار عمودى – يتباين مع ما فى المعابد من تناسق هندسى رائع .

حقاً إنه كان جبلا مقدساً ، ولقد ساعدت سماته الأصلية البدائية على إسباغ هذه الصفة عليه ، ولم تكن الكهوف والقبور والمغارات والينابيع أقل شأناً فى هذا عما جاء بعدها من الهياكل والحرم المقدسة والنافورات . وحتى قبل أن يبنى أول معبد أو قصر ، كان الأكروبول يزخر بالآلهة والحوريات – نفس آلهة البلاد ، آلهة الدنيا والآخرة ، التى جعلت من دلفى بقعة مقدسة لم تفقد بعد كل ما لها من قوة سحرية ، وما يحيط بها من غموض وأسرار . وإن مشاهدة الأكروبول ليلا فى ضوء القمر أو تأمل مرتفعات دلفى الشديدة الانحدار – ولو فى ضوء النهار – من أعلى ملاعبها الرياضية إلى البحر مع ما يتخللها من أحراش أشجار الزيتون ليبعث فى النفس إحساساً دينياً يعز وصفه :

فهنا على الأكروبول قد تجمعت سوياً الأصول الحقيقية للمدينة القديمة ، من نبع العصر الحجرى القديم وكهفه ، إلى سور العصر الحجرى الحديث وحظيرته المقدسة ، ومن القصر والحصن الملكى ، إلى المعبد العظيم ، ومن المخيم والقرية المحوطين بوسائل الدفاع ، إلى المدينة القوية المعتزة بنفسها ، والجمع على هذا النحو بين المزايا الطبيعية وما صنعته يد الإنسان لا يدع سبيلا إلى محاكاته ، فصورة المدينة لم تترك من الأثر العميق فى ذهن الإنسان مثل ما تركته فيه أثينا ، فإن معبداً له ذات الشكل كالبارثنون وأقيمت مبانيه الضخمة على الطراز الدورى – كما حدث فى بايستوم فى القرن السادس – لا يستطيع بذاته أن يترك من الأثر فى النفس ما يتركه البارثنون الرابض على أكروبول أثينا ، حتى ولو كان أكبر منه حجماً وأوفر منه حظاً من حيث الاحتفاظ بمبانيه ، وذلك لأن بايستوم تقع فى سهل ، والجبال التى كانت خليقة بأن تعبر ها سحرها إنما تقف خلفها .

ولا بد من أن بايستوم كانت منذ البداية على هيئة كتلة واحدة أكثر مما كانت عليه أثينا فى أى وقت من الأوقات ، حتى فى العهد الهيلينيسى المتأخر . ولكن لهذا السبب كانت تعوز بايستوم تلك الاتصالات بالأسس الأولى لنشأتها الموغلة فى القدم ، وهى الاتصالات التى حافظت عليها أثينا دائماً وأفادت منها إلى أقصى حد ، سواء فى أساطير المسرحيات التراچيدية أم فى النظام المعمارى للأكروبول ، حيث لا يبدو على الصخور الأصلية أى أثر يدل على أنها قد شغلت بغير المبانى فى أى وقت على الإطلاق .. وعلى هذا فإن أعمق الأصول البدائية وأسمى آيات الجمال الفنى قد اجتمعت على الأكروبول على نحو اجتماعها فى الأقبية والميازيب المزخرفة والقباب السامقة فى كاندرائية من الطراز القوطى . وهذا يفسر إلى مدى غير قليل كلا من الحياة فى المدينة والشكل الذى أضفته تلك الحياة على مبانيها — وحتى انعدام الشكل فى الأحياء السكنية التى أفلتت من الخضوع لهذا النظام الرفيع فبقيت فى تراكمها كقرية من العصر الحجرى الحديث . ولا جدال فى أن هذا التكوين معقد لكنه نموذج أصيل .

ولنرتق مرتفعات الأكروبول الشديدة الانحدار ونتأمل نظام توزيع ما فيه منذ الأصل من الأماكن الفضاء والمبانى ، ولو أن الكثير منها قد أصابه الآن التشويه أو التدمير .

وقد كانت جوانب الأكروبول الصخرية أصلح للدفاع منها للبناء ، وعلى ذلك فإن هم المهندس المعمارى لم ينصرف إلى العمل على تهذيب الجوانب ، أو تسهيل حركة التنقل ، بل إلى استغلال ما يصادفه من مزايا فى النتوءات والطوارات ، فرتب المبانى والنصب التذكارية دون بذل أى مجهود لتحقيق أى ترابط بين ما تقع عليه العين أو أى تتابع فى ارتفاع المنشآت فيما عدا إقامة أهم معبد على القمة ، فلم تقم المنشآت على محور بعينه ، وليس بينها استمرار ولا تدرج فى المنظر ، بل لم تبذل أى محاولة للاحتفاظ بالتماثل إلا فى كل مبنى

على حدة ، فيطالعك واضحاً وقد استكملت جوانبه الأربعة ، بحيث يتغير مظهره تبعا لتغير زاوية الاتجاه نحوه . وكثيراً ما اعترضت حرم مقدسة مختلفة طريق الصعود ، وكانت تضم بين جوانبها أحيانا مذبحا ، وأحيانا أخرى تمثالا لإله أو بطل ، وآونة مبنى صغيراً ، مثل نصب ليسيكراتيس المعروف بنصب الخوريجوس Choregus [1]. وقد ظلت المنشآت قائمة فى مكانها زمناً طويلا ، ولا سبيل إلى إزالتها برغم وقوفها حجر عثرة فى وجه الانتفاع بالمنطقة سداً لحاجة أشد إلحاحاً ، ولم يتيسر نقلها إلى مكان آخر إلا بعدما سادت الآراء الهيلينيسية الخاصة بتخطيط المدن ، وتلاشى قدر من التقوى القديمة ، وعندها نقلت حجراً حجراً بحرص الأثارى وإجلاله . والواقع أن نصب ليسيكراتيس (٣٣٤ ق.م) يقف اليوم محتفظاً بقدسيته فى حديقة عامة صغيرة عند سفح الأكروبول من الناحية الشرقية .

ومن العسير أن يخامرنا شك فى أنه – دون تجاوز الحدود التى أقامتها التقاليد – كان هناك نوع من القصد المتعمد فى اختيار مواقع وتصميم المبانى القائمة على الأكروبول . بل لا يبعد أن ذلك ، كما أبدى البعض أخيراً ، كان وليد التفنن فى الإفادة من المشاهد التى يمكن أن تتوافر ببلوغ المبانى عن طريق ملتو غير منتظم . بيد أن تصميم الشكل الهندسى للمبانى ذاتها ، دائرية كانت فى التخطيط أم مستطيلة ، لم يكن يتم طبقاً لخطة عامة منظمة ، فعلى الأصح كان كل مبنى مكتملا بمحتوياته ، مكتفيا بذاته ، متساوياً مع غيره

---

(١) كان الأثينيون يختارون من بينهم فى كل عام عشرة مواطنين لديهم من الثراء ما يمكنهم من تحمل نفقات إعداد فرق الغناء والرقص التى تشترك فى حفلات ديونيسوس . وكان كل مواطن من أولئك الذين اختيروا لهذه المهمة (Choregus) ينافس زملاءه فى إعداد فرقة تقدم أحسن عرض وتحرز قصب السبق . وكانت الجائزة التى تمنح للمواطن الذى أعد أحسن فرقة منضدة برونزية صغيرة ذات ثلاث أرجل كان الفائز ينقش عليها اسمه واسم قبيلته ويقيمها فوق قمة عمود أو نصب على هيئة معبد دائرى صغير ، مثل نصب ليسيكراتيس المشهور .

ومستقلا عنه ، ولا يقف دون سواه فى المرتبة طبقاً لأى نظام للترتيب . وهذا فى ذاته ينطوى على قدر غير يسير من الدلالة الرمزية .

وفى نهاية القرن السادس ، عندما كانت هذه المبانى الرئيسية القائمة على أكروبول أثينا لاتزال غاية فى البساطة — ولاشك فى أنها كثيراً ما كانت فجة عديمة الرواء ، حتى ولو كانت مبنية بالحجر — فى هذا الوقت لابد من أنه كان يطالع المرء قدر أكبر من البساطة والفجاجة فى مظهر منصات الباعة ومظلاتهم وحوانيت الصناع القائمة فى الأجورا أسفل الأكروبول ، حيث كان يلتئم شمل بائع « السجق » وصائغ الفضة وتاجر التوابل وصانع الفخار وصراف النقود . وإذا كان الأكروبول يمثل المدينة من حيث العمق ، الذى يمتد إلى أبعد أصولها فى الأزل ، فإن الأجورا تمثلها من حيث الاتساع الذى يمتد إلى ما وراء ما تراه العين من حدود مكانها . وقد خلت الأجورا من أى مظهر للوحدة إلا فى الفضاء ذاته ، فقد كان من الميسور بوجه عام أداء أى عمل ووجود أى مبنى هناك . وأما بداية ظهور نظام له حظ أوفر من القواعد مع معيار جديد للاتساع وجمال الإطار ، بل ظهور شعور جديد من الابتهاج بهذه الصفات بالذات ، فإن كل ذلك لم يحدث إلا فى أطراف المدينة . فهناك وجد الجيمنازيوم الجديد مقراً له ، وهناك لاح فجر نظام حضرى حقيقى ، ليس فى وسط يضطرب فيه النظام ، بل فى متسع رحب تنتشر فيه الأشجار .

ولقد بدأت هذه المنشآت الحديثة العهد ، وبخاصة المسرح ، على هيئة تعديلات بسيطة فى أشكال المواقع التى أقيمت عليها ، فقد أقيم المسرح بتحويل المنحدر المجوف فى جانب التل إلى مدرج شبه دائرى ، مع تمهيد حلقة فى مواجهة مدرجات المتفرجين لتكون بمثابة منصة يستطيع الراقصون أو الممثلون أن يؤدوا أدوارهم عليها . ولقد تم كل هذا على وجه عاجل ، فإن ثسيس

Thespis — وكان أول ممثل — ظهر فى مسرح فى ايكريا Ikria[1] فى النصف الأول من القرن السادس ، وفى مدى قرن واحد بلغت المسرحية أروع صورها بفضل تفاعل خصوبة الخيال مع نشاط روحى خلاق . فقد كتب سوفوكليس وحده مائة رواية ؛ وفى خلال القرن الذى انتهى فى عام ٤٠٦ ق . م . بلغ عدد الروايات التى كتبت ومثلت ألفا ومائتى رواية . وقد تكاثر أيضاً عدد دور الجيمنازيوم بسرعة مماثلة . وبانطلاق هذه المهام من عقالها احتفظت الديانة والسياسة بالمواقع المركزية فى المدينة ، غير أن وجود مخلفات تاريخية فيها واستخدامها فى أغراض تقليدية كان يعوق حرية استغلالها . وعلى الرغم مما يرويه باوسانياس من إعداد الأكروبول عند سفحه لاستقبال المواكب ، فإنه لم يكن له سوى مدخل واحد . وكان الطريق الأثينى العام الذى يؤدى إليه يبلغ من الضيق بحيث لايسمح لأكثر من خمسة أشخاص أن يسيروا فيه جنبا إلى جنب .

وإذا كان توزيع المبانى على الأكروبول يعبر عن تراكم روابط تقليدية أكثر منه عن نظام جديد شامل ، فماذا عسانا أن نقوله عن المنازل الوضيعة المنتشرة عند السفح ، وهى منازل جدرانها من اللبن وسقوفها من القرميد ، أو جدرانها من الطين والبوص وسقوفها من القش ، ومازالت تتسم بالطابع القروى الفج ؟ وكان الشطر الأكبر من المدينة يتألف من هذه المنازل حتى فى القرن الرابع ، بل إلى ما بعد ذلك ، فإنه فى وقت ما بين القرن الثانى والقرن الأول قبل الميلاد تسنى لديكايارخوس Dicaearchus أن يقول : « إن الطريق إلى أثينا يبعث على السرور بانسيابه على طول مداه بين حقول مزروعة . وأما المدينة فتشكو الجفاف لسوء تزويدها بالماء ، وليست شوارعها إلا أزقة عتيقة حقيرة ، ومنازلها وضيعة ، وإن كان من بينها عدد قليل

(١) كانت إيكريا فى أتيكا ، ووفقاً لروايات القدماء كانت مسقط رأس ثسبيس .

أحسن حالا من سواها . وعند وصول زائر غريب إليها يكاد ألا يصدق أن هذه هي أثينا التي سمع الشيء الكثير عنها » .

وإن خير ما يمكن أن يقال عن حالة الإسكان في أثينا هو أن أحياء الأغنياء والفقراء كانت جنبا إلى جنب ، وإنه يكاد يتعذر التميز بينها ، فيما عدا الحجم والمعدات الداخلية . وفي القرن الخامس كان للفقر الشريف وزن أكبر من الثراء غير الشريف ، وكان لمظاهر التشريف العامة وذيوع اسم الأسرة من الشأن ما يفوق الثروة الشخصية . ولابد من أن المنازل ، وكانت تتألف من طابق واحد وتغطيها سقوف قليلة الارتفاع ، كانت تضفي على الأحياء السكنية شكلا شبيها بما نراه اليوم في مدن حوض البحر المتوسط ، ولكنه يرجح أنه كان ينقصها حتى الطلاء الجيري الأبيض .

ولم تكن المنطقة السكنية في هذه المدن الباكرة تتسم بما يمكن أن يسمى نظاما منسقا للشوارع ، مما كان يجعلها خليقة أن تبدو في نظر أبناء العصر الحاضر شرقية الطابع ، شأنها شأن عزل النساء عن الرجال ، وهو ما كان الأثينيون أيضاً يمارسونه . ولعل اتساع الأزقة كان يكفي لمرور رجل ومعه حمار أو سلة للتسوق ، بيد أنه كان يجب على الفرد أن يعرف الحي الذي يعيش فيه لكي يستطيع الاهتداء إلى طريقه . على أن انعدام النظام والتخطيط على هذا النحو كان يعتبر وسيلة من وسائل الدفاع في حالة اختراق العدو للسور الخارجي ، وهو ما دعا إليه أرسطو وأطنب بلوطارخ في مدحه فيما بعد حينما رأى مزايا إحداث الارتباك في صفوف العدو على هذا الوجه ، حتى في العصر الهيلينيسي .

ولم يكن الرصف معروفا للتغلب على الوحل في الربيع أو التراب في الصيف ، وفي المنطقة الوسطى بالمدينة لم تكن هناك بساتين داخلية ولا حدائق صفت فيها الأشجار وإنما ظهرت بوادر إنشاء أروقة عامة مسقوفة للتنزه . وفي المدن الكبرى في القرن الخامس كانت ندرة الوسائل الصحية ، إن لم

يكن انعدامها كلية ، أمراً معيباً يندى له الجبين ، بل يكاد يكون قاتلا وقد أكد هذه الحقيقة وباء الطاعون الجارف إبان الحرب البلوبونيزية التى جعلت أثينا تكتظ بحشود اللاجئين . وفى عام ٤٣٢ كان فى الواقع قد بلغ من شدة ازدحام أثينا بالمبانى أن اللاجئين اضطروا إلى إقامة مخيماتهم على الأكروبول ، متحدّين فى ذلك التحذيرات الحكيمة الصادرة من دلفى ذاتها ضد الاحتشاد على هذا الوجه .

وطوال بقاء المدن صغيرة نسبياً وبالقرب منها حقول فسيحة ، كان من الممكن احتمال قصور وسائلها الصحية ، فالمدن التى كانت مساحة رقعتها تتراوح بين أربعين ومائة فدان ، وعدد سكانها يتراوح بين ألفين وخمسة آلاف نسمة ، كان فى وسعها أن تتحمل قدراً من التهاون الريفى فى شئون مثل التخلص من القمامة والفضلات البشرية . أما النمو الحضرى فكان يقتضى المزيد من العناية ، بيد أنه حتى فى المدن الكبيرة لم توجد فيما يبدو مراحيض عامة .

وأما عن موضوع المراحيض الخاصة ، فإن هناك تناقضاً بين ما كشفت عنه الحفائر من الشواهد وما جاء فيما كتبه الأقدمون ، وحتى الشواهد المدونة يكتنفها شيء من اللبس . وذلك أن الذين قاموا بالحفر والتنقيب حديثاً لم يكشفوا عما يدل على وجود مرافق صحية فى داخل المنازل الهيلينية . ويبدو أنه يؤيد ذلك فقرة وردت فى رواية « برلمان النساء » Ecclesiasuzae حيث يرينا أريستوفان رجلا يسكن بيتاً فى الحضر ، وقد هب من نومه وأخذ يتلفت باحثاً عن مكان مناسب لقضاء حاجته ، ثم يجلس القرفصاء فعلا لإزالة الضرورة ، مبدياً ملاحظات مضحكة متنوعة منافية للذوق عما يفعله على مرأى من النظارة . وهذا يدل فى آن واحد على عدم وجود جهاز أولى ، ولا أى شعور بالخجل من الكشف عن عورة البدن . والأمر الأخير يلقى تأييداً آخر فى ملاحظات كسينوفون عما يمتاز به سلوك الفرس من رقة وحياء يتجنبهم إفراز فضلات الجسم علانية .

وهذا التوافق بين البينات الإيجابية والسلبية قد يبدو حاسماً لولا وجود شواهد مضادة ، وبخاصة فى فقرة أخرى أوردها أريستوفان فى مسرحية « السلام » ، حيث يقول تريجايوس Trygaeus « مُركل الناس بأن يلتزموا الصمت ، وأن يحكموا إغلاق مجاريهم ومراحيضهم بقرميد جديد ، وأن يسدوا فتحات ما فيهم أنفسهم من مسالك » . وقد يستدل من هذا على أن بعض المنازل على الأقل كانت مزودة بمرافق صحية خاصة بها ، ولو أنى لم أعثر فى أى مكان على أية إشارة إلى إزالة الروث بعد ذلك . ومن المحقق أن الموضوع فى ذاته لم يكن بعيداً عن إدراك الأثينيين ، فإن المسرحية التى استشهدت بها تدور حول حشرة رمزية من حشرات السماد تعيش فوق كومة سماد فى فناء بيت ريفى . وتوجد فى سياق فقرة أخرى إشارة إلى « رجل يزيل ما فى باطنه فى بيريه Piraeus بالقرب من المنزل الذى توجد فيه الفتيات الـ ت السيرة » ، ومن ثم فإنه لا سبيل إلى الشك فى أمر عدم الاكتراث ، وكذلك عدم الاستحياء عند أداء مثل هذه الوظائف البدنية .

وأما عن الحمامات فإنه يصعب كذلك تفسير الشواهد الخاصة بها ، فقد كشف عن حمامات فى أولينثوس ، وكانت مدينة لا يبلغ عدد سكانها سوى ١٥٠٠٠ نسمة . ولو أن الحمامات الخاصة كانت شائعة ، لكانت رغبة الإغريق وحدها فى الاختلاط هى السبب فى إنشاء الحمامات العامة وكانت توجد فى أثينا . على أنه يشك فى أن المرأة الأثينية المخدرة المحجبة كانت تقدم على الذهاب إلى الحمامات العامة — تاركة زوجها ليغتنم فرصة غيابها ويقبل الخادمة الراقية الجميلة ، على نحو ما يفعل أحد أبطال مسرحيات أريستوفان — لو أن أحواض الاستحمام كانت شائعة فى البيوت . ومع ذلك لا بد من أن أحواض الاستحمام كانت ميسورة ، إذ أننا نجد أيضاً فى مسرحية « السلام » أن تريجايوس يأمر قائلا : « ولكن عجلوا وأدخلوا هذه الفتاة الصغيرة منزلى ، ونظفوا الحمام وأعدوا بعض الماء الساخن وهيئوا فراش العرس لها

ولى » . ومن هذا يبدو كأن استخدام الحمام الخاص كان من الطقوس المقصورة على مناسبات بعينها ، وهو ما كان أمراً طبيعياً فى مجتمع قليل الماء ، لا يعرف نظام إمداد كل مبنى بالمياه عن طريق الأنابيب ، حيث كانت كل المياه تنقل باليد من إحدى العيون على الأرجح . ويبدو بوجه عام أنه أياً كانت المرافق الصحية ووسائل المحافظة على الصحة العامة فى مدن القرن الخامس ، فإنها كانت محدودة النطاق منخفضة المستوى .

إن هذا ليبدو على هيئة صورة كئيبة لمدينة عظيمة إلى أن نتذكر أننا نتحدث عن شعب لا يكبله الكثير من الالتزامات الأخرى المألوفة التى تقتضيها المدنية ، شعب متحرر إلى حد غير مألوف من مشاغل الحياة اليومية المعتادة الخاصة بالكسب والإنفاق ، شعب غير مولع بالإفراط فى الطعام والشراب ، ولا يبذل مجهوداً أكبر مما ينبغى لاقتناء وسائل الراحة وأسباب الترف وألوان الأثاث والفراش . فقد كان شعبا يحيا حياة رياضية هى فى الواقع حياة الاعتدال فى المأكل والمشرب ، وكان أفراده ينجزون كل أعمالهم فى الخلاء تحت قبة السماء . ولقد كان الجمال عندهم زهيد الثمن ، وكان خير ما فى هذه الحياة من متاع ، وفوق كل شىء المدينة ذاتها ، رهن أمر من يشاء منهم .

٣ — تجسد المدينة

لكى ندرك إذن كل ما حققته المدينة الهيلينية بتمامه ، يجب أن نحول أنظارنا عن المبانى ونتأمل المواطن بمزيد من الإمعان ، ومع كل ما اتسمت به خلفية المدينة من مظاهر الفجاجة حتى فى القرن الخامس ، كان المواطن الإغريقى قد أتقن العمل بمذهب إمرسون العظيم القائل : « غل يدك فى التافه من الأمور وابسطها فى الجليل منها » . ولعل ما نتعجل كثيراً فى اعتباره عقبة يؤسف لها ، كان فى الواقع إلى حد ما السبب فى عظمة أثينا .

لقد كان المواطن الإغريقى فقيراً من حيث وسائل الراحة والرفاهة ، بيد أنه كان غنياً فى مجال واسع من التجارب المتنوعة ، لأنه نجح فى تجنب الكثير مما فى المدنية من ضروب « الروتين » والالتزامات المادية التى من شأنها أن تشل الحياة . ولقد تسنى له ذلك إلى حد ما بإلقاء شطر كبير من عبء الأعمال البدنية على الأرقاء ، وإلى حد أكبر بالاقتصاد فى حاجاته البدنية البحت وتوسيع نطاق العقل . وإذا كان لا يرى الأقذار التى من حوله فما ذلك إلا لأن الجمال كان يخلب نظره ويسحر سمعه ، ففى أثينا على الأقل كان لربات البيوت موئل .

إن ما كانت المدينة الإغريقية تمتاز به فى أثناء مرحلة تطورها هو أنه ما من ناحية من نواحى حياتها كانت بمنأى عن العين أو الخاطر ، ولم يكن الأمر مقصوراً على أن كل جزء من أجزاء كيانها كان على مرمى البصر ، بل إنه لم يكن محظوراً على المواطن سوى مزاولة أحط أنواع النشاط اليدوى ، وأما فى أغلب المهن فقد كان الرجل الحر يعمل مع الرقيق جنباً إلى جنب ، وكان الطبيب يأخذ من الأجر عين ما يأخذه الصانع ، وكان من الممكن أن يشاهد عن كثب كل ما يقوم به الناس من أعمال ، سواء أكانت فى السوق أم فى دار الصناعة أم دار القضاء أم المجلس أم الجيمنازيوم . وكل ما كان طبيعياً كان مقبولا ، ومن ثم فقد كانوا يفخرون بعرض البدن عارياً فى المباريات الرياضية ، حتى ما كان الجسم يؤديه من عمليات فسيولوجية تبعث على أشد الاشمئزاز لم يكونوا يحجبونها وراء ستار . ففى هذه الناحية كان للإغريقى عقلية متحررة تماماً . وإلى عهد بريكليس ، لم تضطرب معايير العلاقات الوثيقة بين الناس فى كل مكان ، وكان لجميع أنواع النشاط الحضرى شكل واضح وتقوم بينها صلات ظاهرة ، حتى ما كان يغشاها أحياناً من الاضطراب كان يشحذ الذهن ويحفز إلى السعى من جديد لاستقرار النظام .

ولمدة جيل قصير شهدت أثينا سبل الآلهة ، وسبل الطبيعة ، وسبل الناس تقترب من بعضها بعضاً ، وبدا كأنه من المستطاع التغلب على العقبات وأسباب الجمود ، وألوان الانحراف والفساد الكامنة منذ البداية تقريباً فى ذات أحجار المدينة العتيقة . ولم تكن الأشكال التى أبدعها فيدياس أوبوليجنوتوس هى وحدها التى تجسد فيها مثل جديد أعلى لشكل الإنسان أو على الأصح للشخصية المكتملة التكوين فى كل مرحلة من مراحل تطور الحياة . فإن تلك الأشكال لم تكن إلا بمثابة عملية التبلور لفترة أشد حيوية كانت الحياة نفسها قد أبقتها فى حالة ذوبان . ففى خلال الجيل الذى ردت فيه غارة الفرس ، سيطر على هذا المجتمع رأى جديد عن اكتمال الإنسان ، وتغلغل هذا الرأى بين كل الطبقات ، وفجأة تبوأ الإنسان مكانة سامية انعكست فى ضروب نشاط المدينة إن لم يكن فى كل مبانيها .

ولقد تجسد المثل الأعلى الجديد للاكتمال والاتزان والتماثل وترويض النفس فى رجلين تداخلت سنو حياتهما بحيث شملت القرن الخامس ، وهما[1] سوفوكليس وسقراط . ولم يكن من قبيل المصادفة أن كلا منهما كان أستاذا فى الحوار بطريقته الخاصة ، فلقد بلغا أوجهما عن طريق النضال والمعارضة وليس عن طريق التماثل فى النمو فحسب .

وكان سوفوكليس ، وهو أكبرهما سنا ، جميل الجسم والوجه ، بارعا فى الرقص ، وكذلك فى فنون الحرب كقائد ، ويؤلف مسرحياته التراچيدية وفقاً للنمط الجديد فى الدراما ، وقد تحررت فجأة من الطقوس العتيقة للقرية . وهو من ذلك الطراز من الرجال الذى كان صولون أول مثل له ، بعزوفه عن الانصراف إلى مشاغل السلطة انصرافا يحجب الاهتمام بما عداها . فقد كان سوفوكليس على طرفى نقيض من النموذج الأصلى للأخصائى

(١) عاش سوفوكليس من ٤٩٦ – ٤٠٦ ق . م . وسقراط من ٤٦٩ – ٣٩٩ ق . م .

العاجز المتقطع للجزئيات الذى هيأته المدنية للقيام بدوره الصغير والانصراف إلى عمله انصرافا أعمى كانصراف النمل إلى سد حاجات مجتمعه : ولا أدل على ذلك من أن سوفوكليس كان شخصية قادرة على مواجهة الحياة فى كل أطوارها حتى حين تجافى أحكام العقل فى عنف وتنطوى على ضروب من القهر الغامض ، وقد كان رجلا يستشعر الألفة فى كل بيئة ، ولا يستعصى عليه أى موقف ، ولديه الاستعداد لتحمل المسئولية الأدبية عما يختاره ، ولو كان من المحتمل أن يعارضه المجتمع بأسره ، إذ كان شعاره « وحيدا أو بتأييد الجميع » .

وجنبا إلى جنب سوفوكليس يقف رجل يختلف عنه تماما فى الشكل وهو سقراط الذى شبه فى شيخوخته بسلينوس[1] ، فقد كان أفطس الأنف ، أبعد ما يكون عن الاتصاف بالجمال ، ولكن بناء جسمه كان رائعاً ، وتكوين بدنه كان قويا ، لا تؤثر فيه شدائد الحرب ولا قسوة الجو . وكان يسيطر على أعصابه وسط القتال ؛ ولا يفقد صوابه فى مجالس الشراب فى الوقت الذى كان فيه الآخرون يترنحون سكرا : وكان يميل آنا إلى الانطواء على نفسه وآنا إلى الاختلاط بالناس ، فقد كان قادراً على الاستمتاع بالعزلة الذهنية ، وكذلك على الانهماك فى حوار لا ينتهى بغية التحرى والاستقصاء . ومثل كثيرين غيره من الرجال الأحرار كان مثّالا بحكم التدريب ، وكان ابن اثنين من الطبقة الكادحة ، هما مثّال ومولّدة . بيد أنه كان يشعر بالألفة التامة فى كل ناحية من نواحى المدينة ، فقد كان رياضيا بين الرياضيين ، وجنديا بين الجنود ، ومفكرا بين المفكرين .

ولم يكن هذان الرجلان سوى ممثلين بارزين للمدينة الجديدة ، المدينة

---

(١) وفقاً للروايات القديمة كان سلينوس – مربى ديونيسوس ومعلمه ورفيقه – قبيح الخلقة واسع الحكمة يميل إلى السخرية . وإزاء توافر هذه الصفات فى سقراط درج الأقدمون على تشبيهه بسلينوس .

التي كانت كامنة كفكرة ولكنها لم تتحقق إطلاقا على وجه مناسب بالطوب أو الرخام » ولم يكن هذان الرجلان وحيدين ، فقد كان من حولهما جماعة على شاكلتهما من أمثال أريستيديس وايسخيلوس وثيميستوكليس وثوكيديديس ويوريبيديس وأفلاطون . ووجود هذه المجموعة فى ذاته أقام الدليل على حدوث ذلك التحول الفجائى ، الذى أفضى فى مدى فترة تقل عن قرن ، بين بضعة ملايين من الناس ، إلى ازدهار العبقرية الإنسانية على نحو يفوق كثيراً ما سجله التاريخ فى أى مكان آخر فيما عدا فلورنسا — على ما يحتمل — فى عهد النهضة .

ولم يكن ما حققته أثينا من إقامة سبيل وسط بين الحياة العامة والحياة الخاصة أقل أعمالها شأناً ، فقد نجم عن هذا نقل السلطات على نطاق واسع من موظفين مأجورين فى خدمة الملك أو الحاكم الطاغية إلى المواطنين العاديين الذين كانوا يتولون المناصب العامة كل منهم بدوره . ولم يكن الأمر يقتصر على أن يؤدى المواطن الخدمة العسكرية عندما يدعو داعى الوطن ، ويقدم معداته الشخصية ، بل إنه كان أيضاً يؤدى واجبه فى الجمعية الشعبية وفى دور القضاء . وإذا لم يصبح فى عداد المتسابقين فى إحدى المباريات الرياضية أو يشترك فى التمثيل فى المسرح ، أو فى الغناء مع جماعة المنشدين ، فقد كان له على الأقل مكان يشغله ، عند ما يأتى دوره ، فى موكب الأثينيين الجامع . وكان على كل أثينى تقريباً — من الذكور — أن يسهم فى وقت ما فى الأعمال العامة ، بوصفه عضواً فى الجمعية الشعبية (الإكلزيا) ، وفى التحقق من أن قراراتها تنفذ على وجه سليم[1] . وعلى حد ما يؤكده فولر Fowler فإن

---

(١) كان لأثينا مجلس وجمعية شعبية . وكان كل أثينى يتمتع بحقوق المواطنة كاملة عضواً فى الجمعية الشعبية . وكان أعضاء المجلس يختارون من جميع المواطنين لإعداد ما يعرض على الجمعية والإشراف على حسن تنفيذ قراراتها والاشتراك مع الحكام المختلفين فى إدارة شئون الدولة . وكان المجلس يعتبر الهيئة التنفيذية العليا . وبعد إصلاحات كلايسثينيس فى أواخر القرن السادس ق . م كان المجلس يتألف من ٥٠٠ =

العمل الذى تتولاه الآن هيئات تنفيذية وسكرتيرون دائمون ومفتشون وحكام كان يقوم به رجال عاديون من أبناء أثينا يتناوبون العمل فى طوائف من خمسين فرداً .

وكانت المشاركة فى الفنون أحد أوجه نشاط المواطن ، شأنها شأن الخدمة فى المجلس[1] أو فى دور القضاء ، وكان يبلغ عدد قضاة أثينا ستة آلاف قاض ، وفى الاحتفال بعيد الربيع فى كل عام ، كانت تقام مسابقة بين كتاب مسرحيات التراجيديا ، وكان ذلك يستدعى تقديم اثنتى عشرة مسرحية جديدة سنوياً ومساهمة مائة وثمانين من المغنين والراقصين ، على حين أن كل مسابقة فى المسرحيات الفكاهية كانت تتطلب ست عشرة مسرحية جديدة سنوياً ومائة وأربعين من المغنين والراقصين . ويروى لنا فيرجسون Ferguson أنه فى خلال مائة العام التى دامتها الإمبراطورية كتب وعرض على المسرح فى أثينا ألفان من نخبة المسرحيات ، على حين أنه ألفت وقدمت ستة آلاف قطعة موسيقية جديدة .

وهذه الوجوه من النشاط فى المجال الجمالى كانت تتطلب من المشاركة ما هو أوسع نطاقاً ، حتى من مهرجانات تمثيل الأسرار الدينية ومسرحيات المعجزات التى كانت تقام فى العصور الوسطى . فى كل سنة كان يتحتم على ما يقدر بنحو ألفين من أبناء أثينا أن يستظهروا كلمات الأغانى ، أو الأناشيد الجماعية التى تتضمنها المسرحيات ، وأن يتدربوا على الموسيقى وتشكيلات الرقص الخاصة بذلك . ولقد كان فى هذا تهذيب فكرى وكذلك تدريب للذوق الفنى من أرفع طراز ، فنشأ عن ذلك عرضا أن شطراً غير

= عضو يختارون بمعدل ٥٠ عضواً من كل قبيلة من قبائل أثينا العشر . وكان أعضاء كل قبيلة يباشرون مهامهم بالتناوب مع أعضاء القبائل الأخرى لمدة بأم السنة لكل قبيلة .

(١) راجع الحاشية السابقة .

قليل من النظارة كان يتألف ممن سبق لهم الاشتراك فى الأداء ومن المحكمين والنقاد البارعين فضلا عن المتفرجين المسحورى الألباب .

وعلى ذلك فإن الحياة العامة للمواطن الأثينى كانت تتطلب منه الاهتمام بشئونها والمشاركة فيها باستمرار . وكانت هذه الضروب من النشاط أبعد من أن تلزمه بالبقاء رهين مكتب أو فى نطاق دائرة محدودة ، بل كانت تأخذه من المعبد إلى تل البنيكس Pnyx(١) . ومن الأجورا إلى المسرح ، ومن الجيمنازيوم إلى الميناء فى بيريه ، حيث كان يفصل فى ذات المكان فى الأمور المتعلقة بالتجارة أو البحرية . فلم يكن هؤلاء الأثينيون يديرون شئون حياتهم بمجرد التأمل والتفكير الهادئ ، على نحو ما كان الفلاسفة ينصحونهم خطأ ، ولا بالعمل والمشاركة مدفوعين إلى ذلك بانفعالات قوية ، وإنما بالملاحظة الدقيقة والتعامل المباشر وجها لوجه .

إن ذلك العالم الطليق الدائب التنوع والحيوية قد تمخض عنه عقل يقابله ، عقل طليق من كل قيد . فى الفنون وفى السياسة معا تغلبت أثينا إلى مدى كبير على المساوئ الأصلية للمدينة : حكم الفرد ، والتفرقة بين ألوان النشاط ، وضيق الأفق المهنى ، وعلى ما هو أسوأ من ذلك ، وهو تصريف شئون الدولة عن طريق موظفين مأجورين — ولقد مارس الأثينيون ذلك لمدة جيل على الأقل دون التضحية بالمهارة أو الهبوط بالمستوى الرفيع . ولفترة كانت المدينة والمواطن كيانا واحداً ، وما من ناحية من نواحى الحياة كانت تبدو أنها تقع خارج نطاق ما لهما من ألوان النشاط الخلاقة القادرة على التشكيل الذاتى . وهذه التربية لكل نواحى الإنسان أو هذا التكوين paideia ، على حد ما دعاها ييجر Jaeger للتفرقة بينها وبين تعليم أضيق منها نطاقا ، لم يظهر ما يرقى إلى مستواها على الإطلاق فى مجتمع آخر به مثل هذه الكثرة فى العدد .

---

(١) تل منخفض غربى الأكروبول أعدفيه مكان لاجتماع الجمعية الشعبية .

وفيما بين سولون – ذلك الرجل الصريح المستقيم ، الذى ألقى جانبا بالسلطة السياسية التى كان قد جمعها فى يديه كما لو كانت رداء ملوثا – وبين بريكليس ، ذلك الرجل الملتوى ، الذى كان يصوغ من فعال الرجال الأحرار ألفاظا يستخدمها لإخفاء سياسة قوامها الاستغلال « الاستعمارى » ، والاسترقاق ، والإبادة بلا رحمة – فيما بين هذين القطبين المتضادين انقضى أقل من مدى قرن واحد . بيد أنه فى خلال تلك الفترة القصيرة كانت أثينا قد بلغت من الغنى فى المواطنين ما لم تبلغه أى مدينة من قبل على الإطلاق .

وعندما انقضت تلك الفترة ، أخذت المبانى تحل مكان الرجال . ولقد عمد الفلاسفة وعلماء التربية – من أفلاطون إلى أيسوقراط Isocrates إلى الجد فى البحث عن السر فى تكوين أمثال المواطنين الذين أنجبتهم المدينة الإغريقية فى مدة وجيزة ، إلا أنه لم يواتهم إطلاقا التوفيق فى تحليل ذلك السر أو الكشف عن كنهه ، ولا شك فى أن الكثير منه ما زال خافيا علينا . وعندما أقبل الوقت الذى تهيأ فيه أفلاطون لإلقاء هذا السؤال كان جزء من الجهود المشتركة الأصلية قد تحول إلى مجموعة من الأحجار كما كان جزء آخر قد دمرته الحرب . وجواب أفلاطون عن هذا السؤال لايدل إلا على شجاعة الاستماتة .

وعلى كل حال فإن إمكانيات المدينة ، التى تجسمت فى سقراط وسوفوكليس ، لم تتقدم إطلاقا نحو مرحلة أبعد فى سبيل تحقيقها تحقيقا جماعيا . وإن أولئك الذين قاموا بتخطيط وتشييد مدينة العصر الهيلينى المتأخر ومدينة العصر التالى له ، لم ينجحوا فى تطوير التقاليد والعادات والقوانين والأوضاع الحضرية الجديدة التى كانت خليقة بأن تنقل تجارب أثينا فى عصرها الذهبى وتهيئ أسباب الكمال لبيئة تستطيع تشكيل الشخصية الجديدة . ويبدو أن ما لم يخطر ببال أفلاطون على الإطلاق هو أن أثينا صولون وثيموستكليس كانت فى ذاتها مدرسة أجل شأنا من أى جمهورية خيالية من الممكن أن

يتفتق عنها ذهنه . فقد كانت المدينة ذاتها هى التى كونت وأبدلت من حال هؤلاء الرجال ، فلم يتم ذلك فى مدرسة خاصة أو فى معهد عال فحسب ، بل فى كل لون من ألوان النشاط ، وفى كل خدمة عامة ، وفى كل مكان للاجتماع والالتقاء .

ونتيجة لذلك فإن الفلاسفة الذين جاءوا بعد أفلاطون وأرسطو ، إذا كانوا قد ظلوا يوالون السعى وراء الاتزان والحياة المكتملة المستوفاة ، فإنهم لم يعودوا يجرؤون على البحث عن بغيتهم فى المدينة : ولقد كشفوا عن عقيدتهم بالتهرب من مسئولياتهم العامة ، أو بالبحث عن ضالتهم فى إمبراطورية مثالية أو نظام سماوى للحكم ، على حين أن أولئك الذين اضطلعوا بأعباء التجارة أو شئون السياسة والحرب لم يكن لديهم مجال ، فى وسط زحمة مشاغل حياتهم اليومية ، للعناية ببلوغ أرفع ما يمكن الوصول إليه من مراتب التقدم المعنوى . وتحف الفن الإغريقى التى نجلها اليوم ونقدرها كانت تعبيرات صادقة عن هذه الحياة فى أزهى أوقاتها ، بيد أنها كانت كذلك إلى حد ما بديلا ماديا عن روح ، لو أنها أدركت سر خلودها هى ذاتها ، لربما استطاعت أن تقدم للتحضر والتطور الإنسانى خدمات أجل شأنا مما فعلت .

ولم يسبق أبداً أن كانت حياة الناس فى المدن دافقة بالحيوية على هذا النحو البالغ فى دلالاته ، ولا كانت متنوعة ومجزية ، ولا سلمت إلى هذا الحد من آفات التدابير ووسائل الضغط والقهر الخارجية — لم يسبق لحياة الناس فى المدن أن بلغت من هذا كله ما بلغته فى خلال الحقبة التى حاولت أن أبرز معالمها فى إيجاز . فالعمل والفراغ ، والآراء النظرية والتجارب العملية ، والحياة الخاصة والحياة العامة ، كانت تتفاعل سويا فى انسجام واتساق ، على حين أن الفنون والألعاب الرياضية والموسيقى والتحادث والتأمل والسياسة والحب والمغامرة وحتى الحرب ، فتحت كل آفاق الوجود وجعلتها فى

متناول المدينة ذاتها . فكانت كل ناحية من نواحي الحياة تنساب فى ناحية أخرى ، ومن ثم لم تكن هناك ناحية منفصلة ولا محتكرة ولا معزولة . أو على الأقل لابد من أن تكون الحياة قد بدت على هذا النحو فى نظر المواطنين الكاملى الأهلية ،مهما ساور عبيدهم أو نساءهم من شكوك حول هذا الوضع .

وفى مثل هذه الجماعة البشرية كان من الممكن أن تتحول طقوس المعبد إلى تراچيديا ، وأن يصبح ماكان مألوفا فى ساحة السوق من المداعبات الصاخبة والمزاح السمج كوميديا ساخرة ، على حين أن الجيمنازيوم — الذى كان أول الأمر ملتقى الرياضيين — قد غدا ، سواء فى أكاديمية أفلاطون أو فى معهد أرسطو أو فى مدرسة انتيسثينيس، موئل نوع جديد من المدارس، أو جامعة حقيقية أمسى التعليم فيها مسئولا عن تهذيب المجتمع ، فقد ربط بنظام خلقى يقوم على محاسبة النفس وتحكيم العقل : بيد أن هذا التوحيد الداخلى لم ينجح أبدا نجاحا كاملا فى إيجاد مظهر خارجى تنعكس وتبقى فيه صورة مطابقة للحياة التى أخرجته إلى عالم الوجود .

والدور الذى قامت به المدينة الإغريقية يدعو إلى الإعجاب ، فإن كل جزء من أجزاء المدينة بعث حياً فى شخص المواطن . بيد أن عبادة المدينة والدور الذى كانت تقوم به ، وقفا عقبة فى سبيل المزيد من التقدم ، فإنه مهما يبلغ من جلال النتائج التى حققتها أثينا ، لم يكن من المستطاع أن تظل قائمة فى صورة ثابتة من الكمال . فما من نظام بشرى ، مدينة كانت أو نظاماً بابوياً ، يستطيع الادعاء أن كيانه بلغ ذروة قصوى من الكمال جديرة بالعبادة ، إذ لا مناص من أن يكون للنمو والموت أثرهما . وفى خلال ما حدث فى القرن السادس من انقسام بين الفلسفة الطبيعية — وكانت تنظر إلى الكون بوصفه شيئاً أو عملية منفصلة عن الإنسان — وبين الدراسات الإنسانية ، وكانت تعتبر الإنسان قادراً على المعيشة فى عالم مستقل بذاته خارج نطاق الكون — فى خلال ذلك الانقسام ضاع إلى حد كبير ما كان

يوجد فى الماضى من استبصار حالة الإنسان ، وكان هذا الاستبصار أقرب إلى الحقيقة وإن كان أشد غموضا .

وحتى عند سقراط — أو على الأقل فيما كتبه أفلاطون عن سقراط — اتضحت وجوه القصور فى عبادة المدينة فى الوقت نفسه الذى كان يجب أن تكون قد اختفت فيه استجابة للنقد ، وذلك لأن الانصراف الكلى إلى الاهتمام بالمدينة زاد من اتساع الشقة بين تفهم طبيعة الكون وتولى زمام الشئون البشرية . ففى « فيدروس » يصرح سقراط بأن النجوم والأحجار والأشجار لم تستطع أن تعلمه شيئا ، فهو لم يصل إلى العلم بما كان يبحث عنه إلا من تصرفات « الناس فى المدينة » . وليس هذا إلا وهماً من أوهام عامة الناس فى المدن ، فهو ينطوى على إغفال ما هو واضح من اعتماد المدينة على الريف ، ليس من أجل القوت فحسب ، بل من أجل ألف ناحية أخرى من مظاهر الحياة المنظمة التى تغذى العقل كذلك . وليس أقل من ذلك شأنا ما نعلمه الآن عن اعتماد الإنسان أيضا على شبكة واسعة من الصلات بين الكائنات الحية وبيئتها ، فهى تربط بين حياة الإنسان وبين مخلوقات خفية وبعيدة فى الظاهر كالبكتيريا والفيروس والفطريات ، وفى آخر المطاف تربط بين حياة الإنسان وبين مصادر للقوة بعيدة بعد الإشعاعات الصادرة من النجوم النائية ، ولقد كانت معتقدات البابليين الخرافية أقرب إلى الحقيقة فى ربطها الخاطئ بين حركات الكواكب وأحداث البشر من مذهب الإغريق فى تحكيم العقل ، وما أدى إليه من اطراد الفصل بين الإنسان والطبيعة ، وبين المدينة والكون . وتبعاً لما كان يشير به سقراط ، فإنه لكى يعرف الإنسان نفسه يجب أن يعرف أن الإنسان ليس عقلا مجرداً عن البدن ، أو نزيل مدينة فى عزلة عن كل ما حوله ، بل جزءاً لا يتجزأ من الكون المحيط به ، يسطع فى النهاية بإدراك حقيقة ذاته .

والواقع أنه لا المدينة الإغريقية ولا العالم الإغريقى قدر الإنسان حق قدره ، وذلك لأن الصورة التى انطبعت فى ذهن القدماء عن كل منهما كانت صورة جامدة لم تدع مجالا لعامل الزمن ولا لعامل التطور المنظم . فالإغريق بوجه عام ، والأثينيون بوجه خاص ، باتخاذهم من المدينة آلهة لهم فقدوا أسمى هبات الألوهية — وهى هبة التغلب على نواحى النقص الطبيعية والاتجاه نحو أهداف تجاوز ما يمكن تحقيقه على الفور . وعلى الرغم من أن السنين التى انقضت بين عصرى بيزيستراتوس وبريكليس شهدت بزوغ طاقات بشرية جديدة على نحو غير عادى ، إلا أن مواطن القرن الخامس لم يستطع إيجاد مدينة قادرة على الاستمرار فى العملية ذاتها ، فهو لم يسع إلا إلى أن يتلاءم مع الوضع الذى سبق تحقيقه . بيد أنه لم يكن فى وسع المدينة أن تصبح عالماً بأسره ، كما أن عالماً لا مجال فيه للتغيير والتسامى والتحول لم يكن من شأنه أن يقيم فى المدينة نظاماً أرقى مما عرفته .

وقد نجد فى هذا تفسيراً للسبب فى أن الفكرة الإغريقية عن الاكتمال وحسن الخلق ، كما تجسدت فى الشخصيات العظيمة التى سطعت إبان الحرب الفارسية وفى أعقابها مباشرة ، لم تؤد بهم إلى النجاح التام فى إنشاء مدينة على نحو يطابق صورة تلك الفكرة ذاتها ، وأما ما حل مكان تلك الصورة فهو المدينة الهيلينيسية ، وقد كانت تتوافر فيها الشرائط الصحية ، ومنظمة ، وحسنة التنسيق ، وتسودها وحدة من الذوق الفنى ، غير أنها كانت أقل شأناً من حيث القدرة على تشجيع الجهود الخلاقة . ومنذ القرن الرابع أخذت المبانى تحل مكان الناس فى الأهمية .

٤ — نكوص إلى المدينة الطوباوية

كانت توجد دلائل كثيرة — حتى قبل وقوع كارثة الحرب البلوبونيزية — على أن المدن الإغريقية على وشك أن تواجه مأزقا فى

تطورها ، فقد كانت لا تستطيع المضى فى طريق الاستعمار إلى أبعد مما وصلت إليه دون المخاطرة بالدخول فى منازعات دموية ، كما أنها كانت لا تستطيع حماية نفسها من الإمبراطوريات التى كانت تهددها وتحيط بها دون تكوين اتحاد سياسى وثيق ، ومواصلة إطعام عدد متزايد من السكان على أساس من المعونة المتبادلة . فلم يعد فى الإمكان أن تقوم الجبال مقام الأسوار على حين أن ضآلة الحجم وعدم اشتهار الموقع أصبحا لا يكفيان لإفلات مدينة ما من أن تتنبه إليها وتقضى عليها دول أقوى منها .

وعلى الرغم من أن المدن الإغريقية ، بفضل ذات ظروفها من حيث النشأة والتكوين الطبيعى ، قد نجت من كثير مما يشل الحركة من ألوان الجمود وضروب التنظيم التى اتصفت بها الإمبراطوريات الشرقية ، فإن المدينة الإغريقية كانت مصابة بعلة أساسية ، إذ أنه لم يكن لها هدف مثالى يجاوز نطاق كيانها المحدود . ولقد ورد على لسان سقراط ذكر شىء مما كانت تعانيه وذلك فى سياق عبارة فى « جورجياس »[1] The Gorgias تقول : « إنك تطنب فى مدح الرجال الذين احتفلوا بالمواطن وأشبعوا رغباتهم ، ويقول الناس إنهم جعلوا المدينة عظيمة ، لكنهم لم يروا أن حالة الدولة وما بها من أورام وقروح يجب أن يعزى إلى هؤلاء السياسيين الشيوخ ، وذلك لأنهم ملأوا جنبات المدينة بالثغور والأحواض والأسوار وموارد الدخل وما إلى ذلك ، ولم يتركوا مكاناً للعدالة والاعتدال » .

وإن ما حدث من رد فعل حيال هذه الحالة لم يتخذ فى مبدأ الأمر مظهر يأس يؤدى إلى الانتحار ، كما حدث فى مصر وبابل ، بل إنه تبدى فى اتجاه الطبقة الممتازة نحو العزلة . إذ أن رجلا من قادة الفكر مثل فيثاغورث بدلا من أن يخصص طائفة بأسرها من الناس لإنشاء مدينة جديدة ، كان يعمد إلى أن يجمع سوياً فئة من المتماثلين فى التفكير ويحاول أن يقيم فيما يشبه

(١) كان الكتاب المعروف بهذا الاسم أحد مؤلفات أفلاطون .

مدينة فى داخل المدينة قواعد جديدة ونظماً جديدة ، ولسوف يتسع نطاق الاندفاع فى هذا الاتجاه يوماً ما ، تحت تأثير الرهبنة البوذية التى اتصلت ببلاد الإغريق نتيجة لفتوحات الإسكندر .

وكانت الأمارة الأخرى على هذه العلة الحضرية ظهور نوع جديد من الآداب ، وهو ذلك النوع الذى كان يحاول وصف طبيعة جمهورية مثالية . وحتى هذا الوقت كانت تضفى على المدينة القائمة فعلا صفات مثالية ، أما الآن فقد بذلت محاولة ـ وفى الواقع بذل أفلاطون محاولتين فى سيراقوسة — لتقام فعلا مدينة مثالية . وإن هذه المحاولة لتدل إلى حد ما على الثقة بأن أحكام العقل تستطيع أن تسيطر على جميع نواحى نشاط الإنسان وتنظمها ، ولم يحدث إطلاقاً منذ أيام السحر البدائى أن توافر للعقل البشرى مثل هذا اليقين من أمر القوى التى كان يتحكم فيها . ألم يكن من المستطاع اعتبار المدينة عملا من أعمال الفن يخضع للتصميم وإعادة التشكيل عن عمد وروية ؟ إن المدينة الطوباوية لم تكن أكثر من تمرين جديد فى الهندسة الفراغية ، على فرض أن كل أصحاب العقول المفكرة كانوا ميالين إلى الاشتغال بمثل هذه الهندسة الاجتماعية . إن ميتون Meton — مساح الأرض ومخطط المدن الذى يسخر منه أريستوفان فى مسرحية « الطيور » — هو فى الواقع النموذج الأصلى لمهندسى التخطيط منذ هيبوداموس إلى هوسمان ، أى لواضعى خطط تنظيم وظائف الناس والأماكن الفضاء فى المدن .

وإن ميتون ليقول : « إنى أشرع فى العمل بمسطرة مستقيمة لأرسم مربعاً فى داخل هذه الدائرة ، وفى المركز سوف تكون ساحة السوق التى سوف تؤدى إليها كل الشوارع المستقيمة ، فتتجمع فى ذلك المركز على هيئة نجم يرسل أشعته من كل الجوانب فى خط مستقيم » . وليس لدينا أى سجل قديم لمثل هذا النوع من التخطيط فى أى مكان ، ولكن تلك الفكاهة الفجة التى أطلقها أريستوفان أصبحت بعــده بألفى سنة السمة المميزة للتفكير الباروكى .

وتنم الرسائل التي وضعت عن المدينة الطوباوية إلى حد ما عن قدر من الابتعاد عن القيم السائدة في المدينة الإغريقية كما تنم عن تحرر من الأوهام عما كانت تقوم به عندئذ من أعمال . ويبدو أن المؤلفات الجديدة - وكانت تكشف عن وجوه الخلاف بين ما هو كائن فعلا وما هو ممكن أو ما هو مثالي نظرياً - أصبحت نهجاً مألوفاً فترة من الوقت ، إذ أن أريستوفان هزأ منها في أكثر من موقف من المواقف الساخرة ، كما كان شأنه من مختلف المقترحات الاشتراكية التي يلوح أنها كانت تملأ الجو إذ ذاك . وإنه لمما لا يخلو من دلالة أن أول داعية لهذا النهج الجديد من التفكير قد كان - طبقاً لأرسطو - رجلا يحترف تخطيط المدن ، وهو هيبوداموس .

ولقد عزا أرسطو إلى هيبوداموس من المقدرة على الابتكار في التخطيط العملي ما لم يكن يستطيع هو في الواقع أن يدعيه لنفسه ، لأنه إذا كان من الجائز أنه هو الذي نشر فكرة التخطيط الشبكي للمدن[١] - وهي الفكرة التي لم تكن أثينا المحافظة تقبل عليها حتى ذلك الوقت - فإن ذلك الطراز من التخطيط كان شائعاً في أيونيا منذ القرن السابع . ولعل الأقرب إلى الاحتمال ، على حد رأي لافيدان Lavedan ، هو أن يكون هيبوداموس قد ابتدع الأجورا التقليدية المحاطة بالأروقة ، وذلك عند تخطيطه ثغر بيريه . وأما ابتكاره الحقيقي فهو إدراكه أن شكل المدينة هو شكل نظامها الاجتماعي ، وإنه لإعادة تشكيل أحدهما لا بد من إدخال التغييرات الملائمة على الآخر . ويبدو أنه أدرك أيضاً أن تخطيط المدن يجب ألا يستهدف غاية عملية عاجلة فحسب ، بل يجب أن يكون له هدف مثالي أوسع نطاقا ، وقد كان يعتبر فنه وسيلة يحقق بها رسميا إقامة وتوضيح نظام اجتماعي أكثر تمشياً مع أحكام العقل .

---

(١) وفقاً لهذا التخطيط تمتد الشوارع في خطوط مستقيمة متوازية وبتقاطع بعضها عمودياً مع البعض الآخر تقاطع خطوط رقعة الشطرنج أو قضبان الشبكة المعدنية التي تستخدم للشواء .

وأما ما عساه أن يكون ذلك النظام ، فإن أرسطو يحدثنا عنه بإيجاز شديد فى كتاب « السياسة » ، ويلوح أنه كان يقوم على أساس رياضى نشأ عن اعتقاد هيبوداموس فى الثلاثيات ، بيد أنه لاتوجد إشارات فيما كتبه القدماء ولا بقايا أثرية توحى بأنه أجريت تجارب جديدة لتجميع المبانى ، أو تخطيط الأحياء أوالشوارع فى مجموعات ثلاثية . ويبدى أرسطو أن مدينته « كانت تتألف من ١٠٠٠٠ مواطن ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : أحدها من الصناع ، والثانى من الزراع ، والثالث من حماة الدولة المسلحين . ولقد قسم الأرض كذلك إلى ثلاثة أقسام : أحدها مقدس ، والثانى ملك للدولة ، والثالث ملك للأفراد . وقدخصص الأول لسد نفقات الشعائر المألوفة لعبادة الآلهة ، والثانى لإعالة المحاربين ، وأما الثالث فكان ملكا للمزارعين » . وإن قليلا من التفكير كان حريا بأن يبين لهيبوداموس أن الطبقات الكادحة كان مصيرها أن تعيش فى فقر طاحن لو أنه طاب إليها أن تعول ثلث عدد السكان الذين يعيشون فى بطالة وأن تعطى الدولة ثلثى الثروة .

ولم يكن هيبوداموس قليل الدراية بشئون الاقتصاد فحسب ، بل إن تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات لا يوحى بأى أصالة فى تحليله للوظائف الاجتماعية . وكون إحدى هذه الطبقات طبقة المحاربين العتيقة قد لا يدل على أكثر من أن نظم الميكينين والدوريين العتيقة التقليدية كانت لاتزال تسيطر على العقل الإغريقى المتحرر ، حتى فى الوقت الذى كان يتعمد فيه التجديد والابتكار . وإن أرسطو نفسه ليسلم بذلك ، فهو يقول : لم يأت الفلاسفة السياسيون بكشف جديد أو حديث فى القول بأن الدولة يجب أن تقسم طبقات وأن المحاربين يجب أن يفصلوا عن المزارعين ، فهذا النظام قد استمر إلى اليوم فى مصر وكريت .

وإذا كان لا يوجد لدينا كتاب من وضع هيبوداموس لإرشادنا ، فإن فى جولات أفلاطون المختلفة فى المدينة الطوباوية ما ينير الطريق أمامنا . بيد أنها

أيضاً غير مشجعة ، فهى تدل على أن عقلا من أرجح العقول التى ازدهرت على الإطلاق وتوافرت لديه فى آن واحد القدرة على المرح وعلى التعمق فى التفكير ، كان عاجزاً عن إدراك مصدر ما أوتيه من صفات جليلة . بل إنه جاوز ذلك فلم يدان الإنصاف إلى أى مدى بقلة تقديره للقيم التى أوجدها آباؤه وسلفاؤه ، أو تلك التى كان يحتمل أن يوجدها معاصروه لو أنهم أوتوا مزيداً من الحكمة فى التوجيه .

وإذا كان من المؤكد أن بريكليس كان واقعا تحت تأثير قدر من التخدير الذاتى فى إشادته بالآثينيين بوصفهم محبين للجمال دون إسراف ، ومحبين للروية دون جبن ، فإن أفلاطون كان كذلك عديم التبصر فى ذهابه إلى النقيض ، فهو حين عمد إلى الحط من قدر أثينا والإشادة بمزايا كريت وإسبرطة ، كما تمثلت فى شرائع ليكورغوس البشعة ، حكم بالعجز والقصور على بعض المصادر الرئيسية لصفاته التى تثير الإعجاب ، لأنه سواء أكان المرء يحب أفلاطون أم يمقته — ولى من كلتا العاطفتين نصيب — فإنه لاسبيل إلى الشك فى أمر واحد ، وذلك أن الفرص التى هيأتها أثينا هى وحدها التى كانت تتيح النضج الكامل لمثل هذه العقلية الواسعة الأفق ، الجميلة حتى فى حالات شذوذها ، وحتى فى إصرارها على استخلاص أحكامها المعيبة .

ولقد ظهر ضعف إدراك أفلاطون لدور المدينة الإيجابى فى كتابه الأول « الجمهورية » ، وبقى ملازما تفكيره دون تغيير إلى أن كتب « القوانين » فى شيخوخته ، فجاء على نحو ما تتسم به وصية أخيرة من الإيضاح الممل . وإن هذا ليسترعى مزيدا من الانتباه ، لأنه بدأ تحليله الاجتماعى بوصف مبسط ولكنه صحيح تاريخيا عن الحياة المحدودة النطاق فى المجتمع الزراعى للقرية ، وإن كانت حياة مكتفية بذاتها ، هادئة فى صميمها ، وقائمة على أساس اقتصادى منبثق من احتياجاتها .

ولقد عزا أفلاطون تطور المدينة وما انطوت عليه من روح التنافس

وأغراض عدوانية تنزع إلى الحرب — عزا ذلك إلى الرغبة فى الفوز بأسباب الترف ، وهى الرغبة التى لا توجد فى الريف لكنها توجد فى المدينة المتاخمة ، وتقترن برغبة جامحة متزايدة فى المجد والسيطرة . ومن ثم فإنه لم يقع إطلاقاً فريسة لما لدينا فى الوقت الحاضر من الوهم القائم على غير أساس بأن الحرب إنما تنجم عن مطالبة « من ليس لديهم » بالثروة التى يملكها « من لديهم » . فلقد كان يعرف أن الكبرياء والجشع والإفراط ، وليس الفقر والحسد ، هى السر فى ذلك ، إذا تسنى على الإطلاق تفسير الحرب طبقاً لأحكام العقل .

ولقد لاحظ أفلاطون أنه فى أثناء تطور المجتمع هيأ التفاوت فى الكفاية والمهارة بين أبناء الوطن الواحد أساساً لظهور التخصص المهنى الذى كان يقتضى تبادل التعاون . ولقد صادفهم التوفيق جميعاً حينما قصر صانع الأحذية جهوده على صنع الأحذية ، والحداد على طرق الحديد ، والفلاح على العناية بالمحصولات . ومن واقعة أن الناس بحكم الطبيعة مختلفون ، قفز أفلاطون بدون مبرر إلى الاستنتاج أنهم يجب أن يظلوا كذلك ، بل أن يزيدوا اتساع شقة ما بينهم من اختلافات أصلية بالانقطاع طوال الحياة إلى تخصص فى المهنة .

ولما كان التخصص يضمن الكمال فى أداء الوظيفة ، فإن الإنصاف فى نظر أفلاطون كان يقتضى تدريب كل فرد فى المجتمع على تأدية الوظيفة الخاصة الملائمة لاستعداده الطبيعى ، وإلزامه بالبقاء فى ذلك العمل . ولقد كانت هذه النتيجة تبدو فى نظره محتومة إلى حد أنه لم يكلف نفسه إطلاقا عناء فحصها بعين الناقد ، ومن المحقق أنه لم يدر بخلده مطلقا ما دار بخلد دكتور يونج Jung فى وقتنا الحاضر من أنه قد يكون من الخير لإيجاد حياة أفضل ، النهوض بالوظائف الضعيفة ، وعدم دفع تطور غير متناسق إلى بلوغ نوع أعمق من عدم التناسق الجوهرى : فى نظر أفلاطون لم يكن

وجود الاكتمال والاتزان أمراً ميسوراً فى الأفراد وإنما فى المجتمع فقط . وفى سبيل مصلحة المدينة كان على استعداد للتضحية بحياة المواطن ، بل إنه فى الواقع كان على استعداد لأن يضحى فى شخصية الفرد بالصفات المدهشة التى كانت قد شرعت تنبثق من حياته — وهى التوافق والاعتدال والرزانة والتماثل والتوازن .

ولم يكن أفلاطون يستطيع من الوجهة النظرية أن يتصور إمكان بلوغ الكمال دون بذل مثل هذه التضحية ، بل إنه لم يكن متحرراً فى تفكيره بحيث يسائل نفسه عما إذا كان الكمال الذى ينشده هو فى الواقع سمة حياة عضوية . وذلك أن صورة المدينة التى أخذت بلبه كانت صورة هندسية محضة ، وعلى الرغم من أنه فى وصوله إليها حاول أن يتحرر بمنطقه من وقائع التاريخ ، إلا أنه فى حقيقة الأمر كان يتشبث بالنموذج الأصلى للوعاء التاريخى . وفى إحدى النقرات القليلة التى يعرض فيها ما يقرب من صورة حية ملموسة للمدينة ، وذلك عند وصفه إنشاء مدينة أتلانتيس ، يتضح بجلاء أن مثله الأعلى مستمد من الماضى .

وإذا كان بريكليس قد تجاوز المدى فى عبادة المدينة الحية التى كان الانحلال قد أخذ يدب إليها ، فإن أفلاطون قد عبد مدينة ولدت ميتة فى ذهنه . والصورة المحنطة للمدينة الثانية لم تكن خيراً من الفساد المستشرى فى الأولى ، ولا جدال فى أن عالم الفن ، عالم التماثيل الملونة والمبانى الثابتة ، يحظى بقدر من الكمال لا يستطيع أن يدركه أى كائن حى . بيد أنه يتوافر للكائن الحى من الإمكانيات العديدة ما لا يمكن أن يتوافر لأى عمل من أعمال الفن ، كالقدرة على إنسال مخلوقات بشرية أخرى وعلى إنتاج أعمال فنية أخرى .

أما تشبث أفلاطون بمبدأ الكمال فى أداء الوظيفة عن طريق تقسيم العمل وتوزيع الواجبات الاجتماعية ، فإنه ينطوى على إنكار كل ما عساه أن يكون

قد تعلمه من أثينا القرن الخامس . ولقد عمد أفلاطون على نحو فريد من الغفلة إلى جعل سقراط يتغنى بمديح نظام اجتماعى « مثالى » . ولسوء الحظ أنه كان من شأن هذا النظام الاجتماعى أن يحول دون ظهور سقراط فى عالم الوجود ! فلو أن مذهب أفلاطون فى شئون الاجتماع كان على صواب ، لوجب على سقراط منذ شرع يتدرب لاحتراف النحت أن يبقى نحاتاً طوال حياته ، ولوجب عليه فضلا عن ذلك أن يحول ممارسته الجندية فى الفترة التى قضاها فى الخدمة العسكرية العاملة بوصفه مواطناً جندياً إلى حرفة بديلة يزاولها مدى الحياة لعدم تدربه منذ صباه على أى عمل سواها ، ولوجب عليه أخيراً ألا يجرؤ على منازلة خبرة عقول عصره فى أصول التربية ، وهو مجال يختلف كل الاختلاف عن مجال النحات .

وإذا أخذنا بتحليل سقراط نفسه ، فإن درايته بالنحت كانت كل ما لديه من دراية صحيحة ، وهذه كانت لا تخوله الحق حتى فى توجيه الأسئلة عن أى شأن آخر من شئون الناس . وإن سبيل الاختيار لسهل واضح ، فإما أن سقراط يقف أمامنا مُداناً بأنه ناقض نفسه وسفه آراءه بموجب ما جاء على لسانه هو نفسه ، وإما أن أفلاطون ذاته قد فند آراءه تفنيداً تاماً ذلك المثال الحى الذى ضربه أستاذه — وهو لحسن الحظ على طرفى نقيض من تصورات أفلاطون العتيقة . فما كانت حكمة سقراط لتجد سبيلا على الإطلاق إلى الإفصاح عنها لو أنه أمضى حياته طبقا لفلسفة أفلاطون .

وعندما أدار أفلاطون ظهره إلى ما فى أثينا من الاضطراب وسوء النظام ليعيد تنظيم الوظائف الاجتماعية فى المدينة على أساس نموذج بدائى عفى عليه الزمن ، أدار ظهره كذلك ، لسوء الحظ ، إلى الحياة الأساسية فى المدينة بما لها من قدرة على تهجين الأضداد ومزجها والتوفيق بينها ، وعلى خلق تراكيب جديدة ، واستحداث أهداف جديدة لم ينشدها من قبل تكوينها المتحجر . وجملة القول أنه نبذ احتمال التسامى على نزعات الأجناس

والطبقات ، والتغلب على قصور التخصص المهنى - وهو احتمال غير منقطع الصلة بما كان أفلاطون خليقاً أن يعتبره اضطراباً لا يمكن السماح به ، ولم يجد سبيلا إلى الربط بين مختلف الشعب التى انقسم إليها الناس إلا بتجميد تلك الأوضاع فى أجزاء ثابتة فى المدينة ، بحيث تكون مقابلة لها فى العدد وفى التنوع وفى تفاوت المرتبة .

ولقد بلغ من تدقيق أفلاطون فى التفرقة بين الطبقات فى مدينته المثالية - الفلاسفة والمحاربين والصناع والزراع - أنه عاد إلى نظام مجتمع الحشرات تنحصر محاولاته لملاءمة الظروف الاجتماعية فى نطاق محتوم من التكوين البيولوجى الذى بقى دون تغيير طوال ملايين من السنين. ويبدو أن ما لم يخطر بباله، هو أن هذه الجنة الهندسية قد تتحول بحكم الإمكانيات المكبوتة إلى جهنم واقعية .

ولقد نجا الجنس البشرى إلى الآن من حلم أفلاطون بسبب وهنه وافتقاره إلى الوسائل التقنية . بيد أننا اليوم ونحن نملك الوسائل لتحقيق مطمع أفلاطون ، وإن كنا لم نسبر بعد غور ما يترتب عليه من النتائج الوخيمة ، يجدر بنا أن نقف ونتأمل المستقبل . فالنهاية ماثلة أمامنا ، إذا واصلنا السير فى العلوم وفنون الصناعة طبقاً للخطة التى نتبعها اليوم دون أن نغير اتجاهنا ، ونقلل سرعتنا ، ونعيد توجيه إمكانياتنا نحو خدمة أغراض إنسانية أولى وأحق ، فإن وسائل السيطرة والاتصال Cybernetics[1] والطب العقلى والتلقيح الصناعى والجراحة والعلاج بالعقاقير الكيماوية ، قد هيأت للحكام القدرة على خلق أفراد يتصرفون آلياً فى طاعة وخضوع تلبية لتوجيهات مركز

---

(١) جاء فى دائرة المعارف الأمريكية أن Cybernetics هو علم وسائل السيطرة والاتصال عند الإنسان والحيوان . وقد نشر هذا العلم والاصطلاح الذى أطلق عليه العالم الرياضى فاينر بكتاب أصدره فى عام ١٩٤٨ وسماه Cybernetics . ويتناول هذا العلم فكرة أنظمة شبكة الأعصاب فى الإنسان وفى الحيوان وفى الآلات الحاسبة الإلكترونية ، وكذلك أنظمة السيطرة الأوتوماتيكية بالآلات

بعيد للسيطرة ، لم يترك لهم من نشاط العقل إلا ما يكفى للقيام بعمل الآلة عندما تبلغ تكاليفها حداً يحول دون استخدامها . والاسم المهذب لهذا المخلوق هو : « رجل الفضاء » ولكن التعبير الصحيح هو « رجل فقد عقله » ؛

وإن قرنا آخر على شاكلة هذا التقدم قد يعود على الجنس البشرى بأضرار لا يمكن إصلاحها . وبدلا من أن نعمد إلى إيجاد بيئة أكثر فاعلية من المدينة القديمة لإنتاج أقصى عدد من إمكانيات البشر وأكبر قدر من الترابط القيم ، فليس من شأن أساليبنا الحالية إلا تسوية وجوه الاختلاف وإنقاص الإمكانيات البشرية لإيجاد حالة من عدم الوعى المتجرد من العقل بحيث يصبح أداء معظم الأعمال التى كانت من خصائص الإنسان وقفا على الآلات وحدها . وحتى إذا لم تستخدم الأسلحة الذرية والبكتيريولوجية الحزبية التى تهدد البشرية الآن بالإبادة الشاملة ، فإن مصير الرجل التاريخى ، الذى يعيش فى زمن الثقافة ورحابها ، ويتذكر الأحداث ويتوقعها ، ويملك حرية الاختيار ، فإن مصير هذا الرجل الزوال .

٥ — التحدى فى الجدل الصورى لدى الإغريق

ويمكن تشبيه مدينة أفلاطون بسجن تحوطه الأسوار ولا مكان فى ساحته لمزاولة ما فى المدينة من وجوه النشاط الحقيقية ، ومع ذلك فإن أفلاطون صحح أكثر من مرة مقدماته الركيكة واستنتاجاته الساذجة ، فإن الاعتراضات التى كان المتجادلون مع سقراط يبدونها فى عنف ، بل إن التجاء أفلاطون إلى طريقة الحوار لعرض آرائه ، كان فى ذاته نوعا من الاعتراف بما كان لدى أفلاطون نفسه من تحفظات ، وإن كان منطقه الصارم قد جعله مرارا يتخطى نطاق الحكمة لإحراز انتصارات لفظية رخيصة ماكرة . وهل هناك مثلا ما هو أكثر لغوا مما أورده على لسان سقراط لإثبات أن زعماء أثينا

السياسيين فى الماضى لم تكن لهم دراية بحملهم ، وذلك لأنهم بحكم صفتهم كانوا رعاة الناس ، فإذا انقلب عليهم القطيع ، أو إذا عضت أيديهم الكلاب التى قاموا بتدريبها ، كان ذلك دليلا على فشلهم فى الحكم ؟

لقد كان كل ما أثبتته هذه الحجة هو عجز أفلاطون عن فهم طباع الناس ، وهو عجز بلغ من بعد الغور ما يبلغه اليوم عجز السلوكيين من علماء النفس أصحاب الآراء العتيقة . فهم كذلك على يقين من أنهم يعرفون كيف يهيئون أحوال الناس ، والفارق النفسانى بين الناس والكلاب . وبين الزعماء السياسيين ومدربى الكلاب ، إنما هو بالذات الذى يحيل عاجلا أو آجلا كل نظام استبدادى لتهيئة أحوال الناس إلى مهزلة وهو ما قد أخذ يدركه الآن بعض زعماء روسيا الشيوعية مع ما يوجد تحت إمرتهم من موارد تفوق كثيراً ما كان لدى الأوصياء عند أفلاطون . وحقيقة الأمر هى أن الطاعة العمياء لا تتلاءم مع تقدم الإنسان ، ولا حتى مع وجوده إذا طال بها الأمد فالحرية فى التوجيه الذاتى لازمة للتقدم على الرغم مما يجلبه ذلك من احتمال الوقوع فى الخطيئة والخطأ والجريمة والقصور والفشل ، لكن هذا هو الثمن الذى لا مناص للأحياء من دفعه لتحطيم الأغلال المدنيـــة التى من شأنها أن تبقيهم فى حالة من التخلف تجعلهم مأمونى الجانب ، تسهل قيادتهم وتكييفهم .

وهنا أيضاً عارض عقـــل أفلاطون اللماح نظرياته الصلبة وعواطفه العتيقة ، إذ كان يدرك أن خيار الناس قد يوجدون فى أى مكان . وفى الواقع لقد لاحظ فى شيخوخته أنه « يوجد دائماً بين الناس عدد قليل من الملهمين الذين لا تقدر معرفتهم بثمن ، وهم يظهرون فى المدن الوفيرة النظام والمدن القليلة النظام سواء بسواء . ولو أن أفلاطون مضى إلى أبعد من ذلك فى تتبع ملاحظته لاستطاع أن يكشف عن ديناميات النضج الصحيح ، وأن يكشف معها عن أخلاق أقوى من الأخلاق القائمة على أساس توزيع مهام الناس توزيعا ثابتا لا يقبل التحوير .

لقد أخطأ أفلاطون فى تصوره الاتجاهات المثالية أهدافا واقعية ، فالخير والشر فى نظره فكرتان خالدتان ، فهما لاتتبدلان وتبقيان أبدا إحداهما بمعزل عن الأخرى ، لأنهما متى استقرتا انتفى الداعى إلى تغيير حالهما على الإطلاق . وقد اقترح إزالة الشر والإبقاء على الخير عن طريق القوانين الحكيمة ، والرقابة الدقيقة ، والنظام الحازم ، ووسائل التحكم الاستبدادية التى تحجبها السرية . ولكنه لم يدرك أن ذات الوسائل التى وقع عليها اختياره سوف يكون من شأنها أن تحقق عكس ما ينشده . وأن ما غرب عن فهمه أكثر من ذلك هو أنه على الرغم من أن الخير والشر نقطتان ثابتتان على لوحة البوصلة الأخلاقية فإن تيارات الحياة كثيراً ما تعكس وضعهما الأصلى ، فكما يقول إيمرسون « سوف يكون الشر بركة ونعمة وسوف يكون الخير ناراً محرقة » وذلك أن فرط التشدد فى اتباع السبيل السوى قد يتحول إلى شر فرط الصلابة يقيم حائلا دون المزيد من التقدم، على حين أننا إذا نحينا التزمت جانبا ومضينا فى طريقنا فإننا عندما نتبين الخطأ والأذى ونقاومهما قد يمدنا التراجع ذاته بقوة تدفعنا إلى الأمام .

ولقد حاول أفلاطون أن يصب الحياة فى قالب أعده لها ، كما لو كان صانعا أعد القوالب لصب الأزرار ، فالذهبية منها فى قالب ، والبرونزية فى قالب ثان ، والمصنوعة قاعدتها من الرصاص فى قالب ثالث ، ولم يكن على شىء من صفات البستانى أو العالم البيولوجى الذى يقوم بالتجارب ، فينتقى البذور ويقوم بغرسها فى التربة الصالحة ، ويعنى بتعريض النبات للشمس والهواء على نحو صحيح ، فإزالة الأعشاب الضارة من حوله وإحاطته بما يقيه من التقلبات الجوية ، ويزوده بعناصر الغذاء التى قد يفتقر إليها ، وبالإيجاز يتعاون مع الطبيعة أثناء محاولته تحسين مظاهرها البرية وإعدادها لاستهلاك الإنسان — ولا يبحث عن الكمال فى بديل آلى يتم تكوينه بطريقة تعسفية .

وإن أفلاطون لم يقدر حق التقدير قيمة العوامل الحيوية التى تحفز إلى النمو وتستثيره ، كالتنوع وسوء النظام والصراع والتوتر والضعف ، بل حتى الفشل الوقتى . فكل عامل من هذه العوامل إذا لم يبلغ من الصلابة حدا يستحيل معه إلى وضع ثابت ، فإنه قد ينشأ عنه مجتمع أحب إلى النفس من أى شكل من أشكال التطابق ، سواء أفرض ذلك التطابق رجال غير مثقفين يتولون أمر إحدى الإدارات الحكومية الحديثة ، أم مؤسسة للأعمال تعاونها آلات حاسبة إلكترونية ، أم أعظم كاتب ومفكر عاونت أثينا على ظهوره ؟ وهذه المقابلة فى الجدل الصورى بين الخير والشر ليست كل ما فى الحياة — وأماناً يا أتباع زورواستر وماركس ! — فهناك ما لا صلة له بذلك من عمليات النضج والتغير الفسيولوجى وعمليات الانهيار والانفجار النفسانى . بيد أن الإغضاء عن مكانة الجدل الصورى فى المدينة الإغريقية هو بمثابة الإغضاء عن الوظيفة الأساسية للمدينة ، وهى العمل على زيادة شعور الإنسان بأحداث الحياة نفسها ، لأنه نتيجة لوقوع تلك الأحداث ، يتكشف الوجود عن معان جديدة لا يوفرها أى تحليل عابر أو إحصائيات متكررة .

وفيما بين القرنين السادس والرابع ألفت المدن الإغريقية نفسها فى خضم الصراع مع مشكلتين عويصتين : الأولى محاولة لبيان حدود القانون والعدالة والمساعدة المتبادلة حيال مطالب البيت والأهل ، والثانية — وهى ليست منقطعة الصلة بالأولى — محاولة لتحرير الفكر من التصورات الوحشية اللاشعورية عن طريق المنطق والرياضيات وقواعد الأخلاق المطابقة لأحكام العقل . وكما نرى بوضوح فى المسرحيات التراجيدية ، كان الإغريق يسعون إلى القضاء على تقديم القرابين البشرية والثأر للدم والفجور الجنسى ، بل على ما يقابلها من العادات المتمدنة التى تفوقها شذوذاً . فقد كانوا يهدفون بشجاعة إلى أن يمحوا من معتقداتهم وجود الأفعى المفترسة والساتير

satyr[1] المشقوق الظلف ، على حين أنهم كانوا مع ذلك يسلمون بأن الحياة تتأثر بعوامل خفية يتعارض مجراها مع أحكام العقل والإرادة الواعية ، فالأقدار وإلهات الانتقام والحظ الأعمى قد تذل الأخيار وتعز الأشرار .

ولكن فلنلق بالنا إلى أن الحدث الوحيد الذى أدخله أفلاطون فى الاعتبار ، سواء فى كتاب « الجمهورية » أو فى كتاب « القوانين » ، كان الحرب . وقد قرن هذا التسامح المفرط بأن أعاد إلى الحياة الأساسية للطبقة الحاكمة أقدم أنظمة القلعة ، وهى الحرب ذاتها ، لا بوصفها مباراة تقليدية بل صراعاً مميتاً مع المدن الأخرى غايته القضاء عليها . وعلى الرغم من أن مفهومه للمدينة المثالية كان سداه ولحمته مدينة تنأى عن غيرها بحياتها ، فإنه فى أثناء الحرب فقط كان فى وسع أفلاطون أن يحلم بإقامة وحدة أو اتحاد فيلبرالى بين المدن الإغريقية ، وهنا أيضاً كانت مقدماته ضعيفة واهية .

ونأتى أخيراً إلى التكوين المادى لمدينة أفلاطون التى لا يمكن الكلام عنها إلا قليلا بسبب قلة ما كتب عنها ، فعلى الرغم من أن « محاوراته » مفعمة بكل أنواع الصور الحية المستمدة من الحياة اليومية ، فإن الصورة التى تخيلها للمدينة ذاتها تفتقر إلى كيان معمارى ، فهو عندما يصف مدينة أتلانتيس القديمة لا يقوم فى الواقع بوصف المدينة الأفلاطونية ، بل المدينة الهيلينيسية الجديدة بحدائقها ، ودور الجيمنازيوم ، وحلبات السباق ، ومياهها الساخنة والباردة ، وقنواتها ، وقصرها الملكى المجاور لمسكن الإله ، والقلعة التى تحرسها المياه ، والمدينة ذاتها يحيط بها سور ، وأما مدينته هو فلا مطمع لها فى مثل هذه المعدات الضخمة ، وهذا الاتساع الكبير ، فالشروط الأساسية فيها هى أنها يجب أن تكون صغيرة ، منعزلة ، مكتفية بنفسها ، مضطجعة

---

(١) كانت الساتيرز تعتبر أرواح الحياة المتوحشة فى الغابات والجبال ورمزاً للشهوانية وتصور عادة على هيئة إنسان له شعر كالشوك وقرنان فى قمة رأسه وأذنان مدببتان كآذان الماعز أو الخيل ، وذيل كذيول هذه الحيوانات .

فى أحضان واد منيع على غرار المدن الإغريقية الأخرى ، وتعيش فى تقشف شديد على ما تنتجه أرضها هى .

وفى كتاب « القوانين » يذهب أفلاطون إلى أبعد من ذلك بقليل ، وإنما فى غموض ، فيقول : « يجب أن تقام المدينة فى وسط الإقليم على قدر الاستطاعة ، ويجب أن نختار مكانا يتوافر فيه ما يلائم قيام مدينة وهو ما يسهل تصوره ووصفه» (ومما يدعو إلى الأسف أنه اعتبر من الأمور المسلم بها عين ما كنا نود معرفته) . . . « ثم نقسم المدينة اثنى عشر قسما ، ونقيم أولا معابد لهستيا وزيوس وأثينا فى موقع سوف نطلق عليه اسم الأكروبول ونحوطه بسور دائرى ، بحيث تنشعب من هذه النقطة خطوط تقسم المدينة المركزية والإقليم . وسوف يراعى إيجاد التساوى بين الأقسام الاثنى عشر باشتراط أن تكون الأقسام ذات التربة الجيدة أصغر فى المساحة من سواها ، وأن تكون الأقسام التى تربتها أقل جودة أكبر فى المساحة . ويكون عدد حصص الأرض ٥٠٤٠ حصة ، تقسم كل منها قسمين ، كما أن كل تخصيص يتألف من قسمين يكون أحدهما أرضاً بالقرب من المدينة والآخر أرضاً على مسافة منها ... ويخصص المواطنون بعد ذلك اثنتى عشرة حصة لاثنى عشر إلها تسمى بأسمائها ويهدون إلى كل إله عدة أجزاء . . . ولسوف يقومون بتوزيع أقسام المدينة الاثنى عشر على نفس المنوال الذى يقسمون به أرض الإقليم ، ويكون لكل رجل مسكنان : أحدهما فى وسط الإقليم ، والآخر فى أطرافه » .

وفيما بعد ذلك يضيف أفلاطون بعض التفاصيل عن مركز الخدمات فى المدينة ، فيقول : « تقام المعابد بحيث تحيط بالأجورا ، وتبنى المدينة بأسرها فوق المرتفعات على هيئة دائرة من أجل أغراض الدفاع ومن أجل النقاء » . وعلى الرغم من أن أفلاطون نبذ فى هذه الفقرة فكرة إقامة سور حول المدينة ، فإنه مما يلفت النظر أنه احتفظ به قبل ذلك حول الحرم المقدس

القديم ، إلا أنه فى النهاية سلم للسور على مضض بمهمة من مهام البلدية ، فهو يقول : « إذا كان لابد للناس من أسوار فإن المنازل الخاصة يجب ترتيبها بحيث تؤلف المدينة بأسرها سوراً واحداً ، فتكون كل منازلها قادرة على الدفاع بفضل تماثلها وتساويها من ناحية الشوارع . ولما كانت المدينة ستتخذ شكل مسكن واحد ، فإن مظهرها سيكون مقبولا ، ولما كان الدفاع عنها سيكون سهلا ، فإن هذا سيكون مدعاة إلى ما لا حد له من الشعور بالطمأنينة .

وجملة القول أن أفلاطون فى كلماته الأخيرة عن المدينة لا يبتعد إلا قليلا جداً عن الصورة الواقعية التقليدية المألوفة من قبل ، وهو عندما يضيف فى النهاية شرطا لا يقتصر على الأجورا فحسب ، بل يتناول « دور الجيمنازيوم وأماكن التعليم والمسارح . . . بحيث تكون جميعاً معدة لاستقبال الطلبة والمتفرجين » نرى أنه على الرغم من اعتراضاته الجوهرية كان كل ما يرمى إليه هو أن يحشر فى نطاق المدينة الأثينية ما عرف عن إسبرطة من نظام وحياة عسكرية .

والنقطة الوحيدة التى يبدو أنها لا تتلاءم مع هذا الهجين الأثينى الإسبرطى هى تحبيذه للاستعمار ، فقد قال إنه ما من شىء يبعث على رقى البشر أكثر من الحرب والاستعمار . وكان وجه اعتراضه الأكبر على التجمع فى مستعمرات ، كما يتجمع النحل فى الخلايا ، هوأن المستعمرات التى تكون على هذا النحو من التجانس ؛ وتنشأ على أساس من الصداقة ووحدة الجنس واللغة والقوانين تكون خليقة بأن تثور على أى شكل من أشكال نظم الحكم يكون مخالفاً لما كان موجوداً فى موطنها الأصلى ـ والمفروض أن ذلك كان عقبة كؤوداً فى نظر مشرع مثالى كأفلاطون ، وفقاً لرأيه فى نفسه ، لأنه كان شديد الرغبة فى أن يضع لمجتمع جديد قوانين وعادات وطقوسا تختلف اختلافا جوهريا عن المألوف . وعلى الرغم من أن أفلاطون كان

يكره شعب أثينا الذى اجترأ على سن قوانين جديدة دون أن يهب عمراً بأكمله لدراستها ، فإنه كان يشارك هذا الشعب فى إيمانه بأن عملية وضع القوانين هى فى ذاتها الوسيلة الرئيسية ـ بجانب التعليم ـ للتقدم الاجتماعى . وقد كان هذا الكره ينطوى على مواصلة ضمنية للعقيدة القديمة التى كان الملوك يعتنقونها .

وكان عدد المواطنين فى « الجمهورية » مقصورا على ٥٠٤٠ فردا ، والمفروض أن هؤلاء كانوا أعضاء طبقة الأوصياء التى يلوح أن الرجال والنساء كانوا يقفون فيها على قدم المساواة كما كان الحال فى إسبرطة . وكان من شأن هذا العدد ألا يسمح إلا بطائفة صغيرة جدا من المحاربين يبلغ عددهم نحو الألف لحماية المدينة التى ليس لها أسوار ، كما كان من شأنه أن يجعل المجموع الكلى للسكان يتراوح على أقصى تقدير فيما بين خمسة وعشرين ألفا وثلاثين ألف نسمة ـ ومن الغريب أنه العدد نفسه الذى وقع عليه فيما بعد اختيار ليوناردو دافنشى وايبنزر هوارد لمدنهما المثالية . ولعل خمسة آلاف مواطن كان أكبر عدد يتسنى لخطيب واحد أن يتكلم إليهم فى مسرح ملائم . بيد أنه فى دولة لا يقوم نظام الحكم فيها على أساس رأى الشعب ، بل تبعا لحكمة طائفة صغيرة من الأوصياء ، يقوم على رأسهم ملك فيلسوف ، ويعملون غالبا فى جو من السرية كالمجرمين ، على نحو ما كان يعمل مجلس العشرة فى مدينة البندقية فى العصور الوسطى ـ فى مثل هذه الدولة يبدو أنه ليست هناك ضرورة لإنقاص عدد السكان إلى الحد اللازم فى حالة اللقاء وجها لوجه ، وإعطاء الأصوات على النحو الديموقراطى . ولعل أفلاطون كان يخشى أن يكون فى وجود عدد أكبر من السكان مزيد من الصعوبة فى السيطرة عليهم سيطرة دقيقة ، ومن المحتمل أنه كان على صواب ، وإن كانت الأعداد الكبيرة تساعد على القمع الاستبدادى ، ومن المحتمل كذلك أن ما حدا بأفلاطون

إلى اقتراح ذلك الرقم كان الرغبة فى تخفيض عدد السكان إلى الحد الذى يسمح بأن يعيشوا على ما يتوافر من القوت محليا ، دون الاعتماد على الغلال الواردة من وراء البحار .

وأما السؤال الذى لم يسأله أفلاطون إطلاقا ، وكان حريا بفيلسوف – وإن لم يكن حريا برجل اقتصادى – أن يوجهه إلى نفسه ، فهو : أى قدر من الحضارة الإغريقية ، مع إنتاجها الهائل فى كل ناحية من نواحى الفن والفكر ، كان يمكن الإبقاء عليه فى مثل هذا المجتمع الصغير المنعزل ؟ وإذا كان أفلاطون قد حدد عدد مواطنى المدينة تحديدا دقيقا ، فإنه لم يبين الوسيلة لإبقائهم فى نطاق ذلك العدد ، وهل يكون ذلك عن طريق الاستعمار ؟ أم بطريق قتل الأطفال والإجهاض ؟ أم بتأخير سن الزواج ؟ أم بطريقة أخرى ؟ بل إن هناك قدرا من الشك حول ما إذا كانت المشاركة فى الزوجات مقصورة على الأوصياء وحدهم أم أن كل السكان كانوا يمارسونها ، ولو أنه يبدو أن دور الحضانة المشتركة أعدت لخدمة جميع الطبقات ولولمجرد إيجاد مجال أوسع لاختيار « أفضل » الأطفال . وأغلب المقترحات الفعلية التى وردت فى كتابى « القوانين » و« الجمهورية » ذات طابع سلبى ، فلاشعراء ولاموسيقى عاطفية ، ولا روابط زوجية ، ولا رعاية أبوية ، ولا سبيل إلى مزاولة أكثر من مهنة واحدة ، ولا ترف ، ولا تعامل مع الأجانب ، فالتقييد والتدقيق والتسلط المطلق كانت قوام مثله الأعلى . وما من مدينة كان يتسنى لها أن تنكمش إلى المدى الذى كان يريده أفلاطون دون أن تفقد كيانها كمدينة ، ولو أنه أتيحت له الفرصة لحوّل الحوار الحضرى إلى الحديث الفردى العقيم الذى تتسم به السلطة الاستبدادية وإن كان أولئك الذين يبدأون بألا يتكلموا إلا مع أنفسهم ينتهون بألا يجدوا ما يقولونه .

ومع ذلك فإن أفلاطون كان على صواب فى رأيه أن النظام الأساسى

للحكم فى المدينة كان فى حاجة إلى إعادة الفحص والتعديل . والغلطة التى كثيرا ما يقع فيها السياسيون من المصلحين ورجال التخطيط ، هى أنهم يعتبرون حالة الحياة فى المدينة من الناحيتين السياسية والاقتصادية أمرا مفروغا منه ، ويحاولون القيام على نحو أفضل بما لعله يجب عدم القيام به على الإطلاق ، بل إنه كان لديه من حسن الإدراك ما جعله يرى أن من شأن التغيير الجوهرى الذى يفكر فيه أن يتم على وجه أيسر فى أعقاب كارثة ، أو عند إنشاء مستعمرة .

ولكيلا تبوء مهام المدينة بالفشل يجب الاعتماد على مبدأ حكم أفضل المواطنين ، لا لمجرد الارتفاع بالمستوى ، بل للتغلب على القوة الغشوم ، قوة السلاح والمال والعدد . وهنا أيضاً كان أفلاطون على صواب ، وإن حاد عن جادة الصواب فى تصوره طبيعة مبدأ حكم أفضل المواطنين بأنه حق فى الحكم لا تمتلكه إلا طبقة أو مهنة . وأما ما كانت الحاجة تدعو إليه فهو تطعيم وظائف الحياة اليومية — حتى أحقرها شأنا — بذوى المواهب الذين يقدرون المسئولية ، ويهبون أنفسهم لأداء ما يعملونه .

إن أتباع أفلاطون الحقيقيين من حيث الروح قد جاءوا بعده بنحو ألف سنة ، وهم الرهبان البنديكتيون . بيد أنه عندما قام بنديكت (Benedict) بإنشاء جنة أحلامهم الرهبانية أوتى من الحكمة ما جعله يقلب كل تعاليم أفلاطون رأسا على عقب ، فاستبدل السلام وعدم المقاومة بالحرب ، وخفف صرامة الحياة اليومية فى الدير وما فيها من انقطاع للتأمل والعبادة بإدخال نظام العمل اليومى ، وبذلك جمع فى شخص كل فرد تبعا لاستعداده كل وظائف الحياة التى بذل أفلاطون كل غاية العناية لفصل بعضها عن البعض الآخر . وفضلا عن ذلك فإن نظام البنديكتيين لم يستمد القوة من العزلة ، بل من تكوين سلسلة من مجتمعات متماثلة تتبادل منتجاتها فى كل أرجاء أوروبا .

وإن المرء لتتولاه الدهشة حيال الغشاوة التى أعمت بصيرة أفلاطون ، فالحضارة الإغريقية كانت قد بلغت فى عصره حداً من التقدم يستوجب تحدى الأوضاع العتيقة التى كانت لا تزال موجودة فى المدينة ، وكان يجب قبل كل شىء مواجهة الرق والاستغلال من جانب واحد وكانت حياتها الاقتصادية قد أصبحت تعتمد عليهما إلى حد كبير . وفى هذا المجال ظهرت بواكير الاستبصار لدى أصحاب العقول الكبيرة فى القرن الخامس ، لكنه لم يكن لأفلاطون نصيب فى إعادة تقويم الطريقة التقليدية للحياة عند الإغريق ، فهو إذ رفض التسليم بما جرى به العرف من أن يمتلك الناس أملاكاً خاصة ، وينهمكوا فى أداء أعمالهم ، حال ازدراؤه الصميم للامتلاك الخاص والانهماك فى العمل دون محاولته تطعيمهما بمبدأ حكم أفضل المواطنين .

وبدلا من رفع المستوى الخلقى للتاجر عمد أفلاطون إلى نبذ التجارة ذاتها ، على أساس أن المواطنين كالأصدقاء ويجب أن يكون كل شىء مشتركاً فيما بينهم — حتى الزوجات . وقد كانت مذاهبه الخلقية كمذاهبه العقلية وقفاً على أفراد الطبقة العليا لا يفيد منها غيرهم ، وأما باقى السكان فكان نصيبهم أن يُدربوا ويكبح جماحهم لكى يصبحوا خاضعين مستسلمين لا يؤذون ، شأنهم شأن الحيوانات الأخرى المستأنسة . وفى منزله المثالى ، لم يكن يرى فائدة لدخول الهواء النقى من الخارج ، وبدلا من ذلك استنبط حجرة بلا نوافذ بحيث يستطيع استخدام مضخة لتزويدها بالهواء الذى تمت تنقيته اصطناعيا تحت إشراف دقيق ، وهو فى هذه الناحية قد سبق بألفين وأربعمائة سنة سخافات طراز معين من العقول الحديثة .

وعلى ذلك فإن أفلاطون بالرغم من أنه كان ميالا إلى استحداث أقصى التغيرات الجوهرية فيما يتعلق بالملكية والعلاقات الزوجية والجنسية والتعليم ، فإنه ترك المنشآت البدائية للقلعة دون مساس بها ، بل إنه فى الواقع وسع

نطاق ما يحتمل أن ينشأ عنها من الضرر . فالاستغلال الاقتصادى والرق والحرب والتخصص فى العمل - طوال الحياة - كل هذا ترك على حاله . فقد كانت مدينة أفلاطون تعتمد فى الحصول على حاجاتها اليومية من القوت والشراب على هذه الأبقار الحلوب المقدسة ، وإن كانت موبوءة . ومما لا يصدق أن أفلاطون على الرغم من تحرره من المعتقدات المبتذلة بفضل المنطق والرياضيات فإنه استمسك بجميع ما كان لدى أهل طبقته من المعتقدات الخرافية ، بما فى ذلك الاعتقاد بأن الحرف اليدوية وضيعة بحكم طبيعتها . ولقد حال هذا الاعتقاد الظالم طويلا دون تقدم العلوم الطبيعية إلى أن تيسر بالنظريات وبالممارسة فى أواخر العصور الوسطى التغلب على هذه الثنوية الكهنوتية .

وإزاء هذه الضروب من الجمود لم تكن لدى أفلاطون أى فكرة عن مكمن الضعف الحقيقى فى المدينة : وهو استقرارها قبل الأوان على هيئة الأوضاع العتيقة للقلعة . وكل ما انتهت إليه جهوده كان محاولة لزيادة تأمين القلعة ذاتها فى وجه زحف المدينة الديموقراطية ، وذلك بأن أعاد إليها احتكارها القديم للدين والعلم والقوة العسكرية التى تظاهرها السرية والمراوغة الشائنة . ويالها من مدينة مثالية حقاً !

الفصل السابع

الحكم المطلق والتحضر في العصر الهيليني

١ — مرحلة أرسطو الانتقالية

كان الانتقال من المدينة الهيلينية إلى الحاضرة الهيلينيسية ، ومن ثم إلى مدينة الإسكندرية الكبرى ، غير مقرون بأى تغييرات فجائية تميزه ، فإن الأنظمة والأوضاع فى المدينة الأخيرة كان قد سبق استحداثها فى المدن التجارية بآسيا الصغرى . وقد كافحت المدينة الهيلينية للإبقاء على وجودها واستعادة القيم التى كانت سبباً فى عظمتها ، فخاضت فى سبيل ذلك غمار قتال مرير طويل دام ، حتى بعد هزيمة ديموستينيس ، إلى أن وضعت روما حداً لهذا الصراع .

ولقد برز كلا مظهرى الحياة الهيلينيسية فى حياة وأعمال صاحب أعظم العقول التى تلقت العلم على يدى أفلاطون ، ونعنى به أرسطو . وكونه قبل الدعوة للشخوص إلى بلاط فيليب ملك مقدونيا وقام بمهمة معلم للشاب الفذ الذى غدا يعرف بالإسكندر الأكبر — ينهض دليلا على أنه كان ابن عصره . ولقد كان اهتمامه بالعلوم الطبيعية معادلا لعنايته بالدراسات الإنسانية ، ومع ذلك فقد ظل كل من المجالين منفصلا إلى حد كبير عن الآخر فى ذهنه ؛ على النحو الذى قدر لهما أن يبقيا عليه طيلة ألفى السنة التالية ، مما عاد عليهما معاً بنتائج يؤسف لها .

بيد أنه على الرغم من أن أرسطو خدم حكام إمبراطورية آخذة فى التوسع ، فإنه لم يتسن له إطلاقاً أن يدرك تمام الإدراك أن تقدم النوع الإنسانى كان يقتضى التوسع ، وكذلك التعمق فى كل نواحى عملية الاختلاط

بين الناس ، ولذلك فإنه لم يتخط مطلقاً التقسيمات الداخلية فى المدينة إلى رقيق وأجانب وتجار ومواطنين ، كما أنه لم يقم بإزالة الحاجز غير المنظور الذى كان يفصل بين الإغريقى وغير الإغريقى .

ومع ذلك فإن أرسطو فى مناقشته أمر المدن المثالية ذهب فى نواح كثيرة إلى مدى أبعد مما ذهب إليه أفلاطون ، فقد كان له من دراسته العلوم الطبيعية ما جعله أكثر استعداداً من أفلاطون لتقبل الحاجة إلى التنوع والكثرة . غير أن الخلافات السياسية بينه وبين أستاذه لم تكن جوهرية إلى الحد الذى كانت تبدو فيه لأصغرهما سناً أو لكثير ممن تولوا تفسير آرائه . ففيما عدا ما أبداه من الحكمة فى رفض المشاركة فى الزوجات ، وبيان وجوه الغموض فى ترتيب الطبقات ، فإنه لم يفعل أكثر من أنه نسق أفكار أفلاطون وجعلها أقرب نوعاً ما إلى الواقع العملى . بل إنه ذهب إلى حد مشاركة أفلاطون ريبته فى التغيير ، لأنه على الرغم من تسليمه بأن التغيرات التى تمت فى الفنون والعلوم الأخرى كانت مفيدة ، كما حدث فى الطب ، وبأنه قد تحققت فعلا تحسينات عديدة بنبذ العادات القديمة الوحشية ، فإنه كان لا يميل إلى التفكير فى إدخال مثل هذه التحسينات فى شئون السياسة .

ومع ذلك ، فإنه نظراً إلى أن فلسفة أرسطو كانت أساساً فلسفة عالم بيولوچى أكثر منها فلسفة عالم رياضى ، فقد أدخل فى مناقشة أمر المدن شيئاً كان ينقص أفلاطون ، وهو إلمام بالتنوع العظيم فى الأجناس ، وتقدير لما فى الحياة ذاتها من مظاهر لا تنتهى للقدرة الخلاقة . وقد اقترن بذلك إدراك طبيعة كل الكائنات العضوية من حيث إنها غائية ، تسعى إلى هدف ، وتعمل على تحقيقها ، وكذلك إدراك مدى الحدود الطبيعية للنمو العادى . ولم يكن المثل الأعلى فى نظر أرسطو أمراً مجرداً عقلياً يفرض بتعنت على المجتمع ، بل إنه كان على الأصح أمرا كامناً فى ذات طبيعة النوع الإنسانى ، ولم يكن فى حاجة إلا إلى إظهاره وتنميته .

ولم يكن أرسطو مقيدا فى تفكيره بنظرية السببية الضيقة النطاق – التى فرضتها على الفكر الحديث نظريات علم الطبيعة فى القرن السابع عشر – فيقصر نطاق كل التغيرات على ما هو خارجى ويمكن مشاهدته . ولقد أدرك ما يحتمل أنه سيدركه ثانية جيل مقبل أن « الغرض » يكمن فى كل العمليات الطبيعية ، ولا يفرضه عليها الإنسان ، وإن كان الغرض كالسببية سواء بسواء لا يحتمل أى تفسير أكثر منه . بيد أنه فى عصره بلغ من غموض طبيعة العملية الغائية ، ومن تجاوزها نطاق وسائل الوصف العلمى ، أنه اضطر إلى استعمال اسم معنوى وهو « الكمال » (entelechy) لوصف عناصر تحديد الشكل ، وبذلك حول عملية يمكن مشاهدتها إلى كيان دخيل لا يمكن مشاهدته . إلا أن اصطلاحات أرسطو الجامدة يجب ألا تحملنا على إغفال الحقائق المألوفة التى تشير إليها . فاستعمال اصطلاح « النظام الآلى » عندما تنشأ الحاجة إلى الاعتراف بعملية غائية ينطوى على إغفال حقيقة أن الآلات ذاتها أمثلة بديعة للغرض .

ولقد وفق أرسطو فى تطبيق الدرس الذى تعلمه من عالم الكائنات الحية على مبتكرات الإنسان كالمدينة ، ونعنى به درس النمو فى نطاق محدود . ففى كل نوع بيولوجى يوجد حد للحجم . ولقد أوضح أن هذا يصدق كذلك على ما يصنعه الإنسان . فالسفينة إذا كانت صغيرة جداً تعذر عليها أن تؤدى مهمة السفينة ، أى أن تحمل المسافرين أو البضائع ، وإذا كانت كبيرة جداً تعذرت قيادتها أو تحريكها . فهناك إذن مدى معين للأحجام يلائم فن الملاحة . وكذلك الحال فيما يتعلق بإنشاء المدن ، فإذا كانت المدينة صغيرة جدا ، فإنها تظل قرية مهما تبلغ من روعة العمارة أو الوضع القانونى . وإذا تجاوزت حدود النمو واستوعبت عددا من الناس أكثر مما تستطيع إسكانهم وإطعامهم وحكمهم وتعليمهم على الوجه الملائم ، فإنها لا تغدو مدينة ، إذ أن ما ينجم من الخلل وسوء النظام يحول دون تأديتها مهام المدينة .

ومن الحق أن أرسطو قد اعترض على الحجم الذى قرره أفلاطون لعدد السكان المواطنين ، لا لأنه كان أقل من أن يهيئ التنوع الكافى ، بل لأنه كان يتطلب « مساحة متسعة اتساع بابل ، أو مدينة أخرى ضخمة ، إذا كان يراد إعالة مثل هذا العدد الكبير من الناس مع بقائهم عاطلين » . ولكن موقف أرسطو بوجه عام ليس أسلم من موقف أفلاطون فحسب ، بل أسلم من موقف أغلب المشتغلين بالتخطيط فى عصرنا الحاضر الذين لم يصلوا بعد إلى تعريف عملى لماهية المدينة ، ولا يدركون أنه لا يمكن المضى فى زيادة حجمها ومساحتها إلى ما لا نهاية دون بلوغ إحدى حالتين : فإما القضاء على المدينة ، وإما استحداث نوع جديد من النظام الحضرى ، على أن يوجد له طراز الحياة الملائم حين تكون على نطاق صغير ، وحين تكون على نطاق كبير .

وإن مجرد الزيادة فى الحجم ليس أكثر دلالة على التحسين ، بل حتى على التلاؤم من دلالة التوسع التقنى على ضمان الحياة الهانئة ، إذ أنه ليس من شأن دينامية النمو — كما هى الحال فى الانتقال من الأسلحة اليدوية إلى القنبلة الهيدروجينية — إلا زيادة نطاق ما يحتمل وقوعه من التدمير .

ومن الواضح أنه كان من السهل على أرسطو أن يحدد تعريفه للحجم تحديداً حاسماً بالالتجاء إلى التحديد الواضح للعيان فى سور المدينة ، بيد أنه تفادى الوقوع فى هذا الفخ . فهو يتساءل : « متى يُعتبر الناس الذين يعيشون فى مكان بعينه مدينة واحدة ؟ ماذا يكون الحد ؟ إنه ليس قطعا سور المدينة ، فإنه يمكن إقامة سور حول البلوبونيز بأسرها . ويمكن القول إن هذا هو شأن بابل — وشأن كل مدينة لها من اتساعها ما يجعلها على الأصح أمة وليست مدينة ، ويقولون إنه مرت ثلاثة أيام على سقوط بابل قبل أن يشعر بذلك شطر من سكانها » . والواقع أن ما يجعل من المدينة وحدة واحدة هو الصالح المشترك فى قيام العدالة ووحدة الهدف ، هدف متابعة الحياة

الهائلة . فمن ناحيتي « الحجم والاتساع يجب أن تكون المدينة بحيث يستطيع السكان أن يعيشوا فى آن واحد عن سعة وفى حدود الاعتدال وهم يستمتعون ببطالتهم » .

ولقد وصل الإغريق إلى هذه النتيجة بالتجربة قبل أرسطو بزمن طويل ، فما من أحد يستطيع أن يجد تعريفاً للمدينة الإغريقية فى أوائل العصر الهيليني خيراً من القول بأنها مجتمع مصمم على أن يبقى صغيراً من أجل صالحه الذاتى . وقد ساعدت الحدود الطبيعية على دفع المواطنين إلى بلوغ هذه النتيجة ، بيد أنه حتى فى حالة المدن التجارية مثل ميليتوس ، وكانت تستطيع أن تواجه مشكلة ازدياد عدد السكان بتوسيع نطاق صادراتها وبشراء الحبوب ، فإنها لم تعمد إلى اتباع هذه الخطة . وذلك لأن الحياة الهانئة ، كما كانوا يفهمونها ويمارسونها ، كانت تعتمد على الألفة وقلة العدد . وعندما كانت المدينة توفد فئة من أبنائها لإنشاء مستعمرة ، يبدو أنها كانت لا تبذل مجهوداً لتوسيع نطاق سلطانها ، سواء من حيث السيطرة على الأراضى أم من حيث السيطرة الاقتصادية ، فهى لم تكن تستهدف إلا إنشاء مدينة تكون أحوالها مماثلة لأحوال المدينة الأم . وأما عن الاختيار بين النمو عن طريق اطراد الزيادة فى الحجم ، وهو ما أصبح غير طبيعى من الناحية الاجتماعية وأدى فى النهاية إلى الانحلال ، وبين النمو عن طريق الاستعمار ، وهو الذى صان التماسك والهدف ، فقد اختار الإغريق الاستعمار — وهو ما فعلته المدن الصغيرة فى نيو إنجلند فى القرن السابع عشر — وذلك لأنهم كانوا قد برعوا فى فن إقامة المدن ، ويا ليتهم كانوا قد نجحوا كذلك فى فن التوحيد بينها . .

وقد أورد أرسطو أسبابا عديدة ، عملية وميتافيزيقية ، لتحديد حجم المدينة ، ولكن الحد النهائى كان ذلك المستمد من التجربة السياسية ، فكما لاحظ « لأنه لدى كل من الحاكمين والمحكومين واجبات عليهم أن يؤدوها . والمهام الخاصة بالحاكم هى أن يصدر الأوامر والأحكام

ولكن إذا أريد أن يتولى المواطنون فى دولة ما تصريف العدالة وتوزيع الوظائف تبعا للمواهب ، فيجب أن يعرفوا أخلاق بعضهم بعضا ، وحيث لاتتوافر لديهم هذه المعرفة يفسد كل من الانتخاب للوظائف والفصل فى الدعاوى القضائية . ومن الواضح أنه عندما يكون عدد السكان كبيرا جدا يتم الانتخاب ويفصل فى القضايا حيثما اتفق ، وهو ما يجب جليا ألا يكون . . . وإذن فإن أفضل حد لعدد سكان مدينة ما ، هو أكبر عدد يكفى لتحقيق أغراض الحياة ، ويمكن الإحاطة به فى نظرة واحدة » .

فى نظرة واحدة ، هنا تتجلى صورة سياسية جميلة لمفهوم الوحدة الحضرية . فبهذه النظرة الجامعة أو الشاملة التى كانت تمكن المواطن من أن يشاهد مدينته بأسرها من فوق الأكروبول بالسهولة التى كان يمكنه أن يتبين بها شكل شخص واحد وخلقه ، هذه النظرة كانت الطابع الإغريقى الجوهرى ، وهى التى كانت تميز المدينة الهيلينية ، مهما يبلغ من سوء نظامها ، عن المدينة الكبرى التى أفرطت فى النمو ، فاتسعت اتساعا لا يحد ، وهى التى ظهرت قبلها فى بلاد ما بين النهرين ، وبعدها فى إيطاليا وإفريقيا وآسيا الصغرى.

ذلك هو القدر السليم الذى أسهم به أرسطو ، بيد أنه فى تحامله الظالم على الصناع والتجار كان يضارع أفلاطون سواء بسواء فى ضيق الأفق ، فعندما عرف أرسطو المدينة بأنها ليست مجرد مجتمع من المخلوقات الحية ، بل إنها مجتمع من الأفراد المتساوين الذين يستهدفون أفضل حياة ممكنة ، تعمد أن يستثنى حياة الصناع والتجار لأن مثل هذه الحياة دنيئة ولا تتفق مع الفضيلة ، بل إن أهل هذه الطبقات كانوا لا يستطيعون أن يتولوا منصبا دينيا « لأنه لا ينبغى أن تتلقى الآلهة التمجيد إلا من المواطنين وحدهم » وأما فكرة أن كل أفراد المجتمع يجب أن يسهموا فى الحياة العملية فى المدينة ،

كما كان جميع الفلاحين يسهمون فى حياة القرية ، فإنها لم تخطر لأرسطو أكثر مما خطرت لأفلاطون ، لاعتقادهما أن الحياة الفاضلة لا يمكن أن تتوافر إلا بين أحضان البطالة النبيلة ، وأن البطالة النبيلة معناها أن شخصا آخر يجب أن يؤدى العمل :

وهذا الحرمان لشطر كبير من سكان المدينة حقوق المواطنة يفسر جزئياً انهيار المدينة الإغريقية ، فالمدينة بإبقائها غالبية سكانها خارج نطاق الحياة السياسية ــ وكانت مجال التمتع بكامل حقوق المواطنة ــ قد منحتهم بذلك ترخيصا للتصرف دون تقدير التبعات . وكان مما يعادل ذلك فى أثره السيىء هو أن هذه الحالة لم تترك لهم ما يشغلهم سوى الانصراف إلى ما يعود عليهم بالنفع الذاتى فى ميدان النشاط الاقتصادى ، كما أنها أحلتهم من أى هدف أو التزام خلقى حتى فى الشئون التى كانوا يستطيعون السيطرة عليها ، ومن ثم فإنها دفعت التجار ، على حد عبارات أفلاطون ، إلى : « السعى وراء الربح المفرط ووضع الناس تحت رحمتهم للإفادة منهم » .

وعلى هذا ، فإن الحركة التى بدأها فى الواقع سقراط وتلميذه الأدنى منزلة انتيسثينيس Antisthenes لفتح الباب إلى أفضل حياة ممكنة حتى أمام الصانع اليدوى وإعطائه أقصى مزايا النمو الروحى ، توقفت فى الفكر كما توقفت فى الفعل . وعلى الرغم من أن أنتيسثينيس مضى قدما إلى حد الشروع فى فتح جيمنازيوم للفقراء (Cynosarges) فإنه لم يكن أمامه مجال للأمل فى إصلاح المدينة بأسرها ، ولا فى رؤية اليوم الذى تتلاقى فيه الطبقات العليا والسفلى على مبدأ مشترك ، يقوم على اشتراكهم فى المصلحة وتساويهم فى الكفاية .

ولحسن الحظ أنه كانت لأرسطو صفة خاصة كانت تعوز أفلاطون ، فقد نقل مبادئه إلى التكوين المادى للمدينة فامتزج هنا القديم مع الحديث ، ولقد عنى بأمر اتجاه المدينة فاشترط أن يكون ملائماً للصحة ، والواقع أننا

نعرف من كسينوفون أن الاتجاه أصبح اعتباراً هاماً ، إذ أنه يصور سقراط وقد حالفه التوفيق بالدعوة إلى أن تتخذ المدينة اتجاهاً صوب الجنوب باعتباره أوفر الاتجاهات مزايا ، وهى حكمة ظل أهل النصف الشمالى من الكرة الأرضية يضلون عنها ويعودون إلى الاهتداء إليها مراراً عديدة طوال آلاف من السنين ، وكان أرسطو يصر كذلك على بيان أهمية توافر العيون والينابيع ، أو فى حالة تعذر ذلك ، على وجود الخزانات والصهاريج لتجميع مياه المطر ، فطبقت هنا أخيراً تعاليم مدرسة أبقراط فى تخطيط المدن عن وعى وإدراك .

وعلى الرغم من أن بعض المدن الإغريقية كانت لا تزال تفخر بأنها لم تكن فى حاجة إلى أسوار ، فإن ذلك كان يبدو فى نظر أرسطو حماقة من الناحية العسكرية . والواقع أنه بلغ من تقديره لضرورة مقاومة الاعتداء ، أنه حاول التوفيق بين الأسلوب الحديث فى تخطيط الشوارع على هيئة مستطيلات ، وبين الطريقة القديمة ، وفيها كانت المبانى تقام بغير نظام ، والشوارع تلتوى تبعاً لخطوط الكنتور أو لاتجاهات الدروب القديمة للسير على الأقدام ، فقد كان تخطيط هذه الدروب يجعل من الصعب على اللصوص الغرباء ، أن يخرجوا من المدينة ، وعلى المهاجرين أن يهتدوا إلى طريق الدخول إليها ، ولعله تذكر التجربة التى مرت بأهل طيبة ، إذ أن ثوكيديديس يروى لنا أنهم عندما تغلغلوا فى بلاتيا Plataea ضلوا الطريق تماماً ، إلى حد أنهم وقعوا فى الأسر بسهولة . ولقد أوضح أرسطو أنه « يجب ألا يتم تخطيط المدينة بأسرها فى خطوط مستقيمة ، بل يقصر ذلك على أحياء ومناطق معينة ، وبهذا يجتمع الجمال والأمان » .

ولقد كان أرسطو محافظا فى أمور أخرى كذلك ، ولذا فإنه كان يريد إقامة الأجورا بوصفها ساحة للسوق بمعزل عن الأجورا بوصفها منتدى سياسياً . وكان يود إقامة هذا المنتدى على غرار ما حدث فى تساليا ، بأن

يكون مقصوراً على الأحرار وأنه يحظر على كل أرباب الحرف والتجار أن يؤموه إلا إذا دعاهم الحكام ، وكان يرى أنه يكون من بواعث الاغتباط أن يؤدى الشيوخ هناك تمريناتهم الرياضية ، وبهذا حاول أن يعيد على الأقل جزءاً من الجيمنازيوم من الضواحى إلى قاب المدينة :

وعلى الرغم من أنه من المفروض أن أرسطو كان يناقش فكرة مدينة مثالية فإنه من الواضح أنه وجد هنا ، كما وجد فى مواضع أخرى ، أن من العسير ألا يعتبر المدينة القديمة ، بما فيها من التفرقة الشديدة بين الطبقات مدينة مثالية : وإن كثيراً مما يبدو فى آرائه وآراء أفلاطون كذلك كأنه مبتكر ليس فى أغلب الأحيان إلا عودة إلى المجتمعات الحضرية الأكثر بدائية فى كريت وإسبرطة وقرطاجة ، على حين أن كثيراً من العمليات والوظائف الاجتماعية ، التى ظهرت فيما بعد ، وكانت تتعارض مع الطراز العسكرى القديم ، كانت تعتبر فى نظر كلا الفيلسوفين بمثابة قاذورات اجتماعية كريهة يجب الإقلال منها ، وإبعادها عن الأنظار بقدر الاستطاعة .

وأما ما قاله لافيدان عن أثر أفلاطون وأرسطو فى تخطيط المدن ونظام البلديات فيما بعد ، فإنى أخشى أن يكون قد جانب الصواب بدافع من الكرم حين يقول « إن هذا الأثر هو إعداد الأذهان لقبول عدد معين من القيود يمليها الصالح الجماعى » بيد أنه فى الواقع لم يدر بخلدهما أن يكونا من دعاة التبرير أو الدعاية للنظام الجديد الذى هيأ شكل المدن الهيلينيسية التى كانت آخذة فى النمو دون مساعدة منهما ودون اكتراث لمعتقداتهما . ولم يكن لدى أفلاطون ولا أرسطو أى إدراك صحيح للفترة السعيدة التى مرت بها أثينا ، وإلى حد ما ، كل المدن الإغريقية الأخرى ، من عهد صولون إلى عهد بريكليس . ولذلك فإن مدنهما المثالية لم توفر الأسباب لضمان استمرار وتقوية هذه القوى الخلاقة ، ولم ترتسم فى مخيلتهما صورة لمدينة أوسع نطاقا بحيث تجمع المذاهب المثالية لكل من كوس ودلفى

وأوليمبيا وتدمجها فيما يوجد فى مجتمع طليق من التشكيلات السمحة . فمدينتهما المثالية كانت لاتزال وعاء صغيرا ثابتا يخضع لإشراف القلعة الصارم ، ولم يكن لها من عماد سوى نظام اقتصادى يقوم على الاكتفاء الذاتى ، وتؤيده — فى نظر أرسطو على الأقل — طبقة متوسطة قوية . وكان مركز الثقل الثقافى فى مثل هذه المدينة يقع فى داخل قاعدتها ، بيد أنه من شأن هذه الأوضاع أن تذبل وتذوى براعم العقول فى المدينة ذاتها .

لقد كان من رأى إيمرسون « أن الأمر يتطلب مجتمعا بأسره للوصول إلى التماثل الذى ننشده » ولكن أرسطو وأفلاطون حاولا إيجاد هذا التماثل فيما هو أقل من نصف مجتمع — لم يصل حتى إلى مدينة كاملة ، بل كان عبارة عن قطاع طبقى تجمد صورة عتيقة . فلا أثينا أوكورنثه ، ولا إسبرطة أو ديلوس ، كانت تستطيع الازدهار وحدها بمعزل من جاراتها . والواقع أنه لم تكن أى مدينة من المدن الإغريقية لتستطيع أن تجسد المثل الأعلى للإغريق فى الحياة دون الاستعانة برجال وآراء وأنظمة لم يكن فى وسع إحداها أن تقصر امتلاكها على نفسها وحدها . وقد كانت أى طبقة بمفردها أشد عجزا عن تحقيق التماثل النبيل الذى كان ينشده هذان الفيلسوفان . ومن ثم فإن المدينة الآخذة فى النمو كانت فى اندفاعها وسوء نظامها وتجاوزها فى تضخمها كل الحدود السابقة أكثر تقديرا للاحتمالات المثالية فى مجتمع حضرى من هذه المشروعات الخيالية ، على الرغم من كل ما تتسم به من الكمال التام .

وهذا العجز عن فهم ديناميات التطور الإنسانى ، بوصفها مفتاح الوضع الحضرى ، لم يتغلب عليه أى تقدم جديد فى العلوم الطبيعية بعد أرسطو ، ففى ظل الحكام الطغاة تكون متابعة العلوم الطبيعية أسلم عاقبة من دراسة المجتمع والطبيعة البشرية . ولقد توقف نمو المدينة الهيلينية بسبب مظهر آخر للضعف ، وهو العجز عن إدراك أن الرقيق وعامل الصناعة

والأجنبي والمتبربر ، أى باقى بنى الإنسان ، كانوا يسهمون فى خدمة الإنسانية . والخبرات التى تخيلها الإغريق وابتدعوها كانت خبرات إنسانية غير مقصورة على الإغريق وحدهم من حيث نشأتها أو وجهتها . وقد كان فى وسع أفلاطون أن يتبين بعد زيارته مصر أن الكهنة المصريين قد ادخروا من أسرار المعرفة ما يفوق كل ما تهيأ له الوصول إليه . والحقيقة هى أن شعوبا أخرى – كاليهود والفرس والبابليين – كان لديها الكثير مما تستطيع تزويد الإغريق به ، وكان ينبغى أن يكون من الميسور التسليم بهذه « الغيرية » ، دون اعتبار من يفعل ذلك مارقا أو خائنا . وكون الإغريق لم يصححوا إطلاقاً خطأ الرق ، وكون بعض من أصحاب أرجح العقول لديهم لم يسعهم حتى التسليم بأنه كان خطأ – ينهض دليلا على مدى السهولة التى كانوا يستسلمون بها أمام العقبات . وعلى مدى قصور مفهومهم لديمقراطية النوع الإنسانى .

والإغريق باتخاذهم من المدينة التى خلقوها وصنعوها بأيديهم إلها لهم ضاعت منهم أعظم هبة إلهية – وهى الدافع والقدرة على التغلب على وجوه النقص الطبيعية ، والمدينة التى كانت كامنة كفكرة لم تتجسد بعد إلا فى فئة قليلة من عظام المواطنين الذين كانوا يستمدون الأسس الجديدة لقوة جاذبيتهم من أوليمبيا ودلفى وكوس ، ولم تتخذ إطلاقاً كيانا سياسياً وماديا أبعد من ذلك أثراً . وفى أثناء الوقت الذى كان فيه شكل تلك المدينة لا يزال مائعاً ، أنجبت رجالا أعلى كعباً وأعظم كفاية ومقدرة ممن تجمعوا إطلاقا من قبل بمثل هذه الكثرة بين مثل هذه القلة من السكان . بيد أنه عند ما حان الوقت للانتقال من مرحلة التصور والتجسد الفردى إلى مرحلة التجسد الجماعى ، عادت المدينة المعجبة بنفسها فاتخذت شكلا قديماً ، رفيع النظام والترتيب موفورة فيه أسباب الصحة والثروة بل رائع الجمال ، وإن كان من حيث المقدرة الخلاقة يهبط إلى حد مؤسف عن مستوى مدينة القرن الخامس وهى فى بدء نشأتها .

وباستثناء العلوم الطبيعية ، والأنظمة الدراسية التى كانت شديدة العناية بالكم ، وإنتاج السلع المادية ، لم يزدهر شيء فى مدينة ما بعد العصر الهيلينى ، فإنه تبعاً لازدياد التنظيم الصناعى ، وازدياد الثروة ، لم تعد الأهداف المثالية للمدينة تجد مجالا للتعبير عنها فى الحياة اليومية : حتى العقل كان يتضور جوعاً ، لا عن نقص فى الغذاء ، بل عن إتخامه بغذاء عقيم لا خير فيه . فقد كانت لدار العلم ودار الكتب الأسبقية على الحياة والتجربة . وحلت النظريات الأكاديمية مكان الاتزان الحيوى الذى اتسمت به الأكاديمية أصلا . وأصبح الجمع والتصنيف المجالين الرئيسين للنشاط الفكرى . وإن الإكثار من إنتاج ألوان المعرفة العقيمة التى كانت لا تعتبر أداة من أدوات الحياة ، بل بديلا عن عمل له جلاله وخطره ، ليأخذ اسمه بحق من اسم العاصمة الكبرى[1] التى شيدها الإسكندر . وقد سما المذهب العلمى الإسكندرى بهذا اللون من المعرفة إلى مرتبة لا تنافسها فيها سوى المنتجات الجوفاء التى تتعهدها المؤسسات التعليمية الكبرى فى وقتنا الحاضر . وهذه المعرفة الأكاديمية العقيمة ، شأنها شأن نوع خطير من الفيروس قتل وخفف بعناية ، وإذا استطعنا أن نحكم بموجب تجاربنا الحالية فلا بد من أنها تحدث فى أحوال كثيرة مناعة تامة ضد التفكير الأصيل ، أو التجارب الجديدة طوال عمر بأكمله . ومع ذلك فكما حدث فى حالة مظاهر أخرى عديدة من مظاهر المدينة الهيلينيسية ، انتقل شيء ذو قيمة ثمينة دائمة – ضرب من الصبر أو الترتيب أو النظام أو المقدرة على التصرف آلياً حيال كميات كبيرة من المواد – عن طريق المسالك الملتوية التى سلكتها الدراسات القديمة إلى المدن التى ظهرت فيما بعد فى أوروبا الغربية .

ولكن التوسع من حيث الكم لم يقتصر على السوق أو دار العلم ، بل إن

---

(١) الإشارة هنا إلى مدينة الإسكندرية فى مصر .

كل جزء فى المدينة مرّ بهذه العملية نفسها . فالشوارع زادت طولا وعرضاً والمبانى زادت حجماً ، كما أن التنظيم الخارجى على وتيرة واحدة صار أكثر وضوحاً إلى حد خانق . وكلما ازداد ظهور الأثر الفعلى لوسائل السيطرة المركزية والخدمات الجليلة التى أدتها الإمبراطوريات الكبرى ، ازداد بوضوح ابتعاد المدينة الإغريقية عن مقدماتها الأصلية ، وعما هو أجل من ذلك شأناً – تلك الآمال الأصلية التى كانت ترتجى منها . وكيفما كانت الحال ، فإن المدينة بعد سنة ٣٠٠ ق . م لم تعد من القوة داخلياً بحيث تستطيع أن تتحدى ، ولو فكرياً ، ما اتسمت به المدينة القديمة من الاضطهاد السياسى والانقسام الطبقى ، والتضحيات المنافية للعقل ، والحروب العقيمة ، وأعمال السلب والتدمير .

٢ — من « سوء النظام » المرن إلى الأنماط المنظمة

أخذت المدن الإغريقية تتطور منذ القرن السابع بطريقتين مختلفتين ، كان أحدهما إلى حد كبير تلقائياً ، غير منتظم ، « عضوياً » ، وذلك فى شبه جزيرة البلقان وجزر بحر إيجة ، وكان الآخر منتظماً نسبياً وشديد التزمت ، وذلك فى مدن أيونيا بآسيا الصغرى . ولقد كانت روح الأكروبول هى التى تسيطر على الطريق الأول ، وروح الأجورا هى التى تسود الطريق الثانى ، فكان أحدهما يتشبث بالمقدسات القديمة ليعود فتغلب عليه قوى داخلية وخارجية لم يكن يدرك كنهها ، ولا يعرف كيف يسيطر عليها . وأما الآخر فقد أوجد نهجاً جديدا للحياة كانت الزراعة تحتل فيه المرتبة الثانية بعد التجارة ، ولكن كليهما كانا معرضين على الدوام للخراب والانهيار بتأثير الحروب والفتوح .

وفى أثناء هذه المرحلة الباكرة للنمو تكرر تدمير المدن الأيونية نتيجة الاعتداء عليها وكذلك تكرر بناؤها من جديد ، وهكذا أعيدت رواية تاريخ

طروادة القديم مراراً وتكراراً . ومن الجائز أن تكون هذه المدن الجديدة قد اتسمت فى أول الأمر بمظاهر كثيرة كانت من رواسب عهد سابق من الحكم العسكرى والدينى ، إلا أن تخطيطها الجديد كان تعبيراً صريحاً عن مجتمع تجارى فى جوهره . ولعل أكبر فيلسوف فى القرن السادس ، وهو طاليس الملطى Thales of Mileıus ، أحد حكماء اليونان السبعة الأصليين ، لعله كان أول من درس الطبيعة دراسة نظامية دون أن يكون تفكيره متأثراً بأى تقاليد دينية ، فكان النموذج الأصيل لعالم الفيزياء . بيد أنه اكتسب إعجاب مواطنيه بوصفه تاجراً فطناً ، وذلك لأنه عندما رأى فى أحد المواسم أن محصول الزيتون خارق فى وفرته ، عمد إلى احتكار المعاصر قبيل أوان الحصاد ، وبهذا أصبح غنياً .

وأسس المدينة الهيلينيسية ، التى ازدهرت فى كل مكان منذ القرن الرابع ، كانت قد وضعت فى آسيا الصغرى فى خلال القرن السادس ، بل ربما فى القرن السابع ، إذ أن المستعمرة التجارية الجديدة ، نقراطيس فى مصر ، اتسم تخطيطها بسمات خاصة من النظام والتناسق . وإذا كان النمو العضوى البطىء لمدن أتيكا يعزى إلى ما فى طبيعة موقعها من عقبات ، وما كانت عليه من الفقر من الناحية الاقتصادية ، فإن التقدم السريع الذى أحرزته مدن الشرق كان لا يرجع فحسب إلى أن الأقاليم الواقعة وراءها كانت أوفر ثروة ، وهو ما كان من شأنه مضاعفة الفرص والموارد الاقتصادية ، بل أيضاً إلى تحويل الاهتمام من الفتوح العسكرية والقرصنة السافرة إلى التجارة ذاتها ، وما فى مزاولتها ومضارباتها من بواعث الإثارة .

ولقد أفضى ذلك إلى ظهور طبقة وسطى ذات يسر ورخاء وتألف من أسباب الراحة والترف ما كانت مدن أتيكا وإيطاليا تفتقر إليه منذ عهد طويل . ولقد انتشر نهج حياة هذه الطبقة حتى أصبح عاماً بعد القرن الرابع فى المدن الإغريقية التى كانت أوفر رخاء من غيرها ، فنجد أن معاصرى

« ميناندر » قد زايلتهم أساليب القرية الخشنة وأصبحوا يطلبون العطور والتحف الفنية الصغيرة ، « مثل تماثيل تناجرا » الدقيقة البديعة الصنع ، وينشدون الأناقة والوفرة فى ألوان الطعام ، ويشهد بذلك ما كتبه أولوس جيليوس Aulus Gellius . فقد كانوا ينشدون من ضروب الترف التافهة ما يعوضهم عن حياة خالية من شواغل السياسة . ولقد أخذوا يفقدون باطراد الرغبة فى الصراع من أجل الحرية ، وكذلك الدوافع التى كان من شأنها أن تجعل لذلك الصراع معنى ، وعمدوا إلى شغل فراغ حياتهم وخواءهم المعنوى ، وما يسودهم من قلق ، بطلب المزيد من السلع التى يستطيع المال شراءها . ولقد انتهى الأمر بمن كانوا على قدر كبير من الرخاء والبطالة إلى إصابتهم بالأرق ، لأسباب كانت واضحة جلية حتى فى نظر أحد المعاصرين من مؤلفى المسرحيات ، فهو يقول : « الأرق ؟ لا عجب فى ذلك وإليك السبب : ما هو نظام حياتك ؟ أنت تقوم بجولة حول السوق ، وتعود متعباً منهوك القوى ، ثم تستمتع بحمام ساخن لطيف ، وتتناول الطعام حينما تشعر برغبة فى الأكل . أما النوم ؟ إن حياتك كلها نوم » . وقد كان فى هذا صورة جديدة لأفضل حياة ممكنة ، وكان الإغريق أقل ألفة بهذه الصورة من أولئك الذين يعيشون اليوم فى أمريكا ويغريهم بالنوم نظام اقتصادى أساسه وفرة أسيء توجيهها .

بيد أنه فى القرن السادس لم يكن قد تم تركيب هذا القفص المذهب من الرخاء التجارى ، وكانت قضبانه لا تزال تخطف الأبصار لأنه لم يكن قد أحكم إغلاقه بعد . وحوالى القرن السابع أخذ الناس فى أيونيا يتداولون اختراعين جديدين ، وكان أحدهما العملة المسكوكة ، ويحتمل أنها أخذت عن آشور أو ليديا ، وكان الآخر حروف الهجاء المكتوبة . ولقد كانت تلك الصور الأنيقة للأرقام والكتابة بمثابة أدوات رئيسية للعقل ، ولو أنها تطورت فى البداية بوصفها رموزاً ضرورية فى التجارة مع الجهات النائية وفى الحسابات التجارية .

ومدن أيونيا – حتى بصرف النظر عن استعدادها للتجارة – لابد من أن تكون قد تأثرت ، ولو عن طريق غير مباشر ، بما تخلف من تراث البلديات فى إمبراطوريات الحيثيين والآشوريين والبابليين – ولا داعى لذكر كريت – قبل أن يبنى الميديون والفرس قوتهم . والواقع أن الطراز الجديد للتخطيط ، الذى ظهر فى هذه المنطقة ، كان الطراز القديم الذى نجده فى بلاد ما بين النهرين . ولما كان من الخطأ أن ننسب هـــذا التخطيط إلى هيبوداموس ، فإنى سأقتدى برولاند مارتين وأدعوه « ملطياً » (ميليسيا) نسبة إلى ملطية (ميليتوس) فقد كانت المركز الرئيسى لنشأته .

وإنه ليجب علينا أن نربط بين هذا الطراز الملطى فى التخطيط ، واتباع نسق جديد من الانتظام والترتيب فى الشئون التجارية . ولم يكن هذا الطراز مقصوراً بحال من الأحوال على آسيا الصغرى ، وذلك لأن كرينى Cryne ، التى أنشئت فى ليديا فيما بين سنتى ٦٣٠ و ٦٢٤ ، كانت توجد بها شوارع مستقيمة تتقاطع عمودياً مع بعضها بعضاً ، على حين أننا نجد فعلا فى نابولى وبايستوم – وكانتا من المستعمرات الإغريقية التى أنشئت فى إيطاليا فى القرن السادس – تخطيطاً كاملا على نسق رقعة الشطرنج ، ولقد أفضى هذا الطراز الملطى للتخطيط إلى ظهور عنصرين آخرين ، على نحو يكاد يكون تلقائياً ، وهما شوارع ذات عرض واحد ، ووحدات مستطيلة الشكل ذات أبعاد واحدة تقريباً . وكانت المدينة ذاتها تتألف من أمثال هذه الوحدات التى أصبحت قياساً نموذجياً ، ولذلك فإن الساحات الطلقة المستطيلة ، التى كانت تستخدم بمثابة أجورا أو تقام عليها المعابد ، كانت بدورها مجرد وحدات خالية . وإذا اعترض تطبيق هذا النظام الدقيق وجود تل أو خليج مقوس ، فإنه كان لا يبذل أى مجهود لملاءمة هذا الوضع بإدخال تغيير على طراز النظام . وقد صاحب هذا التخطيط إيضاح الوظائف ومراعاة أسباب الراحة ، ولذلك انتقلت الأجورا ناحية الشاطئ لتكون على مقربة من مخازن البضائع والسفن القادمة من الخارج .

وعندما استقر النظام الهندسى فى التخطيط العام للمدينة ، لم يلبث أن تغلغل كذلك فى أفكارها المعمارية ، فجاء من ملطية – وربما كان ذلك عن طريق أعمال هيبوداموس – الطراز الجديد للأجورا ، وكان يتكون من شكل مستطيل يحوطه من ثلاث نواح على الأقل سور من الحوانيت : ولم يكن من السهل تنفيذ ذلك التخطيط الهندسى فى المواقع التى كانت طبيعة أرضها غير منتظمة ، بيد أنه كانت له ميزة أكسبته سرعة الانتشار فى القرن السادس وجعلته عاماً مرة أخرى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وذلك أنه كان يوفر وسيلة سهلة وعادلة لتقسيم الأرض فى مدينة جديدة أنشئت بالاستعمار .

ولا ينتمى هذا التخطيط إلى عصر خاص أو حضارة خاصة ، فإنه إذا كان مهندسو الإسكندر الأكبر قد استخدموه فى المدن السبعين التى أسسها ، فكذلك استخدمه الرومان فى المستعمرات التى أنشأوها لقدماء رجال الجيش ، بل إنه كان فى الواقع الأساس الذى اتبعوه فى إقامة معسكراتهم المؤقتة . ولقد استخدم هذا التخطيط فيما بعد فى إقامة مدن الحاميات (bastides) فى جنوب فرنسا فى القرن الرابع عشر بعد الميلاد ، وفى إيرلندا فى القرن السابع عشر . وفضلا عن ذلك فإن الإسبانيين أنشأوا مدنهم الاستعمارية فى العالم الجديد على أساس التخطيط الشبكى الذى يتوسطه ميدان خال . وأخيراً فإن هذا الطراز نفسه ، الذى كان مستخدماً فى أوروبا الغربية لمدة تزيد على ألفى سنة ، أصبح أساس تخطيط المدن وتوسيعها فى أمريكا الشمالية منذ إنشاء فيلادلفيا ونيوهافن وسافانا . وفى الواقع لقد كان التخطيط الشبكى المعتاد جزءاً أساسياً من المعدات التى كان المستعمرون يحضرونها معهم لاستخدامها فور وصولهم ، وذلك لأنه لم يكن لديهم متسع من الوقت لدراسة طبيعة الأرض أو استكشاف مزايا المواقع ، فبتبسيط نظام المكان كانوا يكفلون توزيع أراضى البناء توزيعاً سريعاً ، وبمساحات متساوية تقريباً :

وموطن الضعف نفسه فى التخطيط الملطى – وهو عدم الاكتراث بما فى الأرض من مناسيب متماثلة أو مختلفة بسبب ما فيها من ينابيع وأنهار وشواطئ وغياض – هذا ذاته لم يكن من شأنه إلا أن يجعل هذا التخطيط أكثر مدعاة إلى الإعجاب بتوفيره أدنى قسط من النظام فى موقع لم يكن يتهيأ فيه للمستعمرين من الوسائل ما يمكنهم من استغلاله على أتم وجه ، قبل انقضاء مدة طويلة . ففى أقصر مدة ممكنة كان يتم الإشراف على كل شىء . ولم يكن من شأن هذا الحد الأدنى من النظام أن يكفل المساواة بين الجميع فحسب ، بل إنه فوق كل شىء كان يجعل الغرباء يشعرون بالألفة كأقدم السكان سواء بسواء . وإن سهولة التعرف على الطريق والمعالم لمزية لا يستهان بها فى مدينة تجارية تزخر على الدوام بالبحارة والتجار الأجانب ، فلا عجب أنه حتى أثينا المحافظة ، عندما أرادت أن تعيد بناء مينائها ، استدعت هيبوداموس لتشييده على نمط التخطيط الملطى .

ولقد كان هذا كله أكثر من تمرين نظرى فى المساحة أو التخطيط ، إلا أنه كان يوجد هنا ارتباط وثيق بين الآراء النظرية والتجارب العملية ، وذلك لأنه فضلا عن المعالم العامة ، فإن تحديد أماكن الأجورا والمرافئ ومخازن البضائع كان يتطلب دراية المتمرسين بذلك ، وعندما كانت تعرض على مجلس المدينة شئون تستدعى الفصل فى هذه النواحى ، فإن المجلس كان ينتقل إلى الشاطئ ويبت فى الأمر على الطبيعة . وفضلا عن ذلك فإنه باتباع عادة تخطيط المدينة كلها كوحدة على هذا النهج ، كانت المدن الإغريقية الجديدة – حتى أقلها شأناً – تزود منذ البداية بمساحات عامة مناسبة لإقامة المنشآت العامة ، وكان وضعها فى داخل إطار التخطيط الشبكى يحول دون اطراد التناسق الممل الذى ينشأ عن نوع واحد من الوحدات يتكرر إلى ما لا نهاية . ولم يكن اطراد التناسق فى التخطيط ذاته ، بل إن ما حدث فيما بعد من اختفاء هذا التنويع فى وظائف الوحدات

وما ينطوى عليه من إبراز طابعها ، هو الذى خلع على التخطيط المستطيل الشكل فى القرن التاسع عشر مثل تلك السمعة السيئة دون ما داع .

ولقد كانت للنظام الهندسى الذى جاء به التخطيط الملطى فائدة أخرى أكثر من ذلك ، وهى تقسيم المدينة إلى مناطق جوار محددة ، أو على الأقل إعطاء ذلك التحديد خطوطاً واضحة تراها العين . وفى التخطيط الجديد لمدينة ثوريوم Thurium (سنة ٤٤٣ ق . م) — التى أنشئت بمعاونة بريكليس كمظهر لروح الإخاء بين الهيلينيين قاطبة بقصد استرضاء الجماعات التى أجحفت بها أثينا — فى ذلك التخطيط سبق الأثر الملطى العادة الهيلينيسية التى ظهرت فى عهد تال وكانت أوسع انتشاراً . ولقد كانت تخترق ثوريوم طولا أربعة شوارع ، وعرضاً ثلاثة شوارع ، فتقسمها إلى عشرة أحياء أو وحدات ضخمة ، خصصت كل وحدة منها لإحدى القبائل التى كان يتألف منها سكانها ، كما خصصت إحداها لأهل سيباريس Sybaris القدامى الذين أنشئت المدينة من أجلهم — إذ كانت كروتون Croton قد هدمت مدينتهم فى عام ٥١٠ — وخصصت وحدة أخرى للمبانى العامة .

وبهذه المناسبة ، هذا على ما أعتقد أول مثل فى التاريخ لإنشاء وحدة جوار عن عمد وتدبير سابق ، ولو أن الأدلة متوافرة لإثبات أن وحدات الجوار الطبيعية ، التى نشأت حول الهياكل أو المعابد ، قد وجدت منذ أقدم العصور . بيد أن هذا المثال ينطوى على عرض سيئ إلى حد ما لهذا المبدأ ، نظرا إلى أنه ، كما حدث فى تقسيم نقراطيس من قبل إلى حى إغريقى وحى مصرى ، كان يقوم على مبدأ التفرقة العنصرية من الناحية الاجتماعية . ومع وجود وحدات سكنية بهذه الضخامة ، يكاد المرء ألا يشك فى أنه — كما حدث فى فيلادلفيا بعد القرن السابع عشر —

لا بد من أن تكون قد نشأت شبكة ثانوية من الأزقة لإيجاد وسيلة سريعة لمرور المشاة .

وبتطبيق نظام التخطيط الشبكى ، بدأ الشارع يتخذ كيانا قائماً بذاته وليس كما كان يحدث قبلا على هيئة ممر متعرج ترك كرهاً وسط كتلة من المبانى بكثر أو يقل فيها سوء النظام . وعندما أصبح للشارع مثل هذا الكيان المنفصل كان من الطبيعى أن تتبع ذلك فكرة توسيعه للوفاء بحاجة مجموعات أكبر من الناس دون أن يكون لحركة سير العربات أثر فى انبثاق هذه الفكرة . ولدينا الآن من الأدلة المستقلة من مدن المايا والانكا Inca ما يثبت أن الشوارع العريضة ، بل الطرق الرئيسية لم تكن مجرد نتيجة فرعية لاستخدام العربات أو المركبات ، فالمواكب الدينية والاستعراضات العسكرية كانت جميعها فى حاجة إليها . ولقد حدث مثل هذا التوسيع فى الشوارع فى المدن الهيلينيسية التى أنشئت فى القرن الثالث حتى عندما لم تكن متأثرة بالنظام الدينى الرومانى الذى كان يقضى بمد الشوارع الرئيسية فى اتجاهات نقط البوصلة . وقد كانت الحاجة العسكرية من الوضوح فى نظر المعاصرين إلى حد أن المؤرخ بوليبيوس Polybius قارن فعلا بين المدينة الهيلينيسية والمعسكر الرومانى ، وكان يوجد به شارعان رئيسيان يتقاطعان عموديا مع بعضهما .

ولقد امتدت إلى الأجورا هذه الروح نفسها ، روح النظام وانبساط الرؤية . وكان من جراء ذلك ، ولا سيما بعد القرن الرابع ، إقامة الأروقة — وكانت دهاليز أعمدة أو ردهات مسقوفة — وذلك أحيانا لتحمى الحوانيت من الشمس ، وأحيانا أخرى ليستخدمها السائرون على أقدامهم . وكان من الممكن أن يتألف أحد جوانب الرواق من حائط وبذلك كان يتهيأ سطح تصور عليه لوحات حائطية ، كتلك التى ما زالت تشاهد لحسن الحظ فى مدن اترووريا ، أو تدون عليه نقوش تسجل الفتوحات

أو الهبات أو قوانين المدينة أو عقيدة فلسفية ، مثل الرسالة الكريمة الحافلة بالمعانى السديدة التى قام أحد أتباع أبيقور وهو ديوجينيس الأوينوندى Diogenes of Oenoanda بحفرها على حائط ردهة فى كبادوكيا Cappadocia (حوالى سنة ٢٠٠ ميلادية) لكى يقرأها المارة. وقد أورد جيلبرت مورى هذه الرسالة فى كتابه « خمس مراحل فى الديانة الإغريقية » .

ومن المحتمل أن يكون الرواق ذاته قد نشأ قبل ذلك بزمن طويل ، ويلوح أن له مثالا مينوئى الأصل فى « هاجيا ترياذا » Hagia Triada به حوانيت فى الخلف على الطراز الهيلينيسى القح ، بيد أن الأروقة أصبحت عامة فى المدن الهيلينيسية تبعاً للجهود التى كانت تبذلها لتحسين وسائل الراحة الحضرية . وتحت ظل الرواق كان زينو الكيتيونى Zeno of Citium وغيره من فلاسفة الرواقيين ينشرون دعوتهم فى خلال القرن الثالث وما بعده ، وإن فلسفتهم التى قوامها وجود قانون شامل ، ونظام ثابت لا يتغير ، والإخلاص للواجب إخلاصا لا يتزعزع مهما يحدث — إن هذه الفلسفة لتتفق من الناحية الفكرية مع التخطيط الفنى الجديد للمدينة ، فهو أيضاً يقوم على النظام ولا ينحرف عنه إطلاقا .

وبتطور المدينة الهيلينيسية ، امتد إلى نواح أخرى من الكيان الحضرى ذلك الشكل المتواصل الذى تحقق فى الأجورا ، فما الشارع العريض الطويل إلا تعبير عن ذلك ، وأحيانا كانت تقام عند تقاطع الشوارع الكبرى مجموعة من الأعمدة لتكون بمثابة نهاية ما تقع عليه العين ، وهو مايشبه إلى حد ما ما كانت المسلات تستخدم من أجله فيما بعد فى المدينة الباروكية[1] . وكان فى استطاعة المرء أن يجد مثل هذه البوائك فى تورينو (Augusta Taurinorum)

---

(١) الطراز الباروكى طراز معمارى خارج عن الأصول الكلاسيكية استخدم فى أواخر عصر النهضة الأوروبية

أو بولونيا فى عهد مبكر يرجع إلى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد . وقد بقيت هذه الظاهرة من أعظم معالم الجمال الفنى التى تثير البهجة فى مدن البحر المتوسط ، بل إن بوائك تورينو الحديثة ، فضلا عن بوائك جنوة التى ترجع إلى أواخر عصر النهضة ، لتعتبر من آيات تخطيط المدن ليس لفائدتها فحسب ، بل لروعة حجمها .

ولم يكن من أقل فوائد الشارع شأناً فى التخطيط الهيلينيسى ، فائدة حققها فيما بعد أيضاً فى التخطيط الشبكى الأمريكى ، وهى أنه كان يهيئ أدنى حيز من الأماكن العامة الفضاء — وإن كانت جرداء — فى الأحياء السكنية التى كانت باستثناء ذلك شديدة الازدحام بالمبانى المتلاصقة . ومن ثم فإن الشارع كان يقوم بالدور الذى كان مقيضا للمنتزهات العامة والحدائق أن تقوم به فيما بعد ، وإن لم تؤده عادة بالقدر الذى كان يتناسب مع الحاجة إليها ، حتى المدن التى أنشئت فى فترة متأخرة جدا من العصر الهيلينيسى لم توجد فيها أفنية مكشوفة بين المنازل فى الأحياء السكنية ، وأما ما يماثل الحدائق الفسيحة التى كانت تمتد خلف صفوف منازل العصور الوسطى فى أوروبا الشمالية ، فإنها تسترعى النظر بعدم وجودها إطلاقاً . ولعل الرغبة فى توفير النور والهواء وكذلك حرية التنقل ، كانت السبب فى توسيع الشوارع الرئيسية . وقد عزز ذلك ما كانت تتطلبه زيادة استخدام الهوادج والعربات ذات العجلات ، واطراد الازدياد فى عدد الجماهير .

وكان قد حدث من قبل فى مدن الإسكندر أن زيد عرض الشارع الإغريقى القديم ، الذى كان يبلغ اتساعه اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة قدما ، ومن المحتمل أن عرض الشارع ، الذى كان يبلغ فى الإسكندرية نفسها ثمانى عشرة أو تسع عشرة قدما قد أصبح عاما ، على حين أن عرض الشارع الرئيسى فى تلك المدينة ، وهو الشارع الكانوبى Canopic Street ، كان يبلغ

مائة قدم[1] ، وهو ما كان يعتبر فى ذلك الحين اتساعاً ضخماً . بيد أنه فى واقع الأمر ازدادت مقاييس كل المنشآت الحضرية فى خلال العصر الهيلينيسى ، ويذكرنا بذلك مذبح برجامون Pergamon altar الموجود الآن فى برلين . وقد كان هذا جزءاً من التوسع العام فى الأحجام الذى شمل كلا من مساحة المدينة وارتفاع المبانى ، فقد ظهرت مبان من طابقين ، بل من ثلاثة طوابق وهو مالم يكن معروفاً نسبيا منذ عهد كنوسوس[2] Knossos . ونتيجة لازدياد الحجم ــ كما حدث فيما بعد عندما تضخمت القبة ــ أصبح من الميسور أن يشرف أحد المبانى على المدينه دون أن يكون مقاماً على تل . وعلى ذلك فإن المعابد العظيمة ودور القضاء كانت تقام عادة على أرض مستوية فى الأجورا ، أو على مقربة منها وليس على المرتفعات .

بيد أنه مع مراعاة الاحتياجات الأخرى أخذت اعتبارات النقل تحتل مكانة متزايدة فى تخطيط المدينة ، ولم يكن مرد إلى ذلك مجرد نقل السلع والطعام لأعداد أكبر من الناس ، بل كذلك إلى احتياجات جيوش احتلال كبيرة ، فهى لم تعد قوة متفرقة من المواطنين . ومع تنظيم الحركة ظهر عنصران معماريان يبدو أن المدينة الهيلينية كانت لا تكاد تعرف شيئاً عنهما ، وهما المنظور والمحور الطويل ، إذ أنه بدلا من الحصول على منظر عام للمدينة عن طريق اختراقها جزءاً فجزءاً والطواف حولها ، والصعود إلى الأكروبول بطريق متعرج ، حتى يمكن رؤيتها من كل اتجاه ، وفى كل مستوى ، فإن الشارع الكبير كان يهيئ

---

(١) كان يوجد فى الإسكندرية شارعان رئيسيان بهذا الاتساع يمتد أحدهما من الغرب إلى الشرق - وهذا هو الشارع الكانوبى - والآخر من بحيرة مريوط إلى البحر ويتقاطع مع الشارع الأول فى ميدان كبير يتوسط المدينة . وكانت باقى الشوارع تجرى متوازية مع هذين الشارعين .

(٢) كانت كنوسوس أعظم مدن كريت فى عهد الحضارة المينوئية .

للإنسان مشاهدة قسم منتظم من المدينة على هيئة قطاع مستعرض فى مستوى واحد . وأما الواجهة المتواصلة فكانت تتألف من دهاليز أعمدة أو مبان متساوية فى الارتفاع ، وكانت الأعمدة المتكررة للواجهات المتكررة على طول امتداد الشارع الكبير تحدث فى النفس ، من حيث الجمال الفنى ، الأثر نفسه تماما فى أى نقطة تقع عليها العين . ومهما امتد السير بالإنسان فإنه كان لا يلقى إلا المزيد من الشيء نفسه .

ولقد كان الإنسان يقترب من النصب والمعابد المقامة على الأكروبول من زوايا متعددة ، وبتحركات متنوعة ، على نحو ما يفعله حين يقترب من قطعة من النحت ، فتتعاقب أمامه سلسلة من المناظر الأمامية والمناظر الجانبية . غير أنه كان يجب الاقتراب من المبانى الهيلينيسية العامة عن طريق شوارع كبيرة رئيسية ، وحتى إذا سدت تلك الشوارع فإنه كان يمكن تأملها بالوقوف فى سكون على بعد مسافة كافية ، وكلما قرب الإنسان منها تغير حجمها ولكن دون أى تغيير فى قيمتها إلا فيما يتعلق بالتفصيلات ، وكانت هى أيضاً لا تتغير ولا تتحول . وبمثل هذا النوع من التخطيط اتخذت المدينة الهيلينيسية مظهراً رومانياً حتى قبل أن يفتح الرومان بلاد اليونان الكبرى . و الواقع أنه ليصعب التميز بين المدينة الهيلينيسية والمدينة الرومانية من حيث الشكل وحده ، فالاختلاف بينهما لا يظهر بنوع خاص إلا فى المحتويات الاجتماعية والزخرفية التى هى نتيجة تقاليد وعادات أقدم عهداً . وكما أوضح ويتشرلى Wycherley ، فإن المدن الجديدة التى أنشأها ملوك السلوقيين فى بلاد ما بين النهرين — مثل دورايوربوس Dura-Europos على الفرات — أقيمت على نسق موحد لتيسير انتشار طرازه ... ؛ أى أنها كانت ضرباً من إنتاج المدن بالجملة .

ولقد بدأت الحياة الحضرية فى بلاد الإغريق على هيئة نقاش حامى الوطيس ، ثم تدهورت إلى مشاجرة أو معركة بدنية . وفى كنف عدد من

الملوك والأباطرة الفاتحين المتعاقبين بطل النقاش ، فنصيب المستعبد - كما لاحظ يوريبيديس - « ألا يعبر عن رأيه » . ولقد صاحب ذلك انتهاء العراك أيضاً ، ولم يبق من الدراما الحضرية القديمة سوى مجرد استعراض أو رواية تمثل أمام نظارة يتخذون موقفاً سلبياً ، بينما يغتصب عدد من الشواذ المحترفين والبهلوانات والأقزام الأماكن التي كان يشغلها في الماضي مواطنون يحترمون أنفسهم .

ومن المؤكد أن نسبة المتفرجين إلى الممثلين قد تغيرت في كنف نظام الحكم الذي كان أكثر انطباعاً بالمذلة ، ولقد تجلى هذا التغيير الجوهري في أوضاع المدينة ، ففي المدينة القديمة كان لكل مواطن دور يؤديه ، وأما في البلدية الجديدة فإن المواطن كان يتلقى الأوامر ويصدع بما يؤمر به ، على حين أن تنفيذ أعمال الحكومة كان في أيدي المحترفين الذين كان يغريهم على الاضطلاع بذلك الطمع في الأسلاب ، أو كانوا يؤجرون للقيام بهذا العمل ، وكثيراً ما كانوا يحاولون الفوز بالأسلاب والأجر معا ، كما كان شأن أولئك الرومان الجشعين الذين كانوا يلتزمون جباية الضرائب أو القيام بالأعمال العامة . وحتى حيث كان الرومان يحتفظون بمظاهر الحكم الذاتي ، وأنه كان لا يمارس الحكم إلا أقلية وراثية .

وهكذا ، فإن المدينة لم تعد مسرحاً لدراما ذات أهمية بارزة يقوم فيها كل فرد بدور وينطق بكلمات ذلك الدور ، بل أصبحت على الأصح مكاناً فخماً لعرض مظاهر القوة . وتمشياً مع ذلك لم يكن لواجهات شوارعها إلا بعدان ، فقد كانت بمثابة ستار يخفي نظاماً شاملا من التنظيم والاستغلال وما ظهر في العصر الهيلينيسي على أنه تخطيط للمدن كان من قبيل الأكاذيب المعسولة والأباطيل الخداعة التي يطلق عليها اليوم في الاقتصاد الأمريكي اسم العلاقات العامة والإعلان .

وفي وسعنا أن نتتبع أثر ما حل بالمدينة الهيلينيسية من هذا الجمود الأنيق

الذى انتقل عن طريق ملطية (ميليتوس) والمجتمعات الحضرية المرتبطة بها إلى المدن التى وقعت تحت سلطان الدول المركزية المختلفة التى سيطرت فى النهاية على منطقة بحر إيجة والبحر المتوسط ، وهى مقدونيا ودولة السلوقيين وبرجامون ودولة البطالمة ، وكانت جميعاً دولا تقوم على الحكم المطلق . وإننا فى تتبع هذا التطور فى كل من الناحيتين المعمارية والحضرية نجد أنفسنا وجهاً لوجه حيال أحد وجوه التناقض التى تبعث على أشد الحيرة فى تاريخ التطور الإنسانى ، وأعنى عدم التناسق الذى كثيراً ما يتكرر ، ولا نقول الصراع العنيف ، بين النظام الجمالى والنظام الخلقى :

وبيان ذلك أنه كلما تفككت أواصر الحياة الداخلية فى المدينة الإغريقية ، بدا المظهر الخارجى للمدينة على درجة أرفع بكثير من حيث مستوى النظام والتماسك فى الشكل . ومن المحقق أن المدينة الهيلينيسية كانت أكثر استيفاء للشروط الصحية ، وكثيراً ما كانت أوفر رخاء من المدينة الهيلينية . وإذا كانت المدينة الهيلينيسية تخضع لتنظيم أكثر صرامة فإنها كانت أيضاً أكثر جمالا فى عين من ينظر إليها نظرة سطحية . وليست مدينة القرنين السادس والخامس ، بل مدينة القرن الثالث هى التى قد تبدو حلماً فى نظر المشتغل بتخطيط المدن الحديثة ، أى ليست مدينة الحضارة بل مدينة التجارة والاستغلال السياسى ، وليست مدينة الأحرار بل مدينة القوة المتبجحة والثروة الفخور ، حتى إن مارسيل بويت Marcel Poëte امتدح التحضر الهيلينيسى ووصفه بأنه «حديث» .

وهل يعتبر هذا مأخذاً على الفن والسياسة فى المدينة الهيلينية ؟ إنه لكذلك إلى حد ما ، فقد أظهرت عجزاً جزئياً عن تفهم قوى التطور الحضرى وتوجيهها توجيهاً ناجحاً ، ولا يستطيع المرء أن يخفى نواحى الضعف فى رعاية شئون المدينة فى العهود الأولى ، ولكن لعل ما هو أحق بالفحص والنقد

الشديدين إنما هو حلم مخطط المدن المتمسك بأهداب التقاليد ، فكثيراً جداً ما يكون الغــلاف المادى الكامل تعبيراً حاسماً عن نظام مدنى فاشل هزيل الروح .

ولم يكن فى وسع أى مدينة من مدن القرن الخامس ، حتى ولا أثينا فى عهد بريكليس ، الإغداق على الأعمال العامة على نحو ما كانت تفعل تلك الممالك والإمبراطوريات الجائرة القائمة التنظيم ، التى كانت تعتمد على موارد اقتصادية أشد وفرة . وعلى الرغم من أن هذه الدول الجديدة كانت تبعثر الجهود البشرية والثروة الاقتصادية على فنون الحرب ، فإنها كثيراً ما كانت تتوج نجاحها فى السيطرة على قوى المستعبدين واكتناز الجزية ، بإغداق المال على مختلف أنواع الأعمال العامة الباهظة التكاليف ، وإذا كانت الديمقراطيات كثيراً ما تضن بإنفاق المال فى سبيل الأغراض العامة ، لأن مواطنيها يشعرون بأن المال مالهم ، فإنه فى وسع الملكيات والحكومات الاستبدادية أن تكون سخية ، لأن القائمين عليها يدسون أيديهم كما يشاءون فى جيوب الآخرين .

ولقد كانت أمارة هذا السخاء الميسور زيادة فى مقاييس المنشآت العامة وأحجامها ، وابتهاجا بالفخامة من أجل ما تلقيه من الروعة فى النفس ، فمثلا تمثال رودس الهائل ، وكان إحدى العجائب السبع فى العالم القديم ، كان يسيطر بضخامته ووقفته على الميناء . فما ينفق فى وقتنا الحاضر بإسراف شديد على قذائف الفضاء ، كان ينفق — ولعله كان يأتى بثمرة محسوسة أكثر من ذلك قليلا — على إقامة مبان تعادل تلك القذائف فى ضخامتها وتكاد تتعادل معها فى خلوها مما يفيد الإنسانية . وفى كلتا الحالتين تعلمت القوة المصابة بجنون الهذاء أن تبرر مظهر انحرافها بتقديرها العميق للفن أو العلم .

فالمدينة الهلينيسية أصبحت إذن مكانا للعرض ، حيث كانت تعرض على الأنظار قوة الحكام ، سواء أكانت متوارثة عن الأسرة أم كان

مصدرها التجارة ، وذلك لإرهاب رعاياهم والترفيه عنهم فى آن واحد . ولعل الحكام الجدد لكى يداووا الجرح العميق الذى أحدثه فقدان المدينة الإغريقية لحريتها السياسية الفعلية وقدرتها الحضارية الخلاقة ، زودوها بالجمال كنوع من البلسم أو المخدر ، فكانت المدينة فى مجموعها تبدو فى ثوب فاتن ، إذا كان لم يبلغ مرتبة أرقى أمثلة العمارة الهلينية ، فإنه مع ذلك حقق مستوى عاماً لم تكن أثينا تطمع فى الوصول إليه حتى فى عهد بريكليس ، ولم تكن أثينا ذاتها أقل المدن التى أفادت من ذلك ، فقد كان ملوك برجامون يعطفون على أثينا بوجه خاص .

وعندما أتيحت هذه الفرص لمهندسى العمارة وتخطيط المدن استخدموها إلى أقصى مدى ، فكانوا يتوخون فى عملهم تحقيق أثر فنى رائع ، وليس ذلك فى مبان بمفردها فحسب ، بل فى العلاقة الوثيقة المتبادلة بين المبانى بعضها بعضاً وبينها وبين مواقعها . وبتنظيم المناظر بحيث تمتد امتداداً طويلا متواصلا كان من شأنه التناقص الظاهرى فى ارتفاع الأعمدة المتماثلة كلما ابتعدت تدريجياً ، أن تكتسب المناظر جمال الشكل المنظور الذى اتبع فيه نظام دقيق . وهل من قبيل المصادفة أن هذا النظام الفنى الجميل — الذى نلقاه لأول مرة فى طرق المواكب المؤدية إلى المعبد فى مصر القديمة ، ثم نلقاه مرة أخرى فى أوروبا القرن السابع عشر — قد وجد مع الحكم الملكى المطلق والإشراف البيروقراطى على نطاق واسع ؟ فالموظفون الحكوميون ، بحكم مهنتهم ، معتادون على اطراد التناسق على وتيرة واحدة ، وآل مديتشى والبابا سيكستوس الخامس ولويس الرابع عشر ونابليون الثالث يتلاقون مع أقرانهم الأقدمين فى هذه الناحية المشتركة . بيد أن بعضاً من آلات النظام والقوة لها من وجوه الاستعمال والأغراض غير تلك التى ربما كانت السبب الذى دعا أصلا إلى ابتكارها ، وهذا هو الدرس القديم الذى جاء به الوعاء . وعلى ذلك فإن النظام الظاهر للمدينة الهلينيسية ظل باعثاً على التخطيط

الحضرى زمناً طويلا بعد زوال الأوامر الظالمة . وأعمال الفتح التعسفية وانتهائها إلى العدم .

وإذا كان توحيد المدينة جماليا ، طبقاً للمقاييس الهيلينيسية ، عملا يتسنى للحكم الاستبدادى أن يخلفه — مع إدخال التعديلات الملائمة — لأنظمة أخرى من الحكم أكثر فطنة ، فإنه لكى يقدر المرء ذلك العمل حق قدره يجب تجنب الوقوع تحت تأثير المخدر التقليدى الذى وقعت تحته أجيال من الباحثين ، وأعنى تأثير كل أعمال الإغريق الجليلة . ولإنصاف ذلك النظام ، لعل من الواجب أن نتذكر أن الحاكم المستبد نفسه كان أداة فى حركة من حركات المدينة كانت أوسع من ذلك نطاقاً ، فرغباته الاستبدادية ، بل حتى رغبات أعوانه من الموظفين ، لم تكن وحدها الفاصلة فى أمر التخطيط الجديد .

وهذه الإمبراطوريات الآخذة فى التوسع والامتداد استخدمت أكثر الوسائل خرقا وأبعدها عن التبصر عندما اتجهت نحو أهداف لم يكن يتسنى إطلاقاً إلا للقليل النادر من الحكام ، من أمثال أزوكا Asoka وماركوس أوريليوس ، أن يدركوا حقيقتها تمام الإدراك ، إذ كانت فى الواقع تقوم بهدم التعصب الإقليمى الأحمق فى المجتمعات الحضرية التقليدية . وقد كان من جراء كل ما حدث من تعدد هجرة الأسرى والأرقاء اللاجئين والمبعدين عن أوطانهم اتساع نطاق الروابط فى المجتمع الإنسانى . وعن طريق ذلك اصطنعت مجتمعات ، لم يكن بينها من قبل أى صلات مدنية تربط بينها ، اصطنعت لصالحها المشترك روابط شخصية كانت تتجاوز نطاق المدينة . وفى الوقت عينه ، الذى سادت فيه هذه الروح نجد أن شطرا عظيما مما كان يعتبر فى الماضى من المعلومات السرية المقدسة ، استخدم فى الأعمال العلمية الدنيوية التى كانت فى متناول كل من يجد لديه من الفراغ والمقدرة ما يمكنه من متابعتها ، وفى هذا الوضع المناهض لتقاليد المدينة ، أخذ المواطن ، وقد بوعد بينه وبين المسئوليات

السياسية وأعفى من الواجبات العسكرية ، يعمل فى خدمة شئونه الخاصة بهمة ونشاط على نحو لم يكن له بهما عهد من قبل . ولقد رجّعت المدينة بدهاء أصداء هذا الوضع الجديد فى ذات تناسقها المطرد ، ونظامها الخارجى ، واختفاء الطابع المميز لشخصيتها .

ولقد اكتسب العصر الهيلينيسى كثيراً من المعجبين بين العلماء الباحثين فى وقتنا الحاضر ، ولم يكن أقلهم إعجاباً العلماء الألمان الذين شبهوا ، فى خشوع وإجلال ، جور حكامهم بجور الإسكندر وغيره من الحكام المستبدين ، وأنحوا باللائمة على أولئك الرجال — مثل ديموستينيس — الذين أوتوا من الجرأة ما جعلهم يقفون موقف المعارضة من أولئك الحكام ووصفوهم بأنهم عاطفيون . وإن كل عصر يميل إلى الإطناب فى مديح ذلك الشطر من الماضى الذى يعكس صورته ذاته ، ومن ثم فإن بلاد الإغريق فى عهد برجامون[1] أقرب إلى قلوب معاصرينا منها فى عهد صولون ، فعلى مثال عصرنا الحاضر كان ذلك العهد أوفر ثروة فى العلوم منه فى الحكمة ، فقد كان عهد إقليدس وأرخميدس وهيرو الإسكندرى ، علماء الرياضة والطبيعة الذين وضعت نظرياتهم وتجاربهم الأساس للمبنى العلمى والتقنى الذى لم تتح إقامته فعلا إلا فى القرن السابع عشر الميلاد .

وفيما عدا ذلك ، فإنه كان عصر المشتغلين بالتنظيم والتصنيف فى كل نواحى الفكر ، ولقد قيض لهذه العقول الموسوعية أن تجتمع فى مكتبة الإسكندرية الكبرى . والمعرفة التى كان المصدر الرئيسى لاستيعابها فى الماضى الاتصال المباشر بين الأستاذ والتلميذ — فإن أفلاطون إن صحت

---

(١) هذا تعبير غريب ليس له ما يبرره ، ولعل الأصح القول « العصر الهيلينيسى » أو « عصر الإسكندرية » لأنه لم يكن لبرجامون من الشأن بحيث تفرض طابعها على أى فترة من فترات العصر الهيلينيسى .

الرسالة التي تروى ذلك ، لم يكن يدون إطلاقاً أعمق تأملاته – اتخذت الآن مظهراً خارجياً على هيئة مكتبات ودور للعلم تحررت إلى حد كبير من القيود الدينية التي كانت تكبل معاهد المعابد . بيد أن العلاقة الأصلية بين الأكاديمية والمعبد كانت قوية إلى حد أن بطلميوس فيلاديلفوس ، عند ما أنشأ دار العلم فى الإسكندرية ، جعلها جزءاً من القصر ، وخصص لها منحة من بيت المال ، وأسند إدارتها إلى كاهن كان الملك هو الذى يعينه .

ودون وجود خطة ونظام ، لم يكن فى استطاعة أحد استخدام هذه الأكداس الهائلة من الثروة الاقتصادية والفكرية ، ما لم يكن العدل والحب قد غيرا نظام التوزيع بأكمله ، وإذا كانت المدينة الهيلينيسية قد أعوزها مثل هذا التحول الجوهرى ، فإنها استكملت حياتها الرتيبة الدائبة النشاط بنواحى نشاطها الفكرى المتشعبة فى كل اتجاه ، وفنونها المزدهرة ازدهارا رائعاً ، غير أن هذه الحياة كانت فى دخيلة أمرها قلقة غير متوازنة وكان الجفاف يدب إلى جذورها الإنسانية الأبعد غورا . ولقد كانت كل هـــذه التحسينات من حيث الكم هائلة بل مذهلة ، وكانت المعايير الجديدة تنطبق كذلك على القوة السياسية والمقدرة الفكرية والجاذبية السطحية من الناحية الجمالية ، إلا أنها كانت إطاراً يحوط فراغا اجتماعياً وشخصياً ، وهو ما لم يكن بوسع الأعداد وحدها أن تسده .

وكانت الضخامة هى السمة الجمالية الرئيسية للمدينة الهيلينيسية ، وكان شيوع هذه الضخامة « من صنع الأمير » كما لاحظ رولاند مارتين بحق ، ولقد كانت هذه هى الصلة التى ربطت بين الجهود التى بذلها طغاة القرن السادس فى تخطيط المدن ، والجهود التى بذلها فى القرن الثالث « المنقذون » السياسيون ، وهو اللقب الذى اتخذه أكثر من إمبراطور واحد . ويمكن القول دون إسراف كثير فى التجنى على أحد ، أو فى

الانتقاص من قدره . أن المستبدين الجدد استعانوا على دعم أسلوبهم الخاص فى نهب الأموال العامة بنوع جديد من النهب الجمالى ، أو على الأصح أحيوا نوعاً قديماً كان معروفاً حتى المعرفة فى مصر وآشور وفارس . ولعل اتساع مدى مشروعات منشآتهم العامة فى ذاته — وكان يوفر العمل على نطاق واسع لأرباب مختلف أنواع الحرف — لعله كان من شأنه أن يخفف إلى حد ما حدة الاستياء العام ، فقد كان يفيد من ذلك المقاولون المتخمون والعمال المتضورون جوعاً . وقد رفعت المدينة الهيلينيسية المستوى الصحى العام للسكان بفضل شبكة طرقها المنظمة ، ومسارحها ونافوراتها — وكانت تقام بعضها إثر البعض — ووسائلها المتقدمة لتوفير الماء ، فكثيراً ما كان يجلب بالأنابيب من التلال .

ولم تكن هذه بالمنحة الهينة ، وإنه ليكون من الحماقة أن نحط من قدرها . هذا إلى أنه لم يكن هناك افتقار إلى مبتكرات جديدة فى التخطيط إلى جانب تلك التى يسرت النقل من الميناء إلى مخازن البضائع ، وبسطت مظاهر القوة أمام الناس . ولتعويض ما نشأ عن اتساع المدينة من الزيادة المطردة فى صعوبة الوصول إلى الريف المحيط بها ، غرست الأشجار فى داخل المنطقة التى أقيمت بها المبانى ، بل استخدمت أصص النباتات فى تزيين الشوارع . وما زالت هذه الطريقة تستخدم فى كثير من المدن الأوروبية اليوم . وما نسميه « أثاث الشوارع » إذا لم يكن بأكمله من ابتكار المدينة الهيلينيسية ، فإنها على كل حال دأبت على التزود به .

وفضلا عن ذلك فقد كان يتزايد باستمرار عدد المعابد والهياكل والنافورات وكذلك النصب ، وكانت تقام للأحياء والأموات على حد سواء . وفى كل مكان كانت هذه المنشآت التذكارية بمثابة مستودعات للذكريات والمشاعر ، تستعيد ذكرى أعمال الخير والانتصارات ، أو بعبارة أخرى ذكرى العظمة الزائلة ، ومن ثم فإن وصف الرحلات التى قام بها

باوسانياس[1] فى عصر متأخر فى بلاد الإغريق ليس دليلا يرشد إلى المبانى بقدرما هو « بحث فى الوقت الضائع » . ولقد كان لهذه الكثرة من المنشآت قيمة مضاعفة فى حضارة كانت بعيدة عن الكتب بالنسبة لشطر غير قليل من السكان . وإن تعريف فيكتور هوجو للكاتدرائية بأنها الكتاب الحجرى للنوع الإنسانى لهو أشد انطباقاً على المدينة القديمة .

وأما الصلة بعصرنا الحاضر فإنها لا تستمد من هذه التفصيلات بقدر ما تستمد من المظهر المشترك لحضارة تقوم على القوة . وقد اكتسبت المدينة الهيلينيسية مظهراً « حديثاً » من ازدياد نطاق المساحة الفضاء الذى هيأه ازدياد اتساع الأجورا وازدياد طول الشوارع واتساعها . فالشارع الكانوبى فى الإسكندرية — التى أنشئت فى سنة ٣٣١ ق . م — كان يتجاوز خمسة أضعاف اتساع الطرق العادية كما أن طوله كان يبلغ أربعة أميال . وباتباع مثل هذا النظام كان بوسع كل مدينة أن تفاخر بشارع كبير — Plataea أو Broad Way — على الأقل فى أحدث أحيائها .

ولا شك فى أن المدينة الهيلينيسية كانت تؤدى مهمتها التجارية على نحو أكثر جودة وإتقاناً ، أو على الأقل أكثر تنظيما من المدينة الهيلينية ، فقد كانت قبل كل شىء « مركزاً تجارياً » . ولكن لعل أكبر مهماتها شأناً كانت القيام بدور ساحة للاستعراضات الضخمة — أو بعبارة أخرى بدور وعاء للمتفرجين . وتأكيد أهمية المتفرج على هذا النحو ، واعتبار الحياة ذاتها على هذا الوجه كأنها مشهد معروض ، كان من مواطن الضعف المزمنة فى فكرة الطبقة المتعطلة القديمة عن الثقافة بأنها شىء لا يتلاءم مع العمل ، بل إن من شأن العمل أن يلوثها ولم يكن هذا مجرد انحراف حضارة متدهورة فى عهد متأخر ، فقد نودى بهذه الفكرة فى إبان ازدهار المجتمع الإغريقى قبل عهد أفلاطون ، ألم يقارن فيثاغورس بين الحياة ذاتها وحفلات الألعاب الكبرى

---

(١) كان باوسانياس يعيش فى القرن الثانى بعد الميلاد .

« حيث كان البعض يذهبون للتنافس على نيل الجوائز والبعض الآخر يذهبون لبيع سلعهم ، ولكن أرقاهم كانوا يذهبون بصفتهم متفرجين » . ولقد كان دور المتفرج فى المدينة الهيلينيسية لا يفوقه أى دور آخر ، فالغنى والفقير ، والنبيل والوضيع ، كانوا جميعاً يلتقون فى القيام بهذا الدور .

ولنتأمل فى نوع « الساحة » الحضرية التى كانت تلزم لحفل تتويج بطلميوس فيلادلفوس ، وهو لم يكن ملكاً من طراز غير طراز ملوك ذلك العهد فى أفضل أطواره ، فإنه لإقامة ذلك الحفل استعرض ٥٧٠٠٠ من المشاة ، و ٢٣٠٠٠ من الخيالة ، ومركبات لا حصر لها ، حملت ٤٠٠ مركبة منها سفناً موشاة بالفضة ، وملئت ٨٠٠ بالعطور ، وكان ٣٠٠ رجل يجرون مركبة ضخمة لسيلينوس ، وتأتى خلفها مركبات تجرها الوعول والجاموس والنعام والحمير الوحشية[1] . فأى ملهى لعرض ألعاب الوحوش (سيرك) فى أى عصر تال ، يمكن أن يقارن بهذا الأنموذج الأصيل ؟ لقد كان يتعذر على مثل هذا المهرجان ، حتى إذا جزئ ، أن يشق طريقه فى شوارع أثينا فى القرن الخامس . ولا يبعد فى الواقع أن يكون مرور هذا الموكب قد شغل حيزاً أكبر مما كان يمكن أن يستخدمه سكان أثينا بأجمعهم قبل ذلك ببضعة قرون . فقد كانت إقامة مثل هذا الاستعراض للقوة تحتاج إلى كامل طول وعرض أوسع الشوارع ليصلح إطاراً له ، هذا فضلا عن أن ترتيب مثل هذا الجيش فى صفوف منتظمة لا بد من أن يكون قد احتاج إلى مساحات واسعة من الأرض خارج أسوار المدينة . والمعالم الرئيسية فى تخطيط المدينة الهيلينيسية يجب

---

(١) هذا وصف جانب من مهرجان حفل البطوليمايا الذى أنشأه بطلميوس الثانى إجلالا لأبيه وليس فى المصادر القديمة ما يستدل منه على أنه أقيم مهرجان مماثل فى مناسبة تتويج بطلميوس الثانى أو لأى ملك آخر من ملوك البطالمة ، والواقع أننا لا نعرف شيئا عن المراسم التى كانت تتبع عند ارتقاء البطالمة العرش ومباشرتهم سلطتهم .

أن تفهم على ضوء مثل هذه المهرجانات والاستعراضات العامة – وكانت تنظم بطرق شتى وتتكرر إقامتها كثيراً – وليس على أنها كانت استجابة لاحتياجات عملية ، فقد كانت الضخامة التى تترك أثراً عميقاً فى النفس هى الغاية التى كان ينشدها الحاكم ومهندس التخطيط سواء بسواء .

وعندما استقر هذا النظام فى المدينة الكبرى أخذت المدن الصغرى فى تقليده . ونتبين مدى انتشار هذا الطراز ونعرف كيف أنه أصبح عاماً ، من مدينة صغيرة عادية مثل برايني (Priene) التى شاءت سخرية القدر أن تنتشلها من انزوائها الطبيعى لسهولة وصول مجراف الآثارى إليها – وضآلتها فى ذاتها ، وتجردها من الأهمية التاريخية ، لا يزيدانها إلا صلاحية لتكون المثال الكامل . ولما كان إنشاؤها[٢] أحدث عهداً من المدن الأيونية وأقدم من المدن البرجامونية ، فإنه تتجلى فيها كل العناصر المشتركة فيما عدا الضخامة والاتساع .

ولا شك فى أن الكيان المادى للمدينة الهيلينيسية قد تحسن تبعاً لتقدم الوسائل التقنية ، فنجاح أرخيدس فى تحطيم سفن العدو باستخدام الشمس ومرآة لإشعال النار فى الأشرعة ، يمكن اتخاذه دليلا على نوع النشاط المبتكر الذى بدأ يسرى فى هذه الثقافة الكلاسيكية التى كانت آخذة فى الزوال ، على حين أنها ظلت ألف سنة كاملة تردد الأساطير القديمة ، وتقوم بذات الحركات القديمة – وهى تزداد مع الأيام فراغاً . وأما عن فراغ الحياة وتفاهتها فلا سبيل إلى الشك فى ذلك ، فقد ماتت المدينة القديمة وسيطرت على الناس مخاوف مزعجة وتنبؤات خرافية فى الوقت نفسه الذى أصبحت فيه العلوم تزداد دقة فى منهجها . وبدا أنه تقع « تحت السيطرة » أجزاء من العالم كانت باطراد أكثر اتساعاً من سابقتها . ولقد رأينا كيف ظهرت هذه الأوهام المظلمة نفسها تحت ظروف مماثلة فى وقتنا الحاضر .

---

(٢) لعل المؤلف يقصد إعادة بنائها على الطراز الشبكى فى القرن الرابع ق . م .

٣ — تحت السطح الحضرى

قلما كان الشكل الخارجى للمدينة الهيلينيسية يوحى بشىء مما كان يجرى تحت سطح الحياة فيها ، فإن حركة روحية معارضة تتحدى كل ادعاءات السلطة المتمدنة كانت آخذة فى النمو منذ القرن السادس على الأقل . ولقد نشأت هذه الحركة فى صفوف الطبقات التى كانت المدينة القديمة قد حرمتها حقوق المواطنة ، أى بين النساء والأرقاء والأجانب ، بصرف النظر عن المواطنين الساخطين والمستبعدين . وكلما ازداد اتسام الحياة العامة فى المدينة بالفراغ ، فيما عدا المهرجانات — ولعل المهرجانات كانت أكثر المظاهر كلها فراغاً — أخذت تنشأ حياة جديدة ، خاصة ، مستترة ، كان مجالها فى الأندية وجمعيات الأصدقاء ، وجمعيات دفن الموتى ، ورابطات التآخى ، وفوق كل شىء فى الاجتماعات السرية التى كانت تعقد لعبادة باكوس إله الحنطة والكروم ، وأورفيوس إله القيثارة ، أو فى عهد أكثر تأخرا عن ذلك ، الآلهة الفريجية الأقدم عهدا ، آلهة الجنس والخصوبة ، الأم العظمى نفسها ، وكانت من تراث عهد سلطة الأم . ووفقاً لما يقوله و . و . تارن W.W. Tarn كانت أغلب هذه الأندية صغيرة ، فقد كان من النادر أن يصل عدد الأعضاء إلى مائة ، وكانت تتجمع عادة حول معبد صغير ، ويلوح أنها كثيرا ما كانت بعد عام ٢٠٠ ق . م جمعيات أسرية لتخليد ذكرى الأسرة . وحين كانت المدينة سائرة فى طريق الانحلال ، كانت هذه الأندية بمثابة مدينة خاصة تفى بحاجات الأجانب المعزولين ، وحتى الأرقاء فى بعض الأحيان .

ولم تكن الهياكل والمعابد القديمة — بطقوسها وشعائرها التى كانت تقام فى وضح النهار ، وقرابينها الدموية — لم تكن تصلح لهذه العبادات الجديدة . ولا شك فى أن ديانات الأسرار كانت بلا مأوى فى بادئ الأمر ، وتعقد

اجتماعاتها فى أماكن بعيدة فى خارج المدينة على منحدرات الجبال المكسوة بالغابات ، لكنها أخرجت إلى الوجود فى النهاية شكلا حضرياً جديداً كان يتكون من قاعة مغلقة يتلاءم ظلامها مع ظلام العالم السفلى الذى ولد منه باكوس من جديد ، وحيث كان أورفيوس يجد فى البحث عن يوريديكى Eurydice . ولم تعد هذه القاعة معبداً يتولى أمره كهنة بل داراً للاجتماع (كنيس synagogue) أقيمت لتضم إخواناً فى العقيدة ، وكان الذين يتطهرون ويؤمنون بالإله الجديد ، يُطلعون على الأسرار وبذلك تتم لهم النجاة ، أى أنهم أنشأوا مدينــة جديدة كانت أوسع نطاقاً من أى إمبراطورية ، بيد أنها لم تكن مدينة « من مدن هذا العالم » . ومهما يأتى المؤمنون عندئذ من عنت فى الحياة فإنه كان لديهم الأمل فى حياة بعد القبر ، حياة حقيقية ، وليست حياة الأشباح الكئيبة فى عالم بلوطو[1] .

وعلى هذا يبدو أن المشتركين فى الأسرار كانوا يجدون مهربا من وجوه النقص فى المدينة ، فإن كلا منهم كان يجد نفسه عضوا فى جماعة أوسع نطاقا لا تعترف بالحدود الزمنية ولا الجغرافية ، وهى حكمة سياسية كان يفتقر إليها أحكم أعضاء المدينة القديمة ، فقد غابت عن توكيديديس وأرسطو وسقراط وأفلاطون ، لكنها أصبحت العقيدة التى كانت تقوم عليها ديانات الأسرار . ولذلك فإن أفراد الطبقات والجماعات الذين كانت المدينة قد نبذتهم أصبحوا الأعضاء الذين يتصدرون المجتمع الأكبر . بيد أنه إذا استثنينا الأماكن الرسمية لاجتماعتهم — مثل التليستيريون Telesterion العظيم ، أو قاعة الأسرار فى الوسيس Eleusis — وكانت مقر إحدى العبادات الجديدة — فإن المدينة الجديدة لم يكن لها وجود إلا فى العقل وحده . وكان أولئك الساعون إلى النجاة ينكرون المدينة الأرضية ويطرحون وراء ظهورهم كيان المدينة الفاسد الزائل ؛ ولا يحفلون إلا بلحظات من

(١) كان بلوطو أحد ألقاب هيديس Hades ، إله العالم السفلى عند الإغريق .

النشوة والاستثارة كان من الممكن أن تعوضهم عن حياة كلها فشل وخيبة .

وبعد القرن السادس ، أخذت هذه الروح الجديدة تعرب عن نفسها فى كل مكان عن طريق ديانات جديدة ، ومذاهب فلسفية جديدة ، فى الصين والهند وفارس والشرق الأدنى وفى الغرب سواء بسواء . ومهما يكن من تباين طابع هذه الأفكار المحورية ، فإنها تتكشف عن خيبة أمل عميقة فى قواعد المدنية بما أولته من عناية بالغة للقوة والأمور المادية ، وبقبولها تقسيم الناس درجات ومراتب ومهنا على أنها طبقات ثابتة إلى الأبد ، هذا فضلا عما اتسمت به منظماتها الرئيسية المكونة تكويناً طبقياً من عدم الإنصاف والبغضاء والعداء ، بالاضافة إلى العنف والتدمير المتواصلين .

بيد أن أولئك الذين كانوا ينشدون تغيير الأوضاع فى الحياة المتمدنة لم يكن فى وسعهم أن يفعلوا ذلك ويبقوا على الرغم من ذلك فى داخل المدينة التى احتوت من بادئ الأمر كل هذه القوى المدمرة ثم زادت من إمكانياتها . فلتحقيق حياة جديدة ، لم يجد المؤمنون بالحلم الجديد مندوحة عن أن يهجروا المدينة ، ويتخذوا لهم مقاما إما فى الإقليم الواقع وراءها فى غابة منعزلة أو مغارة فى جانب تل ، وإما على الأقل فى مشارف المدينة ، فى دور الجيمنازيوم ، أو فى مستعمرات يقيمونها فى الحدائق . وكانت كل جماعة منهم تتألف من بضع عشرات أو بضع مئات لا تكاد تكفى حتى لإنشاء قرية . وآية ذلك ما فعله فيثاغورس وأبيقور وأتباع كل من لاوتسى وبوذا وأستاذ الحق والعدالة Master of Righteousness . وإذا دخلوا المدينة كانوا لا يرون مفرا من أن يؤلفوا جمعية سرية ويختفوا عن أعين الناس لكى يتسنى لهم البقاء .

وإنى لأرى أن الحركة التى تمخض عنها إنشاء هذه الديانات والعبادات

الجديدة يجب أن تفسر على أنها ثورة عميقة ضد المدينة نفسها ، ضد ما تنطوى عليه من شهوة السلطة والثروة ، ضد ما فيها من توسع مادى وإفعام ، ضد انحدارها بالحياة إلى حد استرقاق البدن ، ضد قضائها على التلقائية بالنظام الرتيب العقيم ، وضد سوء توزيع أفضل خيرات الحياة على أيدى أقلية متسلطة .

ولقد بدأ كل هذا قبل القرن السادس بزمن طويل ، فإن فراغ المدينة التى لم تكن لها أهداف أخرى سوى وجودها ذاتها ، كان قد أصبح واضحا قبل ذلك بمدة طويلة . فياله من غرور ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . والروح التى عبرت عنها الديانات الجديدة كان قد سبق الإعراب عنها فى عهد قديم قدم لوح أوتنابيشتيم Utnapishtim وكان المقابل لنوح عند الآشوريين ، فقد ورد على هذا اللوح :

« تخل عن الممتلكات وانشد الحياة ، وأقسم بكل يمين أن تنبذ المتاع الدنيوى واحتفظ بحياة الروح » .

ولما لم يكن للرابطات الأخوية والجماعات الدينية الجديدة مكان ولا دور فى المدينة ، وكانت لا تستطيع أن تأمن فيها على سلامة ممتلكاتها ومدينتها ، فإنها تعويضا عن ذلك اضطرت إلى أن تجعل الروح غايتها الأساسية وألا تحتفظ من مدينتها إلا بما يخدم مذهبها فى العبادة . وعندما انكمشت هذه المدينة إلى كنيسة استطاعت أخيرا أن تتسع وتمتد إلى ما وراء أسوار المدينة عن طريق انتشار المهاجرين واللاجئين والمستعمرين انتشاراً كبيراً .

حقيقة أنه كان لا بد من مرور قرون عديدة قبل أن يتسنى للديانات الجديدة أن تتغلب على سخطها الأصيل على المدينة وكل أعمالها ، وكان لا بد من مرور زمن أطول من ذلك قبل أن تحاول ولو نظريا أن تتغلب على ثنوية البدن والروح وثنوية المدينة الأرضية والسماوية ، وهو الأساس الذى كان يقوم عليه كل من هذا السخط وهذا النظام الخاص للنجاة .

وهكذا ، فإن المنظر يتغير قبل أن تترك ديانات الأنبياء وأسرارهم طابعها على المدينة ، وذلك أن روما قهرت الفاتحين الهيلينيسين وأخضعت ما تبقى من المدن الحرة أو الشبيهة بالحرة فى البحر المتوسط وبحر إيجة ، وقطعت مبادئ تخطيط المدينة الهيلينيسية شوطا بعيد المدى فى العالم الرومانى ، واختلطت ببضعة عناصر حضرية أخرى مستمدة من بلديات نائية فى أفريقيا وآسيا . ولم تلبث الحضارة الإغريقية ، حضارة العقل السليم فى الجسم السليم ، أن تخلت عن مكانها لحضارة الرومان ، حضارة الإسراف فى ملء الجوف ، فاستبدل بغذاء أتيكا الخفيف مآدب يومية على أضخم وأوسع نطاق ، وما كان الإغريق الثرثارون يفتقرون إليه فى مدنهم فى أزهى العصور الهيلينية افتقارا يكاد يكون تاما ، أحرزه الرومان البطينون ، فى وفرة خانقة . وما كان يتوافر بكثرة لدى الإغريق من مواهب — مواهب الابتداء والأصالة فى الابتكار ، وهى مواهب تتجلى فى العبارات القليلة التى تتألف منها بضعة أبيات من الشعر أو نقش على شاهد قبر ، بقدر ما تتجلى فى ملحمة أو معبد — كان يتعذر على الرومان إظهار شىء منها على الإطلاق ، على الأقل بعد زوال الجمهورية ، اللهم إلا تقليداً وتضخيماً بابتذال .

الفصل الثامن
من المدينة العظمى إلى مدينة الموتى

١ — إرث روما الأجنبى

عند ما يفكر الإنسان فى روما القديمة ، يفكر على الفور فى إمبراطوريتها ، أى روما بإماراتها الدالة على القوة الظاهرة ، بقناطرها العالية لحمل القنوات aqueducts والطرق viaducts عبر الوديان أو المنخفضات ، وطرقها المعبدة التى كانت تمتد دون اعوجاج أو التواء عبر التلال والأودية على السواء ، قافزة فوق الأنهار والمستنقعات ، متقدمة فى نظام لا يتطرق إليه الخلل على نحو ما كانت تتقدم فرقة رومانية ظافرة . وروما هذه كان يحتفظ بكيانها متماسكاً ، أداة حكومية مفككة تستخدم نظاماً للأرقام كان بأساوبه الأعسر أبعد ما يكون ملاءمة للمحاسبة الدقيقة . بيد أنه كان يعوض روما جزئياً عن افتقارها إلى المهارة فى الرياضة البحت قدرتها على معالجة الأمور المادية ، وأهليتها الأوسع نطاقاً لتنسيق وتنظيم الأعداد الضخمة على نمط واحد . وفوق كل شىء كان الرومان ، بحكم الخبرة والتجربة ، يحترمون كل نظام قائم مستقر ، حتى وإن كان يتناقض مع أنظمتهم ، وهى صفة انتفع بها جنس آخر من بناة الإمبراطوريات ، وهو الجنس البريطانى .

والإمبراطورية الرومانية ، التى نتجت عن اتساع مركز واحد للقوة الحضرية ، كانت هى ذاتها مشروعاً هائلا لإنشاء المدن ، فتركت طابع روما على كل جزء فى أوروبا وأفريقيا الشمالية وآسيا الصغرى ، وغيرت أسلوب الحياة فى المدن القديمة ، وأقامت نوع نظامها الخاص بأسره فى مئات من المنشآت الجديدة ، ومدن « الاستعمار » والمدن « الحرة » ، والمدن الخاضعة

للنظام الرومانى للبلديات ، والمدن التى كانت تؤدى لها الجزية ، فقد كانت كل منها تختلف فى الوضع وإن لم تختلف فى الشكل . وفى وصف عام للدولة الرومانية قبيل انهيارها ، وصفها أحد المؤرخين بأنها كانت تتألف من هيئات مواطنين منفصلة يبلغ عددها ٥٦٢٧ هيئة . وحتى بعد تخريب مدينة روما فى القرن الخامس تسنى للشاعر روتيليوس ناماتيانوس Rutilius Namatianus أن يقول فى إعجاب تام : « لقد أقمتم مدينة امتدت إلى أرجاء الأرض » .

ولقد كانت روما تستحق فعلا هذا الإطراء ، فإنه فى أوج قوتها الواقية ، كانت الأسوار القديمة لا ترمم أو تدخل فى الاعتبار عند إضافة مبان أخرى إلى مدنها ، على حين أن المدن الجديدة كانت تنشأ بلا أسوار . وفى ظل الإمبراطورية — ولعل ذلك كان للمرة الأولى منذ إنشاء المدن — أتيحت للغربيين لمحة قصيرة مما تكون عليه الحال حين يعيشون فى عالم يخلو كلية من الحواجز ، حيث كان القانون والنظام يسودان فى كل مكان ، وحيث كانت حقوق المواطنة ، بكل معانيها ، الإرث المشترك لبنى الإنسان .

والطريقة والنظام نفساهما ، اللذان أفضيا فى الأصل إلى جعل روما قوية ، جليا لبلديات إمبراطوريتها مبدأ النظام نفسه ، والواقع أن الفضائل الرومانية كانت أكثر وضوحاً فى مدن المستعمرات التى أنشئت حديثاً منها فى العاصمة القديمة ذاتها ، وذلك لأن النظام الذى تولت روما تقطيره لاستخدامه فى جهات نائية ، وصبته فى زجاجات جديدة كان قد امتزج فى الوعاء القديم نفسه برواسب وفضلات لم تزل منه على الإطلاق .

وأحجار الأساس فى المدينة الرومانية اقتطعت بوجه خاص من حضارتين أخريين ، وهما الأترورية والهيلينية . فمن الأتروريين — ذلك الشعب الذى ما زال أمره غامضاً ، وهو الذى أدخل المدنية فى شمال إيطاليا — أخذ التطور الحضرى الرومانى الأجزاء المتعلقة بالدين والمعتقدات الخرافية . ولقد كان أكروبول المدينة الأترورية يوجد دائماً على تل ، كما كانت الحال فى

مدن بحر إيجة ، وعلى الأكروبول كانت تقام الطقوس المقدسة لاستطلاع الغيب قبل إنشاء أى مدينة . وطبقاً لما يرويه فارو Varro كان الرومان يقيمون طقوساً أترورية عند إنشاء مدن جديدة ، فقد كانوا لا يكتفون بالبدء باستطلاع الغيب للتحقق من رضا الآلهة ، بل إن تخطيط حدود المدينة كان يقوم به كاهن يتولى قيادة المحراث .

وعلى النقيض من المدينة الإغريقية ، حيث كثيراً ما كان السور وليد تفكير متأخر عن إنشائها ، فإن المدينة الرومانية كانت تبدأ بإقامة مثل هذا السور ، وكانت المدينة تتخذ شكلا مستطيلا لأسباب : بعضها دينية وبعضها عملية ، فأوجدت بذلك النموذج الذى أصبح الجيش الرومانى يحتذيه كلما أقام أثناء سيره معسكراً يقضى فيه ليلته . ولعله قد نشأ عن هذا التحديد الدينى للمدينة أحد المعالم الأخرى ؛ وهو البومريوم pomerium : وكان منطقة مقدسة داخل السور وخارجه حيث كان لايجوز أن تقام أى مبان على الإطلاق[1] . ولعل ما كان لهذه العادة من فائدة عسكرية للمدافعين عن المدينة كان يزيد من قداسة هذه المنطقة .

وكان هذا التخطيط المستطيل الشكل جزءاً من تقليد أقدم عهداً كان قد استقر فى شمال إيطاليا ، ومن المحتمل جداً أنه يرجع إلى أوائل العهد الحجرى الحديث . وقرى وادى نهر البو – وكانت تتألف من أكواخ تقف على قوائم مغروسة فى باطن الأرض Pile Villages – كانت تماثل فى شكلها شكل المعسكر الرومانى فى عهد متأخر ، وذلك على الأقل لأن الصوارى وجذوع الأشجار طويلة ومستقيمة ، وتبعاً لذلك تصلح لترتيبها فى شكل مستطيل تماماً ، بل إنها فى الواقع تقتضى ترتيبها على هذا النحو . بيد أنه بصرف النظر عن طبيعة الأرض فى ذاتها ، فإنه لمن المشكوك فيه وجود أى صلة مباشرة بين

(١) وكان لا يجوز للجيش الرومانى أن يقتحم سياج روما المقدس ؛ وكان أصلا أول من فعل ذلك فى عام ٨٨ ق . م .

مواطن الاستقرار البرمائية terremare [1] والمدن الرومانية . والواقع أن تصوير مدينة صغيرة يحيط بها سور من القوائم الخشبية ، على عمود تراجان ، من الممكن أن يوحى بأنه كانت للمدينة الرومانية أصول أخرى كانت لا تزال عندئذ ماثلة فى الأذهان أو أمام الأعين . ومع ذلك يبدو أن براعة الرومان الهندسية كانت تدين بالفضل رأساً للأترووريين ، ولو أن جلد الفلاح الإيطالى على العمل بالمعول والمجراف ، جعله صاحب هذا الفضل فى كل مكان . بيد أن المدينة الرومانية ، فضلا عن سياجها المقدس ، كانت تخطط بحيث تتناسق مع الجهات الأربع الأصلية ، فقد كانت الأمارة النموذجية التى تميزها عن المدن الهيلينيسية المماثلة لها فى الطابع العام هى تخطيط شارعيها الرئيسيين ، وهما الكاردو cardo والديكومانوس decumannus ، وكان أولهما يمتد من الشمال إلى الجنوب وثانيهما من الشرق إلى الغرب . وهذا الطراز المحورى للمدينة ، بشارعيه الرئيسيين اللذين يتقاطعان عموديا بالقرب من الوسط ، طراز قديم ، إذ أن « بدوى »[2] يجد أقدم أمثلة نعرفها فى الحصون التى شيدت على الجزر الصخرية ، أو على شواطئ النيل فى عهد الأسرة الثانية عشرة . فالحصن والمعسكر والمدينة لها جميعاً قاعدة مشتركة مستمدة من التنظيم الحربى .

وكان تصميم الشوارع الرئيسية يوضع بحيث تتقاطع فى وسط المدينة ، وهناك كان يحفر مكان توضع فيه الذخائر المقدسة ، وهناك كان المكان المعتاد — أو على الأقل المثالى — للفوروم ، وهو ما كان عند الرومان يعادل الأكروبول والأجورا ، على أساس تصورهما وحدة واحدة . ومع أنه كان لمبدأ الاتجاه أصل دينى ، إلا أنه كان يعدل تبعاً لطبيعة الأرض وما نشأ عن

---

(١) يستخدم الكتاب اليوم هذه الكلمة الإيطالية فى كل اللغات عند وصف هذه المساكن التى أنشئت أول الأمر فى البحيرات أو الخلجان الضحلة وبعد ذلك على الأرض الجافة .

(٢) الإشارة هنا إلى مقال نشرة الدكتور اسكندر بدوى . انظر المراجع .

ممارسة عادات أقدم عهداً ، كما كان يعدل كذلك التخطيط الشبكي المتصل بذلك المبدأ . وعلى الرغم من هذا فقد استمر ذلك المبدأ موجوداً – كنوع من البقايا المتحجرة لحضارة قديمة العهد – زمناً طويلا بعد أن فقد معظم ما كان له من دلالة على الاتجاهات الأربع الأصلية . وفى عصر فيتروفيوس Vitruvius ، أدت مراعاة شروط الصحة ووسائل الراحة إلى إدخال تعديلات أخرى على تخطيط المدينة الرومانية ، مما حدا به إلى أن يقترح جعل وجهة الشوارع الصغرى أو الأزقة بحيث لا تستقبل الرياح الباردة الكريهة ، ولا الرياح الحارة « الناقلة للعدوى » . بيد أنه كما حدث كثيراً ، فإن العادة الدينية هى التى كانت قد لفتت الأنظار إلى مبدأ الاتجاه ذاته .

ولقد أخذ الرومان عن المدينة الهيلينيسية نموذجا يقسم بنظام جميل ويقوم على أساس عملى ؛ وخلعوا على كل منشأة من المنشآت العظيمة فى التخطيط الملطى – المسرح ، والأجورا المحوطة بمبان متصلة لا يتخللها انقطاع ، والشارع العريض الذى يمتد مستقيما وتقوم على جانبيه المبانى – طابعا خاصا بهم وبزوا الأصل فى الزخرفة والفخامة . وكانت الأماكن التى التقى فيها هذان التياران من التأثير فى العقل الرومانى هى : إما المدن الأفريقية والسورية – وكانت غالبا متقدمة تقدما عظيما بوصفها مدنا تخصصت فى الصناعة ومراكز تجارية – وإما مدن الاستعمار العسكرى التى أنشئت لتكون بمثابة مراكز للدفاع عن الإمبراطورية ، فكانت دائماً تعج برجال الجيش الذين كان يمكن استدعاؤهم للخدمة ثانية ، وكانت تستخدم كذلك بمثابة مواطن حضرية للاستجمام حيث كان يتسنى للمحارب القديم ، بعد اشتراكه فى فتوحات روما ، أن يعتزل الخدمة ويعيش على إقطاعه ، ويشتغل بالأعمال الحرة ، ويستمتع فى سنوات فراغه من الخدمة بثمرات الفتح والسلب .

وإن تيمجاد Timgad التى كشف عنها النقاب حديثاً لمثال لفن التخطيط الرومانى بكل ما وصل إليه من أناقة فى أيامه الأخيرة . وإذ كانت

مدينة صغيرة مثل براينى ، وضع تخطيطها وتم بناؤها فى مدة محدودة ، فإنها اتسمت بعين البساطة فى الشكل الهندسى ولم يصبها أى تشويه من جراء إدخال تعديلات وتجديدات بعد إنشائها ، وهو ما كان يحدث فى مدن أكثر عملا وأوفر نشاطا ، تحت ضغط مقتضيات النمو والاتساع . فالتخطيط المنتظم على منوال رقعة الشطرنج فى داخل حدود مستطيلة الشكل ، والطرقات ذات البوائك ، والفوروم ، والمسرح ، والمجتلد arena والحمامات ، والمراحيض العامة (مع الإفراط فى التكاليف وفى الزخرفة) كانت كلها معدات أساسية عامة ، وقد وجدت بأجمعها فى تيمجاد . وكانت منشآت مماثلة لها تُقام مرارا وتكرارا من أقصى طرف فى الإمبراطورية إلى أقصى الطرف الآخر ، من تشستر Chester فى غرب إنجلترا — وما زال يوجد فيها شارع تجارى « رومانى » مرتفع ومسقوف — إلى أنطاكية فى سوريا ، وافيسوس Ephesus فى آسيا الصغرى . والأسواق الجديدة فى كوفنترى Coventry وهارلو Harlow بطوابقها العليا للحوانيت والمكاتب ، شأنها شأن المركز التجارى ذى البوائك الذى أقيم فى بروفيدنس بولاية رودايلند Providence, R. I. فى أوائل القرن التاسع عشر ، ليست إلا استعادة للتصميم الرومانى البديع المتعدد الطوابق .

وفيما عدا تنميق الحمامات العامة والمجتلد المبالغ فى اتساعه (وكان من الممكن ، حتى فى بلدة صغيرة ، أن يتسع لعشرين ألفاً من النظارة) فإنه لم يكن بين هذه المعدات جديد . أما ما قامت به روما فكان تعميم هذه المعدات ، بأن جعلتها — كما نقول اليوم بتعبير رومانى بعض الشيء — « معدات أساسية » . بيد أنه كما جاء فى وصف توماس مور لمدن يوتوبيا ، من يعرف واحدة من مدنهم فقد عرفها جميعاً . ولقد كانت روما بمثابة آلة كبرى لصنع « السجق » ، فقد كانت تحيل كل الحضارات الأخرى ، بكل أشكالها ومحتوياتها المتنوعة ، إلى وحدات متماثلة على طرازها .

وأما حيث كانت روما تترك للمدن قسطاً من الحرية فى إدارة شئونها الداخلية ، فإن ذلك لم يكن لتشجيع التنوع . بل للإبقاء على ما استقر منذ زمن طويل من الغيرة وسوء الظن بين المدن المتجاورة ، ضماناً لبقاء سيادة روما كاملة عن طريق استمرار الفرقة بين تلك المدن .

ويجب هنا أيضاً – كما يجب فى كثير من الأحيان فى أثناء تتبع تطور المدن – يجب التفرقة بين الوعاء والمحتويات . ففى المدن الرومانية ، ولا سيما فى روما ذاتها ، كما سنرى ، كثيراً ما كانت المحتويات تبعث على الاشمئزاز ، وفى بعض الأحيان كانت مباءة حقيقية للانحطاط والظلم . بيد أنه من الناحية الجمالية كثيرا ما كان شكل الوعاء آية فى الوقار والجلال . وفى خلال القرنين الثالث والثانى قبـل الميلاد خلعت روما أماراتها المميزة على عدد من مواطن الاستقرار الجديدة التى أنشئت للمهاجرين من روما والأقاليم . فمن المدن الاثنتى عشرة الأصلية فى توسكانيا ، ومن المدن الثلاثين فى لاتيوم ، استنبتت الدولة الرومانية حتى عهد أغسطس ثلثمائة وخمسين مدينة أخرى فى شبه الجزيرة الإيطالية فضلا عن ثمانين مدينة فى شمال إيطاليا .

وقد أنشئت هذه المدن طبقاً للنموذج الجديد ، أى صغيرة فى الحجم ، بسيطة فى التخطيط ، وتكاد تكون على النقيض تماماً من المدينة الأم ذاتها المنبطحة فى غير نظام . وكان هيجينوس Hygenus المهندس المعمارى الرومانى يعتبر أن « المدينة المثالية يجب أن تكون أبعادها ٢٤٠٠ قدم فى ١٦٠٠ قدم ، لأن زيادة الطول على ذلك قد تكون خطرا على الدفاع لوجود إشارات غير واضحة على طول أسوارها » . وفى كل من تورين وآوستا Aosta تتوافر هذه الشروط التى تكاد تنطبق تماماً على أولاهما ، وإن كانت المساحة فى الواقع قد تفاوتت من مدينة إلى أخرى ، فكانت ١٢ فداناً فى بازل Basle ، وحوالى ٥٠ فداناً فى ستراسبورج وأورليان ،

و ٣٣٠ فدانا فى لندن ، و ٤٩٤ فدانا فى أوتون Autun ، و ٦٦٠ فدانا فى نيم Nimes . وعلى الرغم من أن فيتروفيوس كان يرى إقامة سور مستدير حول المدن تيسيراً للدفاع عنها ، فإنه لم يؤخذ برأيه ، لأنه كان مجافياً لما جرت به العادة والسوابق .

ولم تقدر بعد تقديراً كافياً المدن الجديدة التى أنشئت فى أوائل أيام الإمبراطورية لتكون مراكز دفاعية فى البلاد المفتوحة . ومن الغريب أنه حتى أولئك الذين قدروا مزاياها بوصفها أمثلة لتخطيط المدن تخطيطاً منظماً أغفلوا أمر تكاثرها على نسق منتظم . بيد أن كثرة إنشائها تدل بذاتها على وجود ما يمكن أن نطلق عليه – استنادا إلى زيادة إنجلترا المعاصرة فى هذا السبيل – سياسة حكومية « للمدن الجديدة » . وربما لأن روما كانت ما زالت تريد أن تنشر فى الناس أنها فريدة فى بابها ، متفوقة على غيرها ، لم تقم بأى محاولة لإنشاء مدينة ثانية على غرارها إلى أن أصبحت بيزنطة العاصمة الشرقية ، وانتقل مركز الجاذبية بأكمله فى الدولة الرومانية إلى الولايات الشرقية . غير أن الغرض من هذه المنشآت الاستعمارية ظل غرضاً عمليا ، فقد وصف شيشرون مدينة ناربون Narbonne فى جنوب بلاد الغال (حوالى سنة ١١٨ ق . م) بأنها « مستعمرة من المواطنين الرومان ، برج مراقبة للشعب الرومانى ، حصن ضد قبائل الغال المتوحشة » .

ويبدو أن المدن الجديدة قد وضع تخطيطها جميعا لعدد محدود من السكان يبلغ حوالى خمسين ألفا . ولا بد من أن ذلك كان الحد الملائم لعدد السكان ، فقد عمرت بلاكنتيا (Placentia = بياشنزا ، Piacenza) وكريمونا فى العام نفسه بإيواء ستة آلاف أسرة فى كل منهما ، وكان هذا العدد ، مع إضافة الأرقاء ، يصل إلى ما يقرب من العدد الأساسى المقدر للسكان ، وعرضا ، لم يكن من الهين تهيئة ما يلزم هذا العدد من المبانى والهجرة المنظمة . ومن المحتمل أنه حتى ثغر أوستيا المزدهر لم يكن ليزيد عدد سكانه

على ٥٠ ألفا ، وأقصى تقدير لعدد سكان أوستيا لا يمكن أن يزيد على ضعف ذلك العدد . وربما كانت بولونيا تحتوى فى العصر الرومانى عددا من السكان أقل مما كانت تحتويه فى العصور الوسطى . وعلى ذلك إذا كان من الممكن أن نتبين أن مدنا تاريخية كثيرة من مدن الإمبراطورية زاد حجمها زيادة كبيرة بسبب الصناعات والتجارة الخارجية ، فإن المنشآت الجديدة ظلت متواضعة . والواقع أن كثيرا من المدن لم يبلغ عدد سكانها إطلاقا خمسين ألفا ، ولعل المجموع الكلى لعدد سكانها جميعا لم يبلغ ١٧,٥٠٠,٠٠٠ نسمة . ولو لم تكن هناك سياسة مقصودة لتوزيع الخاضعين لروما على نطاق واسع ، لكان من الممكن أن تتألف من هؤلاء السكان اثنتا عشرة مدينة على غرار روما . ولكن يجب ملاحظة أنه فى الوقت عينه الذى كانت فيه روما ذاتها تقترب من أقصى حدود الاكتظاظ وسوء النظام ، أوقف ما جرت به عادة الجمهورية من إنشاء مستعمرات لمواطنيها فى مختلف أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية ، وبعد عام ٦٨ م . بطل تقريبا إنشاء مستعمرات فى إيطاليا ذاتها .

ولقد كان إنشاء هذه المدن الجديدة عملا اجتماعيا ، أثمن وأجل قدرا من أى فوائد جنتها روما من احتكاراتها الشرهة . وما كان ينقص المدن الجديدة فى الحجم ، كانت تعوضه فى الجودة ، وعرضا ، فى الاكتفاء الذاتى . فإنه فى الأوقات العادية فى بلاد الغال أو اكويتانيا ، كانت هذه المدن تستطيع أن تستمد معظم غذائها من المنطقة المجاورة ، ولذلك فإنها حافظت على التوازن بين الريف والحضر ، وهو الذى أخلت به المدن الأكبر منها حجما بسبب اتساعها ذاته . وفى مناطق كثيرة ، كان الاستعمار مصحوبا بنظام مماثل فى تخطيط صفحة الأرض يتضمن وضع خرائط للطرق وتقسيم الحقول إلى قطع طويلة مستطيلة الشكل ما زالت تشاهد من الجو ، وتراعى فى الاستعمال اليومى . وهذا النظام « المئوى » يميز أجزاء كبيرة من الأراضى المنخفضة فى إيطاليا ودلماتيا وأفريقيا .

وحتى إن أعوزتنا البينات المكتوبة ، لابد من أن إنشاء هذه المدن الرومانية الجديدة كان بكل تأكيد ثمرة سياسة واعية متبصرة . وكانت توجد فى هذه الأماكن كل المنظمات وكل الفنون التى كانت روما تفخر بها ، وحتى الطقوس الدموية التى تقام فى المجتلد كان يتكفل بتوفيرها الخيرون المحليون ممن كانوا ينشدون تخليد ذكرى كرمهم وثرائهم . فكان يوجد هناك كل ما ترغب فيه النفوس من الحياة الحضرية فيما عدا ضخامة روما وتنوعها وتركيزها فى بضعة أميال مربعة موارد إمبراطورية بأكملها كانت تمتد من النيل إلى بحر الشمال .

ويبدو أنه لم يكن لمدن الأقاليم وجود فى نظر أبناء الطبقة الراقية من الرومان ، فقد كانت مكانة روما تستحوذ عليهم كما تستحوذ اليوم مكانة لندن وباريس على فئات مماثلة ، فلكى ينعموا بطيب العيش ، كان يجب أن يقيموا فى روما ، أو حينما كانت الإقامة فيها تصبح فيها غير محتملة مؤقتاً بسبب وباء أو متاعب الموسم الاجتماعى ، كان يجب أن يغادروا روما إلى منزل فى الريف . ولكن من المحقق أنه لم يكن لديهم ما يحفزهم إلى الاستقرار فى مدن الأقاليم الصغيرة بما فيها من نظام رتيب أقل إرهاقا ، ومزايا أقل ضرراً مما فى روما . ألا يستشف المرء من صمت كُتّاب اللاتينية عن المدن الجديدة — وكانت من نواح كثيرة أصلح من روما للإقامة وأدعى منها إلى رغبة الإنسان فيها — شيئا من ذات حب التعالى الشائع الذى يجده الإنسان فى أوساط مماثلة فى انجلترا حيال المدن الجديدة التى تتناثر اليوم حول لندن ؟ لقد كانوا يفضلون أن يوجدوا أمواتا فى روما على أن يعيشوا فى تورين أو بافيا . (اقرأ ما كتبه هارلو Harlow أو كرولى Crawley) :

بيد أنه تطالعنا قصة أخرى فى آداب القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد ، فإنه عند حلول هذا الوقت كانت المدن الجديدة الفجة قد نضجت ، واكتسبت كل منها طابعاً خاصاً بها ، وهو ما لا يحدث إلا نتيجة لتوالى

الأجيال المتعاقبة وتراكم ما تخلفه أحداث التاريخ من رواسب مصطبغة بصبغات خفية . ومن إمكانياتها المحدودة التي ارتضتها أوجدت الحياة الريفية الناجحة التي يتبين المرء أكثر من لمحة سارة منها في القصائد المعاصرة لأوزنيوس Ausonius من بوردو Bordeaux . ولقد أبقت هذه المدن على ما كان قيما في الحضارة القديمة للمدينة polis ، على نحو ما تفعل تماما إلى اليوم مدن مثل إكس ــ آن ــ بروفانس من إبقائها على الصفات الغالية Gallic : التي كانت لا تزال دافقة بالحياة في القرن الثامن عشر ، ثم أودعت الصناديق الزجاجية في متاحف باريس ، ولكنها لم تعد تشاهد في شوارعها الكبرى المزدحمة بالناس .

إلا أنه لم يدر بخلد روما إطلاقا أن تطبق في حياتها الحضرية والإمبراطورية مبادئ التحديد والاعتدال والترتيب المنظم والتوازن ، ولقد فشلت فشلا ذريعاً في وضع الأسس لاقتصاد ثابت ونظام سياسي عادل تمثل فيه كل جماعة تمثيلا فعالا ، وهي الأسس التي كان من شأنها أن تكفل للمدينة العظيمة التمتع بحياة أفضل . ولم تفلح كل محاولاتها لإنشاء دولة عالمية إلا في تحقيق التوازن بين مزاياها ومفاسدها .

وما زال في استطاعة المرء أن يتتبع أثر الطابع الذي تركته روما على مجموعة كاملة من المدن في إيطاليا وسواها ، فنابولي وبولونيا وبارما وبياشنزا وأوستيا كانت بين بواكير منشآت الجمهورية ، على حين أنه في القرن الأول للميلاد تبعتها كومو وبافيا وفيرونا وفلورنسا . وقد وضع تصميم هذه المدن جميعاً بحيث تتألف كل مدينة من وحدات تبلغ مساحة كل وحدة منها حوالي ٢٥٠ قدما مربعة ، واختيرت من البداية مواقع الأماكن الخلاء والمباني العامة ، وروعي في ذلك اتصالها بالطرق الرئيسية ، وعلى الرغم من أن روما ذاتها ، بتلالها السبعة ، كانت « مدينة أكروبول » ، تكونت من توحيد قراها ــ وكانت كل قرية منها تسكنها في الأصل قبيلة مختلفة ــ فإنه

كما يلفت النظر أنه فى المدن الجديدة : حتى حيث كان يوجد تل قريب نسبيا على الضفة الأخرى من النهر ، كما كانت الحال فى تورين ، كانت المدينة تقام على موقع مستو إلى جانب النهر : مراعاة لسهولة التنقل ، ولكى يكون تخطيط المدينة أكثر انتظاما .

والميادين والساحات والشوارع ذات البوائك فى المدن الإيطالية التى أنشئت بعد ذلك ، كانت نتيجة مباشرة للتخطيط الرومانى : وعلى الرغم من أن أسواق العصور الوسطى كانت تختلف من ناحية الوظيفة ، ومن الناحية المعمارية عن الفوروم الرومانى ، فإنه من الحماقة الظن أنها كانت ابتكارا جديداً مستقلا بأكمله ، والواقع أن الأماكن الخلاء فى المدينة لم تتخذ شكلا جديداً فى جوهره إلا فى القرن السابع عشر .

ولما كنا نعرف مهارة روما فى إنشاء الطرق الرئيسية ، فإننا نولى وجهنا شطر المدن الجديدة لنرى ما إذا كانت تلك المهارة قد أحدثت أى تعديلات فى التخطيط الملطى الشائع ، ولا سيما أن تعدد تعطيل حركة المرور بسبب شدة الزحام أفضى إلى وضع لوائح بلدية لتنظيم المرور أولا فى روما فى القرن الأول قبل الميلاد ثم فى الولايات . وقد كنا نظن أنه كان من شأن التجربة أن توحى بضرورة التمييز بدقة بين الشوارع الكبرى الرئيسية والشوارع الأقل منها استخداماً ، أو حتى أن يسبق المهندسون الرومان – وكانوا على علم بازدحام المرور ازدحاما خانقاً فى روما ، وكانت هذه الظاهرة آخذة فى الامتداد إلى مدن الأقاليم – أن يسبقوا ليوناردو دافينشى فى مقترحاته لفصل طرق مرور العربات عن طرق المسير على الأقدام بوضعها على مستوى آخر . بيد أنه بقدر ما أمكن الكشف عنه إلى الآن لم يجترئ أحد على مخالفة السوابق الإغريقية ، فالكاردو والديكومانوس كانا يتصلان بالطرق الرئيسية التى تخترق الأقاليم ويؤديان إلى تجمع حركة المرور الرئيسية فى وسط المدينة بدلا من أن يتصلا بشبكة الشوارع فى نقطة

تماس عند أطراف المدينة ، أو على الأقل يكوّنا ، ميداناً كبيراً خالياً من الحركة بالقرب من الوسط ، على أحد جانبي الشارع الرئيسي الكبير . ومن ثم فإن تقاطع الشوارع فى وسط المدينة وفقاً للطراز القديم كان يتسبب فى إحداث أقصى قدر من الازدحام دون ما داع . وعلى الرغم من أن المدينة كانت تقسم إلى وحدات جوار أو أحياء vici بمراكزها وأسواقها الصغرى ، فإن شبكة الشوارع ذاتها كانت تخلو مما يساعد على تميز هذه الوحدات ، أو جعل الحياة فيها أكثر تماسكاً .

وفى التخطيط الرومانى تحسينات معينة لا نجد لها مثالا فى العاصمة التى لم يوضع لها تخطيط ، ولا فى المدن الجديدة التى أجيد تخطيطها ، بل نجد أمثلتها على الأصح فى مدن أبعد من ذلك ، فى سوريا وآسيا الصغرى ، وقد كانت بعض هذه المدن فى الأيام الأخيرة للإمبراطورية تنافس روما ذاتها فى عدد السكان وفى التعقد الاجتماعى . ولعل ما حدث فى بالميرا وجراش Gerasa وفيليبوبوليس ، أو فى أنطاكية وأفيسوس ، لم يكن له تأثير ، أو كان له تأثير قليل على مجرى تخطيط المدن فى المستقبل فى أوروبا الغربية . بيد أن بعض الظواهر التى كانت تشاهد فى هذه المدن فى عصر متأخر جديرة بالتنويه بها هنا ، ولو لم يكن ذلك إلا لأنها شابهت المدينة « الحديثة » — أى المدينة التجارية البيروقراطية — من حيث الروح والشكل، بل كانت أقرب شبهاً إليها من الأمثلة الهلينيسية التى تركت أثراً عميقاً فى نفس بويت Poëte .

فمثلا شارع المتاجر العريض الممتد إلى ما لا نهاية صوب الأفق — وكثيراً ما كانت أروقة الأعمدة تؤكد طوله — كان من الظواهر المألوفة فى هذه المدن ، وهو يحل فيما يبدو لأول مرة مكان السوق المجمع المفتوح ، لكن من الجائز أن الشارع الرئيسى كان يتسع حتى يصبح ميداناً مستديراً ، كما كانت الحال فى بالميرا . ولقد كان يوجد مثل هذا الشارع التجارى

فى دمشق ــ « الشارع الذى يسمى الشارع المستقيم » وهو الذى أشير إليه فى أعمال العهد الجديد ــ وكذلك فى بيت المقدس ، ولعل أصل هذه الشوارع يرجع إلى « الشارع العريض » Broad Way وهو الذى يترجم أحياناً بلفظ « بولفار » Boulevard فى النصوص السومرية . وعادة كان يعوق امتداد الرؤية فى هذه الشوارع قيام عقود ، تتخللها ممرات فى أربعة اتجاهات ، عند نقط التقاطع مع الشوارع الرئيسية . أما عن أنطاكية ، فإنه طبقاً لما ذكره ليبانيوس Libanius فى خطابه الذى ألقاه عن أنطاكية حوالى سنة ٣٦٠ ميلادية ، كان امتداد الشوارع التى بها أروقة أعمدة يبلغ ستة عشر ميلا ، وكانت المبانى العامة والخاصة تختلط مع بعضها بعضاً هذه الشوارع على نحو ما نجده اليوم فى بيكادلى Piccadilly أو فيفث أفينيو Fifth Avenue . ولقد كان ليبانيوس يقدر قيمة هذه الشوارع ، فإنه يقول عنها :

« عند ما تسير فيها تجد عددا متوالياً من المنازل الخاصة وقد توزعت بينها المبانى العامة فى أنحاء متفرقة ، فهنا معبد ، وهناك مبنى حمام ، على بعد مسافات تجعلها قريبة من كل حى ، وفى كل حالة تجد المدخل من ناحية رواق الأعمدة . فماذا يعنى ذلك ، وما الهدف من هذا الوصف المطول ؟ إنه يبدو لى أن أكثر ما يبعث على السرور ، أجل ، وأكبر ما يعود بالفائدة من نواحى الحياة فى المدينة ، هو الاختلاط الاجتماعى والصلات الإنسانية ، وبحق زيوس ، إن المدينة التى يتوافر فيها ذلك على أوسع مدى لهى مدينة حقاً . والتحدث أمر حسن ، وأحسن منه الاستماع ، وأحسن الكل إسداء النصيحة ، وعطف المرء على ما يمر بأصدقائه من التجارب ، فيشاركهم فى أفراحهم وأتراحهم ويتلقى منهم عطفاً مماثلا ــ فهذه ونعم أخرى لا حصر لها ، تنشأ عن اجتماع الرجل بأقرانه . والناس فى المدن الأخرى التى لا توجد فيها أروقة أعمدة أمام منازلهم يضطرهم سوء الأحوال الجوية

إلى البقاء بمنأى عن بعضهم بعضا ، فهم يعيشون اسماً فى المدينة ذاتها ، ولكنهم فى واقع الأمر يبعدون عن بعضهم بعضاً ، كما لو كانوا يعيشون فى مدن مختلفة . . . وعلى حين أن الناس فى المدن يفقدون عادة الألفة بقدر بعد الشقة التى تفصل بين أماكن إقامتهم فإنه فى حالتنا ، على النقيض من ذلك تقوى عادة الصداقة بالاختلاط المستديم ، فهى تزداد هنا بقدر ما تتناقص هناك » .

ويبلغ من قلة الأدلة المباشرة عن حالة الحياة فى المدن القديمة — باستثناء روما وأثينا — حتى فى القصائد والروايات التى تدور حوادثها فى بيئة حضرية ، أن ملاحظات ليبانيوس تعتبر ثمينة ، ولا سيا أنه — كما فعل أرسطو تماماً من قبل — يضع الوظيفة الاجتماعية للمدينة فوق فائدتها الثانوية من حيث ما تسده من حاجات وتؤديه من خدمات .

ولكن شيئاً آخر « حديثاً » كانت تتصف به أنطاكية وتمتاز به عن روما ، حيث — حتى والإمبراطورية فى ذروة مجدها — كانت الشوارع مظلمة فى الليل ، وكان اجتراء الناس على الخروج من بيوتهم ليلا ينطوى على المقامرة بحياتهم ، فقد كانوا عرضة لاعتداءات القتلة من أبناء الطبقة السفلى والعابثين الصاخبين من أبناء الطبقة الراقية ، كما كان يحدث فى لندن فى القرن الثامن عشر ، وكانت هذه الميزة هى إضاءة الشوارع . وفى أفيسوس فى القرن الخامس الميلادى كان شارع أركاديوس يضيئه خمسون مصباحاً ، « حتى تمثال الخنزير الوحشى » ، ولكن طبقاً لما يقوله أميانوس Ammianus فإنه حتى فى منتصف القرن الرابع « كانت قوة ضوء المصابيح ليلا كثيراً ما تعادل ضوء النهار » . ويتم ليبانيوس ملاحظاته مفاخراً بأن المواطنين فى أنطاكية « قد تخلصوا من نير النوم ، فهنا يعقب مصباح الشمس مصابيح أخرى تفوق إضاءة المصريين ، والليل عندنا لا يختلف عن النهار إلا فى نوع الإضاءة ، ولذا فإن الحرف تسير فى مجراها كما كانت من قبل ، فيزاول البعض صناعاتهم على حين ينصرف الآخرون إلى الضحك والغناء » .

وماذا يعنى ذلك ؟ لعله لا يعنى شيئاً أكثر من أن الروح التجارية تتمخض عن أوضاعها الخاصة بها دون أى اعتبار للصفات الأخرى التى يتسم بها طراز الحضارة ، شأنها فى ذلك تماماً شأن الروح العسكرية كما تتمثل بصورة آلية فى كتلة متراصة Phalanx من صفوف جند سومريين أو مقدونيين ، فإنه لا يزال من اليسير إدراك تلك الروح بعد انتقالها فى أوضاع مماثلة إلى جيش فى القرن الثامن عشر يستخدم أسلحة مختلفة كل الاختلاف . ونلاحظ أن الروح التجارية الجديدة قد أعربت عن نفسها فى لندن فى أوائل القرن التاسع عشر عن طريق مضاعفة أنوار الشوارع ونوافذ عرض السلع ، ولقد كان هذا التغيير يستوقف النظر حتى إنه خيل إلى الأمير التافه فون بيكلر — موسكاو ، وهو يمر فى شوارع لندن ليلة وصوله إليها ، أن هذه الأنوار أضيئت بصفة خاصة تكريماً له ، وبالإيجاز فإن حركة السوق ليلا ونهاراً هى التى تكاد تكون قد أدت آلياً إلى وجود الشارع الأبيض البهيج Gay White Way فهل كانت هذه الإضاءة الليلية هى أول ما شجع على اتباع عادة النوم فى وقت القيلولة فى البلاد الحارة الجنوبية ، أو أنه لم يكن لها من أثر سوى فرض ساعات أطول على الطبقة الكادحة ؟

ومما يستوجب الأسف أنه لا توجد لدينا صور مماثلة للمدن الصناعية الإمبراطورية الرومانية ، ولو أن روتيليوس ، فى أثناء عودته إلى موطنه ببلاد الغال فى أوائل القرن الخامس ، لاحظ عند مشاهدة إلبا Elba أنها مشهورة بما فيها من التعدين وتبلغ من الثروة مبلغ نوريكوم Noricum ، بما فيها من مناجم الحديد ، أوبيتوريكس Biturex ، حيث يسمى الصلب . ولو كنا على علم سواء بتخطيط هذه الأماكن أم بمحتوياتها لكان من المحتمل إدخال تعديلات كبيرة على الصورة التى أوردناها لنظام المدينة الكلاسيكية ، فإنه إلى أن جاءت العصور الوسطى لا نرى بوضوح قيام الصناعة بوصفها جزءاً من المدينة متمما لها ومعترفاً به فيها .

٢ — المجارى وقنوات المياه المقامة على قناطر

لقد تناولنا حتى الآن من مظاهر المدينة الرومانية تلك التى استمدها الرومان بوجه خاص من الشعوب التى قهروها وسحقوها ، فإنه حتى سنة ٧٥١ ق . م ، حينما أنشئت روما ، طبقاً لرواية شيشرون ، لم يكن الرومان أنفسهم إلا قرويين . وحتى سياسة (المدن الجديدة) ، لم تكن شيئاً مبتكراً ، فإنها فى الواقع لم تكن سوى ما كان الأبونيون يزاولونه من التوسع عن طريق الاستعمار مع انتهاج خطة أكثر انتظاماً فى التنفيذ ، وإن حرصت روما على جعلها أضيق نطاقاً .

ولا بد من أن التقاليد الإغريقية كانت سائدة من الناحيتين السياسية والمعمارية معاً فى المدن الصغرى ببلاد الغال — مثل مرسيليا أو ناربون أو أورانج فى جنوب فرنسا — لمجرد حجمها المتواضع وما فيها من منظمات مستقلة للحضارة الإغريقية ترجع إلى عدة قرون سابقة . وما أسهم به الرومان أنفسهم فى تخطيط المدن كان أساساً ربيب الهندسة الضخمة وحب الاستعراض الذى ينم عن الخيلاء ، وهو ذوق حديثى النعمة nouveaux riches الفخورين بتحفهم السلبية ، وتماثيلهم ومسلاتهم العديدة المسروقة أو المنقولة عن غيرها بدقة وعناية ، ومقتنياتهم المقلدة وزخارفهم الباهظة التكاليف التى أقاموها حديثاً . بيد أن الولايات الإغريقية ، سواء أكانت فى بلاد الغال أم فى صقلية ، لم تكن تعوزها دلائل الرقى فى الذوق والطراز ؛ ولا جدال فى أن المنزل المربع Maison Carée المعروف فى نيم — وهو الذى أعجب به توماس جيفرسون — عمل رائع يضارع ما كان الفن الأتيكى خليقاً بأن يوحى به فى أزهى أيامه . ولا بد من أن هذا المبنى كان يبدو هشاً حتى وهو حديث البناء ، على نحو ما يبدو اليوم هشاً وكأنه حديث البناء إلى حد يثير العجب .

بيد أن روما لم تخلف أثرها فى حركة التحضر بأعمالها التى استوحتها من سواها ، ولا بما قامت به من تضخيم طرز العمارة الكلاسيكية تضخيما ملوءه الغرور والخيلاء . وللوقوف على حقيقة أمر روما من حيث أرقى ما وصلت إليه ماديا ، وأحط ما انحدرت إليه إنسانيا ، يجب تركيز الانتباه فى مدينة روما ذاتها ، فهنا المكان الذى أقيم فيه المعيار الجديد ، المكان الذى تعاون فيه الجندى والمهندس ، لا لمجرد إنشاء الأسوار والخنادق ، بل لإقامة الجسور والخزانات على نمط ضخم . هنا المكان الذى حاولت فيه روما – فى منشآتها العامة العظيمة – ألا تقف عند مجرد معالجة مشاكل الجموع الكبيرة من الناس الذين حشرتهم معا ، بل أن تضفى على حضارتها الضخمة – وكانت فيما عدا ذلك حضارة منحطة – مظهرا حضريا ملائماً ينم عن عظمتها الإمبراطورية .

وللوقوف على مدى هذه الخدمات التى أدتها روما يجب أن يعد المرء نفسه لاجتياز تجربة قاسية ، ولكى يستمتع بها يجب أن يفتح عينيه جيداً ، غير أنه يجب أن يعرف كيف يسد أنفه عن الروائح الكريهة ، وأذنيه عن صرخات الألم والفزع ، وحلقه عما تهم معدته بإفراغه من جوفها ، وفوق كل شىء يجب أن يحتفظ المرء بعواطفه باردة ، فيصد فى غلظة رومانية حقة ، كل باعث على اللين والشفقة ، وذلك لأن كل أنواع التضخم سوف تنبسط أمامه فى روما – وليس الانحطاط والشر أقلها ضخامة ، على أن رمزا واحدا فقط هو الذى يمكن أن ينصف محتويات تلك الحياة ، وهو المجرى[1] المفتوح ، ولسوف نبدأ بالكلام عنه .

من المؤكد أنه ليس من قبيل المصادفة أن أقدم معالم الهندسة الرومانية كان المجرى الأعظم Cloaca Maxima الذى أنشئ فى القرن السادس على نطاق بلغ من ضخامته أن بناته لا بد من أن يكونوا : إما قد أوتوا من بعد

---

(١) مفرد مجارى .

النظر منذ اللحظة الأولى ما جعلهم يرون أن تلك المجموعة من القرى سوف تغدو مدينة كبرى تأوى مليونا من الأنفس ، وإما قد اعتبروا من القضايا المسلم بها أن العمل الرئيسى فى الحياة وغايتها القصوى هى العملية الفسيولوچية لإزالة الضرورة . فلقد بلغ من متانة الأحجار ومن ضخامة الاتساع ، أن هذا « المجرى » ما زال يستخدم إلى اليوم ، والزمن القياسى الذى استخدم فيه هذا المبنى باستمرار لمدة تزيد على خمسة وعشرين قرنا يثبت أن انخفاض قيمة التكاليف الأولية فى تخطيط المدن لايدل حتما على الاقتصاد ، وذلك لأنه عندما يدرس مشروع المرفق المطلوب وينفذ على أسس سليمة يكون فى الحقيقة كل ما يهم فى الأمر هو التكاليف النهائية ، موزعة على طول مدة الحياة المتوقعة للمبنى ، وعلى هذا الأساس فإن المجرى الأعظم قد أثبت أنه من أرخص الأعمال الهندسية التى عرفت ، ولو أنه ينافسه فى ذلك بعض القناطر العالية والجسور التى أقيمت فيما بعد وما زالت تستخدم إلى اليوم ، وليست أقلها شأنا تلك القنطرة العظيمة ، قنطرة جارد Pont du Gard فى بروفانس Provence .

ولقد لاحظ الجغرافى الإغريقى إسترابون أنه على حين كان الإغريق ، فى تخطيط مدنهم ، يوجهون عناية خاصة نحو الجمال والتحصينات والمرافئ والأرض الخصبة ، كان الرومان يمتازون برصف الشوارع وموارد المياه والمجارى ، فهذه الميزة كانت إذن ثابتة مقررة فى القرن الأول للميلاد . وإن ديونيسيوس من هاليكرناسوس Dionysius of Halicarnassus ليؤيد هذه الملاحظة بالألفاظ نفسها تقريباً ، ولقد ظل إجماع الرأى على ذلك قائماً حتى اليوم . والأعمال العظمى التى قامت بها روما فى أكثر من ناحية واحدة يمكن تلخيصها فى الكلمات التى استخدمها ذات مرة عالم عظيم بصدد تفسير معمارى أجوف لنظرياته التى قلبت رأسا على عقب الأفكار السائدة عن الزمان والمكان ، فقد قال :

« إن هذا التفسير قد أسيء هضمه ولكن أجيد إفراغه » .

ولقد كان « المجرى » الأعظم سابقاً فى الزمن على جلب المياه بالقنوات من الينابيع ومجارى المياه البعيدة ، ولعل ذلك يرجع إلى أن موارد المياه المحلية من الآبار ظلت كافية إلى سنة ١٠٩ بعد الميلاد ، حينما أنشأ تراجان قناة على قناطر aqueduct جلبت المياه لأول مرة إلى الضفة اليمنى للتيبر لإطفاء ظمأ العدد المتزايد من السكان . بل إن رصف الشوارع جاء قبل قنوات المياه ، إلا أنه نفذ فى الطرق الواقعة خارج روما قبل استخدامه إلى أى مدى فى داخل المدينة ذاتها ، إذ أن روما كانت لا تزال توغل فى الوحل فى أرضها المنخفضة ذات المستنقعات ، حينما أنشأ أبيوس كلاوديوس Appius Claudius فى سنة ٣١٢ ق . م أول طريق رومانى جديد بهذا الاسم وهو المعروف بطريق أبيوس Via Appia . وإن تهكمات يوفنال Juvenal لتدل فى الواقع على أن رصف الشوارع لم يكن عاما فى روما ، حتى فى عهد الإمبراطورية ، لكن لا شك فى أنه كان يستخدم على نطاق واسع فى المدن الأحدث والأصغر ، شأنه فى ذلك شأن كثير من المبتكرات الأخرى التى كانت روما ذاتها تتباطأ فى استخدامها ، ففى بومبيى كان للسائر على قدميه طوار جانبى مرتفع وكذلك أحجار يخطو عليها عبر الطريق الذى به حركة مرور .

وكل هذه الأمثلة الثلاثة من مجارٍ وقنوات للمياه وطرق مرصوفة — وهى مبتكرات هندسية ملكية لم تكن مجهولة فى مدن وأقاليم أقدم عهدا — حولت جميعاً إلى منشآت جماعية عظمى لخدمة جموع سكان الحضر ، ولكن ، كما يحدث كثيراً عند إساءة التطبيق هندسيا لقد حد من نطاق فائدتها المادية قدر من ضيق الأفق فى تنفيذها ، فهذه الأعمال الهندسية الهائلة لم تكن وافية بالغرض منها ، وذلك لأن الهدف الإنسانى المنشود لم يدرك كنهه بوضوح ، أو أنه لم يقبل الاسترشاد به كهدف نهائى إلا كرها — كما هو الحال اليوم

فى الكثير من المشروعات الضخمة لإنشاء الطرق العامة فى أمريكا . وهكذا فإنه كما هو شأن طرقنا السريعة فى عدم تنسيق اتصالها بشبكة الشوارع المحلية ، كانت المجارى الكبرى فى روما غير متصلة بمراحيض فيما هو أعلى من الطابق الثانى ، بل أسوأ من ذلك أنها لم تكن متصلة على الإطلاق بالعمائر المكتظة بالسكان .

وجملة القول أن التسهيلات التقنية كانت أقل وجوداً حيثما كانت الحاجة إليها أكثر إلحاحا ، وعلى الرغم من أن جموع السكان كانوا يستطيعون أثناء النهار التردد على المراحيض العامة المجاورة نظير أجر ضئيل ، فإنهم كانوا يودعون قاذوراتهم المنزلية فى صهاريج مغطاة وموجودة عند قاع بئر السلم فى مساكنهم المزدحمة ، وكان يتولى إزالتها منها فى فترات معينة حملة القمامة والفلاحون الراغبون فى السماد العضوى ، وحتى المواظبة على الإزالة كل ليلة كانت لا تكاد تقلل شيئاً من الرائحة الكريهة التى لا بد من أنها كانت تنتشر فى أرجاء المبانى . (وقد كان البول المجموع فى جرار خاصة يستعمل فى عدك الأقمشة) . وعلى النقيض من إزالة المياه ، كان لنقل الروث واستخدامه فى الزراعة ميزة إمداد أراضى المزارع المجاورة بسماد نيتروجينى ثمين ، فإنه إذ ذاك كما هو الحال اليوم ، كانت المراحيض التى يكتسحها الماء تتسبب فى آن واحد فى إضاعة مادة صالحة للإخصاب وفى تلويث قنوات المياه . لكن لا بد من أن كميات الفضلات المتخلفة عن سكان هذه المناطق الفقيرة الشاسعة كانت أكبر بكثير مما كانت تستطيع الأراضى المجاورة استيعابه ، فإن لدينا أدلة على أنه كانت توجد فى الأحياء السكنية آبار وخنادق للمجارى كانت فى الأصل مكشوفة ، وبعد لأى غطيت فى عصر متأخر ، ولو أنه لم يعمل على إزالتها .

والجمع العقيم نفسه بين الوسائل التقنية الراقية والتخطيط الاجتماعى البدائى يصدق كذلك على طرق جلب الماء ، فقد كانت الموارد العامة للماء

وفيرة إلى حد يبدو معه أن الكميات الهائلة التي كانت تستخدم فى الحمامات العامة لم تكن فوق طاقتها : بيد أن الحمام الخاص كان ترفا لم يعرفه إلا الأثرياء ، والمبانى التي كشف عنها فى روما لا توجد بها أنابيب تدل على استخدام الماء فيما هو أعلى من الطابق الثانى ، ولو أن مثل هذه الوسيلة من وسائل الراحة كانت توجد أحياناً فى مدينة ريفية صغيرة مثل بومبي ، وبعبارة أخرى فإن المياه والفضلات كان يجب نقلها باليد ، الأولى إلى أعلى ، والثانية إلى أسفل ، فى مساكن روما الراقية ، على نحو ما كانت تنقل تماما فى المساكن الراقية المماثلة لها فى أدنبرة فى القرن السابع عشر ، ومن ثم فإن روما ، برغم كل ما توافر لها من مهارة وثروة هندسية قد فشلت فشلا ذريعاً فى مراعاة أوليات قواعد الصحة البلدية فى هذا الصدد . ونتيجة لذلك فإن السائر فى طرقات روما كان يتعرض لمثل ما كان يتعرض له السائر فى طرقات أدنبرة من خطر إفراغ آنية إزالة الضرورة على أم رأسه ، وإن كانت المحاكم الرومانية قد عنيت بالكشف عن المذنبين فى مثل هذه الأحوال ومعاقبة الذين كان رجال شرطة البلدية يقدمونهم إليها .

والخلاصة أن الأعمال الهندسية العظمى التي تفوقت فيها روما ، أى قنوات المياه المقامة على قناطر ، والمجارى المنشأة تحت الأرض ، والطرق المرصوفة ، كان تنفيذها فى جملته مشوبا بالعجز والقصور على نحو غير معقول ، وإن روما فى ذات ضخامتها وجشعها ، كانت السبب فى فشلها ، فلم يتسن لها إطلاقا الوفاء بحاجاتها . ويبدو أن لا سبيل إلى الشك فى أن المدن الريفية الأصغر منها كانت تدبر أمورها على وجه أفضل منها فى هذه النواحى : لا لشيء إلا لأنها لم تتجاوز حدود الطاقة البشرية .

ولا نستطيع أن نترك موضوع تصريف فضلات الإنسان دون أن نشير إلى ظاهرة أخرى تلقى شكا خطيراً حول ذكاء وكفاية رجال البلدية فى روما ، إذ أنها تثبت انخفاض مستوى الوسائل الصحية وحالة الصحة العامة

إلى حد لم تنحدر إليه إطلاقا مجتمعات أكثر بدائية ، وذلك أن أبسط وسائل الحيطة ضد الأمراض كانت معدومة عند تصريف الكميات الهائلة من القمامة والفضلات التي كانت تتجمع فى تلك المدينة الكبيرة ، ولا بد من أن روما فى أوج عظمة الإمبراطورية كانت تأوى نحو المليون نسمة ، قد تزيد على ذلك أو تقل عنه ببضع مئات من الألوف ، وإذا كان تصريف فضلات الإنسان بنقلها فى عربات وإلقائها فى خنادق مفتوحة ضاراً بالصحة ، فماذا عسانا أن نقول عن تصريف الأنواع الأخرى من الفضلات والقاذورات بإلقائها فى حفر مكشوفة ؟ وليس أقل من ذلك شأنا إلقاء الأجساد البشرية بلا تمييز فى مثل تلك الحفر المروعة التى كانت تتناثر عند مشارف المدينة كما لو كان القصد منها أن تضرب حولها نطاقا ضاراً بالصحة .

وحتى بدون هذه العوامل الداعية للتيفود والتيفوس والكوليرا ، فإن انتشار الملاريا جعل من روما والريف المحيط بها منطقة من أبعد مناطق العالم صلاحية للصحة طوال القرن التاسع عشر بأكمله ، ويتضح ذلك لمن يقرأ قصة « ديزى ميلّر » للكاتب هنرى جيمس . ويعوض ما نفتقر إليه من إحصاءات إدارة الشئون الصحية عدد كبير من المذابح والهياكل التى أهديت إلى إلهة الحمى ، فهى شاهد على التهديد المزمن بخطر الإصابة بحمى الملاريا ، على حين أنه ثابت من السجلات المدونة تكرر هجوم الأوبئة الضارية الفتاكة مما كان يودى بحياة الألوف فى يوم واحد . وهل هناك ما يدعو إلى العجب من أن روما حتى فى أزهى أيام مجدها الإمبراطورى ، قد وفدت عليها سلسلة متعاقبة من الأوبئة الفتاكة فى سنة ٢٣ ق . م وفى سنوات ٦٥ و ٧٩ و ١٦٢ بعد الميلاد ؟

وربما كان هناك ما يبرر وجود مثل هذه الحفرات ، كإجراء عاجل لدفن أعداد كبيرة من الموتى فى مثل هذه الظروف ، بيد أن الجرى على استخدامها فى كل يوم يدل على احتقار روما للحياة احتقاراً متأصلا فيها .

والواقع أن عدد الموتى الذين كان يلقى بهم كل يوم كان خليقاً بأن يثير المخاوف حتى لدى هيئة فنية أرقى نظاماً مما استطاع الرومان أن يصلوا إليه إطلاقاً ، فإنه عندما كانت تقام حفلات المجالدين الكبرى كان من الممكن أن يصل عدد ما يصرع فى يوم واحد إلى خمسة آلاف حيوان ، كان من بينها مخلوقات ضخمة كالفيل وجاموس البحر ، وذلك فضلا عن مئات المخلوقات البشرية التى كانت كذلك تسقط صرعى فى المجتلد . وإن هذه الأدلة لتبدو بعيدة عن التصديق إلى حد أنى أفضل الاستشهاد مباشرة بأقوال أحد العلماء الباحثين الذى قام بنفسه بتحقيقها ، وهو الآثارى رودولفو لانشانى Rodolfo Lanciani .

ويقول لانشانى : « إن من العسير تصور فكرة اللحود الرومانية carnarium فهى مجموعة من الحفر كان يلقى فيها دون أى نظام بالناس والحيوان ، أجساداً وجيفاً ، وأى نوع من الفضلات التى تجل عن الذكر ، ولتتخيل الحالة التى لا بد من أنه كانت تصير إليها هذه المناطق المروعة فى أوقات الوباء حينما كانت الحفر تبقى مفتوحة ليلا ونهاراً وعندما كانت الحفر تمتلىء إلى فوهاتها ، فإن الخندق المحيط بسور سرفيوس توليوس Servius Tullius ، فيما بين بابى كولينوس واسكويلينوس ، كان يمتلىء بالجثث التى كانت تلقى فيه كما لو كانت رمماً بالية ؛ إلى أن يبلغ ارتفاعها مستوى الشوارع المجاورة .

ولقد وجد لانشانى أثناء أعمال الحفر التى قام بها نحو خمس وسبعين حفرة أو قبوا ، تبلغ أبعاد كل منها اثنتى عشرة قدماً فى الطول وفى العرض وثلاثين قدماً فى العمق ، كانت جميعاً مملوءة « على نسق واحد بكتلة من مادة دهنية لزجة سوداء » . ولقد تذكر أنه فى اليوم الذى عثر فيه على الحفرة الثالثة كان مرغماً على إراحة عماله « بين حين وآخر لأن الرائحة الكريهة المنبعثة من ذلك الكوم العفن عند نبشه بعد فترة دامت عشرين

قرناً ، كان لا يستطيع احتمالها حتى رجال طال تمرسهم بكل أنواع المشاق مثل رجالى الذين كانوا يقومون بأعمال الحفر » .

وفى أوائل عهد الإمبراطورية فى أثناء حكم أغسطس الحسن التدبير ، حدث إصلاح جزئى كانت نتيجته حرق الجثث بدلا من مواراتها التراب — وهو ما يصعب اعتباره دفناً لائقاً — بيد أن ذلك لم يوجد حلا للمشكلة الأخرى الخطيرة ، وهى مشكلة تصريف القمامة .

وإذ كان الفحص الدقيق يكشف عن قصور المجارى فى مدينة روما ووسائل إمدادها بالماء — مهما يبلغ من عظم الأثر السطحى الذى تتركه هندستها فى النفس — فإن ذلك بعينه ينطبق أيضاً على نظام الشوارع ، فقد كانت تتكشف فى مناطق واسعة عن آثار دروب وطرق بدائية لعربات النقل لم توسع إطلاقاً بالقدر الكافى الملائم لحركة الانتقال بالعربات. ومرة أخرى نجد أن النظام الرومانى لم يكن سائداً حقاً إلا فى المدن الصغيرة فى الريف وفى المستعمرات ، فهناك توجد طرق جانبية عريضة للسائرين على أقدامهم ، وهو ضرب من التيسير كان معروفاً فى روما ، إلا أنه لم يصل أبداً إلى درجة التعميم فى كل جزء من المدينة ، فقد كانت الحوانيت تدأب على مزاحمة الطريق فى الشوارع الصغرى . وطبقاً لما يقوله جيروم كاركوبينو Jerome Carcopine فإنه فى عهد الجمهورية ، لم يوجد فى روما إلا شارعان جديران بهذه التسمية Viae أى إن اتساعهما كان يكفى لمرور عربتين — وهما الشارع المقدس Via Sacra وكان طريقاً للمواكب ، والشارع الجديد Via Nova ويدل اسمه ذاته على أنه كان ابتكاراً جديداً . وكان أحد هذين الشارعين يخترق الفوروم الرومانى ، على حين أن الآخر كان يمتد إلى جانبه . ولقد كانت الطرق الرومانية تتفاوت فى الاتساع بين اثنتى عشرة قدماً وأربع وعشرين قدماً فى بعض أجزاء من الطرق الرئيسية الكبرى ، بيد أن القاعدة العامة للاتساع كانت حوالى خمس عشرة قدماً . وبعبارة أخرى

لم يكن الشارعان العظيمان فى روما أكثر من امتداد للطرق الكبرى ، غير أن هذا النظام لم يتغلغل فى باقى المدينة .

وما إن أفضى ازدياد عـــدد السكان إلى ضرورة استخدام العربات للانتقال فى روما ، حتى أصبح ازدحام حركة المرور أمراً لا يطاق . ولقد كان من أول الأعمال التى قام بها يوليوس قيصر عندما تولى زمام السلطة أنه حرم مرور العربات فى وسط روما أثناء النهار . وقد ترتب على ذلك بطبيعة الحال ، إحداث ضجة كبيرة فى الليل ، نتيجة لمرور العربات بعجلاتها ذات الأطواق الخشبية أو الحديدية فوق الأحجار التى رصفت بها الشوارع ، مما كان يجعل الضجيج مزعجا يحرم النوم ، وقد كان هذا فيما بعد ذلك بزمن طويل سببا فى إصابة الشاعر يوفينال بالأرق . وعلى مثال ما يحدث اليوم ازدحام السيارات من الأثر فى حركة المرور بالمدن الصغيرة والكبيرة على السواء ، فإن ازدياد وسائل النقل التى تجرها الحيوانات كان يعوق حركة المرور فى كل مكان . ولذلك فإن كلاوديوس توسع فى تطبيق أمر الحظر الذى أصدره قيصر فجعله يشمل جميع البلديات فى إيطاليا ، كما أن ماركوس أوريليوس فيما بعد ذلك طبقه فى كل مدينة فى الإمبراطورية بصرف النظر عن وضعها الدستورى ، على حين أن هادريان (١١٧ — ١٣٨ ميلادية) ، إتماما للنظام ، وضع قيودا للعربات التى يسمح لها بدخول المدينة ، بأن حدد حمولة هذه العربات وعدد الحيوانات التى تجرها — وبذلك خفف حتى من حركة المرور ليلا بتقييد مصدرها ، ففى خلال قرن ونصف قرن كانت شدة حركة المرور تسير من سيئ إلى أسوأ .

وإن تطبيق هذه الأنظمة حتى فى المدن الجديدة ذات الشوارع المستقيمة الملائمة نسبيا ، ليدل على أنه كان من طبيعة هذا النظام الحضرى الجديد أن يولد ازديادا فى حركة المرور أكثر مما كانت تستطيع أن تفى بحاجته

شبكة الشوارع فيه . ولقد كان السبب فى هذا العجز هو تماما السبب عينه الذى يجعل أنظمة المرور فى الوقت الحاضر قاصرة عديمة الجدوى ، مع اتساع طرق المرور وتعددها ، وما هذا السبب إلا أنه لم تبذل أى محاولة للتحكم فى ازدحام الأرض نفسها ، أو للتخفيف من كثافة السكان الذين تأويهم مبانيها . وإنه لمن السخف أن العوامل التى تتولد عنها حركة المرور قد بقيت خارج نطاق خطة التحكم . وكأنما شدة كثافة المبانى لم تكن كافية ، فإنه طبقاً لما يقوله مارتياليس (Martialis ، سنة ٩٢ ميلادية) كان الفقر وعدم وجود أماكن يمكن استئجارها سببا فى أن كثيراً من الشوارع كانت تعج بمنصات ومظلات الجزارين والحلاقين وبائعى الخمور وغيرهم من الباعة .

وبدلا من العمل على الوصول إلى نسبة معقولة بين الطرق والمبانى ، أى بين كثافة حركة المرور وكثافة سكان المنازل ، عملت روما على نقيض ذلك تماما . وذلك أن البلدية سمحت ، بل إنها فى الواقع بسبب إهمالها المتواصل شجعت على سكنى الكتلة الشعبية الهائلة من سكانها فى عمائر مكتظة بنازليها كانت على هيئة وحدات ضخمة من المبانى تدعى جزر insulae . وإن هذه الجزر لتنافس ما كان فى روما من حفرات القمامة والقاذورات كأمثلة فذة لسوء الإدارة البلدية .

وإن روما لترينا فى صورة واضحة من المفارقة الصلة بين طبقة حاكمة مستغلة وطبقة كادحة مغلوبة على أمرها ، ولقد أجاد بترونيوس Petronius حين قال فى قصته الساخرة المشهورة باسم ساتيريكون Satyricon[1] « إن حالة صغار الناس سيئة ، لأن أنياب أفراد الطبقات العليا منهمكة على الدوام فى النهش » . وعلى حين أن حفنة من أفراد الأسر العريقة يبلغون نحو ألف وثمانمائة أسرة ، كانوا يشغلون دورا كبيرة خاصة تتبعها غالبا

---

(١) كان عنوان هذه القصة (Cena Trimalchionis)

حدائق واسعة ومنازل كبيرة تكفى لإيواء حاشية بأكملها من الخدم الأحرار والأرقاء ، وكثير منها كانت فى الواقع قصورا ، يحتمل أن أفراد الطبقات الوسطى – وكانت تشمل الموظفين والتجار وصغار أرباب الصناعة – كانوا يعيشون فى دور مقسمة إلى مساكن على مثال تلك التى كشفت الحفائر عنها فى ثغر أوستيا المجاور لروما ، ومن المحتمل أن هذه المساكن كانت لائقة ولكن شاغليها كانوا يدفعون عنها فى عهد قيصر إيجارا يبلغ – طبقاً لما يقوله لودفيج فريدلندر Ludwig Friedländer – نحو أربعة أمثال نظيره فى المدن الأخرى بإيطاليا . وعلى النقيض القاسى من ذلك ، فإن الجموع الكبيرة من الطبقة الكادحة الفقيرة كانت تعيش فى نحو ستة وأربعين ألفا من العمائر التى لا بد من أن كلا منها كان يحتوى فى المتوسط على ما يقرب من مائتى شخص .

ولقد كانت النسبة بين هذه العمائر وبين ما فى المدينة من قصور وحمامات رحيبة ، هى النسبة نفسها بين خنادق المجارى المفتوحة والمجرى الأعظم . وكان بناء هذه الجزر – مثل بناء عمائر نيويورك – من أعمال المضاربة التى كانت تدر أكبر الأرباح فى آن واحد على المقاولين الملوثين الذين كانوا يقيمون منشآت واهنة لا تكاد تستطيع التماسك ، والملاك المستغلين الذين عرفوا كيف يعيدون تقسيم المساكن القديمة إلى صوامع أشد ضيقاً لكى تتسع لإيواء صناع أشد فقراً بما يؤدى إلى زيادة الدخل من الإيجار عن كل وحدة . (وإننا لنلاحظ ، ولكن ليس دون أن تعرونا ابتسامة التهكم ، أن النوع الوحيد من العربات الذى كان يسمح له بالمرور نهاراً فى روما كان عربات مقاولى المبانى) .

وكراسوس Crassus ، الذى اقتنى ثروة خيالية من امتلاك العمائر ، كان يفخر بأنه لم ينفق على الإطلاق أموالا فى البناء ، فقد كان أوفر ربحاً له أن يشترى فى بيوع الحرائق أملاكاً قديمة أصيبت ببعض التلف ، وأن يؤجرها

بعد إجراء إصلاحات طفيفة فيها ، وقد نجم بطبيعة الحال عن مشروعات إزالة الأحياء الفقيرة بطريقة منظمة ، مثل حريق نيرون الهائل ، ازدياد نقص المساكن وتقوية قبضة الملاك الجشعين . وهكذا فإن الغذاء التقليدى للفقير ، وكانت أقل كمية من القوت تكفل بقاء جسده حيا ، كان يقابله قدر مماثل من الضنك فى مسكنه الحقير – لازدحامه وتداعيه ورائحته الكريهة ، وهذا هو نوع المساكن التى أعدت لإيواء « المواطنين الأحرار » فى روما .

وحتى فى أكثر قرى العصر الحجرى الحديث فجاجة ، كان المنزل دائماً أكثر من مجرد مأوى للبدن ، فقد كان مكان اجتماع أهل البيت ، وكان موقده مركزاً لإقامة الطقوس الدينية ، كما كان عوناً على طهى الطعام سواء بسواء ، ومن ثم كان البيت موطن إله أهل البيت ومقر كيان الأسرة ، أى إنه كان مستودعاً لقيم معنوية لا تقدر بمال ، ولكن « الجزر » الرومانية جردت من جميع هذه الروابط والتقاليد ، فإنه لاعتصار أقصى ربح من بناء هزيل وحيز ضيق كان يكتفى بتوفير مجرد مأوى للبدن ، فقد كان من شأن الاعتراف بأى قيم أخرى إقلال مقدار ما يمكن اعتصاره . فكل العادات الدينية المنزلية وكل القيم العاطفية التى يربطها بالأسرة كتاب مثل شيشرون لم يكن لها مجال إلا فى محيط الأسر العريقة ، ولم يدع أحد أن سكان الدور الفقيرة فى روما كانوا ينعمون برعاية مثل هذه الأرواح الحارسة أو أنه كان فى وسعهم المشاركة فى طقوس الأسرة والوجبات المصحوبة بشعائر دينية ، ووفقاً لرواية بلوطارخ فإن تيبريوس جراكوس Tiberius Gracchus قد أصاب حين قال : « إن وحوش الفـــلا وطيور الهواء لها جحورها ومخابئها ، أما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا فإنهم لا يتمتعون إلا بنعمتى النور والهواء » . وفى عهد الإمبراطورية ، حتى النور والهواء كان يعز وجودهما فى روما ، فقد كانت طبقات المبانى تكدس طبقة فوق أخرى على نحو لم يسجل التاريخ له مثيلا على الإطلاق من قبل . ولقد أبدى يوفنال

دهشته من ذلك عند ما كتب فى القرن الثانى للميلاد قائلا : « انظر إلى حجم القصر الشامخ . فالطبقات تعلو بعضها فوق بعض حتى يصبح عددها عشراً » .

ولقد كانت دور أهل الطبقة العليا فسيحة يتخللها الهواء ، صحية ، مجهزة بالحمامات والمراحيض ، ونظام للتدفئة فى الشتاء يتكون من غرفة سفلية hypocaust يأتى إليها الهواء الساخن من الفرن فتقوم بتوزيعه فى أرجاء المبنى إلى خزانات تحت أرض الغرف . ولعل هذه الدور كانت أعظم ما توافرت فيه أسباب الراحة والاتساع من الدور التى أقيمت حتى القرن العشرين فى أى مكان معتدل المناخ ، وهو ما يعتبر انتصاراً فى عمارة المنازل . بيد أن عمائر روما تحرز قصب السبق فى يسر وسهولة بوصفها أكثر ازدحاماً وأقل استكمالا للشروط الصحية من أى مبان أنشئت فى أوروبا الغربية حتى القرن السادس عشر ، حينما أصبح الإفراط فى شغل المواقع بالمبانى وفى ازدحام الحجرات بالسكان أمراً عاماً من نابولى إلى أدنبرة ، بل إن لندن فى عهد الملكة إليزابث وقعت حيناً ما تحت نير هذا اللون ذاته من المضاربة المعيبة . ولم يقتصر الأمر فى حالة هذه المبانى على أنها كانت خالية من وسائل التدفئة ، وغير مجهزة بالمراحيض ولا بأنابيب صرف ، وغير معدة لطهو الطعام ، وتشتمل على عدد كبير من الحجرات التى لا يصل إليها الهواء ، وتكتظ بالنازلين فيها اكتظاظاً غير لائق ، بالرغم من افتقارها إلى كل الوسائل التى تهيئ أسباب المعيشة العادية اللائقة ، فإنها فضلا عن كل ذلك كان يبلغ من سوء بنائها وبالغ ارتفاعها أنها لم تكن توفر وسيلة للنجاة من الحرائق العديدة التى كانت تحدث . وإذا قدر لسكانها النجاة من التيفود والتيفوس والحريق ، فإنه كان من اليسير أن يلقوا حتفهم عند انهيار المبنى بأكمله ، فقد كانت أمثال هذه الحوادث كثيرة الوقوع ، وكان يبلغ من تأرجح هذه « الجزر »

أنها على حد عبارة يوفينال «كانت تهتز مع كل لفحة ريح تهب» ، ولم تكن هذه العبارة ضرباً من مبالغة الشعراء .

وكان يتألف من هذه المباني وهؤلاء الناس قلب روما ذات الإمبراطورية ، ولقد كان هذا القلب عفناً ، وتبعاً لازدياد نمو روما وازدياد تحول نظامها الاستغلالي باطراد إلى نظام طفيلي ، فإن العفن كان يمتد دائماً إلى كتل أكبر من الأنسجة الحضرية . وكان أغلب سكان المدينة ، التي كانت تفاخر بأنها فتحت العالم ، يعيشون في أحياء مكتظة ، كثيرة الضوضاء ، عديمة الهواء ، كريهة الرائحة ، موبوءة بالأمراض ، ويدفعون إيجاراً باهظاً لملاك نزعت الرحمة من قلوبهم ، ويكابدون في كل يوم من صنوف الإساءة والإرهاب ما زادهم خشونة وجعلهم قساة القلوب ، وحدا بهم إلى المطالبة بألوان من الترفيه تعوضهم عن هذه الحياة ، ولقد كانت هذه الألوان من الترفيه مهرجانات مستمرة للسادية والموت ، فزادتهم قسوة على قسوة .

بيد أننا قبل أن ندرس ألوان الترفيه الرئيسية التي كانت الطبقة الكادحة تخفف بها لوعة آلامها بإشباع ناظريها في تلذذ وشهوة من رؤية أشخاص قضي عليهم أن يكابدوا ضروباً من التعذيب والتحقير أنكى وأمر مما كانت تكابده تلك الطبقة — قبل ذلك فلنتأمل روما في أجمل صورها ، فقد كان لروما مزيد من الصفات الإنسانية ، وكانت حتى في أسوأ ظروفها تقدم لجموع الشعب التي تستغلها ، لمحات مدهشة مما كانت حياتها العامة تتحلى به من جمال ونظام ، غير مشوبين فيما يبدو بشيء من القسوة والطمع .

٣ — الفوروم والمقىء والحمام

تحدثنا الروايات القديمة ، بأن الرومان كانوا ينزلون على تل البالاتين Palatine ، وبأن قبائل أجنبية مختلفة كانت تنزل على التلال المجاورة ، وبأن

روما تكونت من اتحاد هذه القبائل بزعامة الرومان أنفسهم . وكان رمز هذا الاتحاد ، كما يذكرنا لافدان Lavedan ، إنشاء ساحة لسوق عامة (الفوروم) بها مكان للاجتماع comitium . وفى عهد روما المبكر كانت الساحة تستخدم كذلك للمباريات الرياضية ومبارزات المجالدين . وما من شك فى أن معبداً كان يؤلف جزءاً أساسياً وأصلياً من الفوروم ، لأن « أمان السوق » ، وهو ما كان أمراً لا بد منه لحرية التعامل ، قد صين بجعل الساحة ذاتها مكاناً مقدساً .

ولم يكن الفوروم مجرد ميدان مفتوح ؛ فإنه ، طبقا للنحو الذى تطور عليه فى روما ، كان على الأصح حرما كاملا ، معقداً فى تخطيطه ، يضم هياكل ومعابد ، وقاعات تصريف العدالة ، ودور انعقاد المجالس ، وأماكن خلاء تحف بها صفوف أعمدة فخمة . وفى هذه الأماكن الخلاء كان الخطباء يستطيعون أن يخطبوا فى جموع كبيرة ، على حين أنه فى الأحوال الجوية السيئة كانت القاعات الكبيرة ، الباسيليكا basilica ، تؤدى أغراضا عديدة ، فإنه كما يلاحظ أوجست ماو August Mau عن بومبيى ، كل ما كان يجرى فى ميدان السوق كان من الممكن أن يجرى فى الباسيليكا ، ولو أنها كانت مخصصة أساسا لعقد صفقات الأعمال وتصريف العدالة . وبساطة الفوروم ذاته هيأته لأداء العديد من الأغراض ، لم يكن أقلها شأنا ، فى خاتمة المطاف ، عقد الاجتماعات الدينية .

ولقد بدأ فى تاريخ مبكر تحويل الفوروم من مجرد ساحة مفتوحة إلى حرم كامل ، وطبقا لما يقوله فريدلندر Friedländer ، أخذت روما ، حتى قبل سنة ٣١٠ ق . م ، تفقد شيئاً فشيئاً مظهرها كمدينة ريفية تجاوزت الحد فى نموها ، لأن مكاتب صرافى النقود حلت مكان حوانيت الجزارين الخشبية فى الفوروم ، على حين أن أسواق الطعام ذاتها أصبحت أكثر وفرة

وأكثر تخصصا . وفى وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٧٩ هيأ الكنسور[١] كاتو Cato the Censor لروما سوقا مركزية كبيرة للأطعمة يتوسطها مذبح تعلوه قبة وتتشعب من حوله صفوف الحوانيت . وعند ما شرع فيتروفيوس فى وضع قواعد للعادات السارية أشار بأن بيت المال ، والسجن ، ودار اجتماع المجلس ، يجب أن تلحق بالفوروم .

وتبعا لما كان الأباطرة المتعاقبون يضيفونه من منشآت إلى الفوروم مباشرة ، أو كما فعل يوليوس قيصر من إنشاء فوروم جديد على مقربة من الأول ، كان يطرد على الدوام ازدياد عدد الجموع التى يجتذبها وسط الفوروم لشراء ما تحتاج إليه ، أو للعبادة ، أو لتبادل الأحاديث والأخبار ، أو للمشاركة فى الشئون العامة أو فى الدعاوى القضائية ، إما متفرجين وإما قائمين بدور فيها ، والطريق الجديد ، طريق أرجيليتوم[٢] Argiletum الذى كان يخترق الفوروم ويصله بأحياء الصناع والتجار تحول إلى ممر ضخم عرف باسم فوروم نيرفا عند دخوله حرم الفوروم الأصلى .

ولقد كانت لفيتروفيوس آراء محددة جداً عن الحجم المثالى للفوروم ، وهى آراء سبق فيها المبادئ التى أعرب عنها ونستون تشرتشل على نحو يدعو إلى الإعجاب فى توصيته بما يجب مراعاته فى التصميم الخاص بإعادة بناء

---

(١) كان منصب الكنسور منصباً رفيعاً لا يتولاه إلا من شغل منصب القنصلية قبل ذلك . وكان الرومان ينتخبون كل خمس سنوات كنسورين لإجراء تعداد السكان ومراجعة قوائم المواطنين وتطهيرهم من الآثام ومراقبة سلوكهم الشخصى فى جميع مرافق الحياة تقريباً . وكان الكنسوران يتوليان تأجير أملاك الدولة وبمرور الزمن دخلت فى اختصاصهما شئون أخرى كإهمال الأرض وغيرها من العقار ، والبذخ المفرط وسوء النية فى التعاقد ، أو فى الوصاية القانونية ، وكان من حقهما محو اسم أى عضو من قائمة السناتو واستبعاد اسم أى شخص من قائمة الفرسان لسوء السيرة ، أو ارتكاب عمل غير جدير بمركزه . وقد كانت سلطة الكنسورين مطلقة ولا معقب على أعمالهما .

(٢) كان أرجيليتوم أحد أحياء روما وكانت توجد فى هذا الحى حوانيت كثيرة للصناع والتجار .

مجلس العموم البريطاني . ويقول فيتروفيوس : « إن اتساع الفوروم يجب أن يكون ملائما لعدد الذين يؤمونه ، لئلا يضيق بالحاضرين ، أو من ناحية أخرى ، لئلا يبدو الفوروم أكبر مما ينبغي بسبب قلة الحاضرين . ولذلك فإن العرض يجب أن يحدد بحيث إنه إذا قسم الطول ثلاثة أقسام يكون مقدار العرض طول قسمين منها ، وبذلك يكون المسقط الأفقي مستطيلا ، ويكون الترتيب ملائما لأغراض المشاهد التي تعرض فيه » .

وهنا في الفوروم الروماني Forum Romanum كان مركز الحياة العامة ، ليس فيما يتعلق بروما ذاتها فحسب ، بل فيما يتعلق بالإمبراطورية — ولو أنه كانت توجد طبعا مراكز مماثلة ولكنها ثانوية في أجزاء أخرى من المدينة . وهنا فيما بين تل الكابيتول وموقع قصر نيرون الذهبي الذي أقيم عليه الكولوسيوم Colosseum فيما بعد ، كان المكان العظيم للاجتماع . فهنا كانت تحتشد جموع هائلة لمشاهدة قوادهم العسكريين ، وهم يمرون في مركبات حربية ، فيعرضون على الأنظار ثمرات انتصاراتهم ، أو أسراهم من الملوك والأمراء وقد شدوا إلى عجلات مركباتهم ، ويمرون تحت أقواس النصر ، وكانت بمثابة إطارات أو مداخل رسمية لما كان في الواقع حرما بلا أسوار ، وكان الطابع السائد هنا هو الضخامة والاتساع مع تلك المسحة الإضافية النابضة بالحياة التي قد تضفيها على المكان أحداث الزمن أو طبيعة الأرض .

فهنا إذن كانت روما الجديدة ذات النوازع العدوانية في حقيقتها وواقع أمرها ، روما ذات الجنود الناهبين ، والعبيد المتذللين ، وغلاظ المضاربين في الأراضي ، هنا كانت روما هذه تختفي تحت ثياب toga[1] ، روما ذات التقاليد والمطامع الوطنية والأحلام الرواقية . فمن ذا الذي كان يمكن أن يساوره الشك هنا في حقيقة تلك المدينة المثالية في أنه في كنف

---

(١) كانت التوجا (Toga) الزى الرومانى الوطنى ، وكانت قطعة كبيرة من القماش على هيئة نصف دائرة تقريبا يلفها الإنسان حول جسمه بطريقة خاصة .

قانونها وأمانها الشاملين كان النظام نظاماً ، والعدالة عدالة ، والكفاية كفاية وليست أقنعة للسلب والجشع والشهوات والقسوة على نطاق جماعى جسيم . على أنه قد يتذكر المرء فى الفوروم ، دون تحفظات ساخرة بل بإعجاب صادق ، ما كان لأمثال شيشرون أو ماركوس أوريليوس من خواطر أخلاقية وضروب من النشاط أملاها الواجب . وهنا كذلك قد ينسى المرء بسهولة حفرات الدفن العفنة أو حفلات التعذيب الصاخبة التى كانت تجرى يوميا فى المجتلدات المجاورة .

ولما كان الفوروم الرومانى فى واقع الأمر يجمع بين الأجورا والأكروبول ، فإنه لم يأت بأى معالم تعتبر جديدة من أساسها بحيث يتعذر التعرف عليها فى نماذجها الأصلية الهيلينيسية . ولعل ما نجده هو مزيد من التركيز لضروب متنوعة من النشاط ، ومستوى أعلى للنظام الرسمى ، وتوسع وتضخم فى الأوضاع التى كانت موجودة من قبل فى أماكن أخرى فى المدينة الهيلينيسية .

ومنذ استقر هذا النظام الجديد فى وسط المدينة أخذ ينتشر فى كل مكان ، وبخاصة فى فخيم البوائك وأروقة الأعمدة التى كان يطيب لأغسطس أن يزين بها المدينة ، فإنه فى بحر مدة تقل عن عشرين سنة كان ميدان الإله مارس Campus Martius ، حيث أقيم مدرج الفلاڤيين[1] ، قد امتلأ بأروقة الأعمدة التى كانت تمتد من سفح التلال إلى النهر نفسه . ولم تتألف هذه الأروقة من أعمدة من الحجر فحسب ، بل أيضاً من حوائط عالية من خشب البقس كانت تعزل مساحات من الأرض الفضاء حيث كان يستطيع أن يرتاح من يشاء ليتأمل الأشكال المنحوتة أو معرض الصور المرسومة على الحوائط ، أو الواجهة المعروفة باسم بيت الكواكب السبعة septizonium

(١) مدرج الفلاڤيين هو الاسم الذى أطلق فى العصور الوسطى على الكولوسيوم . ولم يكن الكولوسيوم فى ميدان الإله مارس — فى الناحية الغربية من مدينة روما — بل كان شرقى الفوروم الرومانى .

وكانت بمثابة متحف هائل للتحف الغريبة والآثار القديمة ومصنوعات الشرق الأقصى ، ولقد قدر أنه فى عهد أغسطس كان المجموع الكلى لطول الشوارع التى بها أروقة أعمدة يبلغ ما يزيد على ثلاثة عشر ميلا ، ولقد بقيت هذه الأروقة قائمة إلى القرن التاسع الميلادى ، وكانت بمثابه جداول وينابيع منعشة من الجمال الفنى تحف بها الحشائش والأنقاض .

ولقد اقترن بالتخطيط المحورى نزوع إلى تنظيم المبانى على نسق متماثل من حيث موقعها بالنسبة إلى المحور ، حتى ولو أخفى هذا الوضع بطريقة فعالة على نحو ما أخفيت به محاريب فوروم تراجان وراء دهاليز الأعمدة القائمة أمامها . ولا بد من أن حسن توزيع المبانى المترتب على هذا التنظيم هو الذى كان يترك أثرا فى نفس متن يزور وسط المدينة . وفى جانب كبير من العاصمة المطردة النمو ظلت الشوارع خليطا من الممرات الضيقة التى كانت تتناثر فيها بغير نظام محتويات الحوانيت والحانات القائمة على جانبيها ، وتظلها العمائر العالية القائمة على الجانبين ، ولم توجد هنا إلا لماماً لمحات من التصميم الحضرى — فى صورة معبد ، أو نافورة ، أو رواق أعمدة أو حديقة — كانت ترجع أصداء رخيمة لما يوجد فى وسط المدينة . بيد أنه حيث كان سخاء الدولة بالمال وامتلاك البلدية للأرض يتيحان للمهندس حرية التصرف كما يرى ، فإن العقل الرومانى كان يثبت قدرته على مواجهة تحدى الأعداد الكبيرة ويضع معيارا وطريقة لمعالجة مشكلة ذهاب الجماهير ومجيئهم على نحو ربما لم يكن له منافس سوى فى القليل من المدن الأقدم عهدا بكل أنواعها .

وإذا كانت روما تعرف سوءات الازدحام المفرط أكثر مما كانت تعرفه مدن الريف الأقل منها شأنا ، فإنها كانت تعرف كذلك ترف الساحات العامة الفضاء التى كانت تستقطع بسخاء من المنشآت الكبيرة ، والواقع أنه لولا وجود هذه المنشآت فلربما كان وجود هذه الساحات أمراً

لا يطاق . ولقد سما الرومان إلى مستوى معمارى رفيع جديد فى تطوير ما كان لدى قدماء المصريين والسوريين من قباب وأقبية . ولم تكن السماء فى نظرهم حدا للأرض بقدر ما كانت مثالا يحتذونه فى منشآتهم ، فأضفوا على الحمام العام أو القاعة الكبيرة (باسيليكا) فى أقصى أوقات الازدحام صفة كانت تجعل وجود مثل هذا العدد الكبير من الأشخاص غير ضار ، وذلك لأن اتساع المبنى فى جزئه العلوى كان يخفف من ضغط الازدحام فى جزئه السفلى ، فكان فى استطاعة المرء حين يتطلع إلى أعلى أن يتنفس وأن يروى فى يسر وسهولة . وحتى فى الوقت الحاضر تجد أن مبنى محطة بنسلفانيا فى نيويورك ، المقام على غرار الحمامات الرومانية ، ما زال يحتفظ بهذه الصفة الرفيعة — أو كان يحتفظ بها إلى أن حوله المشرفون عليه ، أصحاب الفكر الثاقب ، إلى مستودع هائل للصخب والضوضاء استخفى على هيئة نضد لصرف تذاكر السفر ، وبذلك قضوا بضربة همجية واحدة على ما كان للمبنى من شكل فنى جميل وقدرة فعالة على مواجهة أعداد كبيرة من الناس .

والعنصر المعمارى الذى كان يتضمن هذا التحكم الجديد فى الفضاء الحضرى من أجل توفير الأسباب التى تمكن أعدادا كبيرة من الاجتماع والانصراف كان ابتكارا رومانيا خاصاً . ولقد أطلق الرومان على هذا الابتكار اسما ملائماً بوجه خاص من حيث إنه ينم عن خلقهم وعاداتهم ، وهو المقىء Vomitorium فإن هذا الاسم يدل على شيئين فى اللغة اللاتينية ، ففى المعنى الخاص كان عبارة عن حجرة خاصة مجاورة لقاعة الأكل ، وفيها كان الشرهون الذين التهموا أكثر مما ينبغى من الأطعمة الدسمة والغريبة يستطيعون أن يفرغوا ما احتوته معداتهم لكى يعودوا إلى أرائكهم وقد تخففوا إلى حد يسمح لهم بالاستمتاع بالمزيد من الطعام . وعملية تهيئة ما يمكن من إفراغ الطعام على عجل ، قد نقلت رمزيا إلى الفتحات والممرات الكبيرة

فى المدرجات ، وهى التى عن طريقها كانت الجماهير التى شبعت مما شاهدت تستطيع أن تجد طريقها إلى الخارج فى سرعة معقولة دون أن يطأوا بعضهم بعضا بالأقدام .

وكان اتساع المنىء العام — ومن المحتم أنه كان ضخما — يحدد أبعاد الأجزاء الأخرى فى المبنى . وفى معالجة أمر الجموع المتزاحمة التى تعد بالألوف وعشرات الألوف ، كان الخيال الرومانى يجد ما يحركه إلى ما يكاد يكون إبداعا شاعريا ، وهو كثيراً ما كان يعوزه عند معالجة التفصيلات . وإننا عند ما نشاهد اليوم حطام مبنى رومانى عظيم وقد تجرد من روائه ، مثل حمامات كراكلا ، أو الكولوسيوم ذاته ، تتوافر لدينا فى الحقيقة ميزة كان الرومان لا يحبونها كثيراً ؛ فإننا نشاهد هذه المنشآت فى أكثر صورها تجردا من الزخرفة ، بعد أن نزعت عنها أغلب ثيابها الثمينة البراقة ، (والمد عاد بعض هذا التقشف البدائى مرة أخرى — وربما كان ذلك من أجل الاقتصاد — فى عهدى دقلديانوس وقسطنطين) .

ومن المحتمل أن هذا التجرد من الزخرفة كان لا يزال محببا إلى الرومان فى عهد سكيبيو أفريكانوس Scipio Africanus ، ولكن تبعا لازدياد ثروتهم لم يعودوا يجدون فيه من المتعة أكثر مما كانوا يجدون فيما جرت به عادة الإغريق من العرى فى الألعاب الأوليمبية . وكان العرى فى نظر الرومان إما أن يقترن بإزالة الضرورة ، وإما أن يكون مقدمة لإرضاء الشهوة ، ولذلك فإنهم كانوا يفضلون كل ضروب التجميل الزخرفى ، ويستخدمون الأنواع الثمينة من الرخام وأحجار الجزع onyxes والحليات المعقدة ، والطراز الكورنثى أكثر من الطراز الدورى أو التوسكانى ، ونماذج زخرفية معقدة فى صنع الفسيفساء التى كانت ترصف بها الأرضية ، وفوق كل شىء الطلاء بالذهب ، طلاء يحتوى على مقادير كبيرة من الذهب ، كانت فى إحدى الحالات كافية لطلاء سقف يغطى مجتلدا بأكمله . ولعل أولئك منا الذين

يذكرون الكاتدرائية الرومانية الكاثوليكية فى وستمنستر كما كانت منذ جيل مضى – قبل أن تغطى بالزخارف الحوائط المبنية من الطوب فى داخلها الرومانسكى[1] الهادئ – هم وحدهم الذين يمكن أن تتكون لديهم فكرة حية تكفى لإدراك الفارق بين ما تتسم به الهندسة الرومانية من الاستقامة الطاهرة وما ينم عنه مظهر المنشآت بعد إتمامها من الانغماس فى الملذات . ولعل ما فاخر به أغسطس قبيل موته من أنه وجد روما مدينة يكسوها الطوب ، وأنه خلفها وهى ترفل فى حلة من الرخام ، كان قولا باطلا إلى حد أبعد مما تصور .

فالاتساع إذن كان كل شىء فى عمارة المبانى الرومانية العامة ، ولقد وجد المهندس المعمارى الرومانى أشكال المنشآت الملائمة لالتقاء أعداد كبيرة فى مناسبات الحياة الجماعية ، فى السوق والمدرج والحمام وميدان السباق ، ولقد انتقلت بعض هذه الأشكال إلى المدينة فيما بعد ذلك بأكثر من ألف سنة ، على نحو ما حدث فى حالة شكل ميدان السباق المستطيل ذى الأركان الحادة وهو الذى أصبح ميدان نافونا Piazza Navona . ولكن من المحتمل أن الأماكن الخلاء فى روما قد قامت كذلك بدور أكبر مما قامت به فى أغلب المدن التى كانت أقدم منها . والحدائق التى كانت تحيط بقصور الأباطرة ، ولو أنه كان يقصد منها أصلا أن تقصر على الاستعمال الخاص ، تعتبر من أقدم الأماكن الخلاء المخصصة للتنزه فى داخل المدينة – ولو أن ذلك طبعاً كان ميسوراً على الدوام خارج أسوار المدينة . وإن ما أوصى به قيصر من أن تصبح حدائقه الخاصة ملكاً للشعب ، لمن أقدم ما سجله التاريخ عن تحويل مثل هذا الحق الخاص إلى حق للشعب . ولسوء الحظ أن روما لم تدرك إطلاقاً

(١) شاع الطراز الرومانسكى فى العمارة فى أنحاء أوروبا المصطبغة بالصبغة الرومانية فى خلال الفترة الواقعة بين العصرين الكلاسيكى والقوطى .

الحاجة إلى مثل هذه المباهج فى الأحياء الفقيرة حيث كانت الحاجة إليها أشد وألزم .

ولعل أعظم ما أدته روما من الخدمات الممتازة لكل من الصحة العامة فى المدينة وللأوضاع الحضرية ، كان الحمام العام . وإن الإنسان ليطالع فى تاريخ الحمامات الكبرى القصة الموجزة لروما ذاتها ، فلقد بدأ هؤلاء القوم مزارعين أشداء ، ملازمين للأرض ، متقشفين ، جادين فى العمل ، ذوى عضلات متينة للحفر والقطع ، مما جعلهم يصبحون أقوى الشعوب فى العصور القديمة بفضل مقدرتهم ذاتها على تحمل المشاق وتلقى اللطمات . بيد أن قوتهم ذاتها ونشاطهم الدائب حولاهم إلى أمة من الخطافين والمتسولين ، الذين كانوا يعيشون على خيرات جيرانهم ، فأحالوا مدينتهم الأم إلى فم ومعدة هائلين ، فباتت تلتهم الأغذية والغنائم وأعمال الفن والأرقاء والديانات والآلهة ونتفاً من ألوان المعرفة ، مما جعل كل ما فى المدينة من ألوان الثقافة الرفيعة ، وكل ما فى الحياة اليومية من لياقة واحتشام يتحول إلى شىء كان فى آن واحد بشعاً وبهيمياً ، مثيراً ومنفراً ، ينم عن التظاهر والادعاء ، ويخلو من كل معنى .

والحمام ، كما عرفه سكيبيو أفريكانوس ، كان عبارة عن بركة من الماء فى مكان محجوب ، حيث كان الفلاح المتصبب عرقاً يستطيع أن ينظف نفسه . وقد استعاد سينيكا Seneca فى شوق وحنين ذكرى ذلك الوقت ، قبل ابتداع حمامات الشمس وتدليل لحم البدن بوجه عام . بيد أنه منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد كانت عادة الذهاب إلى الحمامات العامة قد استقرت فى روما ، وفى سنة ٣٣ ق. م. استحدث أجريبا Agrippa الحمامات العامة المجانية بالشكل الذى كان مقيضاً لتلك المنشآت أن تبقى عليه نهائياً ، أى حظيرة فسيحة تتسع لتجمع عدد كبير من الناس ، وقاعة ضخمة توصل إلى قاعة أخرى بها حمامات ساخنة ، وحمامات دافئة ، وحمامات باردة ، وقاعات للتدليك ، وقاعات للاسترخاء وتناول الطعام ، وكانت تلحق بالحمامات العامة

دور جيمنازيوم وملاعب ليستخدمها من كانوا ينشدون ممارسة ألوان النشاط البدنى ، كما كانت تلحق بها أيضاً دور للكتب لمن كانوا أكثر تفكيراً أو أشد خمولا .

والحمام الرومانى ، فى اتساع نطاقه وجمعه بين أسباب التيسير لقضاء حاجات مختلفة ، يقارن من هذه الناحية — إذا كان ذلك غير ميسور من أى ناحية أخرى — بالمركز التجارى shopping center الحديث فى أمريكا ، ولو أن المقارنة ليست فى صالح المركز التجارى بالذات . ولكن على حين أن الحياة لدى الأمريكى العادى ، تحت ضغط اقتصاد يتجه إلى النمو والتوسع ، هى فى جوهرها فراغ تسوده الأجهزة المبتكرة وتحشوه السلع المبالغ فى الإشادة بها جرياً وراء الربح ، فإن الاقتناء فى روما كان مقصوراً إلى حد كبير على أفراد الطبقات العليا ووكلائهم من رجال المال ، أما بالنسبة لأغلب الناس فإن الحياة كانت إلى حد كبير عبارة عن البحث عن بديل أو عوض على حساب الدولة . وما كان فى بدايته ضرورة صحية للفلاح غدا عادة ذات رسوم وطقوس لملء فراغ يوم عاطل . وعلى الرغم من أن الرومان ضخموا التيار الدينى بابتكار إله خاص لكل مناسبة فى الحياة ، فإن الإله الأعظم الوحيد الذى كانوا يعبدونه حقاً كان البدن ، وينهض دليلا على ذلك أكثر من شاهد على القبور بما يسجله من مفاخرة ساكن القبر بالإفراط فى الأكل والشراب ، بوصف ذلك أقوى حجة لكى يذكره بالخير أمثاله الأفاضل من خلفائه ، وكانت عبادة البدن أقرب ما بلغه الرومان على الإطلاق من العبادة منذ فقدوا عبادتهم الأصلية ، عبادة آلهة أهل البيت لارس وبناتس Lares and Penates . ولقد كان الحمام العام المعبد الذى يقيمون فيه شعائر عبادة البدن ، وكان هذا المعبد بيئة مثالية لمحبى التلكؤ والاسترخاء والطفيليين ، والذين يتلذذون بالنظر إلى عورات الجسم ، وهواة عرض مفاتن البدن — وهم جميعاً ممن يدللون أبدانهم .

وأما مبانى الحمامات العامة ذاتها فإنها تعلن هذه الحقيقة على الملأ ، وهى أنها من الناحية المعمارية تتبوأ مكانها بين أعظم المنشآت التى أقامتها روما ، فالبانثيون وحده هو الذى يمكن اعتباره منافساً لها . وحيثما ذهب الرومانى كان يحمل معه فكرة الحمام العام ، وأن بقايا مثل هذا الحمام القديم فى بولفار سان ميشيل بباريس — وهو شارع شديد الحركة — لتذكر المرء بأولئك الذين كانوا يحتلون لوتيتيا Lutetia[1] قديماً . ومن المحقق أن تلك العادة كان لها جانبها العملى ، فإنه من المحتمل أن ما تنطوى عليه هذه العادة من تنظيف البدن تنظيفاً تاماً كان يساعد على التخفيف من مساوئ الحالة الصحية ونقص توافر شروط الصحة فى أحياء أخرى من المدينة ، على حين أن فخامة اتساع هذه المبانى كانت فى ذاتها عوناً على الهدوء النفسانى ، مما كان فيه بعض العوض عما فى المعيشة المنزلية من كآبة الازدحام والاضطراب .

بيد أنه على الرغم من هذه النتائج الثانوية المفيدة التى كانت ترفع على هذا النحو من قوة الروح المعنوية ، فإن طقوس الحمام كانت تشغل جزءاً من النهار أكبر مما يتناسب مع فوائدها ، وتوجه نحو خدمة البدن ، بوصف ذلك هدفاً فى ذاته ، قدراً من الجهود البشرية أكبر مما ينبغى ، ويبدو أن وجود عدد كبير من الحمامات الخاصة فى طول المدينة وعرضها ينهض دليلا على أنه ربما كان هناك فارق معروف بين الطقوس الدينية والجمالية للحمام ، وبين فوائده الصحية العملية .

ومع ذلك فإنه يجب عدم إغفال الصلة بين الحمام والحياة الجنسية فى روما ، ففى الحمام كان السيد يزيل آثار فجور الليلة السابقة ويأخذ أهبته لليلة القادمة ، وعلى الرغم من أنه ، طبقاً لما يقوله كاركوبينو carcopino ، بذلت بعض الجهود لفصل المستحمين من الرجال عن النساء بتخصيص ساعات معينة لكل

---

(١) لوتيتيا : الاسم القديم لمدينة باريس ، وكانت تدعى لوتيتيا الباريسيين Lutetia Parisiorum).

جنس ، فإن هذه الأنظمة فشلت ، وحتى بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية فى الدولة ، كان سانت جيروم يحذر النساء من العرض والاستعراض الشهوانى فى الحمامات ، بوصف ذلك خطراً جسيماً على الروح . ومن المحقق أن الحمامات كانت الأماكن المفضلة لضرب المواعيد ، وبذلك سبقت إلى إحدى العادات التى جلبت سوء السمعة لدور الحمامات فى أواخر العصور الوسطى . وحتى فى العصور الحديثة ، فإن الأثر الأخير للحمام الرومانى ، وهو ما يطلق عليه اسم الحمام التركى ، ظل يحتفظ بما اقترن به الحمام قديماً من السكر والفجور الجنسى .

٤ — وفاة بعد الظهر

إن الذين شيدوا قوة روما اضطروا إلى توسيع حدود الإمبراطورية ، فإن مخاوفهم من الغزو وكذلك تبعاتهم المتزايدة لحماية خطوط إمداداتهم ومواردهم من الطعام والمواد الأولية ، شجعتهم على أن يحلموا بإقامة نظام سياسى عالمى ، ولقد دام هذا الحلم مدة تقرب من قرنين فى ظل السلام الرومانى Pax Romana . وبقدر ما كان هذا السلام حقيقيا كان يمكن تبرير الفتوحات إلى حد ما حتى فى نظر البلاد المفتوحة ، فإنه لم يحدث إطلاقا بين البشر أن أقيم مجتمع عالمى ، متحرر من الحروب أو خطر الحرب ، وعلى أساس من العدالة لا الاضطهاد والإرهاب . ولقد كان من أجل هذا أن قام ألوف من الرومان الأخيار بالتفكير والتدبير ووضع الخطط ، وخاضوا المعارك ، وتولوا مناصب فى أماكن بعيدة على الحدود ، وتحملوا مشقة النفى الاختيارى ، وشغلوا أيامهم فى النهوض بمختلف أعباء المناصب العامة من تطبيق اللوائح الإدارية ، وتنفيذ أحكام القانون ، وإعداد كشوف الضرائب وسجلات الأملاك . ولقد كان هؤلاء الموظفون الرومان يؤدون واجبهم على الرغم مما كانوا يعانونه من المصاعب ويكابدونه من الملل ،

ذاكرين فى ساعات احتضارهم الخواطر المأثورة عن زينون من كيتيوم Zeno of citium أو تيرينس Terence أو فيرجيل ، وكانت خواطر باردة ولكنها تجلب الراحة والعزاء وفحواها . . « أنا بشر ، وما من شىء بشرى غريب عنى » .

لقد نجحت روما ، بوصفها إمبراطورية ، أكثر من أثينا التى لم يتوافر لديها إطلاقا من القوة ما يكفى لأن تحمى ، ولو لمدة جيل واحد ، المناطق التى كانت تستغلها . بيد أن روما لم تنجح فى واقع الأمر ، فإن مدينة أحلام سكيبيو وشيشرون زالت حتى قبل أن يستيقظ النائمون ، وهى فى الحقيقة لم تظهر إطلاقا فى عالم الوجود ، وذلك أن نظام روما ، وعدالة روما ، وسلام روما ، قد أقيمت جميعاً على استغلال وقمع وحشيين . فقد كانت روما فى ذروة مجدها بمثابة شجرة بلوط كانت فروعها الواسعة الانتشار تخفى العفونة التى كانت تنخر من الداخل فى قاعدة الجذع ، وقد تتشمم الخنازير بخياشيمها بحثا عن الكمأة ، التى تزدهر على أفضل وجه تحت أشجار البلوط الموبوءة ، فى التربة القريبة منها ، ولكن أنواع الطعام الأوفر تغذية لاتنمو تحت هذه الفروع . فالإمبراطورية التى صدت القبائل المتبربرة التى كانت تهدد حدودها ، أقامت لونا من البربرية أشد وأنكى فى ذات قلب ملكها ، فى روما ذاتها . فهنا ، بمتابعة خيالات أكثر اتساما بالمرض ، مهد الرومان السبيل إلى وقوع ضروب الدمار والإبادة على نطاق واسع ، وهى التى نجت منها المدينة إلى حد كبير بفضل الأسلحة الرومانية ، فقد كان النجاح القائم على أعمال السلب والنهب كفيلا بفشل الطفيليين فشلا يبعث على الاشمئزاز .

واسم « طفيلى » فى ذاته كان ابتكاراً رومانياً لابد منه لوصف علاقة إنسانية لم يكن لها مطلقا من قبل مثل هذا الوضع الذى كان دون شك مرضيا ويمكن التعرف عليه . ولقد كان بطارقة الرومان يفاخرون منذ أمد طويل بموكب الأتباع clients الذين كانوا يمثلون بين أيديهم ويدعمون كبرياءهم .

وكان التابع أصلا يعول نفسه ويحترمها ، فيما يبدو ، فقد كان يستأجر أرض مالك كبير ويعطيه إيجاراً معينا أو نصيباً من محصول الأرض ، ومن ثم كان لايعتمد عليه إلا فى الحصول على قطعة الأرض التى يخصصها له ، فقد كان قادراً تماماً على كسب أود حياته . أما الطفيلى فإنه انحدر إلى درك أحط من ذلك كثيراً ، عند ما لم تعد تربطه بسيده أى صلة اقتصادية إيجابية ، فقد كان الفضولى المتزلف الذى تأصلت لديه عادة العيش عالة على سواه ، ولم تكن لديه موارد للمعيشة سوى ما يشمله به مضيفه من كرم ورعاية . وعندما شد الطفيلى وثاقه إلى أحد الأغنياء ، فقد كل احتمال لحرية التصرف أو الاستقلال فى إعالة نفسه ، ولهذه الحالة سوابق كثيرة فى عالم الحيوان .

وفى الطبيعة ، كثيراً ما يكون هذا التطفل ضارا بالمضيف وكذلك بالكائن الذى يتغذى ويزداد سمنة بالنزول عليه ، وذلك أنه إذا ما فقد هذا الأخير القدرة على حرية الحركة أو إعالة نفسه بنفسه ، فإن المضيف بدوره يفقد استقلاله ، ويتعين عليه أن يبذل المزيد من الجهد ليقوم بأود الكائن الأضعف ظاهريا . وكثيراً ما وجد الأغنياء والأقوياء أنفسهم فى مثل هذا الموقف ، فإن مقومات الحياة الكريمة التى رفضوا أن يوفروها للطبقات الدنيا على أسس اقتصادية اضطروا إلى التسليم بها على هيئة فيض من المنح كانت الدولة تقوم بتوزيعها دون تمييز . ولقد كان نجاح روما فى فتوحات النهب والسلب التى قامت بها هو أول ما أوجد فى روما حياة التطفل وغذاها بكل ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معنى حرفى ، ولقد انتهى به الأمر إلى أنه أوجد على نحو أعم وأشمل الحياة نفسها البليدة التى لا مهمة لها ، الحياة التى تعتمد على الغير ، لدى الأغنياء والفقراء على السواء الذين أصبحت تتملكهم رغبات لا تسد وضروب من القلق لا يمكن تهدئتها .

وفى روما التزم سكان مدينة بأكلها يبلغون مئات الألوف ، التزموا سبيل التطفل طوال أحياتهم ، وتحولت الإمبراطورية المترامية الأطراف إلى

جهاز لتأمين استمرار بقائهم على قيد الحياة ، وإعانتهم على مواصلة العيش « على الوجه الذى اعتادوه » ، وذلك برشوة الجيش دون حياء ، وهو وحده الذى كان يكفل تدفق الجزية والأرقاء والأسرى والحيوانات المتوحشة التى كان سيلها جميعاً يتدفق بلا انقطاع فى جوف هذه المدينة النهمة التى كانت لا تشبع .

إن ضروب النشاط المستقلة فى الكائن الحى لضرورة حيوية للإبقاء عليه سليما معافى حتى إن أى تفريط فى الاستقلال تكون له عواقب نفسانية عميقة الأثر ، وعلى وجه خاص فإن إحساس الطفولة بالاعتماد على الغير ، إذا امتد إلى سن المراهقة يبعث على عدم الثقة بالنفس وكراهة النفس ، وهو ما يثير رغبة جامحة فى الانتقام . فالذى لا حول له ولا قوة تتولد فيه لهفة إلى التمتع بسلطة فعلية ، وإن لم تكن فعالة ، على حين أن أولئك الذين لم تتح لهم فرصة التصرف فى حياتهم كما يشاءون تستبد بهم رغبة عنيفة فى أن ينزلوا بسواهم موتاً مهيناً . وللتكفير عما فى حياة التطفل من ألوان العجز والقصور ، فإن الطفيلى نفسه يبدل ما فى الحياة من قيم ويحورها بحيث إن كل ما يقوم به من أعمال يتخذ صفة سلبية . وما يشعر به الطفيلى من البغضاء نحو نفسه يسقطه على من يستنسبهم من الضحايا وكباش الفداء ، فيغمرهم بما تنطوى عليه نفسه من يأس ومن مقت لذاته ورغبة فى الموت .

وإن روما باعترافها رسمياً بما كان فيها من حياة التطفل ، بل بمنحها أساساً جماعياً متيناً ، قوامه هبتها المزدوجة من قوت وساحات لعرض ألعاب الوحوش — إن روما قد جسدت بذلك الأخطاء المهلكة التى كان ينطوى عليها استغلالها السياسى للبلاد والمدن الأخرى . وإنه لمن سخرية القدر أن روما باستسلامها لحياة التطفل قد فقدت فى الوقت عينه قدرتها الحيوية على النهب ، وهى التى جعلت تلك الحياة ميسورة . كما أن قدامى زعمائها النبلاء فقدوا سيطرتهم على ما جريات الأمور بوقوعهم تحت تخدير الأوهام عن السلام

الرومانى . وحتى فى خارج روما اختفى الحكم الذاتى تدريجاً فى ظل الإمبراطورية ، إذ أن البلديات التى كانت فى وقت ما تدير شئونها بنفسها ، أصبح يحكمها أقطاب محليون ممن يمثلون أرباب الأملاك أو التجار ، وكأنوا اسماً يخدمون الدولة لكنهم كانوا يعملون على الاحتفاظ بالسلطة لأنفسهم وذويهم بعين الأساليب الصفيقة التى ابتدعت فى روما ، وأما السلام والعدل اللذان كان الرومان يفاخرون بهما، فقد كان نصيبهما من الحقيقة قريباً من نصيب ما يوجد من « التنافس » فى ظل التحكم الاحتكارى والاستهلاك الإجبارى اللذين يفرضهما اليوم رجال الأعمال فى أمريكا – أى إنهما لم يكونا إلا مظهراً خداعاً . وإن ذات الادعاء بوجود القانون والنظام أبطله مراراً وتكراراً ما كان يدبر فى قصر الإمبراطور من مؤامرات الاغتيال ، وما كان يحدث من ابتزاز الأموال بالتهديد ، وما كان يصحب اختيار كل إمبراطور على التعاقب من وقوع الفتن فى الجيش ، ولقد ذهب الحرس الإمبراطورى Praetorian Guard فى إيثاره كلباً فاجراً مثل كومودوس Commodus على خلفه النزيه الوقور برتيناكس Pertinax إلى حد أنهم قتلوا الأخير على الفور .

وقد تمخض وجود نظام اقتصادى طفيلى ونظام سياسى يقوم على النهب والاغتصاب عن قيام نظام حضرى كان يتسم بطابع روما الخاص ويشتمل على كلا مظهرى حياتها وهى لهما خلفية مسرحية ، فإن ما جرت به العادة الدينية قديماً من تقديم الضحايا الدموية أسبغت عليه صفة زمنية جديدة فى المجتلد .

وعلى الرغم من كل مزاعم الرومان عن السلام ، فإن حياتهم كانت تتركز باطراد حول طقوس للإبادة بالغة الأثر فى النفوس . وجريا وراء عوامل الإثارة العنيفة إلى حد يكفى لأن يستر مؤقتاً ما فى وجودهم الطفيلى من فراغ وانعدام المعنى والهدف ، كان الرومان يعمدون إلى إقامة مسابقات

للعربات ومعارك بحرية باهرة فى بحيرة صناعية ، ومشاهد تمثيلية إيمائية Pantomimes ، كانت تؤدى فيها علنا حركات تعبر عن التجرد من الثياب قطعة فقطعة وعما هو أشد فجرا من ذلك من الفعال الجنسية . بيد أن عوامل الإثارة تحتاج باستمرار إلى ما يزيدها إثارة كلما تصبح مألوفة لدى الناس ، ولذا فإن المجهود بأسره بلغ الذروة فى مبارزات المجالدين حيث استخدم القائمون على تنظيمها قدرة شيطانية على التفنن فى تعذيب الإنسان وإبادته .

وليس سكان العواصم الكبرى الحديثة بعيدين عن روما من الناحية النفسانية إلى حد لا يمكنهم من تقدير هذا المظهر الجديد ، فإنه تضارعه عندنا نوبات السادية التى تعقب غذاءنا القاصر المعتاد ، مثلما تعقبه حبوب الفيتامينات الملوثة ، ونعنى بذلك مقالات الصحف ، وأخبار الإذاعة ، وبرامج التليفزيون ، والقصص والتمثيليات ، فهى جميعاً تنصرف إلى تصوير كل لون من مختلف ألوان العنف والقسوة والشذوذ والوحشية والانحراف الإجرامى واليأس العدمى nihilistic تصويراً نابضاً بالحياة إلى أبعد حد ممكن . ومن ثم فإن الشعب الرومانى ، لكى يستعيد مجرد الإحساس بأنه على قيد الحياة كان يهرع ، بطبقاته العليا والدنيا ، من حاكمين ومحكومين ، إلى المجتلدات الكبرى للمشاركة بأنفسهم فيما يماثل ذلك من ألوان الترفيه ، التى كانت تعد على نحو يفيض بمزيد من الحيوية ، وتقدم بشكل أدنى وأقرب إلى النظارة . وكان الرومان يشاهدون بأنفسهم فى المجتلد كل يوم ضروربا من أعمال التعذيب العنيف والإبادة بالجملة ، تماثل تلك التى قام فيها بعد هتلر وأعوانه بتدبيرها والمشاركة فيها عن طريق الإنابة — ولكنهم فيما يبدو كانت تنقصهم الشجاعة للإقدام على الاستمتاع بها شخصياً بانتظام .

وحتى قبل أن تتحول روما من جمهورية إلى إمبراطورية ، كانت المدينة قد أصبحت قاعة هائلة للتعذيب الجماعى ، فهناك فى أول الأمر تحت ستار

مشاهدة إنزال العقاب العادل بالمجرمين ، كان السكان بأسرهم ، كما لاحظ سينيكا ، يعاقبون أنفسهم يومياً . ولقد بلغ من شدة تعلق روما بهذا اللون من الشر أنه حتى بعد الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية للدولة لم يتسن القضاء على هذه العادة ، وعندما كان الواندال يطرقون أبواب هيبو Hippo — مدينة أوجستين — كانت تأوهات المحتضرين من المدافعين فوق الأسوار تمتزج بصيحات المتفرجين فى « السيرك » فكانوا أكثر انشغالا بمتعتهم اليومية منهم حتى بسلامتهم الشخصية فى النهاية .

ولما كان الميل نحو الإبادة قد نما وتأصل فى نفوس الرومان إلى هذا الحد على مدى قرون عديدة ، فلا عجب أنهم كانوا يعتبرون الألعاب الرياضية الإغريقية غير طريفة ومتسمة بشيء من التخنث ؛ وذلك لأنه لم يوجد قدر كاف من الدماء والألم والرعب فى المباريات الرياضية البحت . فالتعفن كان قد ضرب أطنابه فى قلب الحياة التى استقرت أوضاعها فى روما ، بعد القضاء على قرطاجة ، منافستها التجارية الكبرى ، عقب الحرب البونية الثانية ، وبعد إخماد ثورة الأرقاء فى عصر الأخوين جراكوس . فمنذ القرن الأول قبل الميلاد ، ولجت روما باب تلك المرحلتين من مراحل الوجود الحضرى اللتين وصفهما باتريك جيديس بأنهما بارازيتوبوليس Parasitopolis وباثولوبوليس Patholopolis أى مدينة الطفيليات ومدينة الأمراض . وهكذا غدت روما وعاء لحياة سلبية ، حياة تنقلب على نفسها بسبب ما فيها من ألوان النشاط المنحرف الهدام . وفى هذا المجال ، قامت روما باستبقاء وتوسيع نطاق المساوئ التى يبدو أن كل الحضارات تتعرض لها ، وذلك أنها أوجدت شكلا معماريا وطقوسا عامة تحبذ دوام الإعراب عن هذه المظاهر السلبية . وعلى نحو ما نعده نحن للإبادة الذرية والبكتيرية ، فإن هذا الوضع قد هيأ متنفسا « عاديا » مقبولا لتصرفات لولا ذلك لكانت أعمالا ذهانية Psychotic تجل عن الوصف ويكره الناس الإفصاح عنها فيما

بينهم . فى حضارة سائرة فى طريق الانهيار عند ما تفوز الأعمال الجنونية والإجرامية بموافقة الكثرة العددية تصبح أعمالا « عادية » ، وحينئذ تغدو الإصابة بالمرض العام السائد هى معيار الصحة .

ولقد كان الأساس الاقتصادى لهذه الطقوس السادية ، هو أن الدولة كانت تعول الطبقة الفقيرة فى مدينة روما ، وذلك أن الخبز كان يوزع بانتظام على نحو مائتى ألف من السكان من مخازن حكومية فى أنحاء مختلفة بالمدينة ، فضعفت قوة الإغراء على ممارسة عمل منتظم أملا فى الوصول إلى مستوى أرفع من الناحية الاقتصادية ، ولا سيما فى روما ذاتها التى كانت تتمتع برعاية خاصة ، إذ أن الحاجات الرئيسية للحياة ، مثل الخبز ودور « السيرك » كانت ميسورة لعامة الشعب بلا مقابل ، أو بما يكاد يكون بلا مقابل فى حالة الحمامات .

ولزيادة تيسير التردد على هذه المشاهد ، فإنه منذ أمد مبكر يرجع إلى عهد كلاوديوس ، جعل عدد أيام العطلة العامة ١٥٩ يوما وخصص ٩٣ يوماً أى ربع السنة بأكملها لإقامة حفلات الألعاب على نفقة الخزانة العامة ، ولقد كانت تنفق مبالغ طائلة على إقامة الحفل الواحد من هذه الحفلات ، وكان ذلك هو ما يبرر فى نظر الشعب جشع الأغنياء وأعمال النهب والاغتصاب التى كان القادة العسكريون يرتكبونها . وهنا أيضاً كان أسلوب الحياة فى روما ، كنظيره فى أمريكا اليوم ، لايعرف حدوداً للمقادير ، فقد كانت إحدى آيات العطف الإمبراطورى منح عطلات جديدة على غير انتظار للاحتفال بأحد الانتصارات ، وبدلا من الحد من هذه العادة عند ما أخذت تضعف قوة روما ، فإن عدد أيام العطلات ازداد باطراد ، ففى سنة ٣٥٤ ميلادية كان يوجد ١٧٥ يوما لإقامة حفلات الألعاب ، وهو ما يبلغ ضعف عددها تقريباً فى عهد كلاوديوس ، على حين أن المجموع الكلى لعدد أيام العطلة العامة بلغ المائتين أو ما يزيد على نصف السنة .

وما من هيئة من المواطنين ، حتى ولا الأثينيين فى ذروة مجد إمبراطوريتهم ، تهيأت لها أبداً مثل هذه الوفرة من الوقت العاطل لملئه بشواغل سخيفة ، وحتى الولايات المتحدة التى يسود فيها استخدام الآلات ، ويتألف أسبوع العمل فيها من خمسة أيام ، لا يمكن أن تقارن بروما ، فإنه فضلا عن ذلك ، بعد حلول ساعة الظهر ، كان العمال الرومان — الذين استيقظوا ولا شك عند طلوع النهار — لا يقبلون أن يطلب إليهم التضحية بالمزيد من وقتهم . وقد استغرق قروناً تحول الحياة المفيدة الحافلة بالنشاط التى كانت روما تحياها فى صدر عهد الجمهورية إلى الحياة السلبية القائمة على التطفل التى سادت فيها آخر الأمر . بيد أنه فى النهاية أصبح حضور الحفلات العامة ، برية وبحرية ، بشرية وحيوانية ، هو الشاغل الرئيسى فى حياة الرومان : وكانت ضروب النشاط الأخرى تغذيها بطريق مباشر أو غير مباشر .

وكما أن الحياة « الحقيقية » اليوم فى نظر الملايين لا توجد إلا على شاشة التليفزيون ، على حين أن كل مظاهر الحياة العاجلة ثانوية ، إضافية ، وتكاد تكون بلامعنى ، كذلك لدى الرومانى ، أصبح النظام المعتاد بأسره لإقامة الحفلات نظاماً لا محيص عنه ، بمعنى أن الحفلات كانت يجب أن تقام باستمرار ، أو كان عدم شهود الحفلات بمثابة الحرمان من الحياة والحرية والسعادة . وكان سينيكا ، معلم نيرون ومرافقه فى شبابه ، يعتبر أن وجوده فى مباريات المجالدين لا يقل عن نزول محنة بنفسه ، ومع ذلك فإنه كان يذهب إليها . وكانت عادة التردد على مشاهدة الحفلات بانتظام قد تغلغلت فى نفوس الرومان إلى حد أن ماركوس أورليوس — وكان أرجح الأباطرة عقلا بلا مراء — لم يستطع القضاء على هذه العادة دون أن يخشى إثارة مشاعر الشعب ضده ، فقد كان من الخطر على الإمبراطور أن يظهر ، ولو بتغيبه عن الحفلات ، عدم استساغته الشخصية لها .

ولقد أصبحت الحاجة إلى مثل هذه الألوان من الترفيه الجماعي حتمية بقدر ما انطوى عليه باقي الحياة من عبث ، وحتى الحياة الفكرية في روما ، وهي لم تبلغ إطلاقا من الفطنة ما بلغته في المدن الإغريقية ، تكشفت عما يماثل ذلك من الفراغ والتفاهة . وعلى الرغم من أن روما لم تصل إلى حد ابتكار مشاهد الألغاز المغرم بها نظارة التليفزيون ، فإن الشعب أصبح يولي اهتماما بمثل هذا النوع من الأسئلة التافهة بتساؤله : كم عدد الرجال الذين كانوا يجذفون في سفينة اينياس ؟ وما الطعام الذي تناوله سكيبيو في الإفطار قبل أن يفتح قرطاجة ؟

ونصل بعد ذلك إلى مظهر حضرى جديد وهو « السيرك » ، وكان عبارة عن حظيرة انتظمت حولها أماكن المتفرجين في صفوف متدرجة ، حيث كان يتجمع عشرات الألوف من الرومان لمشاهدة مناظر العرض ، وكان بعضهم يقضي النهار بأكمله ، فقد كان العرض يبدأ في الصباح . ولعل تفوق الرومان في التغلب على المعضلات الهندسية قد بلغ ذروته العليا هنا ، حيث تمخض ما كان الرومان يجدونه من ابتهاج في القيام بأعمال ضخمة عن شكل معماري ، كان نجاحه في ذاته يعتمد على الضخامة والاتساع وانتظام أماكن النظارة صفوفا متدرجة على مرتقى شديد الانحدار .

ولقد كان من شأن هذا الشكل الجديد أنه أتاح استخدامه في أغراض أخرى عديدة . وبلغ من تغلغل حفلات الألعاب في الحياة الرومانية أن المسرح ذاته هجر تصميمه الأصلي ، فقد أصبح دائرة كاملة بعد أن كان شبه دائري . ولقد صحب هذا التغيير أن التمثيليات القديمة من الطراز الإغريقي تخلت عن مكانها لنوع من الأوبرا كان يعتمد على المؤثرات المسرحية ، ولم تلبث الأوبرا أن تطورت تدريجيا إلى تمثيل إيمائي pantomime . ولا شك في أن ذلك كان أمراً لابد منه إزاء عدد من النظارة كان أكبر من أن يستطيع سماع الكلمات بوضوح في الهواء الطلق .

ولقد أصبحت روما مجتلد المجتلدات ، حيث كانت تُقدم على وجوه النشاط العادية فى أى مدينة ما ، إقامة استعراضات ضخمة تثير مشاهدها انفعالات عنيفة فى النفس بما فيها من مظاهر الشهوة والتعذيب والقتل ، وكان أكثر هذه المشاهد براءة سباق العربات ، ولو أنه كان من الممكن أن تنقلب العربة وتطأ الخيل السائق بأقدامها ، ولابد من أن حدوث ذلك كان يشبع الرغبة الدنيئة فى رؤية الدماء تراق ، على نحو ما يمكن أن يحدث اليوم فى سباق السيارات . أما أخطر مشاهد المجتلد شأنا فقد كانت مبارزات المجالدين، فهى التى خلعت طابعا خاصا على المدينة فى تدهورها الذى أصبح علما عليها :

ولقد أدخل مبارزات المجالدين فى روما لأول مرة فى سنة ٢٦٤ ق . م القنصل دكيموس يونيوس بروتوس Decimus Junius Brutus بمناسبة تشييع جنازة أبيه . بيد أن الرومان حولوها إلى اتجاه أكثر منفعة باستخدام المباريات الدموية كوسيلة قريبة إلى مفهوم الشعب لمعاقبة المجرمين علانية . وكان المفروض أول الأمر أن يكون فيها من الزجر والتحذير بقدر ما فيها من المتعة . ولسوء الحظ أن المحنة التى كان السجين يكابدها سرعان ما أصبحت الملهاة التى كان المتفرج يرحب بها ، إلى حد أن إخلاء السجون من شاغليها كان لا يوفر من الضحايا عدداً يكفى لتلبية طلب الجماهير . وعلى مثال ما كان يحدث لدى الأزاتكة بشأن القرابين الدينية ، كانت توجه حملات عسكرية لإحضار عدد كاف من الضحايا البشرية والحيوانية . وهنا فى المجتلد ، كان كلا الفريقين من محترفين منحطين دربوا تدريبا تاما على حرفتهم ، ومن رجال ونساء لا ذنب لهم ولا جريرة على الإطلاق ، يعذبون بكل ما يصل إليه الخيال من وسائل تشويه الجسم وبث الرعب لإشاعة البهجة فى نفوس الجماهير . وهنا كانت الحيوانات المتوحشة تذبح ولا تؤكل كما لو كانت من بنى الإنسان .

لقد كانت المنشآت المميزة التى خلدت ذكر المدينة الإغريقية ، كالجيمنازيوم والمسرح ، مستمدة أصلا من مصدر دينى ، أى من الألعاب الجنازية وطقوس الربيع والحصاد . ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن روما ولكن مع فارق ، فى روما ، تحول الموت المفجع ، الذى صوره الدين بما يبعث على الشفقة والرثاء والتأمل الرزين فى سريرة النفس ، إلى تقتيل على نطاق واسع ، ينفث ما لايحد من الرعب دون أى مسحة من شفقة تخفف من وطأته ، على حين أنه فضلا عن ذلك فإن السفاهة السليمة التى كانت تنطوى عليها الكوميديا القديمة فى أتيكا ، بكل ماكان فيها من فكاهات سمجة حول شئون الجنس ، تحولت فى روما إلى تلاعب فاحش بكل أعضاء التناسل ، وفيه كان العاجز جنسيا يلجأ إلى السادية لتزييف الرغبة الجنسية وإثارتها . وهكذا نرى أن الحفلات الرومانية قد شوهت ولوثت حتى النوازع الحيوانية الصادقة .

إن العذر الأصلى الذى برر استبدال مبارزات المجالدين — لما فيها من فرصة وقف تنفيذ الأحكام — بالشنق الكئيب للمجرمين ، إن هذا العذر قد تلاشى أمام مطالبة الجماهير بقتل المبارز المهزوم دون شفقة ولا رحمة : سواء أكان مجرماً أم لم يكن ، وقد كان من أحب هـــذه الفظائع إلى الجماهير ، سلسلة القتل المتواصل ، وبموجبها كان يُختار أحد الضحايا بمفرده ليقتله آخر ، وهذا بدوره كان ينزع عنه سلاحه ويقتل وهكذا إلى آخر الصف . وما جرت به العادة فيما بعد من تقديم الفتيات المسيحيات بمثابة قرابين ذات صفة خاصة فى الحفل كان يضفى عليهن مزيداً من الإثارة ، وذلك برؤية العذارى البريئات يجردن من ثيابهن قبل الإلقاء بهن إلى الأسود ، ويقتضينى الإنصاف أن أضيف أنه من الثابت أن الجماهير طالبت بإخلاء سبيل أندروكليس Androcles ، حينما امتنع عن افتراسه الأسد الذى كان فى وقت ما قد انتزع شوكة من مخلبه ، فإن إظهار مثل هذه الروح الرياضية كان أندر من أن يصح إغفاله حتى فى الوقت الحاضر .

وأول المجتلدات الكبرى، وهو « سيرك » فلامينيوس Circus Flaminius الذى أقيم فى ميدان الإله مارس Campus Martius بجوار نهر التيبر فى سنة ٢٢١ ق . م . كان مبنى كبيراً . وقد استنبط هذا الشكل القديم من مضمار سباق الخيل المنبسط الذى يرجع إلى القرن الرابع وكانت تعد للمتفرجين مقاعد على التلال المجاورة . بيد أن يوليوس قيصر هو الذى أعاد بناء أقدم وأكبر المجتلدات – « سيرك » ماكسيموس Circus Maximus – وهو مبنى ما زال يستعصى بصورة خفية على أعمال الحفر والتنقيب . وقد بلغ من اتساعه أنه كان يحتوى ، طبقا لمصدر من القرن الرابع الميلادى ، على مايصل إلى ٣٨٥٫٠٠٠ مقعد للمتفرجين ، وإن كان كاركوبنيو يحدد عدد المقاعد بمقدار ٢٥٥٫٠٠٠ مقعد ، وكورتيوس Curtius يحددها بمقدار ثمانين ألفا ، ليس إلا : وعلى الرغم من أن سباق الخيل استمر زمنا أطول من مبارزات المجالدين – ولو لمجرد أن ذلك كان أهم أنواع المباريات المقبولة لدى بزنطة المسيحية – فقد كان « السيرك » أو بعبارة أخرى المسرح المعد للتعذيب على نطاق واسع ، هو المكان الذى بلغ فيه الشكل المعمارى أرفع درجات تطوره : فالكلوسيوم – الذى شرع فى بنائه فيسباسيان ، وأتمه تيتوس ، وزخرفه دقلديانوس – أصبح نموذجا للمبانى المماثلة فى المدن الصغرى ، على حين أن عدد مقاعده ٤٥٠٠٠ – أصبح مقياسا للاتساع : لم يوجد ما يجاوزه ، إلا فى روما ذاتها ، إلى يومنا الحاضر .

وحتى إذا قدرنا رقما منخفضا لكل مبنى ، فإنه يبدو أنه كان من الممكن استقبال نصف سكان روما تقريبا فى آن واحد فى مسارحها ومجتلداتها ، وهى نسبة أعلى بكثير مما كان ممكنا فى مدن أخرى ، إلى أن تسنى للوسائل الإليكترونية زيادة عدد المتفرجين وتوسيع رقعة المنطقة التى يمكن استقبال العرض فيها . وحتى فى مدينة ريفية صغيرة مثل بومبى ، كان المدرج يتسع لعشرين ألف نفس ، أى ما يحتمل أنه كان أكثر من نصف عدد السكان .

وهذا الاشتمال عينه كانت تتصف به الحمامات ، إذا أضفنا مئات الحمامات الخاصة إلى الحمامات العامة الأضخم حجما والأوسع نطاقا .

والواقع أن الحمام والمجتلد كانا الهبة الجديدة التى قدمها الرومان للتراث الحضرى ، فلوثه أحدهما وطهره الآخر ، وقد وضع تصميم كل منهما ليكون منشأة ضخمة من أجل الترفيه عن جموع كبيرة فى وقت كان فيه تنظيم الجموع الكبيرة يتطلب ضغط المساحة ونسبة عالية فى كثافة شغلها . وهذان النوعان من المنشآت قد ظهرا معاً فى عالم الوجود ، وتلاشيا معاً ، وفى خلال فترة وجودهما استنفدا من الجهود وضروب الرعاية والاهتمام ما لو أنه وجه إلى ناحية أكثر نفعاً ، لكان خليقاً بأن يملأ فراغ الحياة العامة من جديد ويحين على استعادة النشاط الذاتى . وإن المرء ليستطيع إدراك مدى تسلط حفلات المجالدين على النفوس من أن قنسطنطين الذى جرؤ على جعل المسيحية الدين الرسمى للدولة لم يبطل تلك الحفلات — حتى ولا مبارزات المجالدين . وأقصى ما فعله فى سنة ٣٢٦ ، هو أنه أوقف الإلقاء بالمجرمين إلى الوحوش . ولم تنته معارك المجالدين إلا على يد هونوريوس Honorius فى سنة ٤٠٤ ، أى ست سنوات قبل أن تقوم جيوش ألاريك Alaric البربرية بنهب روما .

وفى ذلك الحين كانت الأضواء القديمة التى سطعت فى العالم الكلاسيكى قد أخذت تنطفئ واحداً بعد الآخر . ففى سنة ٣٩٤ أقيمت آخر الألعاب الأوليمبية ، وفى سنة ٥٣٧ توقف جريان الماء فى حمامات كراكلا ، ولو أن العربات المحملة بالخشب لتسخين الماء كان قد وقف مجيئها بانتظام منذ سنين عديدة من قبل . وأبلغ من ذلك دلالة ، أن مدرسة أثينا — وهى أجل ما قدمته أثينا إلى هذه الحياة التى كانت فيما عدا ذلك قد أفرطت فى الانصراف إلى شهوات البدن — أغلقت أبوابها فى سنة ٥٢٩ . وعلى هذا فقد تلاشت معاً فى آن واحد كل من الحضارة الهيلينية

القديمة ، حضارة الجسم الذى يعنى ببنائه ، والعقل الذى يقوم بدوره كاملا ، وكذلك الحضارة الرومانية ، حضارة الجسم الخالى من العقل إلى حد كبير ، الخاضع لسلطان وجدانه والذى يعيش عالة على قوته .

ولا بد من أن مصير أسلوب الحياة الرومانية وتراث المدينة الرومانية كان قد تجلى فى المدرجات الكبرى قبل ذلك بأمد طويل ، أمام أولئك الذين كانت لهم أعين تبصر . وحينما أصبحت الحياة اليومية ذاتها أكثر بشاعة ولم يعد فى الاستطاعة حصر الإرهاب والألم والموت فى دائرة المجتلد ، لا بد من أن أولئك الذين كانوا يعون حقائق تلك الحياة أو يحسون بما فيها من شرور ، كانوا ينفرون من مثل هذه الألوان من ضروب التسلية ، فكانوا يتركون مقاعدهم الخالية واضحة للعيان فى ساحة العرض ، وكانت الثغرات فى صفوف المتفرجين تزداد اتساعاً كلما ازداد عدد السكان نقصاً . فمدينة الطفيليات كانت قد أصبحت مدينة الأمراض ، بل إن الأمر لم ينته عند ذلك ، إذ أن مدينة الأمراض تحولت إلى مدينة الأمراض النفسية عندما انفرد بالحكم المطلق فيها حاكم من طراز نيرون أوكاليجولا . وقد كان يعز إنقاذ مدينة أمراض كهذه ، حتى عندما تحولت إلى مدينة الاستبداد وحاولت أن تكفل الأمان ودوام البقاء بتجميد الوضع وتثبيته ، فإن ما فى العادة من قوة الاندفاع الذاتى ، وما فى الجموع من قصور ذاتى ، زادا من سرعة الانحدار إلى الهاوية ، وأصبح شعار الناس « فلينج بنفسه من استطاع » ، ولم تبق من مراحل تطور المدينة سوى مرحلة واحدة ، سرعان ما جاءت ، وكانت النكربوليس Necropolis أو مدينة الموتى .

وبحلول القرن الخامس كانت مشاهد العرض قد انتهى أمرها فى مركز الإمبراطورية ، بيد أنها استمرت لمدة ألف سنة أخرى فى الطرف الشرقى حيث تيسر لبيزنطة ، بفضل قوة إرادة هائلة ، أن تعدل مقومات الحياة

الرومانية إلى حد يكفى للاحتفاظ بمنظماتها على نحو عنى بتجميده — وقد امتازت على وجه خاص بالتحسينات فى فنون الحرب. وما زال يشاهد فى رودس بعض آثار ذلك الفن وتلك الحياة.

بيد أنه عند ما أصبحت المدرجات مجرد أوعية خالية، لم يختف الممثلون القدماء فجأة، وكنت تستطيع أن تراهم يهيمون على وجوههم فى الطرق الرئيسية لهذا العالم الرومانى القديم ويتوقفون فى رحاب بلاط أمير متبربر ويجتذبون جمهوراً من الناس حولهم فى أحد المعارض، وكانوا عبارة عن رافع الأثقال، والبهلوان، وراكب الخيل الجرىء، والرجل الذى يقود دباً، ولعل رجال «السيرك» القديم قد استمروا فى مزاولة ألعابهم — لأن صورتها ظلت عالقة فى الذهن الأوروبى، أو ربما تكون هى ذاتها ظلت سارية فى الدم، فرابطة الدم رابطة حية تصل كل جيل بآخر، وتنقل فنون الآباء إلى الأبناء — وكانوا أحياناً على قدر كبير من المغامرة، ولكنهم لم يعودوا مقضياً عليهم بالموت. وما كان لمدونات الرهبان التاريخية أن تتنبه إليهم ولا حتى أن تستطيع التعرف عليهم، لو أنها كانت على علم بوجودهم، بيد أن «السيرك» سواء أكان حقيقة أم خيالا، قد ظل باقياً فى عالم الوجود، وفى النهاية بعث حياً فى المدينة الحديثة. وما بقى من معارض الوحوش ودور «السيرك»، بعد تطهيرها من الأدناس الرومانية، ما زال يذكرنا بأسلوب الحياة عند الرومان، كما أنه يذكرنا كذلك بأن روما نفسها كانت ذات يوم «أعظم معرض على وجه الأرض».

٥ — ثبت بتراث القرن الرابع فى مجال العمران الحضرى

لقد كانت روما تشابه الإمبراطورية التى فتحتها، من حيث اتساع رقعتها وتراكم ثروتها، ولإنصاف ممتلكاتها يجب أن يعمد المرء إلى تعديدها وحصرها. فمنذ البداية كان كل شىء فى روما ضخماً هائلا، وكان هذا أبرز

سمات المدينة قبل أن تكون أفضل بكثير من مجرد قرية ، فإنه عندما أنشأ الملك سرفيوس السور الأول العظيم ، طوق به ما يزيد على ألف فدان ، كما لو كان ذلك حثاً على النمو الذى لم يكن قد حدث بعد . وكان ذلك السور ذاته يبلغ خمسين قدماً فى العرض ، أى أكبر مما كانت تدعو إليه الحاجة لمسير عربتين حربيتين جنباً إلى جنب . وإذا كان يتعذر تفسير سمك أسوار أريحا فى عهدها المبكر بالنظر إلى أن الفن الحربى للهجوم كان عندئذ بدائياً ، فإنه لا يوجد تفسير معقول كذلك لسمك أسوار روما .

ومن المحتمل أن مساحة روما وعدد سكانها ظلا فى ازدياد متواصل حتى أواخر القرن الثالث بعد الميلاد ، وكانت روما ، بعد إحاطتها بالسور الذى أقامه أورليانوس فى سنة ٢٧٤ ميلادية ، تشغل مساحة قدرها ٣٢٣ر٣ فداناً ، على حين أن المجموع الكلى لمساحة المناطق التى شيدت فيها مبان — بما فى ذلك مساحة المنطقة التى أقيمت فيها مبان خارج السور مباشرة — كان يبلغ نحو ٩٤٠ر٤ فداناً ، طبقاً لما يذكره كاركوبينو ، أى مساحة مدينة هائلة حتى فى العصور الحديثة .

وأول ثبت شامل لمحتويات روما ، يرجع لسوء الحظ إلى تاريخ متأخر ، فقد وجد فى إحصاء رسمى أجرى فيما بين سنتى ٣١٢ و ٣١٥ ، أن مجرد سرد المحتويات يكفى لملء فراغ المعالم الغامضة للأنقاض الباقية . وهذا هو الثبت : ٦ مسلات ، ٨ قناطر (كبارى) ، ١١ حماماً عاماً ، ١٩ قنطرة لحمل قنوات المياه ، وداران « للسيرك » ، ومدرجان ، وثلاثة مسارح ، و٢٨ داراً للكتب ، و٤ مدارس للمجالدين ، و٥ ساحات مائية لعرض معارك البحر ، و٣٦ قوساً رخامية ، و٣٧ بوابة ، و٢٩٠ مبنى لتخزين السلع ، و٢٥٤ مخبزا عاما ، و ١٧٩٠ قصرا ، و٦٠٢ر٤٦ من عمائر السكنى .

ويضيف لانشانى إلى ذلك ٩٢٦ من الحمامات الصغيرة التى كان أصحابها

يديرونها لحسابهم الخاص – ووفقاً لتقديره كان ٦٢٫٨٠٠ من المواطنين يستطيعون الاستحمام فى أى لحظة – و١٨ فورما أو ميداناً عاماً و٨ ساحات عامة كان الحشيش يكسوها طوال العام ؛ وكانت الجماهير تستخدمها – كما يلاحظ إسترابون – فى « لعب الكرة ودحرجة الأطواق أو فى المصارعة » ؛ وكذلك نحو ثلاثين من الحدائق والبساتين التى أنشأها بعض الأثرياء فى مبدأ الأمر لمتعتهم الخاصة ثم أدمجت على مر الزمن فى الأملاك العامة . على أن هذا لا يتضمن ما ذكره ت . ج . تكر T. G. Tucker عن وجود ٧٠٠ من برك الماء أو الأحواض العامة و ٥٠٠ نافورة كانت تستمد ماءها من مائة وثلاثين خزاناً أو مركزاً لتجمع الماء . ونذكر عرضاً أنه ربما كانت هذه الأخيرة أعظم ما يبهر الأبصار مما خلفته روما القديمة للمدينة الحديثة ، وتشهد بذلك إلى الآن نافورة تريفى Fontana di Trevi .

ولنضف إلى هذه المدينة ، مدينة الأحياء ، مدينة أخرى للموتى ، وإنى لا أعنى فقط الجبانات والنصب التذكارية ، فلقد كان هناك بالإضافة إلى ذلك حشد كبير من التماثيل ، كان منها ٣٫٧٨٥ من البرونز وكانت كلها تبلغ فى مجموعها ١٠٫٠٠٠ تمثال ، حتى إن كاسيودوروس Cassiodorus كان على صواب فيما لاحظه من أن روما كانت تضم فريقاً ثانياً من السكان قُدّوا من الحجر والبرونز ووضعوا فى مواقع تفضل مواقع الأحياء من وجوه كثيرة . ولقد تناقلت روما هذا التقليد عبر العصور ، فحدائق روما الحديثة لا تكاد تكون متخلفة عن المدينة القديمة – بل هى تسبق بكثير أى حدائق منافسة أعرفها – فى عدد ما تفاخر به من التماثيل النصفية والكاملة لمختلف الشخصيات .

ولقد قال أريستيديس Aristides فى رسالته فى مديح روما : « يأتى إليك من كل البلاد والبحار ما تتمخض عنه فصول السنة ، وما تنتجه كل الأجواء ، وما تجود به الأنهار والبحيرات ، وما تصنعه أيدى الإغريق

أو البربر ، فمن شاء إذن أن يرى ذلك كله ، فعليه إما أن يطوف كل أنحاء الأرض، أو أن يبقى فى هذه المدينة ، لأن ما تعمله الشعوب الأخرى وتنصب فيه موجود هنا على الدوام وفى وفرة تزيد على الحاجة » .

وذلك هو أفضل تبرير لنمو المدينة نمواً تجاوز الحد ، فإن المحتويات العامة وحدها لهذا الوعاء ظلت تنفخ فيه حتى انبسط فيما يبدو إلى حد الانفجار ، لأنه اتخذ من عدم الاختيار ذات المبـــدأ الذى يقوم عليه كيانه . وإلى أن ابتكرت مدينة القرن الثامن عشر المتحف بوصفه مظهرها الخاص بها، كانت المدينة نفسها تؤدى غرض المتحف .

بيد أن هناك وجهاً آخر لوصف هذا الخليط الحضرى الهائل ، حيث كان كل شىء إما للتظاهر وإما للبيع – وقد صدر هذا النقد الدقيق عن لوكيانوس Lucianus ، فهو يقول : « إن رجلا يحب الثروة ويسترقه الذهب ويقيس السعادة بمعيار الجاه والسلطة ، ولم يذق طعم الحرية أو يخبر حرية الكلام أو يتأمل فيما هو الحق ، ويسير التملق والتذلل فى ركابه على الدوام ، رجلا أسلم نفسه إلى اللهو دون ما قيد ، وعول على ألا يعنى إلا به ، وأولع بباهظ المأكل ، وأغرم بالشراب والنساء ، وامتلأت نفسه بالخديعة والغش والكذب » إن من كانوا على هذه الشاكلة من الناس « يجب أن يعيشوا فى روما ، لأن كل شارع وكل ميدان عامر بالأشياء التى يكنون لها أعظم التقدير » .

وبعد استيعاب منشآت روما الحضرية فى أقصى ما بلغته أرقى أطوار إسرافها ، تظل روما مع ذلك ، باتساعها الشاسع وما فيها من سوء النظام ، المثل الكامل المجسم للمادية التى لا هدف لها ، أى من قبيل نوع ممتاز من نصب فكتور إمانويل سبق بزمن طويل إقامة ذلك التمثال الضخم الدال على فساد الذوق . فهى بمساحتها فى ذاتها ، كانت تجعل المرء عاجزاً عن الإحاطة بها جميعاً بالنظر إليها من قمة أى تل واحد من تلالها ، مثلما كان يستطيع الإحاطة بأثينا ، كما أنها بوفرة ما فيها وفرة تكاد تبعث على السقم ، كانت

تجعل الانتقاء والتوجيه المنظم من الأمور العسيرة . وحتى فى الوقت الحاضر نجد أن أقدم مجموعة من مبانيها ظلت تستخدم على وجه مستمر ، وهى أعظم مجموعة واحدة من ذخائرها وآثارها — ونعنى بذلك مدينة الفاتيكان — لا تزال حشدا خانقا من المنشآت ، على نحو ما كانت عليه سلفتها الحضرية العظمى ، ولو أن رواق الأعمدة البديع الذى أقامه برنينى Bernini قد جعل اكتظاظها محتملا من الناحية الجمالية — بطريقة رومانية قحة .

ولقد ظلت روما لمدة تزيد على ألفى سنة فريدة فى بابها كرمز لأقصى ما يحتمل أن يصل إليه سوء النظام الحضرى ، بالجمع بين ما هو منظم وما هو عرضى ، وما يمليه العقل وما تقتضيه الأهواء ، وما سما قدره وما انحطت مكانته . وكما هو الشأن فى لندن اليوم ، كان فيها مما يوافق ذوق كل إنسان ، ولعلها كانت مليئة كذلك ، مثل لندن ، بأشياء جيدة لم يتوقعها أحد ولم تخلف آثاراً تدل عليها .

ومن الواضح أن روما كانت مصابة بمرض التضخم والنمو المفرط . وعند البحث فى أمر كائن حى مصاب بمرض خطير أصبح مزمنا ، ينشأ لدى الإنسان ميل طبيعى إلى الاعتقاد بأن الحالة المرضية — التى كثيراً ما تكون لها نتيجة شاملة الأثر — تلم بكل أجزاء كيانه . ومن الجلى أن هذا خطأ ، فإنه ما دام الكائن باقيا على قيد الحياة ، فلا بد من أن أعضاءه الرئيسية تقوم بأداء وظيفتها على نحو قريب من حالتها العادية ، أو على الأقل على نحو فيه من حسن الأداء ما يكفل استمرار البقاء . ولقد كان هذا شأن روما ولا شك ، فعلى الرغم من أنها كانت تشتمل على عدد من الخلايا المرضية أكبر مما يجب أن يتحمله جسم سليم ، فإن الشطر الأكبر منها كان لا يزال فى وسعه القيام بوظيفته كمجتمع إنسانى ، فقد كان المحبون يتبادلون هدايا الحب ، وكان الآباء يسهرون على رعاية أبنائهم ، ويجدون فيهم متعة ، ويدبرون ويضعون الخطط من أجلهم ، وكان الصناع ، أرقاء كانوا أم

أحراراً ، يمارسون حرفهم باهتمام وإخلاص ، ولم يحدث أنهم حاولوا الهرب من المدينة وما بها من أنظمة بشعة إلا فى أواخر عهد الإمبراطورية ، عندما حولت حرفهم إلى مهن إجبارية وراثية .

وأكثر من ذلك فإن منظمات جديدة ظهرت للتعويض عن انحلال المنظمات المدنية والحياة الأسرية ، وذلك أنه حتى قبل أن يتهيأ لعبادة ميثراس Mithras أو عبادة مانيس Manes[1] أو المسيحية أن تجد لها أتباعا ظهر إلى الوجود تجمع مدنى جديد وهو الرابطة college ، وهذه الرابطات هى التى خلفت اجتماعيا النقابات guilds الثانى الأصلية — وكانت هيئات اقتصادية لم تتمتع يوما برضا السلطات العامة — وسبقت نقابات الحرف التى عادت إلى الظهور فى سجلات أوائل القرون الوسطى . وذلك أنه على الرغم من أن السلطات كانت تنظر بعين الريبة الشديدة إلى الجماعات التى تجتمع بانتظام — ولاسيما إذا كان ذلك سرا — فقد أصبح من المحتم فى القرن الثانى للميلاد الترخيص بإنشاء الرابطات بوصفها منظمات اجتماعية تعنى بواجب الاحتفال بدفن أعضائها على نحو لائق ، وبتقديم وجبة خفيفة شهريا للأحياء منهم .

وكان يسمح للأرقاء بالانضمام إلى هذه الرابطات ، فكانت بذلك تهيئ صلة من الزمالة للتغلب على إغفال وجودهم ، وعدم حماية القانون لهم ، أى على ما كانوا يحسون به من العزل الروحي والاجتماعى فى المدينة التى تجاوزت الحد فى نموها . وقد حافظت هذه الجماعات إلى حد ما على الطقوس القديمة للأسرة التى كان مجرد إمكان إقامة شعائرها قد بات مستبعداً بحكم فرط الازدحام فى المساكن . وإن النقوش والنصب التى خلفها أفراد مغمورون من أرباب الصناعة والتجارة فى كل جزء من أنحاء العالم الرومانى ، لتدل على إحساس بالرضا عن أعمالهم ، وعلى شعور باحترام النفس ، فقد كان

(١) كانت هاتان العبادتان من العبادات الشرقية التى انتشرت فى الإمبراطورية الرومانية قبل اتخاذ المسيحية دينا رسميا فى القرن الرابع الميلادى .

من دواعى الفخر لديهم أن تُنحت صورهم على نصب قبورهم ومع الحداد مطرقته ، ومع صانع الجرار جرته . ولولا بقاء هذا الأساس الكبير للحياة العادية السليمة لكانت روما قد تداعت وانهارت قبل أن يحدث ذلك بمئات السنين .

أجل فإنه بعد الفراغ من تعداد أسوأ ما عرف عن روما من ناحية العمران الحضرى لا بد من إضافة كلمة أخرى ، وهى أن الناس — وحتى القديس جيروم — كانوا يحبونها إلى النهاية ، فإنها عندما لم تعد إلا شبحاً لما كانت عليه فيما مضى ، وقد وخط المشيب شعرها وملأت التجاعيد وجهها ، على مثال الغانية العجوز التى صورها رودان Rodin كانوا لا يزالون يذكرون ما كان لها فى أيام نضجها من عظيم الحيوية والطلاوة — إن لم يذكروا ما كان لها فى أيام شبابها من طهارة لم تلوثها الشوائب . وما من شىء أحبه الناس يوماً يمكن أن يكون خسيساً بأكمله ، وإن ما استمروا يحبونه على مدى القرون ، لا بد من أنه كان فيه بعض ما يستحب ، على الرغم من كل الظواهر .

وأكثر من ذلك ، فإن ورثة روما المسيحيين ، على الرغم من ذكرياتهم الأليمة عن المجتلد والتجائهم المحزن إلى المقابر ، اختاروا روما لتكون حجر الأساس الذى يشيدون عليه مدنية حضرية جديدة . وعندما انقرضت عبادتا ميثراس ومانيس — وكانتا لا تزالان تنبضان بالحياة فى عهد أوجستين — وتولى المسيحيون إقامة حياتهم بأسرها على أساس جديد ، كانوا يرون فى المدينة التى تلفظ أنفاسها الأخيرة مركز عالم جديد . ولقد بقيت روما على مدى القرون محافظة على مكانتها كمدينة ، على نحو أفضل مما تسنى لهيبو أو بيت لحم أو أنطاكية . وفى النهاية جاءت من روما طوائف الأخوة المسيحية التى أعادت استعمار الإمبراطورية القديمة روحياً ، وبسطت نطاق سلطانها فى الأرض ، وعلى هذا النحو ظلت روما باقية بمثابة خزان

إنسانى . وإنه لم يكن ميسوراً لينابيع أكثر صفاء – كينابيع أيونا Iona – أن تبعث بمياهها إلى هذا المدى البعيد ، ولا أن تنفذ رسلها على مثل هذه الطرق التى أحكم تشييدها .

٦ – حدود النمو الحضرى

روما إذن هى المثال الأعظم لما دعاه عالم الأحياء الفطن و . م . هويلر « أبآو » Abbau أو عملية التفكك ، فإن انحلال روما كان النتيجة المحتومة لتجاوزها ، المدى فى نموها فهو الذى جعلها تنحرف عن النهوض بأعبائها ، وتفقد السيطرة على العوامل الاقتصادية والقوى البشرية التى كان لا بد منها لاستمرار بقائها . وعند نقطة ما ، كان يجب أن يكون النظام الرومانى قد تسامى ، وأصبح فى وسعه عن طريق التعليم ، الاحتفاظ بالنظام دون الالتجاء إلى القوة السافرة وإلى القهر والاغتصاب ، ولكنه لم يبلغ هذه النقطة إطلاقاً ، لأن روما لم تصبح فى نظر الآخرين نموذجاً مرغوباً فيه للتعاون المنظم بين المدن وإنما أصبحت مثالا ينطوى على التهديد باتساع لا يحد ، واستغلال لا يعرف وخز الضمير ، وتشبع بالمادية إلى أقصى حد .

ولقد كان ما تفتقر إليه أداة الحكم الرومانى هو نظام داخلى للتحكم يطبق فى روما وفى مدن الاستعمار الجديدة سواء بسواء . ولو أن روما أوجدت مثل هذا النظام ، وعمدت إلى ضبط النفس على هذا النحو ، لأمكنها ، بفضل ما توافر لديها من مواهب عظيمة فى التقنين والتنظيم ، أن تهيئ عنصراً عالمياً ضرورياً كان يفتقر إليه طراز الاستعمار الأيونى . ولما كان التوفيق لم يحالف روما فى ذلك ، فإن أهم ما أسهمت به فى تطور المدينة هو الدرس السلبى الذى يستمد من نموها نمواً مرضياً تجاوز

المدى . والظاهر أنه درس يصعب استيعابه إلى حد أن مدينة بعد أخرى اتخذت من مجرد توسعها المادى والاقتصادى دليلا على رخائها وحضارتها .

ولهذا السبب فإنى قد أفضت فى الكلام عما كان فى روما من فوضى فى شئونها الصحية ، وعن نظم حياة التطفل فيها ، وعما أوجدته من مهرجانات الإبادة على سبيل التعويض عما فيها من وجوه القصور . وإن فى تكرار انحطاط وانهيار المدنيات واحدة إثر أخرى من بعد أن تكون قد أصبحت ذات قوة وبأس وسلطة مركزية ، لدرس يستطيع المرء أن يطالع فيه العجز عن الوصول إلى حل جذرى لمشكلة اتساع النطاق . فكل عاصمة مركزية كبرى تجاوزت المدى اليوم فى نموها ، وكل إقليم خارج تلك العاصمة لكنه متأثر بالحياة فيها ، تبدو عليها جميعاً نفس أعراض اختلال النظام مقرونة بما لا يقل عن ذلك شأناً من الأعراض المرضية ، أعراض العنف والانحـــلال الخلقى . وإن أولئك الذين يغمضون عيونهم عن هذه الحقائق ، ليرددون فى تقليد رائع الألفاظ والأعمال نفسها التى تضارع فى عدم التبصر ما كان يصدر عن أسلافهم من الرومان .

وعند البحث عن نقطة كان يمكن عندها التحكم فى نمو روما ، يدرك الإنسان أن ما ينشده كان يكمن فى نظامها السياسى بأجمعه ، فإن مشكلة روما كانت فى جوهرها ، مشكلة ابتكار وسيلة لنشر سلطانها ونظامها بحيث تجعل من الإمبراطورية بأسرها منظمة متوازنة تتصل أجزاؤها ببعضها بعضاً ، ويقوم فيها التعامل والتعاون بين جميع الأجزاء الحضرية والإقليمية التى تتألف منها على أساس التبادل . وكما بينت آنفاً ، لقد بدئ فى ذلك عند إنشاء مدن الاستعمار الجديدة فى إيطاليا فى السنين الأخيرة للجمهورية ، ولعل ذلك قد حدث أيضاً عند إنشاء المدن الأفريقية .

ولسوء الحظ لم تصل هذه الحركة إطلاقاً إلى حد محاولة تمكين المدن والولايات من أن يقوم فيها حكم ذاتى أكثر ديمقراطية ، ومن أن تكون

أكثر اكتفاء ذاتياً ، فإن أكثر مما ينبغي من الفائض فيها كان مصيره التدفق إلى روما بحكم الأساليب المعوجـــة التى اتبعها جباة الضرائب والحكام العسكريون . وكثيراً ما كانت المدن تمنح قسطاً من الاستقلال فى داخل نطاق هذا النظام ، بيد أن ماكانت الحاجة تدعو إليه هو تشجيعها على تبادل الاعتماد على بعضها بعضاً ، ومنح مناطقها تمثيلا فعلياً فى روما . ولكن يبدو أن هذا الاحتمال كان بعيداً عن تصور الرومان ، على الرغم من كل ما كانت الألسن ترد ده تمجيداً لفكرة زينون عن وحدة الإنسانية ، فلقد أحضروا إلى روما آلهة تلك المدن وأقاموا تماثيلها فى البانثيون ، ولكن لم يكن هناك مكان فى الكابيتول لممثلى تلك المدن من البشر .

ولقد أبدى شيشرون فى كتابه « القوانين » أن « لكل أبناء المدن الإيطالية وطنين » أحدهما بحكم الطبيعة والمولد ، والآخر بحكم حقوق المواطنة ، بيد أن هذين الوطنين لم يكونا فى مرتبة واحدة حتى فى إيطاليا ، على حين أنه فيما وراء جبال الألب كان الرومان فى أيام شيشرون يحرمون على أهل تلك البلاد حق زراعة الزيتون والكروم « لكى تكون أحراشنا من أشجار الزيتون أغلى قيمة » . ومن ثم تكون روما قد واصلت مزاولة عادات الاحتكار القديمة للقلعة العتيقة ، وهى عادات كانت قد أثبتت خلال ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة أنها أشد إضراراً بنظام سياسى يستهدف اتحاداً دائماً ويقوم على التعاون ، حتى من الانفصالية التى اتسمت بها الدول الصغيرة فى بحر إيجة .

ولقد كان السر فى سيطرة روما مبدأ « فرق تسد » ، فللحيولة دون اتحاد المدن الصغيرة على روما ، كان الشريك المسيطر يشجع فى الواقع قيام التنافس بينها لئلا تتوحد صفوف ولاية بأكملها وتواجه روما بقوتها المتحدة . ولو أن نظام الحكم الرومانى كان قد أقيم على أساس من العدالة والمشاركة المتساوية فى المسئوليات والمزايا ، لما كانت هناك ضرورة إلى ذلك . والواقع أنه فى حالة أجزاء بعيدة من الإمبراطورية ، مثل رودس ، كان يسمح بنصيب كبير من الحكم الذاتى والاستقلال الثقافى ، ولم تكن هناك حاجة

إلى المساعدة الفعلية إلا فى حالة الحرب . وأما فيما عدا ذلك فإن الصلة كانت قائمة على السيطرة من جانب ، والخضوع من جانب آخر ، بل إن النظام الاقتصادى الروما فى كلما أصبح تدريجاً أكثر تطفلا وتبعاً لذلك أكثر اعتماداً على الحقول والمصانع النائيــة لتزويده بحاجاته من الحبوب والمعادن والمنسوجات والبردى والفخار ، أصبحت الصلة أكثر اتصافاً بأنها احتكارية ، ومن جانب واحد . وكما أوضح و . ا . هيتلند W. E. Heitland أن ما كانت الحاجة تدعو إليه كان أمراً يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، وهو « توثيق عرى قواها توثيقاً حقيقياً يمكن السلطة المركزية والأجزاء المنفصلة من العمل معاً كوحدة حية » .

وكان ذلك لا يعنى مجرد انفراد المدن بإدارة شئونها الخاصة وقيام الحكم الذاتى فى الأقاليم ، بل إنه كان يعنى كذلك إنهاء نمو روما نمواً مفرطاً ضاراً ، ويبدو أنه قد أمكن تحقيق مثل هذه الحالة فى بلاد الغال فى القرن الخامس عن طريق العوامل نفسها التى أدت بروما ذاتها إلى وضع لا يمكن الدفاع عنه ، ولعله يمكن اعتبار الصراع نفسه الذى قام فى وجه سلطة روما الزائدة فى داخل الكنيسة المسيحية — ويتمثل هذا الصراع فى ظهور هرطقة بعد أخرى فى الولايات من إنجلترا إلى أفريقيا — لعله يمكن اعتبار ذلك الصراع محاولة للإعراب بالمعتقدات الدينية عن الاستقلال الذى كانت الدولة الرومانية تنكره فى غير هذا المجال . بيد أن هذا التحدى كان قد فات أوانه ، فإن روما كان يعوزها الأساس لقيام التعامل على قاعدة التبادل ، نظراً إلى أنه لم يكن فى وسعها فى النهاية أن تعطى بقدر ما تأخذ . وأن روما بجعل حصول المدن على حق التمتع بالحكم الذاتى متوقفاً على إرادة السلطة المركزية ، قد زجت بالمدن فى عباب ما كانت هى ذاتها تعانيه من أسباب الضعف المتراكمة .

ولقد كانت هذه الأخطاء الخطيرة مستورة جزئياً فى خلال عهد السلام الرومانى ، فالمدن الجديدة كانت تقام بلا أسوار ، والمدن القديمة كانت تغفل

العناية بتحصيناتها . ولكن عند ما أخذ المتبربرون ينفذون خلال التحصينات المترامية الأطراف إلى ما يجاوز الحد – وحتى فى عهد هوراس كانت تقع على الجيوش الإمبراطورية اعتداءات شائنة – أصبحت الحاجة ملحة إلى الأسوار المحلية . وعندئذ كانت مدن على مقربة من روما ، قرب أوستيا منها ، تُشجع على إقامة الأسوار للدفاع عن نفسها – ولكى يتسنى لها أن تفعل ذلك ، استلزم الأمر أن تهدم معابدها للحصول على ما يكفيها من الأحجار المجهزة لمواجهة الحالة الطارئة على الفور . ولقد كان هذا استقلالا ذاتياً ينطوى على نوع من الثأر ، ذلك أنه لم يكن نقلا للسلطة طواعية إلى من كانوا خير من يحسن استخدامها ، بل اعترافاً مكرهاً بعجز الإمبراطورية .

إن روما لم تواجه إطلاقاً مشكلة نموها المفرط ، فهى لكى تفعل ذلك كان يتعين عليها أن تتحدى فى آن واحد الأساس السياسى والأساس الاقتصادى للنظام الإمبراطورى بأكمله . وبدلا من تقوية المركز الاقتصادى والحربى للمدن الصغيرة ، ولا سيما فى ألمانيا وإنجلترا وبلاد الغال ، فإن روما واجهت التحدى الذى كان ينطوى عليه نموها المفرط بعملية التفتيت التى تمخضت عنها إمبراطوريتان فى الغرب وفى الشرق تتولى كل منهما شئون نفسها بنفسها . وفى عهد قنسطنطين وخلفائه أصبحت روما الشرقية ، أى بيزنطة ، صورة مقابلة للأصل ، استوفت خبرة بشؤون العالم وتطهرت شيئاً ما ، ولديها لفيف من الصناع أكثر تمرساً بأسرار الصناعة ، وجيش أفضل نظاماً ، ومنهاج للحياة أشد جموداً وأكثر قيوداً . وعلى مدى ألف سنة جعلت بيزنطة من وقف التطور أمراً يمليه الشعور بالواجب .

إن أولئك الذين كانوا لا يزالون يرون فى القرن الرابع أن الإمبراطورية الرومانية ستعمر ألف سنة أخرى ، كانوا على صواب ، من حيث إن روما كانت تقترن فى نظرهم بمدينة قنسطنطين الجديدة . بيد أن بيزنطة

عندما تغلبت على ما كان فى روما من سوء النظام وحياة طفيلية ، أنشأت وعاء كان الكائن الحى ، على مر القرون ، يزداد فيه انكماشاً فى الحجم ، كما كانت حركاته تزداد تقييداً باطراد . ونتيجة لذلك انكمشت الإمبراطورية الشرقية إلى ولاية ، والولاية إلى إقليم حضرى ، وفى النهاية تقلص ذلك الإقليم حتى أصبح لا يتجاوز حدود المدينة ، وفى داخل أسوارها عاد الناس إلى زراعة البقع الخالية من الأرض لإنتاج القوت لآخر من بقى من سكانها قبل أن يسلموا للأتراك . والكثير مما كان نفيساً فى روما احتفظ به فى بيزنطة على هيئة حفريات أنيقة ، ومثل ذلك مجموعات تشريعات Pandects جوستنيان ، ومختارات من الأدب الإغريقى ومن التصوير بالفسيفساء . وما زالت رافنا Ravenna ، وتورشيللو Torcello تكشفان عن وهج الجمرات القائمة فى تلك النيران التى أخذت تخبو .

ولو أن روما أوتيت قدراً كافياً من الوعى لإدراك حقيقة مركزها ، وقدراً كافياً من الفطنة للعمل بما يستوجبه ذلك الوعى ، لربما تسنى لها أن تسدى لعالم البحر المتوسط بأسره من الخدمات ما كان ليسياس Lysias قد استحث الإسكندر على إسدائه لبلاد الإغريق . فلربما تيسر لروما أن تصون وتنشر النظام الاقتصادى للمدينة المستقلة استقلالا ذاتياً ، وأن تدمج فى الوقت ذاته هذه المدن والأقاليم فى دائرة أوسع نطاقاً على أساس من الاتحاد السياسى والتبادل الاقتصادى . وهذا فى الواقع هو الطريق الذى بدا أن الإمبراطورية كانت مستعدة لسلوكه فى البداية ، إلى أن أفضت ضراوة الحرب البونية الثانية إلى ما أصاب قادتها من انحلال خلقى شامل . بيد أن الرومان لم يواجهوا إطلاقاً هذه الحقائق الثقافية والحضرية ، ذلك أنهم ازدادوا اندفاعاً وراء بناء قوتهم ووراء الأمارات المادية الدالة عليها بوصفها قيما لها شأنها فى ذاتها ، والحقيقة أنهم فى جريهم وراء الثانية أضاعوا حتى الصفات الصلبة التى كانت تدعم الأولى .

وقد بقيت روما ، من حيث السياسة والعمران الحضرى معاً ، درساً يسترعى النظر لما يجب تفاديه ، فإن تاريخها يعرض سلسلة من نذر الخطر البالغة الأهمية لتحذير المرء عندما تكون الحياة ماضية فى الاتجاه الخاطئ . فحيثما تحتشد الجموع فى أعداد خانقة ، وحيثما ترتفع أجور المساكن ارتفاعاً باهظاً وتتدهور حالة السكنى ، وحيثما يكون الاستغلال من جانب واحد للأقاليم النائية سبباً فى إزالة الضغط لإيجاد التوازن والتناسق فيما هو أقرب متناولا — فحيثما يحدث كل ذلك تكاد تبعث من تلقاء ذاتها المبانى الرومانية السابقة ، على نحو ما بعثت اليوم ، كساحة الألعاب الرياضية ، والعمائر الشاهقة ، والمسابقات والمعارض الكبرى ، ومباريات كرة القدم ، والمسابقات الدولية للجمال ، والتجرد من الثياب قطعة فقطعة ، وهو ما جعلته الإعلانات أمراً شائعاً يجرى فى كل مكان فى آن واحد ، والإثارة المتواصلة للحواس عن طريق الجنس والشراب والعنف — وكل ذلك بأسلوب رومانى قح . وكذلك الشأن أيضاً فى الإكثار من حجر الحمامات ، والإفراط فى الإنفاق على الطرق العريضة المرصوفة للسيارات ، وفوق كل شيء الانكباب الجماعى الواسع النطاق على مختلف أنواع ذلاقة اللسان فى أمور تافهة فانية تؤدى فى جرأة فنية ممتازة . وما هذه إلا أعراض النهاية : فهى ضروب من التضخيم لقوة أصابها الفساد والانحلال ، ومن التهوين من شأن الحياة . وعندما تتضاعف هذه الأمارات ، فإن مدينة الموتى Necropolis تكون قد قربت ، ولو أن حجراً واحداً لم يصبه الانهيار بعد ، وذلك أن المتبربرين قد سبقوا فوضعوا يدهم على المدينة من الداخل ، فأقدم أيها الجلاد ! أقدمى أيتها الرحمة !

التصميم الأساسي للغلاف : أسامة العبد
الإشراف الفني : حسن كامل



تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



يهدف هذا الكتاب إلى دراسة التحضر الإنساني، بما يعنيه من انتقال الإنسان من الوجود الفردي إلى الوجود الجماعي، فصارت هذه الجماعة فكانت أسرة، أو كبرت قليلاً فصارت قرية، أو وصلت إلى منتهى الاتساع فصارت شعباً في مدينة. وهكذا، يدرس الكتاب عملية استقرار الإنسان بمراحلها وأنواعها وما احتوى عليه ذلك الاستقرار من وسائل حماية ورعاية وترف. بالإضافة إلى العوامل التي دفعته إلى الانتقال من مقر إلى مقر، أو من مرحلة استقرار إلى مرحلة أخرى، وهل استطاع الاستجابة إلى كل تلك العوامل أو تلبية كل ما طمح فيه، إلخ؟

جملة القول إن الكتاب عبارة عن قصة الحضارة الإنسانية بكل ما لها وما عليها، ويتبع منهجاً دقيقاً في العرض يثير الاهتمام ويضع القارئ على الطريق الصحيح.